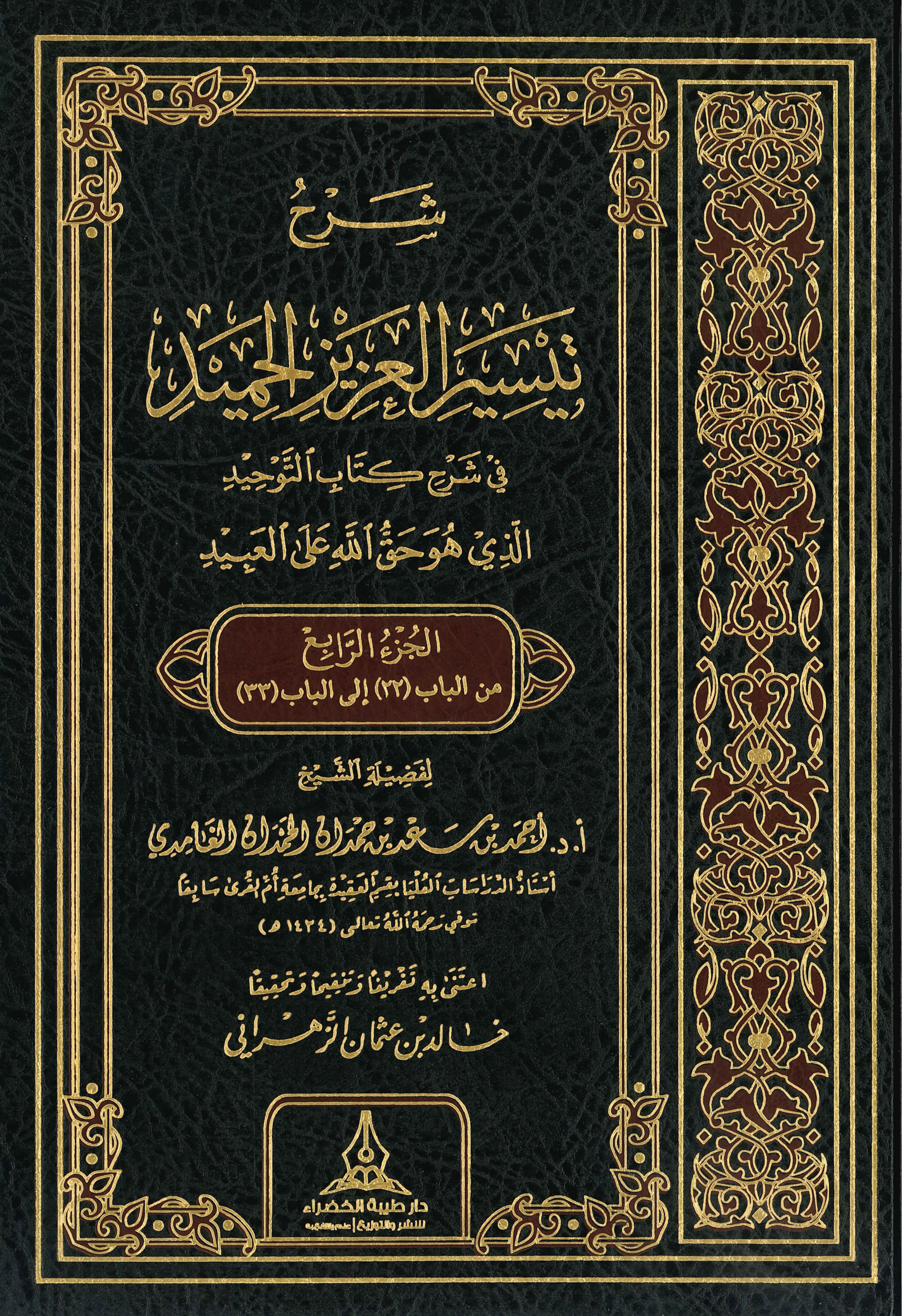
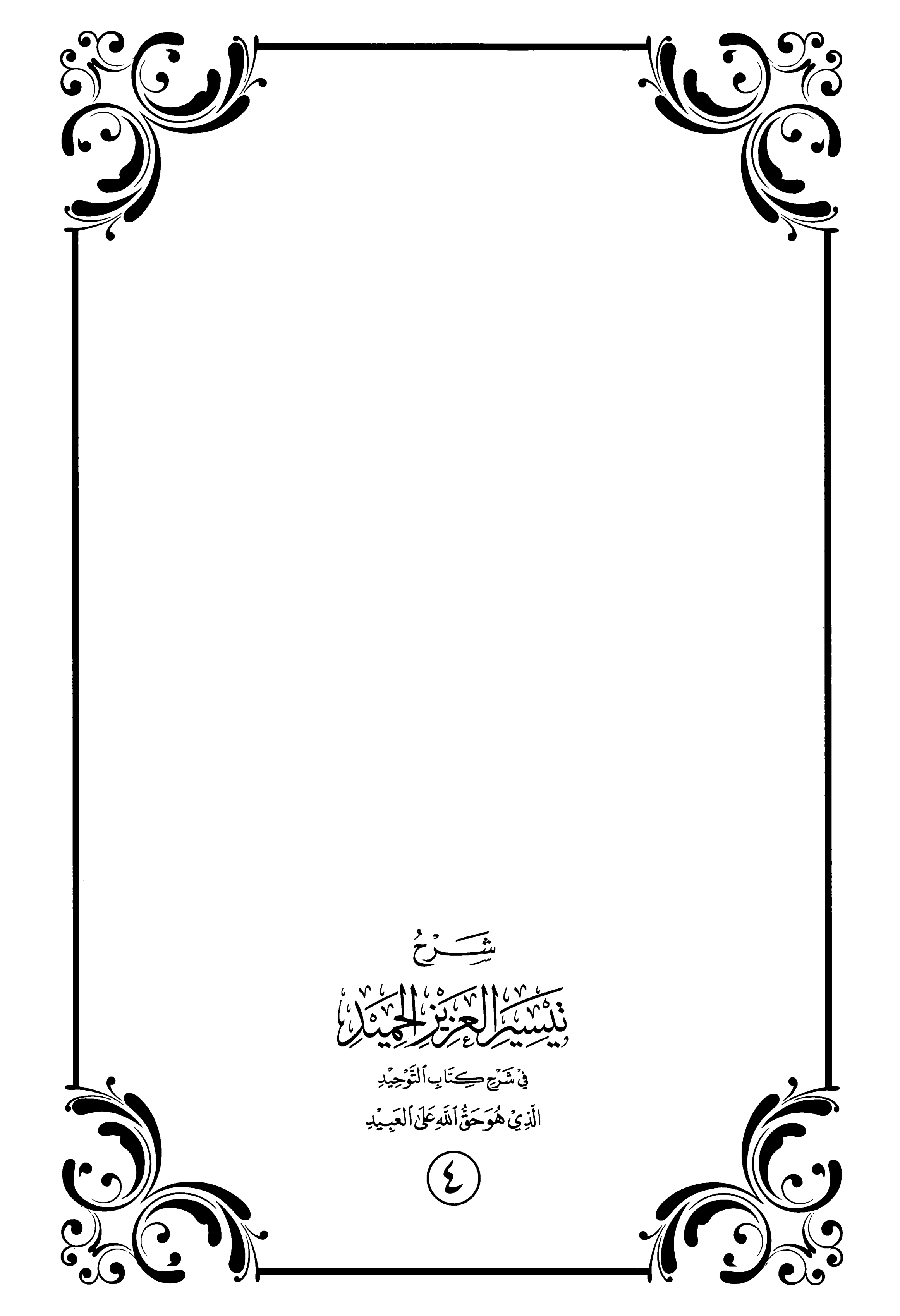


شرح
تيسير العزيز الحميد
في شرح كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد
الجزء الرابع
من الباب (٢٢) إلى الباب (٣٣)
لفضيلة الشيخ
أ.د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي
أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقًا
توفي رحمه الله تعالى (١٤٢٤هـ)
اعتنى به تفريغًا وتنقيحًا وتحقيقًا
خالد بن عثمان الزهراني
دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع



شرح

تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

٤



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي، أحمد بن سعد بن حمدان.

شرح تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي

مكة المكرمة، ١٤٣٩هـ

٣٧٩١ ص؛ ١٧×٢٤ سم (١؛١)

ردمك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨

١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان ب. السلسلة

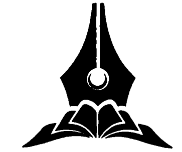
ديوي ٢٤٠ ٢١٨٢/ ١٤٤٠

رقم الإيداع: ٢١٨٢/ ١٤٤٠

ردمـك: ٢-١٢-٨٢٥٩-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

dar.taibagreen123 | dar.taiba | @dar_tg | dar_tg

مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

٠٥٥٠٤٢٨٩٩٢ | ٠٥٠٣٥٦٨٧٧١ | ٠١٢٥٥٦٢٩٨٦ | yyy.01@hotmail.com



شرح

تيسير العزيز الحميد

في شرح كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

الجزء الرابع

من الباب (٢٢) إلى الباب (٣٣)

لفضيلة الشيخ

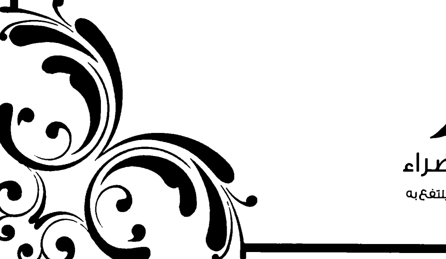
أ. د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي

أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى سابقاً

توفي رحمه الله تعالى (١٤٣٤ هـ)

اعتنى به تفريغاً وتنقيحاً وتحقيقاً

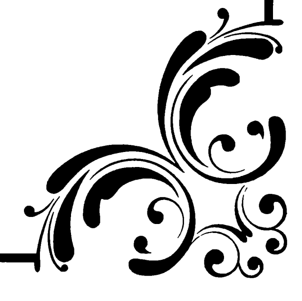
خالد بن عثمان الزهراني

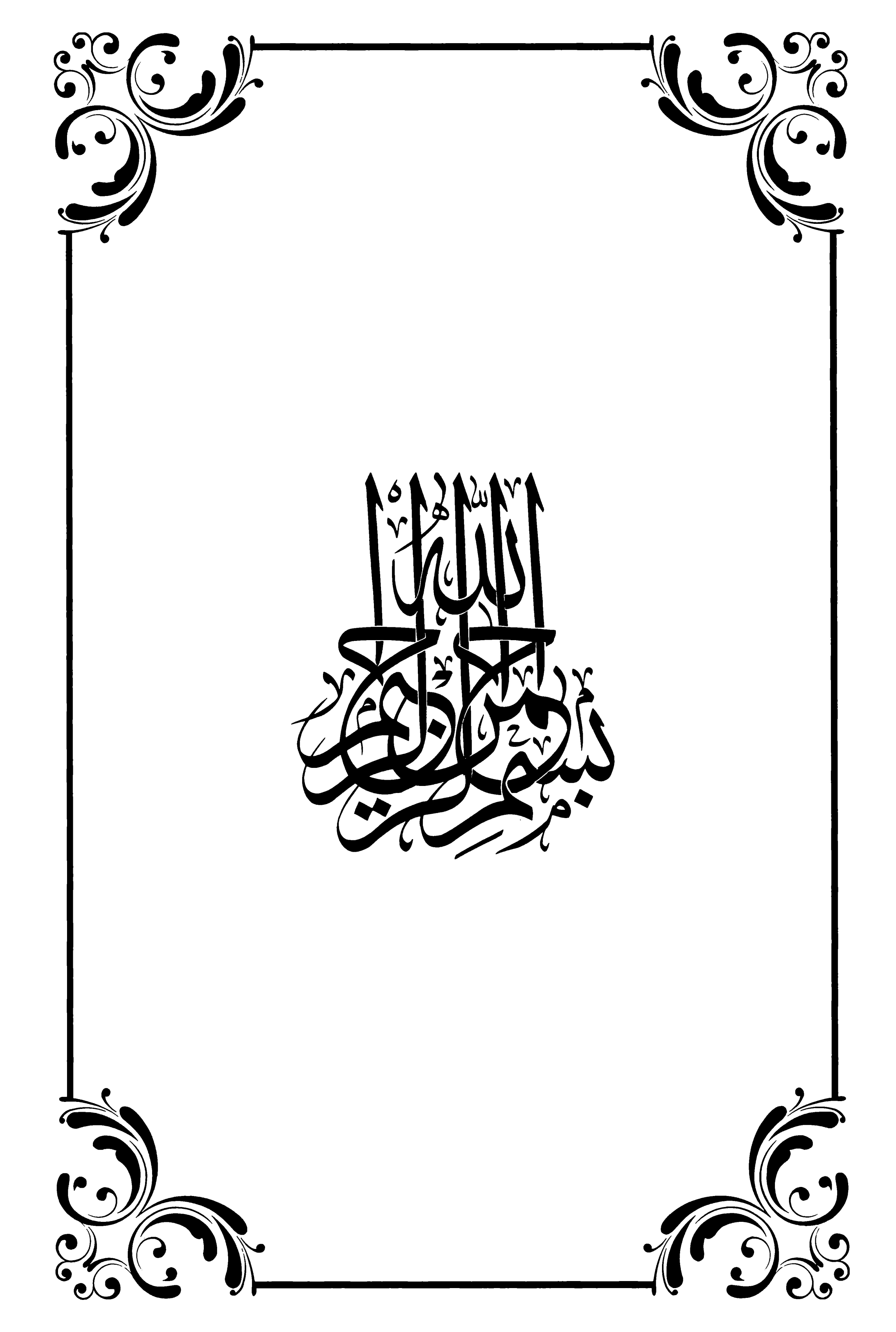




دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به




بسم الله الرحمن الرحيم



باب: ما جاء أن بعض هذه الأُمَّة يعبد الأوثان

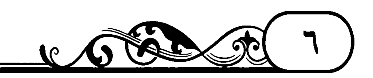
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: أراد المصنف بهذه الترجمة الرد على عباد القُبُور، الذين يفعلون الشِّرْك ويقولون أنَّه لا يقع في هذه الأُمَّة المحمدية، وهم يقولون لا إله إلا الله مُحَمَّد رَسُول اللهِ، فبين في هذا الباب من كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما يدل على تنوع الشِّرْك في هذه الأُمَّة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان، وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

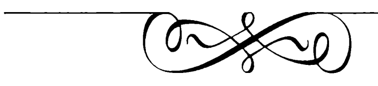


هذا الباب عقده المُصنِّف للردِّ على الذين يزعمون أنَّ الشِّرْك لا يقعُ في هذه الأُمَّة،كَمْا جاء في بعض الأحَادِيث: (إن الشَّيطَان يئس أن يعبد في جزيرة العَرَب، ولكن رضي بالتحريش)[1] يئس لما رأى من نور النُّبوة وظهور الحقّ، لكن يأسُ الشَّيطَان ليس دليلاً على أنَّه لم يقع شركٌ بعد ذلك، لكن عندما رأى ظهور الإسْلَام، وظهور النُّبوة وانخمادَ الباطل جَعَلَه يخنسُ، لكن ليس في الحَدِيث دليلٌ على أنَّه لا يعود، وقد جاءت بعض الأحَادِيث: (لا تقوم السَّاعة

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، برقم: (٢٢٩٤)، (٤/ ١٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٧٦٥٩).



حتىٰ تضطرب إليات نساءِ دوس علىٰ ذي الخلصة)[١] أي: علىٰ صنمٍ كان يُعبد فيها، وأحاديثُ أخرىٰ كثيرة كَمْا سيأتي، ففهمُ الذين فهموا أن الشِّرْكَ لا يقع في هذه الأُمَّة فهمٌ خاطئٌ، هؤلاء بَشَرٌ ويقع فيهم ما وقع في الأمم الماضية، قد جاء في الحَدِيث: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتىٰ لو دَخَلوا جحر ضب لدخلتموه)[٢] فالأحاديث الكثيرة تدل علىٰ أنَّه سيقع انحرافٌ وشركٌ في هذه الأُمَّة، والحديث: (لا تزال طائفة من أمتي)[٣] دليلٌ علىٰ أنَّ بقية النَّاس ينحرفون، وستبقىٰ طائفة، فهذا الفهم الخاطئ يرد عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب.



(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله -تَعَالَى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٥١].

يقول - تَعَالَى - لنبيه ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ﴾ أي أعطوا نصيبًا أي حظاً من الكِتَاب يؤمنون بالجبت والطاغوت.

الشَّرح

هذه الآية سبب نزولها أن بعض اليَهُود ذهبَ إلىٰ مَكَّةَ، فسأله المشركون عن وضعهم، وحالِهم وحالِ النَّبي ﷺ، قَالَوا: من أحسنُ حالاً نحن أم مُحَمَّد؟، فقالوا: أخبرونا عن أنفسكم وعن مُحَمَّد، وهم يعلمون لكن أرادوا أن يكون عندهم حُجَّةٌ في قولهم، بعد أن ذكروا لهم قَالَوا: أنتم أحسنُ حالاً من مُحَمَّدٍ، فالله يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهذا تعجبٌ لحالهم. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: عندهم شيءٌ من العلم. ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء:٥١]، هكذا حرب اليَهُود للمسلمين قديماً وحديثاً، يزعمون أنَّ المشركين الذين يعبدون الأصنامَ أحسنُ حالاً من مُحَمَّد ﷺ نبي الله وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا في غاية الخُذلان.

نأخذ من هذه الآية عدة فوائد:

الأولى: شدةُ كيدِ اليَهُود للإسلام من بدايتِه.

والثانية: أنَّ الإنسَان قد ينتسبُ إلىٰ العلمِ وينصر الباطلَ لهوىً في نفسه، فلا نعجبُ إذا رأينا بعض أهل العلمِ في أي بلدٍ أو في أي زمان ينصرُ الباطلَ،

فإن له سلفـاً، فإن اليَهُود أتباعُ الكِتَاب وهم يعلمون كَمْا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦]، يعرفون أنَّ هذا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ولكن لم يتقوا الله فيما يقولون، فقالوا للكفار: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾، فالإنسانُ قد يبيع دينَه لمصلحةٍ أو لهوىٰ أو لعصبيةٍ، ويكون عنده علمٌ ويفعل ذلك عن علمٍ، فلا ننخدع ولا نغتر إذا رأينا إنسانـاً انحرف عن علمٍ، ولهذا قَالَ الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " من فسدَ من علمائنا ففيه شبهٌ باليهود، اليَهُود علموا ولكنهم لم يستفيدوا بعلمهم - ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه بالنصارىٰ "، النَّصَارَىٰ عبدوا الله علىٰ جهل، وكذلك العُبَّادُ من المُسلِمين علىٰ غير عِلمٍ شرعي قد ينحرفون، ولهم سَلفٌ وهم النَّصَارَىٰ.

الثالثة: أن تفضيل غير المُسلِم علىٰ المُسلِم من أشدِّ الذُّنُوب قَالَ الله -تَعَالَى- عن الذين فضَّلوا الكفَّارَ علىٰ المُسلِمين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء:٥٢]، فلعنهم الله بسبب تفضيلهم للكافر علىٰ المُسلِم، فالمُسلِم مهما كان فيه من معصية وبدعة أفضل من جميع الكفَّار،ولا ينبغي للإنسان أن يُفضل كافراً علىٰ إنسان يحمل لا إله إلا الله، وأخطأ في فهمه أو في سلوكه أو في أي عمل من أعماله، والذي يفضل الكافرَ عليه مُتبعٌ لليهود الذين فضَّلوا المشركين علىٰ أصحاب رَسُول اللهِ ﷺ.

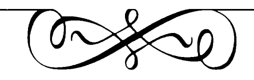
الرابعة: أنَّه قد تُثار شبهةٌ في مناصرة الكفَّار لليهود، أي: قد يقول قائل: الله يقول: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء:٥٢] مَعَ أنَّه في آية أخرىٰ قَالَ في ذُلهم وغضبِ الله عليهم: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢]. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يُقوِّي اليَهُود لمصلحةٍ أرادها، وتقويته لليهود قد يكون عقاباً للمسلمين، فاللَّعن: الطردُ عن رحمة الله - في الآخرة ليس له نصيرٌ فيه مطلقـاً،

لكن في الدُّنيَا قد ينصرهم الله لأمر وحكمةٍ؛ لأن الله استثنىٰ: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢] أي: إلا بسبب يقويهم إمَّا من الله ﷻ ليؤدبَ بهم من خالف دينَه، أو بسببٍ من كفارٍ آخرين، أمَّا اللَّعْن وهو الطردُ عن رحمة الله فاليهود والنصارىٰ ليس لهم ناصرٌ في التخلص منه.

الخامسة: أنَّ عداءَ اليَهُود للمسلمين مستمرٌ إلىٰ قيام السَّاعة. ونرىٰ في كل عصر الفتن بين المُسلِمين واليهود، ولا تنتهي إلا بالحرب التي تكون في آخر الزمان في أرض الشام، فينتصر المُسلِمون في هذه المعركة، وحتىٰ أنَّ الأشجارَ والأحجارَ لَتنادي يا مُسلِم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، هذا يكون في آخر الزمان، فإن الخلاف بين المُسلِمين واليهودِ والنصارىٰ مستمرٌ، ولهذا يحذرنا الله - تَعَالَى - في سورة الفَاتِحَة التي نقرأها في كل ركعة، ويأمرنا أن نطلب من الله طريقًا غير طريق اليَهُود والنصارىٰ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ [الفَاتِحَة:٦، ٧]، في كل ركعة أنت تسأل الله أن يجنبك طريق اليَهُود والنصارىٰ؛ لأن المغضوب عليهم هم اليَهُود، والنصارىٰ هم الضالون.

وكل مُسلِم يصلي ويقرأ هذه السورة فإنَّه يسأل الله أن يجنِّبه طريقَ اليَهُودِ والنصارىٰ، لكن إذا خرج إلىٰ بيته أو إلىٰ سوقه أو إلىٰ وظيفته وإذا به علىٰ طريق اليَهُودِ والنصارىٰ، اليَهُودُ والنصارىٰ ليسوا ذواتٍ، إنَّما هم صفاتٌ،صفاتُ انحرافٍ في عقائدِهم، وانحرافٌ في معاملاتهم، فهم قد آذوا أنبياء الله، وقد أكلوا الربا واستباحوا المُحرَّمات بالحيلِ،كَمْا سيأتي أنَّهم احتالوا علىٰ دينِ الله، حرَّم الله عليهم الصيد يوم السبت، فاحتالوا علىٰ رب العَالَمِين ، وحفروا حفرةً حتىٰ يسقطَ فيها السمك، وأخذوه يومَ الأحد وقالوا: ما أخذناه يومَ السبت،كَمْا قَالَ ابن القَيِّم ؒ يقول: يخادعون الله كَمْا

يخادِعون الصبيانِ، ولو أتوا الأمرَ علانيةً لكان أهونَ، كأنَّـه يقـول لـه - تَعَالَى -: أنت حرَّمت السبتَ، لكن أنا أعرف كيف آخذ السمكَ، كأنَّه يحتـال علىٰ رب العَالَمِين ، ولهذا مسخهم قردة وخنازير؛ لأن هذا قلة أدب مَعَ رب العَالَمِين ، ونرىٰ بعض الأمم وقعت في المعاصي وعاقبها الله، لكن عقاب ليس كجنس عقاب اليَهُود، ومن يقع فيه من المُسلِمين بأن يحتال علىٰ الدِّين فإن له قدوة من اليَهُودِ والعياذ بالله، فإننا نقرأ في كتب الحيل كيف احتالوا علىٰ دين رب العَالَمِين ، الله يحرِّم الربا ويأتونه بطريقةٍ خرىٰ، وهذا أشدُّ من أكلِ الربا مباشرة، فإتيان المعصية أهون من أن تحتال فيها علىٰ رب العَالَمِين ، وسيأتي مزيد بيان لهذه المَسْأَلَة إن شاء الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رویٰ الإمام أحمد عن ابن عباس قَالَ: لما قدم كعب بن الأشرف مَكَّةَ قَالَت قريش: ألا ترىٰ إلىٰ هذا الصنبر المنتبر من قومه يزعم أَنَّه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدنة وأهل السقاية، قَالَ: أنتم خير. قَالَ فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:٣]، ونزل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النساء:٥١، ٥٢].

وروىٰ ابن أبي حاتم عن عكرمة قَالَ: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلىٰ أهل مَكَّةَ فقالوا لهم: أنتم أهل الكِتَاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن مُحَمَّد، فقال: ما أنتم وما مُحَمَّد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفك العناة ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلاً. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء:٥١].



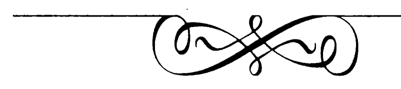
الشَّرح

هذه الصورة تتكرر في كل زمان،فإذا انحرف النَّاس واستقامت طائفة في هذاالمُجْتَمَع المُنحرف اتهموهم بما اتهمهم به كفارُ قريش،كَمْ يُوجَدُ في بلاد المُسلِمين اليوم من مجتمعات مُنحرفة وفيها أفراد صالحون أو طوائف

صـالحة ويصـفونهم بهـذه الأوصـاف، هـؤلاء فرَّقـوا جماعتنـا وهـؤلاء سُـرَّاق وهـؤلاء حَرَاميـة، ويصـفونهم بشتىٰ الصـفات، فالإنسـانُ هـو الإنسَـان، ولنـا في قصص الماضين العبرةُ؛ لأنَّ الإنسَان هو هو بثوراته، ومعاملاتِه، وحيلِه، فنرىٰ في كثير من بلادِ المُسلِمين يوصفُ المُستَقِيمُ بأنَّه قاطعٌ للأرحام؛ لأنَّه دعـا إلىٰ الله فاتبعـه أشـخاص فوقـع بينهم وبين ذويهـم خـلافٌ، فقـالوا: هـؤلاء قطعـوا أرحامنا وفرَّقوا جماعتنا، فالمُسلِم يذكرُ الله له هذا القصص حتىٰ يثبِّتَه ويُعَلِّمـه أنَّه سيعرض له من الأذىٰ ومن الصفات والاتهامات ما عَرض لسيد البَشَر ﷺ ولأتباعه من بعده.

يذكر في هذا الحَدِيث عن عكرمة أنّ حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وكلاهما من علماء اليَهُود، سألاهم عن رَسُول اللهِ وأصحابه، فأثنوا عليهم، وذموا مُحَمَّداً وأصحابَه، ثُمَّ وصفوه بأنَّه قطعَ أرحامَنا، واتبعه سُرَّاقُ الحجيجِ، سبحان الله! هل أصحاب رَسُول اللهِ ﷺ من سُرَّاق الحجيجِ؟ هذه هي النفوس المريضة، وهذه الأوصاف تتكرر في المُسلِمين، فلا تكاد تجد فئةً في مجْتَمَع من المُجْتَمَعات المُسلِمة المنحرفة وفيها طائفة مستقيمةٌ إلا وتُبتلىٰ، وإن كان قد يحدث من بعض الطوائف المُستَقِمة خطأ في طريقة الاستقامة، لكنهم مُبتَلَون، سواء داروهم أو لم يداروهم،كَمْا يذكر ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الحِسبة أنَّ المُجْتَمَع صاحب المعاصي له من الإنسَان الصالح موقفان، أحدهما قبل الآخر، الموقف الأول يطلب منه السكوتَ علىٰ معاصيه، أي: ما يحبُّ أن يتكلمَ علىٰ معاصيه؛ لأنَّه ينزعج، والإنسان إذا كان يعيش في شهواته لا يريد أنَّ يُنغَّصَ عليه إذا رأىٰ إنسانـاً صالحـاً يأمرُه وينهاه، قَالَ: فإذا سكت فترة فالمجتمع الفاسد لا يطيقُ وجود الإنسَان الصالح فيه، أخرجوهم من قريتِكم، كلما أرادوا أن يفعلوا المنكر نصحوهم: اتقوا الله، هذا حَرَام، فوجودُهم

لا يُطاق، فإذا سكتَّ لا تظنُ أنَّه ستنتهي المشكلة، فالسكوت خطأٌ، فأنت تنصحُ ولا تسكت، لكن النَّصيحة تحتاج أن تكون بالطريق الشرعي، الطريق الذي رسمه الله ﷻ ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥]. هذه الآية مُحكَمةٌ وليست مَنسوخةً كَمَا قَالَ بعض أهل العلم هي منسوخةٌ بالقتال، نعم منسوخة بالقتال إذا كان المُجْتَمَع مجتمعـًا مُسلِمـًا بكامله أمام مجتمعٍ كافرٍ، أما في داخل المُجْتَمَع المُسلِم ؛ فليس فيه قتالٌ، ليس علينا إلا دعوةٌ بالحسنىٰ والصبر، أمَّا السكوت فإنَّهَ مُنكر وخطأٌ نرتكبه، فعليك أن تنصح إخوانك برفقٍ ولينٍ لعل الله ﷻ يعيدُ من ضلَّ من المُسلِمين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الجِّبْت: السِّحْر، والطاغوت: الشَّيطَان. وكذلك قَالَ ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم. وعن ابن عباس، وعكرمة، وأبي مَالِك الجِّبْت: الشَّيطَان، زاد ابن عباس بالحبشية، وعن ابن عباس أيضًا: الجِّبْت: الشِّرْك، وعنه الجِّبْت: الأصنام، وعنه الجِّبْت: حيي بن أخطب، وعن الشعبي الجِّبْت: الكاهن، وعن مجاهد الجِّبْت: كعب بن الأشرف قلت: الظاهر أنَّه يعم ذلك كله، كَمْا قَالَ الجوهري: الجِّبْت كلمة تقع على الصنم، والكاهن، والساحر ونحو ذلك.

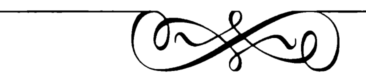
الشَرح

هنا إختلاف الصَّحَابَة رضي الله عنهم في تفسير الجِّبْت، بعض أهل العلم يقول: إن الجِّبْت في اللغةِ مُحورٌ من الجبس، والجبس ليس هو الجِبس الذي يُعمَل الآن في البُيوت، قَالَ: الجِبسُ هو غُسالَة الأواني، أي: القَذَرُ الذي ينزل من الآنيةِ، فالجِبس هو القَذرُ، فهذا القَذرُ يُطلَق على كل شيءٍ يخالِف الدِّين الطاهر، فالدِّينُ طاهرٌ، وما يقابله قَذَرٌ، فكلُ شيءٍ يقابل الدِّين الطاهر يُسمىَّ جِبتًا، فيكون أصله من الجبس الذي هو غُسَالِة الإناء مما يخرج منه من القَذَرِ، فالجبت يُطلق على الكاهِن وعلى السَّاحِر، وعلى حُيَي بن أخطب، كل هؤلاء داخلون في الجِّبْت؛ لأن هذا كله يقابل الدِّين.

والإنسان في الدُّنيَا له دائرتان، دائرة الجِّبْت والطاغوت، ودائرة الإيمان بالله، فالذي ليس في دائرة الإيمان يكون في دائرة الطَّاغُوت كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: هذه الدائرة، وينتقل ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فدائرةٌ اسمُها الطَّاغُوت أو الجِّبْتِ أو الكفرُ، ودائرةٌ اسمُها الإيمانُ

والإسلامُ، فمن انتقل من هذه الدائرة كَفر بها، وانخلع عنها، وانتقل إلىٰ الدائرة الأخرىٰ، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وكلمةُ جِبت بعضُ أهل العلم يرىٰ أَنَّها ليست عَرَبِيةً، لكن ليس هناك دليلٌ، وإن كنَّا لم نجد لها شواهد لها في العَرَبِيةكَمْا سيأتي من قِبل بعضُ العُلَمَاء أنَّ كلمة جِبت فيها ثِقَل، و العَرَبُ لا تتكلم بالكلمات الثقيلة، جِبت حروفها مُتقاربة،كَمْا سيأتي من قول الشَّارِح أنَّه ليس فيها حرفٌ ذو لَقِي، أي: ليس فيها حرف يفصل بين الحروف المتقاربة، لكن هذا ليس دليلاً علىٰ كونها غير عَرَبِية والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الحَدِيث: (الطيرة والعيافة والطرق من الجِّبْت) قَالَ: وهذا ليس من محض ال عَرَبِية لاجتماع الجيم والباء في حرف واحد من غير حرف ذولقي.

قَالَ المصنف: وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في الموضع، هل هو اعتقاد قلب أو هو موافقة أصحابها مَعَ بغضها ومعرفة بطل أَنَّها؟ وَإِمَّا الطَّاغُوت فتقدم الكَلَام عليه في أول الكِتَاب.

قال: وقوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠].

يقول - تَعَالَى - لنبيه مُحَمَّد ﷺ قل يا مُحَمَّد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكِتَاب، الطاعنين في دينكم الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي هل أخبركم بَشَر جزاء عند الله يومَ القِيَامَة مما تظنونه بنا، هم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المذمومة، المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده وطرده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضباً لا يرضىٰ بعده ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ منهم الذين عصوا أمره، فجعلهم قردة وخنازير كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة:٦٥].

وذلك أن الله - تَعَالَى - أخذ عليهم تعظيم السبت، والقيام بأمره وترك الاصطياد فيه، وكانت الحيتان لا تأتيهم إلا يوم السبت، فتحيلوا علىٰ اصطيادها فيه بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت الحيتان يوم السبت علىٰ عادتها نشبت تلك الحبائل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الّلّيل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله

- تَعَالَى - إلىٰ صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، فكان جزاؤهم من جنس عملهم.



الشَّرح

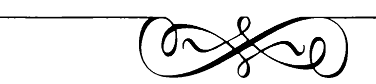
هذا الحَدِيث: (الطيرة والعيافة والطرق من الجِّبْت)[1] لا يصح، لكن معناه صحيح.

قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة:٦٥]، هذا هو بيان سبب لعنهم وجعلِهم قردةً وخنازيرَ، وهو أنّهم عصوا الله بالحيلةِ. الله عَجَّلَ حرَّم أمراً، وهو أخذَ الحيتان يومَ السبت، أمرضهم أن يُعظِّموه، قَالَ: هذا يومٌ مُعظَّم لا تصيدوا فيه، فاحتالوا وجعلوا هناك الخِططَ، فإذا جاءت الأسماك كانت هذه المصايدُ تسمح لهم بالدخول، وإذا أرادت العودةَ لا تستطيع، وهم لا يمدون أيديهم، وجاءوا يوم الأحد وأخذوها، هذه من الحيل، ويوجد في بعض الأعمال عند المُسلِمين نوع من هذه الحيل، أولها أكل الربا، فإن الله حرم الربا علىٰ المُسلِمين كَمْا حرَّمه علىٰ من سبقَهم من الأمم، فبعض المُسلِمين يأتي إلىٰ إنسان يريد منه المال، فيقول صاحب المال: أنا لا أعطيك المالَ، لكن أنا أشتري لك مثلاً سيارةً، وهو لا يملِكها وليس تاجراً، فيأتي

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الخط وزجر الطير، برقم: (٣٩٠٧)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب التفسير، باب قوله - تَعَالَىٰ -: (يؤمنون بالجبت)، برقم: (١١٠٤٣)، (١٠/ ٦٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٥٩١٥)، (٢٥/ ٢٥٦)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب القسامة، باب العيافة والطيرة والطرق، برقم: (١٦٥١٥)، (٨/ ٢٣٩)، وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير، وابن حبان في صحيحه، وعبد الرزاق وابن أبي شيبة في مصنفيهما، وضعفه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

يشتري له هذه السيارةَ، وهو لا يريد السيارةَ، يريد المالَ، والسيارةُ قيمتها مثلاً خمسون ألفًا، فيأتي صاحبُنا هذا فيبيعها لهذا المحتاج للمال بسبعين ألفًا، فيأخذها الُمشتري ويذهب بها لبيعها، لا تُباع بخمسين؛ لأنَّ الذي يشتري بخمسين يشتري من الشِّرْكة، فيضطر أن يبيعها بأربعين، فنتج من هذا أنَّه أصبح قد زاد عليه ثلاثين ألف ريال، هذا من الحيل على رب العَالَمِين ، وذلك - نعوذ بالله - قد أصبح عبداً للمادة ولا يريدُ أن يقرضَه، فالربا أشدُّ أنواع الذُّنُوب، والله ﷻ يقول فيه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]. شتَّان بين الرِّبا والبيع، فهذه صورة من صور الرِّبا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة:٦٥]، فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.



لا زالَ شرحُ الشَّارِح رَحِمَهُ اللَّهُ على قوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠].

وهذه الآية في اليَهُود الذين مُسخوا قردةً، والمَسخُ كان عقاباً عاجلاً، لكنهم لم يبقوا، فإنَّه ما من أمة تُمسخ أو تُعذب ثُمَّ يبقى لهم أثرٌ، فإنَّ القوم قد هلكوا جميعاً ولم يُعقِّبوا كَمْا سيأتي في الحَدِيث؛ لأنَّ الممسوخ لا يلدُ وليس له ذرية، لكنَّ القردةَ والخنازيرَ كانت مخلوقةً قبل بني إسرائيل، ولا زالت باقية إلى اليوم وإلى قيام السَّاعة، فاليهود مُسخوا على صور الحيوانات التي كانت قبلهم، وسبب مَسخهم هو احتيالهُم على ربِّش العَالَمِين ، الله حرَّم عليهم الصيدَ يوم السبت فاحتالوا على الله، وكل سببٍ يؤدي إلى المُحرَّم فإنَّه محرمٌ، فهم استباحوا وسائلَ مباحةٍ في الأصل لكنها تنتهي إلى مَحرَّم، وسيأتي قولُ بعض السلف: أنَّهم لو أتوا الأمر علانية لكان أهون، فعاقبهم الله بأن مسخَهم؛ لأن ظاهرهم كان ظاهر إنسان، وباطنهم كان باطن حيوان، وإلا فكيف تخادعُ ربَ العَالَمِين ؟، أرأيتم لو أنَّ بعض الملوك أو الحكَّام أصدرَ نظاماً، فاحتال النَّاسُ على أن يَخرقوه علانيةً، هل يرضى عنهم؟ لا . سيعاقبهم، بل هذا أشدُّ؛ لأنَّ هذا استخفافٌ، فلو أتوا الأمر علانية لكان أهون، وسيأتي نماذج من هذا.

الإنسانُ دائمـاً يفكِّر كثيراً كيف يصلُ إلىٰ مـا يريـد ولـو كـان حَرَامـاً؟، فقـد أَلَّف بعضُ العُلَمَاء من المُسلِمين كتبـاً في الاحتيال، كيف تحتـال إلىٰ أن تصـل إلىٰ الممنوعِ؟، وذكر العُلَمَاءُ منها عدةُ صور، وقـد ردَّ ابـن تَيمِيَـة رَحِمَهُ اللهُ علىٰ هـذا الكِتَاب بكتاب سماه: (إيضاح الدَّلِيل في إبطـال التحليـل)، وأوردَ فيـه أكثـر مـن ثلاثـين صـورة مـن صـور التحلِيـل، وأكثـر مـن ثلاثـين صـورة مـن صـور سـدِّ الذرائع، في قرابة ثلاثمائة صفحة، حينما بعض العُلَمَاء مـن أهـل الإسْلَام أَلَّـف كتابـاً للوصول إلىٰ الممنوعات، وضرب أمثلة.

من تلك الأمثلة: بيعُ العينة، فإذا كان الإنسَانُ يريد من إنسان مـالاً، لا يريـدُ تجارةً، ولا يريـد عَينـاً، فصـاحب المـال لا يريـد أن يعطـي قرضـاً، بـل يريـد أن يربحَ، والله قد حرَّم أخذَ الزيادةِ في القرض، ويعلمُ هذا الإنسَـان صـاحبُ المـال أنَّ أخذَ الزيادة في القرض حَرَام، فيأتون بسيارة في الوسـط، أو بـأرض، أو بـأُرزٍ أو بأي نوع من أنواع الأغذية، أو غيرها ويشتريها هذا الشخص، وهـو لا حاجـة لـه في هـذه التجارة،إنمـا يريـد المـال. وإعطـاء مـالٍ زيـادةٍ علـىٰ المـالِ حَـرَام، فيضـعون بينهمـا سـيارة، تكـون قيمتُهـا في المعـرض خمسـين ألفـاً، فيشـتريها صاحب المال بخمسين ألفـاً، ويبيعها لـه بسـبعين ألفـاً، فكسـب عشـرين ألفـاً، وهذا المسكين لا يريد السيارة، فيقول هذا البائع صاحب المال: أشـتريها منـك بأربعين؛ لأن في السوق سيارات كثيرة بخمسين ألفـاً، والشـخص مُحتـاجٌ إلـىٰ المـال، ولا يريـد أن ينتظـر حتـىٰ تبُـاع السـيارةُ، فيبيعهـا بـأربعين، فيكـون المضاعف عليه ثلاثين ألـف ريـال. فالمحتـاج أخـذَ المـال بمـالٍ، أخـذ أربعـين ألفـاً التي هي قيمة السيارة، وسيدفع لصاحب المال سَبْعين ألفـاً، وهـذه صـورة توجد الآن في أكثر المعارض والمتاجر، ويظنون أنَّ هذا يخرجُهم مـن الحـرام، هذا حَرَام مُضـاعف؛ لأنَّ الله حـرَّم الربـا ـ وهـي الزيـادة في المـال ـ في القـرضِ ، هذه تسمىٰ العَينَة، إذا أخذ نفس التاجر الذي بـاع فاشـترىٰ بنفسـه تسـمىٰ عينـةً،

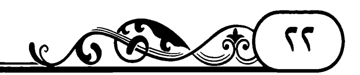
وهناك صورة أخرىٰ تسمىٰ التَّورُّق، إذا كان الذي اشتراه ليس صاحب التجارة أصلاً بل شخص آخر، هذه تسمىٰ التَّورُّق، وكلاهما يقول ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صور الرِّبا، فإن الإنسَان ليس مقصده العينُ، بل مقصدُه المال، وهذا احتيالٌ.

الصورة الثانية: إذا طلَّق زوجته ثلاثاً وندمَ يأتي بشخصٍ ثانٍ يتزوجها زواجاً صورياً؛ لأنَّ الله حرم أن يتزوجها الأول مرة أخرىٰ حتىٰ تنكِح شخصاً آخر، فيأتي بشخصٍ آخر يعطيه مَبلغاً من المال علىٰ أن يتزوجها ولكن لا يمسُها، يعقِد ويعملون وليمة، ثُمَّ بعد فترة يُطلِّقُ، ثُمَّ ترجعُ إلىٰ زوجها الأول، هذا يسميه الفقهاء التَيسُ المُستعارُ، أي: هذا ليس إنساناً، هذا حيوان، هذه الصورة حَرَام؛ لأنَّها احتيال.

الصورة الثالثة: إنسانٌ عنده مالٌ وقد ابتُلي بالشحِّ والبخل حتىٰ علىٰ رب العَالَمِين ، فعندما يقترب نهاية العام يأتي إلىٰ ابنه مثلاً، فيقول: وهبتُ لك هذا المال، مثلاً مائة ألف، مليون، مليونين، فيأخذه الولدُ، وبعد شهرين أو خمسة أشهر الولدُ يعيدُه لأبيه، يقول: وهبتُ لك المال يا أبت ، وهذا احتيال لإسقاط الزكاة؛ لأنَّه ما حالَ عليه الحول في مِلكه.

والصورة الرابعة: إذا كانت هناك امرأةٌ لا تريد زوجَها، وقد ضايقها وشقَّ عليها ولم تستطع الطلاقَ، قَالَوا: ترتدُ عن دينها؛ لأنَّها أرادت فسخَ العقد، سبحان الله العظيم!، الواجبُ عليها الصبرُ مَعَ هذا الرَّجُل، مَعَ البحث عن وسيلة شرعية، فإن الله قد أباح لها فسخَ النكاح، بأن تعيد له مبلغاً وتختلعَ، ويسمىٰ خُلعاً، هل تعيدُ له ما دفع أو تزيد؟ في الحقيقةِ أنَّه لا ينبغي له الزيادة ، وحديث: (**هل تعيدين له حديقته**) قَالت: **نعم، فأعادتها ثُمَّ طلقها** ﷺ[1]، لكن

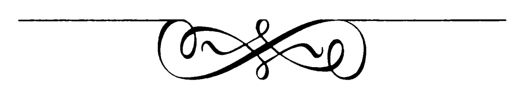
(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، برقم: (٥٢٧٣).



بعض الفقهاء يبيح الزيادة، وليس بصحيح؛ لأنَّه قد استمتع بها فترة من الزمن ودفع لهـا مبلغـاً معينـاً فكيف يأخذ منها الزيادةَ؟ له عليها حقٌّ مالي معين، وهي أسقطت حقَّها في الاستمتاع بها، فبأي حق تزيدُه علىٰ ما دفع؟ لا يستحقُّ إلا ما دفع، وحتىٰ لو أخذ ما دفع فإنَّه يكون إنساناً في الحقيقة ناقصُ المروءةِ، لكن من حقِّه أن يأخذ، فإذا رفض فمن حقِ القاضي أن يطلق الزوجة إجباراً إذا طلبت الخُلع؛ لأنَّها لا تطيق الحياة معه، أمَّا أن ترتدَ عن دينها ثُمَّ يُسجِّل عليها الرِدةَ ثُمَّ يفسخُ العقد، ثُمَّ تتزوج واحداً آخر، هذه عملية غير صحيحة.

الصورة الخامسة: أن يكون هناك إنسان له بيت مثلاً، وبجانبه جار، والجار أحق بهذا البيت إذا أراد صاحبه أن يبيعه، ولكنه لا يريد أن يعطيَ هذا الجارَ، فيأتي إلىٰ المشتري ويقول: أنت تأخذ البيت بمائة ألف وتُسجل مائتي ألف؛ لأنَّ هذا له حقُ الشُّفعة بنفس المبلغ، فيضعون مائتي ألف، فهو ليس قيمتَه، بل مضاعفٌ، فيحرمَه من الشراء.

وهذه كلها إسقاطُ حقوقٍ مشروعةٍ، فإسقاط الحقِ المشروعِ أو التوصل بأي سبب إلىٰ إسقاط الحقِ أو ارتكاب الحرامِ، هذا كلُّه حَرَام، وهذه حِيَلٌ علىٰ رب العَالَمِين ، وفيه شبَهٌ باليهود الذين احتالوا علىٰ الله عندما حرَّم عليهم الصيدَ يومَ السبت ثُمَّ حفروا الحفرَ وجعلوا السمك إذا وقع في الحفرة وضعوا خشبةً حتىٰ لا يرجعُ إلىٰ البحر، وفي اليوم الثاني أخذوه من هذا المكان، وزعموا أنَّهم لم يصيدوا ولم يَقعوا فيما حرَّم الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروىٰ مُسلِم في صحيحه عن ابن مسعود قَالَ: (سئل رَسُول اللهِ ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يهلك قومًا ـ أو قَالَ لم يمسخ قومًا ـ فيجعل الله لهم نسلاً ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك).

وفي هذه القصة دليل قاطع علىٰ تحريم الحيل التي يتوصل بها إلىٰ تحليل الحرام وتحريم الحَلَال ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ قَالَ شيخ الإسْلَام: الصواب أَنَّه معطوف علىٰ قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ فهو فعل ماض معطوف علىٰ ما قبله من الأفعال الماضية، أي من لعنه الله ومن غضب عليه ومن جَعَلَ منهم القردة والخنازير ومن عبد الطَّاغُوت، لكن الأفعال المقدمة الفاعل فيها هو اسم الله مظهراً ومضمراً، وهنا الفاعل اسم من عبد الطَّاغُوت وهو الضمير في عبد، ولم يعد سبحانه لفظ من؛ لِأَنَّه جَعَلَ هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد وهم اليَهُود.



الشَّرح

قوله ﷺ: (إن الله لم يهلك قوما ـ أو قَالَ لم يمسخ قومًا ـ فيجعل الله لهم نسلاً ولا عاقبة)[1] هذا الحَدِيث في صحيح مُسلِم نصٌ صريح في أن الأُمَّة التي تُمسخ لا يكون لها عقب، وإنَّما الجيلُ نفسُه يبقىٰ حتىٰ يفنىٰ.

---

(١) أخرجه مُسلِم في صحيحه، بلفظ: "نسلاً ولا عقبًا"، كتاب القَدَر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرهما لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القَدَر، برقم: (٢٦٦٣)، (٤/ ٢٠٥٠).

هنا يتحدث الشَّارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قراءة ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فيها قراءتان، قراءة لجمهور القراء السبعة وهي نفس القراءة الآن ﴿وَعَبَدَ﴾ وقراءة لأحد القراء اسمه حمزة، ﴿وَعَبُدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، والقراء المشهورون السبعة ثلاثة من الكوفة، وواحد من البصرة، وواحد من دمشق، وواحد من المدينة، وواحد من مَكَّةَ. مجاهدُ شيخ القراء في عصره، انتخب القراءات السبع، فأخذ قراءة نافع المدني، وابن كثير المكي، وعبد الله بن عامر الدمشقي، وأبي عمرو بن العلاء البصري، والثلاثة الذين من الكوفة: عاصم بن أبي النجوي، وحمزة بن حبيب الزيات صاحب القراءة الثانية هذه، وعلي بن حمزة الكسائي، هؤلاء السبعة هم أصحاب القراءات المشهورة المعتمدة في قراءة القُرْآن، وهؤلاء قد اختلفوا في القراءات علىٰ صور شتىٰ، حمزة هذا الذي قَالَ: ﴿وَعَبُدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ بعض العُلَمَاء يكرَه قراءته، لما فيها من المد الزائد والإمالة، حتىٰ قيل إن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرِه قراءته، ثُمَّ سُئل: هل تصح قراءته في الصَّلَاة مَعَ أَنَّها سَبْعية؟ قَالَ: لا يصل الأمر إلىٰ ذلك، أي: ما يصل إلىٰ أَنَّها لا تُقرأ في الصَّلَاة، وينبغي في الحقيقة أن نحرص علىٰ توحيد القراءة؛ لأن الأُمَّة إذا اجتمعت علىٰ أمر كان أفضل.

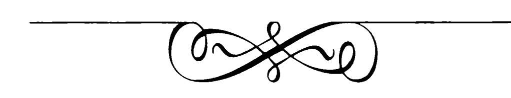
أما الأحرف السبعة التي ورد بها القُرْآن الكَرِيم فقد اضطربت فيها أقوالُ العُلَمَاء، وهي من المسائل التي تحتاج إلىٰ بحث؛ لأنَّ في بعض ألفاظ الآثار في القراءات السبع ما يُؤثر علىٰ القُرْآن الكَرِيم؛ لأنَّ بعضهم أجاز أن تجعل بدل (والله غفور رحيم) (والله سميع عليم)، هل الله تكلَّم بهذا؟ الله تكلم بأن: والله سميعٌ عليم؟ والذي أباح القراءة به هو مثل الاختلاف في إمَّالة الكلمة مثلاً: والضُّحي، كانت الألسُن في الماضي تختلف من قبيلة إلىٰ قبيلة، بعضها تفخم الحرف، وبعضها تميل الحرف، فهذا الذي أباح الله فيه أن يقرأ القُرْآن، أمَّا أن

يُزاد أو تُغيَّر كلمةٌ بدلاً من كلمة فهذه في الحقيقة تحتاجُ إلىٰ بحثٍ ودراسةٍ، مَعَ أَنَّها صحَّت عن بعض الصَّحَابَة أنَّ هذا هو الُمراد، لكن ليس كل ما يصحُ يُقبل، بل يحتاج إلىٰ مراجعة؛ لأنَّ هذا كلام الله ﷻ، ونحن نؤمن بأنَّ الله تكلَّم به، فإذا وضعنا بدلاً من (غفور رحيم): (سميعٌ عليم)، فما الذي تكلَّم الله به منهما، كيف ننسب إلىٰ الله أو إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ اللفظَ الذي نثق أنَّه لم يقلْه؟ الصَّحَابَة كانوا يتحرَّجون أشدَّ الحرج من الحَدِيث وهم يروون: قَالَ ذلك أو بعض ذلك، ويضع بدلها كلمة، مثلا في الحَدِيث الذي مر (**أولئكِ الذين إذا كان فيهم العبد الصالح أو الرَّجُل الصالح**)[1] تحرج أيهما يقول، فإذا كان هذا التحرج من نسبة إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ فكيف برب العَالَمِين ؟. قِسِّيسٌ من بعض البُلدَان الأفريقية أظنه من نيجيريا أسلم قبل خمس سنوات، وسبب إسلامه أنَّه كان مُعتنىً به، وأُعطي سيارة، وأعطي سكناً خاصاً، وهو عضو في لجنة لمراجعة الإنجيل في هذا البلد، فمرَّ علىٰ مُسلِمٍ ليخيطَ له ملابساً، فسمع محاضراً عنده في شريط يتكلم يفسِّر قوله - تَعَالَى -: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٩]، فقال: ما هذا؟ قَالَ: هذا عالم مُسلِمٌ، قَالَ: "نحن الآن والله نُغيِّر كلمةً في الإنجيل بدلَ كلمةٍ، إذا ما عرفناها غيَّرناها". الإنجيلُ ليس محفوظاً، فإذا جاءت كلمةٌ لا يعرفونها وضعوا بدلها كلمةً أخرىٰ، فالقرآن يصف أعمال السابقين بأنَّه مُنكرٌ، فكيف نحن نبيحُ لأنفسنا أن نضعَ كلمةً بدل كلمة؟، والقراءات إنَّمَا كانت للتيسير وليست واجبةً. عندما كانت العَرَب يعجز بعضهم أن يتكلَّم بلغة قريش ـ فمثلاً قبيلة تُميل الحرفَ، وقبيلة تُفخِّم الحرفَ ـ أباح الله لهم أن يقرءوا بهذه الصور،

---

(١) سبق تخريجه.

أمَّا أن تُوضَع كلمةٌ مكان كلمةٍ، فهذا في الحقيقة يحتاج إلىٰ وقفة، الْقُرَّاءُ رَحِمَهُمُاللَّهُ خلافُهم في هذا الأسلوب، أي: في أن تُقرأ الهمزات، أو لا تقرأ إلا بحروف الوصل، أو يُضعَّف المدُ في بعض الأماكن، أو يكون مدٌ في بعض الحروف، هذا الخلاف ليس فيه إن شاء الله حرج، إمَّا الخلاف الذي يؤدي إلىٰ تغيير كلمة فإنَّه أمرٌ صعب.



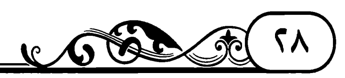
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف:٢١]. يخبر - تَعَالَى - عن الذين غلبوا علىٰ أمر أصحاب الكهف أَنَّهم قَالُوا هذه المقالة، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ وقد حكىٰ ابن جرير في القائلين في ذلك قولين: أحدهما أَنَّهم المُسلِمون، والثاني: أَنَّهم المشركون، وعلىٰ القولين فهم مذمومون؛ لأن النَّبِي ﷺ قَالَ: (لعن الله اليَهُود والنصارىٰ، اتخذوا قُبُوْر أنبيائهم وصالحيهم مَسَاجِد، يحذر ما فعلوا) رواه البُخَارِي ومسلم.

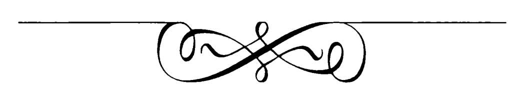
ولما يفضي إليه ذلك من الإشراك بأصحابهاكَمْا هو الواقع، ولهذا لما فعلته اليَهُود والنصارىٰ جرهم ذلك إلىٰ الشِّرْك، فدل ذلك علىٰ أن هذه الأُمَّة تفعلهكَمْا فعلته اليَهُود والنصارىٰ فيجرها ذلك إلىٰ الشِّرْك؛ لأن ما فعلته اليَهُود والنصارىٰ ستفعله هذه الأُمَّة شبراً بشبر وذراعًا بذراع،كَمْا أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ، وبهذا يظهر وجه استشهاد المصنف بهذه الآيات.

الشَّرح

الآية الثانية جاءت في سورة الكهف، وهي تشيرُ إلىٰ قصة أصحاب الكهف الذين أَمَّاتهم الله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثمَائة عامٍ بالتقويم الشَّمْسي، أو ثلاثُمائة وتسع سنوات بالتقويم القمري، ثُمَّ أحياهم عَزَّ وَجَلَّ للاعتبار، فعندما انكشف أمرهم وجاء أصحاب القرية إليهم، ودعوا الله أن يميتهم فماتوا، فاختلف الذين شهدوا حالهم، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف:٢١].



هل غلبُوا بمعنىٰ غُلبوا ؟، ويكون هذا من الهوىٰ، أم الغلبة هنا تشير إلىٰ السلطان والحاكم، إنَّ صاحبَ السلطةُ يكون غالبـاً علىٰ الأمر أي: هو الذي يُنَّفذ أمرَه، فهل الحاكم الذي قَالَ هذا، أم أراد به الذين ضَعُفوا أمام أهوائهم؟، فالآية لا تمدح هذا الفعل، وإنما تذكُره، وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ توقف، مَعَ أنَّ الأحَادِيث تدلُ علىٰ أنَّ اتخاذ القَبْر علىٰ المَسْجِد حَرَام. لكن لعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ توقفَ هل هذا الفعلُ منهم هم مذموم أو ممدوح؟، فالمفسرون الذين جاؤوا بعد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَوا ليس له حق أن يتوقَّف؛ لأنَّ الأحَادِيث صريحةٌ في أن بناء المَسْجِد علىٰ القُبُور أمرٌ مُنكر، وقد جاءت الأحَادِيث كحديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عندما ذكرت ما رأت في الحبشَة من الكنائس، فقال: **(أولئك شرار الخَلْق عند الله، كان إذا مات فيهم الرَّجُل الصالح اتخذوا علىٰ قبره مسجداً)**[(١)]، فوصفُهم بالشرِّ يدلُ علىٰ أنَّهم قد وقعُوا في أمرٍ مخالفٍ للشرع الذي كان في عصرهم، فلا يُظنَّ أنّ هناك شرعاً في الماضي يُقرُّ إقامة المَسَاجِد علىٰ القُبُور، فهذا هو شاهد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا الأمر أمرٌ غير مشروع، واستشهد بهذه الآية علىٰ مراده.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: عن أبي سعيد أن رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتىٰ لو دَخَلَوا جحر ضب لدخلتموه، قَالَوا: يا رَسُول اللهِ، اليَهُود والنصارىٰ؟ قَالَ: فمن؟) أخرجاه.

الشَرح

هذا الحَدِيثِ في أصحِّ الكتب في البُخَارِي ومُسلم، وهو من معجزات النَّبِي ﷺ، إذ أنَّه إخبار عن غيبٍ لم يقع في عصره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ وقع كَمْا أخبر، والأخبارُ عن المستقبلِ لا تصحُّ إلا إذا كان المتحدِّث بها نبيًا، أو مُتصلاً بالوحي؛ لأنَّ المستقبلَ لا يعلمُه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، أو من يُعلِّمُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا الحَدِيث إخبارٌ للأُمَّة المُسلِمة وهم كانوا أقليةً ومحصورين في هذه البلاد، ثُمَّ أخبر بأنَّه سيحصل لهم في المستقبل اتباعٌ لليهود والنَّصارىٰ والسيرُ علىٰ خطاهم، وأن يعملوا كَمَا عملوا، وقد وقع في المُسلِمين، فإنَّ الحَدِيثَ جاء بروايتين إحداهما: اليَهُودُ والنَّصارىٰ، والثانية: فارسُ والروم، وكلاهما أقرهما النَّبِي ﷺ، فالعلماء اختلفوا هل هاتان حادثتان، فأراد بالأولىٰ: الاتباع في الديانات، والثانية : الاتباع في السياسات، أي: القول الأول: اتباعٌ في الديانات، أي: انحراف اليَهُود والنصارىٰ في الدِّين، وَأَمَّا فارسُ والروم فانحرافُهم في الأمور السياسية أي: حكموا بغير ما أنزل الله، فكلتا الطائفتين مقصودة في الحَدِيث، وقعَ في المُسلِمين انحرف في عقيدتهم وشريعتهم، وانحرفٌ في سياستهم وتشريعهم، وهذا من المُعجزات النبوية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: هـذا الحَدِيث أورده المصنف بهـذا اللفـظ معزواً للصـحيحين، ولعلـه نقله عـن غيـره، ولفظهمـا والسياق لمسـلم: عـن أبـي سـعيد الخـدري قَـالَ: قَـالَ رَسُول اللهِ ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعـاً بـذراع، حتىٰ لـو دَخَلَوا جحـر ضـب لاتبعتمـوهم، قلنـا: يـا رَسُـول اللهِ، اليَهُـود والنصـارىٰ؟ قَـالَ: فمن) ويحتمل أن يكون مروياً عند غيرهمـا بـاللفظ الـذي ذكـره المصـنف، وأراد أصله لا لفظه.



الشَّرح

قولـه ﷺ: (لتتـبعن سـنن مـن كـان قـبلكم....)[1] اللفـظ نفسُـه لـم يـرِد في الصَّحِحَينِ، وإن كان ليس بينهما خلافٌ في المعنىٰ، لكـن نفسُ اللفـظ لـم يـرِد فيهما، إنَّمَا وردَ باللفظ الذي ذكرُه أسهل، فالمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربمـا نقـل مـن بعـض الكتب الأخرىٰ، وربما أراد أصلَ الحَدِيث؛ لأن العُلَمَاء يجيزون أن يعزىٰ إلـىٰ البُخَـارِي ومسـلم إذا كـان أصـلَ الحَـدِيث فيهمـا وإن كـان هنـاك اخـتلاف في اللفظ، ونرىٰ ذلك في كثير من الكتبِ، مثلاً شرحُ السُنَّة للبغـوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقـول: أخرجَه البُخَارِي ومُسلم، وكثيراً لا نجدُه بنفس اللفظ، إنَّمَا أصلُه في البُخَـارِي ومُسلم، و اللفظُ ورد عن طريق البغوي نفسِـه مـن سَنَدٍ آخر أو بروايـة أخـرىٰ، فهنـا المؤلـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عـزاه إلـىٰ الصَّـحِحَينِ ولـيس فيهمـا نفسُ اللفـظ، وإن كـان المعنىٰ هو هو، لكن قول الشَّارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا من باب التحرُّج، أو من باب بيـان أنَّ اللفظ ليس نفسه، وإلا فإنَّ المعنىٰ واحدٌ.

---

(١) سبق تخريجه.

يقول: لو دَخَلَوا جُحرَ ضَبٍّ، جُحر الضَّبِّ صغيرٌ جداً، كيف يدخل الإنسَان جُحرَ الضَّبِّ؟، لكن لو دَخَلَوه هم دَخَلَناه نحن، ولهذا يقول العُلَمَاءُ: هناك طوائف تُقلَّدُ دائماً، الضعيفُ يُقِّلد الأقوىٰ، الأقوىٰ يُقلَّد، والأعلمُ يُقلَّد، وصاحبُ السلطةِ يُقلَّدُ، مثلاً الملكُ، أو رئيس الدولة، أو صاحب منصبٍ، ترىٰ من تحته يُقلدونَه في كلِ شيء؛ لأنَّ إحساسهم بأنَّه أعلىٰ منهم يجعلهم يظنون بأنَّ كل ما يفعلُ صَحيحاً، كذلك الأمم الغالبة، إذا غَلبت أمَّةً فإن المغلوبَ يُقلِّد الغالبَ، لكن حدث العكس في التَّتر عندما دَخَلَوا بلادَ المُسلِمين، فإنَّهم دَخَلَوها وقلَّدوا المُسلِمين، فأسلَموا، مَعَ أنَّهم كانوا الغالبين، لكن رأوا علم المُسلِمين من أصله الدِّين الذي بهرهم وقهرهم، ومَعَ أنَّه ليس عندهم إلا أوثانٌ وجاهليات، فلم يبقوا في بلاد المُسلِمين أكثر من ثلاثين عاماً تقريباً حتىٰ دَخَلُوا كلُهم في الإسْلَام، بسبب أنَّ الإسْلَامَ دينُ ربِّ العَالَمِين ، فدخلوا في الإسْلَام مَعَ أنَّهم غالبون، لكن ليس عندهم شيء يُعارِضُ الإسْلَام، كان يأتي إلىٰ بلاد المُسلِمين العلوج أوكَمْا يسمونهم الخواجات، وكان المُسلِمون يحتقرون أن يروا الرَّجُل وزوجته في الشَّارِع، عندما كان الاستعمار في بلاد المُسلِمين إذا رأوا الرَّجُل مَعَ زوجته في الشَّارِع كانوا يَسخرون منهم ويستهزؤون بهم، لإحساسهم بأنَّهم أعلىٰ، لكن الآن رُوِّض الأسدُ حتىٰ أصبح نعجةً.كَمْا قلنا عندما جاءوا بأسدٍ صغير، فرُبي مَعَ غنمٍ، فأخذ يكبُر حتىٰ أصبحَ أسداً كبيراً، فجاء أسدٌ من الغابة فإذا بهذا الأسد مَعَ الغنم، فهرب مَعَ الغنم، فصاح له الأسد بلغته: أنت أسدٌ، قَالَ: لا، أنا غنَم، فقال: تعال انظر الىٰ شكلك في البئر، فجاء إلىٰ الماء وإذا صورته نفس صورة الأسد، لكن لم يقتنع، فهرب.

فهكذا المُسلِمون هم الأسود، هم الذين ينبغي أن يحكموا العالم. الآن يتكلمون عن عصر العولمة، الاتصالات أزالت الحواجز بين المدن والبلدان،

فينبغي أن يكون هناك نظام يحكم العالم، والنظام الُمرشح الذي يحكـم العـالم نظـام ربِّ العـالم؛ لأنَّـه لا ترضـىٰ أمـةٌ أن تُحكِّـم نظـامَ أمـةٍ أُخـرىٰ في نفسـها، وستبقىٰ الصراعات، لكـن لـو حكَّمنـا نظـامَ رب العَـالَمِين انتفـت الصـراعات، فهـذا العصـر هـو عصـرُ تحكـيم الإسْـلَام؛ لأنَّ الـذل والخضـوعَ لـيس لإنسـان مثلِـك، والـذي يُشـرِّع في البُلـدَان غيـر الإسْـلَامية هـو الإنسَـان، يُشـرِّع الإنسَـانُ للإنسانِ، أصبح الإنسَانُ ربـاً للإنسان، فهـذا العـالـم الصـغير أو هـذه المدينـة أو هذه القريةكَمْا يسمونها لا يصلحُ لها إلا نظامٌ واحد، نظام ربها الذي خلقها، أمَّا أن يحكُـم في العـالـم نظـامُ بَشَـرٍ ويصـبحَ بعضُـنا أربابـاً وبعضـنا عبيـداً فهـذا لا يصلح، بل نكون جميعـاً عبيداً لرب العَالَمِين ، فالنظام الـذي يصـلح هـو نظـام المُسلِمين، الـذي أنزلَـه الله، لكـن المُسلِمين للأسـف هـم في الـذيل، دائمـاً في مؤخرة القافلة إلا من رحمَ الله، فلا تعود الأُمَّـة إلىٰ رشـدها إلا إذا رجعـت إلىٰ دينها، وأحست بعزتها، و أنَّه لا وجود لها إلا بدينها، فربنا أكرَم هـذه الأُمَّـة بهـذا الدِّين، لكن تركته الأُمَّة.

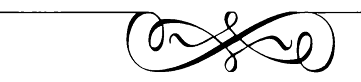
لكن العلامات تدل أنَّ المستقبل لهـذا الـدِّين، وسيخرج هـذا الـدِّين مـن بلاد الكفارِّ كَمَا رَبَّىٰ الله مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قصـر فرعـون، سيُربىٰ هـذا الإسْـلَام في بلادهم، لكن المشكلةُ: المسخُ الذي يُوَجَدُ في المُجْتَمَع لا يسمَح بالاستقامة، مثلاً: يُوَجَدُ جيل من الدُّعاة في الغرب بعضهم هاربون بأديانهم أو مـن بلـدانهم، ربما يبقون فترةً علىٰ هذه الاستقامة، لكـن الجيـل الصـغير الشـاب الـذي عمـره مثلاً خمس سنوات، سـت سـنوات، ويتربـىٰ في هـذاالمُجْتَمَع ويـرىٰ المنكـرات والانحراف الأخلاقي، كيف يُحصَّن؟، لا يصـل سـن العشـرين إلا وقـد مُسِخ، ويحتاج إلىٰ تنظيفٍ من جديد؛ لأنّضاالمُجْتَمَع هناك قذر جداً، يبيح الانحـرافَ الأخلاقي، وسيأتي في بعـض الأحَادِيـث: (حتـىٰ لـو أن أحـدهم أتـىٰ أمـه علانيـة

لكان في أمتي من يفعل ذلك)[١]، فالانحطاطُ الأخلاقي أعظمُ الأسلحةِ القاتلةِ، الانحطاطِ الفكري سهلٌ، الإنسَان ما دام عنده قدرة علىٰ التفكير فإنَّه سيختار، لكن إذا انحط أخلاقياً مُسِخ، أصبح حيواناً، لا همَّ له إلا الشهوةُ، أعتىٰ شهوات الإنسَان هو الشهوة الجنسية، فإذا انفلتت لا يبقىٰ له وجود، وقبل خمسين سُنَّة كنا نسمع ونقرأ عن زعماء الغرب يشكون من انحطاط الأخلاق في مجتمعهم، ويشكُون أنَّ كلَ ستة أو سَبْعة يُقدَّمون للتجنيد للعسكرية لا يصلح منهم إلا شخصٌ واحد، وشكىٰ بذلك رئيس أمريكا ورئيس روسيا قبل خمسين سُنَّة، شكوا من الانحطاط الأخلاقي ومَسخِ المُجْتَمَع، فعندما رأوا أنَّه لا يزال هناك أناس مُسلِمون بأخلاقهم العالية درسوا الوضع، وقالوا: بقاء هؤلاء بالأخلاق مَعَ انحطاطِنا خطير، فلابد أن نُحطِّم أخلاقهم، فأطلقوا القنوات الفضائية لتحطيمِ الأخلاق، للدخول إلىٰ كل بيت.

لكن لعل الله ﷻ أن يحييَ الأُمَّة ويبث فيها روح إنسانيتها مرة أخرىٰ وتصبحُ إن شاء الله قائدةً رائدةً؛ لأنَّ هذه الأُمّة ليست في الحقيقة أمة قتال، بل أمة سَلَام، ولهذا شعار المُسلِم السلام، لا يُوَجَدُ في العالم غير المسلم إذا قابل الإنسَان أخاه أن يقول: السلام عليكم، كان بعض المُسلِمين في بعض السفارات، فدخل وسلَّم علىٰ النَّاس فكان هناك شخص غير مُسلِم، سأل: ماذا قَالَ؟ دَخَلَ واحد السلام عليكم، ودخل الثاني: السلام عليكم، فلفت نظره أنَّ الكلمة واحدة، فقال: يقول السلام عليكم، قَالَ: عجيبٌ المُسلِمون يعرفون السلام، المُسلِمون أصحابُ قتالٍ أصحاب عنف، قَالَ: هذا شعارُ المُسلِمين، هذه الكلمة كانت سبب إسلامه؛ لأنَّه عرف أنَّ هذه دعايةٌ ضد المُسلِمين،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأُمَّة، برقم: (٢٦٤١)، والحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب العلم، برقم: (٤٤٤)، (١/ ٢٠٧).

قـد يُوَجَـدُ في المُسـلِمين أفـراد يُخطئـون في تصـرفاتهم لكـن نحـن أمـةُ السـلام، فالشخص إذا دَخَلَ في دين الله ليس له إلا السَّلام، ليس لـه إلا الإخـاءُ، لـيس لـه إلا الرحمةُ، لكن إذا بقي يحارب رب العَالَمِين ، ويتنكـر ممـا مـن أجلِـه خُلـق، هذا يحتاج إلىٰ تأديب، مثل الشخص الذي يخـرج عـن النظـام في أي بلـدٍ؛ فلـه عقوبات، فنظام العالَم نظامُ ربِّ العالم، فالـذي يخـرج علـىٰ نظـام الـذي خلـقِ العالمَ يُعلَّمُ أنَّه مُخطئ، وأنَّ نظام الذي خلقه هو كـذا، فـإن رضـي أن يـدخلَ في نظام ربِّه فقد أصبح مُسلِمـًا له ما للمسلم وعليه ما علىٰ المُسلِم، لكـن إن أصـرَّ إلا أن يبقىٰ خارجـًا عن طاعة ربه الـذي خلقـه يُقتـل، فـالآن في الـدول إذا خـرج إنسـان علىٰ نظـام الحـاكم يُقتَـل، فكيـف لا يُقتـلُ الـذي يخـرج علىٰ نظـام رب العَالَمِين ؟! ، فشُرعَ الجهادُ من أجل إدخال النَّاس في دين الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (لتتبعن) هو بضم العين وتشديد النون.

قوله: (سنن) بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم، أي الذين قبلكم. قَالَ المهلب: الفتح أولىٰ وقال ابن التين: قرأناه بضمها.

قوله: (حذو القذة بالقذة) هو بنصب حذو علىٰ المصدر، والقذة بضم القاف واحدة القذذ وهي ريش السهم، وله قذتان متساويتان.

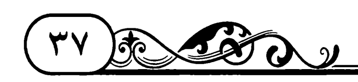
أي لتفعلن أفعالهم ولتتبعن طرائقهم، حتىٰ تشبهوهم وتحاذوهم كَمْا تشبه قذة السهم القذة الأخرىٰ، ثُمَّ إن هذا لفظ خبر معناه النهي عن متابعتهم ومنعهم من الالتفات لغير دين الإسْلَام؛ لأن نوره قد بهر الأنوار، وشريعته نسخت الشرائع، وهذا من معجزاته، فقد اتبع كثير من أمته سنن اليَهُود والنصارىٰ وفارس في شيمهم ومراكبهم وملابسهم وإقامة شعارهم في الأديان والحروب والعادات، من زخرفة المَسَاجِد، وتعظيم القُبُور واتخاذها مَسَاجِد، حتىٰ عبدوها ومن فيها من دون الله، وإقامة الحدود والتعزيرات علىٰ الضعفاء دون الأقوياء، وترك العمل يوم الجمعة، والتسليم بالأصابع، وعدم عيادة المريض يوم السبت، والسرور بخميس البيض، وأن الحائض لا تمس عجينًا، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، والإعراض عن كتاب الله والإقبال علىٰ كتب الضلال من السِّحْر والفلسفة والكلام والتكذيب بصفات الله التي وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ، ووصفه بما لا يليق به من النقائص والعيوب، إلىٰ غير ذلك مما اتبعوا فيه اليَهُود والنصارىٰ.

الشَّرح

قوله: (سنن) بالفتح والضم سَنن وسُنن كلاهما ورد في اللفظ في صحيح البُخَارِي، فالمهلب وابن التين كلاهما من شراحه، فقرئتا بسَنن أو بسُنن كلاهما جائز.

قوله: (**حذو القذة بالقُّذة**) يقال هنا مصدر بمعنىٰ حال، أي حال كونكم كذا، (لتتبعن سُنن من كان قبلكم) أي: يكون حالكم وأنتم تتبعونهم (حذو القذة بالقذة) أي شكلُكم أو وصفُكم كذا.

هنا يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ بعض ما حدث في الأُمَّة من بعض انحرفات سواء كان في الهيئات الخارجية في العادات كالزواجات والمراكب، والهيئات والمساكن واللقاءات، هذه كلها كانت؛ لأنَّ فارسَ والرومَ كانتا أمتين فيهما حضارة مادية، فعندما احتك بهم المُسلِمون تأثروا بهم، وأثروا فيهم، مَعَ أنَّهم أسلموا ودخلوا في الإسْلَام لكن بقيَ في المُسلِمين من هو قابلٌ للتأثر، كذلك في العقائد، عندما تُرجِمت كتبُ الفلسفة التي هي كتبُ عقائدُ و مَنَاهِج تفكيرٍ قبل الإسْلَام فأثَّرت في المُسلِمين، حتىٰ اعتمدها كثيرٌ من المُسلِمين لفهم الإسْلَام وللدِّفاع عنه، وهذا في الحقيقة فيه تَنقِيص للإسلام، فإن الإسْلَام دينٌ ومنهجٌ، لا يحتاج أن نستورد مَنهَجاً من خارج الإسْلَام حتىٰ نقوي به الإسْلَام، فالذي لا يكفيه أن يتبع مَنهَج الإسْلَام في الدفاع عنه بين أمرين: إمَّا أن يتهمَ الإسْلَام بالقصور، و أنَّه ليس فيه ما يكفي، وَإمَّا أن يعتقد أن هذه الفلسفة تُكمِّل الإسْلَامَ أو أنَّها لازمة لفهمِ الإسْلَام، وكلاهما خطأٌ، الإسْلَام يُفهمُ من داخله؛ لأنَّ الفلسفة عبارة عن مَنهَج وثني، مَنهَج أمةٍ من الأمم تفهم بها قضاياها في الدُّنيَا؛ لأنَّ هذه الفلسفة كانت شاملة لكل قضايا الدِّين والدنيا، فيها الأخلاق



وفيها السياسة وفيها الرياضِيات، وفيها العقائدُ، مَنهَج عامٌ لتفكير أمَّةٍ من الأمم، أين بقية الأمم، هل الأمُم الأخرىٰ لم يكن لها تفكير؟ لم تكن تفهم القضايا؟ بلىٰ كان عندها مَنَاهِج للتفكير.

الإسلام مَنهَج تفكير ومنهج فهمٍ. قَيلَ: عندما اتسعت رقعةُ الإسْلَام، وكثرت الشُبهات فاحتجنا إلىٰ أن نأتي بالفلسفة والمنطق، وهل الإسْلَام عاجزٌ عن أن يُقاومَ الشبهاتِ التي تطرأ علىٰ المُسلِمين إلىٰ قيام السَّاعة؟!، الإسْلَام لا يعجزُ، لكن نحن نُخطئ في طريقة الاستنباطِ من القُرْآنِ، فإنَّ عِلمَ الكَلَام الذي نشأ علىٰ مَنَاهِج الفلسفة والمنطقِ علمٌ جافٌ، علمٌ عَقَّدَ الإسْلَام، ولهذا لا نرىٰ أحداً أسلَم علىٰ كتب علمِ الكَلَام أبداً، بل زعماء علمُ الكَلَام في آخر حياتهم يندمون، وبعضُهم يعلن أسفه وتوبته عند موته، فهذه دَخلَت من غير المُسلِمين، تأثرنا بهم ، وهذا مصداق الحَدِيث: (لتتبعن سنن من كان قبلكم) فقد أخبرنا ﷺ بما يُوجَدُ في بلاد المُسلِمين من إهمال التشريعِ الإسْلَامي والحكمُ بغير ما أنزل الله في المحرمات وفي الأخلاقِ وفي العادات، هذه من مُعجزاتِ النَّبوة؛ لأنَّ في أكثر بلاد المُسلِمين لا يحكمون بَشَرع الله ﷻ، ليس هناك حلالٌ وحرامٌ إلا علىٰ حسب النَّظام، فلو زنىٰ إنسان بامرأة في الشَّارِع يعاقب علىٰ زناه في الشَّارِع فقط، لا يُعاقبُ علىٰ جريمة الزنىٰ إلا إذا رفعت هي قضيةً عليه، أي: القضية أصبحت قضيةُ حقٍ شخصي، ليس حقَّ رب العَالَمِين، أي: أنظمةٌ مأخوذةٌ من النظام الفرنسي أو الإيطالي أو النظام الشيوعي أو غيرها، أمَّا نظامُ رب العَالَمِين لا يُوجَد، هل النظام الإسْلَامي يصلحُ ليحكم البَشَر؟ فلماذا لا نَحكُم بالإسلام؟ بعضُ النَّاس يقول: النَّاس ليسوا مُهيئين، متىٰ يُهيئون، وكيف يُهيئون؟ الآن لو جاء شخص كافر يريد أن يُسلم، وقال أريد أن أعرفَ الإسْلَام، هل فيه نظامٌ سياسيٌ أو اقتصاديٌ؟، نقول: نعم، هل



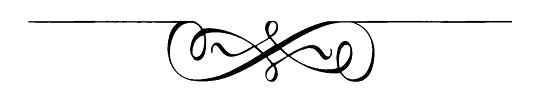
طبقتموه في بلادِكم؟ نقول: لا، صعبٌ تطبيقُه، فيقول: فهذا ليس دينُ ربِّ العَالَمِين إذا كان صعباً تطبيقُه، فأنتم لستم مُقتنعين به ؛ كيف نقتنع به نحن؟! فعملُنا واقعاً يَصدُّ النَّاس عن دين الله، كيف ترضىٰ بأن تُحكِّم نظامَ العبدُ المَخْلُوقُ في حقوق المُسلِمين،وتفضّله علىٰ نظام رب العِباد اللهِ رب العَالَمِين ، فهذا واقع في كثير من المُسلِمين في الحقيقة وهو واقعٌ مخزِي، لا يُرضي الله ﷻ، وما دام هذا الواقع موجوداً فإن الفتن لا تنتهي؛ لأن النَّاس يُحبون دينَهم، لكن قد يُخطئون في طريقة الدَّعوَة إلىٰ هذا الدِّين، وإن كان - ولله الحمد - يُوَجَدُ بوادر في البُلدَان الإسْلَامية للعودة للدين، وحتىٰ ممن لم يعرف الإسْلَام بدأ يتظاهر به.

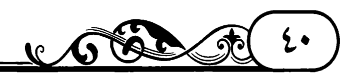
وحدث في روسيا عندما كان الحاكم شيوعياً النَّاس خرجوا من الشيوعية وانتهت الشيوعية، وإذا بهذا الحاكم الشيوعي يتلون بلون آخر أصبح ديمقراطياً؛ لأن الشعب يريد الديمقراطيةَ، هكذا في أكثر بلاد المُسلِمين هم سيرجعون بهذه الصورة،لكن نريد أن يدخلوا الإسْلَامَ عن قناعةٍ ، هذا الإسْلَام ممتعٌ أكثر شيء في حياة الإنسَان فائدةً له ،كَمْا جاء في الحَدِيث: (**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**)[1] حلاوة المنصب ليست حلاوة، حلاوة المال ليست حلاوة؛ لأن الشخص يعيش في خوفٍ وفي قلق واضطراب، لكن حلاوةَ الإيمان التي يسكبها الإسلام فس قلب المرء ، إن كان غنياً فإن الإيمان يزيده غنىٰ، وإن كان فقيراً فالإيمان يُغنيه، وإن كان مريضاً فالإيمان يُصبِّره، وإن كان مُتعافياً فالإيمان يدفعُه للشكر، الإيمان أعظمُ النعم، والنَّاس سيعودون، هذا الجيل الأول ربما مُسخ كثير منهم؛ لأنَّهم تربوا علىٰ عينِ غيرِ المُسلِمين، لكن الجيل الجديد هو الذي - بإذن الله في المستقبل - علىٰ يده تكون العودة إلىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

هذا الدِّين؛ لأن الأجيال الصغيرة الآن في كل مكان ترىٰ فيهم وعيًا وصحوة؛ لأن الدِّين هو دينُ علم، والجيلُ الماضي كان جاهلاً، ولهذا انبهروا بالحضارة الغربية، هذا الجيلُ الجديد لم يعد تنطلي عليه الحضارة الغربية، هذه الحضارة لا تحقق مطالبَ النَّفْس، ولا مطالبَ القلب، ولا مطالب الروحِ، فأصبح الآن عندهم وعي، فليس بالإمكان أن يخدعوا، لكن الذي يُؤذيهم هذا البثُّ اللاأخلاقي، ترىٰ الإنسَان ربما يسهر طوال اللّيل علىٰ مناظرَ سيئةٍ، ويأتي في اليوم الثاني وهو لا يُنتج، ولا يدرُس، ولا يعملُ، إلا من رحم الله ﷻ؛ لأن النَّاسَ فُتحت لهم أبوابُ الشهوات. في الماضي كان الإنسَان يطيع الله، ما عنده فساد، لكن عندما جاء الفسادُ -وهنا المحكُ -فالذي يطيعُ الله وهو يستطيع أن يعصيَ غير الذي يطيعُ الله وهو لا يستطيع أن يعصي، لو كان المُجْتَمَع كلُه صالحًا وليس فيه فسقٌ فستطيعُ الله، لكن لو انتقلت إلىٰ مجتمع آخر وجدت الفسقَ- هنا المحكُّ -هل أنت تطيع الله عن قناعة وإلا كنت تطيعُ الله عن عجز، هناك فرقٌ بينهم، لهذا هناك كلام لابن تَيمِيَة رحمه الله إن من رحمة الله بالعوام ألا يعرضُهم للشبهات. فمن رحمة الله بالإنسان العامي المُسلِم ألا يُعرَّض لشبهةٍ، فإنَّه لو عرَضت له ربما لا يطيق الاستقامة، نسأل الله أن يوفقنا للاستقامة.





قوله: (حتىٰ لو دَخَلَوا جحر ضب لدخلتموه) الجحر بضم الجيم بعدها حاء مهملة معروف، وفي حَدِيث آخر (حتىٰ لو كان فيهم من أتىٰ أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك).

وفي حَدِيث آخر: (حتىٰ لو أن أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه).



قوله ﷺ: (حتىٰ لو دَخَلَوا جحر ضب لدخلتموه)[1] هذا الحَدِيث لا يصح.

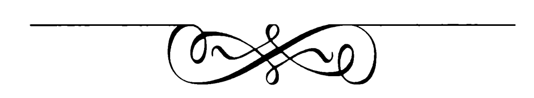
قوله ﷺ: (حتىٰ لو أن أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه)[2] وهذا حَدِيث حسَّنه بعض العُلَمَاء، لكن الواقع يُصححه، الآن في البُلدَان الغربية بعض المناظر يراها الإنسَان رجلٌ يُقبِّل امرأةً أو يعمل معها بعض الأعمال السيئة في الشَّارِع ، ويقولون: الذي يفعلُ هذا عنده أدبٌ!، لكن هذا الذي ينظر إليهم، هذا إنسان ما يستحيي؛ لأنَّه تدَخل في الشئُون الشخصية!!، تراه في المطعم، تراه في الحديقة مثل الحيوانات، قلنا إن إبليس هدفه الأول إزالة الحياء : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف:٢٠]، فالهدف هو إزاحة الحياء، فمصداق حَدِيثِ: (حتىٰ لو أن أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه) وجد في بلدان الغرب، ويوجد مثله في بعضِ بلاد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب، برقم: (٨٤٧٠)، (٤/ ٦٢٢)، وصححه ووافقه الذهبي عليه.

المُسلِمين، لا نقول كثيراً، لكن يُوَجَدُ ممن طبَّق أنظمتهم، بدعوىٰ: هذه حريةٌ شخصية، والحرية الشخصية لا نتدخل فيها!!، انحطاط أخلاقي اسمه حريةٌ شخصية! توجد في بلادهم هذه الصورة، ويوجد مثلها في بلاد المُسلِمين، وهذا من معجزات نبينا ﷺ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

صحت بذلك الأحَادِيث فأخبر أن أمته ستفعل ما فعلته اليَهُود والنصارىٰ، وفارس من الأديان، والعادات والاختلاف، قَالَ شيخ الإِسْلَام: هذا خرج مخرج الخبر والذم لمن يفعله، كَمْا كان يخبر عما يكون بين يدي السَّاعة من الأشراط والأمور المحرمة. وقال غيره: وجمع ذلك أن كفر اليَهُود أشد من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملاً ولا قولاً، وكفر النَّصَارَىٰ من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون ما لا يعلمون، ففي هذه الأُمَّة من يحذو حذو الفريقين، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليَهُود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النَّصَارَىٰ، وقضاء الله نافذ بما أخبر به رسوله ﷺ بما سبق في علمه، لكن ليس الحَدِيث إخباراً عن جميع الأُمَّة لما تواتر عنه أَنَّها لا تجتمع علىٰ ضلالة.

الشَّرح

هنا يقول الحَدِيث خرج مخرج الخبر الذي يراد به النهي أو الذم، ليس الخبر يراد به الخبرُ المجرَّد، إنَّمَا أراد به النهي أو التحذيرَ، ولا يعني هذا أن كلَّ الأُمَّة ستقع، بل ستبقىٰ طائفة من الأُمَّة علىٰ الحق منصورةً، لا يضرها من خذلها أو خالفها، هكذا في الألفاظ بعضها: " منصورة "، وبعضها" لا يضرها من خالفها" ؛ لأن كلمةَ منصورة تدلُّ علىٰ أَنَّها غالبةً، لكن الثانية " لا يضرها من خالفها أو خذلها " تدل علىٰ أَنَّها مستقيمة وإن لم تكن غالبةً، فالطائفة ستبقىٰ إلىٰ قيام السَّاعة، أمَّا وجود هذا فلا أي يعني أنَّ الأُمَّة كلها ستكون علىٰ هذا المنهج.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (قالوا يا رَسُول اللهِ: اليَهُود والنصارىٰ؟ قَالَ: فمن؟) هو برفع اليَهُود خبر مبتدأ محذوف، أي أهم اليَهُود والنصارىٰ الذين نتبع سننهم؟

وقوله: (قال: فمن؟) استفهام إنكار، أي فمن هم غير أولئك؟ ثُمَّ أَنَّه فسر هنا باليهود والنصارىٰ، وفي رواية أبي هريرة في البُخَارِي بفارس والروم، ولا تعارض كَمْا قَالَ بعضهم: لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام، فحيث قيل فارس والروم كان ثُمَّ قرينة تتعلق بالحكم بين النَّاس، وسياسة الرعية، وحيث قيل اليَهُود والنصارىٰ كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات، أصولها وفروعها كذا قَالَ. ولا يلزم وجود قرينة، بل الظاهر أَنَّه أخبر أن هذه الأُمَّة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات، والعادات، والسياسات مطلقًا، والتفسير ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرىٰ، إذ المقصود التمثيل لا الحصر.

ووجه مطابقة الحَدِيث للترجمة واضح؛ لأن الأمم قبلنا وجد فيها الشِّرْك، فكذلك يُوَجَدُ في هذه الأُمَّة كَما هو الواقع.


الشَّرح

قلنا إن اختلاف اللفظين إمَّا أن يكون أراد تقليدَ اليَهُودِ والنَّصارىٰ في قضايا الديانات، وفارسٍ والرومِ في قضايا السياسات، فيكون لكل من الحَدِيثين مَقصدٌ، إذا كان الحَدِيث قيل في مناسبتين. إمَّا أن يُرادُ أن الجميع أراده النَّبي ﷺ، أو يكون لكل منهما مَقصدٌ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: ولمسلم عن ثوبان أن رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: (إن الله زوىٰ لي الأَرْض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قَالَ: يا مُحَمَّد، إني إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قَالَ من بين أقطارها حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا) ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: (وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يومَ القِيَامَة، ولا تقوم السَّاعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان، و أنَّه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنَّه نبي وأنا خاتم النَّبِيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ).

الشَّرح

هذا الحَدِيث بشقَّيه، الأول رواه مُسلِم، والشقَّ الثانيَ استدركه البرقانيُ، فإنَّ البرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاد الألفاظَ التي وردت من نفس الطريقة عند أصحاب الصَّحِحَين، ولكنها ورَدت ألفاظٌ زيادةٌ، فذكر نفس السَّنَد وذكر الزيادةَ التي تركها أصحاب الصَّحِحَين.

وفي هذا الحَدِيث بشقَّيه ستُ عشرة مسألةٍ، والحياةُ مَعَ كلام الأَنْبِيَاء حياة تضيء القلبَ وتربي النَّفْس، وتفسح الأفقَ للإنسان المُسلِم، فالإنسان

المُسلِم شخصٌ آخرُ ينظر إلىٰ هذا الكون نظرةَ أخرىٰ، ويتعامل مَعَ الغيب بمعاملة خاصة، فالمُسلِم هو الإنسَان الوحيدُ الذي قد ورد في دينه ما يخبره عن مستقبله، وماذا سيحدث؟

أولاً: أنَّ قولَه ﷺ: (**أنَّه زوي له مشارق الأَرْض ومغاربها**)[1]، والعلماء في القديم قد يحتارون في تفسير بعض الأحَادِيث، لكن في العصر الحَدِيث قد جدَّت وسائلُ من صناعة البَشَر يَسرت فهمَ كثيرٍ من قضايا الغيب، فالآن هذا الجهاز الذي يُسمىٰ التليفزيون يرىٰ الشخصُ من خلاله صورَ الأَرْض، وصورَ الفضاء وهو جهازٌ لا يتعدىٰ خمسين سنتيمتراً، أو ثُمانين، أو متر، فيرىٰ أشياءَ بعيدةً، وهذا من صناعة الإنسَان، فما بالك بقدرة الخَالِق ﷻ؟ فربُّنا زوىٰ له الأَرْض وصغَّرها، أو رآها كَمَا هي، فإن الله لا يُعجزه شيء، فالآن عندما يقال: أرأىٰ النَّبِي ﷺ مشارق الأَرْض ومغاربها؟ ؛ فإنَّه لا يصعُب علينا فهمَ ذلك؛ لأننا نرىٰ في صناعة الإنسَان اليوم ما يقرب ذلك.

وكذا عندما يقال إن الإنسَان يُعذَّب في قبره، والآخر لا يراه لا نعجب منه، ففي صناعة الإنسَان اليوم جهاز اخترعوه لطبخ الطعام بأشعة الليزر أو بأشعة خاصة، يوضعُ اللَّحم في صحن من البلاستيك أو من الورق ويدخل في الفرن ويخرج وقد نضج، ولم يصب البلاستيك أو هذا الورق بشيء من الحرارة، كيف فرقت الأشعة بين هذا وبين هذا وهي من صناعة الإنسَان؟ فكذا قد يدفَن شخصان في قبرٍ واحد وأحدهما يُنعم والآخر يُعذب ولا يَحس كلُّ واحدٍ منهما بالآخر. كذلك في الطبق الفضائي الذي يستقبل في الثانية الواحدة مئات المكالمات بل ملايين المكالمات، طبقٌ فضائيٌ واحدٌ، يستقبلها ويبثها،

---

(١) أخرجه مُسلِمكَمْا قَالَه صاحب المتن، كتاب، باب، برقم: (٢٨٨٩)، (٤/ ٢٢١٥).

ولا تختلط كلمةٌ بكلمةٍ، فما بالك بالخالِق الذي يسمعُ أصواتَ النَّاس ودعاءهم وكلامَهم؟، فكلما جدَّ في حياة النَّاس صناعات حَدِيثة فسَّرت لنا بعض جوانب الغيب الذي ربما قد لا يدرُكها أو لا يتصورها بعضُ النَّاس، وربما ذهنه لا يقبلُها، في الماضي عندما أنكر المتكلمون من المعتزلة ومن الأشاعرة أنَّ الله يتكلم كلامًا لفظيًا قَالَوا: أنَّه يلزم من الكَلَام أن يكونَ له أسنان وله حنجرة وله لسان، الآن نرىٰ الراديو، والتليفزيون، والتليفون، وهذه أسماؤها التي وضعها مُصنعوها، يخرج منها كلام وليس لها أسنان، وليس لها لسان، وليس لها حنجرة، وهذه صناعةُ بَشَر، وما كان عقل الُمتكلمين يستطيع أن يدرك هذا الجانب الغَيبي، فحاول أن يُئَوِّلَ، لكن كلما نرىٰ من صناعات البَشَر اليوم نتأكَّد أنَّ العقل قدرتُه محدودةَ ولا يُسلِّمُه إلا التَّسليمُ؛ لأنَّه لم يُحِطْ بكل شيء، لو قيل قبل ألف سنة أن الإنسَان سيرىٰ شخصًا علىٰ بعد ألف كيلو لا يُصدَّقُ، لو قيل أنَّه يستكلم مَعَ إنسان علىٰ بعد ألف كيلو لا يُصدَّق؛ لأنَّه يفكر هل رأىٰ شيئًا في حياته يقيسه عليه؟ لم يرَ، فالأخبار في الغيبيات كثير منها إنَّمَا نستقبله بالتَّسليم، فعندما قَالَ: زُويت لي الأَرْض. نَصدقُ؛ لأنَّا نرىٰ في صناعة الإنسَان ما يدل علىٰ أن الإنسَان قد يرىٰ البعيد بجهاز من صناعة البَشَر، وعندما أنكرت قريش علىٰ النَّبِي ﷺ أنَّه ذهب إلىٰ بيت المقدس كشف الله الحجابَ، وإذا بنبينا ﷺ يرىٰ بيت المقدس أمامهم، فوصفه لهم وصف من يراه. فالله قادرٌ إذا أراد فإنما يقول لأمره كن فيكون.

ثانياً: أن ما رآه النَّبِي ﷺ سيدخلُ تحتَ ملك أمته، وهذا من معجزات النُّبوة، وقد وقع كَمْا أخبر، رأىٰ مشارقَ الأَرْض ومغاربها، وهذا دَخَلَ تحت

ملك أمته ﷺ كَمْا قَالَ (**وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي**)(١)، وقد كان انسياح المُسلِمين شرقًا وغربًا أكثر من انسياحهم جنوبًا وشمالاً، كذلك هذا من دلائل النبوةِ، فإنَّهم وصلوا إلى الصين في الشرق ووصلوا إلى فرنسا في الغرب، وآخر معركة سقط فيها عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس هي معركةُ بلاط الشهداء في جنوب فرنسا لحكمة أرادها الله ﷻ ليبقى الغربُ، هو وريثُ الحضارة المادية التي يجري على يدها من هذه الحضارة فسادها وخيرها، فهذا من قدر الله، فأصبحت هذه المنطقة التي رآها ﷺ تحت ملك أمته، أمَّا الشمال والجنوبُ لم يكن فيهما انسياح، فالجنوب كان البحر العَرَبِي ليس فيه سكان، وفي الشمال دول شمال أوروبا لم يكن يصل إليها الانسياح،وهذا من دلائل نبوته ﷺ.

ثالثاً: أنَّه ﷺ أخبر بأن الكنزين الأحمر والأبيض وهما كنزا كسرى وقيصر يأتيان أمته، وسُتنفق في سبيل الله، إنَّه قد بَشَر به ﷺ، وهذا أيضًا من دلائل الإعجاز النبوي، فإنَّ هذا غيبٌ لا يُعرف إلا عن طريق الوحي، وقد وقع كَما بَشَّر به ﷺ.

رابعاً: أنَّه ﷺ سأل الله ﷻ ألا يهلِك أمتَه بسنَةٍ عامَّة، السِنة: الجائحة التي تجتاح المُسلِمين، فتستأصلهم من أصلِهم، فكما سيأتي أن الله - **تَعَالَى** - وعده بذلك.

خامساً: كذلك أنَّه ﷺ سأل الله ﷻ ألا يُسلَّط عليهم عدواً من خارجهم فيستأصلهم، وقد وعد الله بذلك.

---

(١) سبق تخريجه آنفًا.

سادساً: إخبار الله ﷻ بنفاذ قدرِه، قدرُ الله لا يُـردُّ، والـذين يظنـون أن قـدرَ الله يـردُّ لـم يُمحصُـوا النَّصـوص، أحيانـًا بعـض العُلَمَـاء عنـدما يقـف أمـام النَّصوص لا يدرسُ أسانيدها، فيبحـث عـن التوفيـقِ بينهـا ويكـون التوفيـق غيـرَ سـليم؛ لأنَّ التوفيـقَ لا يكـون إلا بـين نصـوص صـحيحة، أمَّـا إذا كـان هنـاك نصوص صحيحةً وقابلها نصوصٌ ضعيفةٌ لا نوفِّق، ما صح يُؤخذُ وما لم يصح يُردُّ، ونرىٰ الكتب القديمة جميعها بدون استثناء جمعت الأحَادِيث الصَّحِيحةَ والضـعيفةَ للتوفيـق بينهـا، مـثلاً: كتـاب مُشـكل الآثـار للطحـاوي، جمـع فيـه الأحَادِيث التي صحت والتي لم تصح وحاول يجمع بينها، كذلك ابـن قتيبـة في مُشـكل الحَـدِيث، كـذلك قبلـه الفـوربي، هـؤلاء العُلَمَـاء ﷺ يتهيبـون، لكـن المـنهج الصَّحِيح السـليم أولاً نبحـث عـن مـدىٰ صـحة الحَـدِيث، فـإذا صـح الحَدِيث وقابله حَدِيثٌ آخرُ صـحيحٌ وتعارضـا نبحـث عـن التوفيـق بينهمـا، لا نبحث للتوفيق بين صحيح وضعيف، وعندما جاءت أحاديثُ القَدَر يُفهم منها أن القَدَر قد يردُّ، العُلَمَاء قسموا القَدَر إلىٰ قسمين كَمْـا سيأتي مُنَجَّزٌ، ومُعلـقٌ، وكأنَّ الله لا يعلمٌ ما سيكون وهذا فيـه خطـورةٌ، ربُنـا يعلـمُ، قـد كتـبَ كـلَّ شـيء كَمْا ورد في السُنَّة (**أن الله أول مـا خلـق القلـم فقـال لـه: اكتـب، قَـالَ مـاذا أكتـب؟ قَالَ: اكتب كل شيء كائن إلىٰ يـومَ القِيَامَـة**)[1]، فلـم يبـق هنـاك أمـرٌ لـم يُكتـب، فمعلَّقٌ إنَّمَا هو عنـد العبـدِ، وهـو عنـد الله ثابـتٌ، فـالله يخاطبنـا بحسـب فهمنـا،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُنَّة، باب في القَدَر ، برقم: (٤٧٠٠)، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب: ومن سورة (ن)، برقم: (٣٣١٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٧٠٧)، (٣٧/ ٣٨١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب السير، باب مبتدأ الخَلْق، برقم: (١٧٧٠٣)، (٩/ ٤)، والحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب التفسير، تفسير سورة (ن) والقلم، برقم: (٣٨٩٧)، (٢/ ٥٨٦)، وأخرجه أيضًا الطبراني في المعجم الكبير، وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلىٰ في مسنده.

لا أنَّ الله ﷻ لا يعلمُ ما سيكون، فإنَّه ﷻ عَلمَ ما سيكون إلىٰ قيام السَّاعة وما بعد قيام السَّاعة، لا يخفىٰ عليه خافية.

سابعاً: استجابة الله ﷻ لدعوة نبيه ﷺ أنَّه لا يهلكهم بسَنَةٍ عامَّةٍ.

ثامناً: كذلك استجابته ﷻ ألا يُسلِّط عليهم عدواً خارجياً

تاسعاً: أن هلاك المُسلِمين لا يأتي إلا من داخلهم، وعدَ الله بحماية البيت المُسلِم، إلا إذا فتحَ المُسلِم البابَ للعدو، فيتحمَّلَ ما جنته يداه، ولكن إن حرسنا أبوابَ مجتمعنا لا يستطيع العدو دخول أبوابنا، لكن إذا أعنَّاه وفتحنا الباب دَخَلَ العدوُ، مثل الذين يكونون في بيت وقد أحيطوا بلصوص من كل مكان والبيت مُحصنٌ، وفتح بعض السفهاء للصوص دَخَلوا، لكن إذا كان الجميع يداً واحدةً، وكانوا مُتفقين علىٰ ألا يفتحوا لا يستطيع اللص أن يدخل، فوعد الله أن يحفظ المُسلِمين حتىٰ يكون بعضهم يقتل بعضاً، فيحملون وزرَ أنفسهم، عندئذ يضعفون ويدخل العدو عليهم من خارجهم.

عاشراً: خوف النَّبي ﷺ علىٰ أمته من الأئمة المضلين أصحابِ السلطة من الحكام أو أصحاب الثراء، أو العُلَمَاء، هؤلاء أئمة النَّاس؛ لأن أئمةَ النَّاس من أعطوا نِعماً إمَّا ملكاً، وَإِمَّا عِلماً، وَإِمَّا مالاً، فهؤلاء هم الذين خشي النَّبي ﷺ منهم علىٰ أمتِه، وعندما نقرأ التاريخ نرىٰ أن الهلاك والفساد إنَّمَا جاء من الكُبراء،كَمْا سيأتي في قوله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الأحزاب:٦٧، ٦٨]. هناك يتحسرون، ويتبرأ بعضهم من بعض، والله قد صور ما سيكونك َمْا سيكون، وهذا الحوار بين المستضعفين والكُبراء سيقع في النَّاركَمْا أخبر الله ﷻ؛ لأن الأحداث أمام الله مكشوفة،كَمْا يقول أهل العلم: ليس عند الله عاملُ زمنٍ، أو عاملُ مكان،كَمْا

قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]، فربنا أقرب من حبل الوريد من الإنسَان وإن كان على عرشه؛ لأنَّ المسافة المكانية بالنسبة لله عدمٌ، والمسافة الزمنية بالنسبة لله عدمٌ، الإنسَان هو الذي في حقِّه مسافاتٌ، فخاف نبيُّنا على أمته من الأئمة المُضلين.

الحادي عشر: إخباره ﷺ أنَّه إذا تقاتل المُسلِمون فإن ذلك يستمر فيهم إلى يوم القِيَامَة، وقد وقع كَمْا أخبر عليه الصلاة والسلام.

الثاني عشر: إخباره ﷺ بأنَّه لا تقوم السَّاعة حتى يلحَق حيٌ من المُسلِمين بالكفار، والآن في العصر الحاضر ليس حيٌ واحدٌ يلحقُ الكُفَّارَ بل أحياءٌ ،كَمْ من المُسلِمين رضيَ بأن يكونُ من الكفَّار، وقد صرَّح في بعض البُلدَان الإسْلَامية بعض كتابهم قبل فترة: نحن لسنا من العَرَب، نحن غربيون فكراً، وقلبـاً، وقالبـاً، نحن نشاركُ في البحر المتوسط الذي يحيط به الأوربيون من كل مكان، يقولون: نحن غربيون في الأساس، وإنما جاء مُستعمر استعمرنا وغير طبيعتنا، فهؤلاء دعاةٌ إلى أن يكونوا من قَوميات الكفرِ، وكذلك يُوَجَدُ في بعض المُسلِمين من يسعى أن يكون مَعَ التجمعات الكافرة، وقع في المُسلِمين إخباره ﷺ بأنَّه لا تقومُ السَّاعة حتى يعبد طوائف من المُسلِمين الأوثان، وقد وقع في بلاد المُسلِمين أن عبدوا القُبُور والأولياء ولا زال إلى اليوم، والأوثان قد تكون من الأحياء، وقد تكون من الأموات، وفي العصر الحاضر الإسماعيلية يعبدُون رئيسهم، فمعبودهم الزعيم الذي يرأس الطائفة، حتى قَالَ له بعض النَّاس: كيف ترضى أن يعبدَك النَّاسُ من دون الله؟ فابتسم، وقال: أنا خيرٌ من البقرة، في الهند يعبدون البقرة، أنا أحسن من البقرة، وهو يُوزَن بالذهب في كلِّ عام، فغوغاء النَّاس يقبلون أن يكونوا عابدين لبعضهم بعضـاً، فإذا رضي الإنسَانً بأن يعبدَ البقرَ يرضى بأن يعبد الإنسَان، إذا رضي بأن يعبد الحجرَ يرضى بأن يعبد الإنسَان، فكل إنسان قابلٍ لأن يعبد الله، وأن

يعبدَ خلقـاً من خلق الله، القلبُ فيه قابلية، بحسب ما يُربىٰ، فالأصل أنَّه خُلقَ ليعبدَ الله، لكن هو قابل للانحراف كَمَا جاء في الحَدِيث أنَّه قَالَ ﷺ: (**كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهود أنَّه، أو ينصر أنَّه، أو يمجس أنَّه**)[١] أي: التربية الأسرية تغير اتجاه الفطرةِ في القلب.

فعبادة الأوثـان قـد وقعت في الأُمَّـة ولا زال مـن يعبُدُ الأوثـانَ، وإن كانـت الأوثان في كل عصر لها أشكال، فكل ما عُبد من دون الله يسمىٰ وثنـاً، قد يكـون الذي يُعبد من دون الله فرداً من البَشَر، صاحبَ سلطة أو صاحبَ جاه، فيستعبدُ النَّاس، وقد يكون مفهومـاً، وقد يكون أصحابُ الفن، وقد تكون الرياضـة، كـل شيء يستولي علىٰ قلبك حباً وبُغضـاً، وولاءً وعـداءً، وحركـةً ووقوفـاً فهـذا وثن،كَمْا جاء في الحَدِيث قوله ﷺ: (**اللهم لا تجعـل قبـري وثنـاً يعبـد**)[٢] قَـالَ العُلَمَاء: كل ما يُعبد من دون الله فإنَّه وثَنٌ عند عابِدِه، لكن القَبْر لا أُسميه وثَنـاً، لكن أقول اتخذوه وثَنـاً، لا نطلِق علىٰ قبر النَّبي ﷺ أو قبر الصَّالِحِين أنَّه وَثـنٌ، فـبعض النَّـاس يَرضـىٰ بـأن يكـون ذلـيلاً وأن يكـون عبـداً رقيقـاً للبَشَـر، إمَّـا لمصلحة دنيوية وَإمَّا يكون عنده حاسة سادسة، اسـمها حاسـة العبوديـة، مـا لـم تجده نفسه تهفو للعزةِ والكرامـة إنَّمَـا هـو مثل الـذُّباب كلمـا تطـرده مـن مكـان رجع، يَرضىٰ بأن يكون عبداً لغير الله، فهذه الحاسة توجد عندما يختفـي العلـم الشرعي، وعندما يضعف الإيمان بالمجتمع.

الثالث عشر: إخباره ﷺ بظهور أدعياءٍ للنُّبوةِ، (**أنَّه لا تقوم السَّاعة حتىٰ يخرج ثلاثون كذابـًا كلهم يزعم أنَّه رَسُول اللهِ**)[٣] وقد وقع في الأُمَّة، وقع قبل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

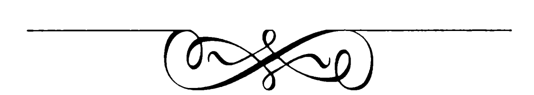
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب في خبر ابن الصائد، برقم: (٤٣٣٣)، وأبو

موته ﷺ من ادعىٰ أنَّه شريكٌ مَعَ نبينا ﷺ في النّبُوة ، فمسيلمةُ الكذَّاب أول من دعا إلىٰ هذا، ولكن قتله الله، وكذلك في عصر الصَّحَابَة ﷺ عندما خرج الأسود العنسي في اليمن، وسجاح، وتتابع أدعياء النبوة إلىٰ اليوم، قد يقول قائل: إن مُدَّعي النَّبوة كثيرون، فما بال النَّبِي ﷺ حصرهم في ثلاثين؟ حصرهم فيمن تكون له دعوةٌ مستجابةٌ وأتباع، فادعىٰ القادياني في الهند، وادعىٰ في عصره البهاء، وقبله الباب، وادعىٰ في أمريكا مُحَمَّد إليجا علي، لا زال إلىٰ اليوم أتباعه البلايين ، ورثه ابنه وارث الدِّين، وهم لا زالوا إلىٰ اليوم يزعمون أنَّ هذا الدِّين نزل إلىٰ السود وليس للبيض، وأن الشَّيطَان شكلَه أبيض، هذا من باب المبالغة لكرههم للسود؛ لأنَّ هناك عنصرية، ويعبدون الله علىٰ طلاسم، وكذا رجل يجمع بين النَّصرانية والإسلام، وهذه ديانة قائمةٌ الآن، قبل فترة خرج محمود طه في السودان، لم يدَّعِ النبوةَ صراحةَ لكن مفهوم كلامه أنَّه يَدعي النُّبوة، يقول: مُحَمَّد جاء بالرسالة الإسْلَامية الأولىٰ، وفي العصر الحاضر الرسالة الإسْلَامية الثانية، وهذه الرسالة الثانية لا تفصل بين الرجال والنساء؛ لأنَّه عصر التنويرِ، حتىٰ كان بعض الطالبات والطلاب في الجامعات مختلطين، ويوزعون كتبهم، ثُمَّ وقع الخلاف مَعَ النميري آنذاك، ومعروف أنَّه قتله، فالشاهد أن أدعياء النبوة مستمرون، وهذا من معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام..

الرابع عشر: إخباره ﷺ بأنَّه لا نبيَ بعده، لكن سيأتي مُدَّعون، أمَّا الأَنْبِيَاء فقد انتهىٰ مجيئهم.

= يعلىٰ في مسنده، برقم: (٦٥١١)، (١١/ ٣٩٤)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفتن، باب ما ذكر في فتنة الدجال، برقم: (٣٨٧٢٠)، (٢١/ ٢٥٣).

الخامس عشر: إخباره ﷺ ببقاء طائفة من أمته علىٰ الحق، وردت فيها نصوص بعضها تقول: منصورة، وبعضها تقول: ظاهرة، وبينهما خلاسسف؛ لأن منصورة يكون لهم سلطة وقوة وغلبة، واللفظ الثاني: ظاهرة أي: بارزة، من أراد أن يفيءَ إليها يفيء، لكن قد تُبتلىٰ، ولعله اللفظُ الراجحُ والله أعلم، فلا تخلو المُجْتَمَعات الإسْلَامية من أشخاص يُمثِّلون الفهم الصَّحِيح للدين، ليس شرطًا أن يكونوا في مكان واحد، ولا أن يكونوا علىٰ مذهب واحد، إنَّمَا يكون هناك استقامة من أفراد أو مجموعات تكون في المُجْتَمَعات الإسْلَامية تحافظ علىٰ نقاء الدِّين، وها هو الدِّين وصلنا اليوم، نستطيع أن نرىٰ الدِّين كَمْا أنزله الله ﷻ، حفظته تلك الطائفةَ المنصورةَ في كل جيل، فهذا هو الُمراد بالطائفةِ المنصورةِ،وليس المَراد بأنَّها تكونُ غالبة، فإنَّه قد يمرُّ بالمُسلِمين ضعفٌ شديد حتىٰ لا يكون لهم غلبةٌ، لكن يُوَجَدُ المتمسكون بدينهم، فهذا هو الُمراد والله أعلم.





قال المؤلف رحمه الله:

ش: هذا الحَدِيث رواه أبو داود في سننه، وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف، ورواه الترمذي مختصراً ببعضها.

قوله: (عن ثوبان) هو ثوبان مولىٰ النَّبِي ﷺ وصحبه ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سُنَّة أربع وخمسين.

قوله: (زوي لي الأَرْض) قَالَ التوربشتي: زويت الشيء جمعته وقبضته يريد به تقريب البعيد منها حتىٰ اطلع عليها اطلاعة علىٰ القريب، وحاصله أن الله طوىٰ له الأَرْض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة نظره.



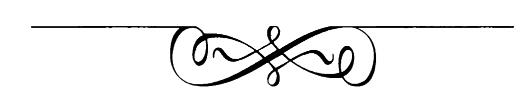
الشَّرح

قول الشَّارِح: **(هذا الحَدِيث رواه أبو داود في سننه)** المصنف رحمه الله لم يعزُ الحَدِيثَ إلىٰ سنن أبي داود، مَعَ أن فيه الحَدِيث بكامله، لكن أراد رحمه الله أن يُبين أنَّ هذه الزيادةَ وردت من طريق أصح من طرق أبي داود، وهي مُستخرجة علىٰ صحيح مُسلِم، وهذه المُستخرجات سَنَدُها صحيح، لكن أصحاب الصَّحِحَينِ اختاروا بعض ألفاظ الحَدِيثِ، وهذا يدُلنا علىٰ بُعد نظره رحمه الله.

قوله: **(ونزل بعده الشام ومات بحمص سُنَّة أربع وخمسين)** وهكذا أكثر الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم لم يموتوا في المدينة، فأكثرُ الصَّحَابَة رضي الله عنهم خرجوا من بلادهم ينشرون الإِسْلَام، فماتوا في أماكن مُتفرقة من الأَرْض، إمَّا في الشام وإمَّا في أفريقيا، وَإِمَّا في المشرق.

قوله ﷺ: **(زوي لي الأَرْض)** نقرأ في علمِ الهندسة الزاويةَ، أي: يلتقي طرفا خطينٍ مستقيمين في نقطة واحدة، فهذه أصغر منطقة للخطين، كلما يبتعد

الخطَّان اتسعت المساحة، فزَوىٰ له: صَغَّرها حتىٰ أصبحت أمَامه مثل الزَّاوية، مثلُ المِنظار الُمكبِر تنظر به فإنَّه يُقرب لك البعيدَ ويحصره في منطقة أصغر، فاللفظ دقيقٌ جداً، (زُويت لي الأَرْضُ) أي: جُمِعت وصُغرت حتىٰ رأىٰ مشارقَها ومغاربها.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقـال القرطبـي: أي جمعهـا لـي حتىٰ أبصـرت مـا تملـك أمتـي مـن أقصـىٰ المشارق والمغارب منها، وظاهر هذا اللفظ يقتضـي أن الله - تَعَالَى - قـوىٰ إدراك بصـره ورفـع عنـه الموانـع المعتـادة، فـأدرك البعيـد مـن موضـعه، كَمْا أدرك بيـت المقدس من مَكَّةَ وأخذ يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه، وكما قَـالَ: (إني لأبصـر قصر المدائن الأبيض)، ويحتمل أن يكون مثلها الله له، والأول أولىٰ.

قوله: (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لـي منهـا) قَـالَ القرطبي: هـذا الخبـر وجد مخبره كَمْا قَالَه، فكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمتـه اتسـع إلـىٰ أن بلغ أقصىٰ بحر طنجة بالنون والجيم الـذي هـو منتهـىٰ عمـارة المغـرب وإلـىٰ أقصىٰ المشرق، وما وراء خرسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسـند والصـغد، ولم يتسع ذلك الإتساع من جهة الجنوب والشـمال، ولـذلك لـم يـذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّـه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه.

وقوله: (زوي) يحتمل أن يكـون مبنيـاً للفاعـل وأن يكـون مبنيـاً للمفعـول، والأول أظهر.



الشَّرح

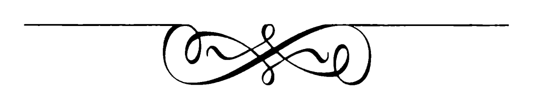
هذا الحَدِيث: (إني لأبصر قصر المدائن الأبيض)[1] لا يصح.

---

(١) أخرجـه النسـائي في السـنن الكـبرىٰ، كتـاب السـير، بـاب حفـر الخنـدق، بـرقم: (٨٨٠٧)، (٨/ ١٣٣)، وابـن أبـي شـيبة في مصـنفه، كتـاب المغـازي، بـاب غـزوة الخنـدق، بـرقم: (٣٧٩٧٥)، (٢٠/ ٣٨٦).

قوله: (**منتهىٰ عمارة المغرب**) لا يُفهم منها أنَّه أراد أنَّه ليس وراءها سكان، وإنما أراد المغرب الذي فُتح، وإلا فإن هناك بعدها سكانًا وقد خرج المُسلِمون من المغرب عن طريق مضيق جبل طَارق لأسبانيا، وكذلك إلىٰ شمال أسبانيا إلىٰ فرنسا، وسويسرا، فالجيوش الإسْلَامية قد وصلت إلىٰ هذا المكان.

هنا مسألةٌ لغويةٌ هل يقرأ زُوي أو زَوىٰ، أي: الله الذي زوىٰ، لكن هل تقرأ: زَوىٰ أو زُوي؟ كلاهما جائز، وكلتا الصورتين لا تغير المعنىٰ.




قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض) قَالَ القرطبي: أي: بهما كنز كسرىٰ وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقد دل علىٰ ذلك قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أخبر عن هلاكهما (والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)، وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرىٰ؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح، في إمَّارة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنَّه سيق إليه تاج كسرىٰ وحليته، وما كان في بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته علىٰ سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر لما فتحت بلاده. كذا قَالَ في الغالب علىٰ كنوز كسرىٰ وقيصر، وعكس ذلك التوربشتي، والخلخالي، والأبيض والأحمر منصوبان علىٰ البدل.

قوله: (وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة) هكذا ثبت في أصل المصنف بعامة بالباء.


الشَّرح

هذا الحَدِيث: (والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)[1] أو (لتنفَقن كنوزهما في سبيل الله) كذلك هذا صح في الصَّحِحَينِ، وقبله:

---

(١) أخرجه البُخَارِي في مواضع من صحيحه، منها: كتاب فرض الخمس، باب قول النَّبِي ﷺ: "أحلت لكم الغنائم"، برقم: (٣١٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط السَّاعة، باب لا تقوم السَّاعة حتىٰ يمر الرَّجُل بقبر الرَّجُل فيتمنىٰ أن يكون مكان الميت من البلاء، برقم: (٢٩١٨)، (٤/ ٢٢٣٦).

(إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده)[1] وهذا خبرٌ عن مستقبل، وعندما هلك قيصر وكسرىٰ لم يكن للروم والفرس ملكٌ يجمعهما، بل شتت الله شملَهم.

قوله: **(بعامة بالباء)** في هذا اللفظ وردَ في رسمه اختلاف، ففي أصل المؤلف (بسنة بعامة) بزيادةِ باءٍ، ولكنه في صحيح مُسلِم (بسنة عامة) وكلاهما يؤدي المعنىٰ، فهذا من باب اختلاف الرواة.

---

(١) نفس الحَدِيث السابق.



قال المؤلف رحمه الله:

وهي رواية صحيحة في أصل مُسلِم، وفي بعض أصوله (بسنة عامة) بحذفها.

قال القرطبي: وكأنَّها زائدة؛ لأَنَّ عامة صفة لسنة، فكأَنَّه قَالَ: بسنة عامة ويعني بالسنة: الجدبَ العام الذي يكون به الهلاكُ العام، ويُسمَّىٰ الجدبَ والقحطَ سَنَة، ويُجمع علىٰ سِنين،كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٠]، أي: بالجَدب المتوالي.

الشَّرح

قوله: (**بحذفها**) أي: بحذف الباء، وقد راجعت صحيح مُسلِم ولم أجد فيه هذه اللفظة بحرف الباء، وإنَّما فيها (بسَنة عامَّة)، فلعله رحمه الله راجع أصولاً أخرىٰ من المخطوطات، الله أعلم،أمَّا المطبوع فليس فيه إلا (بسنة عامة)، أي: سأل الله ألا يهلك أمته بحدثٍ عام يهلكُهم، سواء كان حدث مجاعةٍ، أو حدث مرضٍ، أو فتنةٍ، فالسؤال ألا يهلِك كلهم، فوقع الجواب من الله بألا يُهلكوا، لكن قد يقع فيهم الهلاك إذا سببوا هم أنفسهم هذا الهلاك.

سُمِّي الجدبُ والقحطُ سنَةً، ونعرف في لغة العَرَب أنَّ السَّنَة تطلق علىٰ المدة الزمنية الُمكونة من اثنىٰ عشر شهراً، فكيف يُطلق علىٰ الجدب سَنَة؟ هكذا العَرَبُ وليس فيها حقيقةٌ ومجازٌ، العَرَبُ تُسمي عامَ القحط سنَة. وتَعرِف من خلال السياق أنَّها أرادت السَنَة الزمنية أو القحطَ،كَمَا قَالَ - تَعَالَى - ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ﴾ أي: عاقبنا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:١٣٠]. ما أراد الله أنَّه جَعَلَ الزمن يمر عليهم كَمَا يمرُّ علىٰ غيرهم، إنَّمَا أراد عقاباً، والعقاب يكون بأمر يقع عليهم، فمن سمع الآيةَ لا يقع في ذهنه أن

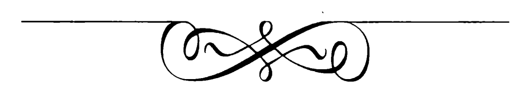
الله عاقبهم بمرور الزمن عليهم، أي: السياق يدل علىٰ المعنىٰ، لكن لماذا جَعَلَ النَّاس هناك حقيقةً ومجازاً؟ عندما دَخَلَ إلىٰ الإسْلَام من شتىٰ الأمم ولهم لغات غير لغة العَرَب تعلموا لغة العَرَب عن طريق ترجمة المفردات، فعندما درسوا اللغة علىٰ هذا المنهج ثُمَّ أصبحوا يتعاملون مَعَ قراءة الكتب ووجدوا الكلمة جاءت بمعنىٰ آخر وقع في ذهنهم ما في لغاتهم مما يسمونها مجازاً، فقالوا: هذا معنىٰ ثانٍ للكلمة، فالعَرَب نطقت هذا بالمعنىٰ الأول الذي درسناه عند الترجمة، ثُمَّ استعملته علىٰ المعنىٰ الثاني، فهذا مَجاز.

العَرَب تطلق اللفظ الواحد علىٰ أكثر من معنىٰ،وتعمتد علىٰ السياق في الدلالة علىٰ المعنىٰ المراد ،كَمْا في الحَدِيث عندما أدخل النَّبِي ﷺ يدَه في إناء طعامٍ كان يبيعه شخص، وإذا فيه بلل، فقال لبائعه: **(ما هذا يا صاحب الطعام؟ قَالَ: أصابته السماء يا رَسُول اللهِ)**[1]، فلا يُفهم منه أن السماء سقطت علىٰ الإناء، بل هو مثلُ لو قَالَ: أصابه مطر، سواء بسواء، فسياق الكَلَام يدل علىٰ المُراد، وذلك أسلوب من أساليب العَرَب، ولا داعي للتقسيم إلىٰ حقيقةٍ ومجازٍ؛ لأنَّ المجاز أصبح الآن خطراً، يقولون: المعنىٰ الذي يدل عليه اللفظ مجازاً ليس معناه، أي: أنَّ هذا الكَلَام كذبٌ، بل أنا جَعَلتُ هذا اللفظ يدلُ علىٰ هذا المعنىٰ، وإلا فهو ليس له، ولهذا عند الأُصُوليين أنَّ المجاز يجوزُ نفيه، لو قلت: رأيت أسداً يجوز للمستمع أن يقول: كذبت، إنَّمَا رأيتَ إنساناً شجاعاً، فلو قلنا بالمجاز ثُمَّ أثبتناه في كلام الله لكان يجوزُ أن يقال في القُرْآن بأنَّه ليس صادقاً، وهذا خطير جداً، فنحن نقول العَرَب لها أساليب في لغتها، تستعمل اللفظ لأكثر من معنىٰ، وهذا أسلوبٌ من أساليبها، والسياق والقرائنُ تدل علىٰ

(١) أخرجه مُسلِم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِي ﷺ: "من غشنا فليس منا"، برقم: (١٠٢)، (١/ ٩٩).

الُمراد من الكَلَام، وهذا التقسيمُ أصبحَ جسراً لتعبر عليه عقائدُ فاسـدةٌ وباطلـةٌ، ولهـذا تـرىٰ الـذين اعتنـوا بـه ليسـوا مـن أهـل السُـنَّة والجماعـة، إنَّمَـا درسَـه المعتزلـة، وتعمَّقـوا فيـه ونشـروه وتوسـعوا بـه، ثُـمَّ أخـذه بقيـة علمـاء الكَـلَام ووسَّعوه.

فهنا السَنَة تُطلق في لغة العَرَبِ علىٰ المـدة الزمنيـة، وتطلـق علـىٰ الجَـدبِ والقحط، وسياق الكَـلَام يـدلُ علـىٰ المـراد، وكلهـا حقيقـة؛ لأنّ المـرادَ بـاللفظ الدلالة علىٰ المعنىٰ، فإذا دلَّ اللفظ علىٰ المعنىٰ وعرف انتهىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (من سوىٰ أنفسهم) أي من غيرهم أي: الكفار.

قوله: (فيستبيح بيضتهم) قَالَ الجوهري: بيضة كل شيء حوزته، وبيضة القوم ساحتهم، وعلىٰ هذا فيكون معنىٰ الحَدِيث: إن الله - تَعَالَى - لا يسلط العدو علىٰ كافة المُسلِمين حتىٰ يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم كل من بين أقطار الأَرْض وهو جوانبها، وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم. قلت: وهذا هو الظاهر وأن الله - تَعَالَى - لا يسلط الكفار علىٰ معظم المُسلِمين وجماعتهم وَإِمَّامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة في قوله: (حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا)، فأما إذا وجدت هذه الأوصاف فقد يسلط الكفار علىٰ جماعتهم ومعظمهم وَإِمامهم كَمْا وقع.



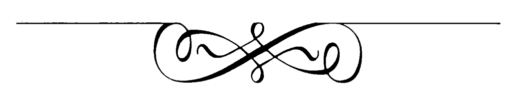
الشَّرح

هذا وعد من الله ﷻ أن لا يسلط عليهم عدواً من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، أي جماعتَهم أو كافتهم، أي: الوعدُ أن لا يُسلِّط عليهم عدواً يُهلكهم بكاملهم، أو لا يُهلك رؤساءهم، أو ما كان ظاهراً منهم، فالمعنىٰ الأول: أنَّه وعد بأن لا يهلك الجميع، والمعنىٰ الثاني: أن لا يهلك قوتهم التي تكون في مقدِّمة الأُمَّة، أي: يبقىٰ من يُمثل الأُمَّة علىٰ مدار الزمن، إلا إذا وقع من داخلِهم، نرىٰ في كل عصر أنَّ العدو لا يستطيع أن يخترق المُسلِمين إلا من داخلِهم، ولا تجد ضرراً يلحق بالمُسلِمين إلا إذا كانوا هم أنفسهم سبباً لهذا الضرر، إمَّا بأن مدُّوا أيديهم للكفار، أو بأن يكونوا هم الذين يضربُ بعضُهم بعضًا، وكم قرأنا في التاريخ من قتال المُسلِمين بعضِهم البعض. بدأت الفتنة من عهد الصَّحَابَة ﷺ، فتقاتلوا قتالاً شديداً، حتىٰ أُخِّر الفتح الإسْلَامي زمنًا

طويلاً، ثُمَّ وجد في المُسلِمين من يستقل عن الخلافةِ العُظمىٰ ولا تبقىٰ إلا الصورة الظاهرة، وقد يتقاتل الأخَوَان علىٰ الملك من بيت واحد،كَمْا وقع في الدولة المملوكية وغيرها، فالمُسلِمون هم الذين يتسببُّون في ضعف أنفسهم أو في هلاك أنفسهم، بل نرىٰ أحياناً نفسُ الصَّالِحِين الذين يكونون هم في قمةِ المُجْتَمَع المُسلِم، هم أنفسهم الذين يتسببون في قتل بعضهم البعض وفي إيذاء بعضهم البعض، ويستبيحون أعراض بعضهم البعض، فما بالك بعامة النَّاس؟، نرىٰ أن من ينسب إلىٰ العلم والدعوة يستبيح عرض ودم ومال أخيه الذي أعطاه الله العلم ويشاركه في الدَّعوَة، وفي بعض البُلدَان الغربية انعكاسٌ لما يُوَجَدُ عندنا في بلاد المُسلِمين، مررنا علىٰ بعض المراكز الإسْلَامية في بعض الدول الغربية ففي المدينة الواحدة أكثر من عشرين أو ثلاثين مركزاً، وكل مركز فيه عشرون شخصاً أو عشرة أشخاص، وكل مركزٍ يحاربُ المركز الثاني، حتىٰ في الأعياد لا يجتمعون للصلاة مَعَ بعضهم، وفي جنوب ألمانيا المستشار أي: والي ولاية بافاريا مُسلِم، ولكنه مُسلِم سراً، ويحرص علىٰ أن يتعاون مَعَ المُسلِمين، ويقول: أعطوني مُذكرةَ تتفقون عليها علىٰ شرح الإسْلَام حتىٰ أطبع منها بعدد سكان الولاية، ولم يستطيعوا أن يجتمعوا، كل طائفة تقول: المعنىٰ هذا زائد، المعنىٰ هذا ناقص، وقال الوالي أيضاً: اتفقوا علىٰ شخص واحد منكم وأنا مستعدٌ أن أدخلَه في البرلمان الألماني، يمثلكم ويمثلُ المُسلِمين في ألمانيا، وما استطاعوا أن يتفقوا علىٰ شخص واحد مَعَ أنَّهم أقلية، ويعيشون مُبعدين عن بلادهم، فلو أنّ كلَّ واحد من المُسلِمين تولّىٰ دولةً إسلامية ماذا يعمل؟

أول ما يبدأ التَّنكيلَ يُنكِّل بإخوانه بدلاً من أن يتقرَّب بهم إلىٰ الله، الآن الفساق قد يتهيبون من ضرب الصَّالِحِين لأشياء كثيرةٍ، لكن لو قام هذا الإنسَان الصالحُ بهذا الفعل فإن له مائة تأويل، يقال: إن امرأة عجوزاً ضاع

عليها دجاجة، فقالت: اللهم لا تجعلها في يد عالم، ولا في يد ظالم، قَالَوا: الظالم معروف، ولكن العالم؟ قَالَت: الظالم يأكلها سراً، ولكن العالم يأكلها علانية؛ لأنَّه سيئولها، فيأكلها بالتأويل، فبعض الصَّالِحِين يستبيح بالتأويل دم أخيه، وعرض أخيه، وهذا في غاية الفساد، فعرض المُسلِم محرّم بالكتاب والسَّنة وإجماع الأُمَّة، ما يباح لشبهةٍ أو شهوةٍ أو خلافٍ أو هوىٰ، لكننا نستبيح أحيانا عرض بعضنا البعض لأتفه الأسباب، الدماء حَرَام، والأعراض حَرَام، والأموال حَرَام، نحن نمنع التأويل في العقائد ثُمَّ نطبقه في حقوق عباد الله، فالمُسلِم ينبغي أن يحذر كل الحذر أن يستبيح عرض أخيه، أياًّ كان هذا الأخ المُسلِم، كل مُسلِم دمُه وعرضُه وماله حَرَام، هذه كانت آخر وصايا نبينا ﷺ في حَجَّة الوداع، عندما سألهم: (أي يوم هذا؟ قَالَوا: الله ورسوله أعلم. قَالَ: أليس يوم النحر، أو قَالَ: يوم العيد الأكبر. قَالَ: أي بلد هذا؟ قَالَوا: الله ورسوله أعلم. قَالَ: أليس البلد الحرام، قَالَ: أي شهر هذا؟ قَالَوا: الله ورسوله أعلم، قَالَ: أليس ذي الحجة، ثُمَّ قَالَ: ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حَرَام، كحرمة يوكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا)[1] أيُّ إعلانٍ أقوىٰ من هذا الإعلان، ويأتي الإنسَان لهوىٰ نفسِه ويختلف مَعَ أخيه في قضية فهمِ آيةٍ أو أسلوبِ دعوةٍ، فيستبيحَ دمهَ وعرضَه بأبسط الفتاوىٰ، الله وعدنا إن لم يكن بعضنا هو الذي يستبيحُ دمَ بعضنا ويساعد عدونا علىٰ أنفسنا لا يغلبُنا أحد، والعدو لا يدخل إلا عن طريق من فتح له الباب من المُسلِمين.



(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وإن ربي قَالَ: يا مُحَمَّد، إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يرد) قَالَ بعضهم: أي إذا حكمت حكمًا مبرمًا فإنَّه نافذ لا يرد بشيء ولا يقدر أحد علىٰ رده، بل كل جميع الخَلْق تمضي عليهم الأقدار طوعًا وكرهًا،كَمْا قَالَ النَّبي ﷺ: (لا راد لما قضيت) قلت الظاهر: أَنَّه سواء في ذلك المبرم والمعلق، فالكل لا يرد، فإن هذا إخبار عن عدم الرد لجنس القضاء، والنبي ﷺ سأل ذلك مطلقًا فأجيب بهذا، واستجاب له دعاءه ما لم يُوَجَدُ الشرط المقتضي لتسليط العدو، فإذا وجد ذلك وجد القضاء المعلق.

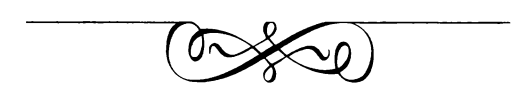


الشَّـرح

هذه قضيةٌ أشرنا إليها في بداية الكَلَام، والشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ مَنهَج من يُقسِّم القَدَر إلىٰ قسمين: مُنجَّزٌ ومُعَلَّقٌ، والحق أَنَّه ليس هناك قدر مُعلقٌ أبداً، لماذا يُعلَّقُ القَدَر ؟ هل لأنَّ اللهَ لا يعلم ما سيكون؟، كل شيء قد كُتب بالنص في الحَدِيث، لكنَّ الله يقول: أنت يا مُحَمَّد وأمتُك إن فعلتم كذا فأنَّه يكونُ كذا، وإن لم تفعلوا فأنَّه يكون كذا، نحن لا ندري ماذا نفعل؟، نحن مطالبون بأن نجتنبَ المعاصي، ونجتنب أسبابَ الهلاك، لكن الله قد كتب ما سيحدث، وعند الله مكشوفٌ ومكتوبٌ، ولهذا في الحَدِيث السابق أَنَّه قَالَ: **(يا مُحَمَّد إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يُرد)**[1]، والله قد قضىٰ وقدَّر وكتب، ولهذا ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يُقسمُ القَدَر إلى أربع مراتب.**

(١) سبق تخريجه.

المرتبة الأولى: إرادةُ الله وقوع ذلك الشيء أو المشيئة. **والثانية**: كتابتَه، **والثالثة**: العلمُ به، **والرابعة**: خلقُه له. الخَلْق مرتبةٌ أخيرةٌ تأتي في وقت وقوع الحدث، أمَّا المشيئة والعلم والكتابة فقد وقعَت، لكن خلقَ الحدثِ يكون عند مجيء نفسُ الحدثِ، وإلا فلو لم يخلق الله الحدثَ ما وقع، فالله ﷻ قد علم ما سيكون، ولا يعني هذا أننا نترك العمل، بل معناه أن نعلم أن كل ما عملناه فإنَّه قد كُتب علينا، لا بمعنىٰ أنَّا أُجبرنا عليه، بعض العُلَمَاء يصور المَسْأَلَة تصويراً تقريبياً في حدود قدرة استيعاب العقل البَشَري، وإلا فإنَّ الغيب الذي يتعلَّق بفعل الله لا يدَرك كيفيته، يقول: لو أن إنساناً وضع في وجهه بعض الألوان فوقف أمَام المِرْآة، ورأىٰ صورته في المِرْآة، وفيها هذه الألوان، لا يتهم المِرْآة ب أنَّها هي التي أظهرت في وجهه الألوان، بل المِرْآة فقط عكست ما أمَامه، ولله المثل الأعلىٰ، فربنا ﷻ علم أنَّه سيخلق فلاناً ابن فلان وسيعطيه قُدرةَ وسيطلب منه فعلاً، و أنَّه سيكون عمله وفعله كذا وكذا؛ لأنَّ الله يعلم ما سيكون، فكتب ما سيكون في المستقبل، فهذا هو قضاء الله. وأمرُ الله لا يُرد، وعلمُ الله لا يتغير، ليس هناك منُجّز ومُعلقٌ، الله يعلم ما سيكون كَمْا سيكون، وليس فيه اختلاف.



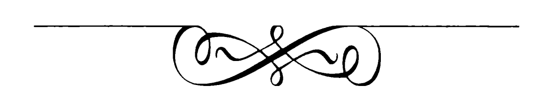
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضـًا إلىٰ آخره) أي حتىٰ يُوَجَدُ ذلك منهم، فإن وجد فأنَّه يُسلط عليهم عدوهم من الكفار، فيستبيح جماعتهم وَإِمَّامهم ومعظمهم لا كل الأُمَّة، ثُمَّ أيضـًا تكون العاقبة لهذه الأُمَّة إن رجعوا عما هم فيه من الأسباب الموجبة للتسليط.

الشَّرح

يذكر ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنَّه قضىٰ أنَّه يحمي أمةَ مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عدوهم، بَشَرط أن لا يكون في داخلهم فتنة، وأن لا يكونوا هم أنفسُهم يعملون أعمالاً تؤدي إلىٰ ضعفهم، فإذا كانوا يداً واحدةً علىٰ أساسس واحد وفي دائرة واحدة فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعدهم بالنصر، لكن يخذَلون وينتصر عليهم عدوهم إذا كان بعضهم يهلك بعضـًا، وهذا هو حال المُسلِمين منذ زمن طويل إلا من رحم الله، لم يضعفوا إلا عندما قامت الفتن في الداخل، وسيشير الشَّارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ ما حدث في المشرق في القرن السابع، وفي المغرب عندما تفرّقت الأُمَّة إلىٰ إمارات وإلىٰ دويلات يقاتل بعضها بعضـًا، استطاع العدو بعد ذلك أن يقهرهم، وأن يُذلهم، وأن يقتلهم، وأن يسبي منهم أناسـًا، فقوة الأُمَّة في وحدتها وجماعتها، وتآلفها، ولا يعني ذلك أن لا يكون بينهم خلاف، الخلاف يحدث، لكن لا يكون سببـًا في استباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم، عندما يستبيح المُسلِم عرض المُسلِم ودمَه ومالَه لخطأ وقع منه أو لخلاف بينهم وبينه، عندئذ يضعف المُسلِمونَ، فوحدةُ الأُمَّة في اتحادها، وتآلفها، وقوتها في اجتماعها، وسيحدث فيهم معاصٍ وأخطاء واختلاف في الفهم، لكن لا يكون هذا سببـًا في أن نتقاتل بل فيما بيننا حوار، ومع عدونا قتال، أمَّا أن نجعلَ الحوار مَعَ الأعداءِ، ونجعلَ

القتالَ فيما بيننا، فإن الله يرفع عنا نصرتَه، ويكلُنا إلىٰ أنفسنا، وبذلك نضعف أمَام أعدائنا، والذي يقرأ التاريخ يرىٰ هذا الواقع، أن سببَ ضعفِ المُسلِمين جاء من داخلهم لا من خارِجهم، جهلوا دينهم، وجهلوا حقوق بعضِهم، واستباحوا أعراضَ بعضِهم، واستباحوا دماء بعضهم، فبهذا سلَّط الله عليهم عدوَهم فضعفوا، فجاء الصليبيون من الغرب، وجاء هولاكو من المغول من الشرق، وأذلوا الأُمَّة الإسْلَامية وقتلوا منها، حتىٰ مشَت الخيولَ في الدماء السائلة إلىٰ الركب، وذلك بسبب الفتنة التي وقعت بين المُسلِمين، فرفع الله عنهم تأييدَه ونصره.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك وقع، فإن هذه الأُمَّة لما جَعَلَ بأسها بينها اقتتلوا فأهلك بعضهم بعضًا، وسبىٰ بعضهم بعضًا، فلما فعلوا ذلك تفرقت جماعتهم، واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو، واستولوا عليهم كَمْا وقع ذلك في المائة السابعة في المشرق والمغرب، فاختلف ملوك المشرق وتخاذلوا واستولىٰ التتار علىٰ غالب أرض خراسان، وعلىٰ العراق وديار الروم، وقتلوا الخليفة والعلماء والملوك الكبار، وكذلك ملوك المغرب اختلفوا وتخاذلوا واستولت الإفرنج علىٰ جميع بلاد الأندلس، والجزر القريبة منها، فهي في أيديهم إلىٰ اليوم، بل استولوا علىٰ كثير من بلدان الشام حتىٰ استنقذها منهم صلاح الدِّين بن أيوب وغيره.

الشَّرح

هذا إشارةٌ إلىٰ ما حدث في القرن السابع الهجري عندما زحف التتر من المشرق، بعد أن ضعفت الخلافة الإسْلَامية في بغداد، وسبب ضعفُها: أن الخليفة العباسي قرَّب الرافضةَ منه، والرافضة يستبيحون دماء السُنَّة، ويتقربون إلىٰ الله بإيذائهم؛ فسعىٰ ابنُ العَلقَمي وزيرُ الخليفة العباسي إلىٰ إضعاف الجُند، فلم يصرف لهم مرتباتهم، وقلَّل أعدادهم حتىٰ أصبحوا عَدداً قليلاً، ثُمَّ راسل هولاكو بن جنكيز خان وأطمعه في الخلافة، فجاءَ، ولم يقم مَعَ الخليفة العباسي أيُ دولةٍ من الدول الإسْلَامية التي كانت في المشرق عندما وصل هولاكو إلىٰ بغداد، وطلبَ الخليفة أن يخرُج إليه، فخرج إليه في خمسين من العُلَمَاء الكبار، والقادةِ العسكريين، فأبادهم عن بكرة أبيهم، وقتلهم قتلاً ذريعًا، ودخلت الجيوش بغداد، وقتلوا في هذا الزمن قرابة مليون شخص كَمْا

قَالَ ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: وقد تردَّدت كثيراً في كتابة هذه الحادثة؛ لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاصرها، وقال: لا يفرحُ المُسلِم بأن يذكر ذُلَّ المُسلِمين، لكن قَالَ: أمانة التاريخ تقتضي أن أكتُبَ، فسببه المعاصي، والجهل بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

أي: إن كان لكم عقل، العقلُ أحياناً يُفقد وتغلِب عليه الشهوة والهوىٰ، وإلا فالعاقل لا يقرِّب عدواً، ولا يُمكِّنه من نفسه، لكن هكذا فعل هذا الخليفة بقلب ساذج، فكان سببُه أن تحطمت الخلافة الإِسْلَامية عام ستمائة وستة وخمسين هجرية، وتفرَّق المُسلِمون وذلوا بعد ذلك، حتىٰ قهر الظاهر بيبرس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عين جالوت هولاكو وأذل الله التتر، ثُمَّ بعد ذلك أسلموا، التتر أصبحوا قوة إسلامية بعد خمسين عاماً، وكانوا وثنيين، وأمة همجية لا دين لها، فعندما دَخَلَوا ورأوا الإِسْلَام أسلموا، في المغرب كذلك، عندما اختلف المُسلِمون أخرجت الإفرنج المُسلِمين من الأندلس وقتلوهم قتلاً ذريعاً، وسبب هذا كله هو الفتنةُ الداخلية، ولهذا تتميز طائفة أهل السُنَّة والجماعة بأنَّها تحرص علىٰ جماعة المُسلِمين، ولو كان فيها مَعصية، ولو كان فيها ضعفٌ، فإنَّ الجماعة قوة ولو كان هناك خلل، فإنَّه يستحيل أن يكون هناك مجُتمع لا معصيةَ فيه، ويستحيلُ أن يتفق النَّاس كلُهم علىٰ فهمٍ واحد، **لابد من وجود الخلاف لأسباب.**

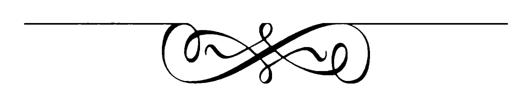
أولاً: أنَّ العقل البَشَري يختلفُ من شخص إلىٰ شخص، وما يدركُه شخص يجهله شخص، وما يتضح لشخص لا يتضح لشخص.

ثانياً: اللغةُ نفسها التي جاء بها القُرْآن الكَرِيم تحتملُ وجوهـًا كثيرةً؛ لأنَّ الله - تَعَالَى - أنزل كلامَه بلغة الإنسَان، فما تستطيع اللغةُ أن تكون كلها على مقياس واحدٍ، بل تحتمل، فهذا الاحتمال سببٌ للخلاف.

ثالثاً: أنَّ هذا الدِّين علم الله، وسيبقى الإنسَان مهما تعلَّم لا يدرِك كل شيء في الدِّين، فقضية الخلاف أساسيةٌ في حياة النَّاس، لابد منها، لكن الدَّلِيل الصريح الصَّحِيح لا يُخالف، لكن إذا كانت القضية فيها احتمال يُوَجَدُ خلافٌ، وكثير من نصوص الَّشرع فيه احتمال، ولهذا لا نكاد نجد في الفقه الإسْلَامي مسألةً فقهية إلا وفيها خلافٌ بين أئمةٍ كبار، لا يُشكُّ في دينهم، ولا في علمِهم ولا في تقواهم، وهذا الخلافُ ليس سبباً للقتال، لكن عندما تضيق الصدور يُوَجَدُ قتال،كَما فعل الخوراج، استباحوا دماء المُسلِمين لأقل الأسباب ، وهذا فهم خاطئ.

فينبغي أن نحرص على الوحدة الإسْلَامية، ولا ينبغي أن نضع في أذهاننا أنَّه يمكن أن يكون مجتمعاً بدون خطأ، وبدون خلاف وبدون معصية، فإن أفضل المُجْتَمَعات على الإطلاق المُجْتَمَع الذي تربى على عَين رَسُول اللهِ ﷺ، وكان فيه المُنَافِقون، وكان فيهم من ارتكب المعاصي، ولا يعني هذا أن نُقرَّ المعصيةَ، بل لابد أن نفهم طبيعة الإنسَان حتى نتعاملَ معه، وإذا عصى المُسلِم لا يُعاقبه ﷻ فوراً، بل يمهله مرة مرتين وثلاثًا وعشراً ومائة، فإذا تاب تاب الله عليه، فالتعامل في المُجْتَمَع المُسلِم على أساس أنَّه لا يغفِر الخطأ ومن وقع في الخطإِ لابد أن يُهجر ويُقاطع، ولابد أن يُستباح دمه وعرضه وماله هو سبب الفتنة في الأُمَّة الإسْلَامية، فلا نحارب بعضنا بعضـًا، فإننا بَشَر فينا ضعف، فينا عجز، فينا خطأ، فالشاهد أن قوة الأُمَّة في اجتماعها، وأعداء الإسْلَام حريصون أن يثيروا كلَّ دولةٍ لتقاتل الأخرى، وكلهم مُسلِمون،

أرضُهم واحدة، ودينُهم واحدٌ، ورابطتهم واحدةٌ، لكن هكذا الأعداء يُضخِّمون أخطاء بعض الدول علىٰ بعض حتىٰ تصبح الدول كلها في حالة استنفارٍ لا يطمئنُ إلىٰ جاره، ولا يثق في جاره، ويستعد لقتال جاره، وليست هذه حياة المُسلِمين، لكن هذا يحدث إذا جَهلت الأُمَّة دينَها وعقيدتَها ومنهجَها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

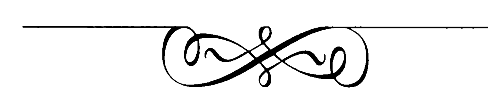
قولـه: (ورواه البرقـاني في صـحيحه)، البرقـاني هـو الحـافظ الكبيـر أبـو بكـر مُحَمَّد بن أحمد بـن غالـب الخـوارزمي الشَّـافِعِي، ولـد سُـنَّة سـت وثلاثـين وثـلا ثُمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربع مائة، قَالَ الخطيب: كان ثبتـًا ورعـًا لـم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفـًا بالفقـه كثيـر التصنيف، صـنف مسـنداً ضـمنه مـا اشتمل عليه الصَّحِيحان، وجمع حَدِيث الثوري وحـديث شعبة وطائفة، وكـان حريصـًا علىٰ العلم منصرف الهمة إليه، قلت: وهذا المسند الذي ذكـره الخطيـب هو صحيحه الذي عزا إليه المصنف.

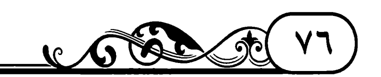
الشَّـرْح

البرقـاني هـو أحـدُ العُلَمَـاء الـذين كتبـوا مُسـتخرجات علـىٰ الصَّـحِحَينِ، الُمستخرج هو فنٌ من فنون الحَدِيث، يأتي العالم بعدَ البُخَارِي ومُسلم فينظر في سَنَدهما، فالحديث الذي ورد بهذا السَّنَد وفيه لفظٌ زائد علىٰ ما ذكـره أصـحاب الصَّـحِحَينِ يعتـبره مُلحقـًا بالصـحيح؛ لأن السَّـنَد واحـد، لكـن لا يُسـلَّم – في الحقيقة – لهؤلاء العُلَمَاء هذه التعقيبات؛ لأن البُخَارِي ومسلمـًا ـ رحمهمـا الله ـ تعمدا ترك هذا المتن لعلّة عندهما،كَمْا قَالَ ابـن عبـد الـبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تكـاد تـرىٰ حَدِيثـًا ليس في الصَّحِحَينِ إلا وله عِلَّة؛ لأنَّهما أرادا أن يجمعـا في كـل مسـألة مـا يـدل علـىٰ حكمهـا، لكـن لا يستوعبان الصَّحِيح في المَسْـأَلَة، بـل يختـارون في المَسْأَلَة أصحَّ المتـون وأصـحَّ الأسـانيد، لكـن لا يتركـون مسـألة فيهـا حَـدِيث صحيحٌ بدون أن يأتوا به إلا إذا لـم يصح علىٰ شرطهما، فأحيانـًا تعقبهمـا بعـض المتأخرين، مثـل الحـاكم عندما تعقـب الشـيخين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ قَـالَ: أنَّهمـا تركـا هـذه الأحَادِيث مَعَ أنَّها علىٰ شرطِهما، ولكن ليس هـذا مُسـلَّمـًا بـه كَمْـا أشـرنا، فقد

يختاران من الشخص الواحد أصحّض ما رَوَىٰ، ويتركان ما هو أقل دَرَجَةً من هذا الذي اختاراه، فهذه تعقبات قد يُقبل بعضها ولا يُقبل بعضها.

وهذا الحَدِيث رَوَىٰ مُسلِم نصفَه وترك نصفَه، فالبرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إن هذا الحَدِيث ورد بنفس السَّنَد عند الشيخين، فهذا الحَدِيث صحيحٌ علىٰ هذا المنهج.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وانما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين) أي الأمراء والعلماء والعباد، الذين يقتدي بهم النَّاس ويحكمون فيهم بغير علم، فيضلون ويضلون، فهم ضالون عن الحق مضلون لغيرهم،كَمْا قَالَ - تَعَالَى - عن أهل النَّار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف:٣٨].

وقال - تَعَالَى -: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب:٦٧].

وقال - تَعَالَى -: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤].



الشَّرح

هـذه الفقـرة هـي أول فقـرة في صـحيح البرقـاني، وهـي قولـه ﷺ: (وإنمـا أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين)[1] الأئمة جمع إمام، والإمام هو الذي يُقتدىٰ به في المُجْتَمَع، سواء كان حاكِمـًا أو عالِمـًا أو عابداً، ولـيس الأئمـة والرؤسـاء إلا هذه الأنواع الثلاثة، إمَّا صاحبُ سلطان، وَإِمَّـا صـاحبُ قلـم، وَإِمَّـا صـاحبُ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن باب ذكر الفتن ودلائلها، برقم: (٤٢٥٢)، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، بـاب مـا جـاء في الأئمـة المضـلين، بـرقم: (٢٢٢٩)، والإمـام أحمـد في المسند، برقم: (٢٢٣٩٣)، (٣٧/ ٧٧)، والدارمي في سـننه، كتاب الرقـاق، بـاب في الأئمـة المضلين، برقم: (٢٧٩٤)، (٣/ ١٨١١)، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود والترمذي، وَإِمَّا صحيح البرقاني الذي قَالَه المصنف فلم أجده.

عبادة، فهؤلاء إذا انحرفوا يُفسِدون من يثقُ بهم، ومن يقتدي بهم، فإذا كان عالماً قد رُزق علماً وحفظاً وفهماً لدين الله فإذا انحرف فكلُ من حولَه ممن يثقُ فيه ويرىٰ علمَه يتأثرُ به؛ لأن النَّاس يُعظِّمون الكبراء، فيقولون: هذا العالمُ لا يفعل كذا إلا إذا كان صحيحاً، ولا يقول كذا إلا إذا كان صحيحاً، ولا يسكُت عن كذا إلا إذا كان صحيحاً، فيُضلون النَّاس إذا كانوا ضالِّين، وكذا يُقلِّد النَّاس أصحابُ السلطان ويُعظمونهم، فإذا انحرفوا وضلُّوا أثَّروا في متبوعيهم، وفيمن يحكمونهم، ويرعونهم، وكذا العابد الذي يقوم اللّيل، ويصوم النَّهار، إذا انحرف لا يفرق النَّاس بين انحرافه وعبادته، بل يرون كل ما يعمله صحيحاً؛ لِأَنَّهم يثقون في دينه وورعه وتقواه، فهؤلاء رؤساء النَّاس، ويلحق بهم في العصر الحاضر أصحاب الصحافةُ وأصحاب الإعلامِ الذين في أيديهم أزِمَّة النشر والتوجيه، فإنَّ هؤلاء يملكون وسائل مُغريةً تبهر الإنسَان، فإذا استغلوها في معصية الله أفسدوا النَّاس، وفي العصر الحاضر هذه الوسائل تُفسد أكثر مما يفسد العالِم أو العابِد أو الحاكِم في الماضي؛ لِأَنَّه أصبح الاتصال في قعرِ كل بيتٍ، الإنسَان المُرسل يرسل أفكارَه إلىٰ كل بيت، في الماضي كانت المعصية لا تضرُ إلا من حضرها، ولا يأتي إليها إلا قليل، مثلاً عاصمة الدولة التي يكون فيها التَّرف ويكون فيها مكانٌ للفساد أو مكانان أو ثلاثة أو خمسة يأتيها مئات فقط، أمَّا النَّاسُ في القُرَىٰ وفي الأمصار البعيدة فلا يعرفون هذا المكان الفاسد، والآن أصبح الفسادُ يتخلل في داخل كل بيت، والذي لا يراقب الله هو يفتح باب جهنّم في بيته، ويستقبلُ البثّ المُفسدَ في بيته، هو أدخل بيده ما يدمر دينَه، ويدمر أهلَه وأخلاقَه.

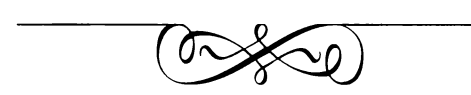
فالذين يملكون هذه الوسائل هم يومَ القِيَامَة يُؤتون عذاباً ضعفاً ـ والعياذ بالله كَمَا قَالَ - تَعَالَى - عن أصحاب النَّار: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا

فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٧]. {فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّار} ﴿سورة الأعراف: (٣٨)﴾، يقولون: يا رب هؤلاء كبراؤنا، ورؤساؤنا، وزعماؤنا، ومُقدّمونا، هم أفسدونا فأطعناهم، ربنا آتهم ضعفـًا من النَّار، لكن الله ﷻ لا يسمع كلامهم، ولا يغير من واقعهم؛ لأن الله قد كتب وقد عاقب كل إنسان بما يستحق، وليس لهم عذر يومَ القِيَامَة؛ لأن الله قد أخبر احذروا الأئمة والسادات والكبراء المضلين، لا تتبعوا الإنسَان إلا بدليل حتىٰ ولو كان عالمـًا، ولو كان عابداً، فإن الدِّين هو ما جاء في الكِتَاب والسّنة، فكل من دعا النَّاس، أو أمرهم أو أباح لهم ما ليس عليه دليل لا يُقبل؛ أمَّا هذه القنوات الفاسدة، والصحف الفاسدة، والإعلامُ الفاسد فإن فسادها لا يحتاج إلىٰ دليل، فإن عقل الإنسَان ودينَه يقولان له إنّ هذا فسادٌ، وأنَّه يُدمر ويفسد، أحيانـًا بعض الأشخاص يقع فيها من باب حب الاستطلاع، لكنها مثل المُخدرات، إذا تناول بعض المخدرات مرة واحدة أصبح مدمنـًا، والسبب هو نفسه، قَالَ: سمعت النَّاسَ وأحب أن أرىٰ، لا يجوز ذلك، بل يجب عليه أن يهرب من الفواحش والمنكرات، لهذا جاء في الدجال، أن النَّبِي ﷺ قَالَ: (**من سمع به فليهرب منه**)[1] بعض النَّاس يقول: أذهب إليه حتىٰ أرىٰ ماذا يفعل، وهو يعلمُ أنَّه الدجال، ويتبعه وهو يعلمُ أنَّه الدجال، فالشاهد أن في العصر الحاضر من يؤثر في تفكير النَّاس وفي قلوبهم وأخلاقهم هو من الكبراء ومن الأئمة، إمَّا أئمة الهدىٰ، وَإِمَّا أئمة الضلال، لكن الإنسَان العادي الفاسقُ ما يفسد النَّاس؛ لِأنَّه لا يتأثر به إلا قلائل جداً، فالخطورة تأتي فيمن يكون في قمة المُجْتَمَع، إمَّا من أصحاب الرئاسة، إمَّا من أصحاب العلم، إمَّا من أصحاب العبادة.

---

(١) سبق تخريجه بمعناه.

هنا ملاحظة، وهو أنَّه إذا كان الإنسَان يستشهد بكلام الله ﷻ فإذا وردت الآية على لسان ال بَشَر ينبغي أن لا يقول: قَالَ الله - تَعَالَى -، مثلاً لا يقول: قَالَ الله - تَعَالَى -: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾، بل يقول: قَالَ الله - تَعَالَى - وهو يعلمنا ماذا نقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ أو قَالَ الله - تَعَالَى - في الدُّعَاء الذي علمنا أن نقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾، كثير من النَّاس ليس عنده حساسية في المَوضُوع، فيقول مثلاً: قَالَ -تَعَالَى-: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا﴾، هل هذا قولُ الله؟ نعم قول الله. لكن الله يحكيه عن أهل النَّار، فيحسن أن يكون هناك فاصلٌ أو بيانٌ أنَّ الله ذكرَه عن النَّار.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولشدة الضرورة إلىٰ اتباع أئمة الهدىٰ ومعرفتهم، والتفريق بينهم وبين أئمة الضلال المغضوب عليهم والضالين، أمرنا الله أن نسأله الهداية إلىٰ سلوك صراط أئمة الهدىٰ، وهم المنعم عليهم من النَّبِيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به، ولا الضالين الذين يعملون علىٰ غير شرع من الله، بل بما تهوىٰ أنفسهم، وصراط المنعم عليهم هو الجامع بين العلم بالهدىٰ والعمل به، وقد وصف النَّبِي ﷺ أئمة الهدىٰ لما ذكر التَّفَرُّق من بعده، بأَنَّهم الذين كانوا علىٰ ما كان عليه النَّبِي ﷺ وأصحابه، كَمْا رواه أبو داوود وغيره.

الشَّرح

هنا يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ سورة الفَاتِحَة، وهذه السورة دائماً نقرؤها، فإن الله قد شرعها لتُقرأ في كل ركعةٍ من صلاتنا، ولا يُجزئ عنها غيرها، وهي تحمل من المعاني ما يجب علىٰ كل مُسلِم أن يعلمه، وإلا فكيف نقرأ سورة طوال حياتنا ولا نعرف معناها؟، لو قدَّرنا عدد ما نقرأ بها ربما تصل إلىٰ أكثر من أربعمائة ألف مرة، فهذا السورة التي لا تصح الصَّلَاة إلا بها إمَّا قراءةً وَإِمَّا سمعاً لا بد أن نحرص علىٰ أن نتعلم معناها، هذه السورة عظيمةٌ جداً، وفي آخرها حمايةُ للفرد والمجتمع، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلمنا ماذا نقول وماذا ندعو، يقول: قولوا ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة:٦]، فإن قيل: أنَّ الإنسَان لا يكون مُصليا إلا إذا هداه الله الصِّرَاط المُستَقِم، فما معنىٰ طلبِه؟ يقال: معنىٰ الصِّرَاط المُستَقِم واسعٌ، ومفرداته كثيرةٌ، وحاجته إليه لا تنقطع، إمَّا أن يتعلم ما جهلَه منه، وَإِمَّا أن يثبُت عليه وَإِمَّا أن يُعينه الله علىٰ سلوكِه والاستمرارِ عليه، فينبغي أن يعرف

ما هو الصِّرَاط المُستَقِم الذي يسأل الله أن يهديَه إليه، لابد أن يكون شيئًا له صفات، وله شكل، هو ما بَيَّن - تَعَالَى -: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]، فهناك فئة من النَّاس، أكرمها الله وأنعم عليهم بالسلوك علىٰ هذا الصِّرَاط، من هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؟ ما صفاتهم وأخلاقهم؟ فيبحث عنها، ويحرص أن يكون معهم وعلىٰ طريقهم وسلوكهم، ويتخلّق بأخلاقهم، ثُمَّ قَالَ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ كلها صفاتٌ، ما ذكر أشخاصًا، لكن ذكَر صفاتٍ، نسأل الله أن يهدينا صراط أمَّةٍ، وأن يبعدنا عن صراطِ أمتين، المغضوب عليهم هم اليَهُود، وسبب غضب الله عليهم قصَّه القُرْآن من أقوالهم وأعمالهم، وكيف عصوا الله وكيف احتالوا علىٰ شرع الله؟، وكيف قتلوا النَّبِيين ومن يأمرهم بالمعروف؟، وكيف استباحوا المحرمات كأكل الربا؟، فنقول يا رب جنِّبنا طريقَهم، وطريقهم عبارة عن سلوكٍ، وعن أفعالٍ، فكيف نسأل الله أن يُجنبنا طريقَهم، ولا نعرف طريقَهم؟، ثُمَّ نقول: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ يا رب جنبنا طريقَ الذين ضلُّوا وهم النَّصَارَىٰ، النَّصَارَىٰ لهم أعمال، ولهم أخلاق وسلوك لابد أن تعرفها، فإن الله يأمر أن نسأله أن يُجنبنا طريقضهم.

والعلماء قَالَوا: إن النَّاس علىٰ ثلاثة أقسام، قسمٌ علِموا وعمِلوا، وهم الذين هداهم الله، فنحرص أن نكون معهم، نتعلَّم ونعلَم ونعملَ، وقسمٌ تعلَّموا وعلِموا، لكن لم يعملوا، فغضب الله عليهم، وقسم لم يتعلَّموا، إنَّمَا عبدوا الله علىٰ جهل، ودينٍ الله ليس بالعقل ليس بالرأي، لا نعبد الله إلا إذا عرفنا أنَّ هذا أراده الله وأمرَ الله به، كيف نعبد الله بأمر لا ندري هل أمرنا به أم لا؟ بعضُ النَّاس يتقرَّب إلىٰ الله بأعمال لا يدري عن حكمها، ولا يعرف هل الله أمر بها أم لا؟، هذا ضالٌ مثلُ النَّصَارَىٰ، ولهذا قَالَ سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من فسدَ من علمائنا ففيه شبهٌ باليهود، ومن فسدَ من عبادنا ففيه شبه من

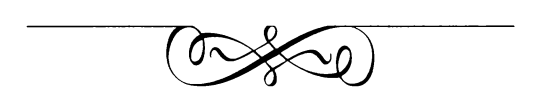
النَّصَارَىٰ، فهذه سورةٌ عظيمة جداً، ولهذا يقول ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ جميع ما أنزل الله من الكُتب لخصَّها في القُرْآن، وجميع ما في القُرْآن لخصَّه في المُفصَّل، وجميع ما في المُفَصَّل لخصه في سورة الفَاتِحَة، وجميع ما في الفَاتِحَة لخصه في قوله - تَعَالَى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾. هذه الآية وحدُها تكفي، اشتملت علىٰ فعلِ الربِّ وفعل العبدِ، تعبدُ مِن فِعلك، وتستعينُ بفعلِ الله، فكل الكون إمَّا فِعل المَخْلُوق، وَإِمَّا فِعل الخَالِق، وقد ألَّف الهروي كتاباً سماه منازل السائرين بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فجاء ابن القَيِّم وشرحه في كتاب عظيم سماه مدارج السالكين بَشَرح منازل السائرين بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لكن كيف تَفهم هذا المعنىٰ إلا إذا قرأت وتعلمَّت أنَّ العلمَ هو وسيلة العمل، فإن لم تتعلم فإنَّك تبقىٰ جاهلاً، فهذه أعظم سورة في كتاب الله،كَمْا جاءت في الصَّحِيح، وشرع الله قراءتها في كل ركعةٍ، وأهل العلم يقولون: إنَّ الله جَعَلَها في أول القُرْآن، وهي سورة من قصار السور، ومن حقِّها في الترتيب أن تأتي في آخر جزء، لكن الله أرادها ووضعها أولاً، كأن القُرْآنَ كلَه تفسير لما في داخلها من معانٍ، فهذه السورة عظيمة، فينبغي أن نتعلمها ونعمل بها، ونُعلِّمُها النَّاس.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد وصف النَّبِي ﷺ أئمة الهدىٰ لما ذكر التَّفَرُّق من بعده، بأنَّهم الذين كانوا علىٰ ما كان عليه النَّبِي ﷺ وأصحابه)**، هذا الحَدِيث ورد عن جماعةٍ من الصَّحَابَة، فهو يشير إلىٰ تفرُّق المُسلِمين إلىٰ أكثر من سَبْعين فرقة، واختلف العُلَمَاء في هذا الحَدِيث واختلفت الألفاظ، فبعضها ذكرت التَّفَرُّق ولم تذكر مصيرَ كل فرقة، لم تذكر: "في النَّار "، ولهذا ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ رد هذا الحَدِيث، وقال: أنَّه حَدِيث لا يصحُ، ذِكرُ التَّفَرُّق الذي فيه ذكرُ مصيرِ النَّاس،

وكذلك ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ يفهم من كلامه كَمْا ذكر الشوكاني أنَّه لا يقول بصحة الحَدِيث، وكذلك الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ يميل إلىٰ عدم صحة الحَدِيث، الحَدِيث ورَد في ذكرِ التَّفَرُّق، وذكر الفئة الناجية، فأكثر المتون علىٰ أنَّها الجماعة، وفي بعض الأحَادِيث: قَالَوا: من هي يا رَسُول اللهِ؟ قَالَ: **(ما أنا عليه وأصحابي)**[1] لكن العُلَمَاء قَالَوا: الصَّحِيح أن اللفظ الذي فيه ذكر الجماعة هو الراجح، والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ يُرجِّحُ الجماعةَ، وقد صحح الحَدِيثَ في كتابه سلسلة الأحَادِيث الصَّحِيحة، وبيَّن أن الحَدِيث ورد بعدة طرق، وجماعةٌ من الصَّحَابَة، فالحديث إن شاء الله صحيح، لكن لا يفهم أن التقسيمَ متساوٍ، قد تكون السبعون فرقة بكاملِها لا تُساوي عُشرَ الفرقة الناجية، قد تكون الفئات الُمنحرفة كلُها لا تساوي عشرَ الفئة الناجية، فإذا صحَّ الحَدِيثُ والعلماء صحَّحُوه، لا ينبغي لنا أن ننكر المتن بعقولنا بل ينبغي أن نبحث عن المعنىٰ، فإن العُلَمَاء قَالَوا: بعض النَّاس فهم من الحَدِيث أن الأُمَّة متساوية في التَّقسيم، وهذا غير صحيح، فكيف تكون الأُمَّة الإسْلَامية التي هي أكثر الأممِ يومَ القِيَامَة من أهل الجَنَّة يكون واحدٌ من سَبْعين منها في الجَنَّة والباقون كلُّهم في النَّار، فأخطئوا في هذا الفهم، وبعض النَّاس فهِم أنَّ القسم الذي يدخل النار يكون في النَّار مُخلَّدا، وليس هذا بصحيح، صاحبُ المعصيةِ يدُخل النَّار ويخرُج منها إذا كان مُوحِداً، وقد جاءت الأحَادِيث أنَّ من ارتكب الكبيرة ولم يغفر له الله قد يدخلُه الله النَّارَ لكن يخرجه من النَّار بتوحيدٍ أو شفاعة

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأُمَّة، برقم: (٢٦٤١)، والحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب العلم، برقم: (٤٤٤)، (١/ ٢٠٧)، والطبراني في المعاجم الثلاثة، المعجم الأوسط، برقم: (٤٨٨٦)، (٥/ ١٣٧)، والضياء المقدسي في الأحَادِيث المختارة، برقم: (٢٧٣٣)، وحسنه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي.

النَّبِي ﷺ، أو شفاعةِ الملائكة، أو برحمةِ الله ﷻ، فليس من شرط التقسيم أن يكونوا متساوين، فزال الإشكال إذاً، ويُوَجَدُ طوائف من المُسلِمين انحرفت واتخذت لها مَنهَجاً غير مَنهَج المُسلِمين فضلَّوا وأضلوا، هؤلاء يعاقبون في النَّار، لكن يخرجون منها إذا كانوا موحدين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

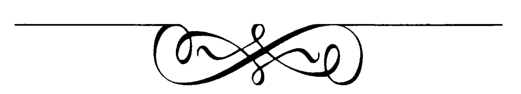
فمن كان علىٰ ما كان عليه النَّبِي ﷺ وأصحابه فهو من الأئمة المهديين، ومن خالفهم فهو من الضالين، كالذي يقول لأصحابه: من كانت له حاجة فليأت إلىٰ قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب أو نحو هذا، كالذي يدعي أَنَّه يخلص أصحابه ومريديه من النَّار، و أَنَّه يحفظ النَّاس ويكلأهم إذا اعتقدوه، ويضر بهم إذا كفروا به وحاربوه، ويدعي أن ذلك من كراماته.

الشَّرح

هذه بعضُ أقوالِ أهل التَّصوفِ الذين انحرفوا عن جادَّة الحقِ، فإن بعض رؤسائِهم، يزعمُ أنَّه يستطيع أن ينصر وأن يُغيثَ من يدعوه بعد المَوْت، فيقول: لا خير في إنسان يحجزُه كفٌ من الترابِ عن أصحابه، نقول: لماذا لم يدفَع عن نفسه المَوْتَ إن كان ممن له المكانةَ العليا والصدارة، وهل نبينا ﷺ قد قَالَ مثلَ هذا الكَلَام؟ ولماذا الصَّحَابَة ﷺ لم يأتوا إليه عندما وقعت فيهم الفِتن، فيدعونَه ويستغيثون به، فهذا فكرٌ ضالٌ، وفي الحقيقة عندما ندرس انحطاطَ المُسلِمين الذي تم في نهاية الخلافة العثُمانية التركية نجد أن التَّصوف قد اتسع في بلادِ المُسلِمين، حتىٰ لم يبق بلدٌ ولا قرية ولا مدينة إلا وقد دَخَلَها التَّصوف، بل حتىٰ سلاطين الدولة العثمانية كانت لهم علاقة بالتصوف، وقد بُنيت الزوايا، وكان السلطان العثُمَاني لا يفعل فعلاً إلا إذا استشار من يسمونه بالأولياء، هذا من أسباب انحطاط الدولة التركية، التصوُّف سادَ وانتشر في بلاد المُسلِمين، الذي يقرأ يرىٰ عجباً!، ليست فرقةً، ولا فرقتين ولا عشرةً، بل وصلت أكثر من مائة وخمسين طائفة، كل طائفة لها زعيمٌ، ولها ذِكر، ولها

كُتب، ولها أتباع، ولها شِعار، كنت في بعض البلاد الإسْلَامية في أوائل رمضـان، فخرجت طوائف تَصوفٍ تفرح برمضان، فخرجت فرقٌ، كل فرقة لها أنشـودتهَا الخاصَّة، ولها عَلمُها الخاصُّ، وزيُّهـا الخـاصُّ، عـددنا أكثر مـن ثـلاث عشـرة فِرقة ذاهبةٌ إلىٰ المَسَاجِد التي فيها قبر لتحتفلَ برمضـان في هـذا المَسْجِد، لـيس هذا هو دين الله ﷻ.

إذا صـبغ المُسـلِمون بصـبغةِ التصـوف الـذي يـدعو إلـىٰ التواكُـل وتـرك العمل، وترك الجهادِ وعدم التَّكسُّب لأنَّ هذه كلهـا مـن ملامـح التصـوف، فـإن هذا يؤدي إلىٰ ضعفِ المُسلِمين، ومثل هذا القول يُوَجَدُ إلـىٰ اليـوم، مـن يقـول للمسلمين أو لأتباعه: أنا أغيثُكم، فاحضروني عندما تأتي بكم المُلمات، أو يقع عليكم حادثٌ، هذا من الكَلَام الذي لا يُرضي اللهَ، بل يسخِّطُه سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكالذي يمشي في الأسواق عرياناً ولا يشهد بصلاة ولا ذكر الله ولا علماً، بل يعيب علماء الشرع ويغمزهم ويسميهم أهل علم الظاهر، ويدعي أَنَّه صاحب علم الباطن، وربما يدعي أَنَّه يسعه الخروج من شريعة مُحَمَّد ﷺ، كَمَا وسع الخضر الخروج عن شريعة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونحو ذلك من الكفر والهذيان.

الشَّرح

في كثير من بلاد المُسلِمين ترىٰ بعض الأشخاص ممن يسمونهم أولياءَ يمشي بثياب مُمَزقَة، وَسِخةٍ، ولا يُصلىٰ ولا يتطهَّر ولا يتنظَّف، ويقول: هذا وليٌ من أولياء الله، عجبٌ ! نحن نعرف أنَّ أعظم ولي لله وسيدِ الأولياءِ نبينا ﷺ كيف كان حاله؟ هو النموذج، وكل إنسانٍ يزعم أنَّه وليُ لله ويخالف ما كان عليه رَسُول اللهِ ﷺ كاذبٌ، فنبينا ﷺ كان يتنظَّف ويلبس أحسنَ الملابس عند الصلوات وفي الجُمَع وكذلك للوفُود، وكان يَتطَهر، بل نراه حتىٰ في حجِّه وعمرتِه يُكثر من الاغتسال، لا يحب الأوساخ، فيكف بهذا؟!، رأينا بعض الأشخاص في بعض البُلدَان الإسْلَامية كأنَّه لم يقع الماء علىٰ جسمه منذ سنوات، وعليه الذباب، وهو عند بعض القُبُور، قَالَوا: هذا وصلَ إلىٰ الله، ومثلُ هذا يُعظَّم ويُقدَّر ويُظنُّ أن هذا وليُ لله، هذا ليس ولياً لله، هذا ولي الشَّيطَان، الله شرعَ لنا الغُسل في كل جمعة، و الوُضُوء عند كل صَلَاة، والتطهُر والنظافة، والسواك، هذا هو دين الله، النظافةُ والعبادةُ حتىٰ المَوْت، ليس هناك زمن ينتهي فيه الإنسَان من عبودِيته لله عَزَّ وَجَلَّ، فنبينا ﷺ قد عبد الله حتىٰ مات، حتىٰ في مرض المَوْت كان يأتي إلىٰ المَسْجِد ويحملُه أشخاص ويصلي بالمُسلِمين، ما قَالَ: أنا وصلت إلىٰ دَرَجَة اليقين كَمَا يزعم هؤلاء الأدعياء، فهذا الكذبُ من أسباب إفساد المُسلِمين في الماضي، ولا زال في كثير من بلاد المُسلِمين.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكالـذي يـدعي أن العبـد يصـل مَـعَ الله إلىٰ حـال تسـقط عنـه التكـاليف، أو يـدعي أن الأوليـاء يُـدعَون ويسـتغاث بهـم في حيـاتهم ومماتهم، و أنَّهـم ينفعـون ويضرون ويدبرون الأمور علىٰ سبيل الكرامة، أو أنَّه يطلع علىٰ اللوح المحفـوظ ويعلم أسرار النَّاس وما في ضمائرهم.

الشَّـرْح

يوجد في كثير من بلاد المُسلِمين من يزعم أنَّه يَطلع علىٰ ما في قلوب النَّاس ويدعوهم إلىٰ أن يستغيثوا به، ويدعوه إذا وقع بهم أمر أو احتياج، وهذه دعوىٰ ربوبية، وليست دعوىٰ ولاية، يدعي أنَّه ربٌ يغيثُ ويسمعُ ويُعين، والله يأمرنا أن ندعوه وحدَه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. وقد سبق أن الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان في بيئة تصوف في أواخر الدولة التركية في العراق يقول: أنَّه في الصغر قَالَ له أحد الصَّالِحِين -في الظاهر- : إذا عرض لك أمر فلا تدع الله ادعُ الولي فلانـًا، فإنّ الله مشغولٌ عنك، قَالَ: وقع هذا الكَلَام في قلبي موقعـًا اشمأزَّ له قلبي، وبقي في نفسي هذا الكَلَام حتىٰ أصبحت في سنِّ الرجولة، عجبت كيف يقول هذا المُسلِم هذا الكَلَام! كيف لا أدعو الله وأدعُو المَخْلُوقَ؟!، والقرآن كلُه يأمرنا بأن ندعو الله، فأيُ مخلوقٍ يُغيث؟ وسيد البَشَر ﷺ لم يكن بعهده هذا الكَلَام ولم يقله أبداً، بل القُرْآن والسُّنَّة تدلان علىٰ أن الدُّعَاء والاستغاثة لا يجوزان إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

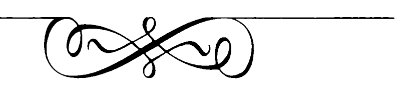
أو يجوز بنـاء المَسَاجِد علىٰ قُبُوْر الأَنْبِيَاء والصالحين، وإيقادهـا بالسرج والشموع، وكسوتها بالحرير والديباج، والفرش النفيسة، أو يدعي أن من عمل بالقرآن والسنة في أصول الدِّين وفروعه فقد ضل وأضل وابتدع، أو أن ظواهر القُرْآن في آيات الصفات تشبيه وتمثيل، وأن الهدىٰ لا يؤخذ منه في هذا الباب ولا في غيره، وإنما يؤخذ من الشبهات الوهمية التي يسميها بزعمه براهين عقلية.


الشَّرْح

ذكرَ هنا الطائفتين، أولاً: ذكر المتُصوِّفة وما فيهم من بدعٍ وانحرافاتٍ، ثُمَّ ذكرَ أهلَ الكَلَام فإنَّهم ينهَون النَّاس أن يفهموا عقائدَهم علىٰ ضوء القُرْآن الكَرِيم، ويقولون:" إن فهمتَ القُرْآنَ الكَرِيم تقعُ في الشِّرْكِ؛ لأنَّ القُرْآنَ في ظاهرُه يُقرِّرُ الشِّرْكَ والتجسيم لله " !! ؛ فإن القُرْآنَ يصفُ الله بأنَّه سميع، بصير، علىٰ العرش استوىٰ، إليه يرفع الكلِم الطيبُ، والعملُ الصالح يرفعُه، فقالوا: هذه كلها تدل علىٰ أن الله في جهة وأن الله جسم، فلا تَفهم القُرْآن بنفسك بل ارجع إلىٰ كلامِنا، أي: كأنَّ كلام الله غير فصيحٍ، وغيُر بليغ، وفيه ضعف في سبكه وفي عبارته يحتاج إلىٰ أن نعرضه علىٰ قواعد المتكلمين!، هل في كلام البَشَر أعظم من قوله - تَعَالَى - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]. نفىٰ أن يكون لله مثل في خلقه مطلقـاً، وأثبت له صفتين، هذا بعض صفاته ﷻ، فيبين أنَّ كلَّ صفات الله ليست مثل صفاتِ المَخْلُوق، فالمُسلِم لا يقع في قلبه أن الله مثل الخَلْق أبداً، لكن من تربىٰ علىٰ مَنَاهِج مُنحرفة أو عقائد منحرفة فإنَّه هو الذي يفهم هذا الفهمَ الخاطئ، أمَّا سليمُ القلب لا يقع في نفسه التمثيلُ أو التجسيدُ أو التشبيهُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهؤلاء يقولون: لا تأخذوا العقيدة من

القُرْآن والسُّنَّة، خذوها من كلامنا أي من كلام المتكلمين، فكأنَّ كلامهم هو أوضح وأصح من كلام الله!!.

وفي العصر الحاضر من يزعم أنَّ تشريعات الله لا تصلحُ لهذا العصر الذي تقدّضم فيه الإنسَان؛ لأنَّ التشريعات جاءت في عصر مضىٰ، أمَّا العصرُ الحاضر فقد تطور الإنسَانَ وتغيَّر فلا تصلحُ له!!، والحقُّ أنَّ التشريع أنزله الله للإنسان، ما أنزله الله للمادة، والإنسان هو الإنسَان منذ خلقه الله إلىٰ قيام السَّاعة، الصدقُ هو الصدقُ، والكذبُ هو الكذبُ، والخُلق هو الخُلْق، والإحسانُ هو الإحسان، والعدلُ هو العدلُ، والظلمُ هو الظلمُ، الإنسَانُ نفسُه لم تتغير أخلاقُه، ولا حاجاتُه، ولا مطالبه، ولا تصوراتُه، فالله أنزل الدِّينَ لهذا الإنسَان، وهو صاحب مشاعر، وصاحبُ أخلاق، وصاحبُ حاجات، وصاحبُ علاقات، فالتشريع لم يَنزل للمادة حتىٰ تقول: المادةُ لم يكن فيها كهرباءُ، فأصبح فيها كهرباءُ، المادة لم تكن تُفجر أصبحت تُفجر، بل خواطر الإنسَان واحدةٌ، تقرأ في كتاب الله ﷻ خواطرَ، ومشاعرَ إنسانٍ قبل أربع آلاف سنَة وتستمع إليه وهو يتكلم قصة نوح عليه السلام وكيف كانوا يستهزؤون به ويسخرُون منه، نفس الخَلْق الذي يُوَجَدُ في كل عصرٍ من عصور الدَّعوَة إلىٰ الله، مشاعرُ الإنسَان هي مشاعرُ الإنسَان، أحاسيسُه هي هي، أخلاقُه هي هي، الدِّين ما أنزله الله للمادة حتىٰ نقول المادة تطورَت. فالمتصوفة أو الذين انحرفوا في علم الكَلَام، أو المحدثين فيما يتعلق بأنظمة التشريع، كل هؤلاء عندهم وساوس وخواطر كاذبةٌ، والحقُ هو الحقُ في كتابِ الله إلىٰ قيام السَّاعة، ولا نجاة لنا ولا سعادة ولا أمن ولا طمأنينة إلا في كتاب الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فكل هؤلاء وأشباههم من أئمة الضلال الذين خاف النَّبي ﷺ علىٰ أمته وحذر منهم، والضابط في الفرق بين أئمة المتقين وبين الأئمة المضلين قوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران:٣٢،٣١].

الشَّرح

هذا هو الميزان، محبة الله تقتضي اتباع رَسُول اللهِ ﷺ، وطاعته ﷺ فيما أمر، فالنجاة فيما جاء به رَسُول اللهِ ﷺ، وليس في مَنَاهِج البَشَر، ولا في قواعد البَشَر، فكل مَنهَج أو قاعدةٍ ليس عليها دليلٌ من كتاب الله أو من سُنَّة رَسُول اللهِ ﷺ فإنَّه يكون مَردوداً، حتىٰ جرَّأ بعضَهم يقول: أنَّه ليس في القُرآن الكَرِيم دليلٌ مُقنعٌ، وإنَّما فيه دليلٌ خطابي، أي: فقط ألفاظ وعبارَات جميلةٌ تخاطَب العواطفَ، والدليلُ الإقناعي أو الدَّلِيلُ الذي فيه حُجَّةٌ في كلام المتكلمين!، وهذا ـ نعوذ بالله ـ كفرٌ، ولا نُكفِّر صاحبَه لشبهةٍ وقعت في نفسِه، لكن هذا القول كُفر، إذا كان كلام الله ليس فيه الإقناع وليس فيه حُجَّة، وهو كلامُ رب العَالَمِين وتحدَّىٰ به البَشَر أجمعينَ في فصاحتِه وبلاغتِه وأسلوبِه فأين يكونُ الصَّحِيح؟!.

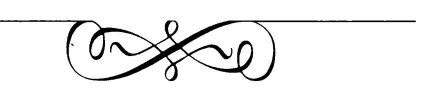
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فافهم عن ربك وكن على بصيرة، ولا يغرك جلالة شخص أو عظمته في النفوس، فربك أعظم، واتباعك لكلامه وكلام رسوله ﷺ الفرق، والعصمة منتفية عن غير الرَّسُولُ، وربك أدرى بما في الضمائر، فرب من تعتقده إمَّام هدى ليس كذلك، وقد قَالَ - تَعَالَى - لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية:١٨].

الشرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تَنخدِع بمكانةِ إنسان حتى لو كانت مكانة علمية؛ لأن العالم قد يزلكَمْا سيأتي، والعالم يزل لأحدِ أمرين، إمَّا أن يشتبه عليه الحقُ بالباطلِ، ولا يتعمَّد الضلالُ، وَإِمَّا أن يتعمّضد الضلال لمصلحة دنيوية، وقد ضرب لنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مثالاً ببلعام بن باعوراء الذي أعطاه الله العلمَ، وعلَّمه الله الاسم الأعظم، الذي إذا دُعي به جَلَّ وَعَلَا أجاب؛ فأغراه سفهاءُ بني إسرائيل أن يدعو على مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه، ووعدوه ومَنَّوه حتى استجاب لهم، فشبهه الله بالكَلب، قَالَ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦].

فكلُ من يكون عنده علمٌ، ثُمَّ يبيعه بعرض من الدُّنيَا قليلٍ هذا عالمٌ ضالٌ، فليحذر، وسيأتي من قول معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصَّحَابِي الجليل ما يشيرُ إلى هذا المعنى.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فكل من أتىٰ بشيء يخالف ما جاء عن الله وعن رسوله فهو من أهواء الذين لا يعلمون، ومن لم يستجب للرسول ﷺ فإنما يتبع هواه، قَالَ الله - تَعَالَى -: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص:٥٠]، وقال - تَعَالَى -: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

الشَّرح

هذه الآيات وما في معناها تُشير إلىٰ أن هناك طريقين، طريقُ الاتباع، وطريقُ الابتداع، طريقُ الاتباعِ هو الاستجابة لله ورسولِه، وطريقُ الابتداع هو الهوىٰ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية:١٨]، وهنا يقول - تَعَالَى -: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

قوله - تَعَالَى -: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اعملوا به وهو القُرْآن والسُّنَّة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هنا الضمير الهاء إمَّا أنَّه يعود علىٰ الله، أي لا تتبعوا من دون الله أولياء، أو يعود الضمير علىٰ ما أنزله الله، فيعني لا تقلدوا أحداً في دينكم، بل اتبعوا ما أنزل الله إليكم، فالإنسانُ بين أمرين، إمَّا أن يتبع الشرع، وَإِمَّا أن يتبع الهوىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن زياد بن حدير قَالَ: (قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسْلَام؟ قلت: لا. قَالَ: يهدمه زلة العالم، وجدال المُنَافِق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين) رواه الدرامي.



الشَّرح

هنا ذكر في الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثة أشخاص من النَّاس، قَالَ لزياد بن حدير وهو ذأحد التَّابِعِين: (**هل تعرف ما يهدم الإسْلَام؟**)[1] أي: ما يضرُ بالإسلام ضرراً يُسمَّىٰ هدماً؛ لأنَّ معصية الإنسَان العادي لا تُسمىٰ هَدماً، فإنَّها لا تُؤثر، لكن الذي يؤثر هو انحراف الإنسَانِ المَتبُوعِ الذي له تأثيرٌ في النَّاس، فالأول زلةُ العالم، وهي خطيرةٌ، فالعالِم قد يزلُّ في مسألة من مسائل الاعتقادِ فيؤخذ عنه ويَضلُّ أناسٌ كثيرون، ويبقىٰ هذا الخطأ في الأُمَّة إلىٰ قيام السَّاعة، إلا إذا قدَّر الله وقيَّد من يُنقذُ النَّاس واتبعوه إلىٰ التصحِيح، فزلَّةُ العالم أمر عظيمٌ في الدِّين، وقد يخطئ العالِم؛ لِأنَّه بَشَر، ليس مَلكاً، ويضربُ أهلُ العلم في المَسْأَلَة التي فيها اجتهاد كأنَّهم في دائرة، الذي يجلس أمام الدائرة لا يرىٰ إلا طرفاً منها، فظهر له في هذا الطرف أن صواب المَسْأَلَة كذا وكذا، ولكن لو رأىٰ كل الدائرة لعرف أنَّه مخطئ، فيحكُم بحسب ما يرىٰ، لكنه لو جاءه عالم آخر فنبَّهه تنبَه؛ لأنَّ الفرقَ بين العالم والجاهل ليس أنَّ العالمَ لا يخطئ، لكن العالم لو ذُكِّر بالمسألة وشُرحَت له عرف الحقَّ؛ لِأنَّه يعرف صورة الحقَّ، لكن خَفيت عليه، لكن الجَاهِل لا يعرف صورةَ الحق، مهما

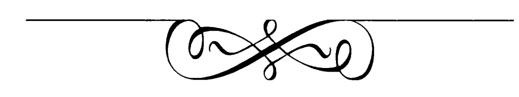
(١) أخرجه الدارمي في مقدمة سننه، باب في كراهية أخذ الرأي، برقم: (٢٢٠)، (١/ ٢٩٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٩٦).

تُذكِّره لا يذكر، فالعالمُ قد يخطئ باجتهاد في مسألةٍ عقَدية، أو مسألة فرعِية، فعندئذ لا يُؤخذُ قولَه؛ لأننا لا نتبع العُلَمَاءَ لأجل أشخاصهم، إنَّمَا نتبع لاعتقادنا أنَّ هذا الفهمِ هو ما دلَّت عليه النَّصوص، وإلا لو عرفنا أنَّ هذا الفهمَ الذي فهمه العالم لم يعتمد علىٰ نص أو أنَّه فهم خاطئ فإننا نرده؛ لأننا لا نعبدُ الله إلا بما شرعَ هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالعالمُ قد يزل لوهمٍ أو غفلةٍ أو نسيانٍ، أو اجتهادٍ في الخطأ، لكن الذي يجتهِد فيخطئُ خطؤهُ مغفورٌ، لكن ليس لنا عذر في أن نتبع ما أخطأ فيه، وقد يزل العالمُ لمصلحةٍ دنيوية؛ لِأَنَّه بَشَر، فقد يضعفُ، وقد يُغرىٰ بالمال، وقد يغرَىٰ بالمنصب، وربما يأتيه الشَّيطَانُ، ربما يخالف الحقَّ عمداً ويقول: سأتوب إلىٰ الله،كَمْا قَالَ إخوة يوسف: نحن الآن نتخلص منه ثُمَّ نتوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، هذا من الشَّيطَان، فلا يجوز لنا أن نتبع العالم فيما زلَّ فيه، ونعرف زلَّةَ العالمِ؛ لأن علىٰ زلَله ظلمة واضحة،كَمْا يقول معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن العالم قد يزل، والمنافق قد يصيب، والصواب عليه علامات، والخطأ عليه علامات يعرفها أهل العلم.

والثاني: جدال المُنَافِق بالكتاب، يُوَجَدُ أشخاص يحفظون القُرْآن ويعرفون الأحكامَ، ويُحمِّلون النَّصوصَ ما لا تحتمل لفساد في قلوبِهم، أو نفاق في نفوسِهم، ويظهر لك ذلك من كلامِه، ومن سلوكِه ومن حياتِه أنَّه لا يؤمنُ بالله ولا برسولِه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه يستشهدُ عليك بالآيات، وربما يفسرها لك تفسيراً لم تسمع به من قبل، وهو لا يؤمنُ بالقرآن، هذا إبليس عندما جاء آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأظهرَ له أنَّه يُعظمُ الله، فأقسم بالله؛ لأن الذي يُقسمُ بالله يُعظمه في ظاهره، وإبليس لا يعظِّم الله. فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ انخدعَ، فإن إبليس قاسمهما: إنّي لكما لمن النَّاصحين، و في الحقيقةِ لا يُعظِّم ربَّ العَالَمِين ، لو عظَمه لما عصاه عندما أمره بالسُجود، فهكذا المُنَافِق، قد تسمع منه الآيات والأحاديثَ

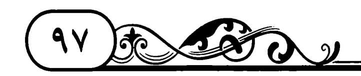
وربما تراه وهو يصلي،كَمْا جاء في الحَدِيث أنَّه قَالَ ﷺ: **(ما أظن أن فلانـًا وفلانـًا يعرفـان شـيئًا مـن ديننـا)**[1] وهـم في الظـاهر مُسـلِمون، فقـد يُوَجَـدُ في المُجْتَمَع المُسلِم مـن يـدعو إلىٰ المعاصي أو الإنحرافاتِ ويستدلُ بالأدلَـة، وهذا من أخطر ما تبتلىٰ به الأُمَّة.

والثالث: حُكمُ الأئمةِ الُمضلِّين، صاحبُ السلطَة قد يُصدر أمـراً أو قـراراً، فيصبح فرضـًا مفروضـًا، الجيلُ الأول يعرفث أنَّه ليس من الدِّين، لكن الجيـل الثاني لا يدرِي، الخليفة المأمون عندما كـان عنـده إمـامُ الضـلالة مـن المعتزلـة وهو أحمد بن أبي ذؤاب، فأخذ يُغرِي المأمون حتىٰ أقنعه بأن يدعو إلىٰ القـول بخلقِ القُرْآن، فبدأ المأمون، وأصدرَ الأوامر، وقطعَ أرزاق النَّاس، كـل مـن لـم يقل بخلقِ القُرْآن يُسجن، ويقطـعُ رزقـه، ويُضـرَب، حتـىٰ أئمـة السُـنَّة قـد نـالهم الأذىٰ بسـبب إمـام ضـلالةٍ، فالإمـامُ إذا حكـم بحكـم لـيس في الكِتَـاب والسـنَّة يُوَجِدُ في الإسْلَام ثَلمَةً قد لا تُبنىٰ إلا بعد فترة طويلة، وبقي هذا الأمر في إخوانـه حتىٰ رفعه الله في عهد المتوكل بالله، فالإمام الذي يحكـم حكمـًا ضـالاًّ، ويلـزم النَّـاس بـه وهـو لـيس مـن الـدِّين قـد يكـون في أولِ أمـره واضـحـًا، لكـن تنشـأ الأجيال حتىٰ يصبح في الأُمَّة، ولهـذا نـرىٰ مـثلاً المـذهب الأشـعري انتشـر عـن طريق الأئمةِ الرسميين، حتىٰ أصبح عقيدةَ المُجْتَمَع، وعقيـدةَ الدولـة، فبسـبب هذا الحال أصبح المذهب الأشعري يغطي العالـم الإسْلَامي إلا رُقعَـًا بسيطةً.



---

(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال يزيد بن عميرة: كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قَالَ حين يجلس: الله حكم قسط هلك المرتابون الحَدِيث، وفيه: واحذروا زيغة الحكيم، فإن الشَّيطَان قد يقول الضلالة علىٰ لسان الحكيم، وقد يقول المُنَافِق كلمة الحق، قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المُنَافِق قد يقول كلمة الحق؟ قَالَ لي: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال ما هذه، ولا يثنيك ذلك عنه، فإنَّه لعله يراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته، فإن علىٰ الحق نوراً رواه أبو داود وغيره.



الشَّرح

هذا أثر عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصَّحابةُ الذين تربَّوا في مدرسة النُّبوة كانت لهم فراساتُ المُؤْمِنِينَ، وكان لهم حسُّ الإنسَانِ المُسلِم الذي يُدرك الأمور ببداهته، فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينصح أحدَ تلاميذِه بهذه النَّصيحة، وقد رواها أبو داود في السنن وفي أولها يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القُرْآن حتىٰ يأخذه المؤمن والمنافق، والرَّجُل والمَرْأَة، والصغير والكبير، والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القُرْآن، ما هم بمتبعي حتىٰ ابتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، واحذروا زيغة الحكيم)[1] إلىٰ آخره. فقد يقع الابتداع من الحكيم الذي هو العالمُ،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُنَّة، باب من دعا إلىٰ السُنَّة، برقم: (٤٦١١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الشهادات، باب ما تجوز به شهادة أهل الأهواء، برقم: (٢٠٩١٦)، (١٠/ ٣٥٥)، والحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب الفتن والملاحم، برقم: (٨٥٠٦)، (٤/ ٦٣٤)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع باب الفتن، برقم: (٢٠٧٥٠)، (١١/ ٣٦٤)، صححه الحاكم علىٰ شرط مُسلِم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني أيضاً في تعليق علىٰ أبي داود.

طمعًا في أن يكون له أتباعٌ، فإن النَّاس إذا سمعوا العلمَ المألوف لا ينجذبُون، وإذا سمعوا علمًا غير مألوف فإنَّه قد يجذبهم، ولهذا نرىٰ أحيانًا في بعض الوُعَاظ في بعض البلاد الإسْلَامية يأتي بأحاديثَ لا نجدها حتىٰ في كتب المَوضُوعات التي اشتملَت علىٰ ما كُذِب فيه علىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، فقد يأتي بأحاديث غريبة حتىٰ يأتي النَّاس بشيء جديد، أمَّا إذا جاء بأحاديث الصَّحِحَينِ فقد سُمِعت من قبل، وألفاظها عليها نور وتألفها القُلوب، لكن يلجأُ إلىٰ أحاديثَ لم يسمعها النَّاس من قبل، وهو أرَاد بذلك إلىٰ أن يصرفَ النَّاسَ إلىٰ أن يسمعوا ما يقول. قَالَ: (احذروا زيغة الحكيم) فإنَّه إذا زلَّ في كلامه تُحس أنَّه أمرٌ جديد (إياك منه ما يقول النَّاس ما هذه؟) أي: شيء غريب، وَأمَّا كلام المُنَافِق فقد يصيب، وعلىٰ الحق نورٍ يدركُه كل من أرادَ الحقَّ.

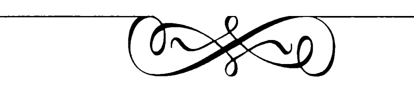
الإنسانُ يكون عنده إحساسٌ داخلي، فإذا سمعنا فتوىٰ غريبةً، أو كلامًا غريبًا لا يدلُ عليه نصٌ شرعي نتوقف عن الأخذ به أو قبوله؛ لأنَّا لا نتبع العالم لأجل ذاته، إنَّمَا لاعتقادنا أن ما يقوله فهم لنص من كتاب الله ﷻ، أو لنص من سُنَّة رَسُول اللهِ ﷺ، وإلا لا نقبلُه مهما كان العالم؛ لأن العالمَ بَشَر ولا يشرِّع، وهذا مَنهَج أهل السُنَّة والجمَاعة أنَّهم لا يقبلون في عقائدهم ولا في شريعتِهم إلا ما صحَّ عن رَسُول اللهِ ﷺ، حتىٰ إذا جاء عالمٌ من أهل السُنَّة بأمرٍ ليس عليه دليلق لا نقبله؛ لأنَّ الميزانَ لك وعليك، ولنضرب لهذا مثالا: الدُّعَاء في ختم القُرْآن في رمضان لم يرِد في السُنَّة، ولم يفعله الصَّحَابَة ﵃، إذاً لو فعله أحدُ الأئمة الأربعةِ لا يكون تشريعًا؛ لأنَّ هذا دينُ ربِّ العَالَمِين. عندك حساسية المؤمن، فلو قَالَ به أحدُ الأئمة وقبلته لِأنَّه إمامك، وقال أحد الأئمة لمذهب آخر قولاً ليس عليه دليلٌ، فقبله أتباعه، وأنت تردُّه، فإذاً ميزانك مضطرب، تكيل بمكيالين، إذا كان الإمام يشرِّع فما الفرق بين إمَّامي وَإِمَّامِك.

فالقاعدة للمسلم مَنهَجٌ، نحن تلقيناه من علمائنا رَحِمَهُمُ اللهُ، ولهذا نرىٰ الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، ردَّ علىٰ ابن القَيِّم وابن كثير ـ رحمهما الله ـ في مسألة الميثاقِ، فإن ابن القَيِّم قد تابع فيه شيخه ابن تَيمِيَة ـ رحمهما الله ـ، لكن الشيخ الألباني لعله ما وقِف علىٰ كلام الشيخ ابن تَيمِيَة، وناقش القضيةَ في أكثر من مائتي صفحة، وابن القَيِّم أيضـاً يقول: "لم يُوجَدُ ميثاقٌ أزلي، أي: ليس صحيحـاً أنَّ الله أخرج النَّاس كالذرِّ وكلمَهم ". والحق أنَّه صحيح، أخرج الله النَّاس كالذرِّ وقسمهم إلىٰ قسمين قسمٌ للجنَّة وآخر للنارقولُ ابن تَيمِيَة وابن القَيِّم وابن كثير رَحِمَهُمُ اللهُ: لكن لم يخاطبهم، قوله - تَعَالَى -: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] ليس هذا خطابـاً مقاليـاً، بل هذا خطابٌ حالي، أي: بعد الخروج من الدُّنيَا، أخذ ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ يفسِّر الآية تفسيراً علىٰ كلمة كلمة، الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: وهذا مَنهَج المئولين، ونحن من الشيخين تعلمنا المنهج الذي يردُّ علىٰ المئولة، فنحن نردُّ عليهم بمنهجِهم، فإن السلف بإجماعهم ذهبوا إلىٰ القول بالميثاق الأزلي كَمْا نقل ابن القَيِّم نفسه في كتاب (الروح) ، يقولون: بأنَّ الله قد أخرج الخَلْق كالذرَّ وكلمهم قِبلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ وهذا بإجماع السلف، ولم يخالف فيه أحدٌ من علماءِ السلف، ولا الصَّحَابَة ولا التَّابِعِين، ولا الأئمةُ الأربعة، ولا المُفسِّرين، فنرد علىٰ ابن تَيمِيَة وابن القَيِّم ـ رحمهما الله ـ ما قَالَا؛ لِأَنَّهما قَالَا قولاً السلفُ علىٰ خلافه، وصحَّت فيه الأَحَادِيث، وابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللهُ يرىٰ أن الأَحَادِيث لم تصح، وهذا اجتهاد منه، فالمنهَج يُحاكَم إليه الكبير والصغير، نحاكمُهم بمنهجهم، فالشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ ردَّ عليهم، وليس مخطئـاً عندما ردَّ عليهم في المَسْأَلَة، وأحيانـاً قد نحاكمه علىٰ ما يقول، وقد نحاكَم نحن علىٰ ما نقول، فالمحاكمة ليست تنقيصـاً للشخص أبداً، بل هذا إعلاءٌ للمنهجِ، هكذا ورد عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قَالَ ما معناه: إذا جاءت أحاديث صحاح قلنا بها.

فالتشريع لله ورسوله، والمنهجُ يُحاكَم إليه كل إنسان، فنستطيع أن نكون رافعي الرءوس أمام أصحاب البدع، نردُّ الكَلَام الذي ليس عليه دليل ولو قَالَه أحد أئمة الإِسْلَام الأربعة، إذ ما يستطيع أن يحاجنا، لكن عندما نقبل أمراً ليس عليه دليلٌ ونردُّ آخر فيما أتىٰ به من أمر ليس عليه دليلٌ يحاجنا، يقول: ما الفرق بين بائي وبائك؟ باؤك تجر، وبائي لا تجر؟!، يقال: شخص ذهب ليبيع حماره في السوق، فقال: بكم تبيعه، قَالَ: بدرهمٌ، قَالَ: قل بدرهمٍ؛ لأن الباء تجر الدرهمَ، فذهب إلىٰ السوق فباع حماره، ثُمَّ رجع، قَالَ: ماذا فعلت بحمارك؟ قَالَ: بعتَه، قَالَ: قل بعتُه؛ لأن هذا فعلٌ، قَالَ: في أول الكلمة باءٌ، لماذا باؤك تجرّ، وبائي لا تجر؟!، فلا يكال للناس بمكيالين، ولا بصاعين. ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين:١-٣]. تستوفي لنفسِك، وتُوفي لغيرك، فيكون هدفُك قبولَ الحق، والحقُّ ما جاء عليه الدَّلِيل، مَنهَج سهلٌ ليس فيه غبار، هذا المنهج هو الذي يُنقذ الأُمَّة ويجمعها؛ لِأَنَّه كَمْ في الأُمَّة من علماء، لو قبلنا بدعةً واحدة من كل عالم فكم بدعةٌ؟!، مثلاً: كتاب سير أعلام النبلاء،كَمْ فيه من علماء، بعضهم كبارٌ، لكن ليس لهم مؤلفات أو فقدت مؤلفاتهم، فلو أخذنا من كل واحد عالم زلَة واحدة لما وصل إلينا الإِسْلَام إلا وعندنا آلاف البدع كلها من دين الله، نتربىٰ علىٰ مَنهَج، وهذا يتأصل في نفوسِنا؛ لِأَنَّه دينُ الله، وإذا ردَّدنا كلام شخص لا يعني أننا نكرهه، نحن نتقرب إلىٰ الله بحب علماء الإِسْلَام، فإن الله حفظ الدِّين بهم، وعن طريقهم وصل إلينا الدِّين، لكن الحق مُقدم كَمْا قَالَ ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ وهو يناقش الهروي في كتابه مدارج السالكين: وإن كان الشيخ إلينا محبوبًا لكن الحقَّ أحب إلينا منه؛ لأن الهروي رَحِمَهُ اللهُ له كتاب منازل السائرين، وفيه من البدع والطامات كبيرة وكثيرة، لكن ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ أحبه؛

لِأَنَّه كان علىٰ مذهب السلف في الصفات، وكان ممن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر حتىٰ أوذي، لكن عنده طامَّات صُوفية كثيرةٌ، فابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أحيانـًا يتلمس له الأعذار، وأحيانـًا يفسره بقدر ما يستطيع، وأحيانـًا يرد عليه.

ولا نتبع هـذا المـنهج مَـعَ أشـخاص دون أشـخاص، بعـض علمـاء علـم الأُصـول يقـول في مسـألة مـن مسـائل الأُصـول: والصـواب فيهـا مـا قَالَـه المخـالفون، ولكـن اتبـاع شـيخنا أولـىٰ، لا يصـلح هـذا، والمـنهج الصَّـحِيح يجعلك قويـًا في كل موطن، والمنهج الضعيف يضعف الإِسْلَام كَمَا قَالَ الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ الإِسْلَام قضية حقٍ بيدِ مُحامٍ فاشِـلٍ، أي: الـدِّينُ حقٌ، لكـن الـذي فشَّله نحن المُسلِمين، فالمنهج يُعلي الحَقَّ وينصره، ولا يكون في قلبـك هـوىٰ لأحد، تحب الشخص ولا تتبعه فيما أخطأ فيه؛ لِأَنَّه لـيس هنـاك أحـد معصـوم، فإذا أخطأ في مسألة تردُّ، ولا تقبل ولو كان عالمـًا، وصـواب المُنَـافِق يُقبـل وإن كـان منافقـًا، فهـذا مَـنهَج المُسلِم يتبعـه فيرضـي الله عَزَّ وَجَلَّ ويرضـىٰ عـن نفسـه وينصر الحق بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وما أحسن ما قَالَ ابن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وهل أفسد الدِّين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها



ذكر ثلاث طوائف كَمْا قلنا: الملوك أصحاب السلطان، وأحبار سوء، أي: علماء سوء، والرهبان، وقد قَالَ سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من أجلة أتباع التَّابِعِين: من فسد من علمائنا ففيه شبه باليهود؛ لأن اليَهُود غضب الله عليهم، علموا ولم يعملوا، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه بالنصارىٰ؛ لِأَنَّهم عبدوا الله علىٰ ضلال، والنَّاس إذا رأوا العالم يعمل بعلمه ويتقي الله في علمه أحبوه، وقبلوا منه ووثقوا فيه، وإذا رأوا العالم يصطاد بعلمه رفضوه، أحد الخلفاء زاره مجموعة من العُلَمَاء، وفيهم عمرو بن عبيد، وهو معتزلي، وكان صاحب بدعة، لكن كان زاهداً عفيفاً، فطلب من هؤلاء العُلَمَاء أن يطلبوا ما يريدون، فكل عالم طلب حاجته من الدُّنيَا، وعمرو بن عبيد رفض، قَالَ: لا أريد مما في يدك شيئاً، فقال هذا الحاكم: كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد، أي: كلهم جاءوا ليصطادوا بعلمهم إلا عمرو بن عبيد هذا العالم المُعتزلي، لا شك أن هذا الموقف من عمرو بن عبيد رفع مكانته عند هذا الحاكم؛ لِأَنَّه زهدفي ما في يده، وأظهر استعلاءً علىٰ الدِّنيا، وقال: يكفيني ما أنا فيه من العيش ،فالعالم قد يزِلُّ غفلةَ، وقد يزل طمعاً، لكن لو زل طمعاً أو غفلة لا يغني أن نردَّ الحقَّ إذا جاء به؛ لِأَنَّه ليس للأمة إلا علماؤها، ولكن لو أردنا أن نفصل عالماً ما يخطئ ما نجد في جميع التاريخ عالماً لا يخطئ، لكن المشكلة إذا أخطأ وباع دينه بدنياه، إمَّا لو أخطأ اجتهاداً أو غفلة فهذا إن شاء الله مأجور عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يومَ القِيَامَة) أي إذا وقعت الفتنة والقتال بينهم بقي إلىٰ يومَ القِيَامَة، وكذلك وقع، فإن السيف لما وضع فيهم بقتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يرتفع إلىٰ اليوم، وكذلك يكون إلىٰ يومَ القِيَامَة، ولكن يكثر تارة ويقل أخرىٰ ويكون في جهة ويرتفع عن أخرىٰ.

قوله: (ولا تقوم السَّاعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين) الحي واحد الأحياء وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: ولا تقوم السَّاعة حتىٰ يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، والمعنىٰ أَنَّهم ينزلون معهم في ديارهم ويصيرون منهم بالردة ونحوها.

قوله: (وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان) الفئام مهموز الجماعات الكثيرة، قَالَه أبو السعادات.

وفي رواية أبي داود: (وحتىٰ تعبد قبائل من أمتي الأوثان) ومعناه ظاهر.



الشَّرح

أحيانًا يقع خطأ في المُجْتَمَع، فيعاقب الله عليه، فقتلُ عثُمانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مظلومًا خطأ كبيرٌ ممن ارتكبه، أُريق دمٌ بغير حقٍّ، فعاقب الله المُجْتَمَع، وأهريق بعده آلاف الدماء،كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥]، فإن الفتنة إذا جاءت تَعمُّ، والخير يَخصُّ، فعندما وقع هذا الظلم علىٰ هذا الإمام الخليفة الراشد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فإن الله عاقبهم بإسالة الدماء، وتوقفت الحروب مَعَ الكفار، ورجعت الحروب بين المُسلِمين؛ لِأَنَّه أريق دم بغير حقه، ففي الحَدِيث أَنَّه إذا وقع عليهم السيف لم يرفع، والمتتبع لتاريخ

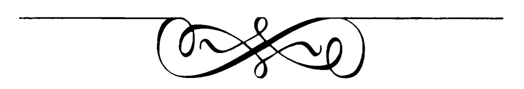


الأُمَّة الإسْلَامية يرىٰ أنَّه في كل عصر وقع فتنة وقتال بين المُسلِمين، وقد سبق أن الله ﷻ وعد نبيه ﷺ أن لا يهلكهم إلا إذا أهلك بعضهم بعضاً، إمَّا إذا اجتمعوا واتقوا الله فإن الله يكون معهم.

الأخبار الغيبية لا يستطيع الإنسَان أن يتصورها علىٰ حقيقتها قبل أن يدركها، فالحديث يذكر أنَّه قبل قيام السَّاعة أحياء من أمتي تلحق بالمشركين، ففهم الشَّارِح رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّهم ينتقلون إلىٰ بلادهم، هذا قد يكون أحد المعاني، والمعنىٰ الثاني: قد يلحقون بهم وهم في مك أنَّهم، فيعتقدون أنَّهم ليسوا مُسلِمين، أو ليسوا من العَرَب، بل هم غربيون أوربيون، وإنما التاريخ ظلمهم فضمهم إلىٰ المُسلِمين، فترىٰ دعاتهم ومفكريهم يدعونهم إلىٰ أن يقلدوا الكفار، وأن يلحقوا بهم في عقائدهم، وتنظيماتهم وتشريعاتهم وعاداتهم، فقد يلحقون بالكفار وهم في بلادهم، فليس شرطاً أن ينتقل المُسلِمون إلىٰ الكفار، فلا تكاد ترىٰ في مجتمع المُسلِمين ما يميزهم عن مجتمع الكفار، تدخل مدن المُسلِمين، فترىٰ مظاهر الشِّرْك والفساد التي في بلاد الكفار، لا تميز وأنت في داخل هذاالمُجْتَمَع بين هذا المُجْتَمَع ومجتمع الكفار، فقد يكون هذا يستمر في المستقبل حتىٰ تقفل المَسَاجِد، بل قد تهدم، ويبقىٰ المُسلِمون في بلادهم، لكنهم لحقوا الكفار في عقائدهم ودينهم، وإن لم يصرحوا، قد يدعون أنَّهم مُسلِمون، ويبقون في بلاد المُسلِمين، وهم بأسماء المُسلِمين، ولكن لا تفرق بينهم وبين الكفار، وقد تزور بعض بيوت المُسلِمين في هذه المُجْتَمَعات وكأنَّه بيت إنسان غير مُسلِم، لا ترىٰ فيه علامة الإسْلَام، وقد زرنا بعض البيوت في بعض البلاد الإسْلَامية لكبراء القوم، حتىٰ التَّمَاثِيل المُجسمات علىٰ بيوتهم، وهم ربما يكونون في مكانة اجتماعية ودينية، وأشكال نسائهم وبناتهم وحياتهم كأنَّهم ليسوا مُسلِمين.

فالحديث دلَّ علىٰ أمر عظيم، فليست القضية صغيرة تخفىٰ، ليس حي أو حيان فقط ينضمون لكن تلحق أحياءٌ كثيرةٌ، في الماضي لحقَ كثير من النَّاس بالكفَّار والمشرِكين، لكن هذا حدث يقع قبل قيام السَّاعة، ويكون واضحـًا، لكن قد يكون ما سبق في الأُمَّة صوراً منه، وبدايات له،فقد ينتقل المُسلِمون إلىٰ الكفار في عقائدهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، وحياتهم، فلا تستطيع أن تفرق بين حال المُسلِمين وحال غير المُسلِمين.

قوله ﷺ: **(وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان)** قلنا الوثن يطلق علىٰ كل ما يعبد من دون الله، سواء كان قبراً أو صنمـًا أو أشجاراً أو أحجاراً أو أشخاصـًا، فالوثن عام، والصنم خاص بذات الصورة، وقد يطلق هذا علىٰ هذا إن افترقا، لكن إن اجتمعا في مكان واحد فالوثن أشمل من الصنم، مثل الإسْلَام والإيمان، فحتىٰ تعبد فئام، أي جماعات من أمتي الأوثان، هذا - والله أعلم - أنَّهم يعبدون الأوثان كعبادة الجَاهِليَّة، فبهم يستسقون، ولهم يذلون، ولهم ينذرون، ويتقربون إليهم، وهذا يُوَجَدُ في كثير من بلاد المُسلِمين اليوم، بعض القُبُور أصبحت أوثانـًا، يذبح عندها النَّاس، وينيخون بها، ويطوفون بها، ويستشفعون بأهلها، ويتذللون إليهم بأنواع العبادات،كَمْا قَالَ ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: أنَّهم إذا رأوا القَبْر من مسافة طويلة نزلوا عن دوابهم، ومشوا إليها وهم راكعون، ويعفرون التراب علىٰ وجوههم، ويذلون عند القُبُور، هذه صورة لعبادة الأوثان، وقد حدثت في كثير من بلاد المُسلِمين، فقد تكون هذه الصورة هي المرادة، وقد تأتي صورة أخرىٰ في المستقبل أوسع، فهذه كلها من علامات السَّاعة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قَالَ بخلافه من عباد القُبُور، الذين ينكرون وقوع الشِّرْك وعبادة الأوثان في هذه الأُمَّة، وفي معنى هذا ما في الصَّحِيحَين، عن أبي هريرة مرفوعًا: (لا تقوم السَّاعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخلصة) قَالَ: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجَاهِلِيَّة، وروى ابن حبان عن معمر قَالَ: (إن عليه الآن بيتًا مبنياً مغلقًا).



الشَّرْح

معمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في القرن الثاني، ودوس قبيلة من القبائل في جنوب الطائف، وكان فيها ذو الخلصة صنم يعبد، وقوله: (تضطرب إليات نساء دوس)[1] لها أحد معنيين: إمَّا أنَّهم يركبن على الدواب، فيسرن إلى هذا الصنم من مسافة طويلة، تضطرب بهن هذه الدواب في سيرها إليه، وَإِمَّا على التزاحم عند الصنم حتى تحتك أجسامهنَّ بعضُها ببعض، لشدة التقرب والمسابقة والتنافس على عبادة هذا الصَّنم، وهذا قد وقع، وعبد قبل خمسين عام أو أكثر، كان يُوَجَدُ هناك صخرة كان يتقرب إليها بعض النَّاس، وحتى هدمت في بداية الدَّعوَة في هذه البلاد - ولله الحمد -، هذه علامات تسبق قيام السَّاعة، ربما يكون هذا الحدث هو الذي أشار إليه الحَدِيث أم سيأتي في المستقبل حال أوسع، لكن عبدت الأوثان، ولا زالت إلى اليوم في بلاد المُسلِمين، فهذه من علامات الغيب التي أخبر عنها نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي صحيح مُسلِم عن عائشة مرفوعًا: (لا يذهب الّليل والنهار حتىٰ تعبد اللات والعزىٰ) وقيل: إن القَبْر المنسوب إلىٰ ابن عباس بالطائف أَنَّه قبر اللات، وكانوا يعبدونه ويطوفون به ويقربون إليه القرابين وينذرون له النذور ويسألونه قضاء حاجتهم وتفريج كربتهم.

قوله: (و أَنَّه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أَنَّه نبي) قَالَ القرطبي: وقد جاء عددهم معينًا في حَدِيث حذيفة، قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: (يكون في أمتي كذابون دجالون سَبْع وعشرون منهم أربع نسوة) أخرجه أبو نعيم، وقال: هذا حَدِيث غريب تفرد به معاوية بن هشام، قلت: حَدِيث ثوبان أصح من هذا، قَالَ القاضي عياض: عدد من تنبأ من زمن رَسُول اللهِ ﷺ إلىٰ الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة علىٰ ضلالته فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.



الشَّرح

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مات في الطائف، فإنَّه خرج من مَكَّةَ في خلافه مَعَ ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فطلع إلىٰ الطائف ومات بها، قبره كان يعظم، يقول الشَّارِح رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الحقيقة أن هذا المكان ليس هو قبر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإنما اختلقوا، وإلا فهو مكان اللات التي كانت تعبد في الطائف، فإن صحت الرُّوَايَة يكون هذا ما أشار إليه الحَدِيث.

قوله: (و أَنَّه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون..)(١) هذا الحَدِيث أخرجه مُسلِم، وقوله ﷺ: (يكون في أمتي كذابون دجالون سَبْع وعشرون..)(٢) رواه أبو نعيم، عندما يأتي حَدِيث يتعارض مَعَ حَدِيث أصح منه، أو جاء حَدِيث ليس في كتب السُنَّة، وليس في أصح الكتب فلا نستشهد بما ضعف، وهذا كَمْا قَالَ الشَّارِح رَحِمَهُ الله، فحديث ثوبان أَنَّه سيخرج ثلاثون كذابون كلهم يزعم أَنَّه نبي، وقد حدث في الأُمَّة، وقد ظهر أولهم في عهد النَّبِي ﷺ، فإنَّه ظهر مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والأسود قتل في عهد النَّبِي ﷺ، وظهر بعده طليحة، وسجاح، وطليحة قد تاب وأسلم، وسجاح تابت وأسلمت.

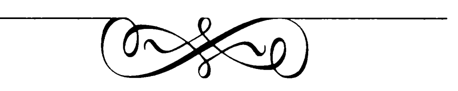
والمراد بهذا العدد من يكون له شوكةٌ، أَمَّا من يدعي النبُّوة ممن يصاب بأمراض سوداوية كَمَا يسَموَنها، ويتصوَّر صوراً وخيالات، ويكون دعوىٰ فردية هذا كثيرون، وكتب الأدب مثل: الأغاني، ومثل: العقد الفريد مملوءة بذكر هذا النوع من النَّاس، يسميهم الأدباء تحت عنوان : الممرُورِين، المَمرُور: الشخص الذي يُصاب في عقله، أَمَّا المتَنبئُون فهم الذين لهم أتباع،فهم مشهورون، يُوَجَدُ طوائف ظهرت في العصر الحاضر، فالَقدياني في الهند ادعىٰ أَنَّه نبي، ونرىٰ بدراسة تاريخه أن الذين أخرجوه هم الإنجليز؛ لأن الإنجليز كانوا يستعمرون الهند، وكان المُسلِمون أزعجوا الإنجليز بالجهاد، ففكروا في أن يحاربوا المُسلِمين، فقالوا: لا نستطيع أن نحاربهم إلا إذا أخرجنا لهم نبياً منهم، فاستطاعوا أن يقنعوا القدياني بالنُّبوة، فادَّعَىٰ النُّبوةَ،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٣٣٥٨)، (٣٨/ ٣٨٠)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٥٤٥٠)، (٥/ ٣٢٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، برقم: (٣٩٧)، (٧/ ١٣٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٧٩).

وجاء بإلغاء الجهاد وطاعة الإنجليز، حتىٰ يقول: أنَّه يوماً من الأيام جاءه جبريل في صورة شاب إنجليزي خواجة، قَالَ له: أنا أحبُّك، ووقَّع ربُّ العَالَمِين علىٰ ورقة بعثها إليه، فعندما وقَّع رب العَالَمِين سقط بعضُ الحبر الأحمر علىٰ ثوب القدياني وبقي هذا الثوب مُقدساً، وعندما سافر خليفته إلىٰ جنوب أفريقيا استقبله رئيس الدولة في المطار، فالقديانية اليوم لها أتباع وهي مُتمكنة في جنوبِ أفريقيا، وأول ترجمة للقرآن ترجمها القديانيون، وهم الآن في البلاد الغربية باسم المُسلِمين، وهم يزعمون أنَّهم لهم نبياً خاصاً، ولكن اختلفوا، منهم من يسمي نبيه بأنَّه مُجدِّد -مَعَ أنَّه ادعىٰ النبوة-، ومنهم من يقول: أنَّه نبيٌ، كذلك البهائية، ولهم مركز في عكَّا في فلسطين، كذلك في أمريكا مُحَمَّد إليجا علي ادعىٰ أنَّه رسول، بل إلىٰ السود فقط، أمَّا البيض فليس رسولاً لهم، وجاء ابنه وارث الدِّين، وقد حج واحتك بالمُسلِمين وتغيرت نظرتُه، لكن انقسموا إلىٰ قسمين، وظهر في السودان قبل عشرين سُنَّة مُحَمَّد محمود طه وادعىٰ أن هناك رسالة جديدة، و أنَّه لابد لها من رسول، ثُمَّ قتله النميري في آخر حياته، هؤلاء الأشخاص المشهورون في العصر الحاضر لهم أتباع، أمَّا في الماضي فقد اندثر كل من كان في الماضي، وسيأتي قول الشَّارِح رَحِمَهُ اللَّهُ أن آخرهم الدجال، يدعي النبوة ثُمَّ يدعي أنَّه رب، وتفقأ عينه ويهلكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

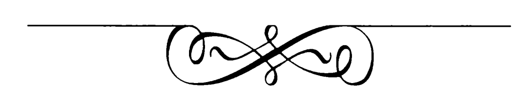
وقال الحافظ: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النَّبِي ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، ثُمَّ خرج في خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح التميمية في بني تميم، وقتل الأسود قبل أن يموت النَّبِي ﷺ، وقتل مسيلمة الكذاب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وتاب طليحة ومات علىٰ الإسْلَام علىٰ الصَّحِيح في زمن عمر رضي الله عنه، ويقال إن سجاح تابت أيضًا، ثُمَّ خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب علىٰ الكوفة في أول خلافة ابن الزبير، فأظهر محبة أهل البيت ودعا النَّاس إلىٰ طلب قتلة الحسين فاتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، أو أعان عليه فأحبه النَّاس، ثُمَّ أَنَّه زين له الشَّيطَان أن يدعي النبوة، وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه، ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل، وخرج في خلافة بني العباس جماعة. وليس المراد بالحديث من ادعىٰ النبوة مطلقًا فإنَّهم لا يحصون كثرة، لكون غالبهم ينشأ عن جنون أو سوداء وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدت له شبهة، كَمْن وصفنا وقد أهلك الله - تَعَالَى - من وقع له منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرهم الدجال الأكبر.



الشَّرح

هذا إشارة إلىٰ من ادعىٰ النبوة، قد بدأ ادعاء النبوة في عهد النَّبِي ﷺ، مسيلمة الكذاب ادعىٰ النبوة في عهد النَّبِي ﷺ، وكذلك الأسود باليمن، وادعىٰ طليحة في زمن أبي بكر وسجاح، أمَّا طليحة وسجاح فقد تابا، طليحة قتل في معركة نهاوند وسجاح ماتت في عهد معاوية وصُلي عليهما،

والمختار بن أبي عبيد الثقفي بعد قتل الحسين ظهر في العراق وادعىٰ أنَّه خرج ليقتل من قتل الحسين، فكان معه مجموعة من الجند فتغلب علىٰ العراق وقتل من قتل الحسين فأحبه النَّاس ثُمَّ ادعىٰ النبوة، والحارث ادعىٰ في عهد عبد الملك أنَّه نبي وكانت تأتيه خيالات وصور، ولكن هؤلاء اندثروا وبعضهم ليس له أتباع، لكن بعدهم استمرت الدعاوىٰ وهلك كثير منهم علىٰ كفره وبعضهم تاب إلىٰ الله ﷻ. فليس كل من ادعىٰ النبوة يذكر في العدد، فإن من ادعىٰ النبوة كثير.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وأنا خاتم النَّبيين) الخاتم بفتح التاء بمعنىٰ الطابع، وكسرها بمعنىٰ فاعل الطبع والختم، قَالَ الحسن: خاتم الذي ختم بهآخر النَّبيين، كَمْا قَالَ - تَعَالَى - ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]. وإنما ينزل عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان حاكماً بشَريعة مُحَمَّد ﷺ، مصلياً إلىٰ قبلته، فهو كآحاد أمته.

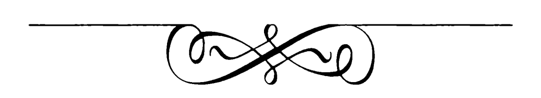
الشَّرح

قوله: (أنا خاتم النَّبيين) الختم في اللغة يطلق علىٰ نهاية الشيء، لهذا المُسلِم يسأل الله دائماً حسن الختام، والآية فيها أن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاتم النَّبيين،آخرهم ختمهم ، لكن ماذا قَالَ القدياني في خاتم النَّبيين؟ قَالَ: أي الخاتم الذي في الأُصبع، فهو زينة الأَنْبِيَاء. فقال العُلَمَاء: أيهما أفضل الإصبعُ أم الخاتم؟ فعجزَ عن الردِّ، نحن نعلم أن نبينا ﷺ أفضل الأَنْبِيَاء، فإذا كان نبينا إنَّمَا هو زينةٌ فقد نستغنىٰ عن الزينة، فهذا حط من قدره ﷺ، بل هو أصلٌ وله مكان وهو جزء من البناء الذي هو بناء الأَنْبِيَاء كَمْا جاء في الحَدِيث أنَّه قَالَ: **(مثلي ومثل الأَنْبِيَاء قبلي، كَمْثل رجل بنىٰ دارا فأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة، فجعل النَّاس يطوفون بالبيت ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فكنت أنا تلكم اللبنة)**(١) أي: سد هذا المكان، أي: البيت بدونِه ناقصٌ، لكن يقول ابن عَرَبِي: الحقيقة أنَّه بقي موضع لبنتَين، إحداهما فضةٌ والثانيةُ ذهبٌ، الفضةُ هي لبنةُ

---

(١) سبق تخريجه.

النُّبوة خاتم النبوة، والذهب لبنة خاتمُ الأولياءِ، هكذا في كتابه (الفتوحات)، وكان يزعم أن هو خاتم الأولياء. فمن زعم أنَّ المراد هو الختمُ بمعنى الخاتم يخالف اللغة، ويخالف ما ثبت في الشرع من مكانته ﷺ. وهنا يشير إلى قضية عيسى عليه السلام، قد يقول قائل: عيسى نبي وينزلُ بعد نبينا ﷺ؟ والجواب أن عيسى نبي قبل النَّبِي ﷺ، ولا ينزل نبيـًا يأتيه من السماء الوحي، إنَّمَا ينزل حاكمًا بَشَريعة مُحَمَّد ﷺ، وُيصلي خلف إمَام المُسلِمين، ويحكُم بالقرآن، فهو نبي لكن نبوته كانت قبل نبوة نبينا ﷺ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما قَالَ النَّبِي ﷺ: (والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية).

قوله: (ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم) قَالَ يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحَدِيث فلا أدري من هم. وكذلك قَالَ أَنَّهم أهل الحَدِيث عبدالله بن المبارك، وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري، وغيرهم، وقال ابن المديني في رواية: هم العَرَب، واستدل برواية من رَوَىٰ هم أهل الغرب، وفسر الغرب بالدلو العظيمة؛ لأن العَرَب هم الذين يستقون بها، قلت: ولا تعارض بين القولين.

الشَّرح

قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية)[1] أي ينزل حكمًا مقسطًا عادلاً، نبوتُه ثابتةٌ لا تُنسخُ، لكن كانت قبل نبوةِ نبينا ﷺ، فينزل فقط للحكم في الأُمَّة، لا ينزل ليكون يوحىٰ إليه وحيًا جديداً.

قوله: (لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم)[2] هذا الحَدِيث ورد بروايات بعضها (لا تزال طائفة من أمتي

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، برقم: (٢٢٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسىٰ بن مريم حاكمًا بَشَريعة نبينا مُحَمَّد ﷺ، برقم: (١٥٥)، (١/ ١٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

علىٰ الحق ظاهرين)[١] ليس فيها منصورة، إنَّمَا وجودهم واضح، وفي حَدِيث **(لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون علىٰ الحق)**[٢] والحديث مخرجه واحد، فالصحيح أنَّه ليس فيه يقاتلون، بل فيه أنَّهم ظاهرون؛ لأننا عندما نقرأ التاريخ نرىٰ أن المُسلِمين كثيراً ما يحدث فيهم ضعف وقد لا ينتصرون، لكن وجودهم بارز ظاهر، هكذا سيبقىٰ في الأُمَّة الإسْلَامية طائفة ظاهرة، ليس المراد بها - والله أعلم - علىٰ مدار التاريخ، بل المراد إذا ضعف المُسلِمون فلا بد أن يبقىٰ طائفة علىٰ الحق ظاهرة يراها كل من أراد الحق، و المُسلِمون كلهم علىٰ الحق ويختلف بعضهم بعضاً علىٰ مستوىٰ الحق الموجود، فلا أي: الحَدِيث أنَّهم علىٰ الباطل، بل المراد أن هذه الطائفة تستمر، فلا يندثر المُسلِمون بكاملهم، وسيبقىٰ طائفة إذا ضعف المُسلِمون علىٰ الحق واضحة، و المُسلِمون كلهم علىٰ الحق.

والعلماء اختلفوا فيمن أرادهم الحَدِيث؟ فمن العُلَمَاء من قَالَ: أنَّهم أهل الحَدِيث، ومنهم من قَالَ: أنَّهم أهل العلم كَمْا قَالَ البُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق وهم أهل العلم)**[٣] هكذا في صحيح البُخَارِي، ومنهم من فسر الحَدِيث العَرَب، ولكن هذا التفسير غريب، لكن الحَدِيث ورد في صحيح مُسلِم: **(لا يزال أهل الغرب ظاهرين علىٰ الحق حتىٰ تقوم السَّاعة)**[٤]، والعلماء اختلفوا في أهل الغرب، منهم من فسَّرها بأهل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مُسلِم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسىٰ بن مريم...، برقم: (١٥٦)، (١/ ١٣٧).

(٣) فإنَّه قَالَ في كتاب الاعتصام، باب قول النَّبِي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتىٰ ظاهرين علىٰ الحق يقاتلون وهم أهل العلم .

(٤) صحيح مُسلِم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا

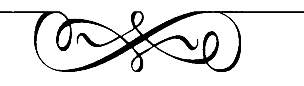
الشام؛ لأن الشام في غرب المدينة، ومنهم من قَالَ: الغرب هنا ليس بجهةٍ؛ لأنَّ الغربَ لها معنيان: الجهةُ، والدُلوُ، فإنَّه يسمىٰ في اللغة غَربَاً، فقال أبو المديني: أهل الغرب العَرَب الذين عُرفوا باستخدامهم للغرب الذي هو الدُلُو الكبير، وعلىٰ هذا أراد أن يبقىٰ العَرَب علىٰ الإسْلَام إلىٰ قيام السَّاعة، لا يرتدون بكاملهم لابد أن يبقىٰ فيهم طائفةٌ واضحةٌ. وهذا تفسير قابلُ للصواب، وقابل للخطأ، كذلك من فسر بأنَّهم أهل الحَدِيث؛ لِأنَّه قد يقول قائل: القُرْآن مقدَّم فمن حفظ القُرْآن فهو المراد بالمعنىٰ، وقد يقال: الفقهاء مُقدَّمون؛ لأن استنباط الأحكام مهمٌ في حياة الأُمَّة، فيحتمل أن يكون المراد أهل الحَدِيث المختصين في دراسة الحَدِيث،ويحتمل من يعمل بالحديث ويقوم فهمُه علىٰ الحَدِيث، فكل المُسلِمين يقوم علمُهم ودينُهم علىٰ الحَدِيث إلا من ردَّ الحَدِيث كالخوارج ونحوهم، أمَّا جميع الطوائف فتقول بالحديث لكن يختلفون في قبول الحَدِيث، منهم من يقبلُه جميعاً آحادثه ومتواترُه، ومنهم من لا يقبل إلا المتواتر، والظاهر - والله أعلم - أن المراد كل من عرف الدِّين وعملَ به سواء كان مُحدَّثاً، أو مُفسِراً، أو فقيهاً، أو أي طائفة من المُسلِمين؛ لأن الحَدِيث عام، لكن العُلَمَاء الأقدمِين خاصة ابن حنبل وابن المعين - رحمهما الله - كان في عصرهم وجود خاصٌ لأهل الحَدِيث؛ لأن في عهد التدوين كثر طلابُ الحَدِيث حتىٰ أصبحت هناك جموعٌ كبيرة ممن يسمىٰ من أهل الحَدِيث لحفظ الحَدِيث وروايتِه، ودراستِه، وكان يقابلهم أهل الكَلَام، فكل من لم يكن علىٰ مَنهَج أهل الحَدِيث يكون من أهل الكَلَام، فأرادوا بهذا التفسير تفسيراً وقتياً، وإلا فبعدُ التدوين ما أصبح هناك نفس الكمية التي كانت في القرن الثاني والثالث، أصبح الحَدِيث يتناقل عن طريق دراسته في الكتبِ وقل أن تجد محدثين حُفاظاً، مثلاً في العصر الحاضر الشيخ

= يضرهم من خالفهم، برقم: (١٩٢٥)، (٣/ ١٥٢٥).

ابن باز ليس محدثـًا وإن كان عنده حَدِيث إنَّمَا يعتبر فقيهـًا، الشيخ ابـن عثيمـين يعتبر فقيهـًا، الشيخ الألباني محدثـًا رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فإذا قلنا لا يُوَجَدُ طائفـة ظـاهرة علىٰ الحق إلا أهل الحَدِيث فلا يفضل إلا الشيخ الألبـاني ومـن كـان محـدثـًا، وهـذا ليس هو المراد، المراد من يقوم علمه علىٰ ما صحَّ من السُنَّة فيعملَ بـه ولـو لـم يكن محدّثـًا، لكن عنده علم بالحديث ويحرص علىٰ تطبيقه والعمـل بـه وإن لم يسمَّ محدثـًا.

فالحاكِم المُسلِم يكون من الطائفة المنصـورة، بعـض العُلَمَـاء يـرىٰ أن الله لابد أن يُبقِـيَ في كـلِ أهـل تخصـصٍ مجموعـةً أو أفـراداً مستقيمين حُجَّةً علىٰ غيرهم، ويرىٰ أنَّه سيبقىٰ مـن كـل طائفـةٍ أشـخاصٌ مستقيمون مـن المـؤرخين ومن الأدباء ومن الفقهاء، مثلاً ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ أديبٌ وهو من أهل السُنَّة، ويُسـمىٰ أديبُ أهل السُنَّة، فلو قلنا أنَّه ليس علىٰ الحقِّ إلا المُحدث فنلغـي نجـاةَ جميـع المُسلِمين ونقول أنَّهم ليسوا علىٰ الحق وليسـوا منصـورين، وليسـوا ظـاهرين، وليس هذا هو المراد والله أعلم.

فأمـا قضـية الغـرب فقـد يكـون فيهـا ـ والله أعلـم ـ إشـارةٌ إلـىٰ أن الإسْـلَام سيبلغ غربَ البلادَ، وستبقىٰ هذه البلاد مُسلِمة إلىٰ قيام السَّاعة، لكن حصره في طائفةٍ مُعينةٍ، في بلدةٍ معينةٍ، ليس هذا هو الُمراد؛ لأن هذا يحتاج إلـىٰ نـص؛ لأن تفسير النَّص لا يكون ملزمـًا إلا إذا كـان بـنص مثلـه، أمَّـا إذا كـان باجتهـاد فهـو قابل للصوابِ وقابلٌ للخطأ.

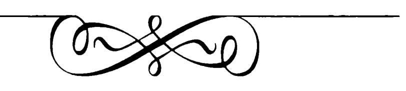


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذ يَمْتَنَّع أن تكون الطائفة المنصورة لا تعرف الحَدِيث، ولا سنن رَسُول اللهِ ﷺ، بل لا يكون منصوراً علىٰ الحق إلا من عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم أهل الحَدِيث من العَرَب وغيرهم، فإن قيل: فلم خصصه بالعَرَب؟ قيل: المراد التمثيل لا الحصر، أي أن العَرَب إن استقاموا علىٰ العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم الطائفة المنصورة حال استقامتهم.

الشَّرح

هنا لمحةٌ في تاريخ المحدثين، أكثرهم ليسوا عرباً، فحصرُها في العَرَب ليس صحيحاً إلا إذا أراد - والله أعلم - أنَّ في آخر الزمان سيندثرُ الإسْلَام وتبقىٰ طائفةٌ محصورةٌ في مكان معينٍ علىٰ الحقِّ، ويعمُ الفسادُ في العالم؛ لأن الحَدِيثَ قد يَقصدُ بقاءَ الطائفةِ المنصورةِ أو الظاهرة بعد ضعف المُسلِمين، أمَّا في حال قوة المُسلِمين فكلهم علىٰ الحق، أي: سواء كان أديباً أو مؤرخاً أو مفسراً أو فقيهاً أو محدثاً، فيحتمل أنَّه أراد بأن في حالة الضعف لا يندثر الإسْلَام، وسيبقىٰ طائفة علىٰ الحق إلىٰ قيام السَّاعة، هذا قريب من آخر هلاك العالم، فسيبقىٰ طائفة علىٰ الحق وإن ضعف المُسلِمون وإن اختفىٰ الإسْلَام في كثير من البلاد، فالله أعلم هل هو المراد أن يكون هناك طائفة متميزة في المُسلِمين، أم أنَّ بقاء طائفة في آخر الزمان عند ضعف المُسلِمين، والظاهر أن هذا هو المراد بهذا الخبر - والله أعلم.



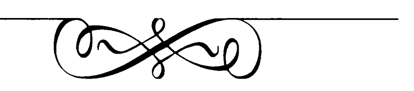
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال القرطبي: وفيه دليل علىٰ أن الإجماع حُجَّة؛ لأن الأُمَّة اذا أجمعت فقد دَخَلَ فيهم الطائفة المنصورة.



الشَّرح

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه إذا وجد في الأُمَّة طائفة منصورة فإذا أجمعت الأُمَّة علىٰ مسألة فلابد أن تكون حقاً؛ لأن الحَدِيث يخبر بأن هناك طائفةً علىٰ الحقِّ، فإذا أجمع المُسلِمون لابد أن تكون الطائفةُ داخلُ الإجماع، لكن كثيرٌ من العُلَمَاء يشكك في ثبوت الإجماع؛ لِأنَّه مثلا قد تظهر مسألةٌ في مَكَّةَ، ويُفتي فيها عالمٌ، ويسكتُ عنها عُلماءُ، وسكوتهم رضىٰ إن لم يكن هناك خوفٌ يمنعهم من الكَلَام، وقد لا تبلغ الفتوىٰ علماءَ الشام، فسكَتوا لا عن علم، ولا عن سماعٍ، فما أحد يستطيع أن يقول أجمع العُلَمَاء في هذا إلا في النَّصوصِ الظاهرة الواضحة، فإثبات الإجماعِ صعبٌ، ولهذا بعض العُلَمَاء يقول: من ادَّعىٰ الإجماعَ فقد كذَب؛ لأنَّ كلمةَ أجمعوا تحتاج إلىٰ تتبع، أنَّ تقوم لجنةٌ وتتبع العُلَمَاء في كل العالم الإسْلَامي واحداً واحداً، ويكون الجميع لا يمنعهم من أن يوافقوا هذه الفتوىٰ خوف أو مانع، فصعب إطلاق الإجماعِ، والإجماع نوعان: إجماع قولي، قَالَوه جميعــًا، أو إجماع سكوتي سكتوا عنه، فادعاء الإجماع يحتاج إلىٰ دراسة.



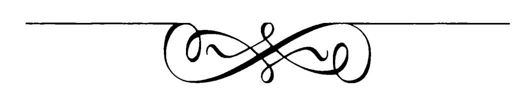
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال المصنف: وفيه الآية العظيمة أَنَّهـم مَـعَ قلـتهم لا يضـرهـم مـن خـذلهـم ولا من خالفهم، والبشارة بأن الحق لا يـزول بالكليـة كَمْا زال فيمـا مضـىٰ، بـل لا تزال عليه طائفة.



يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأمم الماضية وقع فيها اندثارٌ، مثلاً التوراة وصل بها الأمر إلىٰ أَنَّها ضاعَت ولم يبق أحدٌ عنده نسخةٌ من التوراة، والذي زعم أنَّه أخرجها لهم شخصٌ يسمىٰ عَازر، أو عُزيرٌ، ولم يحفظه أحدٌ، ولكن عندما نقرأُ التوراةَ في العصر الحاضر نرىٰ فيها من الإساءة لله ولأنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ما لا يقدرُ أحد أن يكتبَه ولو كان مجرماً، فمن نماذج إساءتها لرب العَالَمِين ، أن الله عَزَّ وَجَلَّ نزل وتصارع مَعَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طول الّليل، وحاول أن ينفك من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولم يستطع، وإبراهيم يطلب منه أن يضع البركةِ في ابنه إسحاق، وعندما بزغ الفجر قَالَ الربُّ: دعني وأضعُ البركةَ في إسحاقَ!!، والنص الثاني أن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أكل من الشجرة اختفىٰ، فنزل الله وتمشَّىٰ في الجَنَّة فما رآه، فقال: أين أنت يا آدم؟، قَالَ: هأنا ذا يا رب، قَالَ: لعلك أكلت من الشجرة، قَالَ: نعم، أي: ما يَدري أنَّه أكل، ولا يدري أين هو! وكذلك يقولون: عندما أغرقَ الأَرْضَ أنَّه بكىٰ حتىٰ عادتهُ الملائكة ـ نعوذ بالله ـ!، وإذا كان هذا موقفهم من رب العَالَمِين فما بالك بموقفهم من الأَنْبِيَاء، حتىٰ زعموا أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابن زنىٰ! نعوذُ بالله.

فالتوراة فُقدت وضاعَت، فإذا ضاع كتابُ أمةٍ ماذا بقي لها من دينها؟ وكذلك الإنجيل فُقد، والإنجيلُ الذي أنزله الله ليس له أصلاً وجودٌ، هذه الأناجيل إنَّمَا هي سيرة ذاتية لعيسىٰ عليه السلام، كتبها الطبقة الثانية من التلاميذ،لكن وعد الله ببقاء كتاب المسلمين وحِفظِه : القرآن، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر:٩]، وعندما ضعف المُسلِمون في الفترة الماضية كان القُرْآن يُطبع في بلادِ الكفَّار، يطبع في ألمانيا أحسن الطباعات، ويسجل علىٰ أشرطة أحسن أنواع التسجيل!؛ لأن الله يحفظه بأيدي النَّاس، فالمُسلِمون قد وعد الله ببقائهم وبقاء كتابهم محفوظًا، وبقاءِ طائفة منهم إلىٰ قيام السَّاعة.

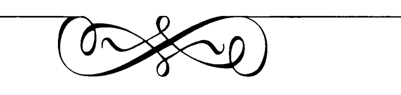


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (حتىٰ يأتي أمر الله) الظاهر أن المراد بأمر الله ما روي من قبض من بقي من المُؤْمِنِينَ بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثُمَّ لا يبقىٰ إلا شرار النَّاسكَمْا رَوَىٰ الحاكم، وأصله في مُسلِم عن عبدالرحمن بن شماسة أن عبدالله بن عمرو قَالَ: (لا تقوم السَّاعة إلا علىٰ شرار الخَلْق، هم شر من أهل الجَاهِليَّة، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم)، فقال عقبة بن عامر لعبد الله: أعلم ما تقول، وَإِمَّا أنا فسمعت النَّبِي ﷺ يقول: (لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون علىٰ أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم، حتىٰ تأتيهم السَّاعة وهم علىٰ ذلك) فقال عبد الله: أجل (ثُمَّ يبعث الله ريحًا كريح المسك، ومسها مس الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته، ثُمَّ يبقىٰ شرار النَّاس، فعليهم تقوم السَّاعة).

الشَّرْح

ليس بين هذا تعارضٌ، في الوعد ببقاء الطائفةِ وقيام السَّاعة علىٰ شرار الخَلْق؛ لأن السَّاعة إذا بدأت علاماتها كأنَّها قامت، الشيء إذا بدأت علاماتُه فقد بدأ وجودُه، فعلامات قيام السَّاعة هي أن يبقىٰ شرار النَّاس، هذه البداية، لا تقوم السَّاعة وفي الأَرْض من يقول الله الله، فعندما تنتهي الطائفة ينتهي زمن بقاء العالمَ، فتبدأ السَّاعة في القيام، فليس بين هذا وبين الوعدِ تعارضُ.

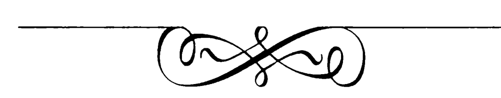


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي صحيح مُسلِم عن ابن مسعود مرفوعـًا: (لا تقوم السَّاعة إلا علىٰ شرار النَّاس) وفي صحيحه أيضـًا: (لا تقوم السَّاعة حتىٰ لا يقال في الأَرْض الله الله)، وذلك إنَّمَا يقع بعد طلوع الشَّمْس من مغربها، وخروج الدابة وسائر الآيات العظام، وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة. رواه أحمد.

الشَّرْح

علامات السَّاعة الكبرىٰ المعروفة هي خروج الدَّجال، والدَّابة، وطلوعُ الشَّمْس من مغربِها، ويأجوجُ ومأجوجُ، وثلاثُ خسوفٍ، خسف بالمشرق، وخسف بالمغربِ، وخسفٌ بالجزيرة، ونزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وظهور الدُّخَان، اختلف العُلَمَاء في أيها يبدأ؟ منهم من قَالَ: إن أول الآيات ظهوراً هو طلوع الشَّمْس من مغرِبها، ومنهم من قَالَ: أنَّها الدَّابة، لكن هذه العلامات الكبرىٰ فقط تبدأ، فإذا ظهر أحدها تتابعت مثل العقد الذي ينفرطُ خرزه إذا انقطع خيطُ العقد، العقدُ الذي في جيد المَرْأَة مثل السُبحةِ المعروفة فإن الخرز يخرُج بسرعةٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويؤيده حَدِيث عمران بن حصين مرفوعا: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال) رواه أبو داود والحاكم، وعلى هذا فالمراد بقوله في حَدِيث عقبة وما أشبهه من الأحَادِيث حتى تأتيهم السَّاعة ساعتهم وهي وقت موتهم بهبوب الريح، ذكره الحافظ وهو المعتمد، وقد اختلف في محل هذه الطائفة فقال ابن بطال: أَنَّها تكون ببيت المقدس حتى إلى أن تقوم السَّاعة.

كما رَوَى الطبراني من حَدِيث أبي إمَّامة: (قيل: يا رَسُول اللهِ، وأين هم؟ قَالَ: ببيت المقدس).



الشَّرح

قوله: (حتى إلى) كلا الحرفينِ أحدهُما ينوبُ عن الآخر، فأحدُهما يُحذف، إمَّا إلى أن تقوم السَّاعة، أو حتى تقومَ السَّاعة.

فلعله يكون في آخرِ الزمانِ في بيت المقدِس تبقى الطائفةُ ويكون هم المرادون بالغَربِ؛ لأنَّ بعض العُلَمَاء يرى أن الشّضمال هي الشام؛ لِأَنَّها في غرب المدينة، وهي ليست في الغربِ الكامل، إنَّمَا يُوَجَدُ في الجهةِ الغربيةِ الشمالية، فربما يكونون في الشام كَمْا سيأتي من قول معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإن كان قول معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليس موصولاً في البُخَارِي، إنَّمَا ذكره البُخَارِي مُعلَّقًا، فليس كلُ ما في البُخَارِي من المعلقات يكون صحيحاً.

قوله: (قال: ببيت المقدس)[1] وهذا الحَدِيث ضعيف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٣٢٠)، (٣٦/ ٦٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٧٦٤٣)، (٨/ ١٧١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

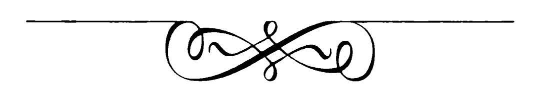
وقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هم بالشام، وهذا قول أكثر الشَّارِحين، وفي كلام الطبري ما يدل علىٰ أَنَّه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا إلىٰ أن يقاتلوا الدجال بل قد تكون في موضع آخر، لكن لا تخلو الأَرْض منها حتىٰ يأتي أمر الله.

قلت: وهذا هو الحق فإِنَّه ليس في الشام منذ أزمان أحد بهذه الصفات، بل ليس فيه إلا عباد القُبُور وأهل الفسق وأنواع الفواحش والمنكرات، و يَمْتَنع أن يكونوا هم الطائفة المنصورة، وأيضًا فهم منذ أزمان لا يقاتلون أحداً من أهل الكفر، وإنما بأسهم وقتالهم بينهم، وعلىٰ هذا فقوله في الحَدِيث: (هم ببيت المقدس) وقول معاذ: (هم بالشام) المراد أَنَّهم يكونون فيه بعض الأزمان دون بعض، وكذلك الواقع فدل علىٰ ما ذكرنا.



تحديدُ الطائفةِ ببلدٍ معينٍ غيرُ صحيحٍ؛ لِأَنَّه ما من بلدٍ في العالم الإِسْلَامي إلا وقد مرَّ عليه ظروف، استقامةٍ وانحدارٍ، ما هناك منطقةٌ بقيت من عهد النُّبوة إلىٰ اليومِ مستقيمةً، مثلا هذه البلاد قبل خمسين عامًا كان الشِّرْك فيها عامًا، ولا تكادُ توجدُ مدينةٌ ولا قريةٌ إلا وفيها القُبُور والشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، لكن لا يعني هذا عدمَ وجودِ أفرادٍ، سواء كانوا بالشام أو في المدينة أو في مَكَّةَ، أو كانوا في المدن الكبرىٰ الإِسْلَامية، لكن الحَدِيث ينص علىٰ طائفة ظاهرةٍ يراها كلُ النَّاس، فهذا الظهور ليس خاصًا بمنطقة معينةٍ، قد يظهرون في منطقة في زمن من الأزمانِ ثُمَّ يختفون في هذه المنطقة، ويظهرون في منطقةٍ أخرىٰ، ليسوا هم غيرهم، فليست هناك مدينةٌ كُتبَ لها أن لا يبقىٰ فيها إلا من كان علىٰ الحقِّ؛

لأنّ التاريخ يشهد بأنَّ الصلاحَ تتعاوَره البُلدَان الإسْلَامية، قد يكون أحيانًا في تركيا، قد يكون في الهند، قد يكون في باكستان، قد يكون في المغرب، فالحديث لم يرِد جماعةً معينة في منطقة معينةٍ، بل هذا وصفٌ يُطلقُ على جماعةٍ قد توجَد في منطقة في هذا الزمان ولا توجد في زمانٍ آخر فيها، بل تُوجَد في مكان آخر - والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ)، قَالَ ابن القيِّم: البركة نوعان أحدهما بركة وهي فعله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والفعل منها بارك ويتعدىٰ بنفسه تارة، وبأداة علىٰ تارة، وبأداة في تارة والمفعول منها مبارك، وهو ما جَعَلَ كذلك فكان مباركًا بجعله - تَعَالَى -، والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عَزَّ وَجَلَّ، فهو سُبحَانَه المتبارك وعبده ورسوله المبارك، كَمْا قَالَ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وَأَمَّا صفة تبارك فمختصه به كَمْا أطلقها علىٰ نفسه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:٦٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك:١].

أفلا تراها كيف اطردت في القُرْآن جارية عليه مختصة به لا تطلق علىٰ غيره، وجاءت علىٰ بناء السعة والمبالغة كتعالىٰ وتعاظم ونحوه، فجاءت تبارك علىٰ بناء - تَعَالَى - الذي هو دال علىٰ كَمْال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال علىٰ كَمْال بركته وعظمتها وسعتها، وهذا معنىٰ قول من قَالَ من السلف: تبارك تعاظم، وقال ابن عباس: جاء بكل بركة، واعلم: أن هذا الحَدِيث بجملته مما عد من الأدلة علىٰ الشهادتين، فإن كل جملة منه وقعت كَمْا أخبر بها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرح

قوله: (وبأداة في) أي: هذا الفعل في اللغة أنواع منه ما يتعدَّىٰ بنفسه مُطلقـًا، ومنها ما يتعدَّىٰ بأداةِ " في أو علىٰ "، نحو: باركه الله أو بارك فيه، أو بارك عليه.

هذا تفسير من الشَّارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوله: (تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ)، فقال: تبارك لها معنيان: تُطلَقُ علىٰ فعلِ الله -سُبحَانَه -، إذا فعلَ اللهُ البركةَ لإنسان في مالِه أو في عمرِه يقال: أنَّه

مُباركٌ، أي باركَه الله، ويُطلَق عليه - تَعَالَى - صفةً، لا يَجوز أن تطلق علىٰ غيره، مثل قولنا: "تَعَالَىٰ" ، فتعالَىٰ لا تُطلق إلا علىٰ الله، كذلك " تبارك " لا تُطلق إلا علىٰ الله، ولم يأت في القُرْآن الكَرِيم ولا في السُنَّة إطلاقُ هذا اللفظ علىٰ غيره ﷻ، فهذا الإطلاقُ يجعل البركةَ صفةً من صفاتِه، فتباركَ أي: تعاظمَ ﷻ، أو من سعة بركتِه سبحانه وتعالىٰ، فلا يجوز أن يقال في حقّ الإنسَان "تباركَ"،كَمَا أنَّه لا يقال في حق الإنسَان" تَعَالَىٰ" .

نذكر بعض فوائد هذا الباب قبل أن ننتقل إلى الباب التالي.

أولاً: أن الشِّرْك يقع في هذه الأُمَّة كَمْا وقع في غيرهم؛ لأنَّ هذا العنوانُ ردٌ علىٰ من يزعم أن الشِّرْك لا يقع في المُسلِمين، وقد أوردَ الأدلةَ الكثيرة الصَّحِيحة أن الشِّرْك يقع في المُسلِمين كَمْا وقع في غيرهم، ليست الأُمَّة معصومةً، وإن كانت الأُمَّة معصومةَ عن الخطأ إذا أجمعت كَمَا مرَّ، لكن الأُمَّة الإسْلَاميةَ كبقية الأمم، يحدث لها ما حدث في الأممِ الماضية فيقع فيها الشِّرْك، وقد مرّض عدة أحاديث، منها: (لا تقوم السَّاعة حتىٰ تضطرب إليات نساء دوس علىٰ ذي الخلصة)[1]، ومنها: (لا تقوم السَّاعة إلا علىٰ شرار الخَلْق)[2]، ومنها: (لتتبعن سَنن من كان قبلكم، حذو القُذةَّ بالقذة، حتىٰ لو دَخَلَوا جحر ضب لدخلتموه)[3] فهذا خبر بأنَّه سيقع فينا ما وقع فيهم.

ثانياً: أنَّ الشِّرْكَ أعظمُ أنواعِ الذُّنُوب، لهذا جاءت الآيات والأحاديث محذرةً من هذا الذنب العظيم.

ثالثاً: أنَّ الأخبارَ في إثبات وقوع الشِّرْك جاءت علىٰ أسلوبِين، أسلوبِ الخبرِ المُباشر بأنَّه سيقع في الأُمَّة شركٌ، والأسلوبُ الثاني: الإخبار بأننا سنتبعُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

من كان قبلنا من الأمم الماضية، وكلا الأسلوبين يؤكدان وقوع الشِّرْك في هذه الأُمَّة.

رابعاً: شهادة اليَهُودُ بتفضيلِ المشركين علىٰ المُسلِمين، مرَّ أن اليَهُود عندما ذهبوا إلىٰ مَكَّةَ وسألهم أهَل مكة عن مُحَمَّد وأصحَابه: أيهم أفضل نحن أم هم؟ فقالوا: بل أنتم أفضل من مُحَمَّد وأصحابِه، وهذا من أخلاق اليَهُودِ، فإنَّهم يعلمونَ الحقَّ ويخفونه، وهم المغضوبُ عليهم، ونحن في كل ركعةٍ نسأل الله أن يجنبنَا طريقَهم.

خامساً: خطورة الحيلِ في الدِّين؛ لأنَّ الله مسخ اليَهُودَ قردةً وخنازيَر بسبب احتيالهم علىٰ صيدِ الحيتان، وهذا الاحتيالُ أشدُ من إتيانِ المعصيةِ مباشرةً كَمْا قَالَ سُفيان بن عيينةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يخادِعون الله كَمَا يخادعون الصبيان، ولو أتوا الأمر علانيةً لكان أهون، فإن الله حرم عليهم صيد السمك يوم السبت، فقاموا فحفروا حفرة بجانب البحر، فإذا جاء السمك ودخل في الحفرة وضعوا الخشبة التي تمنع من عودة السمك إلىٰ البحر، ويوم الأحد أخذوا السمك، وهذا أمر عظيم جداً. فإذا حرم الله شيئاً حرم الوسيلة التي تؤدي إليه، وإذا أمر الله بشيء أوجب الوسيلة التي تؤدي إليه. لهذا قَالَ العُلَمَاء: ما أدىٰ إلىٰ الواجب فهو واجب، وما أدىٰ إلىٰ الحرام فهو حَرَام، فالاحتيال في الدِّين صعب، ومن وقع في هذه الأُمَّة في الاحتيال في المحرمات يكون شبيهاً باليهود، وقد وجد من المُسلِمين من ألف كتاباً في الحيل كيف تحتال علىٰ الوصول للمحرمات، ورد عليه ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب سماه إبطال الحيل، وذكر نماذج من الحيل غريبة جداً.

سادساً: معجزة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإخبار عن فتح فارس والروم، قد مر حَدِيث: (لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)[1] وقد وقعكَمْا أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) سبق تخريجه.



سابعاً: وعد الله ﷻ بحفظِ الأُمَّة ما لم يقع الفساد من الـداخل،كَمْا جاء في قولـه ﷺ أن الله قَـالَ: (**أعطيتـك لأمتك مـا سـألت إلا أن يكـون بعضـهم يهلـك بعضـًا، وبعضهم يسبي بعضـًا**)(١) فوعـده بـأن يحفظهـم إلا إذا وقـع الخلـلُ مـن الداخل.

ثامناً: خطورة انحراف الكبراءِ، قد يكون حاكمـًا، وقـد يكـون عالِمـًا، وقـد يكون عابِداً، وقد يكون كاتِبـًا، فكل مـن لـه تـأثير في الأُمَّـة، فـإن انحرافـه خطير ويَحملُ ذنب من ينحرف بسببِه.

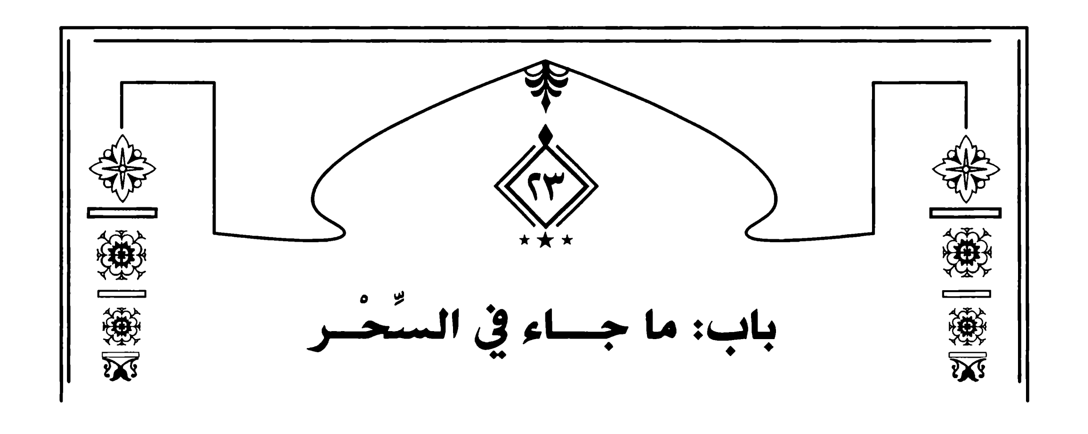
تاسعاً: بقـاء طائفـة منصـورة، هـذا خـبرٌ مـن نبينـا ﷺ، وأخبـار النَّبِي كلُّهـا صادقةٌ؛ لِأَنَّه لا ينطق عن الهوىٰ.

عاشراً: أنَّ قضاءَ الله ﷻ لا يُردُ، ومن فهم أنَّ القضاءَ يُردَّ مخُطئ، لا يصـحُّ فيـه حَـدِيث، ولا مـن حيـث المعنـىٰ، كيـف يقضـيه الله ثُـمَّ يـردُّه؟، وقضـاءُ الله مُتعلِّق بعلمِه ﷻ، فهذا طعنٌ في علم الله ﷻ.

الحادي عشر: لا يظهر انحرافٌ إلا باختفاء العلمِ، وسبب مـا يقـع في الأُمَّـة من انحرافٍ هو اختفاءُ العلمِ الشَّرعي، ولهذا الطائفـة الظـاهرة فسَّـرها العُلَمَـاء بأنَّهم أهلُ الحَدِيث أي: أهل العلـم كَمَـا قَـالَ البُخَـارِي رَحِمَهُ اللهُ، والعلـم لا يسـمىٰ علمـًا شرعيـًا إلا إذا قام علىٰ الكِتَاب والسُّنَّة.



(١) أخرجـه بمعنـاه مُسلِم في صحيحه، كتـاب الفتن وأشـراط السَّـاعة، بـاب هـلاك هـذه الأُمَّـة بعضهم ببعض، برقم: (٢٨٩٠)، (٤/ ٢٢١٦).



باب: ما جـــاء في السِّحْــر

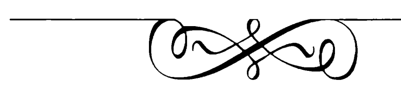
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

السِّحرِ في اللغة عبارة عما خَفِيَ ولَطُفَ سببُه



أورد المؤلـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسـائل التـي تـنقضُ التوحيـد، ومنهـا السِّـحْر، فـإن السِّـحْر مـن أسـوء الـذُّنُوب التـي يرتكبهـا الإنسَـان، فـإن الـذُّنُوب علىٰ ثـلاث درجَات، ذنب تَنَقُّصُ للخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذنبُ إساءة لإنسانٍ، وذنـبُ إسـاءةٍ لنفسـه، والسَّحر يشتمل علىٰ الثلاثة كلِها، فهو من شرِّ أنواع الذُّنُوب، وسيأتي ترتيبـه في الكَبَـائِر أنَّـه يـأتي بعـد الشِّـرْك بـالله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأنَّـه لا يـتم السِّـحْر إلا مـن خـلال الشِّرْك،كَمْا قَالَ البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد بالسَّحر ما يُستعان في تحصيله بـالتقرُّب إلىٰ الشَّـيطَان بمـا لا يسـتقلُّ بـه الإنسَـانُ، فالسَّـحرُ لا يتحقـق إلا بـالتقرُّب إلىٰ الشَّيطَان بما لا يستقل به الإنسَان، أي: أنَّه لابد أن يُشرِك الشَّـيطَانَ مَعَ الله عَزَّ وَجَلَّ حتىٰ يتحقق له ما يريد.

فالسحر أوله شرك بالله، وأوسطه إساءة إلىٰ المَخْلُوق؛ لأن السِّحْر يتعلق بالمخلوقِ، فهذا السَّاحِر يَسحرُ الإنسَانَ يؤذيه في جسمِه أو في عقلِه أو في علاقاتِه، ثُمَّ يأخذُ علىٰ ذلك أجراً، فيأكلُ مالاً حَرَاماً، وهذا إساءة إلىٰ نفسه، فالسحرُ أشدُّ أنواع الذُّنُوب؛ لأنَّ أولَه شركٌ بالله، ثُمَّ ثُمَّرتُه إساءة إلىٰ الإنسَان، ويحصل علىٰ أجرٍ مقابل ما يؤذي به الإنسَان، فهذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ الله ليبين أن السِّحْر ينقضُ التوحيد، فمن سَحرَ فقد أشرك.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا جاء في الحَدِيث: (إن من البيان لسحراً) وسمي السحور سحوراً؛ لِأَنَّه يقع خفياً آخر اللّيل، وقال - تَعَالَى -: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦]. أي أخفوا عنهم علمهم.

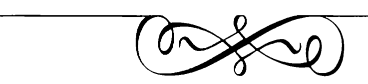
الشَّرح

قوله: (**في الحَدِيث: إن من البيان لسحراً**)[1] هذا الحَدِيث جزء من حَدِيث أخرجه البُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: جاء رجلان من المشرق إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ، فخطبا فعجبَ النَّاس من فصاحتِهما، وكانت العَرَب تفتخرُ بالفصاحةِ والبلاغةِ، وكان إذا جاء وفدٌ إلىٰ رَسُول اللهِ ﷺ كانوا يتبارون في الخطابة أمام رَسُولِ اللهِ ﷺ، وكان هذان الرَّجُلان فصيحين بليغين، فأعجب النَّاس بفصاحتهما، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (إن من البيان لسحراً) هل قَالَها علىٰ وجه المدحِ أو الذمِّ؟ تحتملُ، فإن الكَلَام إذا قيل لإبطال حقٍ يكون مذموماً، إذا استطاع الإنسَان ببلاغتِه وفصاحتِه أن يُبطل حقاً أو أن يأخذ حقاً، أو أن ينتقِص إنساناً فإنَّه قد ارتكب أمراً محذوراً شبيهاً بالسحر الذي حرَّمه الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن كان الكَلَام لإقرار حق أو للدفاع عن حق، أو لردِّ باطل يكون محموداً، وهذا الحَدِيث إنَّمَا ورد لبيان حسن الكَلَام، فالإنسان قد يقول قولا ويكون لديه من القَدَرة البيانية ما يسحر السامعين، فهذا كان عند العَرَب مما يتبارُون فيه في الجَاهِلِيَّة حتىٰ كانت تُعقدُ لها الأسواقُ وتُقام لها المنتدياتُ واللقاءاتُ لإلقاءِ

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب النكاح، باب الخطبة، برقم: (٥١٤٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلَاة والخطبة، برقم: (٨٦٩)، (٢/ ٥٩٤).

القصائد الشعرية والخطبِ النثرية تتبارىٰ القبائل، وهذا من رعاية الله - تَعَالَى - للغة العَرَبِية حتىٰ اكتمَلت، وأصبحت لغةً يتنزَّلُ بها كلامُه ﷻ.

وقوله - تَعَالَى -: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ في قصة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رموا حبالَهم، فإذا بها كأنَّها حياتٌ تسعَىٰ، وفي الآية (سحروا أعينهم)، بعض العُلَمَاء قَالَوا أي: أن القضيةَ ليست لها حقيقة، إنَّمَا السِّحْر وقع علىٰ العين، لا أنَّ الحبالَ قد أصبحت حياتٍ، وسيأتي الخلاف هل السِّحْر يؤثر في الشيء نفسِه أم يُؤثر في رؤية الإنسَان فيُخيل إليه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولما كان السِّحْر من أنواع الشِّرْك إذ لا يأتي السِّحْرُ بدونه، ولهذا جاء في الحَدِيث: (ومن سَحر فقد أشركَ) أدخله المصنف في كتاب التوحيدِ، ليبين ذلك تحذيراً منه،كَمْا ذكر غيرُه من أنواع الشِّرْك، قَالَ أبو مُحَمَّد المقدسي في الكافي: السِّحْرُ عزائمُ ورقىٰ وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق المرء وزوجته، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، قَالَ الله - تَعَالَى -: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقال سُبحَانَه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق:١-٤] أي: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه.

الشَّرح

قوله: (من سحر فقد أشرك)[1] في الحقيقة لم يصح حَدِيثٌ في وصف السِّحْر بأنَّه كُفر، لا هذا الحَدِيث ولا غيره، لكنه صحَّ الحَدِيث أنَّ السِّحْر من كبائر الذُّنُوب، لكنه وردَ في القُرْآن الكَرِيم أن السِّحْر كُفرٌ،كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وفي قوله - تَعَالَى - بعد ذلك: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، فالآية القُرْآنية صريحة في أن السِّحْر كفر، لكنه لم يصح فيه حَدِيث من حيث السَّنَد، وقد وردت أحاديثُ كثيرة وسيأتي بعض منها، إلا إذا

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السِّحْرة، برقم: (٤٠٧٩)، والطبراني في المعجم الأوسط، الأوسط برقم: (١٤٦٩)، (٢/ ١٢٧)، وضعفه الألباني في تعليقه علىٰ النسائي.

قلنا إن كثرة الأحَادِيث الواردة في هذا الباب يدلُّ علىٰ أنَّ لها أصلاً.

وقول المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ: **(إن السِّحْر عزائم ورقىٰ وعقد تؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل)**، هذا هو أثر السِّحْر، له تأثير علىٰ النُّفوس، وعلىٰ العُقول، وعلىٰ الأجسام، فإنَّه يؤذي، وقد سبق أنَّ السَّاحِر أولاً يُشركُ؛، لِأنَّه لا يستطيع أن يَسحرَ إلا إذا تقرَّب إلىٰ الشَّيطَان، وإنَّما يتقرب إلىٰ الشَّيطَان ليؤذيَ الإنسَان، وإنما يُؤذي النَّاس ليكسب علىٰ ذلك أجراً، فتَنَقَّصَ حقَ الله وآذىٰ الإنسَانَ وظلمَ نفسَه بأن أطعمها مالاً حَرَامـًا، ولهذا فإنَّ حدَّ السَّاحِرِ ضربةٌ بالسيف، وسيأتي أنَّ الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قتلوا السِّحْرة، فقد ورد عن عمر وحفصة وجندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّهم قتلوا السِّحْرَةَ، فالساحرُ يُقتلُ إذا ثبت سِحرُه، وسيأتي أنَ هذا مذهبُ الأئمة الثلاثة، أبي حنيفة ومالك وأحمد رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَأَمَّا الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ فَفصَّل، قَالَ: إن كان سحرَ بما هو شرك يُقتل، وإن سحَرَ بأشياء غير شركيةٍ لا يقتل، بل يُسجن، لكن قَالَ الشَّارِح: إنَّمَا فصل الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ لظنه أن السِّحْر يمكن أن يكون بغيرِ شركٍ بالله، وقال: في الحقيقة لا يكون سحرٌ إلا إذا أشرك بالله، فإنَّ الشَّيطَان والجنَّ لا تُعين إلا من أشرَك، فيكون الأربعةُ مجمعون علىٰ أن السَّاحِر يقتل إذا ثبت سحرُه، فإنَّه إنسان مُفسدٌ، وقد وردَ في القُرْآن الكَرِيم أنَّ الذين يبغُون في الأَرْض بغير حق ويقطعون الطريقَ وينشرون المعاصي والإجرام أن حدهم القتل كَما قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة:٣٣]، فهذا يحارب الله ورسوله؛ لِأَنَّه قد أشركَ، وأفسد في الأَرْض؛ لِأَنَّه آذىٰ النَّاس في عقولهم وأبدانِهم وعلاقاتهم، فإن ثبتَ عليه السِّحْر فإنَّه يُقتلُ، ولا يَستَتاب؛ لِأَنَّه إذا استُتِيب لا نَضمنُ توبَته، السَّاحِرُ كالزندِيق إذا أَلِف أن يأخذَ الأجرَ علىٰ سِحره قلَّ أن يتوب إلا إذا تاب قبل أن يُقبضَ عليه والله أعلم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروت عائشة أن النَّبِي ﷺ سحر حتىٰ أَنَّه ليخيل إليه أَنَّه يفعل الشيء وما يفعله، و أَنَّه قَالَ لها ذات يوم: (أتاني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رجلي: ما بال الرَّجُل؟ قَالَ: مطبوب؟) أي: مسحوراً (قال: ومن طبه؟ قَالَ: لبيد بن أعصم، قَالَ: وفيم؟ قَالَ: في جف طلعة ذكر في مشط ومشاطة، تحت رعوفة في بئر ذروان) رواه البُخَارِي انتهىٰ. وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السِّحْر تخييل لا حقيقة له، هذا ليس بصحيح علىٰ إطلاقه ، بل منه ما هو تخييل ومنه ما له حقيقة كَمَا يفهم مما تقدم.

الشَّرح

هذا الحَدِيث ورد في الصَّحِيحَينِ(١)، و أَنَّه ﷺ سُحِر من يهودي، لكن السِّحْر لم يتجاوز أمورَ الدُّنيَا، ما تجاوزه إلىٰ مسائل الدِّين والتبليغ، إنَّمَا فقط ما يتعلقُ بزوجاته ﷺ، قَالَ العُلَمَاء: وهذا مرضُ جِسمٍ، والأنبياءُ مُعرَّضُون للابتلاء في أجسامِهم، ففي غزوة أحد شُجَ وجهُه، وكسرت رباعيته، فالنبي ﷺ قد يُبتلىٰ، وقد يؤذيه بعضُ النَّاس، إمَّا بضرب بالسيف أو بِرُمحٍ أو بنحو ذلك، أمَّا أن يصل السِّحْر إلىٰ أن يفقد عقلَه ويكون مثل المجنون فهذا لا يكون، فإذا ابتلىٰ أحدُ النَّاس بالسحرِ يصبرُ، ما ينبغي له أن يذهب يُشرك بالله ليحصل علىٰ العافيةِ؛ هذا بلاءٌ، فيحاولُ الشفاءَ من خلال الرُّقية الشرعيةِ، فإن استطاع فالحمدُ لله، وإن لم يستطع فليصبر، فإذا كان سيد البَشَر قد ابتُلي فغيره

(١) أخرجه البُخَارِي في مواضع من صحيحه، منها: كتاب بدء الخَلْق، باب صفة إبليس وجنوده، برقم: (٣٢٦٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السِّحْر، برقم: (٢١٨٩)، (٤/ ١٧١٩).

أولىٰ، والله قد وعده بأنَّه يعصمُه، قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، أي: يعصمُه من القتل، وهذا دليلٌ علىٰ أنَّه لا يموتُ إلا موتـًا طبيعياً، وقد كان كَمَا أخبر اللهﷻ، لـم يمت إلا موتا طبيعيا، لم يمت بالقتل، وهذا من إعجاز القُرْآن الكَرِيم، إذا أخبر عن أمرٍ مُستقبلٍ لا يقع إلا كَمَا أخبر؛ لِأَنَّه علمُ الله، والله يعلمُ الغيبَ.

المعتزلة تزعم أنَّ السِّحْر تخييل، أي: لا يؤثر وأن الإنسَان يُخيل له، والنَّاس علىٰ ثلاثة أقسام: **قسمٌ يرىٰ أن السِّحْر بإمكانه أن يُغيرَ الحقائقَ** أي: أن يقلبَ الإنسَانَ دابةً، أو يقلبَ الدابةَ إنسانـًا، وهذا قولٌ مُخالفٌ للحقيقة، مثلاً السِّحْرة عندما رموَا عِصيَّهم، ما أصبحت في الحقيقة حيات تسعىٰ، بل إنَّمَا وقع التخييل في النظر،وقِسمٌ زَعم أن السِّحْر لا تأثير له مُطلقـًا، وإنَّما هو تخييلٌ وهذا في الحقيقة الواقعُ يخالفُه، فإنَّ المسحورَ يشعر بالأذىٰ والألم، وقد جاء فيه قوله - تَعَالَى -: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، فلو لم يُؤثِّر علىٰ نفسية الزوجة أو الزَّوْج ما وقع بينهما خلاف، بعضهم يكرهها ويبغضها، وهذا تغيير في النَّفْس، ويولد في النَّفْس الكره والبغض، فدل علىٰ أن السِّحْر يؤثر في النَّفْس، لو كان لا يؤثر في النَّفْس بل في الرؤية فقط كأن يراها مثلاً في شكل غير مناسب لما كان في داخله يكرهها ويبغضها، فدل علىٰ أن السِّحْر يؤثر في داخل الإنسَان، فهو يؤثِّر في طبائع الإنسَان، ولا يُغيرُ الذوات، فإذا سُحر رجلٌ عن امرأته إمَّا كرهـًا أو حبـًا أثَّر في نفسه، فَغيَّر طبيعتَه الداخلية، وبعضُ الذين أصابهم السِّحْر يشعرون بالآلام النَّفْسية والضيقِ وتتغير عندهم الأمور، فلو لم يكن هذا تغييراً في داخل النَّفْس في طبائعِها وصفاتها ما كان له تأثير علىٰ حياة الإنسَان، فالسَّحر يؤثرُ في الطبائع، يجعل الإنسَانَ السمحَ مَعَ أهله إنسانـًا شديداً، وقد يكرهُ أولادَه، ويكره بناته، وقد يكره زوجَته، فهذا تغيير في الطبائع، وليس تغييراً في الأعيَانِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقول الله - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]،ولقد علم اليَهُود الذين استبدلوا السِّحْر عن متابعة الرسل والإيمان بالله، ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدل ما تتلو الشَّيَاطِين بكتاب الله ومتابعة رسله، ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ قَالَ ابن عباس: من نصيب، قَالَ قتادة: وقد علم أهل الكِتَاب فيما عهد الله إليهم أن السَّاحِر لا خلاق له في الآخرة، وقال الحسن: ليس له دين، فدلت الآية علىٰ تحريم السِّحْر وهو كذلك، بل هو محرم في جميع أديان الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٩].

واستدل بها بعضهم علىٰ كفر السَّاحِر، لعموم قوله - تَعَالَى -: ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يدل عليه قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقد نص أصحاب أحمد علىٰ أنَّه يكفر بتعلمه وتعليمه.



الشَّرح

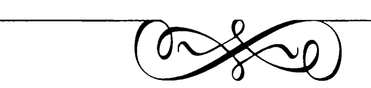
هذه الآية الكَرِيمة جزء من الآية التي في البقرة عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسليمان نبيٌ من أنبياءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واليهود تعتقدُ بأنَّه ليس نبيـًا، بل ربما اتهموه بأنَّه ليس ولداً شرعياًّ!، فإن التوراة التي بأيدي اليَهُود توراة لو كتبها أجرم النَّاس ما استطاع أن يزيد علىٰ ما فيها، فإن فيها تنقصـًا للخالق، وتنقصـًا للرسل، واتهام لأنبياء الله. وزعموا أن سليمان حملت به أمه من أبيه قبل الزواج، فهم لا يحترمون أنبياء الله سُبحَانَه، وزعموا أنَّه كان ساحراً، ولم يكن

نبياًّ، والله يرد هذه الفرية: إن اليَهُود {اتَّبعُوا ماَ تَتْلُوا الشَّيَاطِين علَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلكِنَّ الشَّيَاطِين كَفَرُوا} ﴿سورة البقرة: (١٠٢).

هذه القصة فيها ذِكرٌ لملِكين، وقد يُقال: كيف أن الملَكين يُعلِمان النَّاس السِّحْرَ وهو كُفرٌ، ولهذا اختلفت مَنَاهِجُ العُلَمَاء في تفسير الآيةِ، لكن ـ والله أعلم ـ أنَّ الملَكين كان عندهما علمٌ بطبائعِ الأشياء، ومن هذا العلمِ الذي يعلمونَه ما هو كُفرٌ إذا عملَه الإنسَانُ، فهم لا يُعلِّمون النَّاسَ الكفرَ، إنَّمَا علَّموهم الطبائعَ أنَّ هذا مَعَ كذا ينتجُ عنه كذا،فلعلَّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يُعلِّم الإنسَان بعضَ ما أودعَه في مخلوقاتِه عن طريق الملَكين، وفيه ما هو شرٌّ للإنسان وما هو خيرٌ، فيعلمهم ذلك ويكون ابتلاءً للنَّاس في عصرِهم، فمن هداه الله ووفقَه لم يقع في المحذورِ، ومن أراد الله له الهلاك والشرك فإنَّه يأخذ عنه ما يُفسدُ به دينه، وهذا هو امتحان من الله سبحانه وتعالى، بعضُ العُلَمَاء تمحَّل في طريقة تخريجِ الآياتِ، لكن هذا نكِلُه إلىٰ الله عز وجل، أرادَ اللهُ ذلك لحكمةٍ، فإن كثيراً من خَصَائصِ الأشياءِ لا تُعرضف إلا عن طريق التعلِيم الإلهي، فإن الله أودعَ في الأَرْض من خَصَائصِ الأشياءِ ما يُبهِر الإنسَانَ، ففي العصر الحاضر مَعَ الدراسات الطويلة في تجارب الأمم وعلوم الإنسَان كل جيل ينقل إلىٰ الجيل الثاني ما عنده من تجربةٍ وخبرة حتىٰ أصبحت البَشَريةث اليوم في هذا الوضع الذي كشفت فيه كثيراً مما أودَع اللهُ الأَرْضَ من الكُنوز، والسنن، والأنظمةِ، هذه كلُها اكتشافٌ، فالله خلقَها وأودعَ فيها، يقال: مرة في المدينة عندما جاء المذياع (الراديو) و ما كان معروفـاً، فكان شخص عنده راديو وكان يضعه علىٰ إذاعةِ القُرْآن المصرية ويُغطِّي عليه بغطاء، فكان إذا جاء عنده ناس وخرجوا قَالَوا: فلانٌ عنده ملائكة تقرأ القُرْآن، ما كانوا يدرون بأن هذا

شيءٌ صناعي، لو حاولت أن تقنعهم بأن هذا جهازٌ ينقل الصوت من بعيد ما يقتنع، أمَّا اليوم فقد أصبحت الأجهزة عاديةً جداً، ولو كان إنسان أُخبر قبل ألف سُنَّة أنَّ بالإمكان أن يحادثَ الإنسَانُ في هذا المكان إنسانـاً آخر على بعد ألف كيلو ، ويرى صورته ويسمع صوته ما كان يمكن أن يصدق.

فقد يكون تعليم الملكين ابتلاءً لحكمة؛ لأنَّ الله – سُبحَانَه – هو الذي خلق الخمر، وخلق إبليسَ، لحكمةٍ يعلمها، فالله يبتلِي خلقَه بما شاء، ولكنه لا يُعذِّبهم حتى يبعثَ إليهم رسولاً يُخبرُهم بأنَّ هذا حَرَام وهذا حلالٌ، وهذا دينٌ وهذا شركٌ، وهذه طاعة وهذه معصية، فهذا من باب الابتلاء، فكل المَخْلُوقات الحسنةُ والسيئةُ خلقَها الله ﷻ، ولكن الإنسَان مأمورٌ بأن يعمل العمل الحسن ويجتنب العملَ القبيح.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروىٰ عبدالرزاق عن صفوان بن سليم قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: (من تعلم شيئًا من السِّحْر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله) وهذا مُرسَل.

واختلفوا هل يكفر السَّاحِر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلىٰ أَنَّه يكفر، وبه قَالَ مَالِك وأبو حنيفة وأحمد، قَالَ أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر، وقيل: لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر، وهذا قول الشَّافِعِي وجماعته، قَالَ الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا تعلم السِّحْر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلىٰ الكواكب السبعة، و أَنَّها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر، وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف، فإن من لم يكفر لظنه أَنَّه يتأتىٰ بدون الشِّرْك وليس كذلك، بل لا يأتي السِّحْر الذي من قبل الشَّيَاطِين إلا بالشرك وعبادة الشَّيطَان والكواكب، ولهذا سماه الله كفراً في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الشَّرح

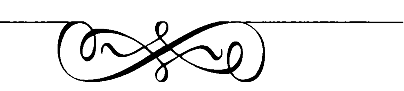
قوله ﷺ: (من تعلم شيئًا من السِّحْر قليلاً...)[1] هـذا الحَدِيث في إسناده إبراهيم بن مُحَمَّد بن أبي يحيىٰ الأسلمي، قَالَ العُلَمَاء: أَنَّه كـذاب، فالحديث بهذا اللفظ لا يصح، وسيأتي أحاديث لا تصح في وصف السَّاحِر بأَنَّه كافر،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتب العقول، باب قتل السَّاحِر، برقم: (١٨٧٥٣)، (١٠/ ١٨٤).

ولكن ليس هذا دليلاً على أنَّه ليس كافراً؛ لأنَّ القُرْآن أشار إلى أن السَّاحِرِ كافرٌ.

ذكر رَحِمَهُ اللهُ مذاهبَ العُلَمَاء في تكفِير السَّاحِر، وقد انقسمُوا إلى قسمين، الأئمة الثلاثة كفَّروا السَّاحِر، لكن أتباع الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قَالَوا: إذا كان السِّحْر بغير الشِّرْك لا يَكفُر، كأنَّهم تابعوا الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللهُ في قوله:،إذا كان سحر السَّاحِرِ بغير الشِّرْك بالله عَزَّ وَجَلَّ لا يَكفُر، لكن ليس معنى أنَّه لا يَكفُر أنَّه حلال، بل هو كبيرة من الكَبَائِر، وإذا آذى إنساناً ينبغي أن يُقتصَّ منه ويُعاقب، لكن الخلاف في كفره، هل هو كافرٌ يُقتلُ حداً للردة، أم يُسجَن حتى يتوبَ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ ظنَّ أنَّ السِّحْرَ يمكن أن يقعَ بدون الشِّرْك، ولكن فيه إشكال؛ لأنَّ السِّحْر لا يستطيع الإنسَان أن يعرفه إلا إذا مارسَه، أمَّا لو سأل السَّحَرة هل يمكن أن يكون ساحر بدون الشِّرْك بالله لا يخبرون؛ لِأنَّهم كذابون، والسِّحرُ عملُهم، فالسحرُ لا يكون إلا بالشرك بالله، هو لا يعترف أنَّه كافرٌ؛ لِأنَّه صاحبُ شهوةٍ، وصاحب مصلحة يقضيها، لكن السِّحْر لا يقع إلا بمعاونةِ الشَّيَاطِين، فالشياطين تعين السَّاحِر على تحقيق مراده، وتنفيذ مطلبه، فلا يمكن أن يتحقق للساحر ما يريد إلا إذا أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

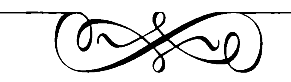
وفي حَدِيث مرفوع رواه رزين: السَّاحِر كافر، وقال أبو العالية: السِّحْر من الكفر.



الشَّرْح

رُزين بن معاوية العبدلي أندلسي، توفي عام خمسمائة وخمسة وثلاثين هجرية، وهو أول من جمع بين الكتب الخمسة مَعَ الموطأ، البُخَارِي ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وموطأ مَالِك، وعندما جاء ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ اعتمد علىٰ كتابه، وجمع هذه الكُتب، وأعاد النظَّر فيها وشرح مفرداتِها وغريبها، في كتابه المشهور (جامع الأُصُول)، رزين إمامٌ، لكن يقول الشوكاني فيه قولاً صعباً،يقول وهو يتكلم عن مسألة صَلَاة الرغائب التي في شهر رجب:" مما أوجب طول الكَلَام عليها أي:صَلَاة الرغائب وقوعها في كتاب رُزين بن معاوية العبدلي، ولقد أدخل في كتابه الذي جمع فيه بين دواوين الإسْلَام بلايا وموضوعات لا تُعرَف، ولا يُدرَىٰ من أين جاء بها، وذلك خيانةٌ للمسلمين، وذلك أن رزيناً رَحِمَهُ اللَّهُ عندما جمع بين الكتب يضع رمزَ الكِتَاب الذي خرَّج الحَدِيث، فإن كان البُخَارِي كتب (خ)، وإن كان مُسلِم كتب (م)، وإن كان أبو داود كتب (د)، وإن كان النسائي كتب (س)، وإن كان مَالِك في الموطأ كتب (ط)، ثُمَّ يأتي بأحاديث لا يذكر أمَامها من خرَّجها، ولا من أين جاء بها، وهذا لا شك خطأٌ، يجمع واحد كتباً ويقول: أجمع في هذا الكِتَاب ستة كتب، هي كذا وكذا وكذا إلىٰ آخره ثُمَّ يذكر أحاديث ليست في هذه الكُتب ولا يُعرف من أين جاء بها، والقارئ في هذا الكِتَاب لا يدرِي، فقد وعدَه بأن لا يذكر في هذا الكِتَاب إلا ما كان في الكُتب الستَّة، فيأتي بأحاديثَ ليس فيها، لا شكَّ أنَّ هذا

ليس من الإتقانِ في العمل، فلا شكَّ أنَّ هذا خيانةٌ، وإن كان عالمًا، لكن الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ كان في وصفه لرزين أقل مما ذكره الشوكاني، قَالَ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أدخلَ في كتابه زيادات واهية لو تنزه عنها لأجادَ، فهذا الحَدِيث من تلك الأحَادِيث التي ليست في الكتب السَّتة، وهو حَدِيث (الساحر كافر)[1] قلنا لم يثبت في السُنَّة وصفُ السَّاحِرِ بالكفر، وإن كان السَّاحِرِ كافراً؛ لِأنَّه لم يكن هناك سحرةٌ في عهدِ النَّبي ﷺ إلا قليلٌ من اليَهُود، فما كان يتكلَّم عن السِّحْر كثيراً، فما تحدث عن السِّحْر إلا فيما جاء في أحاديثِ المُوبِقَات المُهلكات، فذكر أن السِّحْر من المُهلكات، لكن لم يصفه بأنَّه كُفرق، ولكن القُرْآن وصف السِّحْر بأنَّه كُفرٌ.



(١) لم أجد الحَدِيث كَمْا ذكر الشيخ أنَّه غير ثابت.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنَّهما علماه الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السِّحْر من الكفر.



الشَّرح

قوله: (**فعرفاه أن السِّحْر من الكفر**)، أي: أخبرا النَّاس أنَّ هذا خيرٌ وهذا شر، وهذا كفر وهذا إيمان، فليس في ذلك حرج إذا أراد الله أن يبتلي بملائكة من ملائكته. بعض النَّاس يتكلم عن المكلين(أن الله عندما خلق الإنسَان وأسكنه في الأَرْض غارَت الملائكة وقالت: يا رب تسكن الإنسَان في الأَرْض وهو يفسد ويقع في الفواحش والمعاصي، ثُمَّ تُعطيه جنَّة عرضها السماوات والأرض؟!، فقال الله لهم: أخرِجوا منكُم ملَكين نضعُ فيه ما وضعناه في بني آدم من الشَّهوة، حتىٰ تروا هل يستطيع الملكان أن يستقيما علىٰ أمر الله، فإن استطاعا أن يستقيما علىٰ أمر الله ولا يُفسدا في الأَرْض فيكون خلقُ الإنسَان خطأً أو نحو ذلك، فاختاروا ملكَين منهم، وكان لهما معرفة بالاسم الأعظم، وكانا بصورةِ إنسانين وكانا قاضِيين ، فكانا يصعدان إلىٰ السماء في آخر كل يوم باسمِ الله الأعظم، ففي يوم من الأيام جاء رجل وامرأته، وكانت امرأةً جميلةً تتخاصمُ مَعَ زوجها عند الملكين، فوقع حبها في قلبيهما، فراوداها علىٰ الفاحشة إلىٰ آخر ما ورد في القصة، وأخيراً وقعا في المُحرمات، فخيرَهم الله بين عقابِ الدُّنيَا وعقاب الآخرة، فاختاروا عقابَ الدُّنيَا، قَالَوا: فعلَّقهم الله في بابلَ بأرجلهما، وهما مُنكَّسين، وهم فيها إلىٰ قيام السَّاعة، وكان النَّاس يذهبون إليهما فيتعلمون منهما السِّحْرَ. هذا الكَلَامُ ليس له أصل، وهذا كله موجود في التفسير، لكن أمر الملَكين لم يصح فيهما خبرٌ، ولا نقبل تلك الحكايات الكاذبة وإن لم نتصور القضية، لكن نقول: إن الله قد ابتلَىٰ النَّاس بهذه الملَكين، وأنهما كانا يعرفَان خَصَائصَ الأشياءِ، فيخبرَان النَّاس بها.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن جريج في الآيـة: لا يجترئ على السِّحْر إلا الكافر، وَإِمَّا سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حَرَامـًا لمضرته، يعزر من يفعله تعزيراً بليغـًا.

قال: وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

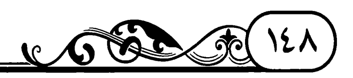
تقدم الكَلَام عليها في الباب الذي قبله، ووجه إيرادها هنا ظاهر؛ لأن السِّحْر من الجِّبْت كَمَا قَالَ عمر بن الخطاب.



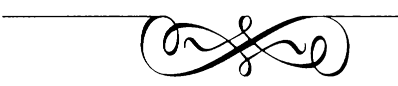
الشَّرح

السحر حكمه بحسب حاله، لكن تأثيره ضررٌ على النَّاس، والساحرُ إن لم يقتل فإنَّه يُسجنُ لحمايةِ النَّاس من شره؛ لأن السَّاحِر عملُه إيذاءُ النَّاس مقابلَ أجرٍ يأخذُه من الذي يستفيدُ من الأذى، فالساحر إنسان مفسدٌ، إنسان مُؤذي، فإن كان سحره بالشرك فقد جمع في عمله ثلاثة أشياء: أنَّه تَنَقَّصَ الخَالِقَ بل أشركَ مَعَ الله غيره من الشَّيَاطِين والجنِّ، وأنَّه آذى النَّاس، وأكل بهذا السِّحْر المالَ الحرام، فيكون قد آذى نفسه بأكل الحرام، فقد جمع أنواع المعاصي الثلاثة، فحكمُه أن يُقتلَ أو يُسجنَ، ويُكفَى النَّاسُ شرَّه.

والجِبت من الكلماتِ الغريبة في اللَّغة، وبعض أهل اللغة يقول أصلها من الجِبس الذي هو غُسالة الأشياء أي: القَذارة، وليس مَشهوراً في اللغة، وإنما يعرف بالأحاديث، والطَّاغوت من الطُغيان، وهوكَمَا قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: كل ما تجاوزَ به العبدُ حدَّه من معبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ.



وقلنا الحياة دائرتان: إمَّا دائرةُ الإيمان، أو دائرةُ الطَّاغُوت كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والإنسانُ بين هاتين الدائرتين إمَّا أن يعيش في دائرة الطَّاغُوت، أو يعيش في دائرة الإيمان بالله ﷻ. فالطاغوت هو الشَّيطَان وكل من سار علىٰ طريق الشَّيطَان، والإنسان قد يسمىٰ طاغوتـًا إذا كان ظالمـًا جباراً سفَّاكـًا للدماء، لا يضرعىٰ حقوق الله، والذي يحكم بغير ما أنزل الله يُسمىٰ طاغوتـًا؛ لِأَنَّه تجاوز حدَّه، والإنسان له حدٌّ لا يتجاوزه، ليس له حقٌّ في التشريع، وليس له حقٌّ في وضعِ الحَلَال والحرَام، وليس له حقٌّ في إخضاع عبادِ الله لغير ما أرادَ الله ﷻ، فإذا تجاوز حده سُمي طاغوتـًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال المصنف: قَالَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الجبت: السِّحْر، والطاغوت: الشَّيطَان). ش: هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره، وفيه معرفة الجِبْت والطاغوت والفرق بينهما.

قال: وقال جابر رضي الله عنه: (الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشَّيطَان في كل حي واحد). ش: هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قَالَ: سألت جابر بن عبدالله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها قَالَ: إن في جهينة واحداً، وفي أسلم واحداً، وفي هلال واحداً، وفي كل حي واحداً، وهم كهان تنزل عليهم الشَّيَاطِين.

الشَّرح

قوله: (قال عمر ...)[1] هذا الأثر ذكره البُخَارِي معلقاً، وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: إسناده قوي، والمعلقات في البُخَارِي ليس لها إسنَاد، لكن المُحققين وشُرَّاح الصَّحِيح يذكُرون أحياناً مكان الحَدِيث في مكان آخر؛ لأن من مَنهَج البُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لو كان الحَدِيثُ صحيحاً لكن علىٰ غير شرطِه لا يأتي به مُسنداً، إنَّمَا يذكره مُعلقاً،ومن شرطه أن يكون الرَّاوِي قد ثبت سماعُه أو لُقياه لمن يروي عنه، بخلاف مُسلِم وغيره من العُلَمَاء، فهم يكتفون بالمعاصَرة يقولون: إذا ثبت أنَّ هذا الرَّاوِيَ عاصر شيخَه يكفي. فإذا كان الحَدِيث رجاله ثقات لكن لم يثبت عند البُخَارِي أنَّ الرواي سمع من شيخه الذي رَوَىٰ عنه وهو يُريد أن يأتي به في الباب يذكره عنواناً أو بعد العنوان مُعلقاً، فهنا الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أن هذا الحَدِيث سَنَده قويٌ في خارجِ الصَّحِيح.

---

(١) أخرجه البُخَارِي معلقاًكَمَا قَالَه الشيخ، كتاب التفسير، باب قوله - تَعَالَىٰ -: (وإن كنتم مرضي أو علىٰ سفر أو جاء أحد منكم من الغائط).

هذا حال النَّاس في الجَاهِليَّة لم يكن عندهم أحكام دينية في الدِّماء، والأعراضِ، والأموالِ، فكانوا يتحاكمُون إلىٰ الكُهَّان، كان في القُرَىٰ والقبائل كُهَّانٌ تأتيهم الشَّيَاطِين فيتحاكمُ النَّاسُ إلىٰ أولئك الكهَّان، فالحرام ما حرَّمَه الكُهَّان والحلالُ ما أحلُّوه، والصواب ما أقرُّوه، والخطأ ما ردُّوه، لكن جاء الإسْلَام، فأغنىٰ الله ﷻ الأُمَّة الإسْلَامية بالإسلام، لهذا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠]. أي: أن الله قد أغناكم بما أنزله إليكم من التشريع السَّماوي الذي فيه الحق والعدل، فالذي يطلب الحكم في غير شرع الله فكأنَّه لا يَرتضِي ما أنزل الله، ويبحث عن الحق في حكم الجَاهِليَّة، وهذا عتاب من الله للذي يستبدلُ أحكامَ الله بأحكامِ المَخْلُوق وإنكارِ علىٰ من يتركُ التشريع الإسْلَامي ويبحث في غيره عن أحكام الأموالِ والأعراضِ، والدماءِ،كَمَا قَالَ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يتحاكَمُون إليهم إذا اختلَفوا، والنَّاس دائمـًا يختلِفُون في الأموالِ، والدماءِ، والأعراضِ، وهؤلاء الكُهان كانت لهم مكانةُ القداسةِ والاحترام في تلك القبائلِ، عندما جاء الإسْلَام أبطلَ الكَهَانةض، وجاء في الحَدِيث: **(من أتىٰ كاهنـًا لا تقبل له صَلَاة أربعين يومـًا)**[١]، هكذا في مُسلِم، وفي المسند: **(وصدَّقه بما يقول)**[٢] لكن في الصَّحِيح ليس فيه هذا القيدِ، فمن أتىٰ أيَّ كاهنٍ ليسأله أو يتحاكَم إليه لا تقبل له صَلَاةً أربعين يومـًا. فالكُهَّان انتهىٰ دورهم وجاء دور الإسْلَام الذي يتحاكمُ النَّاس إليه.

---

(١) أخرجه مُسلِم في صحيحه، بلفظ من أتىٰ عرافـًا فسأله عن شيء لم تقبل لهصَلَاة أربعين ليلة"، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم: (٢٢٣٠)، (٤/ ١٧٥١).

(٢) المسند، رقم الحَدِيث: (١٦٦٣٨)، (٢٧/ ١٩٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

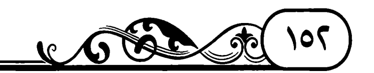
قوله: (قال جابر) هو ابن عبدالله بن عمرو بن حَرَام أبو عبدالله الأنصاري ثُمَّ السلمي بفتحتين، صحابي جليل ابن صحابي جليل مكثر عن النَّبِي ﷺ، مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُف بصره وله أربع وتسعون سُنَّة.

الشَّرح

عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر استشهد في غزوة أحد، ودفنه ابنه آنذاك مَعَ غيره في قبر واحد، فجاء إليه ابنه جابر بن عبد الله لينقله من ذلك القَبْر قَالَ: أحببت أن أخرجه من القَبْر لأجعل له قبراً وحده، قَالَ: فعندما جاء لينقله وجده كَمَا قُبر، وقال: لم يتغير جسمه إلا شعرات من لحيته. وهذا تكريم لهذا الجيل الذي أقام اللهُ الإِسْلَام علىٰ جهودهم، وعلىٰ دمائهم، وعلىٰ أعمالهم، فحقهم علىٰ المُسلِمين حق عظيم أن يحترموا ويُدعىٰ لهم، فنُحبهم، ونُجلهم، لاكَمَا يفعل جهلة النَّاس الذين يتقربون إلىٰ الله ببغضِهم، فهذا الجيل الذي اختاره الله ليكون حاملاً للدَّعوة، وناقلاً للإسلام، ومرافقاً وناصراً لسيد البَشَر ﷺ، تزوَج منهم، وزوجَهم من بناته، وكان يستشيرهم، ورافقوه، وناصروه، لهم علىٰ الأُمَّة حقُّ الحبِّ، والتعظيم، والَّتقدير، وتركِ ما وقعَ بينهم من خلافٍ، ونتيقن أن لهم عند الله مكانةً عالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ونموذج لهم الصَّحَابِي الجليل حاطبث الذي وقع في خطأٍ كبير وقال فيه النَّبِي ﷺ **(لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم)**(١) أَوَّلُ غزوةٍ ينصرُ الله فيها الدِّين، ويُعلي فيها رايةَ الإِسْلَام علىٰ أيديهم وبجهودهم،كَمْ تعبوا، وضحُّوا، فهذا الجيلُ له في أعناقنا حبٌ وتعظيمٌ، وتقدير، هذا الصَّحَابِي الجليل جابر بن عبد الله وأبوه وجده كلهم صحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (الطواغيت كهان إلىٰ آخره). المراد بهذا أن الكهان من الطواغيت لا أنَّهم الطواغيت لا غير، وقوله: (كان ينزل عليهم الشَّيطَان). أراد الجنس لا الشَّيطَان الذي هو إبليس فقط، بل تتنزل عليهم الشَّيَاطِين، ويخاطبونهم، ويخبرونهم ببعض الغيب مما يسترقونه من السمع، فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

قوله: (في كل حي واحد). الحي واحد الأحياء وهم القبائلفي كل قبيلة من قبائل العَرَب كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النَّبي ﷺ، فأبطل الله ذلك بالإسلام وحُرست السماء بالشهب.

ومطابقة هذا للترجمة ظاهر من جهة أن السَّاحر طاغوت من الطواغيت، إذا كان هذا الاسم يطلق علىٰ الكاهن فالساحر أولىٰ؛ لِأَنَّه أشر وأخبث.



الشَّرح

سبق أن الشَّيَاطِين تسترقُ السمعَ، وتسمعُ ما يجري من حَدِيثٍ بين الملائكةِ في السِّحاب أو في السماء الدُّنيَا، وكلاهما في الصَّحِيح، بعضها في السَّحاب، وبعضها في السماء الدُّنيَا، فيصدُقون في كلمةٍ سرقُوها، لكنهم لا يكتفون بالكلمة الصَّحِيحة بل يُضيفون لها مائةَ كذبةٍ، فهؤلاء هم الكُهَّان.

قد يكون اسم الكاهِن أوسعُ من مدلول السَّاحر، فيشمل السَّاحر وغيره، وقد يكون الكَاهن خاصـًا بالأخبارش، أي: ليس عملُه إلا أن يُخبِر فيذهب النَّاس إليه إذا فقدُوا بعض دوابهم، أو أموالِهم فيخبرهم، فالكاهِن في هذه الأحَادِيث كان ينزلِ عليه الشَّيطَانُ و أنَّه من الطَّواغيت. فصاحب المتنِ أرادَ أن يُبينَ أن السَّاحرَ والكاهِن والطاغوتِ كلها بمعنىٰ واحدٍ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: عن أبي هريرة أن رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: (اجتنبوا السبع المُوبِقَات قَالَوا: يا رَسُول اللهِ وما هن؟ قَالَ: الشِّرْك بالله، والسحر، وقتل النَّفْس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات).



الشَّرح

هذا الحَدِيثُ نموذج من الأحَادِيث الصَّحِيحة في بيان الكَبَائِر وقد ورد ذكرُ الكَبَائِر بأساليبَ ثلاثةٍ: الأولُ ذِكرث الكَبَائِر: الكَبَائِر كذا، وكذا، والأسلوب الثاني: أكبر الكَبَائِر، والأسلوب الثالث: أن يتوعد صاحب الذنب بالعقاب، وقد ورد في الصَّحِحَينِ قرابة ثلاثين ذنباً من هذا النَّوع، بعضها مُتوعدٌ عليه بالعِقاب، وبعضُها ذُكر في الكَبَائِر، وبعضُها ذُكِر في أكبرِ الكَبَائِر. فبعض النَّاس يستشكل: أحياناً يَرِدُ أنَّ الكَبَائِر سَبْع، وأحياناً يَردُ أنَّهَا تسعق، وأحياناً تكون أكثر، وبِتَتَبُعِ ما جاء في ذكرُ الكَبَائِر بنصِها لم يرد إلا عشرةٌ من هذه الذُّنُوب، لكن ليس هناك إشكالٌ، فإنَّه ﷺ أحياناً يقول: أكبر الكَبَائِر فيجتزِئ بِبعضها، لا أنَّه ذكرَ كلَّ الكَبَائِر، وأحياناً يذكر الكَبَائِر، ويختلف الرواة من حَدِيث إلىٰ حَدِيث، فأحياناً يضعون كبيرةً بدلَ كبيرةً، أو ذنباً بدَل ذنبٍ؛ لِأنَّه وردَ في أنَّه هو الكَبَائِر، ففرقٌ بين أكبر الكَبَائِر، وبين الكَبَائِر التي هي المُتوعد عليها بالعقابِ؛ لأنَّ أهلَ السُنَّة يقولون: إن الكبيرة هي الذنبُ التي توعَّدض الله عليها بعقابٍ أو كلُ ذنبٍ خُتم بلعنةٍ أو نارٍ أو عذابٍ، وإن كان بعض العُلَمَاءِ يرىٰ أنَّه ليس هناك كبائرُ ولا صغائرُ، بل كلُّها كبائرُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ش هكذا أورد المصنف هذا الحَدِيث غير معزو وقد رواه البُخَارِي ومسلم.

قوله: (اجتنبوا السبع) أي ابعدوا وهو أبلغ من لا تفعلوا؛ لأن نهي القربان أبلغ من نهي المباشرة ذكره الطيبي.

قوله: (السبع المُوبِقَات) بموحدة وقاف أي المهلكات، وسميت الكَبَائِر موبقات؛ لِأَنَّها تهلك فاعلها في الدُّنيَا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب، قلت: هكذا ثبت في هذه الرُّوَايَة عن السبع المُوبِقَات.

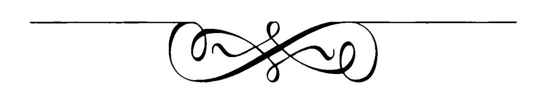


الشَّرح

الحديث في الصَّحِيحَينِ وهو يتحدث عن السبع المُوبِقَات، أي المهلكات، وسيأتي شرح كل جملة منه في كلام الشَّارِح رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (لأن نهي القربان ...) هذا من حيث الشرح اللغوي، فإن النهي قد يأتي مُباشرةً لا تفعل كذا، ويأتي النَّهي بصورة أُخرَىٰ اجتنب، فَرقٌ بين لا تفعلُ وبين اجتنِب، اجتنِب أي ابتعِد، ولا تفعل أي: لا تَقُم بهذا الفعل، لكن لا يمنعك أن تكونَ قريباً منه، فهنا اجتنبوا أي: ابتعدوا واجعلوا بينكم وبين هذه المُوبِقَات مسافةً لا تقتربوا منها؛ لِأَنَّها مُهلكَةٌ من وقعَ فيها أهلكته، والهلاكُ في الشَّرع دخول النَّار وهو أشد أنواعِ الهلاك الذي ينتظره الإنسَانُ.

ولكن الكَبَائِر أكثر من سَبْع كَما سيأتي، فهنا ذكرَ السبعَ المُوبِقَات المُهلكاتِ التي تُهلكُ الإنسَان، وهناك أخرىٰ، وسيأتي إن شاء الله التعليل للتخصيص بالسبع.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك في كتاب عمرو بن حزم الذي أخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه والطبراني من طريق سليمان بن داود عن الزهري عن أبي بكر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قَالَ: (كتب رَسُول اللهِ ﷺ كتاب الفرائض والديات والسنن، وبعث به مَعَ عمرو بن حزم إلىٰ اليمن) الحَدِيث بطوله وفيه وكان في الكِتَاب: (وإن أكبر الكَبَائِر الشِّرْك) فذكر مثل حَدِيث أبي هريرة سواء.

وأخرجه البزار وابن المنذر من طريق عمرو بن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: (الكبائر الشِّرْك بالله وقتل النَّفْس) الحَدِيث وذكر بدل السِّحْر: (الانتقال إلىٰ الأعرابية بعد الهجرة)، وكذلك في حَدِيث عند الطبراني، وقال عبد الرزاق: انبأنا معمر عن الحسن قَالَ: (الكبائر الإشراك بالله) فذكر مثل الأول سواء، إلا أنَّه قَالَ: اليمين الفاجرة بدل السِّحْر.

وفي حَدِيث ابن عمر عند البُخَارِي في الأدب المفرد والطبري في التفسير وعبدالرزاق مرفوعًا وموقوفًا قَالَ: (الكبائر تسع)، فذكر السبع المذكورة وزاد (رد الإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدِّين).

وأخرج إسماعيل القاضي بسند صحيح إلىٰ سعيد بن المسيب قَالَ: (هن عشر فذكر السبع التي في الأصل وزاد: عقوق الو الدِّين، واليمين الغموس، وشرب الخمر) ولابن أبي حاتم عن علي قَالَ: (الكبائر فذكر السبع، إلا مال اليتيم وزاد العقوق، والتعرب بعد الهجرة، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة).



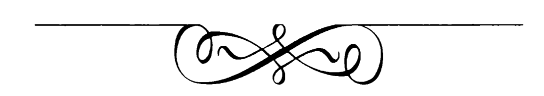
الشَّرح

قوله: (من طريق سليمان بن داود) هذا خطأٌ، بل هذا سليمان بن أرقم، وليس ابن داود، قَالَ العُلَمَاء: هو متروكٌ، أي: لا يُؤخذ بروايته، إذا صح

الحَدِيث فلا نحتاجُ إلىٰ أن ندعمه بحديث فيه وضَّاع أو متروكٌ، لكنَّ العُلَمَاءَ ﷺ إذا أوردوا حَدِيثًا صحيحًا في مسألة فإنَّهم يستأنِسون أن يذكروا الضعيفَ بعد ذلك لبيانِ كثرة طرقِ الحَدِيث.

قوله: (**وزاد: رد الإلحاد في الحرم**)[1] كلمة ردُ هذه زائدةَ، والعبارة: الإلحادِ في الحرَم بدون كلمة ردٍّ، ولا ندري من أين أتىٰ بها؟ ولفظ البُخَارِي في الأدب المفرد: الإلحادُ في المَسْجِد أي: المَسْجِد الحرامِ.

قوله: (**وأخرج إسماعيل القاضي ..**) هذه روايات يذكرها ﷺ من خارج الصَّحِيحَينِ وخارج السنن، يبين فيها اختلافُ الرواةِ في عدد الكَبَائِر، منهم من قَالَ سَبْع، ومنهم من أورد كبيرةً بدلَ كبيرةٍ، ومنهم من قَالَ تسعٌ، وأوردَ كبائرَ بدلَ كبائرَ، ولكن دائمًا إذا جاء الحَدِيث الصَّحِيحُ لا يعدِل إلىٰ غيره؛ لأنَّ البُخَارِي ومُسلِمًا - رحمهما الله - ينتقيان أصحَّ الألفاظ وأجودَها، وقد يكون السَّنَد واحداً عند جماعة من المُحدِّثين، لكنهم ينتقُون، ولهذا الذي يقرأ في متون البُخَارِي ومُسلم يرىٰ عليها نوراً، وكأنَّه يأنسُ بألفاظها، لكن في الكُتب الأخرىٰ يشعرُ بوحشةٍ وكأن الألفاظَ ليست دقيقةً؛ لأن الذين جمعوها ليسوا في مستوىٰ البُخَارِي ومُسلم - رحمهما الله -.



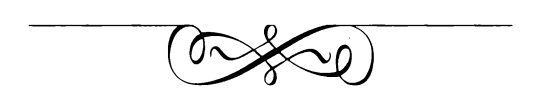
(١) أخرجه كثيرون بألفاظ متقاربة، منهم: البُخَارِي في الأدب المفرد، برقم: (٨)، (١/ ١٧)، وأبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، برقم: (٢٨٧٥)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في استقبال القبلة بالمَوْتىٰ، برقم: (٦٧٢٣)، (٣/ ٥٧٣)، والحاكم في المُسْتَدْرَك، كتاب الإيمان، برقم: (١٩٧)، (١/ ١١٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، (٢/ ٢١٦)، وحسنه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وللطبراني عن أبي أُمامة أَنَّهم تذاكروا الكَبَائِر، فقالوا: (الشرك، ومال اليتيم، والفرار من الزحف، والسحر، والعقوق، وقول الزور، والغلول، والربا، فقال رَسُول اللهِ ﷺ: فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً؟) وقد جاء في أحاديث غير ما ذكرنا جملة من الكَبَائِر، منها: اليمين الغموس، وشهادة الزور، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وسوء الظن بالله، والزنا والسرقة، وغير ذلك.

الشَّرح

هذه بعض ما ثبت في القُرْآن الكَرِيم مثل: الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وسوء الظن بالله، هذه جاءت في القُرْآن، ولم يرد فيها أحاديثُ صحيحةٌ، لكن القُرْآن أشار إليها، وشدَّد فيها، لكن اليمين الغَمُوس وشهادةَ الزور والزنا والسرقةَ وردت في الكَبَائِر في الحَدِيث، وإن كان عرض الكَبَائِر يختلف عند المُحدِّثين، فهناك ورد عشرة أعمال نص علىٰ أَنَّها كبائر، وورد ثلاثون عملاً تقريبًا في الصَّحِيحَينِ لم يُنصُّ علىٰ أَنَّها كبائر، لكن ورد فيها التغليظُ في العقوبة، وقال العُلَمَاء في تعريف الكَبَائِر: هي كل عمل وردَ فيها أَنَّ من فعلها فهو يستحقُ اللَّعْن من الله أو غضب الله أو توعده الله بالعقابِ، أَمَّا النَّص علىٰ أَنَّها كبيرة فلم يرِد إلا في العشر التي ستأتي إن شاء الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الحافظ: ويحتاج عند هذا إلىٰ الجواب عن الحِكْمَة في الاقتصار علىٰ سَبْع، ويجاب بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو جواب ضعيف، أو ب أَنَّه أعلم أولا بالمذكورات ثُمَّ أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائدة أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل، أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك.

الشَّرح

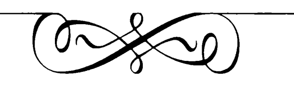
هنا الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلىٰ أَنَّه قد يسأل سائل: الكَبَائِر أكثر من سَبْع، وقد ورد في السُنَّة ذكر أكثر من سَبْع، وورد أعمال كثيرة عدَّها العُلَمَاءُ من الكَبَائِر، فالذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كتاب في الكَبَائِر، ولابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب اسمه: (الزواجر عن الكَبَائِر)، أورد فيه أكثر من مائةِ كبيرةٍ تقريباً، وإن كان قد يُنازَع في بعضها، وسيأتي قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّها أكثرُ من سَبْع. فالجواب عن هذا الاختلاف ـ والله أعلم ـ أنّ هناك كبائرَ والكبائرُ فيها أكبرُ، ولهذا في الحَدِيث: (**إن أكبر الكَبَائِر**)[1]، فالكبائر قد ترِدُ في حَدِيث واحد، وقد يختلف وقد يُسقِطُ بعضُ الرواةِ بعضَ الكَبَائِر، ويذكرها راوٍ آخر؛ لِأَنَّه قد يروي بعضهم الحَدِيث ناقصاً أو بمعناه، ثُمَّ بعض الكَبَائِر قد ترِد في حَدِيثٍ ليس فيه ذِكرٌ باسمِ كبيرةٍ،كَمَا في حَدِيث: (**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يومَ القِيَامَة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم المسبل ، والمنان، وبائع سلعته بالحلف الكاذب**)[2]، المُسبِل ارتكبَ كبيرةً،والمنَّان الذي يعطي النَّاس مما أعطاه الله ثُمَّ يَمنُّ عليهم، فهو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ارتكب كبيرةً بعد إحسانه، كذلك الذي يبيع السلعة بالحلف الكاذِب، الآن نرىٰ في الأسواق مِصداقَ هذا الحَدِيثِ، كثير من التُّجار يُقسم بالله أنَّه ليس معه في هذا الكرتونِ مَكسب إلا ريالٌ أو نصف ريالٍ، وهو كاذب، فتناقشه فينقُص عن الرِّيال ريالين، وهو قد أقسم أنَّ رأس ماله هو كذا، ظنُّوا أن الربحَ لا يأتي إلا عن طريق الحلِف الكاذِب، فهذا خلق ذميم وكبيرة من الكَبَائِر، لكن لم يُنص علىٰ أنَّها كبيرةٌ، ولهذا العُلَمَاء وضعوا ضابط الكبيرة، قَالُوا: كلُّ فعلٍ ورَدَ الوعيدُ علىٰ صاحبه بلعنةٍ أو غضبٍ أو نارٍ فهو كبيرةٌ، فتكون الكَبَائِر أكثر من العدد، ولا يُمنع أنَّه ﷺ أراد بأن ينُص في بعض المواطن علىٰ أعمال تتعلق بحدثٍ قائم، فإن النَّبي ﷺ قد يقول اليوم كلاماً يوجهه إلىٰ أشخاص، وبعد فترة يوجه كلاماً إلىٰ أشخاص، مثلاً ورد في القُرْآن الكَرِيم في آيةٍ أنَّهم لا يتكلمُون يومَ القِيَامَة، وفي آيةٍ أُخرىٰ أنَّهم لا يتساءلون، وفي آية ثالثة أنَّهم يُجادِلون، هذه مواقفُ: موقف لا أحدَ يسأَلُ أحداً عن شيء، وموقفُ أَخذٍ ورَدٍ ومُجادلاتٍ، فالقرآن يتكلم عن مواقف يومَ القِيَامَة؛ لأنَّ مقداره خمسون ألف سنَةٍ، وفيه مواقفُ، وكلُّ موقفٍ له صورةٌ، وله حدث، وله كلام، وله حال، فليس هذا تناقُضاً، وكذا الأحَادِيث قد تتحدث في موطنٍ عن قضايا، وهنا السبعُ المُوبِقَاتُ التي ذكرَها ربما تتعلَّق بواقعةٍ أراد ﷺ أن يذكرَ بها، لكن هناك كبائرُ أخرىٰ وردت في مواطنَ أُخرىٰ، فالرَّاوي رَوَىٰ ما سمع في مكان، وضمَّ إليه ما سمعه في مكانٍ آخرَ، فليس في هذا اختلاف ولا اضطراب، وإنما هذا إمَّا بحسب مواقف التوجيه، أو بحسبِ ما رواه الرواةُ، والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد أخرج الطبري وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنَّه قيل له: الكَبَائِر سَبْع، فقال: هن أكثر من سَبْع، وفي رواية عنه: هي إلىٰ السبعين أقرب، وفي رواية إلىٰ السبع مئة، وإذا تقرر ذلك علم فساد من عرف الكبيرة ب أنَّها ما وجب فيها الحد؛ لأن أكثر المذكورات لا يجب فيها الحد انتهىٰ. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله.

قوله: (قال: الشِّرْك بالله) هو أن يجعل لله نداً يدعوه كَمَا يدعو الله، ويرجوه كَمَا يرجو الله، ويخافه كَمَا يخافُ الله، وبدأ به لِأَنَّه أعظمُ ذنبٍ عصي الله به.

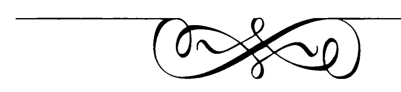


الشَّرح

قوله: (وإذا تقرَّر ذلك علم فساد من عرَّف الكبيرةَ بأَنَّها ما وجبَ فيها الحدُّ) فمن عرف الكبيرة بأنَّها ما كان فيها حدٌ أخطأ؛ لأنَّ هذه ليست فيها حدودٌ، فاليمين الفاجِرةَ لبس فيها حدٌ، وعقوق الوالدِّين ليس فيه حدٌ، وإن كان الشخص قد يُعاقب تعزيراً، فالتعريف بأن الكبيرة ما ورد فيها حدٌ تعريف خاطئٌ، فالتعريف الصَّحِيح أنَّ الكبيرةَ ما ورد فيها وعيدٌ، قد يكون حدًّا، وقد يكون لعنةً من الله، وقد يكون غضباً، وقد يكون عقاباً في الآخرة بحسب نوعية العمل.

والشِّركُ دائرةٌ أوسعُ، فكل شيء من خَصَائص الخَالِقِ إذا صرَفه الشخصُ للمخلُوقِ فقد أشركَ مَعَ الله، قد يكون بالدُّعاء، قد يكون بالاستغاثَةِ، قد يكون بالركوعِ، قد يكون بالسُّجودِ، قد يكون بوقوف الخشوعِ، قد يكون في التحاكُمِ، أن يجعل قولَ أحد من البَشَر يُحلُّ وُيحِّرمُ له، فهذا هو الشِّرْك الذي لا يغفرُه الله، لكن قد يضعفُ الإنسَانُ، قد تنحرفُ به الطريقُ، وقد تزلُّ به القدَم في

ضعف، في غَيبَة إيمانه أو في غيبةِ مراقبتِه لله، هذا ضعفٌ يغفره الله إذا تابَ إلىٰ الله وأنابَ، لكن الشِّرْكُ مَعَ الخَالِقِ ليس ضعفـًا، بل هو عدمُ إيمانٍ، فهذا نعوذ بالله الذنبث الذي لا يغفره الله،كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]. فالذُّنُوب التي سببها الشَّهوة قد يغفرها الله، والذنوب التي سببها التذلُّل والخضوع لغير الله لا يغفرها الله؛ لِأَنَّه يكون باختياره جَعَلَ مَعَ ربه شريكـًا.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما في الصَّحِيحَينِ عن ابن مسعود: سألت النَّبِي ﷺ: (أي الذنب أعظم عند الله؟ قَالَ: أن تجعل لله نداً وهو خلقك).



الشَّرح

قوله ﷺ: (وهو خلقك) يذكُر بأنَّه ليس في الوجودِ من يستحقُّ أن يكون نِداً مَعَ الله؛ لأن الذي خلقك هو الله، فالذي خلقك هو الذي يستحق أن تتقرب إليه وتتذلل إليه، وتطيعه وحده، وتحبه وحده، وتسأله وحده، أمَّا النَّاس فلم يخلقوك، فكيف تصرف حقَّ الذي خلقك إلىٰ من لم يخلق؟، وحقّ الذي يرزق إلىٰ من لا يرزثق؟، وحق الذي يحيي إلىٰ الذي لا يحيي؟، فلابد أن يكون في نفسِك هذا الإحساسُ: إيمانٌ قوي مَعَ رفقٍ ولين، ليس إيمانـاً مَعَ غِلظة، بل تكون قويـاً لَينـاً، قويـاً سهلاً، بعض النَّاس يظن أنَّه لا يكون قوياً إلا إذا كان عَنيفـاً مَعَ النَّاس، شديداً معهم، سيءُ الخُلُق معهم، وليس هذا بصحيح؛ لِأنَّ المُسلِمين كلهم ولو كان فيهم معصيةٌ إخوانُك، لا تنقطع صلتُك بإخوانك المُسلِمين مهما وقعوا فيه من معاصٍ، إلا إذا كفروا بالله، لكن ما دام يشهدث أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رَسُول اللهِ فمهما وقع فيه من ذنبٍ لا يكفره فإنَّه أخوك في الإسْلَام،كَمْا قَالَ بذلك نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**المُسلِم أخو المُسلِم**)[1].

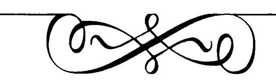
ونحن نعرف أن الإسْلَام أوسع من الإيمان، يشمل الإسْلَام كل من كان في دائرة الإسْلَام ، وكان ظاهره الاستسلام لله، ولو كان في باطنه ليس مُسلِمـاً،

---

(١) سبق تخريجه.

إلا إذا ظهر منه علامات تدلُّ علىٰ كفره ونفاقِه عندئذ تعمل بما تيقنت في حقِّه،لكن ما دام مُسلِماً وعنده معصيةٌ فإنَّه أخوك، لكن لا تقره علىٰ معصيته، بل تنصحُه برفق ورحمةٍ ولين،كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، لا كَما قَالَت الشاعرة في الحجَّاج بن يوسف: أسدٌ علي وفي الحروب نعامَةٌ.

فلا تكن أسداً علىٰ إخوانك ونعامةٌ مَعَ أعداء الله، بل العكسُ، لكن لا يكن عليهم أسدا في البداية، بل يكون داعيةً رفيقـاً رحيمـاً، حتىٰ يظهر العنادُ ويرفض الإسْلَام بعد أن يكونَ بيِّنـاً واضحـاً، فبعض النَّاس يبدأ يعامل الكفار من البداية بالغِلظة والخُشونة، هذا خلاف الإسْلَام، إذا كان الإسْلَام فرَض في زكاة المُسلِمين حقاً للمؤلفة قلوبهم لأنَّ المال يتألفُّ القلوبَ، فما بالُك بالكلمةِ الطَّيبةَ؟، فأحيانا نخطئ في طريقة التعامل مَعَ النَّاس، نبدأ أصحابَ البِدعِ وأصحابِ المعاصي بالغلظةِ، ونظنَّ أنَّ هذا هو الانتصار لله، هذا خطأ في التعامل، فلابد أن تكون أخلاقنا كَمَا أمرَ الله ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم﴾ أي: أهل الكِتَاب والكفار وغيرهم. ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل:١٢٥]، أمَّا إذا وصل الأمر إلىٰ القوة فنكون أُسُداً، نكون في الحروب أُسُداً، لا نكون جُبناء؛ لأنَّا نبتغي الجَنَّة، وهي أعظم المطالب، النَّصر أو الشَّهادة، وسيأتي أن من الكَبَائِر الفرارُ من الزحفِ، فكن قوياً في إيمانك لا تتَزحزح عنه، لكن مَعَ لينٍ، ورفقٍ وحكمةٍ. بعض النَّاس قد لا يستطيع أن يكون عنده هذان الوصفان، إمَّا أن يكون لينـاً فينسحبُ من أولِ الطريق، ويظنُّ أن هذا هو اللينُ المطلوب، وَإِمَّا أن يكون قويـاً خشنـاً.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (والسحر) تقدم معناه، وهذا وجه إيراد المصنف لهذا الحَدِيث في الباب.

قوله: (وقتل النَّفْس التي حرم الله) أي حرم قتلها إلا بالحق أي بفعل موجب للقتل، كقتل المشرك المحارب والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣]، وسواء في ذلك القتل عمداً أو شبه عمد،كَمْا صرح به طائفة من الشَّافِعِية، بخلاف قتل الخطأ، فإنَّه لا كبيرة ولا صغيرة؛ لِأَنَّه غير معصية.



الشَّرح

في الحَدِيث يذكر السِّحْر من الكَبَائِر، لكن ورد في القُرآن الكَرِيم أن السِّحْرَ كُفرٌ، لكن ذكَره هنا بعد الشِّرْكِ مباشرةٌ: (قال: اجتنبوا السبع المُوبِقَات، الشِّرْك بالله والسحر)[1] فهويعني إمَّا أن يكون حكمُه مَعَ الشِّرْكِ، وَإِمَّا أن يكون أقربَ إلىٰ الشِّرْكِ، والقرآنُ الكَرِيمُ نصَّ علىٰ أن السِّحْر كفر. ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢]. فالسحر تَعلُّمُه والعمَلُ به كُفرٌ، وهذا هو وجهُ الشَّاهِدِ في هذا الحَدِيث.

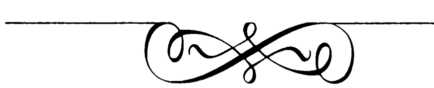
---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله - تَعَالَىٰ -: (إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ إنَّمَا يأكلون في بطونهم ناراً) برقم: (٢٧٦٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكَبَائِر وأكبرها، برقم: (٨٩)، (١/ ٩٢).

وقتل النَّفْسِ من أكبر الكَبَائِر، وذكَر ﷻ أنَّ جزاءه جهنَّمُ خالداً فيها وغضبَ الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذابًا عظيمـًا؛ لأن النَّفْس المؤمنة لها عند الله كرامةً، فالذي يقتلها بغير وجهٍ قد يجازيه ﷻ فيدخله النَّار مخلداً فيها، قد نقول: علىٰ قاعدةِ أهل السُنَّة والجماعة أنَّ الُموحِّد يَخرُج من النَّار، فكيف يكون خالداً فيها، والجواب أنَّه يخرجُ من النَّار إلا إذا قيَّد الله عدمَ خروجِه، والله له أن يفعل ما يشاء؛ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء:٤٨]، فهذا إلىٰ مشيئة الله، فإذا أراد الله ﷻ أن يعذِّب إنسانـًا قتل مُسلِمـًا ظلمـًا بالخلود في النَّار ؛ فذلك حكُمه ﷻ، وهناك عدة أعمال ورد فيها نصق بالخلود هذا أحدها، والثاني: في الربا قَالَ في آخر الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٥]، فقاعدة أهل السُنَّة والجماعة أنَّ الُموحِّد يخرج من النَّار، لكن إذا شاء رب العَالَمِين ، فإذا شاء أخرج الله كلَّ مُوحِّدٍ، لكن إذا شاء الله أن يعذب من قتل مؤمنـًا بغير حق في النَّار بالخلود يعذبُه، فالقاعدة لا تنسخ ما وردَ فيها الحكم مُقيَّداً.

أما قوله: (وسواء في ذلك القتل عمدا أو شبه عمد) لا يُقرُّ لذلك، وليس سليمـًا؛ لأنَّ في الآية: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣]؛ لأنَّ القتلَ علىٰ ثلاثة أقسام: قتلٌ عمدٌ، وشبه عمدٍ، وخطأٌ، وقد رتَّب صاحب كتاب (التشريع الجنائي في الإسْلَام) عبد القادر عودة رَحِمَهُ اللَّهُ ترتيبـًا حسنـًا، هذا

الكِتَاب من أحسن ما كُتب في هذا المجال، ووصف هذه الأقسام الثلاثة بأوصاف دقيقة جميلة سهلة، قَالَ: قتلُ العمد: ما تعمَّد السبب والنتيجةَ، وشبهُ العمدِ: ما تعمَّد السبب دون النتيجةِ، والخطأُ: ما لم يتعمَّد السبب ولا النتيجة، فتستطيع أن تُميِّزَ بين العمدِ وشبه العمد والخطأ، فالعمد ما تعمد السبب والنتيجة، مثلاً: إنسان أخذ المسدس ووجه إلىٰ شخص ليقتله فقتله، وشبه العمد كَمن أخذ عصا فضرب به إنساناً مُسلِماً فقتله، والعصا لا تقتُل، لكن تعمَّد السببَ، ولم يتعمد النتيجة، فشبه العمد ليس داخلاً في الوعيد لِأَنَّه لم يتعمّد النتيجة التي هي القتلُ، وإن كان هو لا شك مُخطئ وآثِمٌّ، لكن ليس مثلَ الذي تعمَّد السبب والنتيجة. والخطأ مثل لو كان إنسانٌ نائماً علىٰ سطح بيت وبجانبه شخص فتقلب في اللّيل فتسبب في سقوط الشخص من فوق سطح المنزل، فهو لا يتعمد السبب، ولا يتعمَّد النتيجة، هكذا كل فعل صاحبه ما تعمد السبب والنتيجة خطأ، فإلحاق شبه العمدِ بالعمدِ ليس دقيقاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: ويلتحق بذلك قتل المعاهد كَمَا صح في الحَدِيث: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجَنَّة) الحَدِيث.

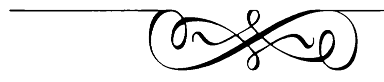


الشَّرح

المعاهد: الكافر الذي يدخل المُجْتَمَع المُسلِم بعهد من أحد أفراده، في الماضي كان بعض المُسلِمين يُجير بعضَ الكفَّار للدخول، إمَّا لعلاقة بينه وبينه، وَإِمَّا لتجارة أو نحو ذلك، أصبحَ في العصر الحاضر مُقيداً، لا يدخل إلا عن طريق الوالي، فإذا عاهد الوالي وأدخل كافرا إلىٰ بلاد المُسلِمين بعهد أي بإذن منه، لا يجوز للمسلمين أن يقتلوه إلا إذا كان هذا الشخص الذي دَخَلَ لم يلتزِم بَشَروط الدخول، مثلاً: هناك شروط في الدخول، أن لا يَسرق وأن يحترم دين البلدِ وعاداتِ البلد ونظامَه، فإذا دخل وسرق فيقام عليه الحدُّ، أو قتل فيقامُ عليه الحدُّ، فإذا خالف ووقع في أمر يستحق عليه العقاب يعاقَب شرعـًا، ومن قتله بغير حق يدخل النَّاركَمَا قَالَ ﷺ: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجَنَّة)[1] هذه لها عدةُ معانٍ، إمَّا أن يكون أنَّه لا يدخل الجَنَّة، وَإِمَّا أنَّه يدخلها لكن يُحرَم التلذذِ برائحتها، وَإِمَّا أنَّه لم يرح رائحتها في المحشر؛ لأنَّ في المحشر يرِدُ علىٰ المُسلِمين شيء من الرائحة الجميلة أو يكون في القَبْر لم يرح رائحة الجَنَّة، كل هذا احتمال، فأما أنَّه لا يدخل الجَنَّة مُطلَقـًا فلم يقل به أحد من العُلَمَاء، قَالَوا: إن هذه كبيرةٌ، لكنه ربما يفقِد حاسَّة الشم، ويعاقب بهذا في الجَنَّة جزاء علىٰ عمله الذي عمله، وهو أنَّه نقضَ العهد الذي أمر الله

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب إِثْمِ من قتل معاهد بغير جرم، برقم: (٣١٦٦).

بالوفاء به،كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]، فإذا عاقدنا كافراً لابد أن نفيَ بعقدنا معه،كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة:٦]، تخرجُه وهو كافرٌ وتحميه حتىٰ يصل إلىٰ المكان الذي يكون فيه آمنـًا، والقتلُ يكون بعد أن يكون هناك حربٌ معهم، فأحيانـًا لابد أن يكون إدراك لطريقة التعامل مَعَ الكفار.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

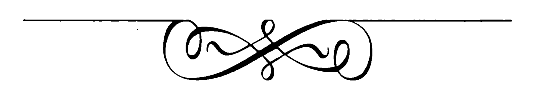
قوله: (وأكل الربا) أي تناوله بأي وجه كانكَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥]، قَالَ ابن دقيق العيد: وهو مجرب لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك.



الشَّرح

أكل الرِّبا جاء في الترتيب بعد السِّحْرِ وقتلِ النَّفْس، والرِّبا هو الذنبُ الوحيدُ الذي وردَ في القُرْآن الكَرِيم إعلانٌ للحرب بين المُرابي وبين الله ﷻ، فقد أعلن الله الحربَ عليه؛ لأنَّ المُرَابي إنَّمَا يضر في رِباه الضعفاءَ والفقراءَ في المُجْتَمَع الإسْلَامي، وهكذا بنوك الرِّبا في العالم إنَّمَا تكسب من وراء أصحاب الاحتياجِ، أمَّا أصحابُ الأموال فإنَّهم هم الذين تتحول الأموال إلىٰ أيديهم في المستقبل، ومع الزمن تصبحُ الأموالُ في أيدي الأثرياء وتبقىٰ الشعوبُ كلُها فقيرة، فالربا إذا استمر تصبح البَشَريةُ أسيرةً ومستعمرةً لأصحاب رءوس الأموال، والله ﷻ لا يريد ذلك،كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر:٧]، أي: الله شرع التجارة، وشرع الميراث، وشرع كثيراً من الأحكام الشرعية في المال، حتىٰ لا يبقىٰ المال بأيدي فئة من النَّاس، أمَّا الرِّبا فيُذهب المال إلىٰ المُرابين؛ لأنَّ المُرابي لا يخسرُ، أمَّا التاجرُ فيخسر، فإن كسب التاجر فله حقٌ، وإن خسر يكسبُ غيرُه، هكذا مكسبٌ يتداوله النَّاس، لكن أن يتحوز المالِ إلىٰ أيدي فئةٍ من النَّاس فإنَّها تستعمر النَّاس، فالربا من أشد أنواع الذُّنُوب.

والآن الاقتصاد العالمي كله يقوم على الرِّبا، ولـذلك العـالم كلـه مُسـتعمرٌ اقتصاديـًا، العملَةُ يضعها أصحاب رءوس الأموالِ والبنوك العالمية في العـالم الغربي هي التي تتحكَّمُ في اقتصاد العالم اليوم، ولا تستطيع أمَّةٌ أن تتخلى عـن ذلك إلا إذا قيَّد الله لها من يُنقذُها، لو أرادت دولة أن تستقل حطَّموا اقتصـادها، هم درسوا ووضعوا الأسسَ التـي يحكمـون بهـا العـالم في أخلاقِهـم عـن طريـق هذا البثِّ الذي يغزو كلَّ مكان، وعن طريـق الاقتصـاد الـذي هـو علـى الورقـة، هم الذين أعطوا الورقةَ قيمةً، ويخبرونا أنَّ: هـذه الورقـة نحـن وضـعنا قيمتهـا، تطيعوننـا نجعـل لهـا قيمـةً، تعصـوننا ننـزع منهـا قيمتَهـا، فالنَّـاس الآن تحـت رحمتهم شاءوا أو أبَوا، في الماضي كان الاستعمار مواجهةً، والإنسان يـأنف أن يُستعمَر. الذي يتأمل أحوال العالم اليوم من جميع جوانبـه يـرى فيـه استعماراً عجيبـًا في جميع نواحيه، فهناك نُموذج : ورقةٌ تشـتَري بهـا، وتأكـلُ بهـا، وتكتنـزُ بها، ورقةٌ ليست ذهبـًا ولا فضة، وفي بعض البُلدَان الإسْلَامية كانت عملتها قبـل عشرين سُنَّة تقريبـًا الخمسة بريـال سـعودي، الآن خمسـة ملايـين بريـال، كيـف تصـبح خمسـة ملايـين بريـال، وضـعها أعـداء الإسْلَام، هكـذا وراء العمـلات، فالشاهد الآن العـالم مستعمر اقتصـاديـًا، والبنـوك الربويـة تُؤكِّـد هـذا، فـإذا لـم يكن هناك وعيٌ من الأُمَّة الإسْلَامية وتحرك منها ستبقى هكذا تحت رحمـتهم، وهذا من ثمَرات الرِّبا، فالربا هو من أخطر الذُّنُوب التي حرَّمها الله ﷻ.



قال المؤلف رحمه الله:

قوله: (وأكل مال اليتيم) يعنى التعدي فيه وعبر بالأكل لِأَنَّه أهم وجوه الانتفاع، كَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠].

قوله: (والتولي يوم الزحف) أي الإدبار من وجوه الكفار وقت ازدحام الطائفتين في القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلىٰ غير فئة، أو غير منحرف لقتالكَمْا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥، ١٦].

الشرح

أكلُ مالِ اليتيمِ من أشدِّ أنواعِ الكَبائِرِ، والأكلُ المعروف هو بالفمِّ، لكن هذا معناه في اللغةِ فقط، الأكلُ يُطلقُ علىٰ أخذِ الشيء بغير حقَّه، أو أكل الطعام والغذاء، فإذا أخذ إنسان مالَ يتيم يقال: أكلَ مالَ اليتيمِ، وهذا وصفٌ ذميمٌ، فأخذُ مالِ اليتيمِ حَرَامٌ، لهذا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون:١، ٢]، قد يُصلِّي ويصوم، لكن يأخذُ مال اليتيم، هذا لا يُصدِّق بيوم الدِّين، لو صدَّق بالوقوف بين يدي الله و أنَّه سيحاسبه، و أنَّه سيتولىٰ عقابَه في الآخرةِ فعندما يتصور هذا لا يُقدِمُ علىٰ أخذ مالِ اليتيمِ ولا ظلمِ النَّاس، واليتيمُ هو رمزُ الضعفِ في المُجْتَمَع، وإلا فكلُ مَن يَظلِمِ الضعيفَ فيوم القِيامةِ ليس لهذا الضعيف ناصرٌ إلا الله ﷻ،

قد جاء في الحَدِيث: (واتق دعوة المظلوم، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب)(١).

قوله: (التولي يوم الزحف)، هذا حال يقع فيه بعض من ضعف إيمانه أثناء القتال، فإذا وقعت المعركة و انَهزم واحدٌ واثنان وثلاثة أثَّروا علىٰ نفسية المقاتلين، فهذه كبيرة، ومن يفعلها توعدَه الله بالنار، فعندما يُقابل المُسلِمون الكفارَ لا يجوزُ التَّولي، كذلك المواجهةُ المعنويةُ، نحن اليوم نواجه حرباً معنوية مَعَ الكفَّار، فينبغي أن لا نَفِرُّ وأن لا ننهزم، بل نسعىٰ إلىٰ أن نواجه أعداءنا بأساليبهم، وأن نفهمَ زوايا حربهم لنا، فإنَّهم يحاربونا بوسائل خفية، وبطرق ماكرةٍ، فإذا لم نُدرك حربَهم للمسلمين ربما نقعُ في حبائلهم، وفي شراكهم ونحن لا نعلمُ، أو قد نضعف لمصلحة دنيوية مُعجَّلة، فلا ينبغي لنا أن نَفرُّ لا في الحربِ الحسِّية ولا في الحربِ المعنوية، والتولي يوم الزَّحفِ هي الكبيرة السادسة في الكبَائِر السَّبع التي ذكرها النَّبي ﷺ، وهي تتعلق بحماية الدِّين، ونصرة الدِّين، فإن المُسلِم كَمَا أنَّه مطالبٌ بأن يقيم الدِّين في نفسه مطالب بأن يقيم الدِّين في غيره، فإذا فرَّ أو تخاذل عن نصرة الدِّين وقت الحاجة إليه يكون قد ارتكب جُرماً كبيراً. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فأنت مُطالب بأن تكون ناصراً للدين، وتشتد الحاجة إليك عندما يكون النزال والمواجهة، قد تكون بالحرب والسِّلاح، وهذا موطنُ قتالٍ وجهادٍ في سبيل الله، وقد تكون معنويةً عندما يَهجِم الكُفَّار علىٰ المُسلِمين بعقائدهم وأفكارهم وأخلاقهم، فلابد أن تكون في الصف الأول لحمايةِ الدِّين، وحماية المُجْتَمَع المُسلِم من غَزو الكُفَّار.

---

(١) سبق تخريجه.

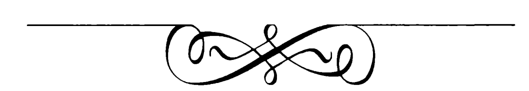
فهذه الآية تهدد الذين يَفِرُّون من المَعركة، والمَعركةُ بين الإسْلَام والكفرِ وكذا بين الإيمان والطاغوتِ إلىٰ قيامِ السَّاعة، والذي يَفرُ من الميدان يرتكبُ جريمةً وكبيرة من كبائر الذُّنُوب لا يغفرُها الله إلا إذا تابَ إلىٰ الله ﷻ، فالمُسلِم مُطالب بأن يكون له جُهد في أن ينصرَ دينَه، وتشتدُّ الحاجة إليه عندما تكون المواجهةُ، والمواجهةُ اليوم بين الإسْلَام والكفرِ قائمةٌ في كل مكان، اقتحامٌ علىٰ المُسلِمين من كل جانب، فعلىٰ المُسلِمين أن يهبُّوا ويواجهوا الغزوَ وأن يردُّوا كيدَ الكفَّار بما يُبطِلُ غزوهَم بالأسلوب الذي يحاربُون به، فاليوم نحتاجُ إلىٰ العلم الشَّرعي الذي نواجه به غزو الكُفَّار وهجومهم، ونحتاج إلىٰ تحصين الأخلاقِ، فإن المُسلِم مُكرَّم بإنسانيته، والكفَّار يسعون إلىٰ أن يجعلوه بهيمةً حيوانـًا، لا همَّ له إلا الشهوات، وقد عجزوا عن حرب العقيدةِ فجاءوا إلىٰ الحربِّ عن طريقِ الأخلاقِ، يستجرون الإنسَانَ المُسلِمَ من طريقِ أخلاقِه لإفسادِها، وهذا كَمَا قلنا من خلق إبلبيس، فقد كان الهدف الأول له ما قَالَ الله: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف:٢٠] تحطيمُ الحياءِ، والحياءُ سياجُ الأخلاقِ، فإذا حطِّم الحياءُ لم يعد هناك فرقٌ بين الإنسَان والحيوان، لهذا قَالَ النَّبي ﷺ: **(إن مما أدرك النَّاس من كلام النبوة الأولىٰ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت)**[1] عدمُ الحياءِ هو الذي يجعل الإنسَانَ يصنعُ كلَّ شيء حتىٰ ولو كان فيه قَذارة، فإذا كِسر حاجزُ الحياءِ من الإنسَانِ لم يَعد بينه وبين الحيوان فرق، واليوم تسعىٰ الدول من شتىٰ أنواعها إلىٰ تحطيم أخلاق المُسلِم، وكسرِ هذا الحاجزِ الذي يعلمون أنَّه يَحمي المُسلِم، ويجعله إنسانـًا متميزاً، خُلق الحَياءِ من أعظم الأخلاقِ، الحياءُ عن الكلمة البذيئة، الحَياءُ عن الحركةِ البَذِيئة، الحَياءُ عن الصورة البذيئة، الحَياءُ

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب أحاديث الأَنْبِيَاء، باب (٥٤)، برقم: (٣٤٨٤).

سياجٌ وتكريمٌ للإنسَان، الآن إذا أراد النَّاس أن يَصِفوا إنسانـًا يتكلَّم بكلام غير مُؤدبٍ يقال: ليس عنده حياءٌ، فهذا أدقُّ وصفٍ يطلق عليه.

فالحرب اليوم قائمة علىٰ المُسلِمين، في أخلاقهم وعقيدتهم، وفي مجتمعاتهم، ولا ينجيهم إلا أن يعودوا إلىٰ الله، وأن يَبُثوا العلمَ الشرعي في نفوسهم، فإن النَّاس أحيانـًا يتأولون كثيراً من الأشياء التي توقِعهم في المهالكِ، وهذا التأويل هو قائم علىٰ الجهلِ بدين الله ﷻ، فهذه الكبيرةُ يرتكبها كل من يكون عنده قدرةٌ علىٰ ردِّ هجومِ الكفَّار، أو إبطاله أوتخفيفه، ثُمَّ لا يؤدي دوره كَمَا ينبغي، هذا الدِّين أصبح اليوم مسئوليةَ المُسلِمين، لم يعد هناك أنبياءُ يأتون لحمايةِ الدِّينِ، فالفِرار يوم الزحفِ من كبائر الذُّنُوب، ويشملُ كلَّ فِرارٍ يقعُ فيه المُسلِم أمَامَ عدوِّه الُمهاجِم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

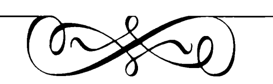
قوله: (وقذف المُحْصَنَات الغافلات المؤمنات)، هو بفتح الصاد: المحفوظَات من الزِّنَا وبكسرها: الحافِظَات فروجَهن منه، والمراد الحرائر العفيفات، ولا يختص بالمتزوجات بل حُكْم البكر كذلك بالاجماع كما ذكره الحافظ إلا إن كانت دون تسع سنين، والمراد رميهن بزنا أو لواط، والغافلات أي عن الفواحش وما رمين به لا خبر عندهن من ذلك فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريء عما بهت به من الزِّنَا، والمؤمنات أي بالله - تَعَالَىٰ- احترازاً عن قذف الكافرات فإنه من الصغائر.



الشَّرح

هذه هي الكبيرةُ الأخيرةُ التي ذكرها النَّبي ﷺ، وهي الاعتداءُ على عرضِ المُسْلِمةِ الغافلةِ عن الفاحشةِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٣-٢٥]، رَميُ المُحصَنَة الغافلةِ، والغافلةُ هي: التي لا يَخطر ببالها الفاحشةُ فهي في غفلةٍ عن هذا الخُلق الذَّميم، فبعض النَّاس ربما تأخذُه العصبيةُ ليقذفَ امرأةً غافلةً لمصلحةٍ رآها أو انتقامٍ، أو إفسادِ أُسرةٍ، وهذا لا يقع فيه إنسانٌ مُسلِم يراقبُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ. فرميُها أي: قَذفُها ووصفُها بالزِّنا يستحقُّ العقاب في الدَّنيا وَالآخِرَة، وهنا ذكرَ اللهُ أنَّه ملعونٌ في الدَّنيا وَالآخِرَةِ وله عذابٌ عظيمٌ، فهذه إذاً من كبائرِ الذُّنُوب.

الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: يُوْجَدُ هنا قَيدٌ وهو أنَّه ذكرَ في الحَدِيث، وكذلك في الآيةِ، المُحْصَنَاتِ الغافلاتِ المؤمناتِ، قال: إنَّ رميَ الكافرةِ ليس كبيرةً، وهذا يُؤخذُ من مفهوم النَّص؛ لأنَّ الوصفَ قد يكون وصفًا كاشفًا أي: داخلاً في حقيقة الموصوفِ، فلا يزيد إلا مَعَنىً قد حصلَ بدونه أيضًا، وقد يكون هذا الوصفُ زائداً مُقيداً، كلما ذَكرَ وصفًا زاد في الحَقِيقَة بيانًا، فإنَّ رميَ الكافرةِ من المعاصي، بل من الصغائر؛ لأنَّ الكافرَ عامَّةً في الحَقِيقَة ليس عنده ضابطٌ يمنعه من الزِّنَا، قد لا يَزني، لكن ليس تَدَيُّنًا، وإنَّما قد يكونُ عِفَّةً، كما جاء في المَرْأَة التي بايعت النَّبي ﷺ، فشرَط عليها قال: (ولا يزنين)، قالت: يا رَسُول الله الحُرَّة تَزني؟!(تقول: المَرْأَة التي هي من بيت مُحترم تَزني؟ لا تَزني إلا الساقطاتُ، وهذه كافرةٌ، فهذا خلقٌ ليس دينياً، إنَّما هذه عِفَةٌ إنسانيةٌ، فلا يجوز لنا أن نَرميَ الكُفَّارَ بالزِّنَا إلا إذا ثبت أنَّه زانٍ، وكذا لا يجوز أن نصفَه بأي وصفٍ من كبائرِ الذُّنُوب أو صغائرِها. فلا ينبغي للمسلم أن يصفَ إنسانًا بعملٍ لم يعمله ولو كان كافراً، فإنَّه يُؤاخذُ عليه عند الله ﷻ، فينبغي للإنسان أن يحترزَ من إطلاقِ الأوصافِ حتىٰ ولو كان علىٰ غير المُسْلِمين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وعن جُندب مرفوعًا (حد السَّاحِرِ ضربه بالسيف) رواه الترمذي وقال: الصَّحِيح أنه موقوف.

هذا الحَدِيث رواه الترمذي كما قال المصنف من طريق إسماعيل بن مُسلِم المكي، وقال بعد أن رواه: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مُسلِم المكي يضعف في الحَدِيث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مُسلِم العبدي البصري. قال وكيع: هو ثقة ويروى عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جندب موقوف انتهى.

ورواه أيضًا الدارقطني والبيهقي والحاكم وقال: صَحِيح غريب، وقال الترمذي في العلل: سألت عنه محمداً يعني البُخَارِي فقال: هذا لا شيء، وإسماعيل ضعيف جداً. وقال الذهبي في الكَبَائِر: إنه من قول جندب، وأشار مغلطاي إلى أنه وإن كان ضعيفًا يتقوى بكثرة طرقه، وقال: خرجه جمع، منهم البغوي الكبير والصغير والطبراني والبزار ومن لا يحصى كثرة.



الشَّرح

سبق أن ذكرنا أنه لم يثبت أنَّ هناك حديثًا صَحِيحًا في حُكْم السَّاحِرِ من حيث الاعتقاد، لعلَّه اكتفاءٌ بما وردَ في كلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الله - سُبْحَانَه - قد كَفَّرَ الساحرِ في كلامه، كما مرَّ في قِصة سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهذا الحَدِيثُ لا يصح مرفوعًا، بل يصح موقوفًا على الصَّحَابِي، ولم يصح مرفوعًا إلى النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ضعفه العلماء قديمًا وحديثًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن جندب) ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبدالله البجلي لا جندب الخَيْر الأزدي قاتل السَّاحِر. فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النَّبي ﷺ وذكره، وخالد العبد ضعيف، قال الحافظ: والصواب أنه غيره، فقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخَيْر أنه جاء إلىٰ سَاحِر فضربه بالسيف حتىٰ مات، وقال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول فذكره، وجندب الخَيْر هو جندب بن كعب، وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد كما قاله ابن حبان أبو عبد الله الأزدي الغامدي صَحَابِي.

الشَّرْح

العلماء مختلفون في جُندب، هل هو واحد أو شَخْصان؟ لأنَّ الاسمَ واحدٌ، جندب ابن عبد الله، ومنهم من قال: جُندب بن كعب، لكن ليس هناك ما يَدلُّ علىٰ أنهما اثنان، أو أنَّهما واحدٌ، فالأمر ليس فيه وضوحٌ، لكنَّه صَحَابِي، وأحيانًا يأتي الاسمُ الواحدُ فيختلفون هل هما شَخْصان أو شَخْص واحدٌ؟ ذلك بسبب تشابُهِ الأسماء، وهذه لها كُتبٌ كثيرةٌ في هذا المجال، والعلماءُ يتحدَّثون عن المُتفِق والمُفتَرِق أو المُشكِل، ويُبينونَه عن طريق كُتب الإِنْساب، مثلاً: إسماعيل بن مُسلِم المكي، أو إسماعيل بن مُسلِم العبدي، فإسماعيل بن مُسلِم العبدي هل هو المَكِّي أو يختلفان؟ فدراستُهم عن طريقِ مشياخِهم ممن أخذ هذا، وأين عاش هذا؟ في البصرة، وأين عاش ذاك؟ في الكوفة، هذا جندب بن عبد الله صَحَابِي، لكن مُختَلفُ هل هما شَخْصانِ، أو شَخْص واحدٌ؟ وذلك لا يُغيِّرُ من الحُكم شيئًا؛ لأنَّه صَحَابِي، والصَّحَابَة كلُّهم عُدُولٌ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروىٰ ابن السكن من حديث بريدة أن النَّبِي ﷺ قال: (يضرب ضربة فيكون أمة وحده).

قوله: (حد السَّاحِر ضربه بالسيف) روىٰ بالهاء وبالتاء، وكلاهما صَحِيح، وبهذا الحَدِيث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة، فقالوا: يقتل السَّاحِر، وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبدالله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر ابن عبدالعزيز، ولم ير الشافعي عليه القتل بمجردالسِّحْر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر، وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد، والأول أولىٰ للحديث ولأثر عمر الذي ذكره المصنف وعمل به النَّاس في خلافته من غير نكير، فكان إجماعًا.



الشَّرح

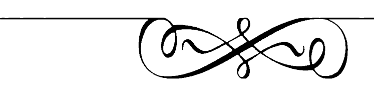
قوله ﷺ: (يضرب ضربة فيكون أُمَّةَ وحدَه). هذا الحَدِيث أيضًا ضعيف، ولم يثبت في حد السَّاحِر حديث، إنما هو من فعل الصَّحَابَة رضي الله عنهم.

وأئمة المذاهب رَحِمَهُمُ اللَّهُ اختلفوا في السَّاحِر، هل يقتل إذا ثبتَ أنَّه سَاحِرٌ؟ أم لا يُقتلُ إلا إذا ارتكب فعلاً يستحق عليه القتلَ غَيرالسِّحْر، فالشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ - يرىٰ أنَّ السَّاحِرَ لا يُقتل إلا إذا قَتل، وأمَّا الأئمةُ الثلاثةُ أبو حنيفةُ ومالكٌ وأحمد في رواية عنه رَحِمَهُمُ اللَّهُ قالوا: إذا ثبت أنَّه سَاحِرٌ يُقتل؛ لأنَّ السِّحْرَ كُفرٌ، ولأنَّه ثبت عن جماعة من الصَّحَابَة أنهم قتلوا السَّاحِرَ، ولم يُعرف من أنكرَ عليهم، إذا فعل الصَّحَابِي فِعلاً أو قال قولاً، ولم يُنكر عليه أحدٌ من الصَّحَابَة يُسمَّىٰ هذا إجمَاعًا من الصَّحَابَة رضي الله عنهم، فعمرُ وعثمانُ وحفصةُ رضي الله عنهم وردَ عنهم أنَّهم

قتلوا الساحرِ، أو قُتِلَ في عهدهم سَحرةٌ، ولم يُنقل لنا ما يقابلُ هذا الفعل، فكان الراجحُ هو قول الأئمة الثلاثةِ أنَّ السَّاحِرَ إذا ثبت أنه سَاحِر يقتل.

وقلنا إنَّ السِّحْرَ اجتمع فيه الذُّنُوبَ الثلاثةَ، حقُّ الله، وحقَّ النَّاس، وحقُّ السَّاحِرِ نفسِه، فهو تَنَقَّصَ اللهَ بالشِّرك؛ لأنَّ السِّحْر غيرُ مُمكنٍ إلا عن طريقِ الشِّرْك بالله، ثُمَّ اعتداء على حقوقِ النَّاس؛ لأنَّ عملَ السَّاحِرِ ليس له فيه إلا مصلحةٌ ماليةٌ، ليس لنفِسه فيه شهوةٌ خاصَّة، إنَّما لإفسادِ المُجْتَمَع، ثُمَّ يأكل من وراء السِّحْر.

فالسِّحرُ من أشد الذُّنُوب، وقتلُ السَّاحِرِ في الحَقِيقَة هو الحُكم الصَّحِيح؛ لأنَّه يُفسد المُجْتَمَع، والسَّحرةُ عندما يدخلون المُجْتَمَع يكونوا مصدر إيذاءٍ للنَّاسِ؛ لأنَّ رزقَهم وكسبَهم يقومُ على سحرِ النَّاس، وهذا ظلمٌ وانتهاك لحقوقِ الآخرين، فالصحيحُ أن السَّاحِرَ إذا ثبت أنَّه سَاحِر يُقتل، واختلف العلماء في استتابتِه، وسيأتي إن شاء الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

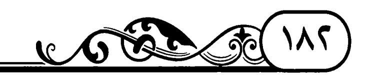
قال: وفي صَحِيح البُخَارِي عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل سَاحِر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.



قوله: (كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل سَاحِر وساحرة)[1] هذا الحَدِيثُ وَردَ في عِدَّةِ كُتب في المُسنَد و البُخَارِي وأبي دَاود، والحديث فيه ثلاثةُ أحكَام . الأول: التَّفريقُ بين ذَوي المَحارِمِ؛ لأنَّ المَجُوس كانوا يَستبيحُون نِكاح المَحَارم، والحُكمُ الثاني: أخذُ الجِزيةِ عن المَجُوس إلحاقاً بأهل الكتاب، والحكم الثالث: قتلُ سَحرَةِ المَجُوس أو سحرةِ أهلِ الكتابِ، ولكن ليس في صَحِيح البُخَارِي إلا الحكمان، التفريق بينِ ذوي المحارم، وضربُ الجِزيَة عليهم، أمَّا قتلُ السَّواحِرِ فقد جاء في المُسنَد وفي البزار، وفي أبي داود، فالأثر إن صحَّ عن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكون اجتهاداً منه ولم يُنكره عليه الصَّحَابَةُ، قال: (فقتلنا ثلاث سواحر) من النساء، فإذا صح الحَدِيث يكون هذا مقوياً لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في أخذ الجزية من المَجُوس، برقم: (٣٠٤٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٦٥٧)، (٣/ ١٩٦)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد الذميين ومن قال إن الإمام مخير في الحكم بينهم، برقم: (١٧١٢٢)، (٨/ ٤٣٢)، وأبو يعلىٰ في المسند، برقم: (٨٦٠)، (٢/ ١٦٦)، والدارقطني في سننه، كتاب زكاة الفطر، باب في جزية المَجُوس وما روي في أحكامهم، برقم: (٢١٤١)، (٣/ ٩٣)، وأخرجه ابن الجارود في المنتقىٰ وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد الرزاق في المصنف، وغيرهم، وأما البُخَارِي فلم يخرج الجملة التي تتعلق بقتل الساحر، وأخرج الحكمين الآخرين الذين ذكرهما الشيخ، انظر: صَحِيح البُخَارِي، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة، برقم: (٣١٥٦).

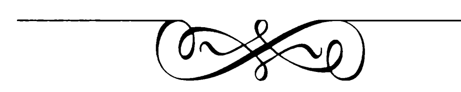


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ش: هـذا الأثـر رواه البُخَـارِي كمـا ذكـره المصـنف، لكنـه لـم يـذكر قتـل السِّحْرة، ولفظُـه: عـن بجالـة بـن عبـدة قـال: كنـت كاتِبـًا لجزء بـن مَعَاويـة عَـمِّ الأحنف فأتانا كتابُ عمرَ بن الخطابِ قبل موتِه بسنَةٍ: فَرِّقُوا بَين كُـلِّ مَحْـرمٍ مـن المَجُوس ولم يكن عمرُ أخذَ الجِزيةَ من المَجُوس حتىٰ شهد عبدُالرحمن بنُ عوف أنَّ رَسُول الله ﷺ أخذَها من مَجوسِي هَجَر، وعلىٰ هـذا فَعزْوُ المُصنِّف إلىٰ البُخَارِي يحتَمِلُ أنَّه أرادَ أصلَه لا لفظَه.

الشَّرح

هنـا المُصنِّف الشيخ محمـد بـن عبـد الوهـاب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قـال: في صَحِيح البُخَارِي عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمرُ بـن الخطـاب أن اقتُلـوا كـلَّ سَـاحِرٍ وساحرةٍ، هذا اللفظُ لـيس في الصَّحِيح، لكـن الأئمـة رَحِمَهُمُ اللَّهُ قـالوا: إذا كـان أصـلُ الحَدِيث في الصَّحِيح لكن ليس فيه كل الألفـاظ يقولـون: " في البُخَـارِي"، أي: أصلُ الحَدِيثِ، وهذا مَنهَج البَغـوي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في كتابـه (شـرحُ السُّـنَّة) ؛ ولهـذا لا يُغتَر به، أي :لا يريد عندما يقول: رواه البُخَارِي ومُسْلِم أنَّ اللفـظ في البُخَـارِي ومُسْلِم، وإنما أراد أصل الحَدِيث، فسند هذا الحَدِيث في البُخَارِي، لكـن لـيس فيه لفـظ قتـلِ السَّـواحر، فهنـا المُؤَلِّـف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أراد بِعَزوِه للبُخَـاري أي: أصـلُ الحَدِيث لا لَفظِه، فإنَّ هذا اللفظِ ليس في صَحِيح البُخَارِي.

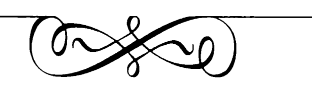


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ورواه الترمذي والنسائي مختصراً، ورواه عبدالرزاق وأحمد وأبو داود والبيهقي مطولاً، ورواه القطيعي في الجزء الثاني من فوائده بزيادة فقال: حدثنا أبو علي بشر بن مُوْسَىٰ الأسدي، ثنا هوذة بن خليفة ثنا عوف عن عمار مولىٰ بني هاشم عن بجالة بن عبدة قال: كتبَ إلينا عمرُ بن الخطاب: (أن اعرضوا علىٰ من كان قِبلَكُم من المَجُوس أن يَدَعُوا نِكاحَ أمهاتِهِم وبناتِهِم وأخواتِهم ويأكُلُوا جميعًا كيما نلحقهم بأهل الكتاب ثُمَّ اقتلوا كل كاهن وساحر) قلت: وإسناده حسن.

الشَّرح

هذا الإسناد يدور علىٰ سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار عن بجالة، في جميع الكتب في البُخَارِي وأبي داود، والترمذي والمسند، لكن تختلف بقية الشيوخ، فيرويه أحمد عن سفيان مباشرة، ويَرويه أبو داود عن مسدد عن سفيان، و البُخَارِي عن عبد الله عن سفيان، فإنَّ هناك اختلافُ المشايخ فقط وإلا فالسَّندُ واحدٌ، فالسند ليس عليه غُبارٌ، بل هو صَحِيحٌ لكن فقط اختلافُ الألفاظِ، فإنَّ صاحبيَ الصَّحِيحين رَحِمَهُمَا اللَّهُ يَنتَقِيَانِ من الألفاظ ما يَريَان أنَّه هو الأصحُّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن بَجالة) هو بفتح الموحدة بعدها جيم ابن عبدة بفتحتين التيمي العنبري بصري ثقة، قوله: (كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل سَاحِرٍ وساحرة) إلىٰ آخره صريح في قتل السَّاحِرِ والساحرة، وهو من حُجَجِ الجُمهور القائلين بأنه يُقتل، وظاهرُه أَنَّه يُقتلُ من غيرِ استتابةٍ، وهو كذلك علىٰ المشهور عن أحمدَ، وبه قال مالكٌ: إن الصَّحَابَة لم يَستَتِيبُوهم؛ ولأنَّ علم السِّحْرِ لا يزول بالتَّوبةِ

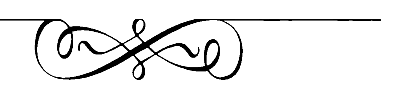
وعن أحمَد يُستَتَابُ، فإن تابُ قُبِلَت توبَتُه وخُلِّي سبيلُه، وبه قال الشَّافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد علىٰ الشِّرْك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته، فكذلك السَّاحِرِ وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل سَاحِرِ أهل الكتاب إذا أسلم؛ ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

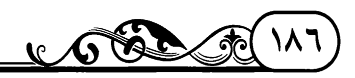
قلت: الأول أصح لظاهر عمل الصَّحَابَة، فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بينوها، وأما قياسه علىٰ المشرك فلا يصح؛ لأنه أكثر فساداً وتشبيها من المشرك، وكذلك لا يصح قياسه علىٰ سَاحِرِ أهل الكتاب؛ لأن الاسلام يجب ما قبله. وهذا الخلاف إنما هو في إسقاط الحد عنه بالتوبة، أما فيما بينه وبين الله فإن كان صادقًا قبلت توبته.

الشَّرح

هذا الكلام عن توبة السَّاحِر، لو ثبت أنَّ فلانـًا سَاحِر، ثُمَّ قبض عليه وليُ الأمرِ، فقال: أنا تائب إلىٰ الله، أو أتوب إلىٰ الله فهل يُقبل أو هل علىٰ الوالي أن يقول: تُبْ إلىٰ الله فإن تابَ يُفَكُ؟ . هذه المسألةُ فيها قولان لأهل العلم.

الأول: مالكٌ ـ رحمه الله ـ والجُّمهُور علىٰ أنَّه لا يُستتَاب، والشافعي ـ رحمه الله ـ علىٰ أنَّه يُستَتَاب، وعن أحمد ـ رحمه الله ـ روايتان، والشَّارِحُ رجَّحَ الذي قال به الإمام مالك، ـ رحمه الله ـ قال: إن الصَّحَابَة رضي الله عنهم لم يثبت أنَّهم استتابوهم، بل قتلوهم علىٰ سِحرهم، والشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: السِّحْرُ ليس أشدَّ من الشِّرْك، أعظم ذنبٍ عُصِي اللهُ به، فإذا تابَ الُمشركُ قَبِلنا توبته؛ فالسَّاحِرُ من باب أولىٰ، وقال أصْحَاب الرأي الأول: إنَّ السَّاحِرَ يبقىٰ سحرُه عنده في ذهنه، ففي أي لحظة قد يرجع؛ فردَّ عليهم الشَّافعي: أنَّ اللهَ قبِلَ توبةَ سحرةِ فرعونَ، وعلم السِّحْرِ عندَهم، فهذان قولان، ولعل الصواب أنَّ السَّاحِرِ إن قُبِض عليه قبل أن يُؤذي أحداً تكون الاستتابةُ واردةٌ، لكن إن كان قد بدأ في سحره ومارسَه فالأولىٰ قتلُه، فإن صدقت توبته تقبل بينه وبين الله، وهذا الحد لكفاية شره، وهو مثلُ المُحاربين الذين يبغون في الأرض فساداً، هؤلاء يُقتَّلون وقد يتوبون توبةً صَحِيحةً، فهذه تنفعُهم في الآخرةِ، أمَّا في الدَّنيا فيُقطَعُ شرُّهم عن طريق قتلِهم، فالسَّاحر إن كان قد بدأ يسحرُ وقد آذىٰ النَّاس فالأولىٰ أنه يُقتل ولا يُستتاب، أمَّا إذا كان لا زال في أول الطَّريق مُتدرباً فربما يكون مُتهيباً، يُحذَّر أن هذا شِرْك ويُخوَّف حتىٰ يتوبَ إلىٰ الله عز وجل؛ فكل حالةٍ تُدرسُ بمفردِها، فإن آذىٰ النَّاسَ يُقتلُ ويُكفَىٰ الناسُ شرَه، ، فإن عاد من كان في بداية السِحر بعد إنذاره يُقتَل؛ لأن السِّحْرَ قد انتشر في هذه الأيام في كثير من بلاد المُسْلِمين، وغيرِ بلاد المُسْلِمين، ولا تكاد تجد مدينةً ولا قريةً إلا وفيها ذكرٌ لهذا السِّحْرِ، وهذا من ضعفِ الإيمانِ وعدمِ مُراقبةِ اللهِ عز وجل.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وصحَّ عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها.

ش: هذا الأثر رواه مالك في الموطأ عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النَّبِي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها، وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت.

ورواه عبدالرزاق وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النَّبِي ﷺ بعد خنيس بن حذافة سنة ثلاث، وماتت سنة خمس وأربعين.



الشَّرح

هذا أثر عن حفصةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وذلك أنه كانت لها جاريةً دَبرتها، أي: أعتقتها عِتقًا مَعَلقًا، قالت: إذا مِتُّ فأنتِ حُرةٌ، والجاريةُ استعجَلَت، ولم تنتظر حتىٰ تموتَ، بل أرادت أن تُعتقَ من الآن، فحفصةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قتَلتها عندما علِمت أنَّها سَحَرتها، وأرادَت قتلَها[١]، وفي الأثر: (من استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانِه)، وليس هذا حديثًا، قد يقتل الولدُ أباه يستعجِلُ الثروةَ، فإنَّه يُحرَم من المِيراث ويُمنَع منه، ويُقتل إلا إذا عفا عنه أولياء الدِّم، لكن (من استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانه)، لو قتل زوجَته من أجلِ ميراثِها، أو قتلَ قريبًا آخر لميراثه فإن هذا يُمنع من الميراث وكذا إن كان ليس قصدُه الوصولَ إلىٰ الميراثِ، فإذا قتل أحدَ أقربائِه وكانت عنده ثروة وله علاقةٌ بهذه الثَّروة فإنَّ هذا القاتلَ يُمنع من الميراث.

---

(١) أخرج القصة الإمام مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب الغيلة والسحر، برقم: (٢٥٥٣)، (٢/ ٤٤٤)، والبيهقي في مَعَرفة السُنَنِ والآثار من طريق الشافعي، برقم: (٥٢٥٠)، (١٣/ ٣٧٢).

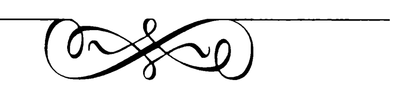
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وكذا صحَّ عن جندب.

المراد به هنا قطعًا جندب الخَيْر الأزدي قاتل السَّاحِر، وهو جندب بن كعب بن عبدالله. قال أبو حاتم: جندب بن كعب قاتل السَّاحِر ويقال جندب بن زهير: فجعلهما واحداً، وفرق بينهما ابن الكلبي وغيره، قال ابن عبد البر: ذكر الزبير أن جندب بن زهير قاتل السَّاحِر، والصحيح أنه غيره، وأشار المصنف بهذا إلىٰ قتله السَّاحِر كما رواه البُخَارِي في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنسانًا وأبان رأسه فعجبنا، فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله. ورواه البيهقي في الدلائل مطولاً وفيه: فقال النَّاس: سبحان الله يحيىٰ الموتىٰ. ورآه رجل صالح من المهاجرين، فنظر إليه، فلما كان من الغد اشتمل علىٰ سيفه، فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه وقال: إن كان صادقًا فليحي، نفسه فأمر به الوليد فسجن، وذكر القصة بتمامها، ولها طرق كثيرة.

الشَّرح

هذه قصةٌ إن ثبتت، فجُنْدُب رَأىٰ هذا الرَّجُلَ يَخدعُ النَّاس بِسحرِه ويُوهِمُهم بأنه يَقتلُ الأَشْخَاص ثُمَّ يُحييهِم، فَأخذَتهُ الغَيرةُ فَقتَل هذا السَّاحِرَ، فسجنَه الوليدُ في عهدِ عُثمانَ بنِ عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فأمر عُثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بإطلاقِه . إن صحَّت القصةُ، هنا يقول: إن جُندُب الخَيْر غير جندب بن زهير، غير جندب بن عبد الله، وهذه كلُّها أسماءُ يعودُ بعضُها إلىٰ بعضٍ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: قال أحمد عن ثلاثة من أصْحَاب النَّبِي ﷺ.

ش: أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

وقوله: (عن ثلاثة) أي صح قتل السَّاحِر عن ثلاثة، أوجاء قتل السَّاحِر عن ثلاثة من أصْحَاب النَّبِي ﷺ يعني عمر وحفصة وجندبًا والله أعلم.



الشَّرْح

هذا آخِرُ بابِ السِّحْرِ، وسيأتي بعدَه كلامُ للمؤلِف ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في أنواع السِّحْرِ وهو مُرتَبطٌ بما قبلَه، والسِّحرُ يَبطلُ إمَّا بإخراج السِّحْرِ، إن استُدِلَّ على مكانِه وإمَّا بالأذكار الشَّرعيَّة، فإنَّ الأذكارَ الشَّرعيَّة بإذنِ الله كافيةٌ لإبطال السِّحْرِ، والعلماءُ قد ذكروا آياتٍ عِدَّةٍ، فبعضُهم رَوَى طُرُقًا في علاجِ السَّحرِ، فمنهم من قال: يأخذ سبعَ ورقاتٍ من السدرِ ثُمَّ يَدقُّها بين حَجَرَين، ويَضَعُها في ماءٍ، فيشربَ من هذا الماء ثُمَّ يغتسلُ بالباقي بعدَ أن يقرأ في الماء سورَ القَواقِل: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب النَّاس، وآيةَ الكرسي، ويُداوم على هذا، ومن الآيات التي قالوا تقرأ على السَّحرِ آياتٌ ثلاثٌ وهي قولُه -تَعَالَى- لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس:٨١، ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢] إلىٰ آخره، والآية الثالثة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

من قرأ القواقلَ وهذه الآياتِ الثلاثَ وكرَّرَها ولجأ إلىٰ الله بصدق فإن الله يشفيه بإذن الله ﷻ، وقد جاء في حديثِ النَّبي ﷺ عندما سُحر كما في صَحِيح البُخَارِي: أنه ﷺ دَعا الله، دَعا ودَعا، هكذا قالت عائشةُ ﵂، ثُمَّ قال: يا عائشة أُشعرت أنَّ الله أفتاني فيما استفتيته به[1]، قالت: فأخبر عن السِّحْر وأنَّه في بئر مَعَينة في مكانٍ مَعَين، فبعثَ من أخرجَ هذاا لسِّحْر، فإذا لجأ الإِنْسان إلىٰ الله صادقًا من قَلْبه واستخدم الرُّقية الشَّرعيَّة بإذن لله لابد أن يَشفىٰ، وقد يطولُ المرضُ لحكمةٍ أرادها اللهُ ﷻ، وهذا ابتلاء مثلُ الأمراضِ، لكن لو صدقَ النيةَ مَعَ الله وقرأ هذه الآياتِ واستمر علىٰ قراءتها، وتَحصَّن بها في الصباح والمساء، فإنه بإذن الله يشفىٰ من مرضه إذا صَدقَ النيةَ واستمر في دعائه لله ﷻ.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الطب، باب السحر، برقم: (٥٧٦٣)، ومُسْلِم في صَحِيحه، كتاب السلام، باب السحر، برقم: (٢١٨٩)، (٤/ ١٧١٩).



باب: بيان شيء من أنواع السِّحْر

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

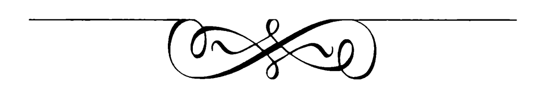
لما ذكر المصنف ما جاء في السِّحْر أراد هنا أن يبين شيئًا من أنواعه؛ لكثرة وقوعها وخفائها علىٰ النَّاس حتىٰ اعتقد كثير من النَّاس أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء، وعدوها من كرامات الأولياء، وآل الأمر إلىٰ أن عبد أصْحَابها ورجي منهم النفع والضر والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتًا، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك، ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجري علىٰ يده شيء من الخوارق.



الشَّرح

هنا يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب إيراد المصنف لهذا الباب، وهو التحذير مما قد يتوهمه بعض النَّاس عندما يرىٰ بعض الأشْيَاء الغريبة تجري علىٰ يدي بعض النَّاس الذين ليسوا من الصَّالِحين، فيظن أن هذه كرامة ويكون هذا سحراً؛ لأن النَّاس أحيانًا لا يفرقون بين من يتظاهر بالصلاح وهو كاذب، وبين الصَّالِحين، وقد ينخدعون إذا رأوا علىٰ يد هذا الشَّخص بعض الأمور التي

ليست في استطاعة الإِنْسان فيظنون أن هذا كرامة، فأراد الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ أن يبين أن ما يجري علىٰ يد السَّاحِر ليس كرامة، والحقيقة انه لا يهمنا ما يجري علىٰ يد الإِنْسان الصَّالِح؛ لأن الذي يهمنا سلوكه وعمله، واستقامته وأداؤه للفرائض واجتنابه للمحرمات، هذا هو الإِنْسان التقي الصَّالِح ولي الله، فظهور شيء من الخوارق علىٰ يد الإِنْسان لا ينبغي أن نُخدع بها، فإن الدَّجَّال يجري علىٰ يديه من خوارق الأشْيَاء ما لا يجري علىٰ يد كثير من الصَّالِحين، فإن الدَّجَّال يمر علىٰ الخَربة فيقول لها أخرجي كنوزَك، فتخرج وراءه مثلُ يعاسيب النحلِ، ويشيرُ إلىٰ السَّمَاء فتمطر، وإلىٰ الأرض فتنبت(١)، ويأتي إلىٰ القبرِ فيحيي الميت في الظاهر وإلا هذا في الحَقِيقَة من فعل الشَّيطَان، يخيل للنَّاسِ أن هذا خارجٌ من القبر وهو شيطان في الحَقِيقَة، فالدجال يجري علىٰ يديه من خَوارقِ العادات ما لا ينبغي لنا أن ننخدع به، فكيف إذا جرىٰ علىٰ يد الإِنْسان العادي، فعلامة تقوىٰ الإِنْسان وصلاحه وولايته استقامته وأخلاقه ودينه، ليست الكَرَامَة، وليست ما يجري علىٰ يده. كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، فذكر الله أن أولياءه فيهم هذان الوصفان، آمنُوا واتقَوا، ما قال: يجري علىٰ أيديهم ما هو خارج عن عادةِ النَّاس.



(١) أخرجه مسلم في صَحِيْحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدَّجَّال وصفته وما مَعَه، برقم: (٢٩٣٧)، (٤/ ٢٢٥٠).

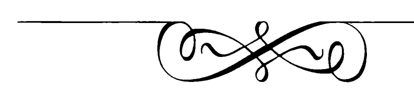
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فاعلم أنَّه ليس كل من جرىٰ علىٰ يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالىٰ؛ لأن العادة تنخرق بفعل السَّاحِر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغَيْب مما يخبره به الشَّيَاطِين المسترقون للسمع، وفعل الشَّيَاطِين بأناس ممن ينتسبون إلىٰ دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة، كأناس من الصوفية وكرهبان النَّصارىٰ ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم علىٰ الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقىٰ شيطانية وبحيل وأدوية كالذين يدخلون النَّار بحجر الطلق ودهن النَّارنج، وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به علىٰ وقوع ما لم يقع.

الشَّرح

قوله: (وما يستدل به) هنا الواو زائدة، وحق العبارة: (فقد يكون برؤيا صادقة فيها ما يستدل به علىٰ وقوع ما لم يقع)، هنا يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ بعض الحوادث التي قد تقع للإنسان، فإن الشَّيَاطِين تأتي للإنسان بأشياء من الخوارقِ كأن تخبره عن مكان وجود دابتِه أو ابنه الضَّائعِ، أو ما سُرق منه؛ لأن الشَّيَاطِين ترىٰ النَّاس. ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، فهم يرون حركة النَّاس، فإذا أعانوا إنساناً وأخبروه، ظن النَّاس أن هذا الإنسان صالح، في الحَقِيقَة إنما هي شَياطينُ تعينُ الإنْسان، وقد كان في عهد شيخ الإسْلَام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ طائفة اسمها البطائحية، وكان زعيمهم يدخلُ النَّار أمامَ النَّاس، تُوقد النَّارُ، فيمشي في النَّار ويخرج منها، فابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَرفَ أن هذا الرجل يدهن بدهن خاص ضد النَّار، فأمام النَّاس قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ اغسل

ما بك من هذا الدواءِ وأدخلُ أنا وأنت النَّار، فامتَنعَ؛ لأنَّه عرَف أنَّه إن غسَل ما به، فسيدخُل ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لإبطالِ عقيدتِه، وأنَّ الله بإذنِه سيعينُه، ولكن ذاك يعلم أنَّه لو مسح ما به من مادة ستأكله النَّار، هذا كان طلاءً يطلي بها بعض النَّاس جسمه يمنع النَّار من أن تصيبه، كذلك الذين يأتون بالدراهم والطعام والشراب، هذه تسرقه الشَّيَاطِين من بيوت النَّاس ومن محلاتهم، وتأتي بها للساحر، فالناس يظنون أنَّ هذا كرامةٌ، وفي الحَقِيقَة هذه ليست كرامةً بل اعتداءٌ علىٰ أموال النَّاس عن طريق الشَّيَاطِين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه، وقد يكون ذلك بنوع طِيَرَةً يجدها الإِنْسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر، وقد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك استدراجًا، والأحوال الشَّيطَانية كثيرة.



الأمورُ الخارجةُ عن نطاقِ الحسِّ كثيرةٌ، قد تأتي عن طريقِ دراساتٍ، وقد تأتي عن طريق شَياطِين، كما يُذكرُ الآن عن التَّنويمِ المغناطِيسي، ما يُسمُّونَه بالإيحاءِ الذَّاتي ، هذا فنٌ جديد ظهر في الغرب، وهو أنَّ الإنسانَ يستطيعُ أن يتحكَّم في مشاعرِ الذي أمامه، فيحكُمه أو يُوجِّه لعملٍ ما، ويذكر وحيدُ الدِّين خان في كتابِ (الإسلامُ يتَحدَّى) يقول: هناك قصةٌ وقعت أنَّ أشخَاصًا كانوا في بعض العِمارات، فكان الُمذيع يتكلَّم في الإذاعة، فقال أحدُ الذين في هذه العِمارة: أستطيعُ أن أجعلَه يتكلَّم باسم الغرفةِ التي نحن فيها، فإذا بهذا المذيع يُعلنُ الغرفةَ التي فيها هؤلاء الأَشْخَاص الجالسون، فقالوا: أنَّه تكلَّم بكلامٍ لعله سِحرٌ والله أعلم، فهذه إمَّا أن تكون دراسةً جديدة لطرُق السِّحْر؛ لأنَّ النَّفْس البَشَريةَ لها قواعدُ ولها سُننٌ، ولها تَأثُّرات، ولها مُؤثِّرات، التَّنويمُ المُغناطِيسي ينوِّم شَخْصًا ويسألُ فيجيبُ عن حوادثَ بعيدةٍ جداً، كذلك ما يُسمُّونه بتحضيرِ الأرواحِ، هذه شَياطِين وليست حقيقةً أرواحًا، ، هذه كلُها من الأشْيَاء التي قد تحدث من الشَّخص ولا يدُلُّ على أنَّه وليُ الله، بل يكون من أكبر الدَّجَّالِين الأفَّاكين . ميزانُ التقوى والولايةِ: الاستقامةُ، كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:" لو طار في الهواء، أو سارَ على الماء فلا تنخدع به حتى ترى عملَه " أي: سلُوكه في تدينه، فالفرق بين هذه الحيل الشَّيطَانية وبين ولايةِ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الاستقامةُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

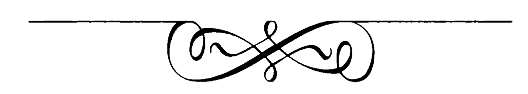
وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه، فاعتصم به وحده لا إله إلا هو، فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، فذكر تعالىٰ أن أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون، ولم يشترط أن يجري علىٰ أيديهم شيء من خوارق العادة، فدل أن الشَّخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر علىٰ يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمنًا متقيًا، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

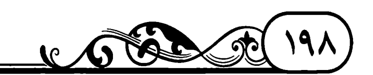
فأولياء الله المحبوبون عند الله هـم المتبعـون للرسـول ﷺ باطنـًا وظاهراً، ومن كان بخلاف هـذا فليس بمؤمن فضـلاً عـن أن يكون وليـاً لله تعـالىٰ، وإنمـا أحبهم الله تعالىٰ لأنَّهم والوه، فأحبوا مـا يحـب وأبغضـوا مـا يبغض ورضـوا بمـا يرضىٰ وسخطوا ما يسخط وأمروا بما يأمر ونهوا عما ينهىٰ وأعطوا من يجب أن يعطىٰ ومنعوا من يجب أن يمنع، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العـداوة البغض والبعد.

الشَّرح

هنا الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ استطرد في قضيةِ الولايةِ والشَّعوذةِ؛ لأنَّ هذا يقعُ في بلاد المُسْلِمين كثيراً، فكم من شَخْص يُظنُّ أنَّه من أولياء الله وهو من كبارِ السِّحْرةِ والدَّجَّالين ويخدعُ النَّاس ويبتزُّ أموالَهم، ويزعُمُ أنَّه يعلمُ الغَيْب ويساعدُ النَّاس، فلابد أن يكون هناك ميزانٌ، والميزانُ هو ما في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَآ

﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس:٦٢، ٦٣] أي: متقون في سلوكِهم يسارعون إلىٰ الواجبات، فيؤدُّون ما افترض اللهُ عليهم من فرائضَ، ويمتنعون عن أكلِ أموال النَّاس؛ لأنَّ السَّاحِر لا يسحرُ إلا إذا أراد أن يَبتَزَّ أموالَ النَّاس، فالذي يَمدُّ يدَه لأموال النَّاس عن غير استحقاقٍ هو كاذبٌ في دعوتِه، وصاحبُ حيلٍ وشعوذةٍ، فينبغي أن لا ننخدع بأمثال هؤلاء، وفي الحَقِيقَة كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد لا يكونون مُسْلِمين أصلاً حتىٰ يكونوا من أولياءِ الله عَزَّ وَجَلَّ .



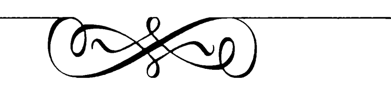


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبالجملة فأولياء الله هم أحبابه المتقربون اليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئًا وإن لم تجر على أيديهم خوارق، فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله فلتكن دليلاً على ولاية السَّاحِر والكاهن والمنجم والمتفرس ورهبان اليَهُود والنصارى وعباد الأصنام، فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف، ولكن هي من قبل الشَّيَاطِين، فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم في الأفعال والأقوال، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦] وقد طارت الشَّيَاطِين بِبَعْضٍ من ينتسب إلى الولاية، فقال: لا إله إلا الله فسقط.

الشَّرح

هنا يُؤكِّد على أنَّ علامةَ الإيمان التَّقوى والصلاحُ، ويذكر أنَّ الشَّيَاطِين قد تنقل الإِنْسان من مكان إلى مكانٍ، ولا تظهرُ الشَّيَاطِين إلا في البلدانِ والمُجتمعاتِ التي ليس فيها العِلْم الشَّرْعِي، أما إذا ظهر العِلْم الشَّرْعِي فتختفي كل هذه المظاهر، إنما النَّاس تحركُهم عواطفُهم الدِّينيةُ وليس العِلْمُ ، وكل مُجتمعٍ فيه جهلٌ بالعلم الشَّرْعِي ترى من هذه الأنواع أموراً كثيرةً، فالمسلم ينبغي أن يحرِصَ على أن لا ينخدعَ بأمثال هؤلاء الذين تتنزل عليهم الشَّيَاطِين؛ لأن الشَّيَاطِين تتنزلُ على هؤلاء وتعينُهم، وتساعدُهم وتقضِي حوائجَهم؛ لأنَّهم أشركوا مَعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيره.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وتجد عمدة كثير من النَّاس في اعتقادهم الولاية في شَخْص أَنَّه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة. مثل أن يشير إلىٰ شَخْص فيموت، أو يطير في الهواء إلىٰ مكة أو غيرها أحيانًا، أو يمشي علىٰ الماء، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو يخبر في بعض الأوقات بشيء من الغَيْب، أو يختفي أحيانًا عن أعين النَّاس، أو يخبر بعض النَّاس بما سرق له، أو بحال غائب أو مريض، أو أن بعض النَّاس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء فقضىٰ حاجته، أو نحو ذلك، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل علىٰ أن صاحبها مسلم فضلاً من أن يكون ولياً لله، بل قد اتفق أولياء الله علىٰ أن الرجل لو طار في الهواء ومشىٰ علىٰ الماء لم يغتر به حتىٰ ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.



الشَّرح

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ استفتح هذا البابَ بحديث عن الكَرَامَة والسحر؛ لأنَّه قد يختلط علىٰ النَّاس السِّحْر بالكرامَةِ. الكَرَامَةُ هي الأمرُ الخارقُ للعادة الذي يجريه الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ يدِ بعضِ أوليائه، والنَّاس عندما يرون بعضَ خوارقِ العادات تجري علىٰ يدي بعضِ النَّاس ربما يعتقدون أنَّه من أولياءِ الله ولو كان من أخبثِ الخلقِ، لا ينظرون إلىٰ سلوكِه ولا إلىٰ حياتِه، وإنَّما ينظُرون إلىٰ ما يَجري علىٰ يَديهِ.

فالشارح رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنَّ ما يخرقُ العادةَ نوعان، نوع محمود يجري علىٰ يدي الصَّالِح، ونوع مَذْمُوم يجري علىٰ يدي السَّاحِر والكاهنِ، وما يجري

علىٰ يدي السَّاحِر ليس كراماتٍ، قال: نُفرِّقُ بين السَّاحِر والصالحِ الوَلِي عن طريقِ السلوك، سلوكُ الإِنْسانُ يدلُّ هل هذا الشَّخص من أولياءِ الله الصَّالِحين، أو أنَّه ممن تتنزلُ عليه الشَّيَاطِين، فالذي يكون من الصَّالِحين بأن يواظبَ علىٰ صلاة الجماعةِ في بيوت الله ﷻ ويستعف عن أكل الحرام، ويَترفَّعُ عن الفواحشِ والآثامِ، ولا نرىٰ في سلوكه إلا ما أمرَ به الإِسْلَام، فهذا ما يَجرِي علىٰ يديه يكون من كراماتِ الصَّالِحينَ، أمَّا الذي يكون بالعكس بأن يَتكسَّب بما يجري علىٰ أيديه ويستغلُّ أتباعَه، ويتظاهرُ بالصلاح وهو كاذبٌ، فلا يواظبُ علىٰ صلاةِ الجَّماعة، ولا يستعفُّ عن أكل الحرام، ويبتزُّ ما في أيدي أتباعِه بكل أنواع الابتزاز؛ فهو من السحرةِ الكاذبين.

ويُوجَد هؤلاء اليومَ في العالم الإِسْلَامي، وكلما اختفت أنوارُ الشَّرِيعَة ظهر هذا النَّوْعُ من الدَّجَّالِين، فيسخرُون بالناس ويأكلون أموالَهم، ويتظاهرون بالصَّلاح، ومن تأمَّل سيرتَهم عرفَ أنَّهم كاذبون؛ لأنَّ سُلوكَهم لا يدلُّ علىٰ صلاحِهم، وما يجري علىٰ أيديهم إنَّما هو سحرٌ أو كَهانةٌ وليس كَرامةً، فإنَّ خرقَ العادة يجري علىٰ يد السَّاحِر الذي يستعينُ بالشياطين، فإنَّ الشَّيَاطِينَ تُعينُ من يتقرَّب إليها ويستعينُ بها، فتخبرُه بِبَعْضِ الغائبات، وتجلُب له بعض الأطعمةِ من أماكنَ مُتفرقةٍ، وتخبرُه عمَّا يُوْجَدُ من أحداثٍ، وربما يطيرُ في الهواء أمَام النَّاس، وربما يختفي عن بعضِ العُيون أحيانًا، ذلك كلُّه ليس كرامةً، تلك أفعال السِّحْرةِ الذين يستغلونَ ضعفَ النَّاس وجهلَهم، ويتظاهرون بالصلاحِ ليكسبوا المال من أتباعهم، فهؤلاء سحرةٌ كاذبون، فلا ينبغي للمسلمِ أن ينخدعَ بل يُفرِّق بين كرامةِ الصَّالِحين، وبين كهانةِ الدَّجَّالِين، فهذه المقدمة كلها كتبها الشَّارِحُ ﵀ للإشارة إلىٰ هذه المسألة التي تخفىٰ علىٰ كثير من المُسْلِمين ليبين لهم وليحذروا هذا النَّوْعُ من النَّاس.

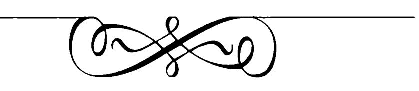
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها وليـًا لله وقـد يكـون عـدواً لـه، فإنهـا قـد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارىٰ والمنـافقين وأهـل البِـدَع، وتكون لهؤلاء من قبل الشَّيَاطِين أو تكون استدراجًا، فـلا يجـوز أن يظـن أن كـل من كـان لـه شـيء مـن هـذه الأمـور فهـو ولـي لله، بـل يعـرف أوليـاء الله بصـفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة.



الشَّـرْح

قوله: (قد تجري علىٰ يدي عـدو الله) قـد يظهـر علـىٰ يـدي عـدوِ الله خـارقُ العادات، ومن ذلك ما يجري علىٰ يـدي الـدَّجَّال، فإنـه يجـري علـي يديـه مـن الأمور الغريبـةِ الخارقـةِ للعـادةِ مـا لـم يُعـرَف مـن قبـل، فإنَّـه يُشيرُ إلـىٰ السَّـمَاء فتمطرَ، ويشيرُ إلىٰ الأرض فتنبتَ، ويـدخلُ المكـان الخَـرِبَ فيُشـير إلـىٰ مـا فيـه فتخرجُ الكنوزُ التي في داخله، فهذه كلُها خوارقُ للعـادة أي: خارجـةٌ عـن طاقـة الإِنْسان، فعنـدما يُجـرِي اللهُ هـذا الأمـرَ علـىٰ يـدي الـدَّجَّال دَلَّ علـىٰ أنَّ جريانَـه ليس علامةً علىٰ الصلاحِ وكرامةً لصاحبِ هـذا الأمـر، فـلا ينبغـي لنـا أن نقيسُ الإِنْسانَ بما يجري علىٰ يديه حتىٰ ننظـرَ إلـىٰ أفعالـه وسـلوكِه ومتابعتـه للكتـاب والسُّنَّة، عندئذ نعرف أنَّه إنسانٌ صالح أو بخلاف ذلك.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأكثر هذه الأمور قد تُوجد في أشخَاصٍ يكون أحدُهم لا يتوضَّأ ولا يُصلي المكتوبةَ، ولا يَتنظَّفُ ولا يتطهرُ الطَّهَارة الشَّرْعِية، بل يكون مُلابِسًا للنَّجاسات مَعَاشِراً للكِلاب، يَأوي إلىٰ المَزابلِ، رائحتُه خبيثةٌ، رَكَّابًا للفواحشِ، يمشي في الأسواقِ كاشفًا لعورته غَامزاً للشرع مُستهزئًا به وبحَملتِه، يأكلُ العقاربَ والخبائثَ التي تُحبُّها الشَّيَاطِينُ، كافراً بالله ساجداً لغير الله من القبور وغيرها، يكره سماع القُرْآن وينفر منه، ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشَّيطَان علىٰ كلام الرحمن، فلو جرىٰ علىٰ يدي شَخْص من الخوارق ماذا عساه أن يجري فلا يكون ولياً لله محبوبًا عنده حتىٰ يكون متبعًا لرسوله ﷺ باطنًا وظاهراً.

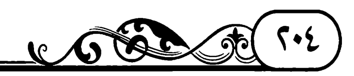
الشَّرح

في كثير من بلاد المُسْلِمين نماذج من هذه الأوصاف التي ذكرها الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ، أن الإِنْسان يلبس الثياب القديمةَ، ولا يتنظفُ في جسمه، و يعيش في أماكنِ القاذورات، ونرىٰ الذُّباب عليه أكوامًا، ويأنس بالغِناء والمزامِير وينفر من قراءة القُرْآن، ومع ذلك يصفونه بأنَّه من أولياءِ الله ويتقرَّبون إليه بالدَّعاء، ويأتون إليه بأطفالِهم يُبرِّكُ عليهم، هذا جهلٌ بدين الله عَزَّ وَجَلَّ، فليس هذا من صفاتِ الأولياءِ، الوساخةُ والقذارةُ ليست من دين الله، وسيدُ الأولياء نبيُّنَا ﷺ نموذجٌ، فننظر في حاله ﷺ، فكلما كان حالُ الإِنْسان قريبًا من حالِ رَسُول الله ﷺ كان وليًا لله، أمَّا الذي يكون حالُه مُخالِفًا لحالِ رَسُول الله ﷺ فليس من أولياء الله؛ لأنَّه النموذجُ الكامُل والقدوةُ الحسنةُ كما قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ

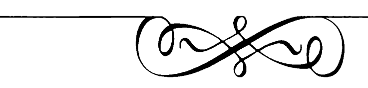
لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١]، فأسوتُنا رَسُول الله ﷺ، فكل وصف أو حال أو سُلوك يخالفُ وصف رَسُول الله ﷺ، أو حالَه أو سلوكَه فهو مردودٌ ليس مقبولاً، فهذا هو المقياس الشَّرْعِي، ولو كان المُسْلِمونَ يقيسون هذه الأشْيَاء علىٰ هذا الميزان ما انخدعوا.

وفي بعض بلدان العالم الإِسْلَامي غرائبُ، في بعضها تراهم يجتمعون علىٰ هذا الذي يزعمون أنَّه وليٌ وهو في حالٍ من الرَّقص وتِردَادِ بعضِ الكلماتِ، ثُمَّ تراه يرقص في داخِلِهم ويضعُ السكين في بطنِه! من أين لكم أنَّ هذا الشيءَ كرامةٌ؟ ! هل كان يفعل هذا أحدٌ من سَلفِ الأُمَّة؟ لكن النَّاسُ ينخدعون إذا رأوا هذه الصُّوَر، فيرون أن هذه من الكرَاماتِ، وهكذا يبتز أموال النَّاس ويسخر بعقولهم، والإسلامُ جاء ليُحصِّن العقلَ البَشَري، وليس في جميع الأديان ما يُحصِّنُ العقلَ البَشَريَ كما في دين الإِسْلَام، يُحذِّر الإِنْسانَ من أن يَذلَّ لغير الله ، ومن كل من يريد إهانتَه، وأن يستخفَّه ويسخرُ بعقله من الكَهَانَة والسحرِ والشَّعوذةِ والتَّطَيُّر، وغيره من الأشْيَاء التي تُسفِّه عقلَ الإِنْسان.

فالمسلم عندما يؤمنُ بالغيب ويعترف بالأشياء الغَيْبيةِ، ليس مَعناه أنَّه يؤمن بالخُرافات؛ لأنَّ الإيمانُ بالغيب يقومُ علىٰ الكتاب وعلىٰ ما صح من السُّنَّة، لا نصدق إلا إذا صحَّ، ولا نذل لمخلوق، ولا نتقرَّب لمخلوق، فهذه هي العبادةُ، هذه العبادةُ تكريمٌ للإنسان، أمَّا الإِنْسان إذا انفلت من دين الله ذلَّ للمخلوق، وخضع له وتقرَّب إليه وانحنىٰ له، وهذا فيه إهانةٌ لكرامة الإِنْسان، فالإسلام يُعلِي من شأن الإِنسان ويُكرِّمه، وإذا أبىٰ الإِنْسانُ إلا أن يَذلَ يكونُ هذا باختياره، لا أنَّ الإِسْلَام أمَره بذلك أو حثَّه عليه، الإِنْسانُ الصَّالِحُ نحبُّه لصلاحِه، ليس له علينا حقوقٌ أخرىٰ إلا المحبَّة، والتقرَّب إلىٰ الله بمحبته، أما



أن نذلَّ له ونضعَ له في أموالنا جبايةً ونصيباً، ويفرض علىٰ الإِنْسان في ماله للشيخِ وللطائفة، هذه أمور مُبتدِعةٌ ليس عليها دليل، فطوائف التَّصوفِ، وطوائف الروافضِ قد أذلوا الإِنْسان بما سمُّوه بالإمامِ وحقِّ الإمامِ، وبما سمُّوه بالولي وحقَّ الوَلِي، وهذه ليست من الإِسْلَام، نحبُّ الصَّالِحَ، ونحبُّ الأولياءَ، ونتقرَّب إلىٰ الله بحبهم، ونُثني عليهم إذا كانوا صالِحين لصلاحِهم، أمَّا ما عدا ذلك مما يصل إلىٰ درجةٍ أن ننخلعَ من كرامتنا، وأن نذلَّ له ونخضعَ له ونتقرَّبُ بالمال إليه لينظر إلينا أو يُغيُثنا أو يُعيننُا، كلُ هذا إذلالٌ للإنسان لا يرضاه الله ﷻ، فأرادَ الشَّارِحُ رحمه الله أن يُبين أنَّه يُوْجَدُ في بلادِ المُسْلِمين وفي غيرها أشخَاصٌ يدَّعون الوِلايةَ والصلاحَ ويُظهِرون أعمالاً هي سحرٌ وكَهانَةٌ يُظَنُّ أنَّها كَرامةٌ من الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قلت: فعلىٰ هذا ما الفرق بين الكَرَامَة وبين الاستدراج والأحوال الشَّيطَانية؟ قيل: إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق؛ لأنَّه إذا كان الشَّخص مخالفًا للشرع فما يجري له من هذه الأمور ليس بكرامة، بل هي إما استدراج وإما من عمل الشَّيَاطِين، ويكون سببها هو ارتكاب ما نهىٰ الله عنه ورسوله ﷺ، فإن المعاصي لا تكون سببًا لكرامة الله ولا يستعان بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القُرْآن والدعاء، بل تحصل بما تحبه الشَّيَاطِين كالاستغاثة بغير الله، أو كانت مما يستعان بها علىٰ ظلم الخلق وفعل الفواحش فهي من الأحوال الشَّيطَانية لا من الكرامات الرحمانية، وكلما كان الإِنْسان أبعد عن الكتاب والسنة كانت الخوارق الشَّيطَانية له أقوىٰ وأكثر من غيره، فإن الجِنّ الذين يقترنون بالإنس من جنسهم، فإن كان كافراً ووافقهم علىٰ ما يختارونه من الكفر والفسوق والضلال والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه وللسجود لهم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة فعلوا مَعَه كثيراً مما يشتهيه بسبب ما برطلهم به من الكفر، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة وصبي، بخلاف الكَرَامَة فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له والتمسك بكتابه واجتناب المحرمات، فما يجري من هذا الضرب فهو كرامة.

الشَّرح

هذه كلها إشاراتٌ للفرق بين الكَرَامَة والسحرِ، أو الشَّعوَذَة، والذي يُبين هو سلوكُ الإِنْسانِ، هل سلوكُه مُستقيمٌ؟ هل يُحافظُ علىٰ الفرائضِ؟ هل يتعفَّفَ ويتورَّعُ عن الحرامِ؟، أم أنَّه يأكل الحرامَ ويستغل الأتباعَ ويستعينُ بما ظهر علىٰ يديه لظلمِ النَّاس، هذه كلُّها علاماتٌ يُستدلُّ بها علىٰ صلاح الإِنْسانَ

من عدمهِ، والإنسان يعجب عندما يسمع هذه الأشْيَاء ولا يراها في مُجتمعه. المُجْتَمَع الذي تكثُرُ فيه وترتفعُ فيه علومُالشَّرِيعَة تختفي هذه الأحوالُ، لكن كلما ضُعف علمُ الشرعِ في بلدٍ كَثرت هذه الأحوال الشَّيطَانية،لاسيما شِعارُ الأذان، فإن الأذان يطرُدُ الشَّيَاطِين، وإقامةُ الصلواتِ المفروضةِ بإذن الله تحفظ المُجْتَمَع، فإذا قلَّت صلاةُ الجماعة في مُجتمع وقلَّ صوت الأذَان، فإنَّ الشَّيَاطِين تأتي بهذه الأنواعِ التي يراها الإِنْسانُ علىٰ أيدي من يَدَّعِي الصلاحَ أو الكَرَامَةَ، لكن المُجْتَمَعات التي فيها علمُ الشرعِ يكون واضحًا ومرتفعًا، وتُقامُ الصلواتُ الخمسُ في بيوتِ الله، وتَكثُرُ قراءةُ النَّاسِ للقرآن فإنَّ الشَّيَاطِين تهرُب وتَقلُّ هذه المَظاهرُ الشِّرْكيةُ، لكن كلما خفَتَ نورُ الشَّرِيعَة ظهرت هذه الأحوالُ الشَّيطَانيةُ، كعقابٍ لأفراد المُجْتَمَع لعدمِ وجودِ ما يحفظُهم من ذكرِ الله سبحانه وتعالى.

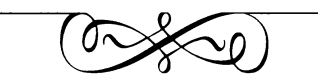


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد اتفق علىٰ هذا الفرق جميع العُلَمَاء، وبالجملة فإن عرفت الأسباب التي بها تنال ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنَّه م أهل الكَرَامَة، وإن كنت ممن يسمع بالأولياء فهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها بل يميل مَعَ كل ناعق وساحر ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١]، ولشيخ الإِسْلَام كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشَّيطَان فراجعه، فإنه أتىٰ فيه بالحق المبين.

الشَّرح

هذا الكتاب أَلَّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيانِ الفرقِ بين أولياءِ الشَّيطَان وأولياءِ الرحمنِ؛ لأنَّه في عصره قد خَفَتَ نورُ الشَّرِيعَة في كثير من بلاد العالَم الإِسْلَامي وظهرت هذه الأنواع، وظهر التصوفُ إلىٰ درجةٍ كبيرةٍ، حتىٰ أصبح لهم في كل مكانٍ زاوية، ولكل قومٍ طريقةٌ، وكانوا يَستعينون بالِّسحرِ، ويزعمون أنَّ هذا من علاماتِ الصلاح، فألَّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتابَ ليُبينَ أن الوِلايةَ نوعان: ولايةٌ شيطانيةٌ، وولاية رحمانيةٌ، اسم هذا الكتاب: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشَّيطَان)، أي: ما يُفرِّقُ به، ما يدُلُّنا علىٰ أنَّ هذا من أولياء الله أو من أولياء الشَّيطَان، فهذا الكتاب في هذا الباب قد استوعب جوانبه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قال أحمد حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف ثنا حبان بن العلاء وثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه أنَّه سمع النَّبِي ﷺ قال: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال العوف: العيافة زجر الطَّيْر والطرق الخط يخط في الأرض، والجبت: قال الحسن رنة الشَّيطَان. إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صَحِيْحه المسند منه.

ش قوله: (قال أحمد)، هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، و (محمد بن جعفر) هو المشهور بغندر الهذلي البصري ثقة مشهور ثبت في شعبة حتىٰ فضله علي بن المديني فيه علىٰ عبدالرحمن بن مهدي بل أقر له ابن مهدي بذلك، مات سنة ست ومائتين، و(عوف) هو ابن أبي جميلة بفتح الجيم العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة، مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائة وله ست وثمانون سنة، و(حبان بن العلاء) هو بالتحية ويقال حيان بن مخارق أبو العلاء البصري مقبول و(قطن) بفتحتين أبو سهلة البصري صدوق.

الشَّـرح

هذا الحَدِيث ضعَّفه الشيخُ الألباني في تخريجه لرياض الصَّالِحين، وحبَّان هذا مجهول لم يوثقه غير ابن حِبَّان، ولكن في الحاشية يقول: إنَّ سندَه محُتملٌ للتَّحسين، ونرىٰ أنَّ حبَّانَ بنَ العلاء لم يَرو عنه إلا شَخْص واحدٌ، فهو مَجهولُ العينِ، ولم يُوثِّقه إلا ابنُ حبَّان، وهو مَجهول الحال، أي إذا جهله جميع العُلَمَاء وخفي أمره علىٰ النقاد والمحدثين ولم يعرفه إلا من عرف بالتساهل كابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه يكون مجهولاً.

قد يُذكرُ شَخْص في كتابِ الثِّقات؛ فليس هذا مَعَناه أنَّه ثِقَة، بل قد يذكر اسمَه في هذا الكتاب، ويَكتفي رَحِمَهُ اللَّهُ بذكر اسمِه في كتابِه، لكن لا يعرِف حالَه، فإذا كان مجهولَ العَينِ كيف يُعرَف حالُه هل هو عدلٌ ضابطٌ أم لا؟؛ لأنَّ مَعَنىٰ الثِّقة يَضُمُّ وصفين : العدلُ الضَّابطُ، العدلُ أي: المُستقيمُ في أخلاقِه ودينِه، لا يكذبُ ولا يقعُ في الفواحشِ ويحافظ علىٰ فرائضِ الإِسْلَام، والضَّبطُ أي: أنَّه يَنقِلُ ما حفظَه فلا يَخرِمُ منه شيئًا ولا يَهِي إلا أَوْهَامًا يسيرةً، قال العُلَمَاءُ: ما من إنسان إلا وعنده أَوْهَام، لكن الوهمُ الكثير هو الذي يُسقِطُ الرَّاوِي، والوهمُ اليسيرُ لا يخلو منه إنسانٌ، فمثل هذا الذي لا يُعرَف حالُه كيف يُوثَّق إذا لم يَروِ عنه إلا شَخْص واحدٌ؟، فالتوثيقُ يكون فيه تساهلٌ ممن يوثقهُ مِن أمثالِ هذا الشَّخصِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن أبيه) هو قبيصة بفتح أوله وكسر الموحدة ابن المخارق بضم الميم وتخفيف المعجمة أبو عبدالله الهلالي صَحَابِيٌّ نزل البصرة.

قوله: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت، قال عوف: العيافة زجر الطَّيْر) هذا التفسير ذكره غير واحد كما قال عوف وهو كذلك، قال أبو السعادات: العيافة زجر الطَّيْر والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب كثيراً، وهو كثير في أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن.

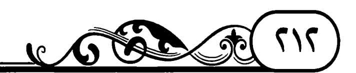
الشَّرْح

العيافة نوعان، النَّوْعُ الأول: زَجرُ الطَّيْر، وهو ما ذكره عوف بن أبي جميلة الأعرابي وهو من عُلماء الُّلغَة وكان مُحدِّثًا أيضًا، وكذلك ذكَرها أبو السعادات ابن الأثير كما ذكرَ مَعنىٰ زجرَ الطَّير: أن يأتيَ الإنسانُ إلىٰ الطائرِ في عِشِّه ثُمَّ يُثيرُه، لقضيةٍ يذكُرُها، مثلاً يريد أن يسافرَ أو يتاجر أو يعمل عملاً، أو شَخْص قال له: أريد أن أتزوجَ من فلانة، أو أسافرَ لغرض كذا، أو أتاجرَ في كذا، فَيزجرَه، فإن ذهب هذا الطائرُ يميناً تفاءل،َ وإن ذهب شمالاً تشاءمَ منه، مَن الذي أدرَىٰ الطَّيْر؟ الطَّير يُوضعُ له الحَبُّ في المصيدةِ، فينزل يأكلُها ولا يدري، فإذا به في داخل المَصيدةِ، لو كان يعلمُ الغَيْب ما دخلَ في المصيدةِ. فالطيرُ لا يعرفُ حالَه، لكن هكذا هذه النَّوْعُية من النَّاس تستغلُّ حاجةَ صاحبِ الحاجةِ، صاحبُ الحاجةِ مثلُ الأعمَىٰ يتمسَّك بأي شيءٍ، الإنْسان إذا مرضَ يضعفُ ضعفاً شديداً حتىٰ إذا كان من كِبارِ الصَّالِحين،و قد يَرضىٰ أن يتعالجَ بما هو شِرْك لله ﷻ؛ لأنَّه يضعفُ في اتخاذ القرارِ، ولو دُعي لحلِّ مُصيبتهِ بأمرٍ

يكون فيه نقصٌ في دينه لرضيَ، هؤلاء يستغلُّون ضعفَ الإنْسان، فيأتون بهذه الأوهامِ الكاذبةِ.

النوع الثاني: قَصُّ الأثَرِ، أو النَّظرُ في صفات الإنْسان للحكُم بأنَّ فلانـًا ابنَه، هذا يُسمَّىٰ عائفًا، العائفُ هو الذي يَتَّبِعُ الأثَرَ، ولهذا ذكره في آخر التعريف: (إذا زجر وحدس وظن)، هذه كلها ظُنون قد تُصيب مرة وتخطئ مرات، لكن النَّاس لا يحفظون من السيئين إلا ما أصابُوا فيه، ولا يحفظون من الصَّالِحين إلا ما أخطَئوا فيه، الإِنْسان الصَّالِح لو أخطأ مرةً واحدةً في القرية النَّاس لا يَنسون له هذا الخطأَ ولو كان له ألفَ حسنةٍ، والإنسان السَّيءُ لو أحسنَ مرةً واحدةً يحفظونَها له ولو أساء عشراتُ المرَّات.

هذا النَّوْعُ من الكُهَّان أو العَرَّافين يصدُق مرةً واحدة، جاءت مُوافِقةً، كما سبق أن شَخْصـًا كان في البَحْر، فهبت ريحٌ شديدةٌ علىٰ السفينةِ، فانزعجَ النَّاسُ الذين في السفينة وخافوا وقاموا كلُّهم وكان هذا الشَّخص جالسـًا ولم يقُم، وعليه ثيابُ الوقارُ والولايةُ، فسألوه، لماذا لم تخف؟ قال: لا تخافوا، فإنَّكم ناجون وستخرجون منها بسلام، نجوا وخرجوا، قاموا وقبلوا رأسَ الشيخِ، بعضُهم يعطيه دراهمَ، وبعضُهم يعطيه ملابسَ، بعضهم يقول: ادعُ لنا يا شيخ؛ لأنَّهم ظنوا أنَّه من أولياء الله إلا واحداً ممن يعرفه، قال: أنا أعرف أنَّك كذابٌ، قال: كيف عرفت؟ قال:إن نجونا قلنا إنَّك وليُّنا، وإن مِتنا مَن الذي يُعلِم النَّاس؟!، فإمَّا أن ينجُوا، وإمَّا أن يهلكوا، فإن هلكوا مَن الذي يحاسبُه؟، وإن نجَوا أصبحت هذه له كرامةً، وهكذا يستغل بعض الأَشْخَاص سذاجةَ النَّاس، كما قال بعض الأخوة في بعض البلدان الإسْلَامية: كان هناك شَخْص يَدَّعي الولايةَ كاذبـًا، وعنده أتباعٌ عجيبون، قال: يخرجون أحيانـًا إلىٰ منتزه من المنتزهات، فيبعث طلابَه في الصباحِ الباكر ليدفنوا كراتين الفاكهةِ في محلٍّ مَعَين، وإذا جاءوا إليها في العصرِ يُشير إلىٰ المكان الذي دفنَ فيه الفاكهةَ، ثُمَّ



يتحلَّقون ويقول الشيخ: اطلبوا ما تريدونَ من الفاكهةِ، فيقول الذي يعلمُ: نريـدُ مَوزاً، فيقول: أغمضوا أعينكم، فيغمضون أعينَهم، فيبحث في المكـان، فيُخـرج لهـم كرتـون المـوز، مـرةً تفـاح، مـرةً برتقـال، وهكـذا حسـب مـا يُـدفن، أحـدُ الطلاب تفطَّن أنَّ الأمرَ فيه حيلةٌ، فذهب قبل الفجر في المكان الـذي يخرجـون فيه من بعيد، فرأىٰ مجموعة من الأَشْخَاص جاءوا في سيارةٍ، ودفنوا في مكـان مَعَين فاكهةً، وبقي حتىٰ ذهبـوا وجـاء وأخرجهـا وردمَ الحُفـرة وأخـذَ الفاكهـة ، وجـاءوا في العصـر، بحثـوا كالعـادة لكـن مـا وجـدوا، قـال: افتحـوا أعيـنكم، ففتحوا، قالوا: أين يا شيخ؟ قال: فيكم واحدٌ عـاصٍ لله، وهـذه المعصيةُ شُؤم، حرمتنا من بركةٍ هذا اللقاء، يقول هذا الأخُ: إنَّ هذا الشيخ يومـاً مـن الأيـام كـان ماشيـاً بالسيارة فصُدم، ونـزل وهـو فاقـدٌ وعيَـه، يبـدو أنَّـه كـان قـد شـرِب شيئـاً مُخدراً، لعله يتعـاطىٰ الأفيـون، فالشـرطة قبضـت عليـه، وذهبـوا بـه المستشـفىٰ للكشف عليـه، مُدير المُستشفىٰ كـان مـن أتباعـه، عنـدما رآه هَـرع سـريعـاً إلـىٰ الشـرطة، وفكَّـه مـن أيـديهم، وقـال: لمـاذا جئـتم بهـذا الشَّـخص، قـالوا : هـذا الشَّخص عمل حادثـاً، وسألناه، قال: كنـتُ أُصـلي في الحـرمِ عنـدما أمسكُوني، أي :لم يكن موجوداً مَعَهـم، إنَّمـا كـان بصـورته، وحقيقتـه هنـاك، فالسيارة لـم تعـرف الطريـق، فقـالوا : هـذا سـكران، وقـال : لا،دعـوه، قـال: أيـن صـاحب السيارة؟ وكم قيمتها؟ قُدرت بكـذا وأعطـىٰ المـديرُ شيكـاً وأخـرج الشيخ مـن هذه الورطة!!.

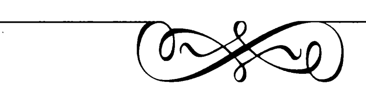
سـبحان الله الإنسـانُ لديـه اسـتعداد أن يعبـدَ البقـرة، فمـا بالـك بـأن يقتنـعَ الإِنْسـانُ أنَّـه مـن أوليـاء الله؟!، الإِنْسـان طبيعتـه قابلـةٌ، **(كـل مولـود يولـد علـىٰ الفطـرة فـأبواه يهودانـه، أو ينصـرانه، أو يمجسـانه)**[1] أي: الإِنْسـان قابـلٌ لكـل

---

(١) سبق تخريجه.

شيء، هذا غاندي في الهند أكبر سياسي في عصره يقول: إنني أعبدُ البقرةَ، سأظلُ أدافع عن عبادتها، وقال: إنَّ أميَ البقرةَ خيرٌ من أمي الحَقِيقَة، قال: أمي الحَقِيقَة تلدُني مرةً واحدةً، وتبقى تطالبُني بالطعام والكساء والشراب والمنتزهَات والُحلي والذَّهب إلى غيره، فأُمي البقرةُ تعطيني طوالَ حياتي الحليب واللبن، والقشدةَ، والزبدَ ولا تطالبني يوماً من الأيام بالتنزهِ! فالعقل البَشَري كيف انحطَّ، فالعقل قابلٌ أن يُصَدِّق ويقتنعُ أنَّ هذا من أولياء الله بحسبِ ما يُغرسُ في ذِهنِه.

ففي العيافةِ زجرُ الطَّيْر، الطَّير لا يدرك ولا يعقلُ، والذي يرىٰ في حركة الطَّيْر علامةً علىٰ الخَيْر والشرِ إنسانٌ جاهلٌ، كيف أنت العاقل لا تستطيع أن تعرف، فكيف هذا الطائرُ الأعجم الذي ليس له عقلٌ ولا تفكيرٌ ولا تدبيرٌ يعرف نتيجةَ ما ستفعله من الغَيْب الذي لا يعلمُه إلا الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (والطـرق الخـط يخـط في الأرض) هكـذا فسـره عـوف، وهـو تفسـير صَحِيْح، وقال أبو السعادات: هو الضـرب بالحصىٰ الـذي يفعلـه النسـاء، قلـت: وأيا ما كان فهو من الجبت، وأما الطِّيْرة فسيأتي الكلام عليهـا في بابهـا إن شـاء الله تعالىٰ.

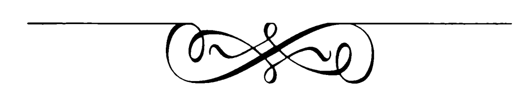
قوله: (من الجبت) أي من أعمال السِّحْر، قال القاضي: والجبـت في الأصـل الفشل الذي لا خير فيـه، ثُـمَّ استعير لمـا يعبـد مـن دون الله وللسـاحر والسـحر، وقال الطيبي: من فيه إما ابتدائية أو تبعيضية، فعلىٰ الأول المعنىٰ الطِّيْرة ناشئة مـن السَّاحِر، وعلىٰ الثـاني المعنىٰ الطِّيْـرة مـن جملـة السِّـحْر و الكَهَانَـة أو مـن جملـة عبادة غير الله أي الشِّرْك، يؤيده قوله في الحَدِيث الآتي: الطِّيْرة شِرْك. انتهىٰ

وفي الحَدِيث دليل علىٰ تحريم التَّنْجِيم؛ لأَنَّه إذا كان الخط ونحوه الـذي هـو من فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة؟.

الشَّـرح

الطَّرْقُ وهو الخَطُّ في الأرض وقد يأتي أنَّ نبيـًا من الأنْبِيَاء كان يخطُّ، وهـذا الخطُّ صَحِيْح، لكن الخَطُّ الذي كان يفعله ذلك النَّبِي انـدثر ولـم يبـق لنـا عليـه دليل، وإلا لو بقي لكـان مـن بقايـا النُّبُـوَّة، ربمـا أن الله ﷻ جعـل الخطَّ علامـةً علىٰ نُبوتِه ـ والله أعلم ـ؛ لأنّ الله يُعطي الأنْبِيَاء علاماتٍ، وكان يعطيهم علامـاتٍ حِسيَّةً، أعطىٰ مُوْسَـىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ العصـا، وأعطـىٰ عيسـىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّـه يُحيي المَـوتىٰ، ويُـبرئ الأكمـهَ والأبـرصَ، وأعطـىٰ صـالحـًا عَلَيْهِ السَّلَامُ الناقـةَ، فلعلـه – تعـالىٰ– قـد أعطَىٰ هـذا النَّبِي الخـطَّ دلـيلاً علـىٰ نُبوتـه، فَـيخُطُّ في الأرض بِصـورٍ وأشكالٍ

مَعَينة، فيجيب علىٰ سؤالِ من يسأل عن قضايا غيبيةٍ، ومن وافق خطَّه خطَّ ذلك النَّبي فذلك صَحِيْح كما جاء في الحَدِيث، لكن ذلك الخطُّ قد اندثر، فكلُّ من يخطُّ اليوم فإنَّما يَتَّبِعُ الظنَّ والتخمِينَ، فأصبح هذا الطَّرْقُ نوعًا من أنواع السِّحْرِ. سيأتي إن شاء الله بابٌ في الطِّيَرة، وبابٌ في التَّنْجِيم، وهذه أبوابٌ مستقلة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (قال الحسن: رنة الشَّيطَان) لم أجد فيه كلامـًا.

قوله: (ولأبي داود والنسائي وابـن حبـان في صَـحِيْحه المسـند منه) يعنـي أن هؤلاء رووا الحَدِيث واقتصروا على المرفوع منه، ولم يذكروا التفسير الذي فسره به عوف، وقد رواه أبو داود في التفسير المذكور بدون كلام الحسن، والنسائي: هوالإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبدالرحمن صاحب السُنَنِ وغيرها من المصنفات، روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة بن سعيد وخلق، وكان اليه المنتهى في الحفظ والعلم لعلل الحَدِيث، مات سنة ثلاث وثلاث مئة وله ثُمَّ ان وثمانون سنة.

الشَّرح

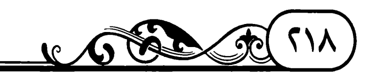
قوله: (رنة الشَّيطَان) من العُلَمَاء من قال أَنَّه النِّياحة؛ لأنَّ العُلَمَاءَ قالوا: الصوتُ عند المُصيبةِ رَنَّةُ الشَّيطَان، لكن الموضوعُ هنا ليس في النِّياحَة، إنَّما الموضوعُ في الأعمال التي تدخلُ في السِّحْر فلا علاقةَ لها بتفسير هذه الكلمةِ.

قوله: (هو الإمام الحافظ...) هذا تعريفٌ بالنَّسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الإمام أحمد بن شعيب بن علي صاحب السُنَنِ المشهورة، له كتابان في السُنَنِ: السُنَنِ الكُبرى، والصُغرى التي تسمى بالُمجتَبى، وإذا أُطلِقت سننُ النَّسائي يراد بها الصغرى، والفرق بين الصُغرى والكُبرى يَسيرٌ، لكن الصُغرى قد انتخبَها، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعيش في الشام، وقد صنَّف مُصنّضفاً في فضائلِ علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأهلُ الشام في تلك الفترةِ كانوا يكرهون علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلا من كان مِن الصَّالِحين، فعندما ألّضف كتاباً في فضائل عَليٍّ وأراد أن ينشُرَه في الشام ضُرِب، حتى قيل أنّه مات من أسباب الضرب، واتهموه بالتَّشيُع، وهذا غُلُوٌ، فإنَّ علياً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو الخليفة الراشد والرابع، وفضائلُه مشهورةٌ، ومحبَتهُ من الإيمان؛ لأنَّه من آل بيتِ رَسُول الله ﷺ، ومن السابِقين للإسلام ومن

أصْحَاب رَسُول الله ﷺ، وممن حمل رايةَ الإِسْلَام، فكلُ أعمالُه فضائلُ، ولاشك أنَّ الحَقّ كان مَعَه، وأنّ مَعَاويةَ رضي الله عنه كان مُخطئاً في محاربته، لكن لا نُضلِّلُه؛ لأنَّه قد اجتهَد وأخطأ، فليس كل من اجتهد فأخطأ ضالاًّ، لا سيما إذا كان من أصْحَاب رَسُول الله ﷺ، عندما سُئل مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة، أيهما أفضل مَعَاويةُ بنُ أبي سفيان أم عمرُ بنُ عبد العزيز؟ لأنَّ عمرَ بن عبد العزيز كان الخليفةَ الراشدَ الخامسَ، فقال مالك: غُبارٌ في سبيل الله في أنفِ مَعَاويةَ مَعَ رَسُول الله ﷺ خير من مائةِ عمرَ بنِ عبد العزيز.

ففضل الصحبة لا يلحقُها شيء، الصُّحبة مَعَ النَّبي ﷺ تزكيةٌ ترفعُه فوق النَّاسِ ولو أخطأ، كما في قضية حاطبَ بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي كان من الذين قاتَلوا في بَدرٍ؛ لأن هذا الدِّين قام علىٰ أكتافِهم، وجميع الحُسنات التي يكتسبُها المُسْلِمونَ إلىٰ قيام السَّاعة تنصب في ميزانِ الصَّحَابَة رضي الله عنهم، فمن يلحق الذين نصروا رَسُول الله ﷺ وحموه، ورفعوا رايةَ الإِسْلَام، وجاهدوا في سبيل الدِّينِ، ورَوَوا لنا أحاديثَ رَسُول الله ﷺ، فلهم فضلٌ لا يلحقُهم فيه أحدٌ، وإن كان عمرُ بنُ عبد العزيز رحمه الله خليفةً راشداً، وإنساناً صالحاً، لكنه ليس صَحَابِيّاً، فنحن عندما نقول إنَّ مَعَاوية رضي الله عنه أخطأ لا يَحِطُّ هذا من قّدْرِه، إنَّما لنُبيِّن الحَقّ؛ لأنَّ الحَقّ ليس مَعَ شَخْصين مُتقاتلين، إذ لابُدَّ أن يكون أحدُهما مُخطِئاً، والعُلماءُ قد رجَّحُوا كفةَ علي رضي الله عنه وقالوا إن مَعَاويةَ رضي الله عنه أخطأ وكان ينبغي أن يُسلِّم الأمرَ لعلي رضي الله عنه، ثُمَّ إذا كان له حقٌّ بعد ذلك يُطالِب به، لكن جاء الشَّيطَان ودخل واستغل ضعف الإِنْسانِ، واستغلَّه حاشيتُه.

فهو رضي الله عنه صَحَابِيّ جليل، وكان النَّاس آنذاك لا يتكلَّمُون إلا في فضائلِ مَعَاويةَ رضي الله عنه وأبنائه، فتكلَّم هذا الحافظ العالم النَّسَائي في فضل علي رضي الله عنه فضُرِب ومات بالرَّملَة.


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وعن ابن عباس قال: قال رَسُول الله ﷺ: (من اقتبس شعبة من النُّجُوم فقد اقتبس شعبة من السِّحْر زاد ما زاد) رواه ابو داود بإسناد صَحِيْح.

هذا الحَدِيث رواه أبو داود كما قال المصنف باسناد صَحِيْح، وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: (من اقتبس) قال أبو السعادات: قبست العِلْم واقتبسته إذا تعلمته. انتهىٰ وعلىٰ هذا فالمعنىٰ من تعلم.

قوله: (شعبة) أي طائفة، وقطعة من النُّجُوم، والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه، ومنه الحَدِيث الحياء شعبة من الإيمان أي جزء منه.

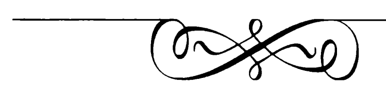

الشَّرح

قوله ﷺ: (من اقتبس شعبة من النُّجُوم)[1] هذا الحَدِيث سندُه قوي، والتَّنجيمُ سيأتي في بابٍ مستقل.

الاقتِباسُ هو الأخذُ من الشيء، فأخذُك من النَّار قَبسٌ أي: جُزءٌ من النَّار، وإذا أخذت من العِلْم شيئاً يقالُ: اقتبستَه، وإذا أخذَ شَخْص من كلامِ شَخص يقال اقتبَس من كلامِه، أي: أخذ جُزءاً منه، بمعنىٰ اقتطعَ أو أخذَ جُزءاً من ذلك الشَّيء، فمن اقتبس من علمِ النُّجُوم فقد اقتبس شُعبةً من السِّحْرِ زَاد ما زَاد.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الكَهَانَة والتَّطَيُّر، باب في النُّجُوم، برقم: (٣٩٠٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب تعلم النُّجُوم، برقم: (٣٧٢٦)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٨٤٠)، (٥/ ٤١)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب القسامة، باب العيافة والطيرة والعرق، برقم: (١٦٥١٣)، (٨/ ٢٣٩)، كلهم بلفظ: "من اقتبس علماً من النُّجُوم...".

وسيأتي أنَّ التَّنْجِيم إذا أُطلقَ يُراد به أن يُعتقَد تأثيرُ النُّجُوم علىٰ الأرضِ في حركةِ النَّاس، صِحةً ومرضًا وسعادةً وشقاءً وحياةً وموتًا ووِلادةً، فهؤلاء يعتقِدون أنَّ النُّجُوم مؤثرة، ولهذا كان الفلاسفة قبل الإِسْلَام يتقرَّبُون إلىٰ النُّجُوم ويعبدونها من دون الله ويبنون لها الهياكلَ أي المعابدَ، فهذا هو شِرْك بالله ﷻ، وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان في بابه.

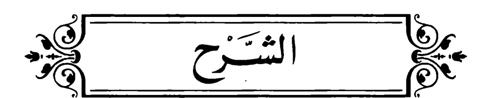


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (فقد اقتبس شعبة من السِّحْر). أي المعلوم تحريمه. قال شيخ الإِسْلَام: فقد صرح رَسُول الله ﷺ بأن علم النُّجُوم من السِّحْر، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٩]، وهكذا الواقع، فإن الاستقراء يدل علىٰ أن أهل النُّجُوم لا يفلحون في الدُّنْيَا ولا في الآخِرَة.

قوله: (زاد ما زاد) يعني كلما زاد من علم النُّجُوم زاد له من الإثم مثل إثم السَّاحِر، أو زاد اقتباس شعب السِّحْر ما زاد اقتباس علم النُّجُوم. قلت: والقولان متلازمان؛ لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السِّحْر؛ وذلك لأنَّه تحكم علىٰ الغَيْب الذي استأثر الله بعلمه، فعلم أن تأثير النُّجُوم باطل محرم، وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر، قاله ابن رجب.

قال: وللنسائي من حديث أبي هريرة: (من عقد عقدة ثُمَّ نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه). هذا الحَدِيث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع. وقد رواه النسائي مرفوعًا، وذكر المصنف عن الذهبي أنَّه قال: لا يصح، وحسنه ابن مفلح.

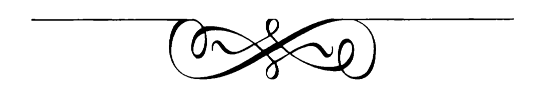


الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ الزيادةُ لها مَعنيانِ، إمَّا أنَّه أراد: زادَ في السِّحْرِ، بحسب ما يزيدُ في الاقتباسِ، وإمَّا أنَّه أراد زادَ في الإثمِ، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: كلاهما متلازمان؛ لأنّ الشَّخص كلما تضاعف فعلُه الُمحرَّمُ تضاعف له الإثمُ والعقابُ يَوْمَ القِيَامَةِ.

قوله ﷺ: (من عقد عقدة ثُمَّ نفث ..)[١] هذا الحَدِيث كما تقدَّم أنَّه ضَعِيْف.

قوله: (وحسنه ابن مفلح) ابن مُفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ من علماءِ القرن السابع، له كتاب مشهورٌ باسم (الآداب الشَّرْعِية)، قد جمع فيه كلَّ الآداب الإسْلَامية، لكن كثيراً من الماضين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يستشهدون بكلِّ ما ورد في المسألة، صَحِيْحٌ أو ضَعِيْفٌ، فهذا يحتاجُ إلىٰ تحقيقٍ وتنقيحٍ كغيره من الكُتب الأخرىٰ.



(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السَّحْرة، برقم: (٤٠٧٩)، والطبراني في المعجم الكبير والأوسط، الأوسط، برقم: (١٤٦٩)، (٢/ ١٢٧)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع، باب الرقىٰ والعين والنفث، برقم (١٩٧٧٢)، (١١/ ١٧)، وضعفه الألباني في تعليقه علىٰ سنن النسائي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (من عقد عقدة ثُمَّ نفث فيها فقد سحر) اعلم أن السِّحْرة إذا أرادوا عمل السِّحْر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدونه من السِّحْر؛ ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم في قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ ﴾ [الفلق:٤]، يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك.

والنفث هو: النفخ مَعَ ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل السَّاحِر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخًا مَعَه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشَّيطَانية على أذى المَسْحُور، فيصيبه السِّحْر بإذن الله الكوني الشَّرْعِي لا الإذن القدري قاله ابن القيم.

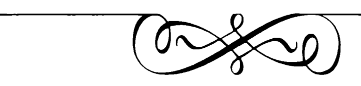


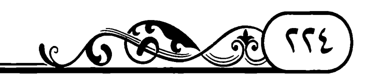
الشَّرح

قوله: (والنفث هو النفخ) هذا تَفريقٌ بين النفخِ والنَّفثِ والتَّفلِ، النفخُ هو الهواءُ الذي ليس مَعَه شيء من الرذاذِ، والنَّفثُ هو الذي يكون مَعَه رذاذٌ قليلق، والتَّفلُ هو الذي يخرجُ مَعَه اللُّعابُ، وأمَّا قولُه: (فيخرج من نَفَسِه) فهو بفتح الفاء لا بالسكون، النَّفْس :الهواءُ الذي يخرجُ.

قوله: (فيصيبه السِّحْر بإذن الله الكوني الشَّرْعِي) هذا خطأٌ، الكونيُ شيءٌ، والشَّرعيُّ شيء، فلعل هنا سبق قلمٌ أو خطأٌ من النَّاسخ، والصواب: بإذن الله الكونيِّ القدريِّ لا الشَّرْعِي؛ لأنَّ الكَوني والقَدري واحدٌ، وهو فعلُ الله عَزَّوَجَلَّ، لكن الشَّرْعِي هو الذي يُحبُّه اللهُ، فلا يُسمَّىٰ شَرْعِيًا إلا ما كان مَحبُوبًا عندَ

الله ﷻ، أمَّا القَدريُ فقد لا يكون عندَ الله مَحبُوباً؛ لأنَّ الله قد يخلُقُه وهو لا يُحُبه، كما خلقَ إبليسَ والخمرَ والعقاربَ، كُلها من خلقِ الله والله لا يُحبُّها، وكذا أفعالُ الإِنْسان التي يفعلُها من الشَّر، فليس كلُّ شيءٍ يُوْجَدُ يُحبُّه الله، إنَّما يُحبُّه إذا كان مُتفقَاً مَعَ شرَع الله، فيُسمَىٰ الأمرُ الشَّرْعِي، وإذا كان ليس مُتفِقَاً مَعَ شَرعِ الله يُسمَّىٰ الأمرُ القَدري الكَونِي، أي: الذي يكون بأمرِ الله :" كن فيكون "، فالمرضُ من الفعل القَدري، لكن الذي فيه أمرٌ أو نهيٌ أو تحريمٌ أو تحليلٌ هذا من شرع الله، يعني الذي أنزله في القُرْآن والسُّنَّة شَرْعِي، وأمَّا ما عَداهُ فقدريٌ كونيٌ، فلابُدَّ أن يُصحَّحَ الخطأُ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ومن سحر فقد أشرك) نص في أن السَّاحِر مشرك؛ إذ لا يتأتىٰ السِّحْر بدون الشِّرْك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: (ومن تعلق شيئًا وكل اليه) أي من تعلق قَلْبه شيئًا بحيث يتوكل عليه ويرجوه وكله الله إلىٰ ذلك الشيء، فإن تعلق العبد علىٰ ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه ونعم المولىٰ ونعم النَّصير، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]، ومن تعلق علىٰ السِّحْر والشياطين وكله الله إليهم فأهلكوه في الدُّنْيَا والآخرة.

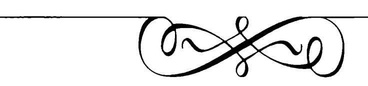
وبالجملة فمن توكل علىٰ غير الله كائنًا من كان وكل إليه وأتاه الشر في الدُّنْيَا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله في عباده التي لا تبدل وعادته التي لا تحول أن من اطمأن إلىٰ غيره أو وثق بسواه أو ركن إلىٰ مخلوق يدبره أجرىٰ الله تعالىٰ له بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله، وهذا أمر مَعلوم بالنص والعيان، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأىٰ ذلك عيانًا، وفائدة هذه الجملة بعد ما قبلها الإشارة إلىٰ أن السَّاحِر متعلق علىٰ غير الله، فإنه متعلق علىٰ الشَّيَاطِين.



الشَّرح

قوله: (كما حكاه الحافظ عن بعضهم) الحافظ أي ابن حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه ذكر أن السِّحْر لا يتأتىٰ أي لا يحصل إلا بالشرك، فالذي يظن أن السِّحْر يحدث بدون شِرْك قد يكون لا يعلم حقيقة السِّحْر.

قد مَرَّت في بعضِ النَّصوص أنَّه من تعلَّق قَلْبه بغير الخالِق فإنَّه يجري له من الأذىٰ والألمِ والحسرةِ والندمِ في الدُّنْيَا قبل الآخِرَة، لكن من تعلَّق بخالِقه ومولاهُ - سُبْحَانَهُ - وَتَعَالَىٰ - فإنَّ الله يكفِيه كما قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]، وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، فالمسلم يتوكل علىٰ خالقُه، ونحن نقولُ في كلِّ ركعةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] أي :لا نستعينُ بسواك يا الله، فالمُسلم يستعينُ بالخالِق، وإذا ضعُف إيمانُ الإِنْسانِ وتعلَّقَ قَلْبه بغير الله فإنَّه يعيشُ دائما في خوفٍ وقلقٍ؛ لأنَّ القُلُوب لا يحفظُها ولا يَلمُّ شَعثَها إلا الذي خلقَها، فمن تعلَّق بخالِقه فإنَّ الله - سُبْحَانَهُ - يرعَاه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

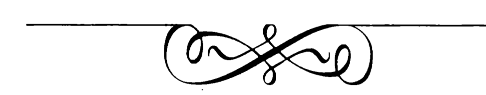
قال: وعن ابن مسعود أن رَسُول الله ﷺ قال: (ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة القالة بين النَّاس) رواه مسلم

ش: قوله: (هل أنبئكم) أي أخبركم قوله: (ما العضه)، هو بفتح العين المهملة وسكون المعجمة. قال أبو السعادات: هكذا تروىٰ في كُتُب الحَدِيث، والذي جاء في كُتُب الغريب ألا أنبئكم ما العضة بكسر العين وفتح الضاد.

الشَّرح

اللغةُ العربيةُ مفرداتُها أوصلَها بعضُهم إلىٰ سبعةِ ملايين مُفردة، ولكن المستعملُ منها بين النَّاس المتداولةُ اليومية كتابةً ومشافهةً ألفا كلمةٍ فقط، فإذا سمعنا كلمةً غريبة لا نظن أنَّها ليست من اللُّغَة؛ لأن ما نسمعه طوال حياتنا لا يتعدىٰ ألفي كلمةٍ، فهناك كلماتٌ كثيرةٌ لم نسمعها، فالذي يقرأُ في قصائدِ شعراءِ الجَاهِلِية ربما لا يفهمُ كثيراً من ألفاظِها إلا إذا فُسِّرت له؛ لأنَّنا لم نستعمل من اللُّغَة إلا الكلماتِ الشائعةَ، وإلا فإنها أكثر اللغات مفرداتٍ، لا يُوْجَدُ لغةٌ إلىٰ اليوم تضاهي العربيةَ في مفرداتِها، مَعَ أنَّ اللُّغَة الإنجليزية التي قد تبناها جزءٌ كبير من العالم فكان ينبغي أن تكون هي أكثر من العربية، لكن لم تستطع أن تصل في مفرداتها إلا إلىٰ أسماء المخترعات الحَدِيثة بحكُم الصناعاتِ الجديدةِ، أمَّا في المفراداتِ التي في أصلِ اللُّغَة فإنَّ العربيةَ أكثرُ اللغاتِ مفرداتٍ، وأكثرها قدرةً علىٰ أن تستوعبَ ما يجدُّ وما يحدُثُ، وما كُتُب قبل ألفِ سنةٍ يُقرأ اليوم بخلاف اللُّغات الأخرىٰ بعضها لا يُقرأ إلا إذا تُرجم؛ لأنَّ اللُّغَة العربيةَ قبل ألف وأربعمائة عام بلغَت مرحلةَ النُّضجِ، ثُمَّ لا شكَّ أنَّ في عصورنا قد انحدَرَت؛ لأنَّ العربيةَ الفُصحىٰ شابَها كثيرٌ من مفردات اللغات الأخرىٰ.

فهذا العَضَهُ في اللُّغَة هو: النَّميمةُ، والعَضَّةُ شيءٌ آخر. لكن في (مُسلم) العَض بفتح المهملة أي العين وسكون المعجمة أي الضاد،وقوله: (في كُتُب الغريب) أي المُصنفات التي تفسر المفردات اللغوية قسمان: كُتُب اللُّغَة، وكتب غريب الحَدِيث.

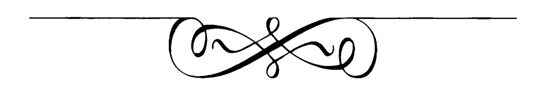


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي حديث آخر: (إياكم والعضة) قال الزمخشري: أصلها العضهة فعلة من العضه وهو البهت، فحذفت لامه كما حذفت من السُّنَّة والشفة وتجمع علىٰ عضين.

الشَّرح

المفردات العربية في بعضها حروفٌ محذوفةٌ، ونعرفها إمَّا بالجمع، وإمَّا بالعودة إلىٰ مصدرِها أو إلىٰ جمعها أو بالنسبة إليها، فالشفة مثلاً يقال فيها عن النِّسبة: شَفوي، أو شَفهي؛ لأنَّ الشفة فيها هاءٌ أو واوٌ محذوفةٌ، فعندما قلنا شفهي أو شفوي رجَعت، وكذا السُّنَّة يقال: التاريخ السنوي، ففيها حرفٌ محذوف، فيقول الزمخشري من علماءِ المُعْتَزِلَة ومن علماءِ الُّلغَة، لكنه أفسد الُّلغَة بأن قعدها علىٰ مذهب الاعتزال، له كتاب اسمه أساس البلاغة، كتاب كبير، جمع فيه مفردات العربية، ولكنه أفسده، فقسمه بحسب تقسيمات المُعْتَزِلَة للكلام، جعل نصفَه حقيقةً، ونصفَه مجازاً، والعرب لم يعرفوا هذا التقسيم، فكان من الأمانة الُّلغوية أن يَرِدَ الكلامُ دون التقسيم الذي أُحدِث كما في (تهذيب الُّلغَة) وكما في(الصحاح) للجوهري، وكما في (مَعَجم المقاييس) لابن فارس، هذه أقدم الكُتُبِ، لا يُوْجَدُ فيها ذِكرُ الَمجازِ مُطلقاً، إنَّما جاء مُتأخراً، الزمخشري له ضلع كبير جداً في قضية المجاز، فهو من علماء الُّلغَة، فهنا يقول: العَضَهُ أصلها: العَضْهَةُ، فِعْلَة، أو فِعَلَه حذفت منها اللام، مثل السنة والشفة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم فسره بقوله: (هي النميمة القالة بين النَّاس) وعلىٰ هذا فأطلق عليها العضة؛ لأَنَّها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالبًا ذكره القرطبي.

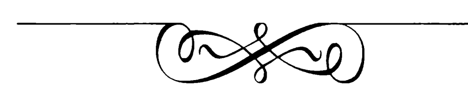
قلت: ظاهر إيراد المصنف لهذا الحَدِيث هنا يدل علىٰ أن مَعَنىٰ العضه عنده هنا هو السِّحْر، ويدل علىٰ ذلك حديث كادت النميمة أن تكون سحراً رواه ابن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضَعِيْف.



الشَّرح

مناسبةُ إيرادِ الحَدِيثِ في باب السِّحْرِ قال العُلَمَاءُ: إنَّ هناك خُلُقًا إذا اتسم به الإِنْسانُ يلحقُ السَّحْرةَ في التأثيرِ في حياةِ النَّاس، وهذا الخُلقُ الذَّميمُ هو النميمةُ، وهي من أشدِّ أنواعِ المَعاصي، والنَّمَّام يُفسدُ في ساعة ما لا يُفسدُه السَّاحِر في سنةٍ، ونضرب له مثالاً: أن شَخْصًا كان عنده عبدٌ قويٌ وأراد أن يبيعه، فذهب به إلىٰ السوقِ، وقال للنَّاسِ: هذا العبد فيه كلُ صفةٍ طيبةٍ إلا أنَّه نَّمامٌ، فاشتراه أحدهم، وذهب به إلىٰ البيتِ، وبعد فترة من الزمن جاء هذا العبدُ إلىٰ زوجة سيدِه، فقال لها: إنَّ زوجَك يريدُ أن يتزوجَ عليك، قالت: وما الدليلُ؟ قال: الدليلُ كذا وكذا، فقالت: وما الحيلَةُ؟ قال: أن تأخذي من شعرات لحيتهِ، وأنا أضع لكِ سِحراً حتىٰ أمنعه من هذا الأمِر، ثُمَّ ذهبَ إلىٰ زوجِها، وقال له: زوجتك قد اتفقت مَعَ إنسانٍ علىٰ قتلِك، وستأتي بالسِّكِّينِ وأنت نائمٌ، فحاول أن تتظاهَر بالنَّوم، وعندما جاءَ إلىٰ فراشِه واضَّطَجعَ جاءت المَرْأَة بالسكين في يدها لتأخذَ من شعره، فعندما اقتربت ومددت يدها تأكَّد أنَّه صادق، فقام فقتلَها، فجاء أهلُها فقتلوه، فهذا الإفساد السريع بين قبيلتين هو من هذا الخلُق الذَّميم، النَّمَّام يكذبُ عادةً، وقد يصدُقُ، فهو ينقل الأخبارِ

بقصدِ الإفسادِ، هذا أشدُّ من السِّحْرِ في تأثيره، ولهذا أورده المُؤَلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشيرُ الشَّارِحُ إلىٰ أن المُؤَلِّف فهم من العضه أنَّه السِّحْر، لكن العضه في اللُّغَة ليس هو السِّحْر بل هو النَّميمةُ، كما فسرها الحَدِيث.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وذكر ابن عبد البر عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد السَّاحِر في سنة. وقال أبو الخطاب في عيون المَسَائِل: ومن السِّحْر السعي بالنميمة والإفساد بين النَّاس.

قال في الفروع: ووجهه أَنَّه يقصد الأذىٰ بكلامه وعلمه علىٰ وجه المكر والحيلة أشبه السِّحْر؛ ولهذا يعلم بالعرف والعادة أَنَّه يؤثر وينتج ما يعمله السَّاحِر أو أكثر، فيعطىٰ حُكْمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكنه يقال: السَّاحِر إنما كفر لوصف السِّحْر، وهو أمر خاص ودليله خاص، وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره، فيعطىٰ حُكْمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة انتهىٰ ملخصاً.

وبه يظهر مطابقة الحَدِيث للترجمة، والحديث دليل علىٰ تحريم النميمة، وهو كذلك بالإجماع، وقد قال أبو محمد بن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم الغَيْبة والنميمة في غير النَّصيحة الواجبة، وفيه دليل علىٰ أَنَّها من الكَبَائِر.



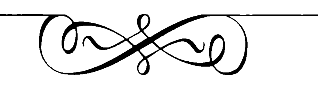
الشَّرح

قوله: (يقصد الأذىٰ بكلامه وعلمه) الأصحُّ - والله أعلم - وعمله؛ لأَنَّه يريد بما يقول وبما يعملُ الإفسادَ، وليس بالعلمِ؛ لأن العِلْمَ هو صفةٌ داخليةٌ، لا تَخرُجُ.

قوله: (قال في الفروع) صاحب الفروع هو ابنُ مُفلح رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: قد يقول قائل: السَّاحِر كافرٌ ويقتلُ، هل النَّمامُ كافرٌ ويُقتلُ؟ قال: لا، وإن كان عملُه كعملِ السَّاحِر؛ لأَنَّ السِّحْر وردَ فيه النَّص، والنمام يؤثر مثل السَّاحِر فالتشبيه به للتَّنفيرِ من هذا الفعل، لكن الحُكُمُ الذي يترتب عليه لابدَّ فيه من نصٍ حتىٰ يكون العقابُ شَرْعِياً.

الفرقُ بين الغَيْبَةِ والنميمةِ أنَّ الغَيْبـةَ: ذكـركَ أخـاكَ بـأمرٍ يكرهُـهُ في غَيبتِه، والأمرُ حاصلٌ فيه، أمَّا الذي يذكرُ في المُسْلِم ما ليس فيـه فهـذا بهتـانٌ، والنَّميمـةُ نقلُ الكلام علىٰ وجهِ الإفسادِ، فالغيبةُ: ذِكرُ ما في الإِنْسان، لكـن النَّميمـةُ: ذِكـرُ كلامِه، فقد تكونُ الغَيْبةُ بذكرِ بعضِ صفاتِه أو أخلاقِه، إمَّا علىٰ وجـه التَّهكُّم أو السُّخرية، أو الاستهزاء أو التَّنقُّص، أما النَّمِيمَةُ فهي: نقلُ الكلام الـذي يحـدثُ للإنسان أو فعله حتىٰ يَضرُّه، وكلتاهمـا مُحرمَتَان، هنـاك رسـالةٌ جميلـةٌ للشيخ الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ، اسمها : (رفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغَيْبَةِ)، وهـذه رسـالةٌ ذكـرَ فيهـا أوجُـهَ الحَدِيثَ في الشَّـخص الغائِـب، فمنهـا مـا يجـوز، مثلاً: إنسانٌ مفسـدٌ، وقـد نُصِـح وامتنـعَ واسـتمرَ علـىٰ فسـادِه، فيُـذكَرَ حتـىٰ يُمنـعَ مـن فسادِه، كذا إذا ظلمك إنسانٌ صاحبُ قُدرةٍ وسلطانٍ، فتتجه إلـىٰ مـن هـو أعلـىٰ منه، فتذكر هذا الظُّلمَ حتىٰ يأخذَ لك حقَـك، أو امـرأةٌ ظلمَهـا زوجَهـا وتريـدُ أن تأخذَ حقَّها أمامَ القاضي أو أمامَ أهلها.

فذِكر الكلام في الشَّخص في غيابِه وإن كان يكرهُه إذا كان هناك مُبررٌ شَرْعِي فلا بأسَ، لهذا قال -تعالىٰ -: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]، المظلومُ له حقُّ أن يتظلمَ حتىٰ يأخذَ حقَّه، لكن لا يجوز أن يزيدَ، ربما يأخذ حقه ويزيدَ في الغَيْبة ثُمَّ يبدأ العَدُّ التنازُلي عليه، إذا ظُلِم شَخْص له أجرٌ في هذا الظُّلمِ إن صَبَر، وله أن يَأخذَ حقَه بوجه شَرْعِي، لكن الزيادةُ قد تؤدي إلىٰ أن يخسَر بدلاً من أن يكسَب من الذي ظلمَه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذوقوله: (القالة بين النَّاس) قال أبو السعادات: أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين النَّاس بما يحكىٰ للبعض عن البَعْض ومنه الحَدِيث: (ففشت القالة بين النَّاس).

قال: ولهما عن ابن عمر أن رَسُول الله ﷺ قال: (إن من البيَان لسحراً).

ش: البيَان البلاغة والفصاحة، قال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله أما قوله: (إن من البيَان لسحراً) فالرجل يكون عليه الحَقّ وهو ألحن الحجج من صاحب الحَقّ، فيسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق.



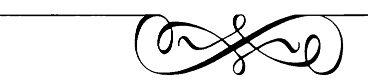
الشَّرح

القالَةُ كثرةُ الكلام بين النَّاس، الآن إذا اجتمعَ رجُلان أو امرأتان لابدَّ أن يكون بينهما كلامٌ، فإمَّا أن يتكلموا بأمرٍ فيه نفعٌ لهم في الدُّنْيَا والآخرة وإما أن يتكلموا في أمر يضرهم في الدُّنْيَا والآخرة، والمسلم منهي عن كثرة الكلام إلا ما فيه نفع إما في الدُّنْيَا وإما في الآخِرَة وإما في كلتيهما، أما الكلام الذي فيه أذىٰ للآخرين، واستعراض لمسالب النَّاس ومعايبهم، وأعمالهم وأخلاقهم مما لا يتطلبه أمر شَرْعِي فربما يكون إثماً علىٰ من يقع فيه.

قوله: (إن من البيَان لسحراً)[1] الحَدِيث ورد له قصة كما سيذكره الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النَّاس في العصر الجاهلي كانوا يتفاخرون بالفصاحة شعراً ونثراً، فكان كل وفد يأتي إلىٰ الرسول ﷺ يقوم خطيبهم يتكلم أمَامه ﷺ، فيقوم

(١) سبق تخريجه.

خطيبه ﷺ يردُّ عليهم، أو يقوم شاعرُهم، فيقوم حسانُ رضي الله عنه يرد عليهم، فقدم رجلانِ من المشرقِ إلىٰ النَّبي ﷺ، فتكلما بكلامٍ فصيحٍ، فعجب النَّاس لفصاحته، فقال النَّبي ﷺ: (إنَّ من البيَان لسحراً) هل قاله علىٰ وجه الذمِّ أو علىٰ وجه المدح؟ اختلف العُلَمَاء، أهلُ الأدب يقولون: إنَّ هذا مدحٌ للبيانِ والفصاحةِ، ولهذا لابد أن نُنمي الشعرَ والخطابةَ، ونُعلمَ النَّاسَ الفصاحةَ، ومن العُلَمَاءِ من قال: هذا ذمٌّ، لكن الحَدِيث في الحَقِيقَة دقيقٌ جداً، فما قال: إنَّ البيَان لسحرٌ، بل قال: " إنَّ مِن "، ومِن في اللُّغَة تقتضي التبعيضَ، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، فهنا يعني إنَّ بعض البيَان لسحرٌ، فسواء كان للمدحِ أو كان للذمِّ فليس كله مَذْمُومـاً.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن عبد البر: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السِّحْر مَذْمُوم، وذهب أكثر أهل العِلْم وجماعة أهل الأدب إلى أنَّه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيَان، قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن حاجة، فأحسن المسألة فأعجبه قوله، فقال: هذا والله السِّحْر الحلال.

الشَّرح

عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من الخلفاء الراشدين، وقد عاش في أواخر القرن الأول، وتوفي عام مائة وواحد، ولم يحكم إلا سنتين، كان رجُلاً زاهداً، وعندما تولى الخلافة أعاد جميعَ الأموال والخيولِ إلى بيت مال المُسْلِمين، وعاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أفقرِ حالٍ، هذا الرجل في أول شبابه كانت له مِشيةٌ تُسمى المِشية العُمرية، أي: مِشيةٌ فيها كبرٌ وخيلاءُ، وكان الشارع الذي يمشي فيه يُعرف للنَّاسِ لكثرة عطرِه، فكان شابا في أول حياته ليس له همٌّ إلا التزينُ والتجمل والمتعُ، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في أول حياتي تاقت نفسي إلى الإمارةِ، فوصلتها، ثُمَّ تاقت نفسي إلى الخلافةِ، فبلغتها، ثُمَّ تاقت نفسي إلى الجِنَّة، فزهدت فيها، ويقال: أنَّه مات مسموماً؛ لأنَّه جاء بأمر لا طاقة لمن قبلَه به ولا لمن بعدَه، هكذا العاقل، شهوات الدُّنْيَا تنتهي، مهما تمتعَ بها يموت، فالعاقلُ الذي لا يجعل همَّه الدُّنْيا؛ لأنَّ الدُّنْيَا تنتهي، بل يجعلُ همَّه الذي لا ينتهي، فلو كان الإِنْسانُ الآن يأخذ من إنسان ألف درهم وينتهي به يومه، أو يأخذ مائة درهم ويبقى مَعَه إلى نهاية العام، فالذي يفضل مائة درهم هذه، فكيف تأخذ من الدُّنْيَا شيئًا لا يساوي جناح بعوضة عند الله عَزَّوَجَلَّ، والآخرة حياةٌ لا تنتهي ولا تنقطع، فالعاقلُ الذي يجعل همَّه الآخِرَة.

ولا يعني ذلك تركُ الدُّنْيَا، قال تعالىٰ: الدُّنْيَا بكامل زينتها للمسلم، إن أخذها ليس مَذْمُومـًا، ولم يأت آية أو حديثٌ تنهىٰ عن الدُّنْيَا أبداً ، إنما جاءت تحذِّر من غرورها، لهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فلا يعني أن الإِنْسانَ المُسْلِم محكومٌ عليه بأن يعيش فقيراً، لكن ينبغي أن يحذرَ أن لا يجعل همَّه الدُّنْيَا، وأن لا يجعلَ يتكسَّبَ بأعمالِ الآخِرَة الدُّنْيَا، يعملُ في الدُّنْيَا لكن يكون هدفُه الآخِرَة؛ لأن الدُّنْيَا تنتهي والإنسانُ بين أن يقال: وُلد وبين أن يقال: ماتَ، فترةٌ قصيرةٌ جداً، ولكن لا يشعر بها إلا الإِنْسان الذي قد شارفَ علىٰ الرحيل، أمَّا الذي في بداية الشباب فيظنُّ أنَّه سيبقىٰ إلىٰ آخر النَّاس، والموتُ لا يختار ، يأخذُ الكبارَ والصغارَ، والأغنياءَ والفقراءَ، والأصِحَّاءَ والمرضىٰ، الموتُ غيبٌ، لو جعلَ الله الموتَ مكشوفـًا فمهما قيل له أنَّك ستعيش فإنه سيبقىٰ في خوفٍ وقلقٍ، فجعل الله هذا الموتَ خافيـًا، ولهذا يقول ابن ُالقيمِ رَحِمَهُ اللهُ في كتاب(مفتاح دار السعادة):" النسيان فيه فوائد كثيرةٌ، بعضُ النَّاس ما يحب أن ينسىٰ، وليس بصحيح، ويمكن أن يكون في النسيان خسارة لكن فيه فوائد، منها: أن الإِنْسان لو لم ينس الموت ما يستطيع أن يتلذَّذ بالحياة، إذا جاء عند النومِ فالموتُ في ذهنِه، إذا جاء عند الصباح فالموتُ في ذهنه، إذا جاء يأكلُ فالموتُ في ذهنِه، ما يقدر يعيش، لكن من رحمة الله أنَّه ينسىٰ، هذا النسيانُ يُعطي فرصةَ تَمتعٍ، لكن لا يعني هذا النسيانُ تَرْكَ العملِ.

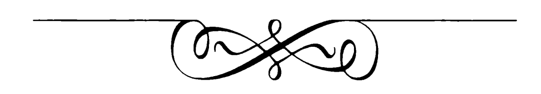
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: الأول أصح، وهو أَنَّه خرج مخرج الذم لبعض البيَان لا كله، وهو الذي فيه تصويب البَاطِل وتحسينه، حتىٰ يتوهم السامع أَنَّه حق، أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة في الخصومة حتىٰ يسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق ونحو ذلك، فسماه سحراً؛ لأَنَّه يستميل القُلُوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا فعجب النَّاس لبيانهما فقال رَسُول الله ﷺ: (إن من البيَان لسحراً) كما رواه مالك والبخاري وغيرهم.



الشَّرح

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ يُرجح أنَّ الحَدِيث وردَ يذمُّ البيَان الذي يكون فيه مدحٌ للباطل، أو تغييرٌ للحق، هذا مَذْمُوم لا شَكَّ، لكن البَيَان الذي يصفُ الحَقّ بما يُرغِّبُ النَّاس فيه، ويصفُ البَاطِل بما يُنفِّرُ النَّاسَ عنه لا شك أن هذا محمودٌ، فالبيانُ وسيلةٌ من الوَسَائِل، فإذا استخدمت في شرح الخَيْر وعرض الخَيْر وتزيين الخَيْر كان حسناً، وإن استخدمت في مدح البَاطِل وتزيينه للنَّاسِ فهو مَذْمُوم، فالبيان يأخذ حُكْم المَقَاصِد والحالة التي تستخدم فيه.

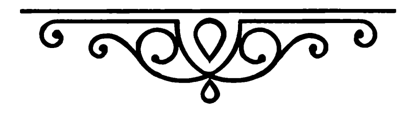


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما جنس البيَان فمحمود بخلاف الشعر، فجنسه مَذْمُوم إلا ما كان حُكْمًا، ولكن لايحمد البيَان إلا إذا لم يخرج إلىٰ حد الإسهاب والإطناب، أو تصوير البَاطِل في صُورَة الحَقّ، فإذا خرج إلىٰ هذا الحد فهو مَذْمُوم، وعلىٰ هذا تدل الأحَادِيث كقوله ﷺ: (إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها) رواه أحمد وأبو داود. وقوله: (لقد رأيت أو لقد أمرت أن أتجوز في القول فإن الجواز هو خير) رواه أبو داود.

الشَّرح

كلا هذين الحَدِيثين ضَعِيْفان، فالحديث الأول فيه عاصم بن سفيان، وهذا لم يُوثِّقه إلا ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والثاني ضَعِيْف، قال: الإسناد لا يُحتجُّ به، فكلا الحَدِيثين في الحَقِيقَة لا يصِحَّان، وسنن أبي داود من أكبر السُنَنِ ذكراً للأحاديث، فقد جمع فيها كل الأحَادِيث تقريبًا في مسائل الأحكام، لكن ليست كلها صَحِيْحًا، ولهذا ينبغي أن نتثبتَ عند ذكر الحَدِيث في هذه المَسَائِل.





باب: ما جاء في الكهان ونحوهم

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعلم أن الكهان الذين يأخذون عن مسترقي السمع موجودون إلىٰ اليوم، لكنهم قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجَاهِلِية؛ لأن الله تعالىٰ حرس السَّمَاء بالشهب، ولم يبق من استراقهم إلا ما يخطفه الأعلىٰ، فيلقيه إلىٰ الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وأما ما يخبر به الجِنّي مواليه من الإِنْس بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإِنْسان غالبًا فكثير جداً في أناس ينتسبون الىٰ الولاية والكشف، وهم من الكهان إخوان الشَّيَاطِين لا من الأولياء.



الشَّرح

هذا الباب عقده المُؤَلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد السِّحْر، وأورد بعده باب النَّشْرَة، ومن حق التصنيف أن يقدم باب النَّشْرَة علىٰ باب الكهانة؛ لأن بابَ النَّشْرَة مُتعلقة بالسحر؛ لأن النَّشْرَة هي حل السِّحْر إمَّا بسحرٍ مثله، وإمَّا عن طريق الرُقىٰ، وإمَّا عن طريق الاستخراج إذا عُرف مكانُه، لكن ـ الله أعلم ـ إن المُصنفَ لاحظ أمراً آخر، فأورد رَحِمَهُ اللَّهُ الكهَانة، وسيورد بعدها النَّشْرَة ثُمَّ الطَّيْرة ثُمَّ التَّنْجِيم، والسِّحر والكَهَانَة والعرافَة والتنجيم كلُها مَذْمُومة، السِّحْرُ كما مرَّ أن يكون للإنسان علاقةٌ بالجن أو بالشياطين فيستعينُ بها في التأثير في أبدانِ النَّاسِ

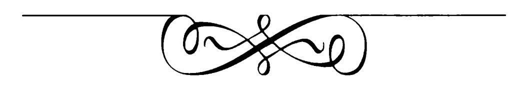
أو في عقولِهم أو في أحوالِهم، فيؤذيهم بالسحرِ، أمَّا الكَهَانَةُ فهي ادِّعاءُ علمِ الغَيْب في المُستقبَل، والعرافةُ ادِّعاءُ علمِ الغَيْب الماضي، والمُنجِّمُ هو الذي يزعم أن الكَوَاكِب لها تأثيرٌ في حياة النَّاس علىٰ الأرض، كلُ هذه الصُّوَر مُحرَّمةٌ، ومن اعتقدها أو عمِل بها فهو بين الشِّرْك وبين ارتكاب الكبيرة.

قوله: (اعلم أن الكهان الذين يأخذون...) يقول رَحِمَهُ اللهُ إن الإِنْس قد يكون له علاقةٌ بالجنِّ، والجنُّ يرونَ ما لا نراه، والغَيبُ علىٰ ثلاثة أنواع: غيبُ مَضىٰ، وغيبٌ يأتي، والغيبُ المكاني، فالماضي لا نعرفه إلا عن طريق التعلُّم والقراءةِ، والمُستَقبَل لا يعرفُه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والغيبُ المكاني مكشوفٌ لبعض الإِنْس والجنِّ، فالجنُّ يرون ما يُوْجَدُ الأماكن البعيدة، فلو أن إنساناً له علاقة بالجن وأخبر أنَّه وقع في مكان فلان كذا وكذا ليس هذا من الغَيْب، إنما الجِنّي أخبره، وأخبره الثاني الذي في المكان المعين، فالجن يخبر بعضهم بعضاً، ثُمَّ حتىٰ يصل الخبر إلىٰ الكَاهِن، فمثلاً لو سرق علىٰ الإِنْسان مال فقال: سرقه فلان، أو ضاعت له دابة، فقال: الدابة في المكان الفلاني، فليس هذا إخباراً بالغيب، إنما هذا استعانة بالجن علىٰ هذه الأخبار، فالغيب المكاني يعرفه الجان، لكن الغَيْب المُستقبَل لا يعرفه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا لا يجوز للمسلم أن يذهب إلىٰ الكهان فيسألهم عن المُستَقبَل؛ لأن هذا السؤال فيه إحباط للصلاة أربعين يوماً، ولو لم يصدق هذا الكَاهِن؛ لأنَّه سأله فيما هو من خصائص الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي العصر الحاضر قد ظهر آلة يرافقها لوح مكتوبٌ عليها حروف، وتشتغل بالحجارة أو بالبطارية، فيوضع فيها سؤالٌ أي: شَخْص يُريد أن يسأل عن مستقبلِه، فهذه الآلة تلف علىٰ عدة لفات وتقفُ، فيأخذ هذا الكَاهِن المعاصر هذه الحروفَ فيجمعها، فيجيب علىٰ السؤال من خلال الحروفِ

التي مرَّت عليها الآلة، ما الذي أدرىٰ الآلةُ عن الغَيْب؟ لكن هكذا النَّاس في كل عصرٍ تستغل، والذي يسافر إلىٰ بعض البلدان الإِسْلَامية يرىٰ العجبَ!، يُوْجَدُ أشخَاصٌ من هذه النَّوْعِية يستغلون ضعف الإِنْسان عن طالعه وعن مستقبله وعن جيرانه، حتىٰ بعض النَّاسِ عنده فراسةٍ إذا جاءت امرأةٌ مثلا فأرادات أن تعرف وضعَها في الحي يقول لها: عندكِ جيران يَكرهونَكِ، وفي الحَقِيقَة هذا شيءٌ عادي؛ لأن كل امرأة تظنَّ أن جيرانَها يكرهونها، لا تكاد تجدُ جارين إلا وبينهما شيءٌ؛ لأنَّ الجارين يحدث بينهما النزاعُ في المصالحِ والحقوقِ،ولذلك أوصىٰ الإِسْلَام بالجارِ.

والإنسانُ فيه ضعف، فيستغل هؤلاء ضعفَه فيوهمونه بأشياء أنَّهم يعلمونها، فإذا استمر الإِنْسان في الذهابِ لهؤلاء آذوه وأخذوا أموالَه بغير حقٍ، الإِسْلَامُ حريصٌ أن يحمي ذهنَ المُسْلِم؛ لأنَّ صاحبَ الحاجةِ والمريضَ والفقيرَ يتعلَّقون بأي شيء، حتىٰ قد يتعلق بما يضرهم في دينِهم؛ لأنَّهم محتاجون، والُمحتاج قد تُعمَّىٰ، وقد تُغلقُ عليه المنافذُ، فينبغي للإنسان إذا وقع في مأزق أن يستشير إخوانَه ولا يتعجل، ويستخير الله سبحانه وتعالى.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما ذكر المصنف شيئًا مما يتعلق بالسحر ذكر ما جاء في الكهان ونحوهم كالعراف لمشابهة هؤلاء للسحرة، و الكَهَانَة ادعاء علم الغَيْب كالإخبار بما سيقع في الأرض مَعَ الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجِنّ السمع من كلام المَلَائِكَة، فتلقيه في أذن الكَاهِن، والكاهن لفظ يطلق على العَرَّاف والذي يضرب الحصى والمنجم، وقال في المحكم: الكَاهِن القاضي بالغيب، وقال الخطابي: الكهان فيما علم بشهادة الامتحان قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطبائع نارية، فهم يفزعون إلى الجِنّ في أمورهم، ويستفتونهم في الحوادث، فيلقون إليهم الكلمات.

الشَّرح

الكُهَّان على درجات، منهم من له علاقة بالجنِّ، ومنهم من يكون طبيعته عنده فراسةٌ خاصةٌ يستطيع بها، ويكذِب كثيراً، لكن النَّاس لا يحفظون من كلام الكُهَّان إلا ما صدقوا به، الكَاهِن يصدقُ في كلمةٍ واحدةٍ ويكذبُ في تسعة وتسعين، فالناس يحفظون الكلمةَ التي صدقَ فيها، وبالعكس أن الدُّعَاة أو الصَّالِحين لو أخطأ بعضُهم خطأً واحداً وأصابَ في تسعة وتسعين، النَّاس لا يحفظون إلا الخطأ، فهؤلاء الكُهَّانُ قد يكون بعضهم ممن له اتصال بالجنِّ، وبعضهم يكون هو عنده فراسةٌ خاصةٌ؛ لأنَّ لبعض النَّاس فراسةً قويةً يستطيع أن يعرف بها أشياءَ كثيرةً، وبعض الصَّالِحين يقول لك: أنت تفكرُ في كذا، أو أنت عندك كذا، بل بعضهم إذا دخلت عليه يعرف ماذا تريدُ، وليس هذا من علم الغَيْب، هذه فراسةٌ، لكن لا يبنى عليها حُكْمٌ شَرْعِي، هذه الفراسةُ قد تكون كرامةً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تكون صفة خلق الله عليها الإِنْسان.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وروىٰ مسلم في صَحِيْحه عن بعض أزواج النَّبي ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: (من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا).

هذا الحَدِيث رواه مسلم كما قال المصنف ولفظه: حدثنا محمد بن المثنىٰ العنزي ثنا يحيىٰ بن سعيد عن عبيد الله في نسخة عبدالله عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النَّبي ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: (من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا وليلة) هكذا رواه، وليس فيه (فصدقه).

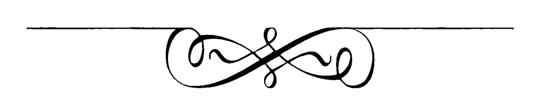
الشَّرح

الحديثُ الذي في المتنِ فيه كلمةٌ زائدةٌ، وهي قولُه: (فصدَّقه)، والحديثُ الذي صحَّحه الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ليس فيه (يومًا)، بل في مسلم (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، والعربُ تطلق الليلةَ علىٰ اليومِ والليلةِ بكاملهما فليس المرادُ بها الليلُ فقط، بل المراد أربعين ليلةٍ أي بأيامِها، فهكذا تأتي بحسب مَوردِها، فهنا: (**من أتىٰ عرافًا فسأله لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**)[1]، العُلَمَاءُ اختلفوا في مَعَنىٰ لم تقبل، هل مَعَناها أنَّه يكون كافراً، والكافرُ لا يُقبل منه عملٌ، أو أنَّه بمعنىٰ لا يُثابُ عليها؛ لأنَّ الصلاة لها جانبان، جانبٌ يرفعُ عنه العقابُ، وجانب يُكتب له فيها الثوابُ، فالذي يصلي أربعين ليلة رُفَع عنه العقابُ، لكن ليس له فيها ثواب لما ارتكبَه من عمل بذهابه إلىٰ العَرَّاف، فالذي يذهب إلىٰ العَرَّاف أو الكَاهِن أو السَّاحِر عملُه لا يُؤجر عليه أربعين ليلةً، ولا يعني هذا أنَّه لا يُصلي؛ لأنَّه لو لم يصلْ يكون كافراً ؛ لأنَّ تركَ الصلاةِ كفرٌ كما جاء في

---

(١) سبق تخريجه.

الحَدِيث، (**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة**)[١] لكنَّه يصلي وليس له في صلاتِه أجرٌ؛ لأنَّه ذهب يسأل المخلوقَ عمَّا لا يعرفُه إلا الخالقُ، فالغيب لا يعرفه إلا الله ﷻ، ليس في البَشَر أحد يعرف الغَيْب إلا الرُسُل الذين علَّمهُم الله ﷻ، أمَّا غيرُ الرُسُل فلا يعلم الغَيْب، وبعض الأَشْخَاص يعتقد أن بعض النَّاس يعلم الغَيْب، حتىٰ أحيانـًا إذا أخبر بمسألة فظهر له أنَّه خالفَ ما أخبرَ قال: اللهُ غيَّرَ! أي: اللهُ أخبرني بكذا وسيغَيِّره، فالاتهامُ لا يكون له هو، بل يجعل الاتهامَ للخالقِ؛ لأنَّه هو الذي غَيَّرَ!!، فالغيبُ لا يعلمهُ إلا الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجِنّ:٢٦، ٢٧]. فلا يعلم الله الغَيْب إلا الرُسُل بنص القُرْآن، فمن ادعىٰ علم الغَيْب فقد ادَّعىٰ حقَّ الخالِق، ومن ادَّعىٰ حقَّ الخالقِ فإنه يُكَفَّر بهذه الدَّعوَىٰ، ومن صدَّقَه فإنَّه يلحقُه الإثمُ والوعيدُ.



(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، برقم: (٢٦٢١)، والنسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، برقم: (٤٦٣)، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلوات، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، برقم: (١٠٧٩)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٢٩٣٧)، (٣٨/ ٢٠)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ما جاء في تكفير من ترك الصلاة عمداً من غير عذر، برقم: (٦٤٩٩)، (٣/ ٥١١)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (١١)، (١/ ٤٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن بعض أزواج النَّبِي ﷺ) هي حفصة علىٰ ما ذكره أبو مسعود الدمشقي؛ لأنَّه ذكر هذا الحَدِيث في الأطراف في مسندها، وكذلك سماه بعض الرواة.

قوله: (من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء) العَرَّاف سيأتي بيانه وهو من أنواع الكهانة.

وظاهر الحَدِيث أن هذا الوعيد مرتب علىٰ مجيئه وسؤاله سواء صدقه أو شك في خبره؛ لأن إتيان الكهان منهي عنه كما في حديث مَعَاوية بن الحكم السلمي، قلت: يا رَسُول الله: (إن منا رجالاً يأتون الكهان، قال: فلا تأتهم) رواه مسلم، ولأنه إذا شك في خبره فقد شك في أنَّه لا يعلم الغَيْب، وذلك موجب للوعيد، بل يجب عليه أن يقطع ويعتقد أنَّه لا يعلم الغَيْب إلا الله.

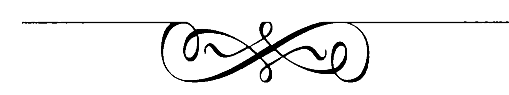


الشَرح

قوله: (من أتىٰ عرافًا) العَرافة من الكَهَانةِ، والعرَّافُ من الكُهَّانِ، أي: بينهما تقارُبٌ في المعنىٰ، فإنَّ كلاً من الكَهَانَةِ والعرافةِ إدَّعاءٌ للغيبِ، لكنَّ الكَاهِنَ يدَّعي المُستَقبَل، والعرَّاف يُدَّعي ما مَضىٰ، هذا من حيث المعنىٰ اللُّغوي، لكن قد يُطلقُ هذا علىٰ هذا بحسبِ السياق.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المُسْلِم يعتقد أن الغَيْب لا يعلمُه إلا الله، هذا من خصائصِ الخالِق جَلَّ وَعَلَا، المخلوقُ لا يعلم الغَيْبَ مهما بلغت مرتبتهُ في الصلاحِ والولاية، وبنص القُرْآنِ كما في قول الله- تعالىٰ-: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن:٢٦]. لو لم يَقل إلا هذا ما أحدٌ يعلمُ الغَيْبَ، ثُمَّ جاء القيدُ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ

مِن رَّسُولٍ ﴾، الرُسُل هم الذين يعلمون الغَيْب بتعليم الله لهم، أمَّا غير الرُسُل فلا يعلمونَ، فمن ادعىٰ أنَّ غيرَ الرسولِ يعلم الغَيْبَ فقد كذَّب القُرْآن، والذي يُكذِّبُ القُرْآنَ حُكْمُهُ: كَافرٌ، فالغيبُ لا يعرفُه أحدٌ لا كاهنٌ ولا عرَّاف ولا غيرهما.

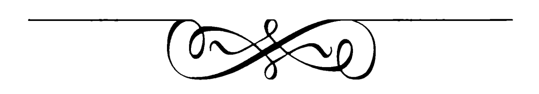


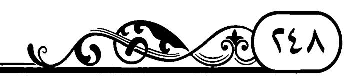
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (لم تقبل له صلاة أربعين يومـًا) إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول؟ قال النووي وغيره: مَعَناه أَنَّه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج مَعَها إلىٰ إعادة، ونظير هذه الصلاة في أرض مغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء، لكن لا ثواب له فيها، قاله جمهور أصْحَابنا. قالوا: فصلاة الفرض إذا أتىٰ بها علىٰ وجهها الكامل ترتب عليها شيئان سقوط الفرض وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل له الأول دون الثاني، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحَدِيث، فإن العُلَمَاء متفقون علىٰ أَنَّه لا يلزم من أتىٰ العَرَّاف إعادة صلاة أربعين ليلة فوجب تأويله، هذا كلامه،

الشَّرح

يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند الشافعية أنَّ الصلاةَ في الأرض المغصوبةِ تُجزئُ، لكنَّه ليس له فيها أجرٌ، وبعض العُلَمَاء نازع في هذا، وقال: إنَّ الصلاة في الأرض المغصوبة باطلةٌ، ولا يرتفع عنه الإثمُ، لابدَّ أن يُعيدها مرةً أخرىٰ؛ لأنَّ الصلاة لابد أن تُصلىٰ في أرض ليست ملكـًا لأحد، وإن كانت مِلكـًا لأحدٍ فلا تُصلىٰ إلا بإذنِه، أمّا الصلاةُ في الأرضِ المغصُوبةِ فإنها باطلةٌ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو مبني على الملازمة بين الإجزاء وعدم الإعادة، والصواب أن عدم الإعادة لا يستلزم الإجزاء، لكن الصلاة في الأرض المغصوبة في إجزائها نزاع، والمشهور من مذهب أحمد أَنَّها لا تجزئ وتجب إعادتها، وفي الحَدِيث النهي عن إتيان الكَاهِن ونحوه، قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم على من يتعاطى شيئًا من ذلك من التعزيرات، وينكر عليهم أشد النكير وعلى من يجيء إليهم ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينسب إلى العِلْم، فإنهم غير راسخين في العِلْم، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

قال: وعن أبي هريرة عن النَّبِي ﷺ قال: (من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) رواه أبو داود.



الشَّرح

بعضُ النَّاس يزعُم أنَّ الأرضَ اليوم كلَّها مغصوبةً، وأنها لا صلاةَ فيها، وهذا قولٌ باطلٌ في الحَقِيقَة؛ لأنَّ هذا من الجهل المُفضي إلى الجهلَ، وليس بصحيحٍ، لكن أحيانًا تكونُ هناك اعتقاداتٌ باطلةٌ، يترتب عليها اجتهاداتٌ باطلةٌ، فالأرض ملكٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وليست لأحدٍ من البَشَر، فالذي يُحيي أرضًا ويعيشُ فيها فإنَّه يملكُها، لكن الذي يزعم أنَّ الأرض اغتُصبت وأن الولايةَ فيها ينبغي أن تكون لفئةٍ مَعَينةٍ، هذا في الحَقِيقَة من الجهلِ الذي يقع فيه من قام علمُه على جهلٍ بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الحَدِيث (من أتىٰ كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر ...)[1] ضَعِيْف لا يصحُّ، وقلنا إن الأحَادِيث التي في السُنَنِ ليست كلُها صَحِيْحةٌ، بل فيها أحاديثُ ضَعِيْفة، وتكفيرُ من أتىٰ إلىٰ الكَاهِن لا يصحُّ فيه حديثٌ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الكَهَانَة والتَّطَيُّر، باب في الكهان، برقم: (٣٩٠٤)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٩٥٣٦)، (١٥/ ٣٣١)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب النكاح، باب إتيان النساء في أدبارهن، برقم: (١٤١٢٤)، (٧/ ٣٢١)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٦٦٧٠)، (٦/ ٣٧٩)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع، باب الكَاهِن، برقم: (٢٠٣٤٨)، (١١/ ٢١٠)، وأخرجه أيضًا البزار والطيالسي وابن الجارود وغيرهم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

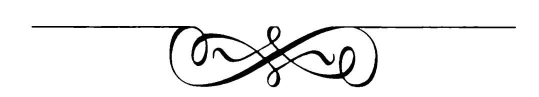
هذا الحَدِيث رواه أبو داود، ولفظه: حدثنا مُوْسَىٰ بن اسماعيل ثنا حماد ح، وحدثنا مسدد ثنا يحيىٰ عن حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبي تميمة عن أبي هريرة أن رَسُول الله ﷺ قال: (من أتىٰ كاهنًا) قال مُوْسَىٰ في حديثه: (فصدقه بما يقول أو أتىٰ امرأة) قال مسدد: امرأته حائضًا أو أتىٰ أمرأة قال مسدد: يعني امرأته في دبرها (فقد برئ مما أنزل علىٰ محمد ﷺ) ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بنحوه، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الأثرم، وضعف محمد هذا الحَدِيث من جهة إسناده، وقال البغوي: سنده ضَعِيْف، وقال الذهبي: ليس إسناده بالقائم.

قلت: أطال أبو الفتح اليعمري في بيان ضعفه وادعىٰ أن متنه منكر، وأخطأ في إطلاق ذلك، فإن إتيان الكَاهِن له شواهد صَحِيْحة، منها ما ذكره المصنف بعده، وكذلك إتيان المَرْأَة في الدبر له شواهد منها: ما رواه عبد بن حميد بإسناد صَحِيْح عن طاووس أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المَرْأَة في دبرها فقال: (تسألني عن الكفر)، ومنها: ما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صَحِيْحه وصححه ابن حزم عن ابن عباس مرفوعًا: (لا ينظر الله إلىٰ رجل أتىٰ رجلاً أو امرأة في الدبر)، والأحاديث في ذلك كثيرة، وغاية ما ينكر من متنه ذكر إتيان الحائض والله أعلم.


الشَّرح

الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قال صحَّحه محمد، أو ضعفه محمد فالمراد به محمد بن إسماعيل البُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنَّ الترمذي تتلمذ علىٰ يد البُخَارِي، وسأله عن كثير من الأحَادِيث، فهذا الحَدِيث سأله عنه فضعفه من حيث إسناده.

هذه بعضُها موقوفٌ، وبعضها مرفوعٌ، أمَّا الموقوفُ لابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد صحَّحه العُلَمَاء، فقال الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا من حيث السَّند لا من حيث ما وردَ في الأحَادِيث، فإنَّ ما وردَ في الأحَادِيث من هذه الأعمالِ فإنَّ كلَّها من الكبَائِر.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قـال: وللأربعـة والحـاكم وقـال صَحِيْح علىٰ شـرطهما: (عـن ... مـن أتـىٰ عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ).

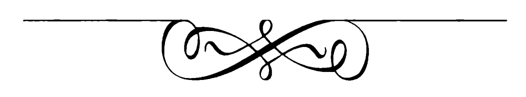
هكذا بيض المصنف اسم الرَّاوِي، وقد رواه أحمد والبيهقي والحـاكم عـن أبي هريرة مرفوعًا، ولفظ أحمد: حدثنا يحيىٰ بن سعيد عـن عـوف عـن خـلاس عن أبي هريرة والحسن عن النَّبِي ﷺ فـذكره، وهـذا إسناد صَحِيْح علىٰ شرط البُخَارِي، فقد روىٰ عن عـوف عـن خـلاس عـن أبي هريـرة حـديث: (أن مُوْسَىٰ كان رجلاً حييًا) الحَدِيث.

الشَّرح

الإنسانُ بطبعه يستشرفُ إلىٰ أن يعلم الغَيْب، فإذا ظـنَّ أن أحـداً مـن البَشَـر عنده هذا العِلْم يذهبُ إليه سواء كان مُتعلِّقًا بأشيائه الخاصَّةِ، أو بمعرفةٍ عامـةٍ، وهذا نقضٌ للتَّوحيدِ، أو نقصٌ له، فـإنَّ الغَيْـبَ لا يعلمـه إلا الله ﷻ، وأخـبر أنَّـه لا يُعلِمُه أحداً إلا مـن ارتضَـىٰ مـن رَسُـول، فالـذي يـذهب إلـىٰ أشـخَاصٌ ممـن يزعمون أنَّه م يعلمـون الغَيْـب مـتردد بـين أن يكـون كـافراً إن اعتقـد أنَّـه يعلـم الغَيْب استقلالاً، أو أن يحرم أجر صلاته أربعين يومـًا كما مر.

يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا الحَدِيث علىٰ شـرط البُخَـارِي، والحـاكم قـال: صَحِيْح علىٰ شرطهما، وهذه العبـارة لهـا مَعَنـىٰ ويسـتخدمها بعـض المُحـدِّثين مُتسـامحـًا في استخدامِها، فهـذا الحَـدِيثُ لـيس علـىٰ شـرط البُخَـارِي، أو علـىٰ شرط البُخَـارِي ومُسْـلِم، كمـا ذكـر الشَّـارِحُ، ولـيس كـل مـن روىٰ لـه البُخَـارِي ومُسْـلِم يكـون علـىٰ شـرطِه، يقـول الشَّـارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنّـض البُخَـارِيَ روَىٰ عـن

خَلَّاس، حديث (إنَّ إبراهيم كان حييـاً ستيراً)[١] صَحِيْحٌ أنَّ هـذا الحَدِيثَ رواه البُخَارِي في صَحِيْحه، لكن رواه عن عـوف عـن ثلاثـة أشـخَاصٌ، عـن الحسـن، ومحمد أي ابن سيرين، وخلَّاس، فلم يَرْوِ البُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ عـن خـلاس وحـدَه في الصَّحِيح، وليس له في البُخَارِي إلا مَوطنٌ أو مَوطنان، وكلاهما ذكـره البُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ مقرونـاً بغيره، فلو كان علىٰ شرطِهِ لم يحتج أن يذكُرَ مَعَه غيـرَه، فالحديثُ وردَ عن ثلاثةِ أشخَاصٌ في إسنادٍ واحدٍ، عوف روىٰ عن محمد بن سيرين وعـن الحسـن، وعـن خـلَّاس، والبُخَارِي ضـمَّ بعضَـهم مَعَ بعض ؛ ليقـويَ بعضَـهم بِبَعْضٍ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وخلَّاسـاً لم يسمع من أبي هريرة، فيكـون الحَـدِيثُ مُنقطعـاً، إنَّمـا سـمِعَ منـه محمـد بـن سـيرين، فلـيس علـىٰ شـرط البُخَـارِي؛ لأنَّـه مـا اكتفـىٰ بالروايـة عنـه وحـدَه، بـل ضـمَّ إليـه آخـرين، فالحديثُ ليس موصولاً لعدمِ سماعِ خلَّاس من أبي هريـرة، فينبغـي التـدقيقَ في العبارةِ، وذكرُ الحاكم أنَّه علىٰ شرطهما فيه تَساهلٌ، والشَّارِحُ عنـدما ذكـرَ أنَّـه علـىٰ شـرط البُخَـارِي تسـاهلَ، لهـذا ذكـر ابـن حَجَـر رَحِمَهُ اللهُ أنَّ خلاسـاً لـم يـرو البُخَارِي له وحدَه، بل روَىٰ لـه مَقرونـاً بغيـره، فيكـون الحَدِيثُ إذاً لـيس ثابتـاً بهذا اللفظِ.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب أحاديث الأنْبِيَاء، باب (٢٨)، برقم: (٣٤٠٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال العراقي في أماليه: حديث صَحِيْح، وقال الذهبي: إسناده قوي، وعلىٰ هذا فعزو المصنف إلىٰ الأربعة ليس كذلك، فإنه لم يروه أحد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ فإنه عزاه في الفتح إلىٰ أَصْحَاب السُنَنِ والحاكم فوهم، ولعله أراد الذي قبله.

قوله: (من أتىٰ كاهنًا..) إلىٰ آخره، قال بعضهم: لا تَعَارُض بين هذا الخبر وبين حديث: (من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) إذ الغرض في هذا الحَدِيث أَنَّه سأله مَعَتقداً صدقه، وأنه يعلم الغَيْب، فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجِنّ تلقي إليه ما سمعته من المَلَائِكَة، أو أَنَّه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر، كذا قال، وفيه نظر، وظاهر الحَدِيث أَنَّه يكفر متىٰ اعتقد صدقه بأي وجه كان؛ لاعتقاده أَنَّه يعلم الغَيْب، وسواء كان ذلك من قبل الشَّيَاطِين أو من قبل الإلهام، لا سيما وغالب الكهان في وقت النُّبُوَّة إنما كانوا يأخذون عن الشَّيَاطِين.

الشَّرْح

المُصنفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: وللأربعة والحاكمِ، يعني أنَّ هذا الحَدِيثَ رواه أَصْحَاب السُنَنِ الأربعة، لكن في الحَقِيقَة لم يروِهِ أَصْحَاب السُنَنِ، إنما رواه أحمد والحاكم، الوهم جاء للمصنف من الحافظ ابن حَجَر ـ رحمهما الله ـ، فإنَّه أورد حديثًا أسنده للأربعة في السُنَنِ، فكان في هذا ما جعل المُصنفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَهِمُ في نِسبتِهِ للأربعة، وقول أحمد هنا: حدثنا يحيىٰ بن سعيد عن عوف عن خلاس عن أبي هريرة، والحسن عن النَّبِي ﷺ، فقلنا: خلاس والحسن لم يسمعا من أبي هريرة، فالحديثُ ليس مَوصولاً بهذا اللفظ.

قوله: (من أتىٰ كاهنًا...)[١] هذا الحَدِيثُ في مُسلم، وهو حديثٌ صَحِيْح؛ لأن صاحبي الصَّحِيحين مُتفقان علىٰ صحةِ ما أخرجاه إلا ما نازعَهم فيه العُلَمَاءُ من الأحَادِيث، هذا الحَدِيث يقول: (من أتىٰ عرافًا لم تُقبلُ له صلاةٌ أربعين يومًا) وليس هذا حُكْمًا بالتكفير، لكن العُلَمَاء قالوا: هو لا يُؤجَر، لكن تسقط عنه العقوبةُ في الآخِرَة، فالفرضُ له جانبان، إسقاطُ العقوبةِ، وإثباتُ الأجرِ، فالذي يُصلي الصلاةَ وقد أتىٰ كاهنًا تَسقطُ عنه العقوبةُ في الآخِرَة، لكن يُحرمُ من أجرِها أربعين ليلة، فهو يُصلي؛ لأنَّ الذي لا يصلي كافرٌ، ويستحقُّ العقابَ، لكن هذا يُحرمُ من الأجرِ كما جاء في الحَدِيث: (إن الرجل يصلي ولا يكون له من صلاته إلا نصفها، ثلثها، ربعها إلىٰ أن قال: عشرها)[٢].

ومن اعتقد أن أحداً من خلقِ الله يعلمُ الغَيْب، فليُعلَّم بما أخبر -تعالىٰ- في كتابه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجِنّ:٢٦، ٢٧]، فنُعلِّمَه الآيةَ، فإن اعتقدَ بعد علمَه بهذه الآية يُكَفَّر ولو اعتقد في غير الكَاهِن؛ لأنَّه اعتقدَ ما يخالف القُرْآنَ. مثلاً: لو اعتقد إنسان أن القُرْآن دخله تحريفٌ، أو نقصٌ أو زيادةٌ :كَفَرَ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩]، فقد أخبر ﷻ أنَّه سيحفظُ القُرْآنَ، أي: من النَّقص والزيادةِ، فإذا اعتقد بعد مَعَرفته بمعنىٰ الآية أنَّ القُرْآن نَقُص أو زِيدَ فيه فإنَّه يكون كافراً، فليس كفرَ من صدَّق الكَاهِنَ لإتيانِه إلىٰ الكَاهِن، إنَّما كُفرُه لأنَّه اعتقدَ ما يخالفُ القُرْآنَ، والذي يعتقدُ خلافَ أخبار القُرْآن فإنه قد كذَّبَ القُرْآنَ، فكُفرُ هذا الشَّخص يأتي من أنَّه قد اعتقدَ ما يخالفُ كلامَ الله ﷻ، فأمَّا الذي يأتي الكَاهِنَ فإنه يُحرَم من أجرِ صلاتِه أربعين يومًا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي حديث رواه الطبراني عن واثلة مرفوعـًا: (من أتىٰ كاهنـًا فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة، فإن صدقه بما قال كفر) قال المنذري: ضَعِيْف. فهذا لو ثبت نص في المسألة، لكن ما تقدم من الأحَادِيث يشهد له، فإن الحَدِيث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه، والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه.

قوله: (فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ) قال الطيبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة، أي من ارتكب هذه فقد برئ من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه انتهىٰ.

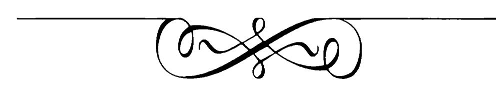


الشَّرح

الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الأحَادِيثَ وردت علىٰ لفظين، لفظٌ قيَّد من أتىٰ الكَاهِن بالتصديقِ، ولفظ لم يُقَيِّد بذلك، فإذا جاءه فسأله فصدَّقه يُكَفَّرُ، أمَّا إذا جاء فسألَه فلم يصدقْه لا يُكَفرُ، قلنا إن المُسْلِم إذا صدَّق إنسانـًا بأنه يعلمُ الغَيْب، وهو يعلمُ أنَّ هذا قد نفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرْآن فإن هذا يكفُر؛ لأنَّه قد كذَّب القُرْآن، سواء كان كاهنـًا أم ساحِراً، أم كان شيخـًا أم عابِداً، فكفرُه من حيث كذَّب القُرْآنَ، قد يقول قائل: إنَّ الكُهانَ يخبرون بأشياء صادقةٍ، فيصدقون فيها، نعم، الكُهَّان والسحرةُ يستعينون بالجنّ والشَّياطينِ، والشياطينُ تسترق الكلمةَ من السَّمَاء إذا تحدثت المَلَائِكَة بما أحدثَ الله عَزَّ وَجَلَّ، فيسمعُ الجِنّي حديثَ المَلَائِكَة، فيخبر به من تحته من الجِنّ، فالشهابُ يأتي ليخبلَ وليعذِّبَ من ينقلُ الخبرَ، فقد يأتيه الشهابُ وقد نقل الخبرَ، وليس هذا

سبْقٌ لله، بل هذا إرادةُ الله، وإلا فإنَّ الله إذا أراد أن لا يصعدَ أحدٌ إلىٰ السَّماء ما صعدَ، لكن أراد - سُبْحَانَهُ - أن يكون هناك فتنٌ وابتلاءاتٌ، فينقلُ الخبرَ إلىٰ من تحته، فالكاهنُ يزيد فيه مائةَ كلمةٍ، فيصدُق في كلمةٍ واحدةٍ، والنَّاس ينسون الكذباتِ، ويحفظون الكلمةَ التي صدَق فيها.

قوله: (قال الطيبي: المراد بالمنزل) الطيبي أحدُ علماءِ الُّلغَة، وله كتاب اسمُه الكاشفُ عن مَعَاني السُنَنِ، شرحٌ لمشكاةِ المصابيح، من أجود أنواع الشروحات، لكنه لا يخلو من التأويلاتِ التي تأثَّر بها، أو تأثَّر بمشايخه فيها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفـر أو يجـب التوقـف فـلا يقـال ينقـل عن الملة؟ ذكروا فيها روايتين عن أحمد، وقيل: هذا علىٰ التشـديد والتأكيـد أي قارب الكفر، والمراد كفر النعمة، وهذان القولان باطلان.

قال: ولأبي يعلىٰ بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفـًا.

أبـو يعلـىٰ اسـمه أحمـد بـن علـي بـن المثنـىٰ الموصـلي الإمـام صـاحب التصانيف، المسند وغيره. روىٰ عن يحيىٰ بن مَعَين وأبـي خيثمـة، وأبـي بكـر بـن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ، مات سنة سبع وثلاثمائة.



الشَّـرْح

إذا صحت الأدلةُ نبحث عن التوفيقِ، لكن إن لـم تصح الأدلةُ فالبحثُ عـن التوفيقِ ليس مُجديـًا، الإِنْسانُ قد يقع في الكُفرِ لأدلةٍ أُخرىٰ وردَت في كتـاب الله في هذه المسألةِ.

قوله: (قال: ولأبي يعلىٰ) أبو يعلىٰ مَعَروف عند المحدثين بكتـابٍ مشـهور له، اسمه (مسند أبي يعلىٰ)، وهو مَعَاصرٌ لأصـحابِ السُـنَنِ، وهنـاكَ أَشـخَاصٌ كثيـرون مَعَاصـرون لأصـحاب السُـنَنِ، كـالبزار وأبـي يعلـىٰ، وبعـدهم الحـاكم والطبراني، لكن العُلَمَاء لـم يرتضـوا هـذه الكُتـب لتكـون مصـدراً يوثَـق بهـا عنـد العودةِ إلىٰ مَعَرفة ما صحَّ من الأحَادِيثِ. فاختاروا أربعَ سُننٍ مَـعَ الصَّـحِيحين، فأصبحَت تُسمىٰ بالكتب الستة، وقـلَّ أن تجـد حـديثـًا يحتاجـه المُسْـلِم خـارج هذه الكتب الستة إلا وفيه علَّةٌ، بل ابن عبد الـبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حـافظ المغـرب المشـهور يقول: قل أن تجد حـديثا لـم يـذكره أصْـحَاب الصَّـحِيحين إلا وفيـه علَّـةٌ، وابـن عبـد الـبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حـافظ المغـرب لـه كُتُـب كثيـرة، منهـا كتابـان عظيمـان، همـا

(التمهيد) ، (والاستيعاب)، جُلُّ علمُ ابنِ تيمية وابنِ القيم ـ رحمهما الله ـ على هذين الكتابين؛ لأنَّهما قد جمعا جميعَ الأقوال فيما مضى تقريباً، كما استفادا من ابن حزم رحمه الله في كُتُبه، فقلَّ أن نجدَ حديثاً لم يذكره أصْحَاب الصَّحِيحين إلا وفيه عِلَّةٌ؛ لأن صاحبي الصَّحِيحين قد انتخبا، البُخَارِي يقول: انتخَبت هذا الكتابَ من ستمائة ألف حديثٍ، ومُسْلِم انتخبَ هذا الكتابَ من ثلاثمائة ألف حديث، فاستخلصا وأخرجا في كل مَسْأَلَة بعضَ الأحَادِيث التي صحَّت فيها، لكن لم يذكُرا كلَّ الأحَادِيثَ في المسألة، فإذا جاءت مَسْأَلَة لم يذكُرا فيها حديثاً فلابد من التحقيقِ والتمحِيص، لكن إذا أوردا أحاديثَ في مَسْأَلَة صَحِيْحةٍ فهذا ليس مَعَناه أنهما أخرجا في هذه المسألة كلَّ ما صح، بل ينتخبان انتخاباً، ولهذا متون البُخَارِي ومُسْلِم ترى فيها علامات الألفاظ النَّبوية، وفي الكُتب الأخرى تَرى أحياناً ركاكةَ الألفاظ أو تداخلَ الألفاظ أو انقلابها.

فهذه الكُتبُ الستةِ هي الأصل في مَعَرفة الأحكامِ الشَّرْعِية؛ لأنَّ الكُتبَ الأُخرى لم يَعتنِ بها العُلَمَاءُ، لا حِفظاً ولا دراسةً، وفي الماضي ما كان الكتاب محفوظاً مثلُ اليوم، الآن الكتابُ مُنتشرٌ في كل مكان، ولو أراد شَخْص أن يُغيِّرَ فيه لا يستطيع، في الماضي كان الكتاب غالباً ما يكون محصوراً في مدينةٍ واحدةٍ، في المكان الذي يعيش فيه صاحب الكتابِ، فيُعطى لبعض النُّساخِ ينسخون منه، وبعضُ المصنفين لا يعطيه للنساخ حتى يموتَ، فيحتاجُ إلى تحقيقٍ وإلى دراسةٍ، فإنَّ بعض العُلَمَاء قد يُبتلى بابن أخيه، أو بأخيه، أو بعمِّه أو بقريب له يضعُ في كُتُبه بطاقاتٍ ليست له، قال العُلَمَاء عن بعض المحدثين أنَّه كان ابن أخيه يضع في كُتُبه ما ليس منها، كان ابتلي بفلان من أقربائه يضعُ عليه ما لم يقل، فالكتب غير الستةِ تحتاج إلى تأنٍ وتحرٍ، فلا ينبغي كل ما رأينا حديثاً في كتاب مَعَين من الكُتب نسارع إلى قبوله وإلى الاستشهاد به!، بل نحتاج إلى تأنٍّ قبل أن نستشهد به.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا الأثر رواه البزار أيضـًا، وإسناده علىٰ شرط مسلم ولفظه: (من أتىٰ كاهنـًا أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ) وفيه دليل علىٰ كفر الكَاهِن والساحر والمصدق لهما؛ لأَنَّهما يدعيان علم الغَيْب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضىٰ به وذلك كفر أيضـًا.

قال: وعن عمران بن الحصين مرفوعـًا: (ليس منا من التَّطَيُّر أو التَّطَيُّر له، أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتىٰ كاهنـًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ) رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله ومن أتىٰ إلىٰ آخره.

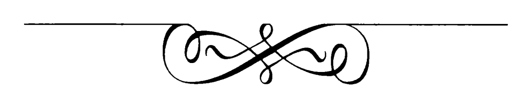
الشَّرح

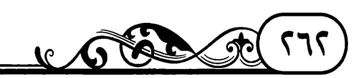
عَلَّل الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ بتعليل صَحِيْح، وهو أَنَّه ما ادعيا علمَ الغَيْب، فكُفرُهُما لادعائِهما علمَ الغَيْب، وكُفرُ من أتىٰ إليهما لأَنَّه صدَّقهما فيما يخالفُ خبرَ القُرْآن، فالتكفير ثبتَ بنص القُرْآن الكَرِيم، هذه الأَحَادِيثُ تعُطينا مَعَنىٰ ما في القُرْآن الكَرِيم، لكنها لم تثبُت من حيث السند.

قوله ﷺ: (ليس منا من التَّطَيُّر أو التَّطَيُّر له..)[1] هذا الحَدِيث قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ رجاله رجال الصَّحِيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة، الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ متورع في الأحكامِ وإن كان بشراً قد يُخطئ؛ لأَنَّه ليس هناك إنسان لا يُخطئ، لكنه رَحِمَهُ اللَّهُ لا يصحِّح الحَدِيثَ، يقول: رجالُه ثقاتٌ، وليس مَعَناه تصحيحُ

(١) أخرجه البزار في المسند، برقم: (٣٢٧٩)، (٩/ ٥٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٤١): " رجاله رجال الصَّحِيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة".

الحَدِيث؛ لأنَّ هناك عِللاً قد تكون في السند ويضعفُ الحَدِيث بها ورجالُه ثقات، مثل الحَدِيث السابق الذي فيه خلَّاس عن أبي هريرة، رجالُه ثقات، لكن فيه انقطاع، فإذا كان ليس فيه علَّةُ يكون صَحِيْحًا، أي: ليس علة ولا شاذًّا، لا يكفي أن يكون السند رجاله ثقات، بل لا بد أن يخلو من العلة والشذوذ، فعندما يقول الهيثمي رَحِمَهُ الله رجالُه ثقات هذا فيه تساهلٌ منه ، وم هذا كلامه ليس تصحيحًا للحديث، بل هذا إنَّما هو تزكيةٌ للرُّواة، هذه همَّة الباحث ولم يُعطِك الحُكمَ فيه.





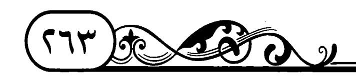
هذا الحَدِيث رواه الطبراني كما قال المصنف في الأوسط، قال المنذري: إسناد الطبراني حسن، وإسناد البزار جيد.

قوله: (ليس منا) أي ليس يفعل ذلك من هو من أشياعنا العاملين باتباعنا المقتفين لشرعنا.



في حديث ابن عباس الهيثمي قال غير هذا، قال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه زمعة بن صالح وهو ضَعِيْف، وحديثُ عمران لم يذكره الهيثمي في (مجمع البَحْرين)، وذكره في مجمع الزوائد، إمَّا أنَّه سقط، أو أنَّه في نسخة دون نسخة؛ لأنَّ بعض الكتب السابقة يكون نُسخُها تختلفُ مثل سنن أبي داود، هناك أكثرُ من خمسين حديثاً في نسخةٍ دونَ نسخةٍ، وكذلك غيرها من الكُتب، إمَّا يسمعُها التلميذُ مَعَ الشيخ مباشرة فيلحقُها بكتابه، وإمَّا أن يكون هناك سَقْطٌ في بعض النسخِ في صفحاتِها، هذا الحَدِيث قال فيه الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه زمعة بن صالح وهو ضَعِيْف.

قوله: (ليس منا) العُلَمَاء يقولون في الأسلوب النَّبَوِي إذا نَفَىٰ هل ينفي عن أمرٍ مُستحبٍ أو يَنفي عن أمرٍ واجبٍ؟ يعني هل المعنىٰ ليس منَّا في كمالِ إيمانِه، أو في الإيمانِ الواجبِ الذي يجبُ أن يأتي به، فيكون فيه حُكْمٌ له باستحقاقِ الإثمِ،العلماءُ قالوا: الرسولُ ﷺ لا ينفي إلا ما كان فيه استحقاقٌ للإثم، وإلا فلو كان النَّفي لاستحقاقِ الكمالِ لا يسلمُ الإنْسان من النَّفي، كلُ واحدٍ منَّا لم يصل إلىٰ درجةِ الكمالِ، فالنَّفي كما سيأتي إنَّما هو لنفي ما يجبُ عليه، (فليس منا) أي: ليس ممن هو علىٰ الأمر الذي يجبُ أن يُسلَّمَ به، أو أن يُعمل به، هل هذا تكفيرٌ؟ فيه احتمالٌ، لكن العُلَمَاء لا يُكفِّرون بهذه الأعمال، فعُلمَ أنَّ النفيَ هنا ليس لإخراجِ الإِنْسان من الإِسْلَام، وإنَّما لبيانِ استحقاقه للإِثْمِ.

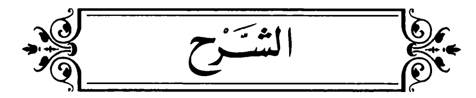


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (من التَّطَيُّر) أي فعل الطَّيْرة (أو التَّطَيُّر له)، أي أمر من يتطير له، كذلك مَعَنىٰ تكهن أو تكهن له أو سحر له.

قوله: (رواه البزار) اسمه أحمد بن عمرو بن عبدالخالق أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير، الذي عزا إليه المصنف، روىٰ عن ابن بشار وابن المثنىٰ وخلق.

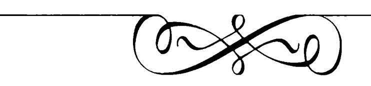
قال الدارقطني: ثقة يخطيء ويتكل علىٰ حفظه، مات سنة اثنين وتسعين ومائتين.



الشَّرح

التَّطَيُّرُ أن يعتقدَ أن حركةَ الطَّيْر لها علاقةٌ بالغَيبِ، كان في الجَاهِلِية إذا أراد إنسانٌ السفَر أو الزواجَ، أو أراد أن يعمل عملاً من الأعمال، يأتي إلىٰ الطَّيْر في أعشاشِها، فيزجُرها، فالطير يخرج من عشه خائفًا، هو يظنُّ أنَّ الطائرَ يفهمَ ما في قَلْبه، وأنَّه سيتجه وجهةً مَعَينةً ترتبط بما يريد، فإن ذهب الطائرُ إلىٰ اليمين مضىٰ إلىٰ أمره، قال: تيامَن، وإن ذهب الطائر إلىٰ الشمال رجع إلىٰ البيت، وإن ذهب الطائرُ إلىٰ الإمام مضىٰ لأمره، وإن قابلَه ورجعَ إلىٰ الخلفِ يرجعُ، والطيرُ لا يعرفُ، نحن نُكَفِّرُ من يعتقدُ أنَّ الإنْسان يعلم الغَيْبَ، فكيف الطائرُ الأعجَمي؟، النَّاس يضعون الحب في المصيدةِ، فينزل الطائرُ من السَّمَاء ليلتقطَ الحبَّ فيقع في المصيدةِ، فلو كان عنده علمٌ ما دخلَ في المصيدة، فالتَّطَيرُ هو أن يربطَ أعمالَه بحركةِ الطَّيْر، هذا من الأعمال المَذمُومةِ.

قوله: (رواه البزار) البزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مَعَاصراً لأصحاب السُنَنِ، والعلماءُ لـم يُرشِّحوا كتابَه ليكون مَرجعًا من المراجِع التي تُعتَمد، الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان من حُفَّاظ الأُمَّة، وله كلامٌ جميلٌ في العِلَلِ، وفي تقييم رجالِ الحَدِيث يقول: أنَّه كان ثقةً وكان يُخطئ، وكان يتكل على حفظه؛ لأن العُلَمَاء نوعان، عالمٌ لا يَروي إلا من كتابِه، وعالمٌ يروي من حفظِه، فالحفَّاظُ مثلُ البُخَارِي أو مُسلمٌ أو الدارقطني إذا رَوَوَا من حفظِهم يكون الحَدِيث مُتقنًا، لكن بعض المُحدِّثين لا يكون حفظُه مُتقنًا، فإذا اعتمد على حفظه يخطئ، ينسب الحَدِيث إلى صَحَابِيٍّ آخرَ، أو يرفع موقوفًا، أو يوقف مرفوعًا، أو يدخل حديثًا في حديث، فلا يقبل ما أورده إلا إذا كان له شواهد من كُتُب أخرى.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: قالَ البَغَوِيُّ: العَرَّاف الذي يدَّعِي مَعَرفةَ الأمورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يستدِلُّ بهاَ علىٰ المسرُوقِ ومكانِ الضَّالَّةِ ونحوِ ذلكَ، وقِيلَ: هو الكَاهِن، والكَاهِنُ هوَ الذِي يُخْبِرُ عن المغيباتِ في المُستَقبَلِ، وقيلَ: الذي يُخبِر عما في الضَّمِير، وقال أبو العباسِ ابنُ تيمية: العَرَّاف اسمٌ للكاهنِ والمنَجِّمُ والرَّمَّال ونحوهم ممن يتكلم في مَعَرفةِ الأمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

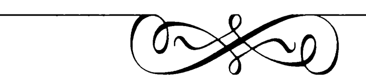
ش: (البغوي) بفتحتين اسمه الحسين بن مسعود بن الفراء المعروف بمحيي السُّنَّة الشافعي صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان، وكان ثقة فقيهًا زاهداً، مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة.



هذا تعريف للعرَّاف، هل العَرَّاف والكاهنُ والساحرُ ألفاظٌ مترادفةٌ أم بينها فرقٌ؟ العُلَمَاءُ مختلفون، منهم من يجعلُ العَرَّاف يشملُ الجميع، ومنهم من يجعل الكَاهِنَ يشمل الجميعَ، ومنهم من يجعل السَّاحِرَ يشمل الجميعَ، والصوابُ ـ والله أعلم ـ أنَّها إذا انفردت قد تشمل الجميع، وإلا فبينها فَرقٌ؛ لأنَّ الكَاهِنَ هو الذي يُخبرُ بالمستقبَل، والعرَّاف الذي يخبُر بالماضِي، هذا في الاصطلاحِ، أما السَّاحِر فقد يُخبرُ ولكن عملُه في إضرارِ النَّاس، للتأثير في عقولِ النَّاس ونفسياتِهم وأبدانِهم إمَّا كرهًا أو مَحبةً أو مرضًا، أمَّا الكَاهِنُ والعرَّاف عملهما في الخبرِ فقط، لكن قد يحل أحدهما محلَّ الآخر بحسبِ السياق.

قوله: (المعروف بمحيي السُّنَّة) البغوي رَحِمَهُ اللهُ يستحقُّ الوصفَ بمُحيِي السُّنَّة، فإنَّه رَحِمَهُ اللهُ له كتابان جليلان، أحدهما :(شرح السُّنَّة)، صنَّفه علىٰ مَنهَج

خاص، لم يسبقه أحدٌ إلىٰ هذا المَنْهَج، ولم يلحقه أحدٌ علىٰ هذا المَنْهَج، فإنَّه يأتي بمسائلِ الفقهِ، فيستفتحَ المسألةَ بنص قرآني، ثُمَّ بما صحَّ من الأحَادِيث، ثُمَّ بأقوالِ الصَّحَابَة، ثُمَّ بأقوالِ التَّابِعِينَ، ثُمَّ بأقوالِ عُلماءِ المذاهب، وهذا تصنيفٌ بديعٌ جداً، وهو علىٰ مَنهَج السَّلَف في تصنيفِه وفي عقيدتِه، فألَّف هذا الكتابَ: (شرح السُّنَّة) علىٰ فقه الشافعي، لكنه ليس مُلتزماً بأصول المذهبِ، بل يتَّبعُ الدليلَ، وله كتابٌ في التفسير، وهو كتابٌ اختصرَ فيه بعض المُصنفات التي سبقته في التَّفسير، وصفَّاه من البِدَع وشوائبِ الانحرافات التي في تِلك الكُتبِ، فكتاباه من أعظم الكُتبِ في هذا الباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (العراف الذي يدعي مَعرفة الأمور الى آخره). هذا تفسير حسن، وظاهره يقتضي أن العَرَّاف هو الذي يخبر عن الواقع كالمسروق والضالة، وأحسن منه كلام شيخ الإِسْلَام، أن العَرَّاف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم كالحازر الذي يدعي علم الغَيْب، أو يدعي الكشف. وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم العَرَّاف، وعند بعضهم هو في مَعناه. وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم الكَاهِن عند الخطابي وغيره من العُلَمَاء، وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين من جنس الكَاهِن وأسوء حالاً منه فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العَرَّاف طرف من السِّحْر والساحر أخبث.



الشَّرح

المُنَجِّمُ ينظرُ في النُّجُومِ لمعرفة الغَيْبِ في المُستَقبَل، فهو يدخلُ في اسم الكَاهِن لا في اسم العَرَّافِ؛ لأنَّ العَرَّاف يخبرُ عن الماضي، فالمنَّجم أشبه بالكاهِن؛ لأنَّه يزعمُ أنَّه ينظر في حركة النُّجُوم ويعرف من خلال هذه الحركةِ ما سيحدث في المُستَقبَل إمَّا من حياة أو موت، أو سعادةٍ أو شقاوةٍ، أو أحداثٍ، فالمنجم يدخل في الكَاهِن أكثر مما يدخل في العَرَّافِ.

قوله: (الساحر أخبث)؛ لأنَّ السَّاحِرَ عملُه الإضرارُ بالنَّاسِ، يأخذ أموالَهم ويؤذيهِم، في أجسادِهم، وقلوبِهم وعقولِهم، أمَّا العَرَّافُ فيأخذُ أموالهم، ولا يؤذِيهم، يكذب عليهم، لكنَّه لا يؤذي أحداً في جسمِه أو في قَلْبه أو في عقلِه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أبو السعادات: العَرَّاف المنجم، والحازر الذي يدعي علم الغَيْب وقد استأثر الله تعالىٰ به، وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا وعرافًا.

والمقصود من هذا مَعَرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكَاهِن، وإما مشارك له في المعنىٰ فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر بِبَعْضِ الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشَّيَاطِين، ويكون بالفأل والزجر والطير والضرب بالحصىٰ والخط في الأرض والتنجيم و الكَهَانَة والسحر ونحو هذا من علوم الجَاهِلِية، ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرُسُل، كالفلاسفة والكهان المنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النَّبِي ﷺ، فإن هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرُسُل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وكل هذه الأمور يسمىٰ صاحبها كاهنًا وعرافًا أو في مَعَناهما. فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ هذه من علوم الجَاهِلِية، ويقول: نعني بالجَاهليةِ كلَّ من ليس من أتباع الرُسُل، فيدخلُ فيه اليَهُود والنَّصارىٰ؛ لأَنَّهم قد حرَّفوا وبدَّلُوا، وليسوا علىٰ اتباع الرُسُل، فكل من عادىٰ المُسْلِمين فهو في جاهليةٍ، وذكر الله الجَاهِلِيةَ في كتابه الكَرِيم في ثلاثة مواضع، فالجَاهليةُ هي الوضعُ الذي يخالفُ وضعض الإِسْلَام. كلُّ وضعٍ لا يقوم علىٰ دينِ اللهِ يكونُ جَاهليةً؛ لأنَّه من الجهلِ، والذي يقيم حياته خارجَ الدِّين لابدَّ أن يقومَ علىٰ الجهلِ؛ لأنَّ مَعَرفةَ النَّفْسِ البَشَرية وما يصلحُها وما يفسدُها، ومعرفةُ الحرام والحلالِ، ومعرفة ما ينفع الإِنْسان وما يضرُه، كلُّه مرتبطٌ بالدِّينِ، ولهذا يقول أهل العِلْم : إن الدِّين جاءَ آمِراً للعقلِ، والعقلُ آمراً للجوارحِ، سواء قلنا إن العقلَ هو العقلُ الذي

يكون في قَلْب الإنْسانِ أو العقلُ الذي يكون في دماغِه، فإذا لم يكن للعقل آمرٌ من الله يفسدُ، ويتصورُ الأشْيَاء على غير حقيقتِها، لكن إذا انضبطَ العقلُ بالوحي استقامت الأعمالُ، وإذا لم يرتبط عقلُ الإنْسان بوحي الله يضلُّ، ولهذا الجَاهِلِيةُ كانوا يعبدون الأصنام، ويعبدون التمرةَ، فإذا جاعوا أكلوُها، وهم في كاملِ عقولِهم، والآن في الهندِ يعبدُ أكثر النَّاسَ البقرةَ وهم في كاملُ عُقولِهم، وعندهم صناعاتٌ وكشوفاتٌ، ويُطلِقُون أقماراً إلى الفَضاءِ.

فالعقلُ إذا لم ينضبط بحكم الشرعِ يضلُّ، فإن المادة تُعرفُ عن طريقِ التجربةِ، لكن قضايا الإنْسانِ لا تعرفُ عن طريق التجربةِ، إنَّما هي تتعلَّق بعلمِ الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه من خصائص الخالِق، لا يستطيع الإنْسان أن يضع نظامًا يتفقُّ عليه البَشَرُ، لكن المادة نظامُها قد وضعَه الله يتفقُ عليها البَشَر، مثلاً الماء يجمدُ عن طريق التبريد، سواء في أمريكا أم في روسيا، الماءُ يُبخر عن طريق التسخين في أمريكا وفي روسيا، المادة ألوانُها واحدة، المعادن، السوائل، خصائص المادة هذه كلُّها ثابتة، وتُعرَفُ عن طريق التجربةِ. لكن الإنْسانُ لا يمكنُ أن يُعرف عن طريق التَجربةِ، ولهذا المُؤَلِّف المشهور ألكسيس كاريل في كتاب (الإنسانُ ذلك المجهول) يقول: إذا أردتم أن تضَعوا نظامًا لإنسان أولاً اخلُقوا الإنْسان، حتى تخلقُوه بصفةٍ مَعَينةٍ، فتعرفون صفتَه وتضعون له النظامَ، أما إذا كان الإنْسان ليس من خلقِكم فإنَّ فيه صفاتٌ وله جوانب تجهلُونها، فإذا وضعتُم له نظامًا أفسدتمُوه، نقول: فالذي يضعُ نظامَ الإنْسانِ هو الذي خلقَه. فالذي وضعَ نظامَ المادةِ فجعل الماء يتبخَّر بالتسخين ويجمُد بالتبريد هو الذي وضعَ نظامَ الإنْسان، فإذا اتبعنا نظام الخالِق للإنسان صَلُحنَا، كما أننا إذا استعملنا نظام الخالِق في تسخين الماء استفدنا من الماء، فالنظام الذي وضعه اللهُ للإنسان هو النظامُ الوحيدُ، كلُّ نظام ليس من الإسْلَام يقومُ على الجهل، وأصحابه يوصفون بالجاهلِيةِ، فالمجتمعات قسمان، قسمٌ جاهِلي وقِسمٌ إسلامِي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

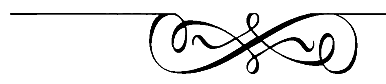
وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغَيْب الذي استأثر الله تعالىٰ بعلمه، وادعوا أنَّه م أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعىٰ الولاية واستدل عليها بإخباره بِبَعْضِ المغيبات فهو من أولياء الشَّيطَان لا من أولياء الرحمن، إذ الكَرَامَة أمر يجريه الله علىٰ يد عبده المؤمن المتقي إما بدعاء أو أعمال صالحة، لا صنع للولي فيها ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعي أنَّه ولي لله ويقول للنَّاسِ: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب.

ولهذا قال ﷺ في وصف الكهان: (فيكذبون مَعَها مائة كذبة) فبين أنَّهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر النَّاس، مَعَ أن نفس دعواه دليل علىٰ كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النَّفْس المنهي عنها بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

الشَّرح

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نحنُ لا نستدلُّ علىٰ صلاحِ الإِنْسان وولايته بإخبارِه عن بعضِ المُغَيَّبَاتِ التي يستعين فيها بالجنّ والشَّياطين، بل نستدلُّ علىٰ صلاحِه بمراقبتِه لخالقِه وبتقواه، وبقيامِه بما فرضَ الله عليه، بعفتِه عن أموال النَّاس وأعراضِهم ودمائِهم، ليس الوَلِيُ هو الذي يُخبَر بالغيب، فإنَّه من أولياءِ الشَّيطَان؛ لأنَّه يستعينُ بالشَّياطِين، فنحن عندنا الغَيْبُ ثلاثةُ أنواعٍ: نوعٌ مَضىٰ: هذا غيبٌ تاريخي، وغيبٌ سيأتي: هذا غيبٌ زماني، وغيبٌ حاضرق مكاني: هو غيبٌ نِسبي، ما وراء الجدارُ غائبٌ عني لا أراه، لكن الشَّياطِين تراه، فإذا

أخبروا الإِنْسان وهو مَعَنا عمَّا وراء الجدار لا يعني أنَّ هذا الإِنْسان يعلم الغَيْب، بل تخبره الشَّيَاطِينُ، فالذي يريد أن يكون ولياً عن طريق الإخبارِ بالمُغَيَّبَات لا يكون من أولياءِ الله، بل هذا من أولياءِ الشَّيطَان، الوِلايةُ شرطُها أن يكون مؤمناً تقياً كما قال - تعالىٰ-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، فكلُّ مؤمنٍ مُتقٍ وليٌ لله، والغَيبُ إنَّما يُخبِر به من كان له اتصالٌ بالجنِّ والشَّياطينِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنهم الإزراء علىٰ نفوسهم وعيبهم لها وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون النَّاس يقولون اعرفوا أنا أولياء، وأنا نعلم الغَيْب، وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص الدُّنْيَا بهذه الأمور.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الذي يدَّعي الولايةَ يُزَّكي نفسَه، ونحن مَنهيون عن تزكية أنفسِنا بقوله - سُبْحَانَهُ -: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]. الذي يقول: أنا وَليٌّ وأنا ممن يحبَّه الله، وأنا رضي الله عنَّي . لا يكون هذا في الإِنْسان الصَّالِح، نقرأُ في تاريخ الصَّالِحين من الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين وأتباعِهم، كلٌّ منهم يحتقرُ نفسَه ويزدريها ويتهمَها، ويخشىٰ عليها، كما قال ابن أبي مليكة في صَحِيْح البُخَارِي: (أدركت ثلاثين من أصْحَاب رَسُول الله ﷺ كلهم يخافُ علىٰ نفسه النفاق، وليس منهم أحد يقول إيماني كإيمان جبريل)(١)، فالصالحونَ يخشون ويخافُون؛ لأنَّهم لا يدرون هل قبَلَ اللهُ صلاحَهم أم لا؟ لأنَّ القُبول أمره غيبٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن كان المُسْلِم يثقُ في ربه ويرجوه ويطمع في رحمته، لكن لا يستطيعُ أن يجزمَ بأنَّه وليٌ، أمَّا يزعم إنسانٌ أنَّه وليٌ ويستدلُّ علىٰ ولايته بعلمِ الغَيْب ؛ فهذا علامةٌ علىٰ كذِبه وأنه ليس من الأولياء، بل هذا من المُقتنصِين لأموالِ النَّاس.

---

(١) أخرجه البُخَارِي مَعَلقـًا، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

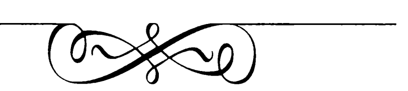
حسبك بحال الصَّحَابَة والتابعين وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوىٰ والشطحات شيء؟ لا. والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القُرْآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالي يعوده النَّاس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفًا من النَّار، ثُمَّ يقوم إلىٰ صلاته، ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكر الله تعالىٰ من صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوىٰ والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة وعلم الغَيْب، بل مجرد دعواه علم الغَيْب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك ولياً لله، ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ولبسوا بها علىٰ خفافيش البصائر، نسأل الله السلامة والعافية في الدُّنْيَا والآخرة.


الشَّرح

هذا من الأبوابُ التي يُحصِّن المُسْلِمَ، فإذا كان اعتقادُه عن أساسٍ شَرْعِي يقوم علىٰ الكتابِ والسُّنَّة لا يستطيع أحدٌ أن يأخذَ مالَه بغير حقٍ، ولا أن يخدَعه فيما يخدع فيه كثير من النَّاس؛ لأنَّ الكَاهِن والعرَّافَ أصْحَاب مصالح، والإنسانُ إذا اعتقدَ أن الكون كلُّه بيدِ الله، ولا يعلمُ الغَيْب إلا الله، ولا ينفعُ إلا الله، ولا يضرُّ إلا الله، ولا يجيبُ من دعاه إلا اللهُ، قَلْبه يكون مُوحداً مُتعلقاً بخالقِه، محبةً ورجاءً وخوفًا، وتعظيماً، هذا مَعَنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥]. أي: لا نعبُد غيرك، ولا نستعين بغيرِك، فيكونُ إنساناً مُحصَّناً

متميزاً، فلا يستطيع أحدٌ أن يخدعه، أو أن يجرَّه إلىٰ ما فيه دنسٌ في عقيدته، أو في خُلقِه أو يبتزَّ أمواله، لكن إذا اعتقد أنَّ هذا يعلمُ الغَيْب، وأنَّ هذا ينفعُ ويضرُّ، وأنَّ هذا يُعينُ ويُغيثُ ؛ تَوزَّعَ القَلْب، فيصبح القَلْب مُشتَّتَا، فيدخل في الشِّرْكِ، فالذي يتعلَّق قَلْبه بالمخلوقِ يتمزقُ ويتيهُ في أوديةِ الظلامِ، فكثير من مشايخِ الطُّرقِ يأخذُ أموالَ النَّاس بغيرِ حقٍّ، ونجدُ كثيراً من الفقراء يُقدِّم ما يملكُ من الأبقارِ والأغنامِ قُرباناً إلىٰ صاحب القبرِ، أو إلىٰ الوَلِي الحيِّ ليحقق له مطلباً من مطالب الدُّنْيَا أو الآخِرَة، لاعتقاده أن هذا يملكُ، والإسلام يقول: إنَّ هؤلاء لا يملكون، الكونُ بيد الله، والنفعُ والضرُ بيد الله، ولا يُدْعَىٰ إلا اللهُ، ولا يُخضَعُ إلا للهُ، ولا يُطَاعُ إلا الله، ولا يُحبُّ إلا الله، ولا يَخافُ إلا من الله، وإذا تعامل مَعَ الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فالله رحيمٌ ودودٌ، رؤوفٌ، لطيف، لا يعامل العبد بقهِره وعظمتِه، بل يعامله بلطفِه وبرحمته، وبودِّه ورأفته، ويعلم أنَّه فقيرٌ محتاجٌ، وأنَّه مَعَرَّض للخطرِ، فلا يحاسبُه حسابَ الكمال، وإلا فلو حاسبنا الله علىٰ ما أعطانا من النِّعم فإننا نهلِكُ، لكن الله يعفو ويغفرُ ويرحمُ، ويتجاوزُ، ويعطي، وقد يمنعُ لمصلحةٍ رآها، فكم من إنسانٍ كان فقيراً فأعطاه الله، فلما اغتنىٰ فَسق وانحرفَ.

فهذا البابُ يساعدُنا ويعينُنا في أن نتخلص من الأوهام، وأن نتعلَّق بخالقنا عَزَّ وَجَلَّ، فالغيب لا يعلمه إلا اللهُ والنفع والضر بيدِه، والإغاثةِ بيده، والكونُ كله بيده، فهذا مَعَنىٰ لا إله إلا الله، لا نُعلّق قلوبُنا إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



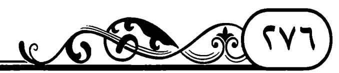
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قلت: كيف يكون علم الخط من الكهانة؟ وقد روىٰ أحمد ومُسْلِم عن مَعَاوية ابن الحكم أَنَّه قال لرسول الله ﷺ: (ومنا رجال يخطون فقال: كان نبي من الأنبِيَاء يخط فمن وافق خطه فذاك).

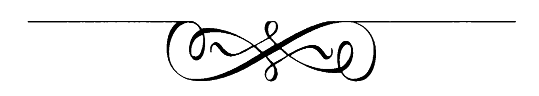
الشَّرح

هذا الخطُّ لعله كان من علاماتِ النُّبُوَّة لهذا النَّبِي، أو مما أعطاه الله بعض الأنْبِيَاء، فكان يخطُّ، فيعرفُ بعضَ المُغَيَّبَات، لكن هذا العِلْم اندثر لم يبق أحدٌ يرويه بطريق صَحِيْح، فالخطُّ الآن ليس مَقبولاً.

قوله: (كان نبي من الأنبِيَاء يخط) هذا الحَدِيث تفرد بإخراجه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو حديث طويل، قال فيه مَعَاويةُ بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بينا أنا أصلي مَعَ رَسُول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، قال: فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما لكم تنظرون إلي، قال: فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكتُّ، فلما صلىٰ رَسُول الله ﷺ قال: بأبي هو وأمي لم أر مَعَلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القُرْآن) أو كما قال رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ قال: (فقلت يا رَسُول الله) لما رأىٰ الرسول ﷺ لم يشتد عليه أحبَّ أن يسأل أسئلة كانت في نفسه، فقال: (إني حديث عهد بجاهليةٍ، وقد جاء الله بهذا الإِسْلَام وإن منا رجالاً يأتون الكُهَّان، قال ﷺ: فلا تأتهم، قال: وإن منا رجالاً يتطيرون، قال: ذلك شيء يجدونه في صدروهم فلا يصدَّنهم، قال: ومنا رجال يخطون، قال: كان نبي من الأنْبِيَاء



يَخطُّ، فمن وافق خطَّه فذاك) هـذا هـو محـل الشـاهد، قـال: (وكانـت لـي جاريـة ترعىٰ لي غنمـًا قبل أحد والجوانية) أُحد جبلٌ مَعَروف، والجواني منطقـة بقربـه، قال: (فاطلعتُ عليها فوجدت ذئبـًا قد أخذ شاة منها، قال: وأنا رجل من بني آدم آسفُ كما يأسفون، قال: فصككتها صكة) أي ضربَها بكفـه علىٰ وجههـا، قـال: (فأتيتُ رَسُول الله ﷺ، قال: فعظَّم ذلك) أي: تَغَيَّرَ (قال: قلت يا رَسُول الله: أفلا أعتقُها؟ قال: ائتني بها، قال: فجئته بها فسألها، أين الله؟ قالـت: في السَّـمَاء. قـال: مـن أنـا؟ قالـت: أنـت رَسُـول الله، قـال: أعتِقهـا فإنهـا مُؤمنـة)[(١)] هـذا الحَـدِيث بكاملـه، وفيـه هـذا الشـاهد وفيـه فوائـد كثيـرةٌ، هـذا الحَـدِيثُ يتعلـق بالكَهَانَـة والتَّطَيُّر والخطِّ، وكذلك هذا الحَدِيث في آخره سؤال النَّبِي ﷺ للجارية عـن ربِّهـا؛ لأن النَّـاس في الجَاهِلِيـة كـانوا يعبـدون الأصـنامَ التـي يسـمونها آلهـةً، وأصنامُهم في الأرض، فكأن النَّبِي عليه الصلاة والسلام أرادَ أن يتأكدَّ من إدراكها لربهـا، فعنـدما قالت: إنَّض الله في السَّمَاء عـرف أنَّهـا تعرفُ الإيمانَ، ثُـمَّ سـألها عنـه فـأقرت بِنبُوتِه، وهذان من أقر بهما فقد دخل في الإِسْلَام، فقوله: أنَّه كان نبيٌ يخط، هـذا هو محلُ الشاهدِ وسيشرحه الشَّارِحُ رحمه الله.



(١) صَحِيْح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، برقم: (٥٣٧)، (١/ ٣٨١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

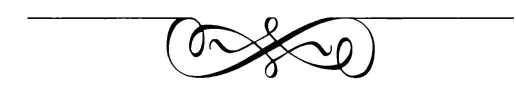
قلت: قال النووي: مَعَناه أن من وافق خطه فهو مباح له، لكن لا طريق لنا إلىٰ العِلْم باليقين بالموافقة، فلا يباح، والقصد أنَّه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين.

الشَّرح

إن النَّبِي ﷺ قد أخبرَ أن هناك نبيًا كان يخطُّ، ولعل هذا الخطَّ آيةُ هذا النَّبِي؛ لأن الله كان يُعطي الأنْبِيَاء آيات، فموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاهُ الله العصا؛ لأنَّ عصره كان عصرُ سحر، حتىٰ إن فرعونَ عندما أحضر السِّحْرةَ لمحاربة مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا يَصِلون إلىٰ قُرابةِ أربعين ألفَ ساحرٍ كما يقول العُلَمَاء، فيدلُّ علىٰ أن السِّحْر مُنتشرٌ، وأن النَّاس يعرفون مَعَنىٰ السِّحْر، فإذا جاءت آيةٌ في ظاهرها أنَّها سحرٌ لكن في حقيقتها أعظم من السِّحْر أدركَ النَّاس أنَّها ليست من السِّحْر، فجاءت لهذا النَّبِي آيةٌ من جنس ما عند قومِه، وكذلك عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان الطب في عصره قد بلغ شأواً كبيراً، فجعل الله آيةَ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من جنس ما يفهمُه قومُه، وإلا لو أُعطيَ لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آيةٌ في أمرٍ آخر ربما لا يُدركون أنَّها آيةٌ، فكذلك أنَّ الله أعطىٰ نبينا ﷺ آية هي من جنس ما في القوم، وهي هذا الكتابِ الكَرِيم الذي أنزله الله بأفصحِ لغةٍ وأبلغ لغةٍ، فلو أعطاه آيةً أخرىٰ ربما لا يُدرِكون أنَّها آيةٌ صادقةٌ، فربما كان الخطُّ مُنتشراً في عصرِ هذا النَّبِي، والنَّاس كانوا يكَذبُون، فأعطاه الله هذه العلامةَ، ما يدرينا أنَّ الخطَّ الذي عند النَّاس اليوم هو من بقايا تلكَ العلامةِ التي أعطاها الله النَّبِيَ الماضيَ، فلا ينبغي لنا أن

نَقْفُ ما ليس لنا به علمٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما يُدرينا أنَّ هذا الخَطُّ الذي بأيدي النَّاس اليوم هو مثل ذلك الخطِّ الذي كان للَّنبي الذي كان يخط، فينبغي أن نتوقفَ حتىٰ لا نقعَ في محذورٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال غيره: المراد به النهي عنه والزجر عن تعاطيه؛ لأن خط ذلك النَّبِي كان مَعَجزة وعلمًا لنبوته، وقد انقطعت نبوته، ولم يقل: فذلك الخط حرام دفعًا لتوهم أن خط ذلك النَّبِي حرام. قلت: ويحتمل أن المعنىٰ أن سبب إصابة صاحب الخط هو موافقته لخط ذلك النَّبِي، فمن وافق خطه أصاب، وإذا كان كذلك وكانت الإصابة نادرة بالنسبة إلىٰ الخط، ولا طريق إلىٰ اليقين بالموافقة صار ذلك بالنسبة إلىٰ من يتعاطاه من أنواع الكهانة؛ لمشاركته لها في المعنىٰ.

إذا علمت ذلك فاعلم أن مذهب الإمام أحمد أن حُكْم الكَاهِن والعراف الاستتابة، فإن تابا وإلا قتلا، ذكره غير واحد من الأصحاب، فأما المعزم الذي يعزم علىٰ المصروع، ويزعم أنَّه يجمع الجِنّ وأنها تطيعه، والذي يحل السِّحْر، فقال في الكافي: ذكرهما أصْحَابنا في السِّحْرة الذين ذكرنا حُكْمهم، وقد توقف أحمد لما سئل عن الرجل يحل السِّحْر، فقال: قد رخص فيه بعض النَّاس، قيل: أنَّه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا، قيل له: فترىٰ أن يؤتىٰ مثل هذا يحل، قال: ما أدري ما هذا، قال: وهذا يدل علىٰ أنَّه لا يكفر صاحبه ولا يقتل، قلت: إن كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلىٰ الجِنّ فإنه يكفر ويقتل. ونص أحمد لا يدل علىٰ أنَّه لا يكفر، فإنه قد يقول مثل هذا في الحرام البين.



الشَّرْح

قوله: (قال غيره) هو الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن النووي أوردَ كلام الخطابي في شرحه، وأورد كلام القاضي عياض في شرحِه، والشَّارِحُ ينقلُ من النَّوَوي رَحِمَهُ اللَّهُ، فهنا قال غيره: إنَّ الخطَّ كان علامةً علىٰ نبُوةِ ذلك النَّبِي، أي: كانَ بُوحي مِن

اللـه، فالـذي يَخـطُّ اليـوم كأنَّـه يَـدعي بقـاءِ الـوحيِ الـذي عـن طريقِـه الخـطُّ، فالحـديث جـاءَ زَجـراً عـن الخـطِّ؛ لأنَّـه بَـيَّن أنَّ هـذه كانـت علامـةُ نَبِـيٍ قَبلَنـا، فتعَاطِيها كأنَّنا نَدَّعِي بقاءَ الوَحي.

هل الخَطُّ يَدخُلُ في العَرَّافةِ والكهَانةِ؟ يُحتمل أنَّه يَدخلُ؛ لأنَّه لم يـأت نبي بكِهانةٍ ولا عرَافةٍ، وأمَّا الخَـطُّ الـذي جـاء نبيٌ بـه فنقـول لمـن يتعاطـاه: إنَّ هـذا الخطَّ لا نعرفُ أنَّه هو الخَطُّ الذي أباحَه الله، فقد تقعُ في المحذورِ فتخبرَ بشيء كَذبٌ؛ لأنَّ الخطَّ هـو إخبـارٌ عـن سؤالٍ يسـألُه الشَّـخص لمـن يَخُـطُّ، إمـا عـن مفقودٍ، وإمَّا عن ضـائعٍ، وإمَّـا عـن أمـرٍ مُسـتقبلٍ، فالـذي يتعـاطىٰ الخطَّ سيرىٰ أشياء يفهم منها جوابـاً للسـائل، هـذا الجـوابُ لا نثـقُ أنَّـه صـادقٌ فيـه، وأنـه قـد استنبطه من طريقٍ صَحِيْح، هذا هو وجهُ تحريمِه.

نصّ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لا يفهم منه حُكْم، بل يفهم أنَّـه توقـف، قـال: "لا أدري مـا هذا"، وليس هذا حُكْمٌ؛ لأنَّه إذا سُـئل شَـخْص عـن مَسْـأَلَة فقـال: لا أدري أو لا يظهر لي في هذا شيء، أو لا أعرف هذا لا يُعَدُّ هذا حُكْمـاً منه، فالإمـام أحمـد رَحِمَهُ اللَّهُ لم يحكُم، لكن الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنَّ الإمامَ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لا يمكـن أن يقولَ في المُعزِّم الذي يعزِّم علىٰ الجِنّ بالسحرِ الذي فيه شِرْك: "لا أدري" ، ويتوقَّـف عنه؛ لأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ قد يتوقف في الجواب عن أمر حرامٍ بَيِّنٍ، وهـذا مـن بـابِ الـورعِ، هذا مَنهَجه رَحِمَهُ اللَّهُ، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عندما أُخبر بأنَّ شَخْصـاً يأتي بعملٍ غريـبٍ، وهو أنَّه يأتي بإناءٍ فيُغَيبُ فيها شَخْصـاً ولداً صغيراً أو نحو ذلك، لم يظهر له فيـه وجهُ الحكـمِ فتوقَّـفَ، لكـن الشَّـارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ قـال: إن كـان هـذا الفعلُ يقـومُ علـىٰ الشِّرْك فلا شك أنَّـه حـرامٌ ولا يجـوزُ، أمَّـا إن كـان فيـه أمـورٌ أُخـرىٰ لـيس فيهـا شِـرْك وإنَّمـا فيهـا اجتهـاداتٌ بصـورٍ مَعَينـةٍ واجتهـاداتٍ شَخْصيةٍ للمُعـزِّم فهـذا الذي توقَّف فيه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقالَ ابنُ عباسٍ في قَومٍ يَكتبُونَ أبا جَاد ويَنظُرُونَ في النُّجُوم: ما أرَىٰ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ له عند الله مِنْ خَلاقٍ.

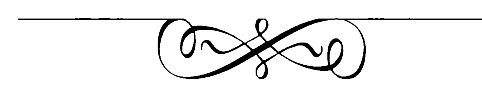
ش: هذا الأثر ذكره المصنف عن ابن عباس ولم يعزه، وقد رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا وإسناده ضَعِيْف، ولفظه: (رب مَعَلم حروف أبي جاد دارس في النُّجُوم ليس له عند الله من خلاق يَوْمَ القِيَامَةِ) ورواه أيضًا حميد بن زنجويه عنه بلفظ: (رب ناظر في النُّجُوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق).

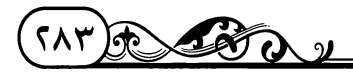
الشَّرح

أبا جاد هي التي نسميها أبجد، الحروفُ العربيةُ كان لها ترتيبٌ قبل الإِسْلَام، وإلىٰ نهايةِ القرن الأول تقريبًا، ولم يُغَيرُ ترتيبُها بالترتيبِ الحَدِيثِ إلا بعضُ علماء النحو، هم نصر بن عاصم الليثي، المتوفىٰ عام تسعة وثمانين، وأبو الأسود الدُؤلي وآخرين، هم الذين وضعوا هذا النحو، فهذا العالِمُ غيَّر ترتيبَ حروف الُّلغَة، وفي الماضي ترتبُ علىٰ حسابِ الجُمل، أبجد هوز حطي كلمن إلىٰ آخره، فغيرَها إلىٰ ألفٍ، باءٍ، تاءٍ، والقدماء يضعون لأبجد أعداداً، فأبجد، يضعون واحد، اثنين، ثلاثة، إلىٰ عشرة، ثُمَّ عشرين، ثلاثين، إلىٰ مائة، ثُمَّ مائتين، ثلاثمائة، حتىٰ عندما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحروف المقُطعة في أوائل السور كانت اليَهُود تعرفُ ترتيب أبجدَ، فعندما قال الله – تعالىٰ –: ﴿الٓمٓ﴾ أخذ يحسبون علىٰ الأعدادِ التي تتعلّق بالحروف، فقالوا: عُمرُ أمتك كذا. فأنزل الله بعد ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓمٓر﴾، و﴿الٓمٓصٓ﴾، و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ فقالوا: لقد اختلطَ علينا، كأنهم أرادوا أن يحسبوا حساب بقاء الأُمَّة الإِسْلَامية

علىٰ حسب الحروف المُقطَّعة في أوائلِ السُورِ، وبعض المفسرين فسَّر حروفَ أوائل السور علىٰ حسب الأعداد التي وردت في هذه الحروف، وهذا في الحَقِيقَة ليس له أصلٌ.

فأناس كانوا يتعلمون حروف أبجد علىٰ ضوء ما فيها من أعداد ليستنتجُوا منها أحكامًا، فيقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما أرىٰ لمن فعل ذلك من خَلاقٍ، أي: ليس له نصيبٌ في الدِّين، فالذي يحرصُ أو يتعلَّم هذا العِلْمَ الذي ليس له أصلٌ في الشَّرِيعَة ليستنتج منه مَعَرفة المُغَيَّبَات ليس له في الدِّين من خَلاقٍ.



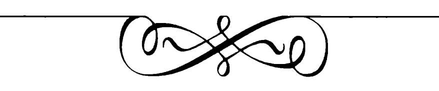


قال المؤلف رحمه الله:

قوله: (ما أرىٰ) يجوز فتح الهمزة من أرىٰ بمعنىٰ لا أعلم له عند الله من خلاق، أي من نصيب، ويجوز ضمها بمعنىٰ لا أظن ذلك؛ لاشتغاله بما فيه من اقتحام الخطر والجهالة وادعاء علم الغَيْب الذي استأثر الله به، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها مَعرفة علم الغَيْب هو الذي يسمىٰ علم الحروف، ولبعض المبتدعة فيه مصنف، فأما تعليمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس بذلك.

الشَّرح

يقول رحمه الله في مَعَنىٰ أرىٰ: إنَّ "أرىٰ" تأتي في العربية بأحدِ مَعَانٍ ثلاثةٍ: أَرَىٰ من الرُؤية البصريةِ، وأَرَىٰ بمعنىٰ: أعلمُ، وأُرَىٰ بمعنىٰ :أظُنُّ، إذا ضُمت الهمزة فإنها تأتي بمعنىٰ: الظَّنِّ، أُراه كذا أي: أظُنُّه، وأراه كذا أي: أعلمُ أنَّه كذا، فيقول: كلا اللفظين جائزٌ، أَرَىٰ بمعنىٰ: أعلمُ أو أُرَىٰ: بمعنىٰ أظنُّ أنَّه ليس له عند الله خَلاقٍ، فيقول: إنَّ تَعلُّمَ أبي جاد من باب الدراسةِ ليس فيه حرجٌ، لكن تَعَلُّمُ أبجد لهذا الغرضِ حرامٌ.





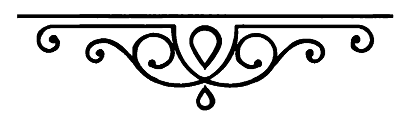
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وينظرون في النُّجُوم) هذا محمول علىٰ علم التأثير لا التسيير كما سيجيء في باب التَّنْجِيم، وفيه عدم الاغترار بما يؤتاه أهل البَاطِل من مَعَارفهم وعلومهم. كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر:٨٣].



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فرقٌ بين علمِ التأثيرِ وعلمِ التَّسيِيرِ، علمُ التسيير هو أن تدرسَ حركةَ النُّجُومَ، أمَّا التأثيرَ فأن تدرسَ تأثير النُّجُومَ في حياةِ النَّاس، هذا البَاطِلُ الذي لا يجوزُ؛ لأنَّ النُّجُومَ لا تؤثرُ في حياةِ النَّاسِ؛ لأنَّها خَلقٌ جامدٌ ليس لها عقلٌ ولا رُوحٌ ولا حياةٌ ولا اختيارٌ، بل تتحرك وفق نظامٍ وضعَه اللهُ لها، فلا يؤَثِّر في حياةِ النَّاس، فالذي يعتقد أن النُّجُومِ تؤثر في حياةٍ النَّاس ويدرسُ هذا العِلْم علىٰ هذا الأساسِ فقد عرَّض نفسَه للعقابِ، أمَّا الذي يدرِس حركَة النُّجُومَ وسيرَها ويستفيدُ من هذه الدراسة لمعرفة الليل والنهارِ، أو ما ينتجُ عن هذا السيرِ بدونِ اختيارٍ فليس في ذلك حرجٌ إن شاء الله، وهذا هو نهايةُ باب التَّنْجِيم، والمُؤَلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد عقد باباً للسِّحرِ، ثُمَّ لأنواعِ السِّحْر، ثُمَّ باباً في التَّنْجِيم، ثُمَّ جاء بباب النَّشْرَة، وكان الأفضلُ أن يُقدَّم بابُ النَّشْرَة كما سبق؛ لأنَّ النَّشْرَة هي حل السِّحْر، إمَّا أن يكون هذا التقديم من النساخ، أو أن يكون له نظر أبعد، فرأىٰ أن الكَهَانَة هي من السِّحْر فترتبط به، ويأتي بالنشرة بعد ذلك.





باب: ما جاء في النَّشْرَة

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر المصنف حُكْم السِّحْرة و الكَهَانَة ذكر ما جاء في النَّشْرَة؛ لأَنَّها قد تكون من قبل الشَّيَاطِين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون مباحة كما سيأتي تفصيله.

قال أبو السعادات: النَّشْرَة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجِنّ، سميت نشرة؛ لأَنَّه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أي يكشف ويزال.

وقال الحسن: النَّشْرَة من السِّحْر، وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحَدِيث (فلعل طباًّ أصابه ثُمَّ نشره) بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١] أي رقاه.

وقال غيره: ونشرة أيضـًا إذا كُتُب له النَّشْرَة، وهي كالتعويذ والرقية.

وقال ابن الجوزي: النَّشْرَة حل السِّحْر عن المَسْحُور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السِّحْر.



الشَّرح

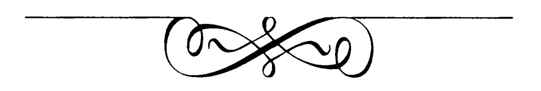
يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب ما جاء في النَّشْرَة) الأفضل دائمـًا في عرض العناوين عدم الجزم بالحكمِ، ولذلك لم يجزم بالحكم حتىٰ يجعل القارئ يسير مَعَ

المُؤَلِّف، لو قال :بـابُ حُرمـة النَّشْـرَة؛ فقـد حَكـم مـن البداية بحُرمتـه، فعـرَّف القارئَ أن موقفَه تحريمها ، فالعنوانُ يَحسنُ أن يأتي بدون تحديد النتيجةِ حتىٰ يعطي القارئَ فرصة لمتابعة الكاتبِ ليصل مَعَه إلىٰ النتيجةِ مـن خـلال القـراءة، وأحيانـًا يكـون الحكـمُ صـريحـًا، فيجـزمُ بـه المُؤَلِّـف رَحِمَهُ اللَّهُ، وأحيانـًا لا يكـون الحُكم صـريحـًا فـلا يجـزمُ بـه، إمـا رغبـةً في أنَّ القـارئَ يطَّلـعُ بنفسـه علىٰ أدلـةِ الحكمِ ويستنبطَ الحكمَ، أو أنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ لم يتبينْ له الحكمَ.

قولـه: (**قـال أبـو السـعادات**) هـو ابـن الأثيـر رَحِمَهُ اللَّهُ كمـا سـبق، قـال: النَّشْـرَة بمعنىٰ :الكشفُ عن المريض، فيكشف عنه ما به من مـن السِّحْر أو المـس مـن الجِنّ والشيطان، والنشرُ لغةً: ضد الطَّي؛ لأن الطَّي هـو الإخفـاءُ، والنشـر هـو البَيَان والوضوح.

قولـه: (**وقـال الحسـن**) الحسـن البصـري رَحِمَهُ اللَّهُ لا يُجيـز النَّشْـرَة وهـو حـلُّ السِّحْر؛ لأنَّه يقول: لا يحلُّ السِّحْر إلا سـاحرٌ، فلهـذا لا يُجيزُه، وسـيأتي أنَّـه قـد خالَفـه سـعيد بـن المسيب وعطـاء الخراسـاني ـ رحمهمـا الله ـ، وهمـا كانـا في عصره، فإنّض هؤلاء الثلاثة من التَّابِعِينَ، فابن المسيب وعطاء يجيزان النَّشْـرَة، والحسنُ يمنع منها، وسيأتي في هذا أقوال.

قولـه: (**وقـال ابـن الجـوزي**) ابـن الجـوزي رَحِمَهُ اللَّهُ لكلامِـه تكملـةٌ في غريـب الحَدِيث، فإنه بعدَ أن قـال: (**ولا يكـاد يقـدر عليـه إلا مـن يعـرف السِّحْر**) قـال: (**ومع ذلـك فـلا بـأس بـه**) فـابن الجـوزي قـد رجَّـح مـذهبَ سـعيد بـن المسيب ومذهب َعطاء الخرساني رَحِمَهُمَا اللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: عن جابر أن رَسُول الله ﷺ سئل عن النَّشْرَة فقال: (هي من عمل الشَّيطَان) رواه أحمد بسند جيد وأبو داود. قال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.



الشَّرح

قوله: (هي من عمل الشَّيطَان) هذا الحَدِيث رواه عبد الرزاق في مصنفه عن عقيل ابن مَعَقل عن همام بن منبه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه، قال همام: سُئل جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّشْرَة، فقال: (هي من عمل الشَّيطَان)[1]، فأولُ مصدر هذا الحَدِيثِ هو مُصنفُ عبد الرزاق يرويه موقوفًا، وهذا الحَدِيثُ الموقوف رواه عن عبد الرزاق تلميذُه الإمامُ أحمدُ بن حنبل؛ لأنَّ الإمامَ أحمدَ تتلمذَ علىٰ عبد الرزاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فروىٰ عنه حديثه عن عقيل بن مَعَقل، عن همام بن منبه، وهمام بن منبه توفي عام مائة وإحدىٰ وثلاثين للهجرة، وجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُوفي عام اثنين وسبعين للهجرة، فبينهما إحدىٰ وستون سنة، هذا فيه مَظنةُ الانقطاع؛ لأنَّه لم يقل سمعت همام بن منبه، أمَّا الإمامُ أحمدُ مَعَ أنَّه روىٰ الحَدِيث عن عبد الرزاق، فقال: حدثنا عبد الرزاق

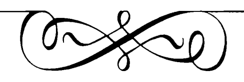
---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في النَّشْرَة، برقم: (٣٨٦٨)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (١٤١٣٥)، (٢٢/ ٤٠)، والبيهقي في السُّنَنِ الكبرىٰ، كتاب الضحايا، باب النَّشْرَة، برقم: (١٩٦١٣)، (٩/ ٥٩٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب الرقىٰ والتمائم، برقم: (٨٣٦١)، (٤/ ٥٨٠)، والبزار في مسنده، برقم: (٦٧٠٩)، (٢/ ٣٠٥).

عن عقيل بن مَعَقل، عن وهب، ففي المُصَنف همام بن منبه وفي المسند وهب بن منبه، ووهبُ تُوفي عامَ مائة وعشرة، فهو قريبُ العهدِ بجابرٍ، قال: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ، وفي الحَدِيث الأول المسئولُ جابر رضي الله عنه، وهنا المسئولُ رَسُولُ الله ﷺ. ففي الكتابِ الأصلي الحَدِيثُ موقوفٌ، والذي رَوىٰ الحَدِيثُ بعد ذلك وهو الإمام أحمد رحمه الله رفعَ الحَدِيث، فهذا الحَدِيثُ يكون علىٰ هذا موقوفًا؛ فجاء تلميذُ الإمامُ أحمد وهو أبو داود السجستاني رحمه الله فروىٰ الحَدِيث عن الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن عقيل عن وهب عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا، فالذي يترجَّح أنَّ الحَدِيثَ موقوفٌ؛ لأنَّ أول من رواه أوقفه.

فالحديثُ فيه عِلَّتان: العِلَّةُ الأولىٰ إسناديةٌ، وهي أنَّ عبد الرزَّاق روىٰ الحَدِيث من طريق همام بن منبه عن جابر رضي الله عنه، وهمامُ توفي عام مائة وإحدىٰ وثلاثين، وجابر رضي الله عنه توفي عام اثنين وسبعين، فبينهما عمر إنسان إحدىٰ وستون سنة مما يُظنُّ أنَّ همَّام لم يسمع من جابر رضي الله عنه، وأخوه وهب بن المنبه أكبر سناً منه، فهو أقربُ إلىٰ جابر رضي الله عنه، فاختلاف اسم الرَّاوِي عن جابر هو العلَّةُ التي في السَّند، العِلَّةُ الثانيةُ في المَتنِ، وهي أن عبد الرزاق روىٰ الحَدِيث موقوفًا علىٰ جابر، أمَّا أخوه وهبٌ فإنَه رَوىٰ الحَدِيث مرفوعًا، وهذا إن صحَّت الرِّوايةُ؛ لأنَّ هنا شَخْصًا مَعَ أنَّ الأصلَ ليس فيه نفسُ الشَّخص، فهذا يجعلنا نرىٰ أنَّ الحَدِيثَ مَعَلولٌ بهاتين العِلَّتينِ، عِلَّةُ اختلافِ الرَّاوِي، وعلة صيغة الأداء.

فالراجح -والله أعلم- أنَّ الحَدِيث موقوفٌ، وعندما نقول موقوفٌ لا يكون في قوةِ حُكْمِه كالمرفوعِ؛ لأنَّ قولَ الصَّحَابِي نستأنسُ به، لكن الصَّحَابِي لا يُشَرِّعُ، فالصَّحَابةُ ﭬ أفضلُ النَّاسِ وأعلمُهم، لكنَّ قولَهم ليس له مكانةُ التشريعِ، ولا شك أن قول الصَّحَابِي أفضل من قولِ من جاء بعده، لكنّه لا يُؤَثَّمُ من خالفَ قولَ الصَّحَابِي إلا إذا أجمعَ الصَّحَابَة عليه، فعندئذٍ يكون قولَ الصَّحَابِي مُجمعًا عليه، فالإجماعُ هو الذي يعطيه القوةَ، وليس هو انفرادُ الصَّحَابِي بالقول، فيختلف قولُ الصَّحَابِي وفتواه عن روايته للحديثِ، فإن كان الحَدِيث مرفوعًا لا يجوزُ مخالفتُه، أمَّا إن كان مُوقوفًا فيبقى هناك مجالٌ للاجتهادِ.

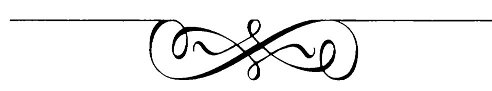


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا الحَدِيث رواه أحمد، ورواه عنه أبـو داود في سننه، والفضـل بـن زيـاد في كتاب المَسَائِل عن عبدالرزاق عن عقيل بن مَعَقل بن منبه عن عمه وهب بن منبه عن جابر فذكره. قال ابن مفلح: إسناد جيد، وحسن الحافظ إسناده، ورواه ابن أبي شيبة، وأبو داود في المراسيل عن الحسن رفعه (النشرة من عمل الشَّيطَان).

الشَّـرْح

هذا حديثُ الحسنِ، الحسنُ لـم يسـمعْ مـن النَّبـي ﷺ، فـإذا قـال الحسـن: قال رَسُولُ الله ﷺ يكون الحَدِيث مُرسلاً؛ لأنَّه سقطَ منه الصَّحَابِي، والمرسـلُ لا يُحتجُ به في مسائلِ الدِّين إلا إذا وردَ له طُرقٌ أُخرىٰ تُقوِّيه مُوصولةً.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (سئل عن النَّشْرَة) الألف واللام في النَّشْرَة للعهد أي النَّشْرَة المعهودة التي كان أهل الجَاهِلِية يصنعونها، هي من عمل الشَّيطَان، لا النَّشْرَة بالرقي والتعوذات الشَّرْعِية والأدوية المباحة فإن ذلك جائز كما قرره ابن القيم فيما سيأتي.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: النَّشْرَة إذا كانت بأدويةٍ مُباحةٍ وهي رفعُ ما بالمسحورِ من السِّحْر جازَ؛ لأن النَّشْرَة التي هي علاجُ المَسْحُور على أربعةِ أنواع:

النوع الأول: أن تكون بالسحر الذي هو شِرْك، وهذا لا يُظنُّ أن عالمـًا من العُلَمَاء يُجيزه؛ لأن الشِّرْك أعظمُ الأمراضِ وأعظمُ الذُّنوبِ، فلا ينبغي للإنسان أن يرتكب الشِّرْكَ حتى يعالج آخاه؛ لأنَّه لا تُعالج المَفْسَدَة بمفسَدةٍ أعظمُ منها.

النوع الثاني: أن تكونَ بعلاج يشبه السِّحْر، أي: بأمر خفي لا يُعرف، فلعلَّه - والله أعلم - هو الذي أباحَه سعيد بن المسيب وعطاء وابن الجوزي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وغيرهم، فإنَّه ليس شِرْكًا.

النوع الثالث: أن تكون عن طريق الرُقَى الشَّرْعِية؛ لأنَّ القُرْآن الكَريم رُقىً وعلاجٌ للسِّحر بإذن الله، فإن اللهَ أنزل سورتي المُعوذتين لعلاجِ رَسُول الله ﷺ مما وقع عليه من السِّحْر، وكان ﷺ يَتعوذُ بهما طوالَ حياتِه، فكان يقرأُ في الليل عند النَّوم بالمعوذات ثلاث مرات ويَتفلُ في يديه ويمسح بهما جسمَه الشريفَ، هذه رُقَىً وتعوذاتٌ شَرْعِيةٌ.

النوع الرابع: أن تكون بالطرقِ الشَّعبيةِ القَديمةِ، وهي يُسمِّيها العُلَمَاءُ بالرُّقيةِ العربيةِ وسيأتي في آخر المبحث بيانُها إن شاء الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وقال سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله) مـراد أحمـد والله أعلم أن ابن مسعود يكره النَّشْرَة التي من عمل الشَّيطَان، والنشرة التي بكتابة وتعليق كالتمائم، فإن ابن مسعود كان يكره التمائم كلها من القُرْآن وغير القُرْآن، أما النَّشْرَة بالتعويذ والرقي بأسماء الله وكلامه من غير تعليق فلا أعلم أحداً كرهه، وكذلك ما رواه ابن أبي شيبة عن إبراهيم كانوا يكرهـون التمـائم والرقىٰ، والنشر محمول علىٰ ما ذكرنا.

الشَّرح

والمعنىٰ أَنَّهم كانوا يكرهون التمَائم الشِّرْكيةَ، والرُّقىٰ الشِّرْكية، لا الرُّقـىٰ عامَّةً، وإلا فإن الأحَادِيث جاءت بجوازِ الرُّقية الشَّرْعِية وحثَّت عليهـا وأمـرَت بهـا، وكـان جبريـلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرقِي النَّبِي ﷺ، وكـان النَّبِي ﷺ يَرقـي نفسَـه وأولادَ بنته، فالرقيةُ الشَّرْعِية ليس فيها محذورٌ، لكن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كـان يكـرهُ تعليـقَ التمَائمَ، فإنَّه قد رَوىٰ أبو داودُ أنَّه رأىٰ في عُنق أحـد أبنـاء الإمـامِ أحمـدَ تميمـةً، والإمام أحمد هو الـذي روىٰ عـن ابـن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَراهـةَ التمـائمِ، فلـو كانـت الرِّوايةُ صَحِيْحةً ما علَّق التميمةَ علىٰ ولدِه أو أجازها، فإذا جاءت الآثار مُسندةً إلـىٰ أصْـحَابها، لا يُستشـهدُ ولا يُسـتدل بهـا حتـىٰ تُـدرَس أسـانيدُها، مثـلُ الأحَادِيـثِ، فـإن النَّـاس إذا جرُءوا أن يكـذبوا علـىٰ رَسُـول الله ﷺ فمـن بـاب الأولىٰ يَكذبون علـىٰ الصَّـحَابَة والتَّابعين، خاصَّـة وأن المـذاهبَ الفقهيـة كـان بينها ولا زال تنافسٌ علـىٰ تكثير مـن يقـول بـآرائهم، فـلا ينبغـي الاستعجالُ في قبولِ الآثار إلا إذا دُرست أسانيدها، فرواية الإمـام أحمـد عـن ابـن مسـعود لـو كانت صَحِيْحة لما خالَفها؛ لأنَّه كان شديدَ الاتباعِ للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

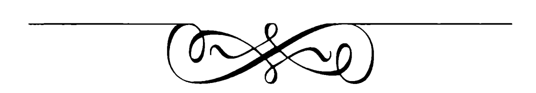
قال: وفي البُخَارِي عن قتادة قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه، أو ينشر؟ قال: لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه.

هذا الأثر علقه البُخَارِي، ووصله أبو بكر الأثرم في كتاب السُنَنِ من طريق أبان العطار عن قتادة مثله، ومن طريق هشام الدستوائي عن قتادة بلفظ: (يلتمس من يداويه فقال إنما نهىٰ الله عما يضر ولم ينه عما ينفع).

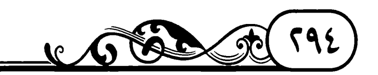


الشَّرْح

قول سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأما ما ينفع فلم ينه عنه)[١] لكن الذي يحلُّ السِّحْرَ بالشركِ ضارٌّ، وأشدُّ أنواع الضررِ الشِّرْكُ بالله عَزَّ وَجَلَّ. فلا يُظَنُّ أن قول سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إباحةٌ لحلِّ السِّحْر بالسحرِ؛ لأنَّ الشِّرْك أشدُّ أنواعِ الضررِ.



(١) أخرجه البُخَارِي مَعَلقـًا، كتاب الطب، باب هل يستخرج السِّحْر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن قتادة) هو ابن دعامة بكسر الدال السدوسي البصري، ثقة ثبت فقيه من أحفظ التَّابِعِينَ، يقال أَنَّه ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومائة.



الشَّرح

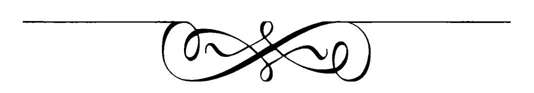
هذه ترجمة لقتادة بن دعامة السدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو ممن اتُهم بالقَدَرِ، فكيف يروي الإمام البُخَارِي عن رجل اتُهمَ بالقَدر؛ لأنَّ القولَ بالقَدرِ قولُ مُبتدع، ونقف هنا وقفةً لنأخذ نموذجًا من مَعَاملةِ أهلِ السُّنَّة لأصحاب البِدَع، اختلفَ القدماءُ في أخذ الرِّواية عن الشَّخص إذاكان مُبتدعًا على أربعةِ مَذاهبَ، منهم من ردَّ الأخذَ عنه مطلقًا، وهذا مذهبُ الثوريِ ويحيى بنِ مَعَين ـ رحمهما الله ـ، ومنهم من أخذَ عنه مُطلقًا إلا إذا ثبت أنَّه ليس صادِقًا، وهذا مذهبُ الإمامين البُخَارِي ومُسْلِم ـ رحمهما الله ـ، ومنهم من لم يأخذ عن صاحب البِدَعة الدَّاعيةِ، الذي يدعو إلى بِدعتِه، ويأخذُ عنه إن كان لا يدعُو إليها، وهو المذهبُ الثالث، ومنهم من يأخذُ عن أصْحَاب البِدَع الصغيرةِ، وليست كبيرةً.

والأئمةُ الستةُ البُخَارِي ومُسْلِم وأبو داود والترمذي والنَّسائي وابنُ ماجه مَنهَجهم يُسمى مَنهَج أهلِ الحَدِيث، فاستقرأنا كُتُبَهم فوجدنا أنَّ الجميع رَوَوا عن مائة وواحد وأربعين رجلاً قد اتُهموا بالقدرِ والإرجاءِ والتَّشيُعِ، روى البُخَارِي ومُسْلِم أو أحدهما عن ثُمانية وتسعين راويًا ممن رُموا بالبدِع، وسأذكر نماذج، أبان بن تغلب قال فيه المُحدِّثون: شِيعيٌ جَلدٌ، لكنَّه صدوقٌ، روى عنه مُسلم، إبراهيم بنُ طهمان رُمي بالإرجاءِ، روى عنه البُخَارِي ومُسْلِم، أحمدُ بن مفضل من رُؤساء الشيعةِ لكنَّه صدوقٌ روَى عنه مُسلم،

إسحاق بن سويد نَاصِبي أي: كان يقعُ في علي ﷺ رَوىٰ عنه البُخَارِي ومُسْلِم، إسماعيل بن أبان نسبُوه للتَّشَيُّع، رَوىٰ عنه البُخَارِي، إسماعيل بنُ إبراهيم أجَابَ في مِحنةِ القولِ بخلقِ القُرْآن، ولهذا لا يروي عنه الإمام أحمدُ، لكن روىٰ عنه البُخَارِي ومُسْلِم، وهكذا، فالعالمُ الذي لا يُعرفُ عنه الكذبَ وهو صاحبُ بِدْعَة ويُحتاجُ إلىٰ ما عنده من العِلْم يجوزُ أن يُؤخذ عنه، ولم يُعرفُ الإفراطُ إلا في عصورٍ متأخرةٍ، ولا يُتهمُ مثلُ البُخَارِي ومُسْلِم أنَّهما يُحابِيان أصْحَاب البِدَع، لكن هذا موقف؛ لأنَّ الذي وقعَ في البِدَعة يَعتقدُ أنَّه علىٰ حقٍّ، والعلمُ الذي نأخذُه عنه لا علاقةَ له بالبدعةِ، وقد تحرَّىٰ الأئمةُ عن هؤلاء الأَشْخَاص فلم يجدوهم يَكذبون، فالرِّواية عن المُبتدعِ الذي لا يكذبُ تجوزُ، وقد ذكرنا في أولِ الكتابِ أنَّ علماءَ الدَّعْوَة المُعاصرين ومنهم الشَّارِحُ أخذَ بعضَ العِلْم عن مَعتزلي، وروىٰ عن الزمخشَري، وروىٰ عن أشاعرةٍ، روىٰ عن ابن عَربي، وروىٰ عن مَاتريدية، وروىٰ عن البيضَاوي.

فالاعتدالُ في المعاملةِ مَعَ العُلَمَاء أصْحَاب البِدَع مَنهَج السَّلَف، قال الذهبي ﷺ في ترجمة قتادة: وهو حُجَّةٌ بالإجماعَ إذا بين السَّماع؛ لأنَّه مُدلِّسٌ مَعروفٌ بذلك، وكان يَرىٰ القَدَرَ، فيقول: أنَّ مَعَ كونِه يرىٰ القدرَ ما توقفَ أحدٌ في صِدقِه وعدالتِه وحفظِه، ولعلَّ الله يعذُر أمثالَه ممن تلبَّس ببدعةٍ يريدُ بها تعظيمَ الباريَ وتنزيهَه وبَذَلَ وِسعَه، والله حكمٌ عدل لطيفٌ بعبادِه، ولا يُسأل عمَّا يفعلُ. ثُمَّ قال: ثُمَّ إنَّ الكبيرَ مِن أئمةِ الشأن، من أئمةِ العِلْم إذا كثر صوابُه، وعُلِم تَحرِّيه للحقِّ واتسع علمُه وظهَر ذكاؤُه وعُرفض صلاحُه وورعُه واتِّباعُه، يُغفرُ له زَللُه، ولا نَضلِّلُه، ولا نَطرحُه، ولا ننَسىٰ محاسنَه، نعم لا نقتدي به في بدعتِه وخطئِه، ونرجو له التَّوبة من ذلك، ما أجمَل المَنْهَجَ السليمَ! .كثيرٌ من النَّاس قَلْبه مملوءٌ حقداً علىٰ أئمةِ الإِسْلَام لأخطاءٍ أخطئوها، وهذا من الجهلِ، فإنه ما من عالمٍ بدون استثناء من علماءِ المُسْلِمين إلا وقد أخطأَ

في مِسائلَ في الدِّين، فلو عاملنا النَّاس بمعاملةِ الهجرِ والـتركِ لكـل مـن أخطـأَ لا يبقىٰ لنا أحدٌ، وسنكون صفرَ اليـدين، لكـن مَنهَجُ أهـل السُّنَّة والجماعـةِ الـذي يسير وفقَ مَنهَج السَّلَف الاعتدالِ. لكن إذا كـان الإِنْسـانُ كاذبـًا مثـلَ الـروافضِ المُتأخرين الذين يستبيحونَ الكذبَ بل يتقرَّبُون إلىٰ الله بالكذبِ لا نأخذ عـنهم أبداً؛ لأنَّ الذي يكذبُ ما يدريك أنَّه سيصدُق فيما يخبرك، أمَّا المُبتدعُ الـذي عنده تقوىٰ وصلاحٌ ولا يجرَّب عليه كـذبٌ ونحتـاجُ إلىٰ بعـض علمـه الـذي لا علاقةَ له بالبِدعة فيجوزُ الأخـذُ عنـه، هـذا مَنهَج السَّلَفِ، والـذي يريـد أن يـأتي بمذهب سلَفي جديدٍ علىٰ غير مـا مِضـىٰ يخـالفُ السَّـلَف، السَّـلَف هـم أئمـةُ الحَدِيثِ مثـلُ البُخَـارِي ومُسْـلِم وأبـي داود، والـذي يظـنُّ أنَّ هـؤلاء مُغفَّلـون يطعنُ في علماءِ الأُمَّة، هم ليسوا مُغفَّلين، لكنَّهم منصفون مَعتـدلون يراقبـون الله فيما يقولون وفي أعراضِ النَّاسِ، فإنـه كمـا قـال الإمـام ابـن دقيـق العيـد ﵀ أنَّ أعراضَ العُلَمَاءِ حُفرةٌ من النَّار، وقفَ علىٰ شفيرها طائفتان، العُلَمَاءُ والحُكَّـامُ، أي: الـذي يقـترب مـن عـرضِ العـالم يقـتربُ مـن حفـرة مـن النَّـار، وقـفَ علـىٰ شَفيرها أهل العِلْم ؛ لأنَّ أهل العِلْم يُبينون أخطاءَ العُلَمَاء، فالـذي لا يتقـي اللهَ في بيانه قد اقترب من الحُفرة وربما يسقُط فيها، فينبغي أن يكـون لطالـب العِلْـم مَنهَج سليمٌ يحفظُ دينَ الله ويحفـظُ عـرضَ خلـقِ الله مـن الصَّـالِحين مـن أعـلامِ الأُمَّة.

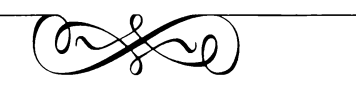


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (رجل به طب) بكسر الطاء أي سحر، يقال: طب الرجل بالضم إذا سحر، ويقال كنوا عن السِّحْر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا للديغ سليم، وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد. يقال لعلاج الداء طب، والسحر من الداء يقال له طب.

الشَّرْح

قوله: (**الطب من الأضداد**) هذا فنٌّ من فنون الُّلغَة يُسمىٰ علمٌ الأضدادِ، الكلمةُ الواحدةُ تردُ لمعنيين مُتضادَّين، فهنا الطبُّ هو العلاجُ والطبُّ هو المرضُ، كما يقال للديغِ الذي تلدَغُه الحيةُ أو العقربُ :سليمٌ، لا يقال له لديغٌ، مَعَ أن السليمَ هو الذي لم يُلدَغ، فكيفَ يَوصفُ من لُدِغ بأنه سليمٌ، وهذا وصف مُضادٌ للحالةِ التي وُصِف بها، فالعربُ تطلقُ هذه الكلمات من بابِ التفاؤل، وقد مرَّ أن الحَنَفَةَ هي الميلُ في المشهورِ من الُّلغَة، ويطلقُ علىٰ الاستقامةِ؛ لأنَّ العُلَمَاء قالوا في قول الله تعالىٰ: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:٩٥]، أي: مائلاً عن البَاطِل، لكن في الحَقِيقَة عندما بحثنَا ودقَّقنَا في كُتُبِ أهل الُّلغَة وجدنا أن بعض أهل الُّلغَة يطلقُ الحَنَفَةَ علىٰ الاستقامةِ، فالحنيفُ بمعنىٰ المُستقيمُ في أصل الوضعِ، وإن كان المشهور عند أكثر العُلَمَاء أنَّه: المائلُ، فالعربُ أحيانـًا تطلقُ الكلمَة الواحدةَ علىٰ مَعَنيين مُتضادين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أو يؤخذ) بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال مَعَجمة أي يحبس عن امرأته ولا يصل إلىٰ جماعها، والأخذة بضم الهمزة الكلام الذي يقوله السَّاحِر.

قوله: (يحل) بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول.

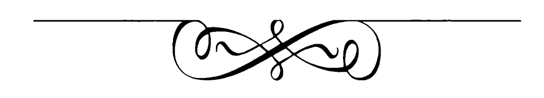
قوله: (وينشر) بتشديد المعجمة.



الشَّرح

قوله: (يؤخذ) هنا بمعنىٰ يُمنع من إتيان أهلِه، هذا نوعٌ من السِّحْر يستخدمُه بعض النَّاس لمنعِ الرجلِ من أن يأتي زوجَته، وهذا يُسمىٰ المُؤخَذُ عن زوجته، فيقولون: الذي يُؤخذُ عن زوجتِه أو يكون به سحرٌ هل يجوز أن يُحلَّ عنه هذا هو السؤال.

قوله: (يُحل) أي : يُرفع، و يُعالجَ. قوله: (وينشر) لعل التنشِيرَ يُطلقُ علىٰ حل السِّحْر بسحرٍ؛ لأنَّه لما قال: ويُنشر بعد قوله: يُحلُّ فكأنَّه أرادَ حلَّ السِّحْرِ بسحرٍ.



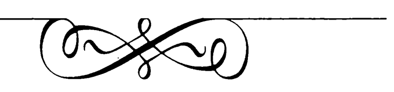
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

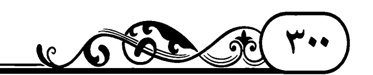
قوله: (قال لا بأس به الىٰ آخره) يعني أن النَّشْرَة لا بأس بها؛ لأَنَّهم يريدون بها الإصلاح، أي إزالة السِّحْر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، إنما ينهىٰ عما يضر، وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل علىٰ نوع من النَّشْرَة لا يعلم هل هو نوع من السِّحْر أم لا؟ فأما أن يكون ابن المسيب يفتي بجواز قصد السَّاحِر الكافر المأمور بقتله ليعمل السِّحْر فلا يظن به ذلك، حاشاه منه، ويدل علىٰ ذلك قوله: إنما يريدون به الإصلاح، فأي إصلاح في السِّحْر بل كله فساد وكفر، والله أعلم.

الشَّرح

السَّاحرُ يُفترضُ أن يُقتلَ شرعًا، كما ورد عن عمر وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان رأيهُما قتلَ السَّاحِر، فكيفَ يُذهبُ إلىٰ السَّاحِرِ ليحلَّ السِّحْر؟ فالساحرُ أصلاً مطلوبٌ قتلُه، والساحرُ لا يفعل السِّحْر لينفعَ النَّاس؛ لأنَّ السِّحْرَ إضرارٌ بالآخرين، فلا يُظنُّ أنَّه يريد الإصلاحَ، ليس هناك شَخْصٌ يشركُ بالله لينفعَ النَّاس؛ لأن الشِّرْك أعظمُ الذُّنوب، والله لا يغفره أبداً، فإنه قد نص القُرْآن الكَرِيم قاطعًا أنَّه لا يغفر لمن فعله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨].

فلا يُظنُّ بسعيدِ بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من فقهاء التَّابِعِينَ بل من كبارِ فقهائهم أنَّه يُجيز السِّحْر ليُحلَّ به السِّحْرُ.





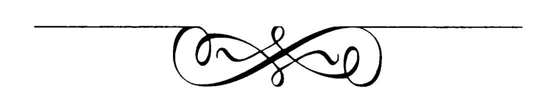
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وروي عن الحسن أَنَّه قال: لا يحل السِّحْر إلا ساحر.

هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد بغير إسناد، ولفظه: لا يطلق السِّحْر إلا ساحر، وروىٰ ابن جرير في التهذيب من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أَنَّه كان لا يرىٰ بأسًا إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلىٰ من يطلق عنه، فقال: هو صلاح. قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهىٰ الله عما يضر ولم ينه عما ينفع.

الشَّرح

كلا القولين كلٌّ واحدٍ منهما يَردُّ علىٰ الآخر، لكن ما يُظنُّ أن سعيدَ بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُجيز أن يذهبَ الإِنْسانُ إلىٰ ساحرٍ ليحلَّ عنه السِّحْرَ، لكن لعلَّه - والله أعلم - يكونُ فيه عملٌ غير واضحٍ، فيكون هذا الاحتمالُ من المكروه، أمَّا السِّحْر الصريحُ الذي هو شِرْكٌ ما يبيحُه الإِنْسان، ولا يقول: أنَّ السِّحْرَ فيه إصلاحٌ، والساحرُ لا يفعل السِّحْر لينفعَ النَّاس، إنَّما يفعلُ السِّحْر ليضرَّهم، ويكسبَ المالَ عليه، هذا هو مرادُ السَّاحِر وواقعُه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

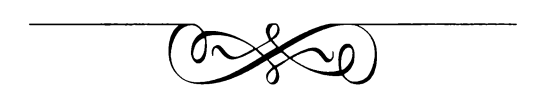
قوله: (عن الحسن) هو ابن أبي الحسن، واسمه يسار بالتحتانية والمهملة، البصري الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه إمام فاضل من خيار التَّابِعِينَ، مات سنة عشر ومائة وقد قارب التسعين.



الشَّرح

الحسنُ بن أبي الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من الزُّهاد، وكان بليغاً فصيحاً، وقد اتُّهمَ بالقدَرِ، ولكن العُلَمَاءَ برءوا ساحتَه، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن قَدرياً، واسمُ أبيه يَسار، وقد عاشَ هو وسعيد بن جبير في وقت فتنةِ ابن الأشعثِ، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد حذَّر من هذه الفتنة، قال علماء السِيرِ: ولهذا قد حُفِظَ له موقفُه ذلك؛ لأنَّه كان ينظرُ بنور العِلْمِ، وأما بعض العُلَمَاء فقد تعجل في تلك الفتنة فدخلَ في غمَارها، وكانت النتيجةُ أنَّه قُتلَ منهم من قتُل، واختفىٰ من اختفىٰ، ولم تكن الدائرةُ كما أرادوا، وأما الحسنُ البصري فقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد رَفَعه ذلك، وهو بعدُ نظرِه. فالحسنُ البصري كان رجلاً عالماً فقيهاً زاهداً بليغاً وإن كان كما ورد عن قَتادةَ أنَّه كان إذا خَفِي عليه بعضُ العِلْم سأَل فيه سعيدَ بنَ المُسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا من ورعِه وعلمِه، ولا شكَّ أن ابن المُسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان كذلك عالماً ورِعاً فقيهاً، لكن الحسنُ كان بليغاً أيضاً، قال المترجمون: لو كان الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عصرٍ غير عصرِ الإِسْلَام لكان مَعَجزةً من مَعَجزاتِ الأَنْبِيَاء السابقين؛ لأنَّه كان يتكلم بكلامٍ كأنَّه من كلامِ النُّبُوَّة، وهذا لا شك أنَّ من صفَّىٰ رزقَه وأكلَ الحلال وراقبَ اللَه نطقَ بالحكمةِ، فإنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من الزاهدين عفيفاً ورِعاً، وقد عاش في بيتِ أمِّ سلمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حتىٰ قيل أنَّها برَّت به،

فكانت ترضُعه من ثَديِها؛ لأنَّ أمَّه كانت تخدمُها، فقيل إن تلكَ الفَصاحة من بركةِ بيتِ النُّبُوَّةِ، فالحسنُ وابن المسيب ـ رحمهما الله ـ كانا من خِيار التَّابِعِينَ، وكلا العالِمِين أصبحت فتاواهم وأقوالُهم مما يُستأنس بها من بعدهم من الأئمةِ المُجتهدِين.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: قال ابنُ القَيِّمِ: النَّشْرَة حلُّ السِّحْر عن المَسْحُور، وهِيَ نوعَانِ: حلُّ بِسِحْرٍ مثلِه، وهوَ الذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيطَان، وعلَيه يُحْمَلُ قولُ الحسنِ، فيتقربُ الناشِرُ وَالمنتَشِرُ إلىٰ الشَّيطَان بمـاَ يُحِبُّ، فيُبْطِلُ عمَلَهُ عنِ المَسْحُور، والثانِي: النَّشْرَة بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ والأدويةِ المباحَةِ، فهذا جائز.

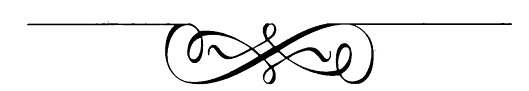
ش: هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب، أو علىٰ نوع لا يدري هل هو من السِّحْر أم لا؟



الشَّرح

هذا جزءٌ من كلامِ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيم (إعلام الموقعين)، يقول: إنَّ النَّوْعَ الأولَ من حل السِّحْرِ هو أن يُحلَّ بسحرٍ مثلِه، ويحملُ عليه كلامُ الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ، يعنىٰ أنَّه نهىٰ عن حلِّ السِّحْر بسحرٍ مثله، أمَّا النَّوْعُ الثاني: وهو أن يُحلَّ بالتعوذات والرُّقىٰ الشَّرْعِية، فهذا يجوز، وليس في هذا خلافٌ، لكن الخلافُ فيما إذا كان في أمرٍ غير واضح أنَّه شِرْكٌ، فقالوا: مثلُ هذا هو الذي يُحملُ عليه كلامُ ابنُ المُسيب رَحِمَهُ اللَّهُ.

الشارحُ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنَّ كلامَ ابن المسيب يُحملُ علىٰ كلام ابن القيِّم الأخيرِ، أو علىٰ نوعٍ لا يُدرَىٰ هل هو من السِّحْر أم لا؟ أمَّا الذي يُعرف أنَّه سِحرٌ فلا يُظنُّ أن ابن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ يقول بهذا، وقد قررَ العُلَمَاء أنَّ السِّحْر لا يتحققُ إلا بالشركِ بالله عَزَّ وَجَلَّ.



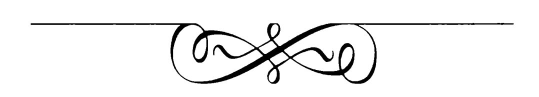
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النَّشْرَة، فإنه محمول على ذلك، وغلط من ظن أنَّه أجاز النَّشْرَة السِّحْرية، وليس في كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السِّحْر قال: قد رخص فيه بعض النَّاس، قيل: أنَّه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده وقال: لا أدري ما هذا؟ قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا؟ وهذا صريح في النهي عن النَّشْرَة على الوجه المكروه، وكيف يجيزه وهو الذي روى الحَدِيث أنَّها من عمل الشَّيطَان، لكن لما كان لفظ النَّشْرَة مشتركًا بين الجائزة والتي من عمل الشَّيطَان، ورأوه قد أجاز النَّشْرَة ظنوا أنَّه قد أجاز التي من عمل الشَّيطَان، وحاشاه من ذلك.

الشَّرح

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُئل عن صُورَة من صور النَّشْرَة، فسُئل عن حلِّ النَّشْرَة قال: لا بأس، قال: إن الإِنْسان يضعُ في الطَنجيرِ ماءً ثُمَّ يغيبُ فيه، ،الطنجيرُ هو إناءٌ كالقِدر الكبير، وليست هذه الكلمةُ عربيةٌ، لكن أحيانًا تدخلُ بعضُ الكلمات في المُجْتَمَع حتى تصبح عُرفًا، يعني يغيب فيه إما نفس الشَّخص الذي هو مَسحورٌ، أو يُغَيِّبُ يدَه فيه ويُرى في يدِه إمَّا صُورَة السَّاحِر أو مثل هذا النَّوْع، فالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكرَ، لم يَمنعْ، قال: لا أدري ما هذا؟ قيل: أفترى أن يُؤتى مثلُ هذا؟ قال: لا أدري ما هذا؟ توقف الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلم يُحرِّم ولم يُحل، مَعَ أنَّها صُورَة غريبة، لم ترد في الشرعِ، ولم تعرفُ عن الصَّحَابَةِ، لكن لم يثْبُت أنَّها سِحرٌ، هل هناك أورادٌ خاصة تُقرأ عليها، وهل لها قانونٌ خاصٌ يُستخدم ما يدرى، لهذا الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ توقفَ فيها، فلم يُحلَّها ولم يُحرِّمها،

وهكذا كل صُورَة توجد وليست صريحة في الشِّرْك لا يحكم بحرمَتها؛ لأنَّ الحرامَ هو ما وردَ فيه النَّص، وكان شِرْكًا أو حرامًا صَريحًا، أمَّا الصُّورَةُ غيرِ الواضحةِ فَيُتَوَقَّفُ فيها، فهذه الصُّورة ربما تكون من ضمن الصُّوَر التي تدخل في قول ابن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ.




قال المؤلف رحمه الله:

ومما جاء في صفة النَّشْرَة الجائزة ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السِّحْر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثُمَّ تصب على رأس المَسْحُور، الآية التي في يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٨١] إلى قوله ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨٢]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف:١١٨] إلى آخر أربع آيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه: أنَّه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حَجَرين، ثُمَّ يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثُمَّ يحسو منه ثلاث حسوات، ثُمَّ يغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

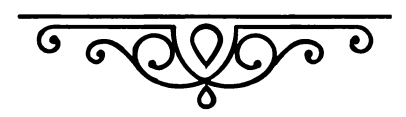

الشَّرح

هذه الآيات وردت في القُرْآن الكَرِيم في قصة مُوسَىٰ عليه السلام، قال العُلَمَاءُ: من قرأها على مسحورٍ شفاهُ الله، لكنَّ القراءةَ في المرةِ الواحدةِ قد لا يظهرُ أثرُها، فلابدَّ من التكرارِ، كما أنَّ الأطباء في الأدوية الحِسيةِ ما يكتفون بجرعةٍ واحدةٍ، فلا بدَّ من جُرعات، وكلما كان المرض شديداً تكرَّرَت الجُرعَات، فكذلك في القُرْآن ينبغي أن يَستمرَ على قراءة الآيات فترةً طويلةً، فلابد أن يكون لها أثر بإذن الله، فإنَّ هذه الآيات جاءت في إبطالِ السِّحْر، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس:٨١، ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢]. والآيةُ الأخيرة: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٩].

فهذه الآيات من قرأَها مَعَ المعوذات واستمر عليها لابدَّ بإذن الله أن يظهرَ أثرُها علىٰ المريضِ، لكن لا ينتفعُ بها إلا من قويَ يقينُه بأثرها، أمَّا من يقرأ الآياتِ القُرْآنية وهو يستبعد حصولَ الفائدةِ فلا يستفيدُ منها، فهذه آيات مجرَّباتٌ في هذا المرضِ.

قوله: **(أنه يأخذ سبع ورقات)** هذه صُورَة من الأعشابِ، وقد يقول قائل: ما علاقةُ ورقِ السِّدر بالسِّحر؟ السِّحْر مرضٌ والله ﷻ يضعُ الشفاءَ في أي شيء من خلقِه، فالإنسانُ هنا يأخذ سبع ورقاتٍ سدرٍ، ويدُقُّها بين حَجَرين، ثُمَّ يضعها في ماء، فيحسو منه ثلاث حسوات، أي: يشرب منه ثلاثَ شَربات، ثُمَّ يغتسلُ بالباقي، فإنَّه بإذن الله ينفعُ، هذه أنواع من أنواع النَّشْرَة التي ذكرها العُلَمَاء، بعضُها مجُرب، أما القُرْآن الكَرِيم فلا شكَّ في فائدته، وكذلك القواقِلُ المُعوذات، الشَّخص يقرأ بها في صباحه ومسائِه، فإنَّها بإذن الله نافعةٌ لهذا المرض، وهذه صُورَة من صور السِّحْر، وخاصة التي يُؤخذُ بها الإِنْسانُ عن زوجتِه.





باب: ما جاء في التطير

قال المؤلف رحمه الله:

مصدر التَّطَيُّر يتطير، والطيرة أيضـًا ـ بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن ـ مصدر التَّطَيُّر، يقال: التَّطَيُّر طِيَرَةَ، وتخير خيرة، ولم يجيء من المصادر هكذا غيرهما، وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطَّيْر والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فإذا أرادوا أمراً فإن رأوا الطَّيْر مثلاً طار يمنة تيمنوا به، وإن طار يسره تشاءموا به، فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنَّه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر، قال المدائني: سألت رؤبة بن العجاج ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح قال: ما ولاك مياسره. قال: والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد.



بعد أن انتهى رحمه الله من السِّحْر الذي هو من نواقضِ التَّوْحِيد انتقل إلى مَسْأَلَة أخرى من المَسَائِل التي قد تنقضُ التَّوْحِيد من أساسه، وقد تُنقصُه؛ لأن هذا الكتاب أُلِّفَ لبيان نواقضِ التَّوْحِيد أو ما يُنقصُه، لينتبه الإِنْسانُ في توحيده ويحذرَ ما ينقضُه أو ينقصُه.

الطِّيَرَةُ مـأخوذةٌ مـن التَّطَيُّـرِ، وهـي متعلقـةٌ بـالطيرِ في الأصـل، لكـن توسَّـع النَّاس فيها، حتىٰ أصبحوا يتشاءمون من غيرِ الطَّيْر، أو يتفاءلون بغيرِ الطَّيْر، فقد يتشاءمون بالإنسانِ، أو بالحيوانِ، أو بالسكنِ، أو بأي شيء آخر، وهذه من عـاداتِ الجَاهِلِيـة كـانوا يربِطـون الأحـداثَ بـالطيرِ وحركـة الطَّيْـر، فـإذا أراد الإِنْسانُ أن يسافر أو أن يعملَ عمـلاً فـإن قابلـه الطَّيْـر وهـو في طريقـه عـن يمينـه تفـاءل، وإن قابلَـه عـن يسـاره تشـاءم، والسـوانحُ عـن اليمـين، والبـوارحُ عـن الشمال، مأخوذة من بَرِحَ، فكأنه يقول: ابرَح أي : اجلس لا تغادِر، والنَّطيحُ ما جاء مـن أمامـه، ينطحُ كأنـه يقـول: ارجـع، والقعيـدُ مـا جـاءه مـن خلفـه، فكأنَّـه يقولُ: اقعُد، هذه كلها خيالات وكانت في الجَاهِلِية، ولا تزال إلىٰ اليوم في كثيرٍ من المُجْتَمَعات في كلِّ العالم، فإنهم يَتطَيرون ويتشَاءمون من كثير من الأشْيَاء، بل في بعض الدول بعض الأرقامُ لا تُكتب عندهم، إلا من بـابِ القفز، يعني توضَع ليقفَز عنهـا، لا توضـع سعراً ولا قيمـةً، فهـذه مـن الأعمـال التـي ليسـت خاصة بالجَاهلية الأولىٰ، بل تُوجد في كثيرٍ من المُجْتَمَعات، وهـي علـىٰ صـور كثيرة، منهم من يتشاءم بيوم مَعَين، ومنهم مـن يتشـاءم بطيـر مَعَـين، ومـنهم مـن يتشـاءم مـن اسـم مَعَـين، ومـنهم مـن يتشـاءم مـن شَـخْص مَعَين،وهـذه كلهـا وساوسُ، ولا علاقةَ لهـا بالغَيـب؛ لأنَّ قـدرَ الله ﷻ لـيس مرتبطـًا بهـذه الأنـواعِ والحالاتِ، بل قدرُ الله نافذٌ وهو مُقدَّرٌ علىٰ الإِنْسان، والإنسـانُ لا يعلـم غيـبَ نفسِه، فكيف يعلمُ غيبَ غيرِه، أو يكون سبباً في غيره؟، كـذلك الطَّيْر لا يعـرفُ ماذا يُعدّ له، حتىٰ أنَّه ليقعُ في المصيدةِ حين يريد أن يأكل ما فيها، فكيف يعـرفُ الغَيْبَ؟ فغيبُ الله لا يطلعُ عليه أحدٌ لا طائرٌ ولا إنسانٌ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما كانت الطَّيْرة باباً من الشِّرْك منافياً للتوحيد أو لكماله؛ لأنَّها من إلقاء الشَّيطَان وتخويفه ووسوسته ذكره المصنف في كتاب التَّوْحِيد، تحذيراً منها، وإرشاداً إلىٰ كمال التَّوْحِيد بالتوكل علىٰ الله.

واعلم أن من كان مَعَتنياً بها قابلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلىٰ منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشَّيطَان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنىٰ ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه، فالواجب علىٰ العبد التوكل علىٰ الله ومتابعة رَسُول الله ﷺ، وأن يمضي لشأنه لا يرده شيء من الطَّيْرة عن حاجته فيدخل في الشِّرْك.

الشَرح

إنسانٌ أراد أن يذهب ليخطبَ، أول ما يخرج من البيتِ وإذا بالسيارةِ مُتعطلةٌ، فيتشائمَ ويقول: الله يعطيني خيرَ هذا الزواج، فإذا أصلح السيارةَ وقطع مسافةً في الطريق، واقترب من الإشارةِ أضاءت بالأحمرِ، قال: هذا أيضاً شيءٌ غيرُ طيبٍ، وتضيء الإشارة، وفي الطريق ربما يضايقه شيءٌ آخرَ، فيبدأ مَعَه الوَاسواُس!! كل هذه الحوادثِ أمرها عادي ولا ينبغي أن يُفكرَ، تتعطل السيارةُ، وتُقفل الإشارةُ، لكن إذا وضع في ذهنهِ هذا الموضوعَ يبدأ يتحسسُ من كل شيء، بل ربما دخلَ علىٰ من يخطبُ عنده فانكفأَ فنجانٌ، ربما يبدأ يوسَّوسُ، ويربطُ كلَّ حدثٍ بأن له علاقة بسعادتِه أو شقاوتِه، فالإنسان لا ينبغي أن يعلِّق قَلْبه بهذه الأشْيَاء، ومن علَّق قَلْبه بهذه الأشْيَاء يعيش في نكدٍ، لا يرتاح أبداً، فإنَّه لا تخلو الحياةُ من أحداث، فإذا علق قضيته بما يحدث في طريقه يعذَّبُ ويعيشُ في نكد، بل بعض النَّاس يرجع وقد يُلغي

مشروعَه، ففي كل مرةٍ يُلغي مشروعه، ربما يتعدىٰ الأربعين أو الخمسين ولم يتزَّوج؛ لأنَّه في كل مرةٍ يحدثُ له شيءٌ، فهذا مَعذَّبٌ.

فالشرع يأمرُه بإلغاء هذه الصُّوَر من ذهنه، ويتوكَّل علىٰ الله ﷻ، ويعلمُ أن الغَيْب لا يعلمُه إلا الله، والإنسانُ مُطَالَبٌ شرعـًا بأمرين في أعمالِه الكبيرة: الاستخارةُ والاستشَارةُ، أمَّا غيرها فلا تدخلُ في أعمال الإِنْسانِ، والذي يُعلِّق قَلْبه أو يربطُ قضاياه وحاجاتِه بمثل هذه الأعمالِ لا يقرُّ له قرارٌ، بعض الأخوة يقول: هناك خواتمُ تُلبسُ لتُعين الشَّخص علىٰ السعادةِ، فشخصٌ لبس خاتمـًا فنصحَه أخوه، فقال: ما ينبغي أن تعتقد أن الخاتمَ يكون له دور في القَدر، وفي أحداث الله ﷻ في الأرض، فنزعَه، فجاءه غَمٌ وهمٌّ، وجاءته أشياءُ ثُمَّ أعادَه، فجاءته راحةٌ نفسيةٌ وارتاح، قال: والله يا شيخ أنا جربت كلامَك فما هو بصحيح، لابد أن الخاتم له سِرٌ . هذا من الشَّيطَان، فإنه حريص أن يوقعك في الشِّرْك، فإذا كنت تستجيب له لا يتركك، لهذا إن ابن القيم رحمه الله في كتابه إغاثة اللهفان عن مصائد الشَّيطَان ذكر صوراً من مصائد الشَّيطَان، منها: إنسان مبتلىٰ بالوسوسة في الوضوء، أحيانـًا يدخل محل الوضوء قبل أن يؤذن، ويؤذن، وتقام الصلاة، وتبدأ الصلاة وتنتهي، وهو في الحمام، هذه وسوسة من الشَّيطَان، فعندما تستجيب للشيطان لا يقف مَعَك، بل يحرص علىٰ أن يتابع مَعَك خطواته، فينبغي للإنسان أن يعتصمَ بالله، يعرف كيف يتعامل مَعَ نفسه، وكيف يسد أبواب الشَّيطَان؟، فالتَّطيرُ إذا فتحه الإِنْسانُ علىٰ نفسِه يُعذَّبُ، ويعيش دائمـًا في قلقٍ، هذه الأمور بيد الخالِق، وأنت اربط قَلْبك بالله ﷻ واعتصم به سبحانه وتعالى، وهذا مَعَنىٰ ما يُربِّينَا به ربُّنا في كل يومٍ في كل ركعة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، استعن بالله ولا تعجَز، علِّق قَلْبك بالله، ولا تُعلِّق قَلْبك بهذه الصُّوَر التي كلها من أمر الجَاهِلِية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف:١٣١].

ش: أول الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ الآية. المعنىٰ: أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة، أي الخصب والسعة والعافية علىٰ ما فسره مجاهد وغيره، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي نحن الجديرون الحَقِّيقون به، ونحن أهله، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي بلاء وضيق وقحط ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ فيقولون: هذا بسبب مُوْسَىٰ وأصحابه أصابنا بشؤمهم، كما يقوله المتطير لمن يتطير به، فأخبر - سُبْحَانَهُ - أن طائرهم عنده، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم، وفي رواية ذكرها ابن جرير عنه قال: الأمر من قبل الله، وفي رواية شؤمهم عند الله ومن قبله، أي إنما جاءهم الشُّؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله، وقيل: المعنىٰ أن الشُّؤْم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النَّار لا هذا الذي أصابهم في الدُّنْيا.

والظاهر أن هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]، أي أن الكل من الله، لكن هذا الشُّؤْم الذي أجراه عليهم من عنده هو بسبب أعمالهم لا بسبب مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن مَعَه، وكيف يكون ذلك وما جاء به خير محض، والطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير.

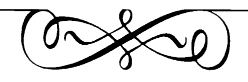
الشَّرح

هذه الآيةُ تُصور لنا صُورَة من مواقفِ الأممِ من أنبيائها، فإنه إذا جاء النَّبي إلىٰ قومٍ بالدَّعوةِ إلىٰ الله ﷻ يترصَّدون هذه الدَّعْوَة، فإن وقع أثناء الدَّعْوَة قحطٌ أو جدَبٌ أو جائحَةٌ ربطُوها بالدَّعوة التي جاء بها النَّبِي، فموسىٰ عليه السلام وهو يدعو قومَه إلىٰ الله ﷻ، إذا نزلَ بهم قَحطٌ أو جَدبٌ، أو آفةٌ بزروعِهِم، قالوا: إنَّما التَّطَيُّرنا بموسىٰ، يعني هو شؤمٌ علينا، وهكذا نجد هذه الصُّوَرة تتكرر في جميع عصورِ الأنبِيَاء كما قال الله عن المنافقين في عصر النَّبي ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩]. فالمُقَدِّرُ هو الله، لكن قد يكون لها أسبابٌ، يقول: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ اختلف فيها أقوالُ المُفسرين، منهم من قال: إنَّما ما أصابَهم من الشَّر هو من الله بسببِ ذُنوبِهم، وقيل: إن ما ينتظرُهم عند الله من شدةِ العقابِ أشدُّ مما وقع بهم في الدُّنْيَا.

فَربطُ ما يُصاب الإِنْسانُ به في الدُّنْيَا بما جاءَ من الخَيْر أو الدِّين أو الدَّعْوَة إلىٰ الله هذا من أعمالِ الجَاهِلية، وعندما نقرأ التاريخ في بدايةِ الدَّعْوَة إلىٰ الله في مَكةَ المُكرمة في صَدرِ الإِسْلَام نجد أن كلَّ من آمن بالرسول ﷺ أُوذِيَ وابتُلِي وعُذِّب، والإنسانُ كان مُرتاحًا في بيته وما عُذِّب ولا أُوذي، وكانت الأسرُ كلُّها مُترَابِطَةٌ، وكان المُجْتَمَع مترابطًا، وهذا الدِّين جاء فَرَّق بين النَّاس، بين المَرْأَة وزوجِها، بين الولد وأبيه، فلو قيل إنَّ هذا الدِّينَ شُؤمٌ أيكون هذا صَحِيْحًا؟؛ لا لأنَّ هذا التفريقَ هو لجهلِهم وضلالهم، وعدمِ علمهم بأن ما

هم عليه ضارٌّ، ومُهلكٌ، وأنَّ الصلاحَ والخيرَ فيما جاء به الأنبِيَاء، وأنَّ هؤلاء الذين انتقلوا إلىٰ ما جاء به الأنْبِيَاء قد رشَدوا، وقد صلَحت حياتُهم، فكان علىٰ الكفَّار أن يلحقُوا بهم لا أن يمنعُوهم، فالشُر في ظلمِهم، وامتناعِهم، وعنادِهم، وكبرهم، وإلا فلو جاء النَّبي ﷺ فدعاهم إلىٰ الله لينقذَهم مما هم فيه من الضلالِ والشرك فاستجابوا ما حدث ما حدَث، وهكذا كل دَعوةٍ تأتي لابد أن تُفرِّق بين الولدِ وأبيه، وبين الزوجة وزوجها؛ لأنَّها تريد أن تُغيِّرَ واقعَ النَّاس السَّيء إلىٰ واقع أحسنَ، واقتضت حُكْمة الله أن يكون هناك صراعٌ بين الخَيْر والشرِ إلىٰ قيام الساعةِ، فوجود هذه الأحداث ليست لشُؤمِ الدَّعْوَة، وإنما لشؤم أصْحَابها، وتنكرهم وامتناعهم، وعدم قبولهم للخير.

فهؤلاء كانوا يربطون هذه الأحداث بما جاء به النَّبِي مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شك أن هذا خطأٌ، ويتكرَّرُ هذا في كلِّ عصر، أحيانا عندما يدعو الدُّعَاة إلىٰ الله في أي مُجتمعٍ النَّاسَ إلىٰ العودةِ إلىٰ الله يقعُ جَدبٌ وقَحطٌ أو شيء من الفتنِ، فربطُوها بما دعاهم إليه هؤلاء الدُّعَاة، فهذه فتنةٌ في كل عصر، وتحدث في كل جيل، فالمسلم ينبغي أن يتَثبتَ ويصبرَ ويتحمَّلَ، وأن يعلمَ أن هذه صورٌ مُكرَّرَةٌ علىٰ مدار التاريخ، فما من نبي جاء إلىٰ قومِه إلا وقد رَبطُوا ما يحدثُ لهم من القحِط أو الجَدب بما جاء به من الدَّعْوَةِ إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فهذه أخلاق الجَاهِلِية مَعَ الإِسْلَام في كل عصرِ وفي كل جِيل.

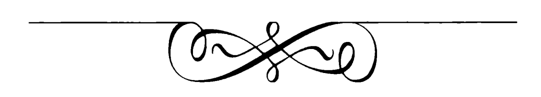


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ أي أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا أو عقلوا لعلموا أنَّه ليس فيما جاء به مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ شيء يقتضي الطَّيْرة، وقال ابن جرير: يقول تعالىٰ ذكره: ألا إنما طائر آل فرعون وغيرهم، وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخَيْر والشر عند الله، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك كذلك، فلجهلهم بذلك كانوا يتطيرون بموسىٰ ومن مَعَه.

الشَّرح

وصفهم الله بعدم العِلْم ، وعدم العِلْم هو إثباتُ الجَهلِ، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف:١٣١] أي: أكثرُهم يَجهلون، وإلا فكيف يَتَطَيَّرُ بما يحدُث للإنسان من استقامةٍ، وعودةٍ إلىٰ الله، ومعرفةٍ لخالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبشرعِه كيف يكون هذا من الشُّؤْمِ؟ لكن هذا حالُ كلِّ من جهلَ الحَقِّ، فإنه يُعادِيه ويصفُه بهذه الصفات.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: وقوله: ﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس:١٩].

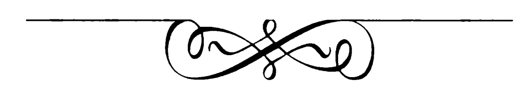
ش: المعنىٰ ـ والله أعلم ـ أي حظكم وما نالكم من خير وشر مَعَكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعداوتكم، فطائر الباغي الظالم مَعَه، وهو عندالله كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ﴾ [النساء:٧٨] ولو فقهوا أو فهموا لما التَّطَيُّروا بما جئت به؛ لأَنَّه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضي الطِّيْرة، فإنه خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمة لا عيب فيها، ورحمة لا جور فيها، فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا؛ لأن الطِّيْرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والحكمة والرحمة، بل طائرهم مَعَهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم، وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي ينالونها منه بأعمالهم.



الشَّرح

هنا يُؤكد هذا المعنىٰ، ونرىٰ في المدينة أنَّه وقع بالمسلمين من الزَّلزلةِ واجتماعِ القبائلِ عليهم كغزوةِ الخَندقِ، حتىٰ حاصَروهم وحفرُوا الخندق بينهم وبينهم، ونَقَضت اليَهُودُ عهودُها، ووصفَ الله حالَهم بأنها ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .كلُّ ذلك ابتلاءٌ، لكن كانت النتيجة أن نصَر اللهُ المُسْلِمين بعدَ ذلك، وأعلىٰ رايةَ الإِسْلَام، ونشرَ الإِسْلَامَ، وأصبح أولئك المُسْلِمونَ في غاية الأمنِ،وغايةِ العِلْم، وغايةِ الإيمان، مَعَ ما ينتظرُهم في الآخِرَة من جنَّات النّضعيم، فالدعوات يحدثُ لأهلها فتنٌ وابتلاءٌ؛ لأنَّ الله ﷻ أراد أن يكون في

الأرض صراعٌ بين الخَيْر والشر، وبين الصَّالِحين والمُفسِدين، هذه سُنَّةُ الله ﷻ، نسمعُ من المنافقين الطعنَ علىٰ الصَّالِحين ومحاولةَ تشويهِ سمعتِهم، وربطِ ما يقعُ في المُجْتَمَع من أحداثٍ أو من قحطٍ أو من جَدبٍ بالدَّعوَات، هذه سُنَّة المُجْتَمَعات الجَاهِلِية مَعَ أنبياءِ الله ورسلِه، وتحدثُ مَعَ دُعاةِ الله في كل جيلٍ وفي كل عصر، فالمسلم ينبغي أن يصبرَ علىٰ ذلك وأن يتحمَّل؛ لأن مَسلكَهُ طريقُ الأنْبِيَاء.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

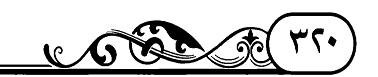
ويحتمل أن يكون المعنىٰ طائركم مَعَكم، أي راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، وهذا من باب القصاص في الكلام، ونظيره قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم) ذكره ابن القيم.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ [يس:١٩]، أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وقال قتادة: أئن ذكرناكم بالله التَّطَيَّرتم بنا. ومطابقة الآيتين لمقصود الباب ظاهر؛ لأن الله تعالىٰ لم يذكر التطير إلا عن أعدائه، فهو من أمر الجَاهِلِية لا من أمر الإِسْلَام.

الشَّرح

يقول تعالىٰ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي سبب ما يحدثُ لكم من بلاءٍ أو جَدبٍ أو قحطٍ هو مَعَكم، والذي مَعَهم هو كفرُهم وعنادُهم، هذا هو طائرُهم، فوجودُ الشِّرْك والكُفرِ مَعَهم هو سببُ البَلَاء، وإلا فلو استقاموا علىٰ دين الله واستجابوا له لفتح الله لهم بركات السَّمَاء والأرض، لكن الشِّرْك الذي يرافقُهم هو سبب ما يحدثُ لهم من هذه الابْتِلَاءات، فالطائرُ أو الشُّؤم مَعَهم، والذي مَعَهم هو الشِّرْك الذي واجهوا به دعوات الأنْبِيَاء.

قوله تعالىٰ: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ [يس:١٩] يعني أئن ذكرناكم بخالقكم وبما أمرَكم الله به تجعلون هذا التذكيرَ شؤمـًا، هذا من باب الاستنكارِ، ومن باب التوبيخِ أي: أنَّ من ذُكر بخالقِه وبما أمره الله به لا ينبغي له أن ينظر إليه نظرة التَّطَيُّر وتَشاؤم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُول الله ﷺ قالَ: (لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَةَ ولا هَامَةَ ولا صَفَرَ) أخرجاه. زاد مسلم (ولا نَوْءَ ولاَ غولَ).

ش: قوله: (لا عَدْوَىٰ) قال أبو السعادات: العدوىٰ اسم من الإعداء كالدعوىٰ والبقوىٰ من الادعاء والإبقاء، يقال: أعداه الداء يعديه إعداء، وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء، وذلك أن يكون ببعير جرب مثلاً يتقي مخالطته بإبل أخرىٰ حذار أن يتعدىٰ ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه. انتهىٰ.



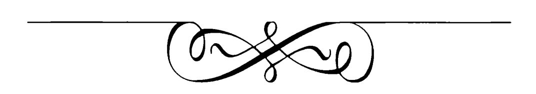
الشَّرح

قوله: (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ)[1] هذا الحَدِيثُ من الأحَادِيثِ التي وقع فيها إشكالٌ بين العُلَمَاء، فاختلفت الأنظار في طريقةِ الجمعِ بين الأحَادِيث المُتعارضةِ في هذا الباب.

قوله: (لا عَدْوَىٰ) العَدوىٰ من الإعدَاء، أي: الانتقال، انتقال المرضُ من مريض إلىٰ صَحِيْح، فانتقال المرضُ من المُبتلىٰ به إلىٰ إنسانٍ سليمٍ يُسمىٰ عَدْوَىٰ في عُرف الطِّبِ، لكن الحَدِيثُ ينفي العدوىٰ، وسيأتي أنَّ الأعرابي الذي سمِع هذا الحَدِيث قال: يا رَسُول الله، ما بال إبلي تكون في الرمل كالظِّباءِ، فإذا دخل بينها البعيرُ الأجربُ فيدخل فيها فيجربها كلها، فقال النَّبِي ﷺ: (فمن

(١) أخرجه البُخَارِي في عدة مواضع من صَحِيْحه، منها: كتاب الطب، باب الجذام، برقم: (٥٧٠٧)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب السلام، باب لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض علىٰ مصح، برقم: (٢٢٢٢)، (٤/ ١٧٤٤).

أعدىٰ الأول؟)[1] يريد أن يذكره بأن وجود المرَض وإن كان هناك أسبابٌ، لكن الجملَ الأولَ الذي وقع به الداءُ من أعدَاه؟، ما هناك جملُ آخرُ انتقلَ إليه منه المرض، بل جاءه مباشرةً، فليس نظامُ العدوىٰ نظامـًا ثابتـًا، فلا ينبغي للإنسان أن ينظرَ إلىٰ هذه القاعدة نظرةً ثابتةً، وسيأتي طريقة التخريج.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب الطب، باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن، برقم: (٥٧١٧)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب السلام، الباب السابق، برقم: (٢٢٢٠)، (٤/ ١٧٤٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي بعض روايات هذا الحَدِيث فقال أعرابي: يا رَسُول الله، (فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها، قال: فمن أعدىٰ الأول؟) .

وفي رواية في مسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث: (لا عَدْوَىٰ) ويحدث عن النَّبي ﷺ أَنَّه قال: (لا يورد ممرض علىٰ مصح) ثُمَّ إن أبا هريرة اقتصر علىٰ حديث: (لا يورد ممرض علىٰ مصح) وأمسك عن حديث: (لا عَدْوَىٰ)، فراجعوه فيه فقالوا: سمعناك تحدثه فأبىٰ أن يعترف به. قال أبو سلمة الرَّاوِي عن أبي هريرة: فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر.

الشَّرح

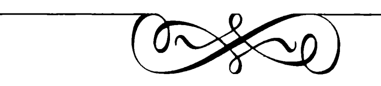
سببُ قولِ الأعرَابي أَنَّه سمعَ حديثَ (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ)، وقد رواه قرابة خمسةٍ من أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، ولكن الرَّاوِي الأصلُ الذي هو أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ امتنع من التحديثِ به بعد ذلك، فأخذ يُحدِّث بحديثٍ (فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد)[١] .

قوله: (لا يورد ممرض علىٰ مصح)[٢]، هذا الحَدِيث الثاني، والحديث الأول ينفي انتقالَ المرضِ من مريضٍ إلىٰ صَحِيْح، والحديثُ الثاني ينهىٰ عن إيرادِ المريضِ إلىٰ أُناسٍ أصحاءَ، فكأَنَّ بينهما تَعَارُضًا، وكان أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رَوىٰ الحَدِيثين، وبعد فترةٍ امتنع عن رواية الحَدِيث الأول مَعَ أن أبا سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) أخرجه البُخَارِي، نفس الحَدِيث السابق.

(٢) سبق تخريجه.

وهو من خواصِّ رواةِ أبي هُريرة رضي الله عنه يقول: أنَّه قد حدَّثنا، فلم يعترفُ أبو هريرة رضي الله عنه بأنَّه حدَّث به، فقال الرَّاوِي: لا أدري هل نَسي أبو هريرة أم أن الحَدِيثَ مَنسوخٌ؟ لكن هذا الحَدِيث رواه جماعةٌ من الصَّحَابَة، رواه سعد بن أبي وقاص، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، فكلها في الصَّحِيحين، فامتناع أبي هُريرة رضي الله عنه لا يؤثرُ في صحةِ الحَدِيث؛ لأنَّه صحَّ من طرقٍ أُخرَىٰ، وسيذكر الشَّارِحُ رحمه الله أربعةَ أقوال. وسنبين إن شاء اللهُ ما هو الراجحُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد روى حديث لا عَدْوَىٰ جماعة من الصَّحَابَة، منهم: أنس بن مالك، وجابر بن عبدالله، والسائب بن يزيد، وابن عمر وغيرهم، فنسيان أبي هريرة له لا يضر، وفي بعض روايات هذا الحَدِيث: (وفر من المجذوم كما تفر من الأسد).

وقد اختلف العُلَمَاء في ذلك اختلافًا كثيراً، فردت طائفة حديث: (لا عَدْوَىٰ) بأن أبا هريرة رجع عنه؛ قالوا: والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر، فالمصير إليها أولى، وهذا ليس بشيء؛ لأن حديث: (لا عَدْوَىٰ) قد رواه جماعة كما تقدم.

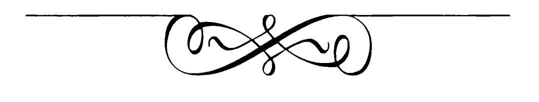
وعكست طائفة هذا القول، ورجحوا حديث لا عَدْوَىٰ، وزيفوا ما سواه من الأخبار، وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث: (فر من المجذوم فرارك من الأسد) وبأن عائشة أنكرته كما روى ابن جرير عنها، أن امرأة سألتها عنه فقالت: ما قال ذلك، ولكنه قال: (لا عَدْوَىٰ) وقال: (فمن أعدى الأول؟) قالت: وكان لي مولى به هذا الداء، فكان يأكل في صحافي ويشرب في أقداحي وينام على فراشي، وهذا أيضًا ليس بشيء، فإن الأحَادِيث في الاجتناب ثابتة.

الشَّرح

هؤلاء الطائفة لم يجمعُوا بين الأحَادِيث، وإنَّما رجَّحوا نوعًا من الأحَادِيث، وردُّوا النَّوْعَ الثاني، فالمذهبُ الأول: ردَّ حديثَ لا عَدْوَىٰ؛ لأنَّ الرَّوايَ له قد أنكر روايتَه لهذا الحَدِيثِ، ونأخذُ بالأحاديث الأخرى؛ لأنَّها أكثرُ، هناك أحاديثُ تَعَارُض هذا الحَدِيثَ وكلُّها صَحِيْحةٌ، الحَدِيثُ الأول:

(فرَّ من المجذوم فرارَك من الأسد)[1] والثاني: (لا يوردُ ممرضٌ علىٰ مصحٍّ)[2] وهو في مُسلم، والثالث في الطَّاعون: (إذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم في أرض فلا تخرجوا منها)[3] فقالوا: هذه أحاديثُ فيها الحثُّ علىٰ عدم التقاءِ الصَّحِيح بالمريض، فنأخذُ بالأحاديثِ الأكثرِ، إضافةً إلىٰ أنَّ أبا هريرة ﷺ لم يعتدَّ برواية الحَدِيث، هذا مذهبُ قاله الشَّارِحُ وهذا ليس بشيء، أي أنَّه مذهبٌ مردودٌ؛ لأنَّ هذا الحَدِيثَ قد رواه غيرُ أبي هريرة ﷺ، فقد رواه كما مر السائب بن يزيد، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وكلها في الصَّحِيحين أو في أحدهما، فَرَدُّ نوعٌ من الأحَادِيث وقبولُ أحاديثَ أخرىٰ مَذهبٌ ليس سليماً. وإذا تَعَارُضت الأحَادِيثُ لا يَلجأ العُلَمَاءُ إلىٰ أخذِ بعضِها، بل يجمعون بينها أولاً، أما إذا تعذَّر الجمعُ بينها يلجئون إلىٰ الترجيحِ، فالترجيحُ درجُة ثانية، وليس في الدرجةِ الأولىٰ.

قوله: (وعكست طائفة هذا القول) هذا هو المذهبُ الثاني، قبَلوا حديث لا عَدْوَىٰ، وردُّوا الأحَادِيثَ الأخرىٰ، واستشهدوا بما وردَ عن عائشةَ ﷺ ولكن هذا الأثر عن عائشةَ لا يُوْجَدُ في أمَّهاتِ الكُتب، ولكن نُسب إلىٰ ابن جرير ﷺ ولا يُدرىٰ في أي كتابٍ هو، فهذا المذهب مَردودٌ.



---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، برقم: (٥٧٢٨)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة و الكَهَانَة وغيرها، برقم: (٢٢١٨)، (٤/ ١٧٣٧).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وحملت طائفة أخرىٰ الإثبات والنفي علىٰ حالتين مختلفتين، فحيث جاء لا عَدْوَىٰ كان المخاطب بذلك من قوي يقينه وصح توكله بحيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوىٰ، كما يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد، لكن القوي اليقين لا يتأثر به، وهذا كما أن قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها، وحيث جاء الإثبات كان المراد به ضَعِيْف الإيمان والتوكل، ذكره بعض أصْحَابنا واختاره، وفيه نظر.

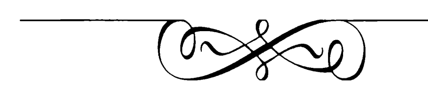
وقال مالك لما سئل عن حديث: (فر من المجذوم) ما سمعت فيه بكراهية، وما أرىٰ ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء، ومعنىٰ هذا أَنَّه نفىٰ العدوىٰ أصلاً، وحمل الأمر بالمجانبة علىٰ حسم المادة وسد الذريعة، لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك، فيظن أَنَّه بسبب المخالطة، فيثبت العدوىٰ التي نفاها الشارع، وإلىٰ هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره القاضي أبو يعلىٰ عن أحمد.

الشَّرح

قوله: (وصح توكله بحيث لا يستطيع) هنا " لا " زائدةٌ، والصحيحُ: وصحَّ توكلُه بحيث يستطيعُ أن يُدفعَ عن نفِسه انتقالَ العَدوَىٰ، كما يستطيع أن يدفعُ التطيرَ الذي يقعُ في نفسِ كل واحدٍ؛ لأَنَّه إذا صحَّ التوكلُ يستطيع، لكن إذا لم يصحْ لا يستطيع، فالكلام عن صحة التوكُّلِ، هذا المذهبُ الثالثُ، وهو أنَّ الأَحَادِيثَ لا تُخاطبُ جميع النَّاس، ولكنها تخاطب فئتينِ من النَّاس، فهناك فئةٌ قَويَ إيمانُها، فنقول لهم: (لاعدوىٰ)؛ لأنَّ عندهم توكُّلُ قويٌّ، ولا يُؤثرُ

عليها المخالَطةُ، وهناك فئةٌ إيمانُها ضَعِيْف، فنقول لهم: (فِرُّوا من المجذوم) وهذا المذهبُ فيه نظر كما قال الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (ومعنى هذا أنَّه نفى العدوى أصلاً، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة) هذا المذهبُ الأخير، قال: هذا سدٌّ للذريعةِ، هو نفسُ الكلام السابق للمذهب الثالث، حتى لا يقع في نفس الإِنْسان اعتقادُ العدوى لو مَرض، فقالوا: يَسدُّ بابَ الاعتقادِ، هذا بالفرارِ من المريض.



قال المؤلف رحمه الله:

قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقي وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله: (لا عَدْوَىٰ) علىٰ الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجَاهِلِية من إضافة الفعل إلىٰ غير الله تعالىٰ، وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصَّحِيح من به شيء من هذه العيوب سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: (فر من المجذوم كما تفر من الأسد) وقال: (لا يورد ممرض علىٰ مصح) وقال في الطاعون: (من سمع به بأرض فلا يقدم عليه)، وكل ذلك بتقدير الله تعالىٰ، كما قال ﷺ: (فمن أعدىٰ الأول؟) يشير إلىٰ أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده. وروىٰ الإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا: (لا يعدي شيء، قالها ثلاثًا، فقال الأعرابي: يا رَسُول الله، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها، فقال رَسُول الله ﷺ: فمن أجرب الأول؟ لا عَدْوَىٰ ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها) فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، كما دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾ [الحديد:٢٢].

الشَّرح

هذا هو المذهبُ الرابعُ الصَّحِيحُ، وبيانُ النهي عن نفيِ العَدْوَىٰ، وهو أنَّ هذا كان في الجَاهِلِية مَوجُوداً، فذكرَ أنَّ الحَدِيث ينفي ما كانت تعتقدُه الجَاهِلِيةَ، فليس فيه نفيُ العَدوىٰ مطلقًا، ولكن ينفي الصُّورَةَ التي كانت في أذهانِ الجاهليين.

قال المؤلف رحمه الله:

أما أمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن إيراد الممرض على المصح، وعن الدخول إلى موضع الطاعون، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسبابًا للهلاك والأذى، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية، فكما أنَّه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النَّار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذي، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم وقدوم بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها، لا خالق غيره ولا مقدر غيره، وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره، فقويت النَّفْس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة.



الشَّرح

هذا قريبٌ من القولِ الثالثِ، لكن في الحَقِيقَة أنَّ الأمرَ على خلافِ ما ذكروا جميعًا، وأنَّ الأحَادِيثَ التي تذكرُ لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ إنَّما تُقرِّر ما يجبُ أن يعتقدَه المُسْلِمُ، فهذا خطابٌ يتعلَّق بالاعتقاد، أن نعتقد أنَّه ليس هناك شيءٌ في الوجودِ يُؤثِرُ بنفسه، بل لا يُؤثِرُ إلا بتقدير الله، هذا اعتقادٌ بالداخل، وليس مَعناه أن نتركَ الأسبابَ، مثل أن نعتقدَ أنَّ الرزَق مكتوبٌ، لكن لا يعني هذا تركُ الأسبابِ، فالحديثُ الأول خطابٌ لما ينبغي أن نعتقدَ، والذي فيه الفرارُ خطابُ لما ينبغي أن نعملَ بأن نتخذ الأسبابَ، لكن نعتقد أنَّ هذا سببٌ، وإلا فلو أرادَ الله شيئًا لوقعَ، فالقضيةُ ليس فيها تناقض ولا تَعارُض. فهذا مِثلُ أن تعتقِد أنَّه قد كُتُب أجلُك، لكن لا تقتلْ نفسَك، وأن تعتقد أن رزقَك

مكتوبٌ، لكن لا تترك الأسبابَ في البحث عن الرزقِ، وأن تعتقدَ أن الإنْسان قد كُتُب هل هو في النَّار أو في الجِنَّة، لا تترك العملَ، فالخطابُ في كل حديث جهاتُه مُنفكَّة، فحديث (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ) :إنَّما يُقرِّر ما ينبغي أن يعتقده المُسْلِم، (وفرَّ من المجذُوم) :ما ينبغي أن يفعله المُسْلِمُ في اتخاذ الأسباب، ولهذا ورد في حديث صَحِيْحٍ أنَّ وفدَ ثقيفٍ عندما قدِم علىٰ رَسُول الله ﷺ كان فيهم رجلٌ مَجذومٌ، وقبل أن يدخلَ المدينةِ أرسل إليه النَّبي ﷺ: **(أنَّا قد بايعناك فارجع)**[1]، وهذا في صَحِيْح مسلم، وسيأتي أن النَّبي ﷺ أخذَ بيدِ مَجذومٍ وأدخلَها في الصَحفةِ، أي: ثقةً بالله وتَوكُّلاً عليه، ولكن هذا حديثٌ ضَعِيْف.

فالمسلمُ مطالبٌ باتخاذ الأسبابِ، عندما قدِم عمرُ رضي الله عنه إلىٰ الشام وسمع أنَّه وقع فيها الطَّاعونُ استشارَ الصَّحَابَة رضي الله عنهم، فاختلفوا عليه، ثُمَّ أخيراً قرَّر أن يرجعَ، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يقول القولُ فينزلَ القُرْآن يُسدِّدُ قولَه، ويُقرِّرَ رأيه، والذي قال فيه النَّبي ﷺ: **(ما سلك ابن الخطاب فجاً إلا سلك الشَّيطَان فجاً آخر)**[2] هذا الإمامُ المُلْهَم الذي قال فيه النَّبي ﷺ: **(إن كان في أمتي محدثون فعمر منهم)**[3] أي: مُلهَم، والمُلهَمُ الذي تتحدث المَلَائِكَة علىٰ لسانِه، أو تُعينه بخواطرِ الخَيْر،ومع ذلك يرجع، وعُمرُ رضي الله عنه ما

---

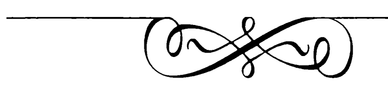
(١) أخرجه مسلم في صَحِيْحه، كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه، برقم: (٢٢٣١)، (٤/ ١٧٥٢).

(٢) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه بمعناه، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، برقم: (٣٦٨٣)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب فضائل الصَّحَابَة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، برقم: (٢٣٩٦)، (٤/ ١٨٦٣).

(٣) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْح، الموضع السابق، برقم: (٣٦٨٩).



كان يعتقدُ أنَّ الطاعونَ ينتقلُ بنفسه، لكن الدخولُ إليه سببٌ للهلاكِ، فعندما قرَّر العودةَ، قال أبو عبيدة رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أفراراً من قدرِ الله؟ قال عمرُ: لو قالها غيرُك يا أبا عبيدة، نفرُّ من قدرِ الله إلىٰ قدرِ الله، فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان في حاجةٍ له، وقال لقد سمعتُ من النَّبِي ﷺ أنَّه قال: **(إذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها)**[1] فحمدَ الله عمرُ، فاتخاذ السببُ غيرُ الاعتقادِ، فالإنسانُ يعلم أنَّ أجلَه مكتوبٌ، ولكن لا يجوز أن يجيء إلىٰ جبلٍ شاهقٍ ويقول: أنا سأرمي نفسي من هذا الجبل فإن كان أجلي قد جاءَ سأموتُ، وإذا كان أجلي لم يأت لن أموتَ، فكذلك هنا، نعتقد أنَّ الأشْيَاء لا تعدي بنفسِها، ولا تضرُّ بنفسِها، إنَّما بتقديرِ الله ولكننا مُطالبُون باتخاذ الأسبابِ، فليس بين الأحَادِيث تَعَارُض، وهذا هو الذي يبدو أنَّه الراجحُ والله أعلم.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعلىٰ هـذا يحمـل الحَدِيث الـذي رواه أبـو داود والترمـذي: (أن النَّبِـي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها مَعَه في القصعة، ثُمَّ قال: كل باسم الله ثقة بـالله وتـوكلاً عليه).

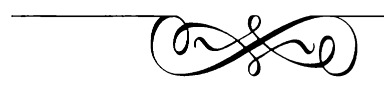
الشَّرح

قولـه: (أن النَّبِـي ﷺ أخـذ بيـد مجـذوم فأدخلهـا مَعَـه في القصـعة)[1] هـذا الحَدِيث لا يصحُّ، والذي صحَّ هو أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمرَه بأن لا يَدخلَ المدينـةَ، وقـال: (قد بايعناك فارجع)[2]، ونحن نعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل بعضَ الأمـراضِ تُـؤثر، وعندما تقدَّم الطب في العصر الحاضر ورأوا أنَّ الأمراضَ بعضُها عن طريق الفيروسات وعن طريقِ الجراثيم، وهذه أشياء لا تُرىٰ بالعين، ولا نَحسُّ بها، وأن وجود هذه الجراثيم في شَخْص هي سببُ المرض، فقربُه من إنسانٍ آخرَ يُؤدي إلىٰ انتقالها عن طريق العُطاسِ، وعن طريقِ الشرب المشتركِ، وعن طريقِ الأكل المشتركِ، فانتقال الجراثيم من شَخْصٍ إلىٰ شَخْصٍ تؤدي إلىٰ المرض، وإن كانت لا تُؤثرُ إلا بتقديرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قَدَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أن تكونَ بعض

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطِّيْرة، برقم: (٣٩٢٥)، والترمذي في سننه، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل مَعَ المجذوم، برقم: (١٨١٧)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب النكاح، باب لا يورد ممرض علىٰ مصح، برقم: (١٤٢٥٠)، (٧/ ٣٥٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب الأطعمة، برقم: (٧٢٧٦)، (٤/ ٢٤٣)، وابن حبان في صَحِيْحه، كتاب العدوىٰ والطيرة والفأل، ذكر الإباحة للمرء مواكلة ذوي العاهات، برقم: (٦١٢٠)، (١٣/ ٤٨٨)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (١٨٢٢)، (٣/ ٣٥٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي عليه، وضعفه المحققون لمفضل بن فضالة الرَّاوِي، وهو ضَعِيْف.

(٢) سبق تخريجه.

الأمراض تعُدي أي: تَنتقلُ، لكن قد لا تنتقلُ، لذا نرىٰ بعض الأَشْخَاص يكون في بيته رجلٌ فيه مرضٌ ولا ينتقلُ إليه، ويخالطُ شَخْصًا آخر فينتقلُ المرضُ، فانتقالُ المرضُ محكومٌ بقدرِ الله ﷻ، فهذا هو الراجحُ والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد أخذ به الإمام أحمد، وروي ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم، ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوَلِيد من أكل السم، ومن مشي سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني بالجيوش على متن البَحْر، قاله ابن رجب.

الشَّرح

نُقِلَ عن خالدِ بنِ الوَلِيدِ رضي الله عنه أنَّه احتسَىٰ سُمَّاً، وقال: بسم الله الذي لا يضرُ مَعَ اسمه شيءٌ واحتساه، لكن هذا الأثر منقطعٌ لا يصحُّ، كذلك الأثر عن أبي مسلم الخولاني أنَّه مَشىٰ بالجيش علىٰ متنِ البَحْر أثرٌ لا يصحُ، فأحياناً يكون في تراجم بعض العُلَمَاء أو بعض الصَّالِحين أحداثُ لا تصحُ، فليس كل ما في التاريخِ صَحِيْحاً، فإذا كذبَ النَّاس علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فمن باب الأولىٰ أن يكذِبوا علىٰ غيرِه من الصَّحَابَة والتَّابعينَ، فهذه الأثارُ لا تصحُ، وإن كنا نعتقدُ أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يُكرم بعضَ عبادِه بِبَعْضِ الكراماتِ لكن يحتاجُ إلىٰ إثباتِ، إذا صحَّ الحَدِيثُ أو الأثرُ نعتقد أنَّه وقع، وإذا لم يصح فلا ينبغي لنا أن نعتقدَه؛ لأننا نعلمُ أن السمَّ قاتلٌ، فالذي يشربُ السمَّ مَعَ علمِه بأنه قاتلٌ في الحَقِيقَة ليس هذا مُتوكلاً، بل هذا قاتلٌ لنفسه مثلُ الذي يدخلُ في النَّار ويقول بسم الله، ما ورد في الشرع أن ندخلَ فيما فيه خطرٌ ونزعمُ التَّوكُلَ، بل نحن مأمُورون باتخاذِ الأسباب، وهذا عمرُ رضي الله عنه أمامَه الطاعونُ ما دخَل، وهو من خِيرةِ الصَّحَابَةِ ما قال: سأدخُلُ وأتوكل ُعلىٰ الله، مَعَ أنَّه من كبارِ الصَّحَابَة والخلفاءِ الراشدين المعروفين بالفضل والصلاحِ والإيمان وقوةِ اليقين، فلم يُعرفُ عن أحدٍ من الصَّحَابَة رضي الله عنهم أنَّه عمِل عملاً فيه قتلٌ وهلاكٌ وقال بسم الله توكلتُ علىٰ الله، نحن مطالبون بأن نتخذَ الأسبابَ التي تمنعنا من الوقوعِ في المهالك، لكن لو عرض لنا أمر نصبرَ ونحتسبَ ونعتقدَ أنَّ هذا قدرُ الله سبحانه وتعالى.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا طِيَرَةَ) قال ابن القيم: هذا يحتمل أن يكون نفيـًا أو يكـون نهيـًا، أي لا تتطيروا، ولكن قوله في الحَدِيث (ولا عَدْوَىٰ ولا صفر ولا هامة) يدل علىٰ أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانـت الجَاهِلِية تعانيها، والنفي في هـذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل علىٰ بطـلان ذلـك وعـدم تـأثيره، والنهـي إنما يـدل علىٰ المنع منه.

الشَّرح

إذا دَخلت أداة النفي "لا "علىٰ اسم، مثـل: (لا طِيَرَةَ) وحـديث: (لا ضـرر ولا ضرار)[١] و(لا شغار في الإِسْلَام)[٢] وهذا النَّوْعُ من الأحَادِيث، فإنها أحيانـًا تأتي ويُـراد بهـا النَّفي، أي: لـيس لهـذا وجـودٌ، فمعنىٰ(لا طِيَرَةَ) أي: أنَّ الطَّيْـرةَ ليس لها وجودٌ حقيقي، إنَّما هـذه أوْهَـام، هـذا احتمـالٌ، والاحتمـالُ الثاني: أنَّـه نهيٌ عن التَّطَيرِ، لكن النفيُ أقوىٰ؛ لأن نفي وجودِ هـذا الشـيء يـدلُّ علـىٰ المنـعِ والنهـي مـن بـابِ أولـىٰ، لكـن إذا قـال: "لا تفعلْـه "، هـذا لا يعنـي أنَّـه لـيس موجوداً، قد يكـون موجـوداً لكـن أنـت مَنهيٌ عـن الفعـلِ، فـالنفي أقـوىٰ، لكـن حديث: (لا شغار في الإِسْلَام) ليس نفيـًا، إنما ينهانا أن نفَعل الشِّغار، وكـذا (لا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بلفظ: "لا ضرر ولا إضرار"، برقم: (٢٨٦٥)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب الصلح، باب لا ضرر ولا ضرار، برقم: (١١٣٨٤)، (٦/ ١١٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، برقم: (٢٤٠٠)، (٢/ ٧٤)، وصححه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي". والدارقطني في سننه، كتاب البيوع، باب الجعالة، برقم (٣٠٧٩)، والطبراني في مَعَاجمه الثلاثة، مثلاً: المعجم الأوسط برقم (١٠٣٣)، والإمام مالك في الموطأ مرسلاً، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق، برقم (٢١٧١).

(٢) أخرجه مسلم في صَحِيْحه، كتاب النكاح، باب تحريم نكاح الشغار وبطلانه، برقم: (١٤١٥)، (٢/ ١٠٣٤).

ضرر ولا ضرار) ليس نفياً، فالضررُ موجودٌ، لكن ينهانا أن نضرَّ، فالنفي يُفَسَّر بحسبِه، فإن جاء علىٰ أمرٍ ليس باختيارِك كالطيَرة والعَدوَىٰ لا نقول: هذا ينهاك أن لا تُعدي، بل هذا نفيٌ، فهـذا السياق وردَ للنَّفـي، أمَّا في الأشْيَاء التـي تكـون من فعل الإنْسان مثل: (لا شغار في الإِسْلَام) (لا ضرر ولا ضرار) يكون المـراد به النَّهي عن الفعل، فهنا في هذا الحَدِيث يُراد به نفيُ التطيرِ أي ليس لـه حقيقـةٌ؛ لأنَّ الله ﷻ قد خلقَ الأشْيَاء وجعلَ بعضَها أسباباً، ولم يجعل بعضَـها أسبابـاً، فإذا كان الشارعُ يخبُر أنَّ الله خلقَها ولم يجعلْها أسباباً كيف نتخـذَها أسبابـاً؟، فالطيرُ لم يجعلْهـا الله أسبابـاً لمعرفـة الخَيْـر والشرِّ، الطَّيْـر ليس سببـاً لوجـود الخَيْر، وليس سبباً لوجود الشرِ، فالإسلامُ يعلمُ أن هناك أسبابـاً وهميـةَ توجـد في المُجْتَمَعات الجَاهِلِية التي لـم تَترَبَّ علىٰ الإِسْلَام.

والأسـبابُ علـىٰ أقسـامٍ أربعـةٍ، الأول: سـببٌ طبيعـيٌ أخـبر الله بـه، فالنَّـار تحرِقُ، والسِّكينُ تقطعُ، والطعام يُشبعُ، والماء يَـروي مـن الظمـأ، هـذه أسـبابٌ طبيعيةٌ، بعضُها مَعروفٌ عن طريق التجربةِ، وبعضُها عن طريق الخبرِ الشَّرْعِي، عن طريق الممارسةِ، الثاني: سببٌ شَرْعِي كالرُّقيَةِ، الثالث: سببٌ شِرْكيٌ، وهـو أن يعتقدَ أن هذا الفعلَ أو أن هذا الخَلقَ يُؤثرُ بنفسه استقلالاً، مثل الـذي يعتقـدُ أن النُّجُـوم تـؤثرُ في حيـاةِ الإنْسـان في الأرضِ باختيارهـا وتفعـل الخَيْـر والشَّـرَ، وتُحيي وتُميتُ، وتَرزُقُ وتمنعُ، هذا اعتقادُ شِـرْكي، الرابـع: الاعتقـادُ الـوهمِي، هـو مثـلُ أن يعتقـدُ أنَّ حركـةَ الطَّيْـر لهـا علاقـةٌ بالغيـبِ، هـذه أشـياء وهميـاتٌ، والشرع ينهَىٰ أن نَقع في الأوهام، فيقول: هذه لم يخلُقُ الله فيها أسبابـاً، فليسـت أسبابـاً، وهذا رَفعٌ لعقل المُسْلِم بأن لا يقعَ فريسةً للأوهامِ، فكثير من النَّـاس في المُجْتَمَع الجاهلي والمجتمعاتِ التي ليس فيها إسـلامٌ يـرون أشـياء كثيـرةٌ أنَّهـا أسباب ، ومنها هذا التَّطيرُ، فهذا ليس سببـاً في الخَيْر ولا في الشرِ، ولا علاقـةَ لـه بالأحداثِ، فهذا من باب تكريم العقلِ المُسْلِمِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي صَحِيْح مسلم عن مَعَاوية بن الحكم السلمي أَنَّه قال لرسول الله ﷺ: (كنا نتطير، فقال: ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم) فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطِّيْرة؛ ليعلموا أن الله - سُبْحَانَهُ - لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلىٰ وحدانيته تعالىٰ، التي أرسل بها رسله، ونزل بها كُتُبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجِنّة والنار بسبب التَّوْحِيد، فقطع ﷺ علق الشِّرْك من قلوبهم؛ لئلا يبقىٰ فيها علق منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النَّار البتة، فمن استمسك بعروة التَّوْحِيد الوثقىٰ واعتصم بحبله المتين وتوكل علىٰ الله قطع هاجس الطِّيْرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.



الشَّرح

هذا يبين ما قلناه سابقاً أن النَّبي ﷺ أراد أن يقطع أسبابَ الشِّرْك، ويُعلِّق القَلْب بالله ﷻ؛ لأنَّ الذي يقع في قَلْبِه أن الطَّيْرَ أو الحركات التي تحدث له في حياته لها علاقةٌ بالغيبِ، فإنه يعيش طوال حياتِه مَعَذباً، وحياتُه في نكدٍ، وأنه عندما يتعلق قَلْبُه بهذه الأشْيَاء، فكلما رأىٰ حدثاً فسَّره تفسيراً خاطئاً لا علاقةَ له بالأحداث، وهذه أمورٌ لا علاقةَ لها بِبَعْضِها البَعْض، فلو أن شَخْصاً أراد أن يفعل فِعلاً، أو أن يتزوجَ، ثُمَّ يحدث له في الطريقِ بعض الأشْيَاء فلا ينبغي له

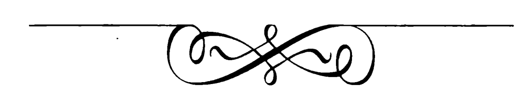
أن يربِطها بالفعل، كل مُسلمٌ مُطالبٌ بالاستخارةِ والاستشارةِ، وأن الله ﷻ هـو الذي سيحولُ بين المرءِ وبين ما يضرَّه، فليجعـل أمـره بيـده ﷻ يقـول في دعـاء الاستخارةِ: (إن كان فيه خيرٌ لـي في ديني ودُنيـاي فيسِره لـي، واقـدرُه لـي، وإن كان فيه شرٌ لي في ديني ودنياي، فاصرفه عني، واصـرفني عنـه واقـدُر لـي الخَيْـرَ حيث كان)، ثُمَّ يُقدِمُ، بعض النَّاس إذا استخار ينتظر رؤيةً، فيستخيرث وعندما خرج من الباب فإذا كان أول ما وجد شيئًا يناسبُ هذا الفعل فعلضه، لا ينبغـي هذا، فالقدَرُ هو الذي سيمنعُ، سيحول بـين المـرءِ وبـين التنفيـذ، والله يريـدُ أن يكون المُسْلِم إنسانـًا متميزاً، مُوحِداً للخالِق، لا يُعلِّقُ قَلْبه بهذه الأحـداث، يعلـم أنَّ الكـون بيـدش الخـالِق، وأنَّ هـذه أشـياءٌ تحـدثُ للإنسـان في الطريـق، أرأيـتم النَّبـي ﷺ عنـدما خـرج للهجـرةِ، فخـرجَ واختفـىٰ في غـار ثـورٍ، ثُـمَّ في الطريق لحقَه سُراقةُ بن جعشَـم، وفي كـل مـرةٍ يقابـلُ شيئـًا، فلـو كـان ﷺ كلمـا قابلَ شيئـًا تشاءمَ به لكان رجع من الهِجرةِ.

فالمسلمُ لا يُعلِّقُ قَلْبَه بهذه الأشْيَاء، وإنَّما يعمل الأسبابَ، لكنـه يعتقـد أن ما قدّرَ الله سيقعُ، وبهذا يعيش بقلب مُطمئن، والتوحيدُ يقتضـي مـن المُسْـلِم أن لا يعلِّقَ قَلْبـه بالمخلوقـات، وأن لا يتشـاءمَ، وأن لا يتَطيـرَ، بـل يتوكـلُ علـىٰ الله ﷻ، فيعيش بنفس راضيةٍ، أمَّا مـن خـالف هـذا فإنَّـه يعـيش بحيـاة نكـدةٍ، ففـي حديث مَعَاوية ﷺ أنَّه قال: (**إنَّا كنا نتطير**) أي: في الجَاهِلِية فقـال: (**ذلـك شـيء يجده أحدكم في نفسه**)[1]: لـيس لـه وجـودٌ في الخـارج، إنَّ الأشْـيَاء لهـا عـدةُ درجـاتٍ للوجُـود، فهنـاك أشـياءٌ لهـا وجـودٌ في الـذِّهنِ، ولـيس لهـا وجـودٌ في الخـارِج، منهـا التَّطيُّـرُ، هـي فقـط في أذهـانِ النَّـاس، لكـن لـيس لهـا حقيقـةٌ في

---

(١) سبق تخريجه.

الوجود، ومثل الغُول، أو أنَّ هناك خلقٌ من البَشَر لهم أظفارٌ ولهم أنيابٌ كبيرة يأكلون لحومَ البَشَر، هذا ليس له وجود إلا في الذِّهن فقط، فالحديث يقول: (ذلك يجده أحدُكم في نفسه)؛ لأنَّه فقط في النَّفْس، ليس له وجودُ في الخارج، فهذا قد يحدث لمن تربىٰ علىٰ هذا الحال، ومن تربَّىٰ علىٰ الإيمانِ في بيت الإيمانِ، ودرَس القُرْآنَ، وعرف الشرعَ لا يجد هذه الأشْيَاء في نفِسه وإن وجدها فإنَّه يغالبها، فلا تصُدَّنَّه عن العملِ، والإنسانُ لا يمتنعُ عن فعل ما فيه خيرٌ له بسبب ما يحدث في الطريق أو ما يراه من بعض المظاهرِ التي يُوسوِسُ الشَّيطَان أنَّ لها علاقةً بما يُريد.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شر، فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره في الخَيْر والشر، وخرج طاووس مَعَ صاحب له في سفر فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاووس: وأي خير عند هذا، لا تصحبني انتهىٰ ملخصًا.

ولكن يشكل عليه ما رواه ابن حبان في صَحِيْحه، عن أنس مرفوعًا (لا طِيَرَةَ والطيرة علىٰ من التَّطَيُّر)، فظاهر هذا أَنَّها تكون سببًا لوقوع الشر بالمتطير.



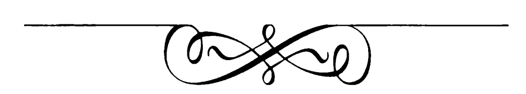
الشَّرْح

هذه الأمورُ قد تحدث في أفراد ليس عندهم علمٌ شَرْعِي، وإنما يكون عندهم أوْهَام، فإن صحَّت هذه الرِّوَاياتُ أنَّه كان عند ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا شَخْصٌ سمع طائراً يصيح فقال: خيرٌ خيرٌ، فقال: لا خيرَ ولا شرَّ؛ لأنَّ الطَّيْر لا يعلم الغَيْب ولا علاقةَ له بالغيب، فهذه تقع في قَلْبِ من ضعف إيمانُه أو علمُه الشَّرْعِي.

أحيانًا الأقدمون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يوردون حديثًا لا يصحُّ، ثُمَّ يبدءون يُّخرِّجُون مَعَناه، ولكن البحث في مَعَنىٰ حديثٍ لا يصح ليس فيه ثمَرة؛ لأن ما لا يصح أصلاً لا يصح الاستشهادُ به ولا الاستدلالُ، هذا الحَدِيث **(لا طِيَرَةَ والطيرة علىٰ من التَّطَيُّر)**[1] فيه تناقضٌ، كيف لا طِيَرَةَ، والطيرةُ علىٰ من التَّطَيُّر؟

(١) أخرجه ابن حبان في صَحِيْحه، كتاب العدوىٰ والطيرة والفأل، باب ذكر الخبر الدال علىٰ أن الطِّيَرة تؤذي المتطير، برقم: (٦١٢٣)، (١٣/ ٤٩٢)، والمقدسي في الأحَادِيث المختارة، =

فأول الحَدِيث ينقضُ آخرَه كما قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: الحَدِيث متناقضٌ، فالحديثُ لا يصح، والبحثُ في هذا النَّوْعِ من الأحَادِيث في الحَقِيقَة ليس فيه فائدةٌ.



= برقم: (٢٢٦٩)، (٣/ ٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، برقم: (٩٨)، (٦/ ٢٨) وقال ابن جحر: « في صحته نظر » فتح الباري شرح صحيح البخاري: (٦ / ٧١)

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وجوابه أن المراد بذلك من التَّطَيُّر التَّطَيُّراً منهياً عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريده من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه عقوبة له، فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قَلْبه بالله خوفًا ورجاءً وقطعه عن الالتفات إلى غير الله، وقال وفعل ما أمر به فإنه لا يضره ذلك، وأما من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها فإنه لا ينفعه ذلك غالبًا، كمن ردته الطِّيْرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما التَّطَيُّر به فإنه كثيراً ما يصاب بما يخشى به.

وقد جاءت أحاديث ظن بعض النَّاس أَنَّها تدل على جواز الطِّيْرة، منها قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (إنما الشُّؤْم في ثلاثة في المَرْأَة، والفرس، والدار) وفي رواية (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ وإنما الشُّؤْم في ثلاث) الحَدِيث.



الشَّرح

يقول: مَعَنىٰ الكلام أنَّه إن التَّطَيُّر فإنَّ شؤمَ التطيرِ يقع عليه؛ لأنَّه يمنعه عن كثير من حاجاتِه، فتطيرُه يؤذيه، لكن نقول: التَّطيرُ أصلاً مَنفي، وهذه أشياء أوْهَامٌ لا علاقةَ لها بأحداث الإِنْسان ولا بحياته.

قوله: (ظن بعض النَّاس أَنَّها تدلُّ على جواز الطِّيْرة) هذا النَّوْعُ الثاني من أنواع الأَحَادِيثِ التي بها تَعَارُض في الظاهر، والحديث السابق يقول (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ) والتَّطَيُّر هو التَّشَاؤُم، وهذا الحَدِيث يثبتُ أن الشُّؤْم يُوْجَدُ في ثلاثةِ أشياءَ: في المَرْأَة، والفرسِ، والدَّارِ، وسيذكر المُؤَلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأَحَادِيث المتعارِضةَ في هذه المسألة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي حديث آخر (إن كان في شيء ففي المَرْأَة، والفرس، والمسكن) رواهما البُخَارِي. فأنكرت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ذلك وقالت: كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدث بها، ولكن رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: (كان أهل الجَاهِلِية يقولون: إن الطَّيْرة في المَرْأَة والدار والدابة) ثُمَّ قرأت عائشة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

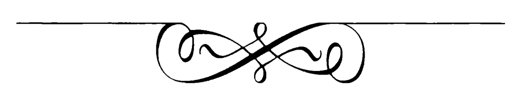
رواه أحمد وابن خزيمة والحاكم وصححه بمعناه، وقال الخطابي وابن قتيبة: هذا مستثنىٰ من الطِّيَرة أي الطَّيْرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس، أو خادم فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه، ولا يقيم على الكراهة والتأذي به، فإنه شؤم.



الشرح

يذكر الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأقوالَ في هذه الأحَادِيثِ، فالقولُ الأول: إن الطَّيْرة منفيةٌ إلا في الأشْيَاءِ الثلاثة، أمَّا قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقد اختلف العُلَمَاءُ في تصحيح الحَدِيث، فالحاكم والذهبي وابن خزيمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ صحَّحوا هذا الحَدِيث، ولكن بعض العُلَمَاء يرىٰ أن حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ضَعِيْف؛ لأنَّه لا يقاومُ ما وردَ في الصَّحِيحين، وأحاديثُ الشُّؤْم هذه وَردت في الصَّحِيحين، وسيذكر إن شاء الله ما سيظهر لنا في هذه المسألة، فالقولُ الأول للخطابي وابن قتيبة ـ رحمهما الله ـ: إنَّ هذا التطيرُ، أو التَّشَاؤُم في هذه الأشْيَاء الثلاثة مُستثنىٰ، يعني لا تتشاءموا إلا في الأشْيَاء الثلاثةِ في الفرسِ، والدارِ، والمرأةِ،

والـذين أثبتـوا التَّشَـاؤُمَ فسَّـروا المـراد بالتشـاؤمَ، قـالوا: التَّشَـاؤُمُ في المَـرْأَة أن يكون لسانُهَا سليطًا، ولا تحترمُ زوجَها، ولا تلِدُ، فلم يصل زوجَها منها خيرٌ، والضرر حصل لـه مـن كـل الوجـوه، فقـالوا: هـذا هـو الشُّـؤْم، والفرسُ التـي لا يُركب عليها في سبيل الله إنَّما تُتَخذُ رياءً وسُمعةً، والـدَّار التـي يكـون جيرانُها جيرانُ سوء ويتـأذَّىٰ مـن سـكن فيهـا مـن جيرانـه، هـذه تفسيرات لمـن أثبـت الشُّـؤْم في الأشْيَاء الثلاثـةِ، لكـن كثيـرٌ مـن العُلَمَـاء جعلـوا هـذه الأحَادِيـث مـن الأحَادِيث التي تعرضُ علىٰ ما خالفها من عمومات الشرع وهـي النفـيُ للشـؤمِ مُطلقًا، فابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ في التمهيد يرىٰ أنَّ هذا النَّوْع من الأحَادِيـث لا يَثبـتُ به هذا الشُّـؤْم؛ لأن التَّشَـاؤُم في الإِسْـلَام مَنفي، لهـذا قـرَّر هنـا أن هـذا الحَدِيثَ مردود ويجعله آحاداً علىٰ خلافِ مَنهَج أهل السُّنَّة والجماعةِ في هذا الباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقالت طائفة: لم يجزم النَّبِي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة بل علقه على الشرط كما ثبت ذلك في الصَّحِيح، ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد بمفردها قالوا: والراوي غلط قلت: لا يصح تغليطه مَعَ إمكان حمله على الصحة، ورواية تعليقه بالشرط لا تدل على نفي رواية الجزم.

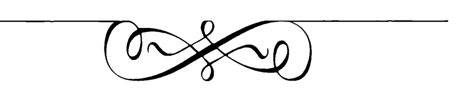
وقالت طائفة أخرى: الشُّؤْم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشؤومة عليه، قالوا ويدل عليه حديث أنس (الطيرة على من التَّطَيُّر) وقد يجعل الله - سُبْحَانَهُ - التَّطَيُّر العبد وتشاءمه سبباً لحلول المكروه كما يجعل الثقة به والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر.



الشَّرح

قوله: (وقالت طائفة: لم يجزم النَّبِي ...) هذا القولُ الثاني أنَّ المسألة ليس مجزومـاً بها، فالحديثُ ورد في بعض ألفاظه (إن كان الشُّؤْم في شيء) فالحديثُ لم يجزم بوجود هذه الأنواعِ من الشُّؤْم في الفرس، والدابةِ، والمرأةِ، فقالوا: لا نستطيع أن نجزمَ بوجودِها ولا ننفيها، إنَّما نكلُ أمرَها إلى الله ﷻ.

قوله:(وقالت طائفة أخرى: الشُّؤْم بهذه الثلاثة إنما يلحق...) هذا القول الثالث أن التَّشَاؤُم يقعُ على من تشاءمَ، وقلنا هذا تفسير لمعنى الحَدِيث السابق الذي لا يصحُّ (لا طِيَرَةَ والطيرة على من التَّطَيُّر).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القيم: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه اثبات الطِّيْرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله - سُبْحَانَهُ - قد يخلق أعيانًا منها مشؤومة علىٰ من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي - سُبْحَانَهُ - الوالدين ولداً مباركًا يريان الخَيْر علىٰ وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤومًا يريان الشر علىٰ وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها. فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله - سُبْحَانَهُ - خالق الخَيْر والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوسًا ينتحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة، ولذ بها من قاربها من النَّاس وخلق ضدها، وجعلها سببًا لألم من قاربها من النَّاس، والفرق بين هذين النَّوْعين مدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون والطيرة والشركية لون. انتهىٰ.

الشَّرْح

أورد الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة أقوال، القول الأول: نفيُ الشُّؤْم مُطلقا إلا من الأشْيَاء الثلاثة التي جاءت في الحَدِيث، والقول الثاني: أننا لا نجزم بوجودِ هذا الشُّؤْم في الأشْيَاء؛ لأنَّ الحَدِيثَ لم يجزِم بها.

والقولُ الثالثُ: أنَّ إثباتها إنَّما يكونُ علىٰ من تشاءَم بها، فعندما رجعنا إلىٰ متون الأحَادِيث التي وردت في الصَّحِيحين وجدنا أن الحَدِيثَ رواه ثلاثةٌ من الصَّحَابَة، الأولُ عبدُ الله بن عمر، والثاني: سهل بن سعد الساعدي،

والثالث: جابر بن عبد الله، حديث ابن عمر ورد عنه من ثلاثِ طُرق، الأول طريق ابنه سالم بن عبد الله، والثاني: طريقُ سالم وحمزة، وبعض العُلَمَاء ينفي أنَّ حمزة روىٰ الحَدِيثَ ويعدُّه وهماً، فيجعلهما طريقاً واحداً، والثالث شَخْص اسمه محمد العسقلاني، الرواية الأولىٰ أي: رواية ابنه فيها (إنما الشُّؤْم في ثلاثة أشياء)[١] ففيها إثباتُ الشُّؤْم، والرواية الثانية فيها تعليقٌ (إن كان الشُّؤْم في شيء)[٢]، ورواية الآخرين سهل بن سعد الساعدي، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم كذلك مَعلَّقة. (إن كان الشُّؤْم في شيء) فالروايات الأخرىٰ كذلك لم تثبت الشُّؤْم في الأشْيَاء الثلاثة، إنما علَّقها، وذكر ابن عبد البر حديثاً رواه الترمذي وابن ماجه أنَّه (لا شؤمَ، واليُمنُ في المَرْأَة والفرس والدار)[٣] وصححَ إسناده، وكذلك ينفي الشُّؤْم حديثُ عائشةَ رضي الله عنها الذي صحح روايتها ابن خزيمة والحاكم، وأقره الذهبي، فالأحاديثُ مُتعارضَة، وإن كانت في الصَّحِيحين، أحاديثُ الإثباتِ في الصَّحِيحين، وكذلك أحاديث التعليقِ في الصَّحِيحين، فهو كما قال ابن عبد البر رحمه الله: إننا نتوقف في إثباتِ الشُّؤْم؛ لأنَّ الأصل في الشرع نفيُ الشُّؤْم، فالحديث ـ والله أعلم ـ ربما يكون يُخبر عما كان عليه أهلُ الجَاهِلِية، فأثبتَ، أو كما قال ابن القيم رحمه الله: إن الله قد يخلق لإنسانٍ

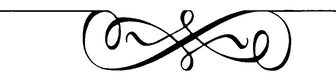
---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب النكاح، باب ما يتقىٰ من شؤم المَرْأَة، برقم: (٥٠٩٣)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب السلام، باب الطِّيْرة والفأل ويكون فيه من الشُّؤْم، برقم: (٢٢٢٥)، (٤/ ١٧٤٦).

(٢) أخرجه البُخَارِي في نفس الباب، برقم: (٥٠٩٤)، ومُسْلِم، نفس الحَدِيث السابق.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشُّؤْم، برقم: (٢٨٢٤)، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب ما يكون فيه اليمن والشؤم، برقم: (١٩٩٣)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٨٢٥٠)، (٨/ ١٥٤)، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ الترمذي وابن ماجه.

ولداً مشئوماً، هذا المشئوم قد يكون مشئوماً في أول حياته ثُمَّ يتوبُ إلىٰ الله ويصلحُه الله، فليس شؤمه لذاته، إنَّما لفعلِه، ففعله جرَّ علىٰ أبيه، ليس أنَّ ذات الشَّخص فيه شؤمٌ، وليس أنَّ ذات الإِنْسان فيه بركةٌ، ما هناك بركةٌ أو شؤمٌ لذات الإِنْسان، إنما لما يفعل، فالدار لا تفعلُ، والفرسُ لا يفعل، والمرأةُ قد تكون مثلاً سيئةً، ثُمَّ تتوب إلىٰ الله وتصلحُ أحوالها، فإن هذه المسألة من المَسَائِل الشائكة التي تحتاج إلىٰ زيادة البحث والتأني، ولا نثبتُ الشُّؤْم في شيء من خلقِ الله إلا بعد أن ندرسَ الأحَادِيثَ والآثارَ حتىٰ لا نجزمُ بوقوعِ شيء أو بردِّه فنكون في ذلك مُخطِئين.



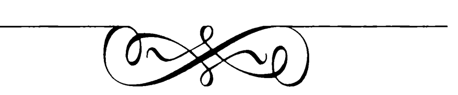
قال المؤلف رحمه الله:

قلت: ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة، أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه، وكذلك ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك، ولكن يبقىٰ علىٰ هذا أن يقال: هذا جار في كل مشؤوم، فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ وجوابه أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة. فخصت بالذكر لذلك ذكره في شرح السُنَنِ.



الشَّرْح

أراد أن يقول: إن الإِنْسانَ مطالب بأنه إذا سكن داراً، أو اشترىٰ دابة، أو تزوج امرأَةَ أن يسأل الله من خيرِها، وخيرِ ما جبلها عليه، أي: من الأفعال التي خلقَها عليها من الخُلق الحسن، وأن يُغيرَ الله خلقها السيء، وأن يرزقَه ما فيها من الأخلاق الحسنةِ، وهذا فعل من المَرْأَة، وفعلٌ من الدابةِ، لكن اعتقادُ أن شَخْصاً مشئوماً، أو أن مكاناً مشئوماً لا يسكنُه أحدٌ إلا يعرِض له شرٌ، هذا في الحَقِيقَة أمرٌ يحتاج إلىٰ بحثٍ واستقصاء؛ لأنَّ الشرعَ ينفي وجودَ أشياءٍ بذواتِها مشئومةٍ، إنما الشُّؤْم لأفعالِها، والذي لا فعلَ له فليس فيه شؤمٌ والله أعلم.

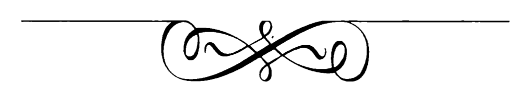


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها ما روىٰ مالك عن يحيىٰ بن سعيد قـال: جـاءت امـرأة إلـىٰ رَسُـول الله ﷺ فقالـت: يـا رَسُـول الله دار سـكناها، والعـدد كثيـر والمـال وافـر، فقـل العـدد وذهب المال، فقال النَّبِي ﷺ: (دعوهـا ذميمـة) رواه أبـو داود عـن أنـس بنحـوه. وجوابـه: أن هـذا لـيس مـن الطِّيَـرة المنهـي عنهـا، بـل أمـرهم بالانتقـال؛ لأنَّهـم استثقلوها واستوحشوا منها لمـا لحقهـم فيهـا ليتعجلـوا الراحـة ممـا دخلهـم مـن الجزع؛ لأن الله قد جعل في غرائز النَّاس استثقال مـا نـالهم الشر فيـه، وإن كـان لا سبب له في ذلك، وحب من جرىٰ علىٰ يديه الخَيْر لهـم، وإن لـم يـردهم بـه؛ ولأن مقامهم فيها قد يقودهم الىٰ الطِّيْرة فيوقعهم ذلك في الشِّرْك، والشر الـذي يلحـق المتطير بسبب طيرته، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه، ولو منع النَّـاس الرحلـة مـن الـدار التـي تتـوالىٰ علـيهم فيهـا المصـائب والمحـن وتعـذر الأرزاق مَعَ سلامة التَّوْحِيد في الرحلة للزم كل من ضاق عليه رزق في بلـد، أو قلـة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها إلىٰ غيرها.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الشَّخص لو تأذَّىٰ مـن شـيء فالشـرعُ يبيـح لـه أن يـتركَ هـذا الشيء، بل يحثه علىٰ مفارقةِ ما فيه أذىٰ، فإذا أحسوا بأنَّ هذه الدار لـم يرتـاحُوا فيها فلا يجبرهم بالبقاء فيها، حتىٰ لا يتأذوا، هذا من الرِّفـق بهـم لا أنَّـه إقـرارٌ أن الدارَ فيها شُؤمٌ، إنما ذلك ليستعجلوا الراحة، فالإنسانُ إذا تأذىٰ من مكان عليـه أن ينتقل.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

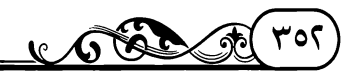
فإن قيل: ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء؟ حيث رخص في الارتحال عن الدار دون موضع البَلَاء، أجاب بعضهم: أن الأمور بالنسبة إلىٰ هذا المعنىٰ ثلاثة أقسام: أحدها ما لا يقع التطير منه نادراً، أو لا مكرراً، فهذا لا يصغىٰ إليه، كنعي الغراب في السفر، وصرخ بومة في دار، وهذا كانت العرب تعتبره، ثانيها: ما يقع به ضرر، ولكنه يعم ولا يخص، يندر ولا يتكرر، كالوباء، فهذا لا يقدم عليه ولا يفر منه، وثالثها: سبب محض ولا يعم ويلحق به الضرر لطول الملازمة كالمرأة والفرس والدار، فيباح له الاستبدال أو التوكل علىٰ الله والإعراض عما يقع في النَّفْس، ذكره في شرح السُنَنِ.



الشَّرح

هذا تعليقٌ علىٰ ما تقدَّمَ من الحَدِيث، أن امرأة جاءت إلىٰ رَسُول الله ﷺ فقالت: (يا رَسُول الله دار سكناها والعدد كثير، والمال وافر، فقلَّ العدد، وذهب المال، فقال النَّبي ﷺ: دعوها ذميمة)[1] فهناك أحاديثُ تقول: ليس هناك التَّطَيُّرُ ولاالتشاؤمُ؛ لأن التَّطيرَ هو التشاؤمُ، وهناك أحاديث تقول: أن هناك تشاؤماً من بعض الأشْيَاء، وأحاديثُ تقول: إن الإنْسان إذا تشاءم من مكانٍ ينتقلُ منه، وأحاديثُ تقول: إذا وقع البَلَاء في مكان فلا يخرُج منه، فكيف

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما يتقىٰ من الشُّؤْم، برقم: (٢٧٨٨)، (٢/ ٥٦٧)، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب، برقم: (٣٩٢٤)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب القسامة، باب العيافة والطيرة والطرق، برقم: (١٦٥٢٨)، (٨/ ٢٤٢)، وأخرج نحوه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٥٦٣٩)، (٦/ ١٠٤)، وحسنه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.



التوفيقُ بين تلك الأحَادِيث؟، قلنا إن عموم الأحَادِيث الصَّحِيحة تدل علىٰ عدم وجود التَّطيُّرِ الذي هو التشاؤم وهذا أصلٌ، (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ)[1] و(لا طِيَرَةَ وخيرها الفأل)[2] (والطيرة شِرْك)[3] قالها ثلاثًا في حديث حسن، وحديث الشُّؤْم في الأشْيَاء الثلاثة ورد بصيغتين، فقلنا أن الحَدِيث رواه ثلاثة من أصْحَاب رَسُول الله ﷺ، عبد الله ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وسهلُ بن سعد الساعدي، وأن الرِّوايات الثلاثَ تقول: (إن كان الشُّؤْم) بالتعلِّيق، قال الطحاوي رحمه الله في مَعَاني الآثارِ : فلم يُخبر أنَّها فيهن، يعني ما أخبر النَّبِي ﷺ أن الشُّؤْمَ في هذه الأشْيَاءِ الثلاثةِ، إنمَّا أوردَه علىٰ طريق الشكِّ، إن كان الشُّؤْمُ في شيء لكان في الأشْيَاءِ الثلاثة التي يطول ملازمةُ الإنْسان لها، ولكنه لم يثبتُ وجودَه فيها، فليس في غيرها من الأشْيَاء من بابِ أولىٰ، وجاءت أحاديثُ أخرىٰ تنفي، فهذا الجمع بين الأحَادِيث يؤدي إلىٰ أننا نقول: أنَّ هذا الحَدِيث يتفقُ في هذه الرواية التي فيها ترددٌ مَعَ ما صح، فالحديث ليس فيه إثباتٌ وإنَّما

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب الطب، باب الطِّيْرة، برقم: (٥٧٥٤)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب السلام، باب الطِّيْرة والفأل ويكون فيه من الشُّؤْم، برقم: (٢٢٢٣)، (٤/ ١٧٤٥).

(٣) أخرجه البُخَارِي في الأدب المفرد، باب ما يقول الرجل إذا رأىٰ غيمًا، برقم: (٩٠٩)، (١/ ٣١٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطِّيْرة، برقم: (٣٩١٠)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطِّيْرة، برقم: (٣٥٣٨)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٣٦٨٧)، (٦/ ٢١٣)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب القسامة، باب العيافة والطيرة والطرق، برقم: (١٦٥١٧)، (٨/ ٢٣٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، برقم: (٤٣)، (١/ ٦٠)، وابن حبان في صَحِيْحه، كتاب العدوىٰ والطيرة والفأل، باب ذكر التغليظ علىٰ من التَّطَيُّر في أسبابه، برقم: (٦١٢٢)، (١٣/ ٤٩١)، وأخرجه أيضًا الطحاوي في شرح مشكل الآثار، وأبو يعلىٰ في مسنده، والطيالسي في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، وصححه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

فيه شَرطٌ، بمعني: إن كان في شيءٍ فهو في كذا، لكنه جاء الحَدِيثُ يقول: (لا طِيَرَةَ) لا يُوْجَدُ شؤمٌ، ومعنىٰ الشُّؤم أن تُخلق ذواتٌ فيها شرٌّ لذاتها.

والأرضُ ليس فيها شرٌ ولا فيها خيرٌ، الأرض تكون شريرةً بما يحدث فيها، وتكون خَيِّرةً بما يحدث فيها، فإن بني فيها مسجدٌ كانت خَيّرةً، وإن بنيت فيها كنيسةٌ كانت علىٰ خلافِ ذلك، فالأرضُ قابلةٌ للخير والشر، مثلُ الورقِ الأبيض، إن كُتب فيه خيرٌ كان خيراً، وإن كُتب فيه شرٌ كان شراً، كذلك المَرْأَةُ قد تكون علىٰ زوجِها شريرةٌ إذا كانت سيئةَ الخُلق، سيئةَ العشرةِ، والعكس كذلك، قد يكون الرجلُ علىٰ زوجتِه شِريراً سيءَ العشرةِ، والسوءُ وضدُه مِن عَملِ الإنْسانِ، وليس في ذاتِ المخلوقِ، فالمخلوق إذا كان شريراً ثُمَّ استقامَ، وتابَ إلىٰ الله تَغير، هذا الإِنْسان الذي جاء في الصَّحِيح أَنَّه قتلَ تسعة وتسعين شَخْصاً، ثُمَّ جاءَ إلىٰ عابدٍ فحاول أن يتوب إلىٰ الله فقال: اخرج لا تحرقني بنارِك، فكمَّل به المائة، لكن أرادَ أن يتوبَ، وتوجَّه إلىٰ التوبةِ، فالشريرُ يستقيمُ، والكافرُ يُسلمُ، والفاسقُ يتوب، فما هناك ذات مخلوقةٌ شريرةٌ لذاتها، إنَّما لأعمالِها.

والعلماءُ أحياناً يحاولون أن يُفَسِّروا الحَدِيث باجتهادهم، مثلاً حديث: (إذا وقع الطاعون في أرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها)[1] فكيف لا يخرج منها، وهو ﷺ قال في البيت الذي شكا أهله منه: (دعوها ذميمة)، فحاول العُلَمَاء التوفيقَ بينهما، لكن أحياناً ما يدركون؛ لأن تشريعَ ربِّ العالمين لم تظهر الحكمةُ فيه إلا في العصر الحاضر؛ لأنَّه اكتشف العُلَمَاء أن بعض النَّاس قد يكون حاملاً للوباءِ، ولا يصيبه الوباءُ، فإذا أصيبٌ بلد بوباء فلا يخرج منه أحدٌ؛ لأن من كان فيه يكونُ مريضاً أو في حُكْم المريض، فلو خرج ربما ينقل

---

(١) سبق تخريجه.

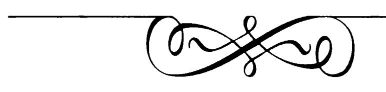
الوباءَ إلىٰ المنطقة الأخرىٰ فيفسدها بنقلِه، وهذا بقدرِ الله، فالوباءُ لا يُعدي إلا إذا أراد الله ﷻ، لكن هكذا خلقَ الله الجراثيمَ تنتقل من إنسان إلىٰ إنسان، فمنعَ من الخروجِ، حفاظًا علىٰ عدم انتشار الوباء، لكن في كل عصر يتبدىٰ من حِكْمة التشريعِ ما لم يظهر في الأجيال الماضية.

فالمسلم يستقبل التشريع باعتقاد أنَّه حقٌ وصوابٌ، سواء ظهر له حِكْمةُ التشريعِ أو لم يظهر؛ لأن علم الإِنْسان محدودٌ، والمُشرِّعُ هو الله ﷻ، وعلمُ الله لا حدَّ له، كما قال الخضر لموسىٰ عليه السلام عندما جاء طائرٌ فوقعَ علىٰ البَحْر، فأخذ من البَحْر بمنقاره قطرة، فقال: **يا مُوْسَىٰ ما علمي وعلمك في جانب علم الله إلا كما أخذَ هذا الطائر بمنقاره من هذا البَحْر**[1]، والذي عنده قطرةٌ يحاول أن يعلم علم الخالِق الذي لا حدَّ له، هذا مُخطئٌ، فعلم الإِنْسان محدودٌ، فليتقبل التشريعَ بالرضا والتسليمِ والطمأنينةِ، يقول بعض العُلَمَاء: لو كان هناك طبيبٌ مُتفقٌ علىٰ مهارته وجودتِه وأنه لا يذهب إليه إنسانٌ مريض إلا شفي بإذن الله ﷻ، فلو ذهبت إليه وأنت مُحتاج إلىٰ علاج فأعطاك علاجًا بكمية محدودةٍ وبزمن محدودٍ، لا تسأله لماذا بين هذه وهذه أربعُ ساعات؟ ولماذا هذه الكمية ولا تكون زائدةً عليها؛ لأنَّك واثق فيه، فثقتُك في المخلوق ينبغي علىٰ أقلِّ التقديرِ أن نثقَ في الله مثلَ ثقتِك في المخلوق، وإن كنا نحن ينبغي أن تكون ثقتُنا في الخالِق أعظمَ، الشَّخص الذي يستقبل التشريعَ بمحاولة الاستفسارِ، والبحثِ مُخطئٌ؛ لأنَّه عقلُه صغيرُ وقدرته محدودةٌ، وعلمهُ محدودٌ، وربُّ العالمين هو الذي علَّمه وعلَّم من قبلَه ويعلِّم من بعده، فليتقبل

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب العِلْم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي النَّاس أعلم فيكل علمه إلىٰ الله، برقم: (١٢٢)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، برقم: (٢٣٨٠)، (٤/ ١٨٤٧).

هذا التشريعَ بالتسليم، وبينه وبين التسليمِ أن يصحَّ الدليلُ فقط، فإن صحَّ فاستطاع أن يفهمَه فذلك حسنٌ، وإن لم يستطع فهمه فيسلِّم؛ لأنَّه يتعاملُ مَعَ رب العالمين، ولا يتعاملُ مَعَ مخلوق، فأحياناً لا تظهر حكْمةُ التشريعِ إلا بعد أزمنةٍ، لكن المُسْلِم يسلِّم أمرَه إذا وردَ الخبرُ ولا يعترضُ ولا يناقِشُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها حديث اللقحة لما منع النَّبِي ﷺ حربـًا ومرة من حلبهـا وأذن ليعـيش. رواه مالك. وجوابه أن ابن عبد البر قال: ليس هـذا عنـدي مـن بـاب الطِّيْـرة؛ لأَنَّـه محال أن ينهىٰ عن شيء ويفعله، وإنما هو من طلب الفأل الحسن، وقـد كـان قـد أخبرهم عن أقبح الأسماء أَنَّه حرب ومرة، فالمراد بـذلك حتىٰ لا يتسمىٰ بهمـا أحد، وقد روىٰ ابن وهب في جامعه ما يدل علىٰ هذا، فإنـه قـال في هـذا الحَدِيث: فقام عمر بن الخطاب فقال: أتكلم يا رَسُـول الله أم أصـمت، فقـال: (بـل اصـمت وأخبرك بما أردت، ظننت يا عمر أَنَّهـا طِيَـرَةَ ولا طير إلا طيره لا خيـر إلا خيـره، ولكن أحب الفأل الحسن) وعلىٰ هذا تجري بقية الأحَادِيث التي تـوهم بعضـهم أَنَّها من باب الطِّيْرة.

قوله: (ولا هامة) بتخفيف الميم علىٰ الصَّحِيح.



الشَّرح

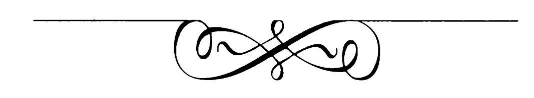
قولـه: (حـديث اللقحـة)[1] هـذا الحَـدِيث في سـنده ابـن لُهيعـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قـال العُلَمَاء: أَنَّه قد اختلط فهو ضَعِيْف؛ لأنَّ هذا الحَدِيث يتعارضُ مَعَ ما صحَّ مـن (لا طِيَـرَةَ)، وإن صـحت التَّشَـاؤُم فهـو في الأشْـيَاء الثلاثـة، أمـا حتـىٰ في أسـماء الأَشْخَاص فهذا لم يصح عن النَّبِي ﷺ أَنَّه كان يفعل هذا، وإن كـان الحَـدِيث مما اشتهر لكنه من طريق فيه ضعف.

---

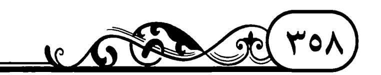
(١) أخرجـه مالـك في الموطـأ، كتـاب الجـامع، بـاب مـا يكـره مـن الأسـماء، بـرقم: (٢٧٨٩)، (٢/ ٥٦٧).

بعـض العُلَمَـاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الجمـع بـين الأَحَادِيـث، يتسـاهلون في قضـية التصحيح والتضعيف، فيجمع بين الأحَادِيث مَعَ أن بعضـها لـم يصـح، قلنـا المَنْهَج السليم هو البحث في سند الحَدِيث أولاً، فإن صحَّ الحَدِيث بحثنـا عـن الجمعِ بينه وبين ما عارضَه مـن أحاديـثَ أخـرى، ونجـد في كُتُـب الغريـبِ مثلُ كتـاب (مشـكل الآثـار للطحـاوي)، وكتـاب (الغريـب) لأبـي عبيـدة (مشـكل الحَدِيث) لأبي قتيبة وغيرهم أحاديثَ كثيرةٍ حاولوا الجمـع بينهـا، والأصـلُ أن نبحث في السَّندِ أولاً؛ لأنَّه ليس كلُّ حـديث يُوْجَـدُ في الكتـبِ قـد صـحَّت نسبتُه لرسولِ الله ﷺ، فقد وُضِعَت أحاديثٌ وكُذِبَ علىٰ رَسُول الله ﷺ بما لـم يَقُـل، وأحاديثُ لم يصحَّ إسنادُها، فإن صح الحَدِيث ننتقل إلـىٰ مَعَرفـة المعنـىٰ، هـذا هو المَنْهَج السليمُ، والله أعلم.

قوله: (**ولا هامة. بتخفيف الميم علىٰ الصَّحِيح**) فـرقٌ بـين هامَّـة، وهامَـة، يعني هامَّة تطلقُّ علىٰ الدواب التي تؤذي، وهامَة نوع مـن الطَّيْـر، قـد يقـال أنَّهـا البُومةُ، لكن الهامّة لا تُنكرُ، جاء في حديثٍ أنَّه ﷺ كان يقول: (**أعـوذ بكلمـات الله التامـة مـن كـل شـيطان وهامـة**)[1] وصـح التعـوذُ منهـا، ليسـت هـذه الهامـة، فالهامَّة بالتشديد نوع من الدوابِّ المُؤذيـة، أمـا الهامَـة بـالتخفيف فهـي البُومـة، طيرٌ من الطيور.



(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب أحاديث الأنْبِيَاء، باب (١٠)، برقم: (٣٣٧١).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الفراء: الهامة طائر من طير الليل، كأنه يعني البومة. قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت علىٰ بيت أحدهم، يقول: نعتْ إلىٰ نفسي، أو أحداً من أهل داري، وقال أبو عبيد: كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير، ويسمون ذلك الطائر الصدىٰ، وبه جزم ابن رجب. قال: وهذا شبيه باعتقاد أهل التناسخ أن أرواح الموتىٰ تنتقل الىٰ أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور، وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإِسْلَام بإبطالها وتكذيبها، ولكن الذي جاءت به الشَّريعَة أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثُمار الجِنّة وتشرب من أَنّهارها إلىٰ أن يردها الله إلىٰ أجسادها، وذكر الزبير بن بكار في الموفقيات أن العرب كانت في الجَاهِلِية تقول إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره: خرجت من رأسه هامة وهي دودة فتدور حول قبره وتقول: اسقوني. وفي ذلك يقول شاعرهم:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتىٰ تقول الهامة اسقوني

قال: وكانت اليَهُود تزعم أَنّها تدور حول قبره سبعة أيام، ثُمَّ تذهب.



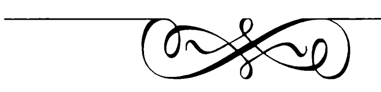
الشَّرح

هنا ذكر عدة قضايا، أولاً: أَنَّهم في الجَاهِلِية كانوا يتشاءمون من الهامَةِ، فإذا جاءت علىٰ بيت إنسان اعتقد أَنَّها تَنعِىٰ إليه نفسه، وما الذي أدرىٰ الهامَة بأن فلاناً قد أقتربَ أجلُه؟!، وهي خَلقٌ أعجمٌ لا يتكلمُ ولا يدرك ولا يفقَه، لكن هذه اعتقادات الجَاهِلِية، وكانوا يعتقدون كذلك أنَّ الإِنْسان إذا قُتل ولم يُؤخذ بثأره أنَّه تتحولُ رُوحه إلىٰ هامَةٍ تدور حولَ قبره، وتقول: اسقوني، أي :اسقوني دمَ الذي قتلني، تقول اليَهُود: فإن لم يسقوه فإنها بعد سبعة أيام

تذهب، يقول ﷺ: إنَّ هذا من اعتقاد أهلِ التَّناسُخِ مِثل: البوذية والهندوسية، يعتقدون أن الشَّخص الشرير إذا ماتَ علىٰ الشرِّ يُعذَّب في الدُّنْيَا، فالذي يعيش إنساناً شريراً روحُه بعد ذلك تُنقل إلىٰ خنزيرٍ أو إلىٰ كَلبٍ، أو تُنقلُ إلىٰ جرثومة، أو تنقلُ إلىٰ طائرٍ؛ لأنَّها روح ما استقامت علىٰ الأخلاق الطيبةِ، هذا هو الذي عند أهلِ التَناسُخ، ولا يعتقدون بالجنَّة والنَّار، فعند العرب شبيهٌ بهذا الاعتقاد، عندما يعتقدون أن الروحَ تصبح هامة أي طائراً، وفي هذا يقول الشاعر:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتىٰ تقول الهامة اسقوني

يعني حتىٰ أقتلك قتلاً لا تستطيعُ أن تأخذ له الثأر، تتحول روحك إلىٰ هامَةٍ فتدور حول قبرك، وتقول: اسقوني، ولا يسقيها أحدٌ، وهذا من اعتقادِ الجَاهِلِية.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا صفر) بفتح الفاء، روىٰ أبو عبيدة مَعَمر بن المثنىٰ في غريب الحَدِيث له عن رؤبة أَنَّه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدىٰ من الجرب عند العرب، فعلىٰ هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوىٰ، ويكون عطفه علىٰ العدوىٰ من عطف الخاص علىٰ العام، وممن قال بهذا سفيان بن عيينة وأحمد والبخاري وابن جرير، وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجَاهِلِية يفعلونه في النسيء، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهذا قول مالك، وفيه نظر.

الشَّرح

هنا اختلفوا في تفسير الصَّفَر المنفِي، هل هو مرضٌ، أو هو الشهر الذي كانت العرب تتشاءمُ به؟، فالعلماء اختلفوا علىٰ قولين، فسفيان بن عيينة والبخاري والإمام أحمد وابن جرير رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالوا: أنَّه دودةٌ كانت تصيب البطنَ في الإِنْسان وفي الدوابِّ، وأنها أعدَىٰ من الجَرَبِ، أي :أنَّها تنتقل من شَخْص إلىٰ شَخْص، فجاء الحَدِيث ينفيها، لكن أول الحَدِيث: "لا عَدْوَىٰ" تنفيها؛ لأن تفسيرهم للصَّفَر بأنها دودةٌ تُعدي يشملُها أولُ الحَدِيث، فالراجح ـ والله أعلم ـ الذي ذهب إليه الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أن العرب كانت تتشاءم بِصَفَرَ، حتىٰ أنَّها كانت لا تسافر فيه ولا تقيمُ فيه لقاءاتها، ولا تتزوجُ فيه، فجاء الحَدِيث ينفي عن الشهر وجودَ شؤم فيه، وأيًّا ما كان فكل منهما مَنفيٌ سواء كان العدْوَىٰ أو كان نفيُ الشُّؤم من الشهر الذي لا يكون شراً ولا يكون خيراً، بل الزمن يكون الخَيْر والشرُ فيه بحسبِ عملِ الإِنْسان.

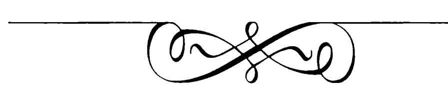
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: إن أهل الجَاهِلِية كانوا يتشاءمون بصفر، ويقولون: أنَّه شهر مشؤوم، فأبطل النَّبِي ﷺ ذلك، قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، وكثير من الجهال يتشاءم بصفر، وربما ينهي عن السفر فيه، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطَّيْرة المنهي عنها، وكذلك التَّشَاؤُم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجَاهِلِية بشوال في النكاح فيه خاصة.

الشَّرح

هذا الأثر لو صح لفسر لنا المعنىٰ، لكن لا يصح؛ لأنَّه قال: روىٰ أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه، ولم يذكر من سمعه منه، مثل هذا لا يصحُّ، قد يكون صَحِيْحاً وقد لا يكون، لكنَّ السندَ ليس صَحِيْحاً، فلو صح هذا الأثرُ لكان هذا بياناً للمراد بِصَفَر، والتشاؤمُ بالأيام يُوْجَدُ ولا يزال إلىٰ اليوم، وكذلك بالأعدادِ، ينقل أنَّه في الغرب يتشاءمون بالعدد ثلاثة عشر، حتىٰ بعض الطائرات ليس فيها مقعدٌ رقمُه ثلاثة عشر، يقول: ثلاثة عشر هذا ما يوضعُ في الطائرة إلا ويحصل لها حادثٌ، إمَّا تحترقُ، وإما تسقطُ، وهذا كذبٌ، بعض النَّاس يتشاءم بالعدد سبعة. يعني لا يذكر سبعةً، ولا سبعةَ عشر، ولا سبعةً وسبعين، أبداً، إذا جاء لسبعةٍ قفز!، فهذه عاداتُ كلِّ مُجتمعٍ فيه بقية من بقايا الجَاهِلِية ولم يَقم علىٰ منهاج الإِسْلَام، وجاء الإِسْلَام ليبطِلها، والأسبابُ أربع أنواع كما تقدَّم، منها أسبابٌ وهميةٌ، وهذه منها، فوجود شَخْص أو زمن ليس سبباً لحصولِ خيرٍ ولا شرٍّ، فالذي يعتقد أنَّه سببٌ مُخطئٌ.

الإسلام يرفع عقلَ الإِنْسانِ، يريدُ أن يكون إنسانـًا راقيـًا، لا يتعلَّق بأوهـام، فالـذي يـتركُ الإِسْلَام ويجهـلُ بـه يتعلَّـقُ بالأوهـام، يتـوهَّم في العـدد يتـوهَّم في الـزمن، بعـض النَّـاس يقـول: الأربعـاءُ يـومُ شـؤم؛ لأنَّ الله خلـق المكـروه يـوم الأربعاء، ما صح هذا أبداً، حتىٰ ولـو صـحَّ أن الله خلـق المكـروهَ يـومَ الأربعـاء فمـا الـدليل علىٰ أنَّ اليـوم الـذي خُلـق فيـه المكـروهُ يكـونُ فيـه المكـروه علىٰ النَّـاس؟، فالشـاهدُ أن هـذه مـن بقايـا الجَاهِلِيـة، والإسـلام جـاء ليطهـر عقولنـا ونفوسنا مما بقـي مـن أخـلاقِ الجَاهِلِيـة وعقائـدها، وأن لا يـؤثر فينـا مثـل هـذه الأوهام، ولو جعل الله هذا الزمنَ سـببـًا لكـان اعتقـادُه صَـحِيْحـًا، ولكـن الله لـم يجعله سببـًا، والذي يؤمن بدين الله يُبطلُ اعتقاد أن هنـاك شـيئـًا مـن مخلوقـاتِ الله سـببٌ في الضـرر أو النفـعِ، إلا مـا ذكـر الشـارعُ كـإبليس، لكنـك تسـتطيع أن تتَحصن منه، وهكذا، فأمـا أن نقـول إن شَخْصـًا بذاتـه أو زمنـًا أو مكانـًا سـببٌ للشر علىٰ إنسان هذا هو الذي جاء الشرع بنفيه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا نوء) النوء واحد الأنواء، وسيأتي الكلام عليه في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

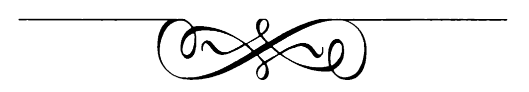


الشَّرح

النَّوءُ هنا منازلُ القمرِ، أو الأبراج وهي ثُمانيةٌ وعشرون بُرجًا طول السنَة كانوا يعتقدون أنَّ القمر إذا نزل في منزلة مَعَينة يحدث كذا وكذا، أو أن النَّجمَ إذا ظهر في برجٍ مُعَينٍ يكون فيه السعدُ، ونجم آخر يكون فيه النَّحسُ، وهكذا، هذه كله اعتقادات باطلةٌ، والفلاسفة قبل الإِسْلَام، وكذلك العرب في الجَاهِلِية كانوا يعتقدون أنَّ النُّجُوم والكَوَاكِب تؤثر باختيارها في حياة النَّاس، وأنها عاقلةٌ، وأن لها دوراً في الحياة والموتِ، وفي السعادة والشقاءِ، وفي الرزقِ والفقرِ، وفي الصحة والمرضِ، فجاء الإِسْلَام يبطلُ هذا الاعتقادَ، ليخلِّصَ القَلْبَ لله، والكَوَاكِب والنُّجُوم خلقٌ جامدٌ، لا علاقةَ له بأحداث النَّاس، والله هو المُدبِّرُ هو الذي يُسيرُ خلقَ النَّاس، والذي يُسيرُ الأحداثَ، والقلبُ إذا تعلَّق بالأسباب الوهميةِ يعتقد الشُّؤْمَ في كلِّ شيء، إن سمعَ كلمةً تشاءم، إن رأىٰ شَخْصًا تشاءم، فتكون حياته نكدةٌ، لكن الإِنْسان إذا علَّق قَلْبه بخالقِه، ويعلمُ أنَّ قدَره بيد الله، وأنَّ الكونَ بيدِ الله يعيش في طُمأنينةٍ، ولا يلتفت إلىٰ هذه الأشْيَاء كما جاء في حديث مَعَاوية بن الحكم السلمي أنَّه قال يا رَسُول الله: **(إن منا أناس يتطيرون)** قال: **(ذلك شيء يجدونه في أنفسهم فلا يصدنكم)**[١] أي: شيءٌ يحدثُ في النَّفْس لكن لا تتعلَّقوا به، قوله (يجدونه في

(١) سبق تخريجه.

أنفسهم) أي: ليس له حقيقةٌ في الخارج، إنما هو وساوسُ في النَّفْس، لكن لا حقيقة لها في الخارج، فلا يصدنكَّم، أي لا تمتنعوا عن تنفيذ ما تريدون، ولهذا جاء الحَدِيثُ بخلافِه: حبُّ الفَألِ الحسنِ، التَّطَيرِ مَنهيٌ عنه؛ لأنَّ فيه نكداً، لكن التفاؤُل مأمور به؛ لأنْ فيه أملاً، وحسنُ الظَّنِ بالله ﷻ، وترقبُ الخَيْر؛لأنَّ تَرقُّبَ الخَيْر يُفرحُ النَّفْس، وترُّقب الشرِّ يُؤذيها، ويؤلِمها؛ فلهذا نهى عنه الشارعُ.



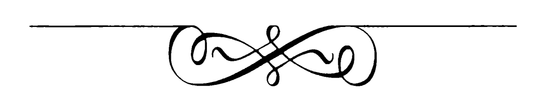
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ولا غول) هو بالفتح مصدر، مَعَناه البعد والهلاك، وبالضم الاسم، وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنا، قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان وهو جنس من الجِنّ والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءىٰ للنَّاسِ، فتتغول تغولاً أي تتلون تلوناً في صور شتىٰ، وتغولهم أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النَّبِي ﷺ وأبطله، وقيل: قوله: (لا غول) ليس نفياً لعين الغول ووجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلونه بالصور المختلفة واغتياله، فيكون المعنىٰ بقوله لا غول أنَّها لا تستطيع أن تضل أحداً.


الشَّرْح

إذا جاء النفيُ في الشرعِ هل ينفي الذات، أو هل ينفي الصفةَ التي هي أثرُ الشيءِ؟ عندما قال في الكُهَّان: ليسوا بشيء، ليس مَعَناه: ليسوا بشيء؛ لأنَّهم موجودون، وإنَّما المعنىٰ أنَّه ليس ما يذكرونَه شيئاً يستحقُّ الاحترامَ، فالمرادُ بحسب ما يردُ، هنا (لا غول) نفي، وهو نفي لذاتِ الغُول، ليس هناك شيئاً اسمه غولٌ، العربُ تتصور أن هناك خلقاً له صُورَةً مميزةً، تشبه الإِنْسان ولكن لها مخالب ولها أسنان مخيفةٌ، هذه إن كانت الشَّيَاطِين تتصور بهذه الصُّوَرة فليست غُولاً، وإنَّما هي الشَّيَاطِين تتصور بصورةٍ مُخيفةٍ بصورة الدوابِّ أو بصورة الثعابين أو الحيات، فهذا شيطانٌ، لكن لا تتصور إلا بصورة مخلوق مَعَروف، أما الغولُ فلا يُعرفُ، وليس له وجودٌ، والحديثُ يَنفي، ولا يعرفُه النَّاس، إنَّما هذه صُورَةٌ في أذهان الجَاهِلِية، يتصورون وجودَ مخلوقات مخيفةٍ، فأطلقوا علىٰ هذه المخلوقات المخيفة اسم الغولِ، يقولون: فلان مثل الغولِ، وهو ما شاهدَ الغولَ ولا يعرفه، كما يقول: فلانٌ مثلُ الشَّيطَان، وهو ما

رأىٰ شيطانـًا ولا يدري كيف خلـقَ الشَّـيطَان، لكـن في ذهنِـه أن الشَّـيطَان قبـيحٌ، فالناس في ذهنِهم أنَّ الغولَ شكلَه قبيحٌ مُخيفٌ، فإذا رأوا إنسـان أخـافَهم قـالوا: هذا مثلُ الغُولِ، وهذه من بقايـا الجَاهِلِيـة في الحَقِيقَـة ولـيس هنـاك خلـقٌ اسـمه غُولٌ، ولا يُوْجَدُ في كُتُب الحيوانات خلقٌ اسـمٌه الغُـولَ، والشـياطين تتشـكلُ في صور مُخيفةٍ فهي الشَّيَاطِين أو الجِنّ. والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويشهد له الحَدِيث الآخر (لا غول ولكن السعالي سحرة الجِنّ) أي ولكن في الجِنّ سحرة لهم تلبيس وتخييل. ومنه الحَدِيث: (إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان) أي ادفعوا شرها بذكر الله، وهذا يدل على أَنَّه لم يرد بنفيها عدمها.

ومنه حديث أبي أيوب: (كان لي ثمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ).

قال: ولهما عن أنس قال: قال رَسُول الله ﷺ: (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ ويعجبني الفأل، وقالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة).



الشَّرح

قوله: (لا غول ولكن السعالي...)[1]، هذا الحَدِيث سنده منقطع، فلا يصلح للاستشهاد. قوله: (إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان)[2] هنا لو صح الحَدِيث لكان، لكن هذا الحَدِيث أيضاً مُنقطع؛ لأَنَّه من رواية الحسن البصري عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحسن البصري لم يسمع من جابر بن عبد الله، فالحديث مُنقطعٌ.

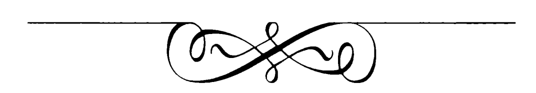
---

(١) ما وجدت الحَدِيث في دواوين السُّنَّة، إلا أن شراح الحَدِيث يوردونه بدون الإسناد كالنووي والسيوطي في شرحهما علىٰ صَحِيح مسلم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٥٠٩١)، (٢٣/ ٣١٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٢٢١٩)، (٤/ ١٥٣)، وأخرج نحوه النسائي في السُّنَنِ الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الأمر بالأذان إذا تغولت الغيلان، برقم: (١٠٧٢٥)، (٩/ ٣٤٩)، والطبراني في الأوسط، برقم: (٧٤٣٦)، (٧/ ٢٥٦)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب المناسك، باب ذكر الغيلان والسير بالليل، برقم: (٩٢٥٢)، (٥/ ١٦٣).

قوله: (كان لي ثمر في سهوة فكانت...)[١] كذلك لم يصح في الغول شيء، إنَّما الذي صح في حديث أبي هريرة ﷺ أن الشَّيطَان كان يأتي يأخذُ من الزكاة[٢]، أمَّا الغُول فليس له وجودٌ.

قوله ﷺ: (لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ ويعجبني الفأل..)[٣] الحَدِيث فيه حُسنُ التوجيهِ للإنسان المُسْلِم بأن يتفاءل، والمتفائلُ الذي ينتظرُ الخَيْر، لا شكَّ أنَّ هذه الحال تجعل الإِنْسانَ في حالة رضا وترقب للخير، لكن لو كان يترقبُّ الشر في كل لحظةٍ تصبح حياته نكدةً، إن سمع اسماً تشاءم، وإن رأىٰ صُورَةً تشاءم، وإن عثرَ في الطريق تشاءم، وإن انكسرَ في بيته إناءٌ تشاءم، أمَّا الحَدِيثُ فإنَّه يقر الفأل وهو ترقب الخَيْر وحُسنُ الظَّن بالله ﷻ. وينفي وجودَ الشُّؤْم أو التطيرَ الذي هو ترقبُ الشر، وربطه بالأسماء أو بالأشكال أو بالأرضِ، أو بالزمان، فهنا الحَدِيث يقول: أنَّه ﷺ يُحبُّ الفألَ الحسنَ، الذي يكون: كلمةٌ حسنةٌ تجري علىٰ لسان إنسانٍ أو خبرٌ مُفرح، كما سيأتي من كلام ابن تيمية ؒ.



(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٣٥٩٢)، (٣٨/ ٥٦٣)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٤٠١١)، (٤/ ١٦٢)، أبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٢٢١٩)، (٤/ ١٥٣)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الدعاء، باب الغيلان إذا رؤيت ماذا يقول الرجل، برقم: (٢٠٣٦٢)، (١٥/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، برقم: (٢٣١١).

(٣) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ويعجبني الفأل) قال أبو السعادات: الفأل مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر، يقال: تفاءلت بكذا وتفاءلت على التخفيف والقلب، وقد أولع النَّاس بترك الهمزة تخفيفًا، وإنما أحب الفأل؛ لأن النَّاس إذا أملوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضَعِيْف أو قوي فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء، فإن الرجاء لهم خير، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر، وأما الطِّيْرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البَلَاء، ومعنى التفاؤل مثل أن يكون رجل مريض فيتفاءل بما يسمع من كلام، فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول يا واجد، فيقع في ظنه أنَّه برئ من مرضه، ويجد ضالته. ومنه الحَدِيث قيل يا رَسُول الله: ما الفأل؟ فقال: (الكلمة الصَّالِحة يسمعها أحدكم).



الشَّرح

هذا بيان من الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لسبب حب النَّبِي ﷺ للفأل، وهو أنَّه حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ وترقبِ الخَيْر، وأما الشُّؤم فإنه سوء ظن بالله وترقب الشر من غير سببه؛ لأن الأسماءَ والأشكالَ والزمان والمكان لم يجعلها الله أسبابًا للشر، أمَّا الفألُ فإنه وإن لم يكن سببًا للخير لكن فيه ترقب الخَيْر والأملُ الحسنُ في الله، هذا يجعل النَّفْس تعيشُ راضيةً مُترقبةً لفضلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة) بين لهم ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل أَنَّه ليس من الطِّيْرة المنهي عنها، قال ابن القيم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشِّرْك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، ومن حب الفطرة الإِنْسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم ﷺ أَنَّه حبب إليه من الدُّنْيَا النساء والطيب، وكان يحب الحلوى والعسل، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان، ويستمع إليه ويحب مَعَالي الأخلاق ومكارم الشيم، وبالجملة يحب كل كمال وخير، وما يفضي إليهما، والله -- سُبْحَانَهُ - وَتَعَالَىٰ - قد جعل في غرائز النَّاس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر، ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النَّفْس، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القَلْب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال فأحزنها ذلك وأثار لها خوفًا وطيرة وانكماشًا وانقباضًا عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدُّنْيَا، ونقصًا في الإيمان ومقارفة للشرك. وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التَّشَاؤُم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال.

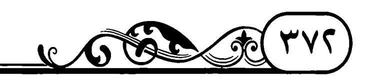
قال: ولأبي داود بسند صَحِيْح عن عقبة بن عامر قال: ذكرت الطِّيْرة عند رَسُول الله ﷺ فقال: (أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

الشَرح

الشارح رحمه الله يبين أن النَّفْس البَشَرية تميل بطبعها إلىٰ حبِّ الأسماء الحسنةِ، وحب الصوتِ الحسن، وحبِّ مكارمِ الأخلاقِ ومعالي الأمورِ، هذا هو الذي يحث عليه الإسْلَام، أمَّا الأشْيَاء التي يتوقع الإنْسان أنّ فيها شؤماً، أو فيها أذىً أو بلاءً فينبغي أن لا يُعلِّق قَلْبَه بذلك، بل يعتقد أنَّها ليست أسباباً وليس فيها ما يعتقده النَّاس، فهذا يجعلُ النَّفْس تعيشُ مرتاحةً، يقول رحمه الله: (فإذا علَّقت قَلْبَها بذلك أورثت لها ضرراً في الدُّنْيَا ونقصاً في الإيمانِ ومُقَاربةً للشِّرك) أي: الشَّخص الذي يعتقدُ في هذه الأشْيَاء فإنَّه يُفَوِّتُ كثيراً من مصالحِه، وكذلك يَنقصُ إيمانُه، وربما يقع في الشِّرْك لاعتقادِه أنَّ هذه الأشْيَاء لها تأثيرٌ، مَعَ أن الحَدِيث قد أخبر أنَّها لا أثَرَ لها في حياةِ الإنْسان.

قوله: (**أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا...**)(١) هذا الحَدِيث وقع فيه وَهمٌ، وسينَبِه الشَّارِحُ رحمه الله عليه؛ لأنَّه قال: ولأبي داود بسند صَحِيْح عن عقبة بن عامر، قال الشَّارِحُ: أنَّ هذا الحَدِيث هكذا في جميع النسخ، والصحيح أنَّه عن عروة بن عامر، وليس عن عقبة بن عامر، وعروة بن عامر ليس صَحَابِيًّا كما سيأتي، فالحديثُ مُنقَطعٌ فلا يصحُّ؛ لأنَّ الصَّحِيح أنَّ الحَدِيثَ عن عروة بن عامر، وعروة بن عامر من ثقات التَّابِعِينَ كما قال ابن حبان والمزي، فالحديثُ ليس صَحِيْحًا بهذا السندِ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطِّيْرة، برقم: (٣٩١٩)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب القسامة، باب في العيافة والطيرة والطرق، برقم: (١٦٥٢١)، (٨/ ٢٤٠)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الدعاء، باب يقول الرجل إذا التَّطَيُّر، برقم: (٣٠١٥٧)، (١٥/ ٢٧٧)، وضعفه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.



قوله: (عن عقبة بن عامر) هكذا وقع في نسخ التَّوْحِيد، وصوابه عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد بن حنبل في روايته: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهني، واختلف في صحبته. فقال الباوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التَّابِعِينَ، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: (فقال: أحسنها الفأل) قد تقدم أنَّه ﷺ كان يعجبه الفأل، وروىٰ الترمذي وصححه عن أنس أن النَّبِي ﷺ: (كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع يا نجيح يا راشد).

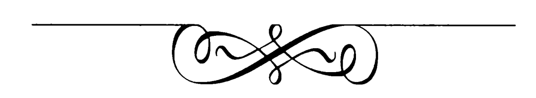


هذا تصحيح من الشَّارِحُ لمتن الحَدِيث، وذكر أن سَندَ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس فيه عُقبةُ، إنما فيه عروة بن عامر، وعروة بن عامر ليس صَحَابِيًّا كما ذكر ابن حبان، فإنه قد أورده في التَّابِعِينَ، وقال: أنَّه من ثقات التَّابِعِينَ، والتَّابعي إذا عزا حديثاً إلىٰ رَسُول الله ﷺ يكون مُرسَلاً؛ لأنَّه إذا أسقط الصَّحَابِي، فهذا الحَدِيث مرسل وليس موصولاً، فلم يصح هذا الحَدِيث.

قوله: (كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع يا نجيح يا راشد)[1] هذا الحَدِيث حسنه العُلَمَاء، ويختلفُ عن التَّشاؤُمِ، فهو يتفاءلُ باسم حسنٍ، لكن لو سمع اسماً غيرَ حسنٍ لا يضرُّه، أمَّا حديثُ اللقحة أي: أنَّه عندما قال

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب السير، باب ما جاء في الطِّيرة، برقم: (١٦١٦)، والطبراني في الأوسط، برقم: (٤١٨١)، (٤/ ٢٧٤)، والمقدسي في المختارة، برقم: (١٦٦٣)، (٢/ ٢٨١).

لشخصٍ لناقةٍ: " احلبها، قال: ما اسمك؟ قال: حربٌ، والثاني: قال: مُرَّة، قال: اجلس " فقد سبق أنَّه: لا يصحُّ؛ لأن فيه ابن لهيعة، مَعَ أنَّ هذا تشاؤم، والرسولُ ﷺ ما كان يتشاءمُ، كان يتفاءلُ، فإن كان اسمه حسنًا تفاءل به، وإن كان ليس حسنًا لا يصدُّه عمَّا يريده، فهكذا ينبغي أن يكون المُسْلِم يتفاءل بالشيءِ الحسنِ، ولكن لا يصدُّه الشيءُ غيرِ الحسن.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروى أبو داود عن بريدة: (أن النَّبِي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهيته ذلك في وجهه) وإسناده حسن.

الشَّرح

هـذا الحَـدِيث لـيس إسـناده حسـنـًا، فهـو بخـلاف مـا قـال الشَّـارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ، والحديث يقرر أنَّه ﷺ إذا سأل عن شَخْص فأعجبه اسمُه رُؤِيَ بِشرُ ذلك في وجهِه، وإن كَرِهَ اسمَه رُؤِيَ كراهةض ذلك في وجهِه، فكأنَّه تأثَّر بالاسم غيرِ الحسن، هذا الحَدِيث ضَعِيْف؛ لأنَّه من رواية قتادة عن ابن بريدة، قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال بعض أهل العِلْم لا يُعرف لقتادة سماع من عبد الله بن بريدة، ففي الحَدِيث سَقطٌ بينهما، وقتادةُ مَعَروفٌ بالتدليس، وبعض المحدثين يُدلِّس أي: يُسقِط اسمـًا ضَعِيْفـًا من الحَدِيث حتىٰ يُقبلَ، لاعتقاده أن الحَدِيثَ صَحِيْح، لكن وجود هذا الضعيف في السند يمنع النَّاسَ من قَبولِه، وهذا يُوْجَدُ في كثير من الرواة، والعلماءُ قد كشفوا هذا وبينُوه، ولهذا قالوا: قتادةُ ثِقةٌ من جبال العِلْم، وأنَّه من كبار العُلَمَاء، لكن إذا قال: حدثنا أو أخبرنا فالسندُ صَحِيْح، لكن إذا قال: عن، أو إذا قال: أنَّ فلان قال كذا فلا يُقبل، يعني هذا فيه احتمال التَدليس، فقال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن بعضَ أهل العِلْم قال إن قتادة لم يسمع من عبد الله بن بريدة، فالحديث لا يصحُّ، مَعَ أنَّه يعارض ما صحَّ من الأحَادِيث التي ليس فيها تشاؤمٌ بالأسماءِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذا في استعمال الفأل، قال ابن القيم في الكلام على الحَدِيث المشروح: أخبر ﷺ أن الفأل من الطَّيْرة، وهو خيرها، فأبطل الطَّيْرة وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شِرْك لما فيها من المنفعة الخالية عن المَفْسَدَة.

قوله: (ولا ترد مسلمًا) قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.



الشَّرح

قوله: (قال ابن القيم في الكلام على الحَدِيث المشروح) يعني في الحَدِيث السابق حديث عروة بن عامر وقد سبق أنَّه ضَعِيْف، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيشرحُه ويُبينُه.

قوله: (أخبر ﷺ أن الفأل من الطَّيرة) أي يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الفأل شبيهٌ بالرقى المأذونِ فيها، والشؤمُ شبيهٌ بالرُّقَى الشِّرْكية، فأذِنَ في الرُّقَى التي ليس فيها شِرْكٌ، ونَهَى عن الرُّقَى الشِّرْكية.

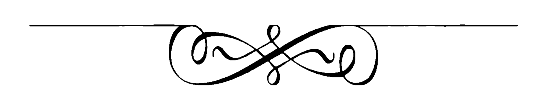
قوله: (قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه) هذا كلام جميل للطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: أنَّ هذا القيدُ له مفهومٌ، فالمسلمُ لا تردُّه الطَّيْرة، أمَّا غير المُسْلِم فشأنه هو ذاك، فقال: هذا تعريضٌ بأنَّ غير المُسْلِم قد ترده الطَّيْرة، لكن المُسْلِم ما ترده.

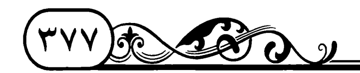
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت) أي لا تأتي الطَّيْرة بالحسنات، ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات، وتدفع السيئات، وهذا دعاء مناسب لمن وقع في قَلْبه شيء من الطَّيْرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهًا مشركًا.

الشَّـرْح

قوله: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت) قد يقول قائل: كيف تقول أنَّه ضَعِيْف وهو كلام صَحِيْح، وكلام حسنٌ، والجواب: أنَّه أحيانًا يكون الكلامُ قاله صَحَابِيٌ، فيرفعه الرَّاوِي إلىٰ رَسُول الله ﷺ، وقد يكون قاله تَابِعيٌ أو أحدُ الأئمةِ، فيرفعُه الرَّاوِي خطأً ووهمًا، فإنَّ اعتقادَ أن الحسنات لا يأتي بها إلا الله، وأن السيئات لا يدفعها إلا الله، اعتقادٌ حسنٌ وصحيحٌ، فليَس في عدمِ صحة الحَدِيث أن الكلامَ مردودٌ أو غيرَ سليمٍ.





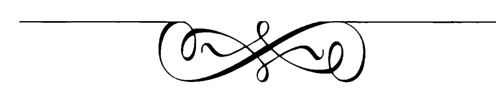
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بك) استعانة بالله تعالىٰ علىٰ فعل التوكل، وعدم الالتفات إلىٰ الطَّيْرة التي قد تكون سببًا لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها، وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل الذي هو أقوىٰ الأسباب في جلب الخَيْرات ودفع المكروهات، والحول: التحول والانتقال من حال إلىٰ حال، والقوة علىٰ ذلك أي لا حول ولا قوة علىٰ ذلك الحول إلا بك، وذلك يفيد التوكل علىٰ الله؛ لأَنَّه علم وعمل، فالعلم مَعَرفة القَلْب بتوحد الله بالنفع والضر، وعامة المؤمنين بل كثير من المشركين يعلمون ذلك، والعمل هو ثقة القَلْب بالله وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين، وهو داخل في هذه الكلمة؛ لأن فيها التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته، والإقرار بقدرته علىٰ كل شيء، وبعجز العبد عن كل شيء، إلا ما أقدره عليه ربه، وهذا نهاية توحيد الربوبية الذي يثمر التوكل وتوحيد العبادة.



الشَّرح

الحَولُ في الُّلغَة الانتقالُ من شيءٍ إلىٰ شيءٍ. ولا حولَ أي : لا انتقالَ من حالٍ إلىٰ حالٍ إلا بك يا رب، المُسْلِم يعتقدُ أنَّه لا يستطيع أن ينتقلَ من حالٍ إلىٰ حالٍ إلا إذا أعانَه الله، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، أي: لا حولَ لي، ولا قوةَ لي إلا إذا أرادَ الله وأعانني، وهذا مَعَنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، أي : أنَّك تعترفُ بعجزِك وضعفِك، وحاجتِك إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والله قادرٌ قوي، فهذا هو تحقيق التَّوْحِيد.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وعن ابن مسعود مرفوعـًا (الطيرة شِرْك الطَّيْرة شِرْك، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ش: هذا الحَدِيث رواه أيضـًا ابن ماجه وابن حبان، ولفظ أبي داود: (الطيرة شِرْك الطَّيْرة شِرْك ثلاثـًا).



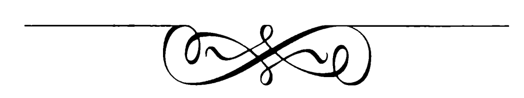
الشَّرح

الحديثُ: (**الطيرة شِرْك**) قالها ثلاثـًا، ثُمَّ قال: (**وما منا إلا**)[1] وذكر الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السُنَنِ عن شيخه أنَّه قال: إن هذه القَولَةَ (وما منا إلا) ليست من الحَدِيثِ، وإنما هي مُدرجة من كلام الصَّحَابِي عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والمُدرَج فنٌ من فنونِ الحَدِيث، أحيانـًا تأتي الكلمةُ في الحَدِيث ولا تكونُ مرفوعةً، لكن لا يعرفُها إلا أهلُ العِلْم ، وتُعرفُ عن طريق الاستقراء من طرقِ الرُّواة، فتأتي في حديث ولا تأتي في حديث آخر، فيكون الرَّاوِي قد ذكر الحَدِيثَ المرفوعَ، والثاني قد ذكر المرفوعَ والمُدرجَ، فهذه الكلمةُ (وما منا إلا) لا تليقُ أن تكون من رَسُول الله ﷺ؛ لأنَّها اعترافٌ بأن الطَّيْرة تقعُ في القَلْبِ، وحاشا رَسُول الله ﷺ أن يقعَ في قَلْبه التَّطَيُّر، لكن الصَّحَابِي الجليلُ يقول: إنَّنا بَشر، فقد يضعفُ الإِنْسان ويقعُ في قَلْبه شيءٌ من التصور والتَّطَيُّر، ولكن الله يدفعه بالتَّوكُّل.

---

(١) سبق تخريجه.

هذا الحَدِيث حسن، وقال الترمذي: صَحِيْح، فالحديثُ يقول: إن الطَّيْرة شِرْك قالها ثلاثَ مرات، يعني أن يعتقدَ أن الطَّيْر يعلمُ الغَيْبَ فإذا تحرَّك يميناً مشىٰ لحاجته، وإذا تحرَّك شمالاً رجع عن حاجته، هذا شِرْك، لاعتقاده علىٰ الأقلِّ أن الطَّيْر يعلمُ الغَيْبَ، فإن اعتقد أن الطَّيْر يُؤثِّر في عمله، فهذا شِرْك آخر.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

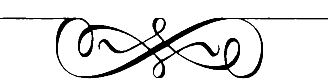
قوله: (الطيرة شِرْك) صريح في تحريم الطِّيْرة، وأنها من الشِّرْك؛ لما فيها من تعلق القَلْب علىٰ غير الله، وقال ابن حمدان في الرعاية: تكره الطِّيْرة، وكذا قال غير واحد من أصْحَاب أحمد. قال ابن مفلح: والأولىٰ القطع بتحريمها، ولعل مرادهم بالكراهة التحريم. قلت: بل الصواب القطع بتحريمها؛ لأَنَّها شِرْك وكيف يكون الشِّرْك مكروهًا الكراهة الاصطلاحية؟ فإن كان القائل بكراهتها أراد ذلك فلا ريب في بطلانه. قال في شرح السُنَنِ: وإنما جعل الطِّيْرة من الشِّرْك؛ لأَنَّهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعًا أو يدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه، فكأنهم شِرْكوه مَعَ الله تعالىٰ.

الشَّرح

هنا ينقل الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعضِ عُلماءِ الحنابلة، وهو ابن حمدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الطِّيْرةُ مَكروهةٌ، وكلمة مكروهٌ اصطلاحية؛ لأنَّ العُلَمَاء اصطلحوا علىٰ كلماتٍ تدُلُّ علىٰ الحكمِ الشَّرْعِي، فاصطلحوا علىٰ خمسة أحكام، الأول: الواجبُ، وتحته المُستحب، وتحته المباحُ، وتحته المَكروهُ، وتحته المُحرمُ، فالواجبُ فعلُه يُؤجرُ عليه صاحبُه، وتركُه يأثمُ عليه، فالواجب فيه حُكْمان: الأجرُ والعقاب، الأجرُ لمن عمل، والعقابُ لمن تركَ، والمستحبُ فيه حُكْم واحدٌ، وهو الأجرُ لمن عَملَ، وليس علىٰ من تركه إثمٌ، والمُباحُ ليس فيه أجرٌ، وليس فيه عقابٌ، إلا إذا عمله بنية التَّعبدِ أو بنيةِ المعصيةِ، مثال ذلك: شُرب الماءِ مُباحٌ، لكن إذا شربه ليتقوىٰ علىٰ طاعةِ الله فبهذه النيةُ يصبحُ المباحَ في حقه مأجوراً عليه، لو أخذَ كوبًا من الماءِ، وتصورَ أنَّه خمرٌ وشربَه، فهذا آثم بنيتِه، فالمباحُ في الأصلِ ليس فيه أجرٌ ولا عقابٌ، لكن النيةَ قد تقلب

العملَ، والمكروه له حُكْمٌ واحدٌ، من تركه بنيةِ التَّقَرُّبِ إلىٰ الله يُؤجر، ومن عملَه فإنَّه لا يأثم، وليس التَّطَيُّرُ من هذا النَّوْعِ، بل من النَّوْعِ الأخير المُحرَّمِ الذي فيه حُكْمان، إن فعلَه فهو آثمٌ، وإن تركَه فهو مأجورٌ.

فيقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ الله: قوله (مكروه) إن أراد الكراهةَ الاصطلاحية فهذا خطأٌ؛ لأنَّه صحَّ حديث الطِّيْرة شِرْك، فكيف يقال مكروهٌ؟ ولعل القائلَ لم يصحَّ عنده الحَدِيث، فإذا صح الحَدِيثُ لا يجوز أن يقال: أنَّه ليس شِرْكًا، فقوله في الحَدِيث شِرْك يجعل التطيرَ مُحرمًا، ويرفعُه إلىٰ درجةِ الحُرمة بل الشِّرْك، فالكراهةُ الاصطلاحيةُ لا يُقَرُّ عليها؛ لأن النَّص إذا وردَ فإنَّه يُحدِّدُ الحكمَ في القضية، فلعل صاحب كتاب: (الرعاية) لم يثبت عنده، لكن ابن مفلح رَحِمَهُ الله وهو من علماء الحنابلة وله كتابان مشهوران: (الآداب الشَّرْعِية) ، (والفروع) قال: أنَّه أولىٰ أن يقال فيه مُحرَمٌ، وهو الصَّحِيح، فالإنسان ينبغي له أن يدورَ مَعَ الدليلِ تَحريمًا وتحليلاً، وقبولاً ومنعًا، يكون الحُكم تابعًا للدليلِ، لا يجعلُ الدليلَ تابعًا للرأي، فإذا صحَّ الحَدِيث لم يبقَ إلا أن يقال أنَّه شِرْك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: في الحَدِيث إضمار، والتقدير وما منا إلا وقد وقع في قَلْبه شيء من ذلك. انتهىٰ. وحاصله وما منا إلا من يعتريه التطير ويسبق إلىٰ قَلْبه الكراهة فيه، فحذف ذلك اعتماداً علىٰ فهم السامع، وقال الخلخالي: حذف المستثنىٰ لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا نوع من أدب الكلام.

قوله: (ولكن الله يذهبه بالتوكل) أي ما منا إلا من يقع في قَلْبه ذلك، ولكن لما توكلنا علىٰ الله وآمنا به، واتبعنا ما جاء به الرسول ﷺ واعتقدنا صدقه أذهب الله ذلك عنا، وأقر قلوبنا علىٰ السُّنَّة واتباع الحَقّ.



الشَّرح

أبو القاسم الأصبهاني كان قبل المنذري ـ رحمهما الله ـ وله كتاب في الترغيب والترهيب، لكن المنذري جاء بعده فأخذ كتابه وزاد فيه، فإذا أطلق الترغيب والترهيب لا يُنسب إلا للمنذري، وإلا فإن أبا القاسم الأصبهاني قد سبق المنذري في التأليف، وطبع الكتابَ في مُجلَّدين، فكلاهما قال: إن في الحَدِيث إضماراً في قوله: (وما منا إلا) لم يستكمل الكلامَ، تقديرُه: وما منَّا إلا من يقع في نفسه التَّطَيُّرَ، فحذفَ الجملةَ لكراهةِ ذكرِها، لكن السياق يدلُّ عليها.

قوله: (وحاصله وما منا إلا من يعتريه التطير...) هو تقرير لما سبق من أن الصَّحَابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كان يقع في نفوسهم التطير لكن لا يؤثر علىٰ سلوكهم وعلىٰ أعمالهم، بل يدفعونه بالتوكُّلِ علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود) قال الترمذي: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا: وما منا هذا عندي من قول ابن مسعود، فالترمذي نقل ذلك عن سليمان بن حرب ووافقه علىٰ ذلك العُلَمَاء.
قال ابن القيم: وهو الصواب، فإن الطِّيْرة نوع من الشِّرْك.

قال: ولأحمد من حديث ابن عمرو: (من ردته الطِّيْرة من حاجته فقد أشرك، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك).

الشَّرح

العلماء يجمعونَ علىٰ أنَّ هذه العبارة لا تليقُ بأن تُرفعَ إلىٰ رَسُول الله ﷺ، كيف يحكمُ علىٰ الطِّيْرة بأنها شِرْك ثُمَّ يقول: وما منا إلا يقعُ في نفسه، مُحالٌ أن يقعَ في نفسِه ﷺ هذا الأمرَ.

قوله: (من ردته الطِّيْرة من حاجته فقد أشرك ...)[1]، هذا الحَدِيث يذكره العُلَمَاء من رواية ابن لهيعة، وعبد الله بن لهيعة من قضاةِ مصر في عصره، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختلطَ في آخر حياته، وأحرَق كُتُبه، فالعلماءُ قالوا: إن له مرحلتين: مرحلةٌ قبلَ اختلاطه، ومرحلةٌ بعد اختلاطِه، فالمرحلة التي قبل اختلاطه روىٰ عنه فيها أشخَاصٌ منهم عبد الله ابن وهب، وهذا الحَدِيث من روايته، فالحديثُ يحسنُ أو يصح؛ لأن الرَّاوِي روىٰ عنه قبلَ اختلاطه.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (٧٠٤٥)، (١١/ ٦٢٣)، وروىٰ الجملة الأولىٰ البزار في مسنده بلفظ: "فقد قارف الشِّرْك"، برقم: (٢٣١٦)، (١/ ٣٦١).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا الحَدِيث رواه الإمام أحمد والطبراني عن عمرو بن العاص مرفوعًا، وفي إسناده ابن لهيعة، وفيه اختلاف، وبقية رجاله ثقات.

قوله: (من حديث ابن عمرو) هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد، وقيل أبو عبدالرحمن أحد السابقين المكثرين من الصَّحَابَة وأحد العبادلة الفقهاء، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف.



الشَّرح

عبدُ الله بن عمرو بن العاص، أحد العبادلة الأربعة في الصَّحَابَة، وكان من أزهدهم وأكثرهم عبادة، حتى أنَّه عندما زَوَّجه أبوه في المدينة بقي أسابيع لم يأت زوجَته، فعندما سألها أبوه أثنَت عليه، وقالت: لم يكشف لنا ستراً، فرجلٌ في أيام عُرسه مُتوجهُ القَلْب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولم يستطع أن يتركَ القيامَ، فعاتبه أبوه، حتى أتَى أهلَه، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عابداً زاهداً، مات في أوائل خلافة يزيدُ في أيام الحرَّةِ، وهذا اصطلاح يطلق على الحملةِ التي أرسلها يزيدُ على أهل المدينة؛ لأن أهل المدينة إمَّا أنَّهم نقضوا البيعة أو لم يبايعوه، فاستباح يزيد دماءهم وأعراضَهم ثلاثة أيام، فبعث جيشاً إلى المدينة، قتلَ فيها كثير من أهلِ المدينة من التَّابِعِينَ وغيرهم. مات عبد الله بن عمرو في هذه الفترة في الطائفِ، كما مات ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعده بسنوات كثيرة في الطائف. بعضُ الصَّحَابَة كان يفرُّ من الفَتن ولا يحبُّ المشاركة فيها، فيذهبون إلى أماكنَ بعيدةٍ، كما ذهب ابن عباس وقبلُه عبدُ الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (من ردته الطَّيْرة عن حاجته فقد أشرك) وذلك أن التطير هو التَّشَاؤُم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإِنْسان فرجع بها عن سفره وامتنع بها عما عزم عليه فقد قرع باب الشِّرْك، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]. فيصير قَلْبه متعلقًا بغير الله وذلك شِرْك، فيفسد عليه إيمانه ويبقى هدفًا لسهام الطَّيْرة، ويقيض له الشَّيطَان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم ممن هلك بذلك وخسر الدُّنْيَا والآخرة.

الشرح

هذا إشارة إلى أن المُسْلِم قد يقع في قَلْبه التطير، لكن يغالب ذلك الخاطر ويتذكر أن الأمر كله بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الطَّيْر خلق من خلق الله أعجم، لا يعرف غيبًا، ولا يعرف نفعًا ولا ضراً، وأن حركته ليست حركة مقصودة، وليس له عقل ولا إدراك، فكيف تربط السعادة والشقاوة أو الخَيْر والشر بحركة الطَّيْر، الطَّيْر يذهب أحيانًا إلى الشمال وأحيانًا إلى الجِنّوب، وأحيانًا يرجع، يبحث عن رزقه يطير في الفضاء، ليس له علاقة بغيب الله، ولكن الذي يضعف إيمانه ويقل علمه الشَّرْعِي قَلْبه مَعَلق بهذه الوساوس ويعيش مَعَذبًا طوال حياته، حتى ينقص توكله على الله عَزَّ وَجَلَّ، ويناقض قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فهذا الخاطر ينبغي أن يدفع بهذا الإيمان.

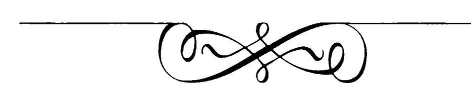


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فما كفارة ذلك الىٰ آخر الحَدِيث) هـذا كفـارة لمـا يقـع مـن الطِّيْـرة، ولكن يمضي مَعَ ذلك ويتوكل علىٰ الله، وفيـه الاعتـراف بـأن الطَّيْـر خلـق مسـخر مملوكٌ لله لا يأتي بخير ولا يدفع شراً، وأنه لا خير في الدُّنْيَا والآخـرة إلا خيـر الله، فكـل خيـر فيهمـا فهـو مـن الله تعـالىٰ تفضـلاً علـىٰ عبـاده وإحسـانـًا إلـيهم، وأن الألوهية كلها لله ليس فيها لأحد من المَلَائِكَة والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ شِرْكة، فضلاً عـن أن يشرك فيها ما يراه ويسمعه مما يتشاءم به.

الشَّـرْح

هكـذا اعتقـاد المُسْـلِم أنَّـه لـيس مَـعَ الله شـريك في هـذا الكـونِ، فـإذا كـان الأنْبِيَـاء والملائكـة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يُشـرِكـون الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقـه، فكيـف نعتقـد أنَّ الطَّيْـرَ تشاركُ اللهَ في علمِ الغَيْبِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

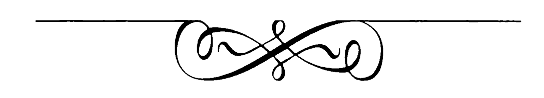
قوله: من حديث الفضل بن العباس: (إنما الطِّيْرة ما أمضاك أو ردك)

ش: هذا الحَدِيث رواه أحمد في المسند، ولفظه حدثنا حماد بن خالد، قال ثنا بن علاثة عن مسلمة الجهني، قال: سمعته يحدث عن الفضل بن عباس قال: خرجت مَعَ رَسُول الله ﷺ يومـًا، فبرح ظبي فمال في شقه فاحتضنته، فقلت: (يا رَسُول الله التَّطيُّرت قال: إنما الطِّيْرة ما أمضاك أو ردك) هكذا رواه أحمد، وفي إسناده نظر، وقرأت بخط المصنف: فيه رجل مختلف فيه وفيه انقطاع، أي بين مسلمة وبين الفضل.

وهو ابن العباس بن عبدالمطلب ابن عم النَّبِي ﷺ، وأكبر ولد العباس. قال ابن مَعَين: قتل يوم اليرموك في عهد أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال غيره: قتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، قال أبو داود: قتل بدمشق كان عليه درع النَّبِي ﷺ، وقال الواقدي وابن سعد: مات في طاعون عمواس.



فهناك خلاف بين العُلَمَاء في زمان وسبب موت الفضل، والحديث فيه شَخْص ضَعِيْف هو مسلمة بن عبد الله بن علاثة، وهو لَم يسمعْ من الفضل بن عباس، ففيه عِلَّتان: ضَعفُ الرَّاوِي، وعدمُ سماعِه من الصَّحَابِي، وأشار الشَّارِحُ إلى أنَّ المُصنِّفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ذكر هاتين العِلَّتين.



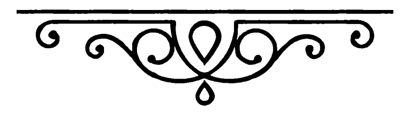
قال المؤلف رحمه الله:

قوله: (إنما الطِّيْرة ما أمضاك أو ردك) هذا حد للطيرة المنهي عنها، بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضي لما يريده، ولو من الفأل، فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس، فأما أن يعتمد عليه ويمضي لأجله مَعَ نسيان التوكل علىٰ الله فإن ذلك من الطِّيْرة، وكذلك إذا رأىٰ أو سمع ما يكره فتشاءم به ورده عن حاجته فإن ذلك أيضًا من الطِّيْرة.



الشَّرْح

معنىٰ الحَدِيث صَحِيْحٌ، أنَّ الطِّيَرة ما دفعك للعمل أو منعك من العمل. وهذا آخر باب الطِّيَرةِ.





باب: ما جـاء في التَّنْجِيـم

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

المراد هنا ذكر ما يجوز من التَّنْجِيم وما لا يجوز وما ورد فيه من الوعيد



الشَّرح

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب ما جاء في التَّنْجِيم،وقلنا المصنف من منهجه أحياناً أنه لا يذكر الحكم الشرعي في التبويب، وهذا مَنهَج السابقين كما نراه في صَحِيْح البُخَارِي، فالمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر المسألة مطلقة، مثلاً: ما قال في السِّحْر أنَّه حرام؛ لأن السِّحْر نوعان، فهكذا هنا لم يجزم بالحكم، يقول العُلَمَاء: هذا من حسن التأليف، فلا يحسن من المصنف أن يذكر الحكم في أول الكتاب، حتىٰ يدع القارئ هو الذي يستنبط الحكم ويسير مَعَه خطوة، خطوة، لكن لو ألف كتاباً وقال: باب تحريم السِّحْر، فقد صادر تفكير القارئ، لكن لو قال: كتاب السِّحْر، أو السِّحْر بين الحلال والحرام، أو السِّحْر وحكم الإِسْلَام فيه، لم يعطه الحكم، فجعله يتشوق لقراءة الكتاب، هكذا لا تذكر الحكم في أول محاضرة، ولا في أول درس، حتىٰ تجعل السامع يسير مَعَك فيستنبط بنفسه في أثناء السير الحكم الشَّرْعِي، بل ربما يكون الأقوىٰ أن لا

يصدر الحكم إلا في آخر الكلام بعد أن تجعل القارئ والسامع يقتنع مَعَك، وتصل أنت وهو إلىٰ الحكم بحسب التدرج في العرض، فهنا قال: باب ما جاء في التَّنْجِيم.

والتنجيم لم يثبت فيه حديث صَحِيْح، وهو مأخوذ من النجم، لكن ذكر حديثين، ليس فيهما ذكر التَّنْجِيم، أحدهما (**خمس لا يعلمهن إلا الله**)(١) والثاني سيأتي في الاستسقاء، وهو حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية، عندما صلىٰ النَّبِي ﷺ في صلح الحديبية علىٰ إثر مطر فقال: (**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالنجوم، فأما من قال: مطرنا بنوء كذا، فهو كافر بي، مؤمن بالنجوم، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فهو مؤمن بي، كافر بالنجوم**)(٢) فهذا الحَدِيث هو الوحيدُ الذي صحَّ في هذه المسألةِ، وسيذكر المُؤَلِّف عدة أحاديثَ ربما تصلُ إلىٰ تسعة أحاديث ليس فيها حديث يصحُّ، لكن ربما يكون بمجموعِها أصلٌ للقضيةِ.

والتنجيمُ أصبحَ اليومَ له دراسةٌ أوسع مما كان يفهمُه النَّاسُ في الماضي، كان التَّنْجِيم في الماضي أكثرُه - إن لم يكن كلُه - خرافاتٌ وأكاذيبٌ وأباطيلٌ، وكان هناك في الشام مدينةٌ اسمها حرَّان فيها الصابِئةُ تعبدُ النُّجُوم والكَوَاكِب وتبني لها أماكن العبادة، وتعتقد أنَّ النُّجُوم لها إدراكٌ وإحساسٌ، ولها تأثير في حياة النَّاس سعادتِهم وشقاوتِهم، وفقرِهم وغناهم، وموتِهم وولادتِهم، هذا

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب التَّوْحِيد، باب قول الله تعالىٰ: (عالم الغَيْب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً)، برقم: (٧٣٧٩).

(٢) سبق تخريجه.

الاعتقادُ باطلٌ وكفرٌ كما سيذكره الشَّارِحُ رحمه الله، وسيذكر أن التَّنْجِيم علىٰ ثلاثة أقسام، لكن ما يتعلق بالنُّجوم ليس كله حرامٌ، ولهذا يذكر ابن القيم رحمه الله في كتاب: (مفتاح دار السعادة)، إن النَّاس انقسموا أمام التَّنْجِيم إلىٰ قسمين: قسمٌ قَبِلَ التَّنْجِيمَ وآمن به وصدَّق به، وهذا قسم خارج عن الملةِ، وقسمٌ ردَّ كلَّ ما يتعلَّقُ بالنُّجوم، وإن كان قد صحَّ في حسِّ النَّاس وإدراكِهم صحةَ ذلك، ونسبوا ذلك إلىٰ الرُسُل، قال: هؤلاء أساءوا إلىٰ الدِّين كإساءة الملاحدَة، ويقول بعد ما ذكر القسمين: والطائفة الثانية رأت مقابلة هؤلاء بِردِّ كلِ ما قالوه من حقٍ وباطلٍ، وظنوا أن من ضرورةِ تصديق الرُسُلِ رَدَّ ما علمَه هؤلاء بالعقل الضروري، وعلموا مقدماتِه بالحس فنازعوهم فيه، وتعرَّضوا لإبطاله بمقدماتٍ جدليةٍ لا تُغني عن الحَقّ شيئًا، ولَيتَهم مَعَ هذه الجِنّاية العظيمة لم يضيفوا ذلك إلىٰ الرُسُل، يعنىٰ رحمه الله عندما يفهم شَخْصٌ من الدِّين فهمًا خاطئًا، ويقول: هذا هو الدِّينُ، هذه خطورةٌ، فليقل: هذا فَهمِي، لا يقل هذا هو الدِّين، فيقول رحمه الله: لَيتَهُم مَعَ هذه الجِنّاية الخطيرة لم يُضيفوه إلىٰ الرُسُل، وضرب مثالاً بقضية الكسوف القمري، وحقيقتِه، ثُمَّ زعمَ هؤلاء أنَّ ذلك مخالفٌ للدين فقال: فيقودُ هؤلاء مَعَهم في إبطالَه فيغرِيهم ذلك بكفرِهم، يعني يجعلهم يتمسَّكون بكفرِهم وإلحادِهم والوصيةِ لأصحابِهم بالتمسُّك بما هم عليه، فإذا قال لهم هؤلاء: هذا الذي تذكرونه علىٰ خلاف الشرعِ، والمصيرُ إليه كُفرٌ وتكذيبٌ للرُّسُل لم يَستريبوا في ذلك، ولم يلحقهم في ذلك شكٌّ، ولكنهم يستريبون في الشَّرعِ، وتَنقص مرتبة الرُسُل في قلوبِهم. وضررُ الدِّين، وما جاءت به الرُسُلِ بهؤلاء أعظمُ الضَررِ، وهو كضررِه بأولئك الملاحِدة، فهما ضرران علىٰ الدِّين: من ينصرُه بغير طريقته، ومن يطعنُ فيه، وقد قيل: إن العدوَ العاقلَ أقلُّ ضرراً من الصديق الجاهلِ.

هذا هو التأصيل العظيم للإمام رحمه الله. بعضُ النَّاس يتحمس للدِّين، ويجعل فهمَه ديناً وشرعاً، وهذا خطيرٌ جداً، فالإنسان لا يقول في فهمِه هذا هو الدِّين، وهذا هو الذي جاء به الرسول ﷺ إلا إذا كان نصاً في مَسْأَلَة، لكن إذا كان فهماً له فليقل هذا فهمي للدين، حتىٰ لا يُحمِّل الدِّينَ ما ليس منه، ولا يُقَوِّلَ الرسولَ ما لم يقل ﷺ، فعلم التَّنْجِيم ليس كلُه باطلاً، وذكر ابن القيم رحمه الله أن مَعَرفة الكسوفِ القمري أمرٌ حِسابي يعرف عن طريق الحساب، فهو رحمه الله كشيخه خاض في كل الفنون، فإنَّه يعرف قضايا الفلسفة، وقضايا المنطقِ، وقضايا الطبِّ، وقضايا الفلكِ، وفي الفقهِ والتفسير والحديثِ، هو موسوعاتٌ علميةٌ، فلو لم يدرك ذهنه هذا الجانب ما استطاع أن يفهمَ الصَّحِيح والخطأَ في علم التَّنْجِيم، فقال: هذا علمٌ ليس كلُّه باطلاً، وليس كلُّه حقاً، فنقبل الحَقّ ونردُّ البَاطِل، وقال: إن بعض النَّاس يتحمس عن جهل فينسب إلىٰ الدِّين ما ليس منه، ويقول: هذا هو الدِّين، فالكافر إذا قلت له إن هذا هو الدِّينُ وهو يدركُ بحسِّه وعقله أن هذا يخالف العقلَ والحسَّ فإنك قد قويت مذهبَه في الكفر وصدَدْتَه عن دين الله، ففهمنا قابلٌ للصواب والخطأ، قد يكون اليوم في ذهننا صواباً، وبعد ذلك ينكشف أنَّه خطأٌ، فينبغي أن نتأدَّبَ مَعَ دين الله حتىٰ لا نَصُدُّ النَّاسَ عنه.

المنجمون يُوْجَدُون في كل مكانٍ وزمان، ويزعُمون أن علمَهم بالنجوم يعرِّفهم بالغيبيات، ويذكر ابن القيم رحمه الله في هذا الكتاب قضايا تُبطلَ علمَ التَّنْجِيم، أولَ ما ذكرَ رحمه الله قضيةَ اتفاقِ المُنجمين عندما بنوا مدينةَ بغداد، فإنهم بنوا هذه المدينةَ في عصر الخلفاءِ العباسيين، يقول: إن النَّاسَ شاع عندهم أنَّه لا يموتُ في بغدادَ أحدٌ من الخلفاء، حتىٰ قال بعض الشعراء:

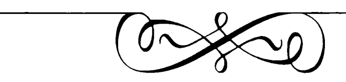
يهـنيك منـها بلـدة تقضـي لـنا أن الممـات بهـا عليـك حـرام
لمـا قضـت أحكـام طـالعي وقتـه ألا يـرىٰ فيـها يـموت إمـام

ومات فيها جماعةٌ من الخلفاء، مات فيها الواثقُ، والمتوكلُ، والمعتضدُ، والمكتفي إلىٰ غير ذلك، لكن بعض النَّاس يتعلقون بالمنجمين، وخاصة ممن يضعفُ إيمانهم بالله ﷻ كما في قضية عامُوريةَ، المُعتصمُ عندما خرج لفتحِها خوَّفُوه، وقالوا: إن علم النُّجُومِ تُوحي بأنك إن خرجت تَنكسرُ ولا تَغلِبُ، فخرج وتوكَّل علىٰ الله ﷻ فنصره الله، فقال أبو تمام قصيدةً مكونة من سبعين بيتـًا، أجازَه علىٰ كل بيت بألف دينار، قال فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الروايةُ أم أين النُّجُوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

وذكر كذلك في مدينة القاهرة، بناها جوهر الصقلي لسيده المُعز الفاطمي، وسُميت القاهرة، مأخوذة من بُرج القاهر، وهو المريخُ أو زحل، قالوا: بنوها مَعَ مطلعِه، وهذا يدلُّ علىٰ بقاء حُكْم الفاطميين إلىٰ قيام الساعة، ولكن زالت دولتهم بعد مائة وثلاثة وتسعين عامـًا علىٰ يدِ صلاح الدِّين الأيوبي، ولم يبق للفاطميين في مصر أي أثرٌ شِيعي، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عندما أراد القاهرُ جوهُر العزيزُ بناء مدينة القاهرة بأمر مولاه المُعزِّ لدين الله الفاطمي حيث أمره أن يبني مدينة في طالعِ القَاهر، وهو زُحل أو المريخ، وسموها القاهرة، وزعموا أن الوقت الذي بُنيت فيه يقضي بدوامِ سعادتِهم ودولتِهم، وأن الدولة لا تخرج فيها عن الفاطميين، ثُمَّ انتهىٰ، أنهىٰ الله ﷻ دولتَهم علىٰ

يدِ صلاحِ الدِّين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ. فالتنجيمُ وخاصَّة عند كثير من النَّاس الكبراءِ قد يستحوذُ عليهم، فيظنون أنَّها قضايا حقٌّ، هذا هو التَّنْجِيم المُحرَّمُ، الذي يزعُم أنَّه يعرفُ الغَيْب ونتائج الأمورِ عن طريق علمِ النُّجُوم، أمَّا إذا كان يستنبطُ من حركة النُّجُوم أشياء أخرىٰ جعلَ الله لها أسباباً فلا تحريمَ، فمثلاً: الرياح لها حركة مَعَينةٌ في الأرض، قد تكون سببُ قربِ النُّجُوم أو بعدها سبباً لهذه الحركة، كذلك حركة البَحْر، المدُّ والجزر، لكننا نعتقد أن الكَوَاكِب لا عقل لها، ولا تفكير لها، ولا اختيارَ لها، إنَّما بحركتها يحدث هذا الذي ليس له علاقةٌ بالسعادة، ولا بالشقاوة، ولا بأعمال النَّاس من فقرٍ أو غنىٰ ونحو ذلك، كذلك يجوز الاهتداء بالنجوم، ومعرفة الجهات الأربعة: الشمال والجنوب والشرق والغرب، فهذه ليس فيها حرج، أما الذي يعتقد أن النُّجُوم لها تأثير في حياة النَّاس وفي أفعالهم، وفي الأرزاق وفي الأسعار هذه هي التي نهىٰ عنها الشارع والتي يعتبرها العُلَمَاء كاذبةٌ لا يجوزُ التعلُّق بها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

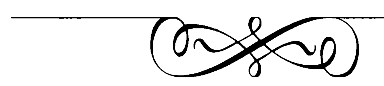
قال شيخ الإِسْلَام: التَّنْجِيم هوالاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية. وقال الخطابي: علم النُّجُوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التَّنْجِيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في مَعَناها من الأمور التي يزعمون أنَّه م يدركون مَعَرفتها بمسير الكَوَاكِب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها تأثيراً في السفليات، وأنها تجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغَيْب، وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغَيْب سواه.



الشَّرح

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا قضايا متداخلةً: هبوبُ الرياح، ومجيءُ المطر، وظهورُ الحر والبردِ، والأسعارُ، الأسعارُ لا علاقة لها بقراءة النُّجُوم، لكن الأجواء التي في الفضاء لها علاقة بحركةِ الشَّمْس، الشَّمْس منها تُستمدَّ الحرارةُ وتُستمد البرودة، أي في حركتها في بعدها أثناء المدار، فينتج عن ذلك الفصول الأربعة، الصيف والخريف، والشتاء والربيع، هذه أربع فصول سنوية لحركة الأرض وبعدها عن الشَّمْس، لكن ليست بتأثير الشَّمْس المباشر، إنما الارتباط بين هذه المجموعة الشَّمْسية: الشَّمْس والقمر والأرض ينتج عنها بعض الأشْيَاء التي لا فعل لأحد النُّجُوم لها استقلالاً، لكن لا يستطيع الإِنْسان أن يجزم أن غداً سيكون حراً، أو أن غدا يكون مطراً، ولهذا العبارة الجميلة أن يقال: أن الجو مُهيأ، يعني في نظرنا مُهيأ لنزول المطر، لكن قد ينزل وقد لا ينزل، وكذلك النَّاس في البوادي رعاةُ الأغنام والمزارعون، يعرفون من خلال

السُّحب أنواعَها، هل هذا السحابُ ممطرٌ أو ليس فيه مطرٌ، لكن لا يعني أن هذه المعرفةَ حتميةً، إنَّما عندهم قرائن، قد تصيبُ وقد تخطئُ، وليست مُؤكِّدَةٌ لحصولِ الشيء، فلا ينبغي لنا أن ننفيَ ما يُعرفُ عن طريق الدراسةِ بالحسابِ، أو عن طريق التجربةِ، أمَّا القضايا الأخرىٰ كالأسعار والأرزاقِ، والحياةُ والموت، والصحةُ والمرضُ التي كان الجَاهِلِية يعتقدون أن لها علاقةً بالكَوَاكِبِ فهذه مردودةٌ، ولا يصح أن يُنسب إلىٰ النُّجُوم شيء منها.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

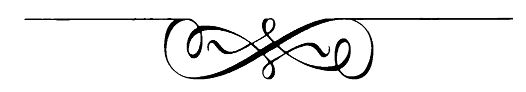
قلت: واعلم أن التَّنْجِيم علىٰ ثلاثة أقسام. أحدها: ما هو كفر بإجماع المُسْلِمين، وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة علىٰ تأثير الكَوَاكِب والروحانيات، وأن الكَوَاكِب فاعلة مختارة، وهذا كفر بإجماع المُسْلِمين. وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا كانوا يعظمون الشَّمْس والقمر والكَوَاكِب تعظيمًا يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح مَعَروفة في كُتُبهم، ويدعونها دعوات لا تنبغي إلا لخالقها وفاطرها وحده لا شريك له، ويبنون لكل كوكب هيكلاً أي موضعًا لعبادته، ويصورون فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخاطبهم وتقضي حوائجهم، وتلك الروحانيات هي الشَّيَاطِين تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم، وقد صنف بعض المتأخرين في هذا الشِّرْك مصنفًا وذكر صاحب التذكرة فيها.



الشَّرح

هذا هو التَّنْجِيمُ الُمحرَّمُ الذي كان يمارسُه قبل الإِسْلَام عُبَّاُد الكَوَاكِب الذين يعتقدون أن للكواكبِ قدرةً وتَحكُّمًا، تَفعلُ باختيارها، وأنَّ الكَوَاكِب لها رَوحانياتٌ، فيعظِّمُونها، ويتقرَّبُون إليها، ويَدْعُونَها، وتنزل عليهم هذه الروحانيات فتقضي حاجاتِهم، ربما أنَّهم يرون صوراً تكونُ من الشَّيَاطِين، مثل اليوم عندما أنشئ في الغرب مَعَاهد تُسمىٰ بمعاهدِ الروحانيةِ الحَدِيثة، أو استحضارُ أرواحٍ أو نحو ذلك، يعتقدون أن أرواحَ المَوتىٰ يمكن أن تُستحضَرَ وتَتصورُ لهم في صُورَة الشَّخص الذي ماتَ، فهذا الاعتقادُ حدث بسبب لعبِ الشَّيَاطِين بهم، فإنهم إذا تعاملوا مَعَ الجِنّ والشياطين تتصورُ لهم في صُورَة

الموتىٰ الحَقّيقية؛ لأنَّ الشَّيَاطِين أعمارُهم طويلةٌ ويعرفون المَوتىٰ وأشكالَهم، ولهذا في فتنة الدَّجَّال يأتي الدَّجَّال إلىٰ القَبر، فيقول أحدُ النَّاس: إن كنتَ صادقا فأحيِ لي أبي أو أخي أو ولدي، فيأتي الدَّجَّال إلىٰ القبر ويقول: قُم، فيقومُ في الظاهرِ صاحبُ القبر، وفي الحَقِيقَة شيطانٌ يَنفُضُ الغبارَ عن رأسه بصورةِ أبيه الذي مات، والدَّجَّالَ أعظمُ فتنةٍ تمرُّ علىٰ البَشَرية إلىٰ قيام الساعة، فهؤلاء الذين في أصْحَاب المعاهد يتعاملون مَعَ الشَّيَاطِين فتظهرُ الشَّيَاطِين في صُور الموتىٰ فيظنُّون أنَّ هؤلاء هم المَوتىٰ حقيقةً، هكذا أصْحَاب الروحانيات الذين يتعاملون مَعَ الشَّيَاطِين تتمثل في صورٍ تعينهم وتقضي حاجاتهم فيظنون أنَّ هذه أرواحُ الكَوَاكِب والنُّجُوم فيزدادون بها تمسكًا، فهذا هو الكفرُ الصريحُ الذي يتعارضُ مَعَ عقيدةِ الإِسْلَام.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكَوَاكِب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك، وينبغي أن يقطع بكفره؛ لأَنَّها دعوىٰ لعلم الغَيْب الذي استأثر الله تعالىٰ بعلمه بما لا يدل عليه.

الثالث: ما ذكره المصنف في تعلم المنازل، وسيأتي الكلام عليه.



الشَّرح

النَّوعُ الثاني: أن تعتقدَ أنَّ ما يحدث للنَّاسِ من سعادةٍ وشقاوةٍ، وموتٍ وحياةٍ، وفقر وغنىٰ مرتبطة بالكَوَاكِبِ، لكن ارتباطها ليس كارتباط الأول، بل ارتباطُها بمشيئة الله وإرادتِه وقدرتِه، فهنا الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلىٰ أنَّ هذا كفرٌ كالأول، لكن في الحَقِيقَة هذا أخفُّ من الأول وإن حَكَمَ بكُفرِه؛ لأنَّ الشَّخص يعتقد في الأول أن الكَوَاكِب تفعلُ مُستقلةً، وتُعبدُ من دون الله ويُتقرَّبُ إليها بالعبادات، وبالدَّعوات، وبالتَّضرُّع، وربما بالنُّذورِ والذَّبح، هذا كفرٌ خالص، لكن في الثاني يأتي الكفر من كونهم يعتقدون أنَّ هذه يُدركَ الغَيْبَ عن طريقها، والحقيقةُ أنَّ الغَيْب لا يُعرف من خلالها، الغَيْبُ لا يعلمُه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ. فوجه تكفيرهم من هذا الجانب، أي: اعتقادُهم أنَّ الغَيْبَ يعرفُ من خلال هذه الكَوَاكِب والنُّجُوم، فهذا الصنفُ يَلحقُ بالأول في الحكمِ وإن كان أقلَّ منه في شدةِ المَعصية.

قوله: (**ما ذكره المصنف في تعلم المنازل**) يتكلَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن دراسة منازلِ القَمرِ، ودراسة منازلِ الشَّمْس، ودراسةِ منازل الكَوَاكِب، وما ينتج عن هذه المنازلِ المختلفة. هل هذا يلحق بالأول، أو أن له حُكْماً جديداً، هذا سيأتي في شرحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: قال البُخَارِي في صَحِيْحه قال قتادة: خلق الله هذه النُّجُوم لـثلاث زينـة للسماء، ورجومـًا للشياطين، وعلامـات يهتـدىٰ بهـا، فمـن تـأول فيهـا غيـر ذلـك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به.

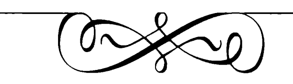
هذا الأثر علقه البُخَارِي في صَحِيْحه كما قال المصنف، وأخرجه عبدالرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخطيب في كتاب النُّجُوم عن قتادة، ولفظه قال: إن الله إنما جعل هذه النُّجُوم لثلاث خصال، جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدىٰ بها، وجعلها رجومـًا للشياطين، فمن تعاطىٰ فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علـم لـه بـه، وإن ناسـًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هـذه النُّجُـوم كهانـة مـن أعـرس بـنجم كـذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكـذا، ولعمـري مـا مـن نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والـذميم، ومـا علـم هذه النُّجُوم وهذه الدابة وهذا الطـائر بشـيء مـن هـذا الغَيْـب، ولـو أن أحـداً علـم الغَيْب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء.

الشَّـرْح

قوله: (خلق الله هذه النُّجُوم لثلاث)[١]، هذا كلامُ قتـادةُ وهـو مـن التَّـابِعِينَ، وقد مرَّت ترجمته، والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَروي في كتابه آثاراً تُسمىٰ بالمعَلَّقَـات، أي: لم يذكرُها بسندِها؛ لأنَّها لم تصح عنده علىٰ شرطِه، لكن بِتَتَبُّعِ هـذه المُعلَّقـات وجدَ العُلَمَاء كابن حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لا يخلو مُعَلَّقٌ من سندٍ صَحِيْح أو حسـنٍ علـىٰ شرط غير البُخَارِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) أخرجه البُخَارِي تعليقـًا، كتاب بدء الخلق، باب في النُّجُوم.

يذكر قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ عن الخطأِ في نسبةِ الأحداث التي هي الأعمال البَشَرية، مثلاً: من تَزوَّج من برج كذا فإن زواجه يكون سعيداً، من وُلِد في برج كذا فإنه يكون سعيداً، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّه يُولد في البرج الواحد آلاف الأَشْخَاص، وأحدهم يكون سعيداً، والآخر يكون شقياً، فما علمُ هذه النُّجُوم بالغيب؟، لا علاقةَ لها بالغيب، فربطُ أحداث النَّاس بهذه الكَوَاكِب والنُّجُوم خطأ وخللٌ عقلي، والقرآن يرفعُ المُسْلِمَ ويُهذبُ عقلَه، لئلا يجعل الأَشْيَاء التي ليست بأسبابٍ أسباباً، فإن هذه أوْهَام تضر بعقل الإنْسان وتؤذيه، فالمسلم لا يعتقد أن هذه الأحداث لها علاقةٌ بحركةِ النُّجُومِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

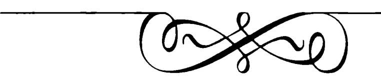
قوله: (خلق الله هذه النُّجُوم لثلاث إلىٰ آخره). هذا مأخوذ من القُرْآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل:١٦] وفيه إشارة إلىٰ أن النُّجُوم في السَّمَاء الدُّنْيَا كما هو ظاهر الآية.

وفيه حديث رواه ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رَسُول الله ﷺ: (أما السَّمَاء الدُّنْيَا فإن الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجًا وقمراً منيراً، وزينها بمصابيح النُّجُوم، وجعلها رجومًا للشياطين، وحفظًا من كل شيطان رجيم).

الشَّرح

إذا قلنا في السَّمَاء الدُّنْيَا بالوصفِ أو في سماءِ الدُّنْيَا بالإضافة كلاهما بمعنىٰ واحدٍ، ولا يعني بكونها زينةٌ للسماء الدُّنْيَا أنَّها في نفس السَّمَاء مُعَلَّقةٌ؛ لأنَّ السَّمَاء لغةً تُطلَق علىٰ الفضاء الذي فوق رءوسنا، وعلىٰ الجُرم السماوي الذي هو محيطٌ بالأرض، أو محيطٌ بالكَوَاكِبِ والنُّجُوم، فالنُّجُوم ليست مَعلقة في نفس السَّمَاء كما تعلق القناديل والكَوَاكِب، والسراجُ في السقف، التعليقُ في السَّمَاء يعني: جعلُها مبثوثةً في السَّمَاء في أماكنَ مُحددةٍ، فهذا من باب التَّقريبِ، وإلا فإنَّ بين بعض الكَوَاكِب والبعض الآخر مسافاتٌ عظيمة جداً، فهذه مُعَلَّقةٌ في السَّمَاء، والسَّماء يطلقُ ويرادُ به جهةُ العُلُو كما قال -تعالىٰ-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، أي: في جهةِ العُلُو، لا أن الله في داخلش السَّمَاء، فالنُّجُوم قد بُثت في الفضاءِ، وأماكنُها متفاوتةٌ ومتباعدةٌ، وهذا لا يعني أنَّها مُعَلَّقةٌ في الجرُم السَّماوي.

كلُّ السَّماواتِ خُلِقت من دُخَان، سواء كانت السَّمَاءُ الدُّنْيَا، أو السَّمَاء الثانية أو السَّمَاء الثالثة، لكن طبيعة السَّمَاءِ نفسِها ما هي؟ بعض العُلَمَاءِ استنبط أنَّها مَعدنٌ مُذابٌ؛ لأنَّه قال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ [المعارج:٨]. والمُهلُ هو الحديدُ المُذابُ، لكن هذا استنباط، ليس نصاً في المسألة، فما هي حقيقة السَّمَاء؟ هل هي من مَعَدن، أو هي من ذهبٍ أو فضةٍ أو نحاسٍ، ولا أحدَ يعلمُه إلا الله ﷻ، لكن هنا يقول: أنَّه مخلوقةٌ من دُخَانٍ، فكل السَّماواتِ خُلقت من دُخانٍ، وقال: جعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، السراجُ هي الشَّمْسُ، والقمرُ المنير هو القمرُ المعروف، لكن ليس شرطاً أن تكون مُعَلقةٌ في السَّمَاء كَجُرمٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وعلامات) أي دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك، (يهتدى بها) بصيغة المجهول، أي يهتدي بها النَّاس في ذلك كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧]، وليس المراد يهتدون بها في علم الغَيْب، ولهذا قال: (فمن تأول فيها ذلك)، أي زعم فيها غير ماذكر الله تعالى في هذه الثلاث، فادعى بها علم الغَيْب (فقد أخطأ) أي حيث تكلم رجمًا بالغيب (وأضاع نصيبه) أي حظه من عمره؛ لأنَّه اشتغل بما لا فائدة فيه بل مضرة محضة، (وتكلف ما لا علم له به) أي تعاطى شيئًا لا يتصور علمه؛ لأن أخبار السَّمَاء والأمور المغيبة لا تعلم إلا من طريق الكتاب والسنة، وليس فيهما أزيد مما تقدم. قال الداوودي: قول قتادة في النُّجُوم حسن إلا قوله أخطأ وأضاع نصيبه، فإنه قصر في ذلك بل قائل ذلك كافر.

الشَّرح

لا زال الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ يشرح قول قتادة بن دعامة السدوسي في النُّجُوم، فيذكر المَقصدَ من خلقِها وإيجادِها، فقال: (إن الله جَلَّ وَعَلَا خلقَ النُّجُوم لثلاثٍ: زينةٍ للسماء، ورجومٍ للشَّياطين، وعلاماتٍ يهتدى بها، فمن تأوَّل فيها ذلك، أوغير ذلك) هنا الَّذي أشرف على طباعة الكتاب أدخل "غير"، وكلاهما وجهان، (فقد أخطأ وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علمَ له به)، هذا نص قتادة، يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد أنَّها علاماتٌ يُهتدى بها أي يُعرف بها جهاتُ الأرض الأربعةِ: الشمال والجنوب والشرق والغربُ، فهناك نجومٌ ثابتةٌ حركتها مَعَ حركةِ الأرض ثابتةٌ، الذين يكونون في البحارِ أو في الصحاري، أو في أماكنَ بعيدةٍ من العمران يَعرفُون الجهاتِ عن طريقِ مَعَرفة هذه النُّجُومِ، والنَّاسُ في

الماضي كانت علاقتُهم بالنُّجومِ مستمرةً، ليست مثل اليوم، جاءت هذه الكهرباء فغطَّت علىٰ النَّاس، لم يعد بيننا وبين النُّجُوم صلةٌ، لا نعرفُ النُّجُوم، ولا أماكنها، ولا الأعدادَ التي يُستدلُّ بها، أمَّا القُدماءُ فكان لهم اهتمام خاصٌ بالنُّجومِ، يعرفون مطالعها، وغروبَها، ويستدلون بها علىٰ الجهات وكانت لها فوائدُ كثيرةٌ غير هذا.

ولكن في العصر الحاضر تطور اهتمام النَّاس بالنَّجوم، فأخذوا يبعثون المراكبَ الفضائيةَ، والسفنَ الفضائية، والأقمارَ الصناعيةَ تجوب الفضاءَ، والدافع لهم أحدَ أمورٍ: إمَّا لعدمِ يقينِهم في هذا الوجود، فيبحثون عن شيء يكون دلالةً لهم علىٰ هذا الكون؟ وإلا فإنَّه ينفقُ من الأموالِ علىٰ السفن الفضائية ما لا يُقدَّر، وإمَّا أنَّهم يظنون أنَّ هناك فوائدَ خارجَ الأرض، يُريدون أن يستفيدوا منها، فيبعثون بكثير من التحاليل والدراساتِ الفضائية، لكن أكثرها يَذهبُ سُدىً، فهذه النُّجُوم والكَوَاكِب لَيس فيها فائدة، إلا أنَّها كما ذكرها الله ﷻ زينةٌ للسماء، ويُهتدَىٰ بها في ظُلمات البرِ والبحرِ، وعلاماتٌ، وكما أن النُّجُوم علاماتٌ كذلك العلاماتُ ترجع إلىٰ الجبالِ التي في الأرض؛ لأن الأرض لو كانت كلَّها منبسطةٌ وصحراءَ ليس فيها جبالٌ ما استطاع الإِنْسان أن يعرف الأماكنَ ولا البلدانَ، لكن وجود هذا الاختلاف في التضاريس يساعد الإِنْسان وهو في سيرهِ من منطقةٍ إلىٰ منطقة أن يعرف كم بقي علىٰ المنطقةِ التي يريد، ما هي علاماتُها؟ ما هي جبالُها؟ ما هي وديانُها؟ لو تصورنا الآنَ الأرض كلها مثل الصحراء لا يستطيعُ النَّاس أن يعرفوا المدنَ ولا القرىٰ، بل ربما الشَّخص يكون في منطقةٍ يُفاجأ أنَّ الكُثبانَ الرمليةَ تنتقلُ من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، فيعجز عن الخروج، لكن من رحمة الله أن جعلها جبالاً وأوديةً، فعن طريق هذه الجبالِ والأوديةِ يستطيعُ أن يستدلَّ علىٰ ما يريد، لا أنَّ هذه دلالةٌ علىٰ الغَيْبِ؛ لأن الغَيْبَ لا يعلمُه إلا الله ﷻ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قلت: إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان، قيل: صدقهم كصدق الكهان يصدقون مرة ويكذبون مئة، وليس في صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علم صَحِيْح كالكهان.

الشَّرح

الصدقُ في الخبرِ ليس خاصاً بالمنجمين، ولا بالكُهَّان، أحياناً الشَّخص العادي يقول قولاً فيه فراسةٌ أو له مقدماتٌ، أو له ظروفٌ مَعَينة جعلته يظنُّ ظناً راجحاً فيخبرُ بخبرٍ فيقع كما هو، فهذه قضايا تحدثُ في حياة النَّاس، ليست قاعدةً، أو أن هذا الشَّخص مُطَّلعٌ على الغَيب، الغَيْبُ لا يعلمُه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، بنصِ القُرْآن الكَرِيم، وبأحاديث النَّبي ﷺ، فإذا شذَّ عن هذه القاعدةِ فإمَّا أن يكون هذا كاهناً له علاقةٌ بالشَّياطين، أو ساحراً له علاقةٌ بالجن، كما قلنا الغَيْب ثلاثة أنواع: غيبٌ زماني قد مضى، وغيبٌ زماني سيأتي، وغيبٌ مكاني، الغَيْب المكاني الآن موجودٌ، لكن لا نراه؛ لأن بيننا وبينه حواجزَ، والجنُّ يرونه، فيخبرون به صاحبَهم السَّاحِر، فيخبرُ به السَّاحِرُ، وليس هذا علم الغَيْب، بل هذا من إخبار الجِنّي لهذا الشَّخص الذي يستخدم الجِنّ والشياطين، فالغيب المكاني هو غيبٌ إضافي أي: غيبٌ إذا أضفناه إلينا، أمَّا الماضي فكذلك الجِنّ لها علاقةٌ به؛ لأن بعض الجِنّ أعمارُهم طويلةٌ، فيعرفون الحوادثَ الماضية، أما الغَيْب المُستَقبَل فإن هناك ستاراً بيننا وبينه وحجاباً لا يعلمُه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد يقع في نفسِ بعض الأَشْخَاص بعض الحوادثِ فيخبر به، أو يكون له علاقة بالجنِّ والشياطين التي تَسترقُ السمعَ، فتعرفُ مَسْأَلَةً، فتضيفَ مَعَها مائةَ كذبةٍ، فهذا هو ما يتعلَّق بالغيبِ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله علىٰ صحة علم التَّنْجِيم، منها قوله تعالىٰ: ﴿يَهْتَدُونَ ١٦﴾ [النحل:١٦] والجواب: أنَّه ليس المراد بهذه الآية أن النُّجُوم علامات علىٰ الغَيْب يهتدي بها النَّاس في علم الغَيْب، وإنما المعنىٰ وعلامات أي دلالات علىٰ قدرة الله وتوحيده، وعن قتادة ومجاهد: أن من النُّجُوم ما يكون علامة لا يهتدىٰ بها، وقيل: إن هذا من تمام الكلام الأول. وهو قوله ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ [النحل:١٥، ١٦]، أي وألقىٰ لكم مَعَالم يعلم بها الطريق والأراضي من الجبال الكبار والصغار، يستدل بها المسافرون في طرقهم، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ قال ابن عباس في الآية: وعلامات يعني مَعَالم الطرق بالنهار، ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ قال: يهتدون به في البَحْر في أسفارهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. فهذا القول ونحوه هو مَعَنىٰ الآية، فالاستدلال بها علىٰ صحة علم التَّنْجِيم استدلال علىٰ ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإِسْلَام بما لا يدل عليه لا نصاً ولا ظاهراً، وذلك أفسد أنواع الاستدلال؛ فإن الأحَادِيث جاءت عن النَّبِي ﷺ بإبطال علم التَّنْجِيم وذمه.

الشَّرح

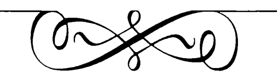
قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: الجبالُ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تضطرب، وليس فيه دليل علىٰ ثباتها وعدم دورانها، إنَّما هذه الجبالُ لئلا تضطرب الأرض بأن تكون متوازنة، ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥﴾ أي: في السُبلِ، والُسبلُ هي: الطُرق، والطرق تُسمىٰ سبيلاً أو أُمَّةً، هذه السُبلُ

لها ارتباط بالجبالِ، لكن بعد أن انتهىٰ من الكلام قال -تعالىٰ-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ انتهىٰ السياقُ، ثُمَّ قال: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ أي هذه جعلَها علاماتٍ علىٰ الأرض، أو علىٰ قدرةِ الله ﷻ، ثُمَّ قال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ ذكرَ الاهتداءَ بالنَّجم، ويرادُ به الاهتداءُ في مَعَرفة الجهاتِ، لا في مَعَرفة الغَيْب، النَّجم لا علاقةَ له بالغيب، فإن النَّجمَ جرمٌ سماوي لا عقلَ له، ولا رثوحَ له ولا اختيارَ له، مُدَبَّرٌ من خالِقه ﷻ، يسير بأمرِ الله وإذنه، لا علاقةَ له بواقعِ النَّاس، ولا بحياتِهم، ولا بموتِهم، ولا بأسعارهم، ولا بشيء من حركتِهم، فالعلاماتُ بإجماعِ المفَسِّرين إمَّا يُرادُ بها علاماتٌ علىٰ قُدرةِ الله، وإمَّا يُرادُ بها علاماتٌ علىٰ مَعَرفة الأرضِ، وأماكنها من جبالِها وأوديتها، وكذلك الاهتداءُ بإجماعِ العُلَمَاء يُراد به مَعَرفة السيرَ في الليلِ، أو في الأماكنِ التي ليس فيها اهتداءٌ في البرِّ أو في البَحْر، لم يقلْ أحدُ من المفسِّرين أنَّهاراد بالاهتداء أن يُعرَفَ الغَيْبُ، فهذا كلامٌ مردودٌ علىٰ صاحبِه.

يقول رحمه الله: (بما لا يدل عليه نصاً ولا ظاهراً) أي: ولا مَفهوماً؛ لأنَّ الدِّلالة علىٰ ثلاث مراتبَ: النَّصِ، والظاهرِ، والمفهومِ، كلُّ لفظٍ إما أن يدلُّ علىٰ المراد نصاً، والعلماء مجمعون أنَ النَّص ما كان عدداً كقوله تعالىٰ ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]، فما هناك مجالٌ للخلاف في أنَّه لابدَّ أن يصوم الشَّخص عشرةَ أيام، لكن ربما يأتي النَّص ليس فيه عدد ويكون اللفظ فيه احتمال لمعنىٰ آخر، لكنه مَعَنىٰ ضَعِيْف، مثلاً: القُرءُ في الُّلغَة العربية يُطلق ويرادُ به الطُّهرُ، ويُطلقُ ويُراد به الحَيضُ، لهذا اختلف العُلَمَاء في المراد به في الآية، منهم من جعلَ ثلاثةَ قُروء أي: ثلاثُ حِيضٍ، وقالوا القُرؤ مَأخوذٌ من الإقراءِ وهو الاجتماعِ، ومنهم من قال: القُرء هنا هو الطُّهر، فلهذا ابن عمر رضي الله عنهما أبىٰ أن

يترك زوجته حتىٰ تطهُر ثُمَّ تَحيضُ، ثُمَّ تطهُر ثُمَّ تحيضُ، ثُمَّ تطهر، ثُمَّ قال: يُطَلِّقُ في طُهرٍ لا يمسُّها فيه، فيُطَلِّقُ في ثلاثةِ أطهارٍ، حيضٌ ثُمَّ طُهر، يُطَلِّقُ، فإذا جاء حيضٌ آخر، ثُمَّ جاء طُهرٌ، يُطَلِّقُ، بِشرط أن لا يمسَّها فيه، فالعلماء قالو: لأنَّ النَّص يحتمل هذا وهذا يسُمىٰ في هذه الحالِ :الظاهرُ، فيقول: قوم الظاهرُ عندنا كذا، ويقول قوم: الظاهرُ عندنا كذا، لكن ما أحدٌ يقول النَّص.

والمفهُومُ: أن يُؤخذ الحكم من خلاف اللفظِ. كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، فالنصُّ: حرَّمَ اللهُ أن تقول لأبويك أفٍ، هذا نصٌ واضحٌ ما فيه خلافٌ، لكن الإيذاء الآخر بماذا يحرم؟ قالوا: بمفهوم المخالفة أو مفهوم الموافقةِ الأولىٰ، فإذا نَهىٰ الله عن التَّأفيفِ، فالنهي عن الضَّربِ من بابِ الأولىٰ، هذا يُسمَّىٰ الموافقةُ، والعلماءُ مُختلفون في مفهوم المُخالفة هل يكون حُجَّةً يؤخذُ به أم لا؟ بعضهم جعله حُجَّة، وبعضهم قال: لا نأخذُ منه حُكمـاً، لا نأخذُ إلا من الظاهر، إلا من الدلالةِ اللفظية، أمَّا دلالة المفهوم لا نأخذ بها، ومنهم من أخذ بها من القُرْآن والسُّنَّة ، ولم يجعلها دليلاً من كلام العُلَمَاء؛ لأنَّه قال: القُرْآن كلام الله ﷻ فلا يمكن أن يكون هناك نصٌ يأتي ويفهم منه مَعَنىٰ باطلٌ، لابد أن يُفهم منه مَعَنىٰ يتعلَّق بالحكم الشَّرْعِي، أمَّا الإِنْسان فقد يقول كلاماً له مفهومٌ، لكن ما أرادَه، فيُفَرِّقون في المفهوم بين النَّصوص وغيرها، وهذا يقول: لا يدلُّ اللفظ من الآية علىٰ مَعرفة الغَيْب لا نَصاً ولا ظاهراً، ونقول: ولا مَفهُوماً.



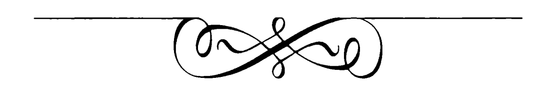
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

منها حديث: (ومن اقتبس شعبة من علم النُّجُوم فقد اقتبس شعبة من السِّحْر) الحَدِيث وقد تقدم. وعن عبدالله بن محيريز التابعي الجليل أن سليمان بن عبدالملك دعاه فقال: لو علمت علم النُّجُوم فازددت إلىٰ علمك. فقال: قال رَسُول الله ﷺ: (إن أخوف ما أخاف علىٰ أمتي ثلاث، حيف الأئمة وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم). وعن رجاء بن حيوة أن النَّبِي ﷺ قال: (مما أخاف علىٰ أمتي التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة) رواهما عبد بن حميد فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان علىٰ ثبوت الحَدِيث، لا سيما وقد احتج به من أرسله.



الشَّرح

هذان الحَدِيثان مرسلان، والمُرسل ما رواه التَّابعي عن رَسُول الله ﷺ ولم يذكر الصَّحَابِي، فالأول عن عبد الله بن محيريز، والثاني عن رجاء بن حيوة، وكلاهما تابِعيان، فالحديثان مُرسَلان، والمُرسَل لا يستشهد به؛ لأنَّه فيه انقطاعًا، ولا يعرف من الشَّخص الذي انقطع من آضلسند، هل هو ثقة أم هو ضَعِيْف؟، أحيانا قد يكون ثقة عند من حذفه من السَّند، لكنه يكون عليه مآخذ عند علماء آخرين، فلهذا المُرسَل لا يصلحُ للاستشهاد؛ لأنَّ فيه جهالةٌ، فكيف يُستشهدُ بحديثٍ لا يُعرفُ من رَواه، ولهذا المراسيلُ ليست صالحةً للاستشهاد.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن أبي محجن مرفوعًا:(أخاف على أمتي من بعدي ثلاثًا: حيف الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقدر) رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي.

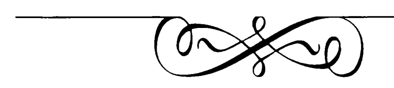
وعن أنس مرفوعًا: (أخاف على أمتي بعدي خصلتين: تكذيبًا بالقدر، وإيمانًا بالنجوم) رواه أبو يعلى وابن عدي والخطيب في كتاب النُّجُوم، وحسنه السيوطي أيضًا.

الشَّرْح

هذا حديث أبي محجن في سنده أبو سعيد البقال، وهو ضَعِيْف ومُدلِّسٌ وقد عَنعَنَه، ولم يلقَ أبا محجن، فهناك انقطاعٌ بينه وبين أبي محجن، وقوله: إن السيوطي حسَّنه، قال الحافظ العراقي: إسناده ضَعِيْف، ولم يرمزُ المُؤَلِّف له، يعني المُؤَلِّف له رموز تدل على الحُسنِ أو الصِّحةِ أو الضَّعفِ، وَوَهِمَ من زعم أنَّه رَمَز لحُسنِه، ولكنه أشَارَ بتعددِ طرقه، إلى تقويته فقط، لكن لم يقل: حَسنٌ، أحيانًا يكون إسناد القول إلى الشَّخص بحسبِ الفهمِ، فهم منه أنَّه حسّضنه، لكن قال: لم يحسنه.

السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَروفٌ بالتساهل في التصحِيح والتضعِيف، ولا يُعتَمدُ على تصحيحِه ولا على تضعِيفِه، والذي يَطَّلع على كُتُبه ويرى استشهاداته بالأحاديثِ يعرفُ هذا، وإن كان رَحِمَهُ اللَّهُ كان حافظًا، وله اطِّلاعٌ عجيب في كل الفنون، وهو يقول: إنني بلغت درجة الاجتهادِ؛ لأنَّه يبدو أنَّه كان بينه وبين بعض أشخَاصٌ في عصره شيء من التحاسُد الذي يقع بين العُلَمَاء، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ كان في كل فن مجيد، لكنه في التصحيح كان متساهلاً جداً، ولهذا لا يؤخذ

بتصحيحه، قد رأينا أنَّه ألف كتابـًا في بيـان إحيـاء أبـوي رَسُـول الله ﷺ، وأنهما أسلمَا، وأن أبا طالب كذلك أسلَم، وهذا كـلام يختلـف مَـعَ ما في الصَّحِيحين، فالسيوطي رحمه الله لا يُعتمد على تصحيحه، هـذا الحَدِيث الـذي حسنه فيه يزيد الرقاشي وهو ضَعِيْف، فالحديث ليس حسنـًا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعـًا: (مفاتيح الغَيْب خمس لا يعلمها إلاالله، لايعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غـد إلا الله، ولا يعلم متىٰ يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله) لفظ البُخَارِي.



الشَّرْح

هـذه الخمـس أمهـات مسـائل الغَيْـب لا يعلمهـا إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، يقـول بعـض النَّاس: في العصر الحاضر استطاع النَّاس أن ينزلوا مطراً صناعياً؛ لأن السَّحاب تحتاج إلىٰ تلقيحٍ حتىٰ تنزل المطر، والتلقيحُ ذَراتٌ، تلتقي مَعَ ذراتُ الماء فتصبح في حالة استواء للإنزال، فالله عَزَّ وَجَلَّ قد ينزلُ المطر، وقد لا ينزلُ المطرَ، وقد تكونت أسبابه وتهيأت، لكن الأمور بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ، فيأتون بمثل القُنبلةِ تُفجَّر في هذا السَّحاب فتلقح منطقةً عشرين متر، او ثلاثين متر فينزل المطرُ قطرات لا يُسمىٰ هذا إنزال مطر، هذا تبريد مثل التبريد الزائد، لا يستطيعون أن ينزلوا المطر، إنزاله خاص بالخالق عَزَّ وَجَلَّ، ولا يستطيع البَشَر، المتأمل في تنظيم المطر يرىٰ شيئًا عجيبًا، تتبخر قطراتٌ وتتجمع في السَّمَاء، وتلقح بقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، لماذا لا تنزل كلها دفعة واحدة؟ لو نزل المطر دفعةً واحدة حطَّم البيوت، والذي يفرقها هو الله عَزَّ وَجَلَّ، قطراتٌ وراء قطرات، أحيانـًا تكون كبيرة، وأحيانـًا تكون صغيرة، أحيانـًا تكون مَعَها شيء من البَردَ، أحيانـًا يكون مَعَها شيء من الصَّقيع وهو مثل الثَّلج الشرائح، لكنها لا تنزل دفعة واحدة، إذا بهذه القطرات سيول تجرف ما أمامها، فلو نزل السيلُ من المطر من السَّمَاء سيلاً واحداً لحطم الدُّنْيا، لكن هذا تقديرث الخالِق عَزَّ وَجَلَّ.

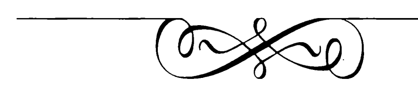
والبشر استطاع أن يأتوا إلىٰ السحاب فيضعوا فيه مادة للتبريدِ الزائد فينزل لمنطقةٍ عشرين متراً مثلاً، هذا لا يُسمىٰ مطراً، ولكن بعض النَّاس يصاب بفتنة لجهله، هذا الدِّين تَعَامَلْ مَعَه بيقينٍ، هذا كلام ُربِّ العالمين، والبشرُ أعطاهم الله قدرةً لكنها محدودةٌ جداً، كما أعطىٰ لإبليس، فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء:١١٩] الله أعطىٰ إبليس قدرة، وأعطىٰ الإنسان قدرة أن يُغيرَ خلقَه يعني يحدث شيئاً إضافياً، لا أنَّه يُغيِّرُ الخلقَ عن أصله، مثلاً إنسان خلق بعينين لو فقأ عينَه أو قطع أذنَه فقد غيَّر خلقَ الله، ليس مَعَنىٰ غَيَّر خلقَ الله أن يأتي بخلق جديد، بل المعنىٰ أن يُفسد كما قالت المَلَائِكَة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠]، فالله قد أذِن الإذنَ الكوني أن يقع الفسادَ من الإِنْسان بإرادته ﷻ، عندما أخذوا من الإِنْسان خليةً صغيرةً، فوضعوها ولقَّحوها، فأخرجوا منها شاةً في الماضي، قالوا: استطاعوا أن يَخلُقوا، لم يَخلقوا شيئاً، بل هذا يزيدنا تعظيماً للخالق أنَّ كلَّ خلية في جسم المخلوق تمثل صُورَة لهذا المخلوق، كم في الإِنْسان من خلايا؟ بلايين، كلُّ خلية فيها صُورَة الإِنْسان، لهذا يَوْمَ القِيامَةِ كل خلية تجتمع مَعَ أختها، الآن في الكمبيوتر يدخل الكاتبُ رسماً أو حرفاً أو صُورَة، ثُمَّ إذا أراد أن يستدعيَ هذا الحرفَ يكتب الحرف، فإذا كتَب الحرف ظهر أمامه، ارتباط بين الصُّورَتين، ولله المثل الأعلىٰ.

فكل خلايا من صنفٍ واحد بأمر الله تجتمعُ مرةً أخرىٰ، حتىٰ لو كانت في بطون السباعِ أو في أجسادها، الخلية تحافظُ علىٰ شكلِها، وربنا يعيدها كما كانت، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة:٤]، هذه التعَارِيجُ في كل إبهام تعود يَوْمَ القِيامَةِ كما كانت مُتعرِّجةً، وكلُّ إبهامٍ يمثل صُورَة الإِنْسان، الآن تقدم العِلْمُ، وعرفوا أن النَّظرةَ لكل إنسان تختلفُ عن الآخر،

والآن تقدموا ما عادوا يرجعون إلىٰ الإبهامِ، يأتون بالشخص تُصَورُ عيناه عن طريق الكمبيوتر، فعندما يريدون أن يتأكَّدوا أن هذا الشَّخص له علاقة بأي حدث يُصورونه ثُمَّ يطبقون الصُّوَرة علىٰ الصُّوَرة الماضيةِ، لا تأتي صُورَةُ عينيه مختلفة عن الماضية أبداً، فهذا الخلقُ العجيبُ قد يفسدُ، لكن لا يستطيع الإِنْسان أن يأتي بخلقٍ جديد، كذلك لا يعرِف ما تغيضُ الأرحامُ إلا الله، فيقولون: الآن الطبُّ يعرف ما في البطن، والطبُّ لا يعرف ما في البطن؛ لأن الجِنّين يسير في مراحل مَعَينة لا يستطيع الطبُّ أن يعرف هل هو ذكر أو أنثىٰ أبداً؛ لأنَّ خلايا الجسم واحدة، فما يستطيع أن يحدد إلا إذا ظهرت علامات الأنثىٰ، أو علامات الذكورة، عندما تكمتل الصُّوَرة يكشف الله الغَيْب للملَك، فيقول: اكتب ذكراً أو أنثىٰ، فالغيبُ انكشف، كشفه الله ﷻ، أول من عرف الغَيْب الملَك، فأصبح الجِنّين مكشوفاً، لو عملنا عملية فأخرجنا الجِنّين، ورأيناه ذكراً أو أنثىٰ لا يكون هذا علمُ غيب، وكذلك الجهاز التصويري الذي من خلق الله اكتشفه الإِنْسان أصبح يرىٰ ما وراء جدارِ الجسم الإِنْسان، فيرىٰ صُورَة الجِنّين، ما هو بغيب، يرىٰ بعينه، فقضية الغَيْب أن يعرف ما في بطن المَرْأَة بدون وسيلة.

أحياناً ضعف الإيمان عند النَّاس يجعلهم يتأثرون بأي حدثٍ جديد، وليس بصحيح؛ لأن هذا الدِّين عظيم، دينُ ربِّ العالمَين، ولا ينخدع الإِنْسان بكل ما يسمع، كل ما قاله الله يقينٌ؛ لأن المتكلِّم هو ربُّ العالمين، وما رأىٰ مما قد يخالف ما قد فهم بين أمرين، إمَّا أن يكون ليس صَحِيْحاً، وإمَّا أن يكون فهمُه للشرع خاطئاً، والخطأ من فهمِه لا في الشرع، كما مرّض من كلام ابن القيم رحمه الله في الذين ردُّوا علىٰ المُنجِّمين، وأنكروا التَّنْجِيم الذي هو مَعَرفة كسوف القمر وخسوف الشَّمْس، وقالوا: هذا من الدِّين، ، فكان هذا سببُ فتنةٍ

للكفَّار، وفتنةٌ لمن يعرف القضية؛ لأن القضية حسيةً تُدرَكُ عن طريق الحساب، فأحياناً الشَّخص يفهم من القُرْآن فهماً خاطئاً، ويحمل القُرْآن ما لم يحتمل، ويقول: هذا هو مَعَنىٰ القُرْآن، ويكون هذا فهمه الشَّخصي، نفرق بين فهمنا الشَّخصي وبين الأدلة القاطعة في القُرْآن الكَرِيم، حتىٰ لا نسيء إلىٰ دين الله ﷻ.



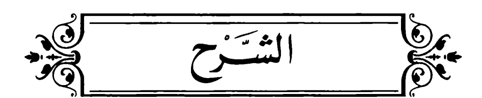
قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رَسُول الله ﷺ: (لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشِّرْك ما لم تضلهم النُّجُوم) رواه ابن مردويه.

وعن ابن عمر مرفوعًا: (تعلموا من النُّجُوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثُمَّ انتهوا). وعن أبي هريرة قال: (نهىٰ رَسُول الله ﷺ عن النظر في النُّجُوم) رواهما ابن مردويه والخطيب.

وعن سمرة بن جندب أَنَّه خطب فذكر حديثًا عن رَسُول الله ﷺ أَنَّه قال: (أما بعد فإن ناسًا يزعمون أنَّ كسوف هذه الشَّمْس، وكسوف هذا القمر وزوال هذه النُّجُوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وأنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله، يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة) رواه أبو داود.

وفي الباب آحاديث وآثار غير ما ذكرنا، فتبين بهذا أن الاستدلال بالآية علىٰ صحة أحكام النُّجُوم من أفسد أنواع الاستدلال.



الشَّرح

الشِّركُ حدث في هذه الجزيرة بغير النُّجُوم، سواء كان بعبادةِ الأحجار، أو الأشجار، فحديث (ما لم تضلهم النُّجُوم)[1] يحتاج إلىٰ مراجعة، وتفصيل ابن مردويه ليس موجوداً حتىٰ نرجع إليه.

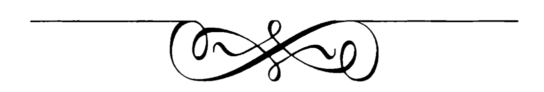
---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٥٧٦)، (١/ ١٨٠)، والبزار في المسند بلفظ: "برأ" بدلاً من "طهر"، برقم: (١٣٠٣)، (١/ ٢٢٦).

قوله: (تعلموا من النُّجُوم ما تهتدون به في ظلمات)(١) وهذا كذلك قال: ضَعِيْف.

قوله: (نهىٰ رَسُول الله ﷺ عن النظر في النُّجُوم)(٢) وكذلك ضعفه في الحاشية.

وحديثُ سمُرةَ بن جُندب رضي الله عنه هذا قال: فيه ثعلبة بن عباس وهو مجهول، لكن ليس ضعف هذه الأحَادِيث يدل علىٰ صحة التَّنْجِيم. ذكرنا بعض الأحَادِيث التي تدل علىٰ حرمة اعتقاد أن النُّجُوم لها تأثير، كحديث زيد بن خالد رضي الله عنه الذي كان في الحديبية، والحديث السابق (خمس لا يعلمهن إلا الله إلىٰ آخره)(٣) فهذه أحاديثُ قاطعةٌ في أن الغَيْبَ لا يعلمُه إلا الله عز وجل. فهذه الأحَادِيث الضعيفة مَعَناها صَحِيْحٌ، لكن لم تصح من حيث السند.



---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في فضل العِلْم وشرف مقداره، برقم: (١٧٢٣)، (٢/ ٢٦٨)، وأورده الملا القارئ في مسند أبي حنيفة (١/ ١٤٣)، والسيوطي في الجامع الصغير، برقم: (٣٣٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٥١٩٨)، (٤/ ٣٠٦)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٨١٨٢)، (٨/ ١٣١).

(٣) سبق تخريجه.

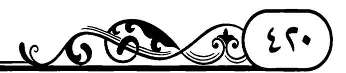
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنها قوله تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٨، ٨٩].

والجواب أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولىٰ في الفساد، فأين فيها ما يدل علىٰ صحة أحكام النُّجُوم بوجه من وجوه الدلالات؟ وهل إذا رفع إنسان بصره إلىٰ النُّجُوم فنظر إليها دل ذلك علىٰ صحة علم النُّجُوم عنده؟ وكل النَّاس ينظرون إلىٰ النُّجُوم، فلا يدل ذلك علىٰ صحة علم أحكامها، وكأن هذا ما شعر أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنما بعث إلىٰ الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم مناظراً لهم علىٰ ذلك.

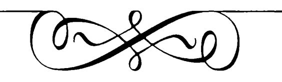
الشَّرح

قوله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٨-٨٩]، وليس في الآية شيء يدل علىٰ صحة التَّنْجِيم؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما قال إني سأسقَم، أو سأمرض، أمَّا لو كان نظر في النُّجُوم، ثُمَّ ذكر قضية غيبية ستأتي ربما يكون هؤلاء مَعَهم حق الاستدلال، لكن رفع رأسه ثُمَّ أعاده وقال: إني سقيم، إني مريضٌ، كانوا في عادتهم أن ينظُروا إلىٰ النُّجُوم فيُخبَروا بالمستقبل، فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فعل هذا من باب المعَاريضِ حتىٰ يتركُوه؛ لأنَّه قد نَوىٰ أن يحطمض أصنامَهم، وكان ذلك يوم عيدٍ لهم، فكيف يبقىٰ؟ لابد أن يفعل فعلاً يُوهمُهم به أنَّه لا يستطيع أن يشاركَهم في عيدهم الذي سيخرجون إليه، ففعل هذا، ولهذا جعله النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المؤاخذ علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مَعَ أنَّه فعلها في ذات الله، لكن قلنا إن الكمال البَشَري ليس في عدم الخطأ؛ لأن الذي لا



يخطئ هو الله، والإنسان يخطئ مهما بلغت منزلته، فالأنبياء يخطئون، أخطاؤهم مَعَدودة؛ لأَنَّهم في أعلىٰ درجات الكمال البَشَري، الكمال البَشَري ليس مَعَناه عدم الخطأ، إنما المعنىٰ قلة الخطأ، والمثل المشهور: كفىٰ بالمرء نبلاً أن تعد مَعَائبه. فالقرآن الكَرِيم ذكر أخطاء الأنْبِيَاء، ذكر آدم عليه السلام أَنَّه عصىٰ، وذكر نوحا عليه السلام أَنَّه قال في ابنه: أَنَّه ابني وسأل الله أن ينجيه، فعاتبه الله، وقال ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود:٤٦]، وكذلك إبراهيم عليه السلام قال: إني سقيم، وقال: بل فعله كبيرهم، وقال: هذه أختي، وموسىٰ عليه السلام وكز القبطي فقتله، فهم بشر، لو لم يخطئوا لكانوا آلهة، والله يريد أن يبين لنا أن بشرية الرسول لا تزول بسبب أَنَّه أصبح رَسُولاً.

فإبراهيم عليه السلام قال هذا القول لا ليعتقد أن النُّجُوم يعلم بها الغَيْب، فإن إبراهيم عليه السلام قد جاء لإبطال عبادة النُّجُوم، فناظر عليه السلام في الآلهة السماوية، عندما رأىٰ القمر، وعندما رأىٰ النجم، وعندما رأىٰ الشَّمْس، ثُمَّ أخيراً تركها كلها وتوجه إلىٰ رب العالمين، وكذلك الأصنام الأرضية ناظر فيها وناقشهم فيها ووبخهم علىٰ عبادتها، وقال: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الأنبياء:٦٧]، فإبراهيم عليه السلام إنما بعث لإبطال عبادة الأصنام، وعبادة النُّجُوم، فكيف يؤكد أن النجم يعرف به الغَيْب، هذا يخالف طبيعة الرسالة التي جاء بها، لكن الذين اشتغلوا بالتنجيم أرادوا أن يعتمدوا أدلة في الظاهر توهم أَنَّها مَعَهم، وفي الحَقِيقَة أَنَّها ليست مَعَهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قيل: علىٰ هذا فما فائدة نظرته في النُّجُوم؟ قيل نظرته في النُّجُوم من مَعَاريض الأفعال؛ ليتوصل به إلىٰ غرضه من كسر الأصنام كما كان قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣].

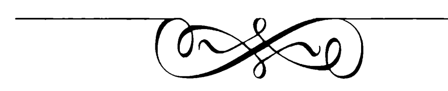
فمن ظن أن نظرته في النُّجُوم ليستنبط منها علم الأحكام، وعلم أن طالعه يقضي عليه بالنحس فقد ضل ضلالاً بعيداً؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصَّحِيح أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: (لست هنا كم ويذكر خطاياه التي أصابها)، وعدها العُلَمَاء في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقوله عن سارة: هي أختي، فلو كان قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أخذه من علم النُّجُوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هي من مَعَاريض الأفعال، فلهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، ذكر ذلك ابن القيم لكن قوله: وعدها العُلَمَاء يدل علىٰ أنَّه لم يستحضر الحَدِيث الوارد في عدها.

الشَّرْح

هذا إشارة إلىٰ الحَدِيث الطويلِ في الشَّفاعةِ، أن النَّاس يَوْمَ القِيَامَةِ يقفونَ أربعين سنةٍ بدون حساب ولا سؤال من الله عَزَّوَجَلَّ، وقوفاً علىٰ أقدامِهم عُراةً غُرلاً بُهماً، تدنو منهم الشَّمْس، وهذا زمن طويلٌ جداً، بعُضهم العرقُ يُلجمُه إلجاماً، وبعضهم العَرقُ إلىٰ كتفيه، وبعضُهم العرق إلىٰ حِقويَه، بحسبِ أعمالِهم، فالنَّاس يصيبُهم من شدةِ الهول وشدةش الموقف ما يذهبون مَعَه يقولون بعضهم لبعض: ألا ترون ما نحن فيه، اذهبوا بنا إلىٰ آدمَ ليشفعَ لنا، فيذهبون إلىٰ آدمَ، فيقولون: يا آدمُ أنت أبو البَشَر، خلقك الله بيديه، وأسجدَ

لك ملائكته، ألا ترىٰ ما نحنُ فيه، اشفع لنَا إلىٰ ربك يحاسبُ بيننا، فيقول آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وهل أخرجكم من الجِنّة إلا مَعَصيةُ أبيكم آدمَ، لست هناكُم، اذهبوا إلىٰ نوح: وهكذا كلُ نبي يعتذرُ حتىٰ يأتون إلىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيذكر هذه الأشْيَاءَ الثلاثةَ، يقول: إني قلت كذا وقلت كذا، وقلت كذا، فذِكرُهُ لها يَدلُّ علىٰ أنَّه يشعر بالعتابِ فيها، ثُمَّ يدُلُّهم علىٰ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيأتون مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتذر بأنه قتلَ القِبطيَ، ثُمَّ يدلُّهم علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يذكر ذنبًا في هذا الحَدِيث، ثُمَّ يقول: إذا كان هناكُم إناءٌ قد خُتمَ عليه هل يُوصل إلىٰ ما في الإناءِ حتىٰ يُفضَّ الخاتمُ؟ قال: نعم، قال: محمدٌ خاتمُ الأنْبيَاءِ والمُرسَلين، فيأتون إلىٰ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: أنا لَها، أنا لَها.

فهذا إشارةٌ إلىٰ حديثِ الشَّفاعةِ، وأنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يعتذرُ عن الشَّفَاعةِ ويذكر لهم ما وقعَ فيه من الأخطاءِ الثَّلاثة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد رواه أحمد والبخاري وأصحاب السُنَنِ وابن جرير وغيرهم عن أبي هريرة أن رَسُول الله ﷺ قال: (لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ غير ثلاث كذبات، اثنتين في ذات الله. قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله في سارة: (هي أختي) لفظ ابن جرير.

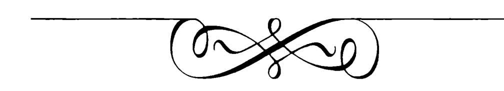
الشَرح

العلماءُ قالوا في تسميةِ هذه الأفعالِ بالكذِبِ؛ لأنَّ المَعَاريضَ في ظاهرها كذبٌ، لكن في حقيقتها ليست كذبًا، والأنبياءُ ينبغي أن لا يفعلوا حتىٰ المَعَاريضَ، كما يقولون: حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المُقَرَّبينَ، أي: هناك أعمالٌ قد تجوز لمن هو أدنىٰ، لكن إذا كان ارتفع في المقامِ لا تجوزُ منه، لهذا نرىٰ عتاب الله عَزَّ وَجَلَّ لنبينا ﷺ في أعمالٍ فيها مَجالٌ للاجتهاد، منها اجتهادُه في أسرَىٰ بدر، ومنها في موقِفِه مَعَ الأعمىٰ، هذه كلُّها اجتهاداتٌ، لكن الأنْبِيَاءَ لهم وضعٌ آخر.

فهذه الأخطاءُ لو كانت في حقِّنا نحن لا تُسَمَّىٰ أخطاءً؛ لأنَّ المعَارِيضِ جائزةٌ لنا؛ لأنَّ فينا ضَعفًا، لكن الأنْبِيَاء في أعلىٰ درجاتِ الإيمانِ، فلو فعلوا هذا يعاتَبون، فتَسميتُها كَذبًا لأنَّها في ظاهِرِها تخالفُ الواقعَ لكن في حقيقتِها صَحِيْحة، كما في قوله في سارة: عندما جاءه رَسُولُ ملكِ مصرَ، قال لها: اعلمي أنَّ هذا الجبارَ قد طلبَك، فسألني عنك، فقلت: إنَّك أختي، فأنت أختي، فإنه ليس علىٰ ظهرِ الأرضِ مُسلمٌ غيرِي وغيرِك، فهي أختُه في الإِسْلَام؛ لأنَّ هذا الملكَ إذا سأل عن امرأة أرادها فقال الشَّخص أنَّها زوجَته قتَله وأخذَ الزوجَة، وإذا قال: هي أختي لا يقتُلُه، بل يخطبُها منه، فأرسل إليها فجيءَ بها إليه،

فـدعَت الله ﷻ، فعنـدما مـدَّ يـده أيبَس الله يـدَه، ولـم يسـتطع أن يلمَسـها ولـم يمسَّها بسوء، هكذا ثلاث مرات ثُمَّ في الأخيرة قال: أخرجُوهـا فإنَّمـا جِئتم لـي بشيطانٍ، وأخدَمها هاجرَ[١]. فهـذه هـي القصـةُ، فالكـذِبَتَان في ذاتِ الله، والثالثـةُ دافعَ بها عن عرضِه عليه السلام، وكلُّهـا في الظـاهر لهـا تأويـلٌ، لكـن الأنبِيَـاء لا يُسـمحُ لهم بأن يفعلوا فِعلاً يكونُ فيه احتمالٌ ولو ضَعِيْفًا، فإن هذا في حقهم خطأ.

ولهـذا في قصـة الحديبيـة، عنـدما انتهـىٰ النَّبِـي ﷺ مَـعَ سـهيل في قضـية الصلح، فجاء ابنه يرسف في القيود، فالنبي ﷺ تكلَّم كلامـًا أو تأخَّر في الكـلام حتىٰ يمدُّ أبو جندل يدَه ليقتلَ أباه فلم يفعَل، فقـالوا: هـلا يـا رَسُـول الله أشـرت إلينا، قال: ما كان لنبيٍ أن تكـونَ لـه خائنـة الأعين[٢]. أي: لـيس هـذا للأنبيـاء، لكن لو واحد منا لأشار مائةَ مرَّةٍ، هذا المُسْلِم كلما ارتفعت مكانته تنزَّه أن يقـع في أمرٍ فيه احتمال، كلُ أمر فيه احتمالٍ مَعَصيةٍ الله يَجتنبُه، لا يقل: هذا أنصرُ بـه الدِّينَ؛ لأن الدِّين لا يُنصرُ إلا بحقٍّ، ولا يُنصرُ بالباطِل.



(١) أخرج القصة البُخَارِي في صَحِيْحه، كتاب أحاديث الأنْبِيَاء، باب قول الله تعـالىٰ: (واتخـذ الله إبراهيم خليلاً)، برقم: (٣٣٥٨)، ومُسْلِم في صَحِيْحه، كتـاب الفضـائل، بـاب مـن فضـائل إبراهيم الخليل عليه السلام، برقم: (٢٣٧١)، (٤/ ١٨٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب قتـل الأسير ولا يعرض عليـه الإِسْلَام، بـرقم: (٢٦٨٣)، والبيهقي في السُنَنِ الكبرىٰ، كتاب النكـاح، بـاب مـا حـرم عليـه مـن خائنـة الأعين دون المكيـدة في الحـرب، بـرقم: (١٣٢٧٧)، (٧/ ٦٤)، والحـاكم في المسـتدرك، كتـاب المغازي والسرايا، برقم: (٤٤٢١)، (٣/ ٥٠)، وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الـذهبي عليه في التلخيص، ولكن الحَدِيث ليس وارداً في قصـة أبي جنـدل، بـل في قصـة عبـد الله بـن سعد المشرك يوم فتح مكة ـ والله أعلم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وروىٰ ابن أبي حاتم عن أبي سعيد مرفوعـًا في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: (ما منها كلمة إلا ما حلا بها عن دين الله، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ وقال ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي) وفي إسناده ضعف.

وقال قتادة في الآية: العرب تقول لمن تفكر نظر في النُّجُوم، قال ابن كثير: يعني قتادة أنَّه نظر إلىٰ السَّمَاء متفكراً فيما يكذبهم به. فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ أي ضَعِيْف.

قال: وكرِهَ قتادةُ تعلُّمَ منازلِ القَمَر، ولم يُرَخِّص ابنُ عُيَينة فِيه. ذكرَهُ حربٌ عنهما، ورخَّصَ في تعلُّم المنازلِ أحمدُ وإسحاقُ.



الشَّرح

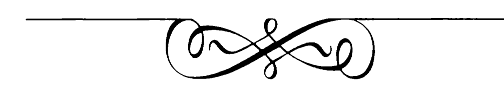
قوله: (حلا) أي: دَافعَ، ليس حال.

أحيانـًا الشَّخص إذا أراد أن يَردَّ علىٰ إنسان في كلام ينظرُ في السَّمَاء، كأنَّه يستدعي خواطرَه، والنَّاسُ أنواعٌ، وإن كان الدارسون اليوم في علم النَّفْس يجعلون تفريقـًا بين النَّاس، فلو كلَّمتَ إنسانـًا في أمرٍ قال: فنظرَ إلىٰ اليمين له مَعَنىٰ، أو نظر إلىٰ الشمالِ له مَعَنىٰ، فإن نظر إلىٰ اليمين فهو صادقٌ، وإن نظر إلىٰ الشمال فهو كاذبٌ، و هذا حسب العادة، بعض النَّاس تعوَّد إذا جاءت قضيةٌ يستدعِي الخواطرَ بأن ينظرَ، إمَّا في السَّمَاء أو في الأرض، هذه طبائعٌ عاديةٌ، ما يمكن أن نجعل منها قضيةً أو دليلاً، وكان بعض الأساتذةِ يُدرسُنا في البلاغةِ، وكان من أجلِّ الأساتذة، لا ينظرُ فينا، يُدرسُنا وعيناه في السَّمَاءِ، منذ



أن يبدأ الدرس حتىٰ ينتهـي، فسـألناه: يـا أسـتاذ لمـاذا لا تنظرُ إلينـا؟ فضـحِك، وقال: كنت أُدرِّسُ للطالبـاتِ، فمـا كنـتُ أنظـرُ فـيهن، كنـت أنظرُ إلـىٰ السَّـمَاء، فتعوَّدتُ علىٰ الطُّلابِ والطَّالباتِ.

مَنَازِلُ القَمرِ قَضيةٌ لها فائدةٌ، تُعرفُ منازِلُ القمرِ، متىٰ ينتهي، في كـل شـهرٍ، الآن الفلكيـون الـذين يُخرجُـون التقـاويمَ عنـدهم مَعَرفـة بمنـازل القمـرِ، فـترىٰ التَّقويمَ، وخَاصةً تَقويمُ أمِّ القرىٰ، فهو أقربُ التقاويمَ إلىٰ الصَّحة، مَعَ أنَّه يَـذكرُ التاريخَ للمستقبل، عُرِفَ عن طريق الدراسَةِ، عـن طريـق الحسـابِ، عـن طريـق التجربةِ، فهـذا الجانـب لا بـأس بـه في دراسـته، ولهـذا الإمـام أحمـد وإسـحاق ـ رحمهما الله ـ قد رخصا في تعلمه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ش: هذا هو القسم الثالث من علم التَّنْجِيم، وهو تعلم منازل الشَّمْس والقمر للاستدلال بذلك على القبلة، وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترىٰ من اختلاف السَّلَف فيه فما ظنك بذينك القسمين، ومنازل القمر ثُمَّ انية وعشرون كل ليلة في منزلة منها، فكره وقتادة وسفيان بن عيينة تعلم المنازل، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما.

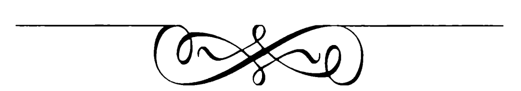
قال الخطابي: أما علم النُّجُوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن مَعَرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السَّمَاء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السَّمَاء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعات مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النُّجُوم علىٰ جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدِّين، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها علىٰ حال الغَيْبَة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم، إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في مَعَرفته.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه إذا كانوا في مكةَ فرأوا نجومًا في السَّمَاء ولاحظوها، ثُمَّ سافروا إلىٰ بلدان بعيدة، فاستدلوا بهذه النُّجُوم علىٰ مكانِ الكعبةِ، فهؤلاء يُؤخذُ خبرُهم إذا كانوا ثِقاتٍ في الدِّين، فدراسة الكَوَاكِب والنُّجُوم لمثلِ هذا

الأمرِ ليس فيه إن شاء الله حرجٌ. وهناك عالمٌ مُسلمٌ منذ أكثر من ثمانمائة عام رصَد شُروق الشَّمْس وغُروبَها من كلِّ بلدٍ، وذكر متىٰ تغرب في البلدِ الفلاني، ومتىٰ تشرق في البلدِ الفلاني، بالسَّاعة والدقيقة والثانية والثالثة، هذا توقيتٌ دقيقٌ جداً، وفي الأندلس وضعوا برجاً جعلوا فيه ثلاثمائة وستين أو أربعة وخمسين فتحةَ، تُشرق الشَّمْس من مكانٍ لا تُشرقُ من المكان الذي بجانبِه، النُّورُ يدخل من هذه الفتحة إلىٰ داخل البرج، ولا يدخُلُ من الفتحةِ الثَّانيةِ، وهذا غايةُ الدِّقَّةِ لقضيةِ شُرُوق الشَّمْسِ وغُرُوبِها، فالاطلاع علىٰ شُروقِ الشَّمْسِ وغُروبِها ودراستِه للاستفادةِ في مَعَرفةِ الأوقاتِ وما يتعلقُ بالدِّين ومصلحةِ النَّاسِ ليس ذلك هو المَنْهِيُ عنه، إنَّما المنهِيُ عنه إذا كان وَراءَ ذلك قضايا غيبيةٌ تتعلَّق بحياةِ النَّاسِ أو موتِهم، وفقرِهم وغناهُم، هذا هو المحذورُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلتُ: ورَوىٰ ابنُ المُنذرِ عن مُجاهد أنه كان لا يرَىٰ بأسـًا أن يتعلَّم الرجلُ مَنَازِلَ القَمَر، قلتُ: لأنَّه لا مَحذورَ في ذلك، وعن إبْرَاهِيم أنه كان لا يرىٰ بأسًا أن يتعلّم الرجل من النُّجُوم ما يهتدي به. رواه ابن المنذر.

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه عِلْم التسيير، لا عِلْم التأثير، فإنه بَاطِل محرم قليله وكثيره، وأما عِلْم التسيير فتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه. وربما أدىٰ تدقيق النظر فيه إلىٰ إساءة الظن بمحاريب المُسلِمِين، كما وقع من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا، وذلك يفضي اعتقاده إلىٰ خطأ السَّلَف في صلاتهم وهو بَاطِل. انتهىٰ مختصراً. قلت وهذا هو الصَّحِيحُ إن شاء الله، ويدل علىٰ ذلك الآيات والأحاديث التي تقدمت، وهل يدخل في النهي وقت الكسوف الشَّمْسي والقمري أم لا؟ رجح ابن القيِّم أنه لا يدخل.

الشَّرح

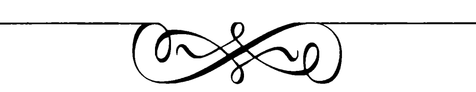
لا زالَ يُعقِّب علىٰ ما تقدَّم من أن بعضَ العُلَمَاء لم يُجَوِّزْ تعلُّمَ مَنَازِلَ القَمَرِ، ولا معرفةَ الحسابِ الشَّمْسي، ولا القَمَري، ولا شكَّ أن هذا اجتهادٌ، لكنَّه مردودٌ، وابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بحثٌ جميلٌ في كتابِ: (مفتاحُ دارِ السعادةِ)، تحدَّث فيه عن التَّنْجِيْم وعن المنجمين، وعن بطلان عِلْم التَّنْجِيْم، وهو وَهمٌ في الحَقِيقَة وليس عِلْمـًا ـ حيثُ يزعُم أصحابُه أنه م يعرفون به حوادثَ المُسْتَقْبَل عن طريق معرفة النُّجُوم وحركاتها، ويزعمُون أن حركات النُّجُوم تؤثرُ في حَيَاة النَّاس، بالصِّحة والمَرَضِ، وارتفاعِ الأسعارِ ونزولِها، قال: هذا هو العلمُ المُنْكَر والمردودُ، ويوجد في بلاد المُسلِمِين، وفي كلِّ البِلَاد، فمِن

النَّاس من يَزعمُ أنه يعرف مستقبلَ الإنْسَان، وهـل سيكونُ سعيداً أو شـقياً، أو سيحدثُ له حوادثٌ، عن طريقِ البرج الذي وُلِد فيه، قال أحدُ العُلَمَـاءُ: لَعَمـرِي أن هذا النَّجم قـد وُلـدَ بـه وفيـه آلافُ الأَشْخَاص، فما بـالُ هـذا يكـونُ سعيداً، وهذا يكونُ شَقياًّ؟!. لا علاقةَ للشَّقاءِ والسَّعادةِ بالنُّجُوم، هـذه كَواكـبُ جامدةٌ، ولكن بعض الفَلاسِفة كأرسطو الـذي يُسمَّونه بـالمعلِّم الأولِ، يَرىٰ أن القَمَرَ يُدركُ وله إحساسٌ وله عقلٌ وله رُوحٌ، وأنَّه يُؤثِّرُ؛ لأنَّه كما قال ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الفلاسفةَ عُبَّادٌ للكواكبِ والنُّجُوم، وجاءَ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لإبطالِ عبادةِ الكَوَاكِب والنُّجُوم، فهذا الفيلسوفُ الكبيرُ يعتقدُ أن القَمَر الجامدَ له عقلٌ وروحٌ، يؤثر في حَيَاة النَّاس، هـذا فهـمٌ كـان في الجَاهِلِيَّـة، جـاء الإِسْلَام لإبطالِـه، فبـين أن الكَوَاكِب والنُّجُوم ليس إلا أنها عَلَامَات يعرفُ الإنْسَانُ بها مسيره في اللَّيل إذا ضاعَ أو لم يهتد إلىٰ الطَّريق، أو يعرفُ بها القِبلةَ أو الحسابِ كـالقَمَرِ ، أمَّا ما عداه فليس فيه أي تأثير.

فعلـم التـأثيرِ عِلْـمٌ بَاطِـل، عِلْـمُ التّسييرِ هـو الـذي يجوزُ أن ندرسَـه، أي: حركاتُ النُّجُومِ إذا كان فيها فائدةٌ، ثـم لا ندرسُـها دراسـةً مُفصلـةً، وتُبـذلُ فيهـا الأموالُ الضَّخمةُ؛ لأنَّه لا فائدةَ من ورائها، إمَّا أولئك الذين ليس عندَهم إِيمَان فـإنَّهم يدرُسـون ليعرفـوا الكـون؛ لأنَّهـم لا يعرفـونَ الكـونَ أصـلاً، مَـن خَلقَـه، ولماذا خَلقه؟ وماذا وراءَ هذا الكونِ؟ فهم يدِرسون؛ لِقضيةٍ عقَديةٍ أصلاً، هـذه القضيةُ العقَديـةُ عنـدنا قـد انتهـت، وهـي عنـدنا في غايـةِ الوضـوحِ، الكَوَاكِـب والنُّجُوم خُلِقَـت، والـذي خَلقَهـا هـو الله عَزَّ وَجَلَّ، فهـؤلاء إنَّمَـا يبحثـون ليكشفوا؛ لأنهم استكشَـفوا، فعنـدهم أهـدافٌ، وهـذه الأهـدافُ عنـدنا قـد جـاء مـا يحلُّهـا ويبينُها، فلا حاجةَ لنا في الدراسةِ الفَلَكِية المتعمِّقةِ، إنَّمَا ندرس الفَلَكِ بحسب الحاجة التي ينتج عنها هذه الدراسة، إمَّا الدراسةُ التي فيهـا توسُّـع وتُنفَـقُ فيهـا

الأموالُ فلا؛ لأنَّ هذه أموالٌ تُهدَر، إمَّا من بابِ الإطِّلاع الذي يُسمَّىٰ الترفُ العَقْلي فإن هذا يكون زائداً عن الحاجة، فدراسة الكَوَاكِب والنُّجُوم لهذه المقاصدِ: التي هي معرفةُ الحسابِ، ومعرفةُ أوقاتِ الصلواتِ أو المطالعِ لا بأس فيها، إمَّا ما عدَاها فهو عِلْمٌ لا ينفعُ، والإسلامُ ينهي أن تُضَيَّعَ الأوقاتُ، وتُضيَّعَ الأموالُ والجهدُ فيما لا ينفعُ.

ودراسةُ هذا الأمر من أجل الإطِّلاع علىٰ عظمةِ الخَلقِ، التي من خلالها يَعرِفُ الإنْسَانُ عظمةَ الخَالِق، ولا شكَّ أن هذا مقصدٌ شريفٌ وكريمٌ، دراسة الكَوَاكِب والنُّجُوم، وسيرُها ومجموعاتُها وحركاتُها لهذا المقصد، هذا المقصدُ مقصدٌ حَسَن، وحثت عليه الشريعةُ، وأمرَ اللهُ بالنظرِ في الكونِ والتفكُّر فيه، لكن هم لا يدرسُون لهذا، يدرسُون ليكتشِفوا؛ لأنَّ عندهم شكًّا في خالقِهم، وفي وجودِهم، والوجودُ كلُّ ذرةٍ فيه تُنبِئُ عن الخَالِق سبحانه وتعالى، لكن إذا عَميت البصيرةُ عمِيَ البَصرُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (ذكره حرب عنهما) هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو مُحَمَّد الكرماني الفقيه، من أجلة أصحاب الإمام أحمد، روىٰ عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وغيرهم، وله مصنفات جليلة، منها كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، وأورد فيها الأَحَادِيثُ والآثار، وأظنه روىٰ أثر قتادة وابن عيينة فيها، مات سنة ثمانين ومائتين.

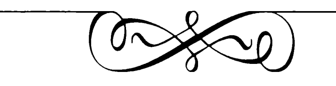
(وإسحاق): هو إبْرَاهِيم بن مخلد أبو يعقوب الحنظلي النيسابوري الإمام المَعْرُوف بابن راهويه، روىٰ عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم، قال أحمد: إسحاق عندنا أمام من أئمة المُسلِمِين، وروىٰ عنه أحمد والبخاري و مُسْلِم وأبو داود وغيرهم، وروىٰ هو أيضًا عن أحمد، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

الشَّرح

قوله: (ذكره حرب عنهما) حَربُ أحدِ تلاميذِ الإمامِ أحمد ـ رحِمهمَا الله ـ، وقد جمع مسائله في كتابٍ، وهنا يشير إلىٰ القول الذي ذكرَه عن قَتادَةَ، فإنَّ قَتادةَ كَرِهَ تعلُّمَ مَنَازِلَ القَمَرِ، ولم يُرخِص فيه، كذلك سفيان بن عيينة، وهذا اجتهاد بشريٌ، وليس الاجتهادُ البشريُ دينـًا، ينبغي أن نُميزَ بين النَّص وقول العالمِ، العالمُ قد يقعُ في ذهنِه استنباطٌ ولا يكون هذا الاستنباطُ شرعًا، إذ كم استَنبطَ الصَّحَابَةُ ﷺ واختلفوا؟ وكم استنبط التَّابِعُون واختلفوا؟ قولُ مَن منهم يكونُ شرعًا؟ وبعضُ الأَشْخَاص قد يتعجبُ إذا قلنا ليس شرعًا، نُوضِّحُ أكثر: لكن إذا تأمل قليلاً فالقضيةُ واضحةٌ، الصَّحَابَةُ ﷺ اجتهدوا في كثير من القضايا واختلفوا، فمن منهم قولُه شَرعٌ؟، مَن مِن التَّابِعِينَ قولُه شَرعٌ؟، وكم

من الخلافاتِ في الفقهِ الإسْلَامي، فالعالمُ ليس قولُه شَرعًا، لكن لو جاء العالمُ فقال قولاً وجاءَ بالدَّليل الذي يدلُّ عليه، فلا شكَّ أنَّ هذا أصبحَ شرعًا لوجودِ الدَّلِيلُ، وينبغي أن نحرص أن يكون هدفنا إتباع الدَّلِيلُ، لا يكن هدفنا إتباع العالم لقوله، لهذا يقول ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ: أن العالمَ قد يُخطئُ ويؤجرُ، فإن تابعتَه في خطئِه تقليداً أو تعصباً تأثَم، وقد يجتهدُ فيصيبُ ويكونُ له أجران، فإن تابعتَه في صوابِه تعصُّباً تأثَمُ، النِّيَّةُ لها دخل في تحقيقِ العِبَاداتِ، وليس هناك أحدٌ يُشرِّعُ غيرُ الأنْبِيَاء - صلوات الله عليهم -، إنَّمَا التشريع خَاصّ بالأنبياء، إمَّا من عدَاهم فإنَّما يقولُ بعضُهم قولاً أقربَ إلى الصوابِ من بعض بحسب عِلْمِه بالسُّنّةِ وشرحِها ومعانِيها، فهذا يكون أقربُ إلى الصواب.

قوله: (إسحاق بن راهويه) يقولون: ابن راهوية أو راهويه، يقال الصَّحِيحُ أن يقال: راهَويه، وهي تُطلقُ على الطَّريق باللغَة الفارسيةِ، ويقالُ: أنه وُلِد في الطريقِ، فنسُبَ إلى هذا الاسم، فإسحاقُ مِن شيوخ البُخَارِي و مُسْلِم، وكذلك من أندادِ الإمامِ أحمدَ، وقد رَوىٰ عن الإمامِ أحمدَ، وهو أكبرُ سناً منه ـ رحمة الله على الجميعِ ـ، فقال: هو عندنا إمامٌ، الإمامُ يُقتدَىٰ به في فهمِه، وفي اجتهاداتِه، وفي أقوالِه ما لم تُعارضُ نصاً، أمَّا إذا عارضَت النَّص فلا يُقبلُ القولُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وعن أبي موسىٰ قال: قال رَسُول الله ﷺ: (ثلاثةٌ لا يَدْخُلونَ الجَنَّة، مُدْمِنُ الخَمْر، وقَاطِعُ الرَّحِمِ، ومُصَدِّقٌ بالسحر) رواه أحمد وابن حُبّان في صَحِيحه.

هذا الحَدِيث رواه أيضًا الطبراني والحاكم، وقال: صَحِيح، وأقره الذهبي وتمام الحَدِيث: (ومن مات وهو مدمن الخَمْر سقاه الله من نهر الغوطة، نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النَّار ريح فروجهن).

الشَّرح

هذا الحَدِيث فيه ضعفٌ، وأيُ حَدِيثٌ فيه ضعفٌ لا يُستدلُّ به؛ لأنَّ قضايا الدِّين قضايا تعبُّدٍ، فكما أنَّه لا يجوزُ أن نردَّ الحَدِيث الصَّحِيحَ كذلك لا يجوز أن نتعبَّدَ اللهَ بالحديثِ الضَّعِيف، كلاهما سواءِ، ردُّ الصَّحِيحِ خطأٌ، وقبولُ الضَّعِيف خطأٌ، فالمنهجُ الصَّحِيحُ أن لا نقبل إلا ما صحَّ، والله ﷻ قد تكفلَ بحفظ هذا الدِّين، فلا تظنَّ أن هناك حَدِيثًا صحَّ عن رَسُول الله ﷺ ولا يصحُّ عند العُلَمَاءِ، بل كل حَدِيث أجمعوا علىٰ ضعفِه، ولم يُصحِّحه أحدٌ، فهذا حَدِيثلاٍ مردودٌ.

قد يقال : كيف يرويه العُلَمَاءُ؟ العُلَمَاءُ القُدماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالوا: نحن نجمعُ الأحَادِيثُ ومن يأتي بعدنا يُصفِّيها، وكان عُلَمَاء السُّنَّة لا يذكرون حَدِيثًا إلا بسنده، والسند ينكشف فيه الحَدِيث إمَّا أن يكون صَحِيحًا أو يكون ضَعِيفًا؛ لأن الإنْسَان يأته الحَدِيثُ بدون سَنَد فلا يدري هل هو صَحِيح أو ضَعِيفٌ؟،

قالوا: عندما نأتي به ونذكر السَّنَدَ وهو ضَعِيفٌ فإذا جاء الشَّخص الدارسُ ورجعَ إلىٰ الحَدِيث وعرفَ السَّنَد عرف أنَّه حَدِيث ضَعِيفٌ، لكن لو لم تُذكر الأسانيدُ لوقعَ اختلاطٌ بين الصَّحِيحُ والضعيفِ، هذا اجتهادُهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، كانوا مشغولين بالجَّمع، كان الشَّخص يسافرُ علىٰ قدميه من بغدادَ إلىٰ صنعاءَ ومن صنعاءَ إلىٰ بغداد، وإلىٰ المدينةِ، وإلىٰ مصرَ، وإلىٰ الشامِ يجمعُ الأحَادِيثَ، ما هناك فرصةٌ والعمرُ قليل قصيرٌ، فكان همُّهم الجمعُ، فهم جمعوا الأحَادِيثَ، وجزاهم الله عنا كل خير، لكن الذي يأتي بعدُ يحقِّق، فجاءت بعدَهم الأجيالَ وجمعوا ما تكلَّم العُلَمَاءُ فيه من الرُّوَاة، وبَيَّنوا كل رَاوٍ، والذي يدرسُ مناهجَ المُحَدِّثين يرىٰ عجباً. عِلْمٌ في غايةِ الجودةِ، كيف يُميزُون هذا المُحدثَ أو هذا الرَّاويَ؟، يأتي الشيخُ فلان روَىٰ عنه عشرةَ طُلَّاب، خمسةٌ منهم ثقاتٌ مشهورون، وخمسةٌ غير مَعروفين، كيف نقبلُ حَدِيثَهم؟ قالوا: نعرضُ حَدِيثهم علىٰ حَدِيث الثِّقات من زملائهم فما وافقَه قبلناه، وما لم يوافقه توقَّفنا فيه حتىٰ نجدَ هذا الحَدِيثَ من صَحَابِي آخرَ عن شيوخٍ آخرين، تدقيقٌ عجيبٌ في غايةِ الجَودة!، والذي يدرُس كتابَ الكمالِ في الضُّعفاء لابن عدي رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ هذا المنهجَ، يقول: سَبَرنا حَدِيثَه، أي: فحصنا عن حَدِيثه فلم نجد حَدِيثَه يختلفُ عن حَدِيثٍ الثِّقات، فهذا المنهجُ يقوم علىٰ أصولٍ، ليس عِلْماً اعتباطياًّ، أو عِلْمَ مَجَازفة، بل عِلْمٌ يقومُ علىٰ أصول، وهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ قد فرَّغوا أوقاتَهم في هذا العلم، حتىٰ أصبح عِلْماً مدوَّناً، فهذا الحَدِيثُ لا يصحُّ؛ لأنَّ في سَنَده ضعفاً.

قوله: (ومن مات وهو مدمن الخَمْر سقاه الله من نهر الغوطة)[1] هذا تكملةُ الحَدِيثِ، ومعروف أن الحاكِمَ رَحِمَهُ اللَّهُ من المُتساهِلين في التَّصحِيح، لهذا العُلَمَاءُ لا يأخذونَ بتصحِيحِه، والذَّهبيُ رَحِمَهُ اللَّهُ في كثير من المواطنِ تعقَّب فيها الحاكمَ لكن أقرَّه علىٰ بعض ما فيها من ضعفٍ، ولهذا لا يُوثَقُ بتصحيحهما إلا بعد المُراجعة من أهلِ العلم، ليس كلُّ النَّاس يراجعون، إنَّمَا أهلُ العلمِ يراجعون الأحَادِيثَ من خلال دراسة الرُّوَاة، ما من رَاوٍ إلا وقد ذكرَ العُلَمَاء فيه هل هو ثقةٌ، هل هو عدلٌ، هل هو ضابطٌ، فمن خلال ما ذكر العُلَمَاءُ يَتبين دَرَجة السَّنَدِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (١٩٥٦٩)، (٣٢/ ٣٤٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب الأشربة، برقم: (٧٣١٤)، (٤/ ٢٥٦)، وابن حُبّان في صَحِيحه، كتاب الأشربة، ذكر البيان بأن الله يسقي مدمن الخَمْر من نهر الغوطة في النَّار، برقم: (٥٣٤٦)، (١٢/ ١٦٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (عن أبي موسىٰ)، هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة وتشديد الضاد المعجمة، أبو موسىٰ الأشعري صَحَابِي جليل، استعمله النَّبِي ﷺ وأمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين، مات سنة خمسين.

قوله: (ثلاثة لا يدخلون الجَنَّة) هذا من نصوص الوعيد التي كره السَّلَف تأويلها، وقالوا: أمروها كما جاءت، وإن كان صاحبها لا ينتقل عن الملة عندهم، وكان المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلىٰ هذا القول. وقالت طائفة: هو علىٰ ظاهره فلا يدخل الجَنَّة أصلاً مدمن الخَمْر ونحوه، ويكون هذا مخصصاً لعموم الأحَادِيثُ الدالة علىٰ خروج الموحدين من النَّار، ودخولهم الجَنَّة، وحمله أكثر الشراح علىٰ من فعل ذلك مستحلاً، أو علىٰ معنىٰ أنهم لا يدخلون الجَنَّة إلا بعد العذاب، أن لم يتوبوا والله أعلم.

الشَّرح

إذا جاء النَّص ضَعِيفًا لا يُحتاجُ أن يُدرسَ تَخريجُه، لكنَّ العُلَمَاءَ لهم مواقفُ فيما جاء في عقابِ العاصي بعدمِ دخولِه الجَنَّة، كما ذكر الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بعض العُلَمَاء لا يفسِّرها، يقول: أَمِرُّوها كما جاءت، لكن لا يرضىٰ أصحابُ المنهجِ الكلامي عنَّا بهذا الموقفِ يقولون: هذا الكلام لغةٌ عَرَبِيةٌ فصيحةٌ، وأنتم تقولون: أنَّه ما من آيةٍ أو حَدِيثٍ إلا ولها معنىٰ، فكيف تَمرُّ كما جاءت؟، هل هذا الكلامُ يخاطَب به النَّبِيُ ﷺ وأمتُه ليفهمُوه، أم ليمرِّرُوه؟، فلابد من أن يكون لها معنىٰ، فنقول:

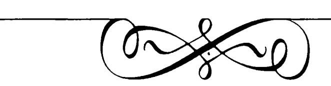
أولاً: الأحَادِيثُ لا تصحُّ، فإن صحَّ الحَدِيثُ في مسألةٍ أخرىٰ يُنظرُ فيه بمفردِه، وما من حَدِيثٍ فيه مثلُ هذا القول إلا وفيه بيانٌ من العُلَمَاء؛ لأنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ أنَّ من ماتَ علىٰ كبيرة من غير توبةٍ مُتوعَّدٌ بدخولِ النَّار، ليس شرطاً أن يدخلَ، لكن لَابُدَّ أن يدخلَ أناسٌ من عُصاة الأممِ في النَّار، ثم يخرجون منها بالشَّفاعةِ، و هذا الحَدِيثُ الذي يقول فيه: (أنهم لا يدخلُون الجَنَّة) نفيٌ صريحٌ بعدم دخولِهم الجَنَّةِ، فهل من ارتكبَ المَعْصِيَة يكون كافراً؟ هكذا قال الخَوَارِج، وهكذا حكمُهم في الآخِرَة وعند المُعْتَزِلَة، يقولون: من دخل النَّار لا يخرج منها، وليس هناك من يخرجُ من النَّار، هذا مذهب المُعْتَزِلَة والخَوارج، وأهلُ السُّنَّةُ يقولون: ثبتَ عندنا من السُّنَّة الصَّحِيحَةِ أنَّ هناك من يخرجُ من النَّار، بأحاديث كَثِيْرَة في الشَّفاعة، وفي عُصاة المُوحِّدين، يشفع الأنبياء والمؤمنون وتشفع المَلَائِكَة، ثم يُخرِجُ الله من النَّارِ من في قلبه مثقالُ ذرةٍ أو مثقالُ حُبّةٍ من خيرٍ، وفي بعضِ الأحَادِيثِ من لم يعمل خيراً قَط، لكن عنده في قلبِه إِيمَان، وإلا لا يستحقُّ الخروج؛ لأنَّ من كان عنده إِيمَان وتصديق لكن ارتكب معاصيَ كَثِيْرَة ولم يعمل خيراً، هذا يخرُج من النَّار برحمة الله ﷻ، ثم بشَفاعةِ الشَّافِعِين، فهذه الأحَادِيثُ التي فيها هذا الكلامُ أولاً ننظر في سَنَدها، هذا الحَدِيثُ آنفُ الذِّكرِ لم يَصِحْ.

وهناك بعض النَّصوصِ جاءت بالحكمِ علىٰ من فعل كبيرةً بدخولِ النَّار، منها في الرِّبا كما قال - تَعَالَى -: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩]، فذكر ﷻ أنَّ آكل الرِّبا إن عادَ فإنَّه من أصحابِ النَّار، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾، فالعلماءُ عند هذه الآيةِ اختلفوا في التَّخريج، قال- تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٥] أنتهىٰ من ماذا؟ قالوا: عندنا قضيتان: تَابَ مِن

قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ لأنَّ قولَ (إنَّما البيعُ مثل الربا) كُفْر يَردُّ علىٰ الله؛ لأنَّ الله يُفرِّقُ بينهما، وهذا القول لا يُفرِّقُ، فمن قال: البيعُ مثل الربا ولو لم يأكل الرِّبا فهذا كافرٌ؛ لأنَّه ضادَّ اللهَ في حُكمِه، لكن القضية الأخرَىٰ: لو وقعَ في الرِّبا وهو يعلمُ أنَّه حرامٌ، فهذا مرتكبٌ للكبيرةِ، فهناك فرقٌ بينهما، فهل في قوله تَعالَىٰ: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ هل هو يعودُ في قولِه أو في أكل الربا؟ فقال العُلَماء: الظاهر أنه يعودُ في الثِنتَين، أي: يقولُ البيع مثل الرِّبا ، ويأكل الرِّبا؛ لأنَّ هذا حكم بالتخليدِ لا يكونُ إلا علىٰ أمرٍ فيه كُفْر، فالسلف بيَّنوا وخرَّجُوا من هذه الآية.

جاءت الآية الثانية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣]. ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرىٰ أن القاتلَ ليس له توبةٌ، وإن كان بعض العُلَماءِ يذكرُ أنه رَجعَ، لكن الآية لم تذكر أنَّه يدخلُ النَّار، إنَّما ذكرت أنه يستحقُّ النَّارَ، هل سيعاقبُه الله أو لا يعاقبه؟ هذا إلىٰ مشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الأصل في المَعاصِي كما قال -تعالىٰ- : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. فعلَّق المغفرةَ بمشيئته فيما عدا الشِّرك، هذه هي القاعدةُ، والنصوصُ تُجمَعُ، ويُؤخذُ منها الحكمُ الشَّرعي العام، فهذه قاعدةٌ مُحكمةٌ عند جميع الطوائف ما عدا المُعْتزِلَة والخوارج،(إن الله يغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، هم يقولون: الآية صَحِيحةٌ، والله قد شاءَ أن لا يغفرَ لهم، بدليل أنه جاءت الآياتُ والأحاديث أنَّهم يدخلون النَّار، ومن يدخل النَّار لا يخرج منها. لكن هذا في الحَقِيقَة قول مردود، فما لم يصح من هذه النَّصوص لا إشكال فيه؛ لأنه ما صح أصلاً، إنَّمَا الإشكالُ في الحَدِيث الذي يصحُ ويخالف القاعدةَ العامة التي تكون عند السَّلَف.

بعض العُلَمَاءِ يقول: أنَّ هذه الأحَادِيثُ المرادُ بها التخويفُ، وهـذا قـولٌ خطيرٌ؛ لأن معنىٰ ذلك أن الكلامَ لـيس صَحِيحاً، ولكـن حتىٰ يُخوَّفَ، كما يُخوفُ الإنْسَانُ ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ ابنَـه الصغيرِ مـن شيء لا يقـعُ فيـه بشـيء لـيس موجـوداً، مـثلاً يقـول: إذا خرجـتَ الحرامـي يأخـذك ، الحرامـي لـيس موجوداً عنـد البـاب، لكـن حتىٰ لا يخـرج مـن البـابِ، والأبُ في هـذا كـاذبٌ. هكذا كلامُ الشَّارِع!، هذا كلامٌ خطير جداً، نقول: ما من نص إلا وهو مرادٌ فإمَّا أن نفهمَ معناه فنقول به، وإمَّا أن نتوقفَ فيه، وإن كـان بعضُ العُلَمَاء يقـول: أنَّ أيَّ كبيرةٍ من الكبائرِ تـدلُّ النَّصـوصُ علىٰ دخـول صـاحبها النَّـار نستثنىٰ هـذه الكبيـرة بـالنصِّ مـن سـائر المَعَاصِـي، هـذا القـول لـبعض العُلَمَـاءِ، لكـن أكثـر العُلَمَاء قالوا: ما هناك ذنـب مـن الـذنوب يستحق صـاحبُه الخلـود إلا الشِّـرك، وما عداه فإنَّه إلىٰ رحمة الله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (مدمن الخَمْر) أي المداوم على شربها.

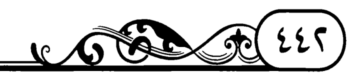
قوله: (وقاطع الرحم) أي القرابة، كما قال - تَعَالَى -: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [مُحَمَّد:٢٢، ٢٣].

الشَّرح

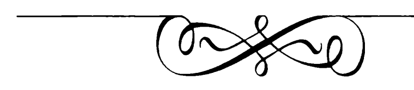
لا يعني عدمُ صحة الحَدِيث أنَّ شاربَ الخَمْر وقاطعُ الرحم والمصدِّق بالِّسحر لا يستحقون العذابَ، إنَّمَا نقول: المَنفِيُ هنا عدمُ دخول الجَنَّة؛ لأنَّ شاربَ الخَمْر، وقعت قصة في عهد النَّبي ﷺ أن رجلاً يلقَّب بِحمَّار، اسمه عبد الله، شرِب الخَمْرَ مرَّةً وجيء به إلىٰ النَّبي ﷺ، وضُرب الحدَّ، وشربَ أخرىٰ، وجيءَ به وضُرب الحدَّ، وشربَ ثالثةً، فجيءَ به وضُرب الحدَّ، وهذا شارب خمر، هذا مدمنٌ في الظاهر، فقال أحدُ الصَّحابَة: لعنَه الله، ما أكثر ما يُؤتىٰ به، فقال النَّبي ﷺ: (لا تلعنه، ما عِلْمت إلا أنه يُحِبُّ الله ورسوله)[1]، فليس كل من يقع في المَعْصِيَة يكون عدواً لله، ولهذا يقول ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الإِنْسَان قد يعمل الخطأ، بل قد يقعُ في البِدْعَة، وهو عند الله صدِّيق، يقول بعض النَّاس: كيف يكون المبتدِعُ صديقاً؟ قال: لأنه ليس من شرط الصِدِّيق أن لا يُخطِئ، هذا هو التحليلُ الجميل، يقول: ليس من شرطِ الصدِّيق أن لا يُخطئ، وقد يقع في البِدع، فقال: يثابُ علىٰ حَسَن قصدِه، لكنَّه قد يُغفرُ له فعلُه

---

(١) سبق تخريجه.



لجهلِه، أو قد يعاقَب في فعلِه هذا، أو قد يعفو الله عنه، في غمرة حَسَناته الكثيرة، فهذا حاطبُ بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الصَّحَابِي الجليلُ بعث بخطابٍ يُخبر قُريشًا عن نية النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،وهذا أمرٌ عظيمٌ جداً، لكنه من أهل بدر عنده رصيد كبير جداً عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا مغمورٌ في حَسَناته. فينبغي للإنسان أن يكون عنده نظرةٌ منصفةٌ ومتعقِّلةٌ حتىٰ لا يقع في الحرجِ الذي يقع فيه بعضُ النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ومصدق بالسحر) مطلقًا ويدخل فيه التَّنْجِيْم لحديث: "من اقتبس عِلْمًا من النُّجُوم اقتبس عِلمًا من السحر" وهذا وجه مطابقة الحَدِيث للباب.

قال الذهبي في الكبائر: ويدخل فيه تعلم السيمياء وعملها، وهو محض السحر، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة، قال: وكثير من الكبائر بل عَامّتها إلا الأقل يجهل خلق من الأُمَّة تحريمها، وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد عليه، فهذا الضرب فيهم تفصيل، فينبغي للعالم أن لا يجهل على الجاهل، بل يرفق به ويعلمه سيما إذا قرب عهده بجهله، كمن أسر وجلب إلى أرض الإسْلَام وهو تركي، فبالجهد أن يتلفظ بالشهادتين، فلا يأثم أحد إلا بعد العلم بحاله وقيام الحُجَّة عليه.

الشَّرح

قوله ﷺ: (من اقتبس عِلْمًا من النُّجُوم ..)[١] تقدَّم هذا الحَدِيث وصحح الشَّارِحُ سَنَدَه، وفي الحَقِيقَة لا ينقص عن دَرَجة الحَسن، أي: يُستشهدُ به، أو يُستأنسُ به.

قوله: (قال الذهبي في الكبائر) الذهبيُ له كتابان بعنوان: (الكبائر)، وكتابُه مملوءٌ بالأحاديثِ الصَّحِيحة والضعيفةِ والموضوعةِ، وهو كتابٌ مطبوع، ثم عندما رأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الكتاب مملوء بهذه الأحَادِيثُ اختصره في ثلثِ الكتاب، وحذف أكثر الأحَادِيثُ الضَّعِيفُة، وأبقى ما صحَّ فيه، فكلامُه هذا ليس في الكتاب الكبير، إنَّمَا في الكتاب الصغير، لم أقف على الكتاب الصغير، لكن

---

(١) سبق تخريجه.

ذكره بعضُ العُلَمَاء، وأنَّ هذا القولَ ذكره في كتابه الكبائرِ الصغير، فالذهبي رَحِمَهُ اللهُ له كلامٌ جميلٌ في كتابه (سير أعلام النبلاء)، في تراجم العُلَمَاءِ، دائماً يعتذرُ للعلماءِ إذا أخطئوا، ويوجه العُلَمَاء إلىٰ الرفق واللين، فهذا من توجيهاته رَحِمَهُ اللهُ، يقول ينبغي علىٰ العالِم أن لا يجهلَ علىٰ الجاهل إذا جهلَ، فضرب مثالاً بتركي، ويبدو أن الأتراكَ لم يكونوا كلهم مُسْلِمين في عصره، كان يُؤتىٰ ببعضهم قال: مثلُ التركي الذي يُؤتىٰ به من البادية، ويُعلَّم فينبغي أن يُترفَّق به، وهكذا كُل إنسَان جاهل لا يعرفُ أحكام الدِّين ينبغي أن يُترفقَّ به؛ لأنه ليس كل النَّاس يعلمونَ الأحكامَ الشَّرْعِيَّة، فينبغي أن يَترفَقَ العالمُ بالجاهلِ حتىٰ يتعلَّم، مثل الطبيبِ الذي يعالج الأجسادَ يترفقُ بالمريضِ، وأهلُ العلمِ، وطلبةُ العلمِ أولىٰ بالتَّرفُّقِ بالجهلةِ والذين يُخطئون، واللينِ، والرحمةِ، وتَلمُّس الأعذارِ لأخيك المُسْلِم، هذه كلها أخلاقٌ حَسَنة، ولهذا جاء في الحَدِيث: (من لا يرحَم لا يُرحم)[1]، فأنت تعاملُ النَّاس بالرحمةِ، فإذا رأيت أخاك عملَ عمِلا مُخطئاً، أو ارتكب عملاً مُبتَدِعَاً، تترفقُ به في الردِّ عليه.

وابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ اللهُ له كلامٌ جميل جداً في أكثر من موضعٍ، في كتابِ (اقتداء الصراط المستقيم)، وفي كتاب (الجهاد)، وفي كتاب (البَغي وأحكامُ البُغاة)، وهو يتحدثُ عن الإعذار، وتلمُّس العذر للنَّاس، ويقول الإنْسَان قد يجتهد ولا ينفتحُ له وجهُ الصواب، والله قد وعدَه بالأجرِ إذا أخطأ، فينبغي لك أن لا تُؤثِّمه، بل ترفُقُ به، وتناقشُه بلطفٍ لَعَلَّ الله يفتحُ له فيرىٰ الحَقّ، بل ربما تكونُ أنت المُخطئ، ثم تكلَّم علىٰ أهلِ السُّنَّة، وقال: بعض المُتبعين للسُّنَّةِ ينهَون

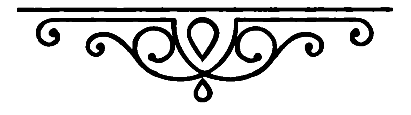
---

(١) سبق تخريجه.

النَّاسَ عن فعل مَشوبٍ بسنَّةٍ وبِدعةٍ، ويكونون هم من أكثر النَّاس تَفريطًا في السُّنَّة، وسلوكُهم لا يدعو النَّاس إلىٰ العملِ الطيبِ، ويقول: أنت تدعوهم إلىٰ ترك السُّنَّة والبِدعة، ولا تُقدِّم لهم السُّنَّةَ، لا من عملِك ولا من قولِك، وقال: النَّاس يحتاجون إلىٰ أن يُترِكُوا شيئًا فشيئًا، فإذا منعتَهم عن البِدْعَة فأخبرهم بالسُّنَّةِ، ويتكلَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التمييزِ بين المُنْكَراتِ وبين الأعمالِ التي يكون الإنْسَانُ مُضطراً إليها، كيف يُميِّز بينهما، وكيف يختارُ، وعن الأزمنةِ والأمكنةِ كيف قد يكون فيها الجهلُ متفشيًا في مَكَان دون مَكَان، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الهَجرِ، قال: الهجرُ لأُناسٍ دون أُناسٍ، وفي مَكَان دون مَكَان، وفي زمانٍ دون زمانٍ، وقال: الهجرُ وسيلةٌ تأديبيةٌ، فإذا عرفت أنَّها ستؤدي ثمارها فلا بأس، وإذا عرفت أنَّ هذا الهجر إنَّمَا سيؤدي إلىٰ ثمار عكسية لا تهجُر، فهكذا العالمُ وطالبُ العلمِ يكون له نظراتٌ في مواقفِه.

قوله: **(تعلم السيمياء)** السِيمياء في الماضي كان مثل الكيمياء اليوم، يزعمون أنَّهم يقَلُبون النَّحاس أو الحديدَ إلىٰ ذهب، أو إلىٰ موادٍ أخرىٰ كأحجار كريمةٍ، أحجارٍ غالية، قال: هذا عملٌ بَاطِلٌ مثلُ السحرِ، هذا في الماضي يُسمُّونه السيمياءَ، وفي الحاضر يسمونه الكيمياء، فكان في الماضي يأتون إلىٰ بعض المعادن فثيدهن بمادة نحاسية فيُرىٰ أنَّه ذَهبٌ، والآن يسمُّونه (الفالصو)، فكانوا يخدَعون النَّاس ويسمُّونه ذهبًا؛ لأن عندهم القدرةَ علىٰ أن يأتوا بهذا الدِّهان دِهانِ الحديد، ويصبح مثلَ الذَّهبِ، فبعض الأَشْخَاصِ يظنه ذهباً من شكله؛ لأنَّه لا يعرف، لكن المتخصصُ في الذهب يُؤتَىٰ به إليه فيرميه، يقول: هذا " فَالصُو"، كيف عَرفَ؟؛ لأنَّ عنده حاسةٌ في معرفة الذهبِ من غيره، مثلُ المُحَدِّثِين، تأتي بحديث ضَعِيفٌ يردُّه، قد لا يعرف العلَّة مُباشرةً، لكن حاسةُ العلمِ عندَه قويةٌ، هذا في الماضي يُسمىٰ السِيميا،

فهنا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: هو محضُ السِّحر، وفي الحَقِيقَة هو ليس بسحر؛ لأن السيميا في الماضي نوع من الطِلاء، يَطلُون بعض المعادنَ بطرقٍ مُعينةٍ، فالناس يظنون أنَّ هؤلاء سَحرةٌ يُدخِلُون البابَ عندهم حديداً ويخرجونه ذهباً، فيقول: هذا ساحر، لكن أنكشف سرُّ السِيميا وأصبحت عمليةَ مكشوفةَ.





باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

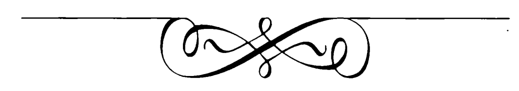
أي: من الوعيد، والمراد نسبة السقيا ومجيء المطر إلىٰ الأنواء، جمع نوء وهي مَنَازِل القَمَر.



قوله: (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء) هذا الباب شبيه بالبابِ الماضي، وهو يتعلَّقُ بالنُّجُومِ، لكن هنا هو اعتقادٌ أنَّ المطرَ ينزلُ بسببِ النُّجُومِ، وسواءٌ اعتقد أنَّها هي الفاعلة، أو اعتقد أنَّها عَلامةٌ، كلاهما مَردُودان، لكن الأول كُفْر بالإجماع، والثاني فيه خلافٌ، فإن الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ أنه لا بأس به إذا الشَّخص اعتقد أن هذه عَلَامَات، لكن العُلَمَاءَ قالوا: الحَدِيثُ ليس فيه أنَّ النَّوءَ هو الذي يُنزِّلُ المطرَ، ولكن فيه النَّهيُ عن قولِه: مُطِرنَا بِنوءِ كذا، فجعلَه سببًا، فهذا سمَّاه النَّبِيُ ﷺ كُفْراً، و في الحَدِيث القُدسي أنَّ الله جعلَه كُفْراً، فلا ينبغي للمُسْلِم أن يعتقد أن النُّجُومَ لها علاقةٌ أو دورٌ في أنزال المطر، ولا في الحَيَاة ولا في المَوْت، ولا في السعادةِ ولا في الشَّقاوةِ، ليس لها علاقةٌ أبداً، وليست عَلَامَات؛ لأنَّ العلامَةَ لا تَعرفُ أنَّها علامةٌ إلا إذا أخبرك صاحبُها، والخالِقُ عَجَّلَ أخبرنا أنَّها ليست علامةً، وجَعلَها سببًا للكُفرٌ، فينبغي

أن نقول: هذا كُفْر، لكن هل هو كُفْر مُخرجٌ من المِلَّة أم لا؟ هذا تحقيقٌ آخر، لكن لا ينبغي لنا أن نقول :ليس كُفْراً؛ لأنَّ الحَدِيث قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)[1] وسيأتي حَدِيث زيد بن خالد.

قلنا أن المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ منهجه في العناوين أنه أحياناً يذكرُ الحكمَ في العنوانِ، وأحياناً لا يَذكرُ الحكمَ، يتركُه للقارِئ، فيأتي بالأدلَّة فقط، ولكن لا يَترُكُ الحُكمَ إلا لَعَلَّةٍ، إمَّا أن يكون هناك خلافٌ في بعض مسائله الدَّقيقةِ، وإطلاقُ التكفيرِ العام يؤدي إلىٰ إشكالٍ، وإمَّا أن يكون هناك خلاف قويٌّ، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يسوقُ العُنوان بدون حُكمٍ، هنا يقول: بابُ ما جاءَ في الاستسقاء بالأنواء، فلم يحكم علىٰ من فعل ذلك أو قال ذلك بالكفرِ، وإنما تركه ليعطي القارئ الأدلَّة حتىٰ يستنبط الحكمَ بعد ذلك، وقلنا هذا هو مَنْهَج عِلْمي، العُلَمَاء يقولون: لا ينبغي أن يُصادَر الحكمُ، أي: من البداية، مثلاً تقول: كتاب وجوبُ ركعتي الفجرِ، فأنت حكمت من البداية، فلا يترقبُ القارئُ منك شيئاً؛ لأنَّك لا تُحقِّق المسألةَ، فينبغىٰ أن تقول: كتابُ بيانِ حكمِ ركعتي الفجرِ، فأنت ما أعطيته الحكمَ؛ لأنَّك ستحققُ وستجعلُه سيشاركك في أخذِ الحُكمِ، وهذا هو من أجمل أنواعِ التصنيفِ.



---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال أبو السعادات: وهي ثمانية وعشرون منزلة، ينزل القَمَر كل ليلة منزلة منها، ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩]، يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرىٰ مقابلتها ذلك الوقت في الشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العَرَبُ تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إليها، فيقولون: مطرنا بنوء كذا، وإنما سمي نوءاً؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق، ينوء نوءاً أي نهض وطلع.

قال: وقول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

روىٰ الإمام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة، عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة:٨٢] يقول: شكركم أنكم تكذبون، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا، وهذا أولىٰ ما فسرت به الآية. وروي ذلك عن علي وابن عَبَّاسٍ وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المُفَسِّرِين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية علىٰ الترجمة.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أن العَرَب كانت عندهم اعتقاداتِ بالنُّجُومِ، فالعربُ في الماضي كانوا مُزارعين ورُعاةَ أغنامٍ، وكانوا يُراقبون النُّجُوم والكواكب، ويعرفون حركاتِها، وأشكالَها، فكانوا يرون بعض الكَوَاكِب تطلع في وقتٍ مُعينٍ وتغربُ في وقت معين، فهم يزعمون أنَّ هذه النُّجُوم لها تأثير في حَيَاة النَّاس، ويربطون بين الأحداث وهذه الكَوَاكِب، فقال: هذا من أعمال

الجَاهِلِيَّة، وجاء الإِسْلَامُ بالنهي عنها.

قول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢]، وقبل هذه الآية: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨١، ٨٢]. هنا الشَّارِحُ أورد حَدِيثـًا عن علي ﵁، وهو مرفوعٌ إلىٰ رَسُول الله ﷺ، فسر هذه الآية بقوله: أي: شكرَكم أنَّكم تُكذِّبون، قال الطبري ﵀: وردَ عن بعض عُلَمَاء الَّلغَة أن بعض القبائل مثل الأزدِ يُطلقون الشكرَ علىٰ الرزقِ، فيقولون: ما رَزَقَ فلانٌ، أي: ما شكرَ فُلانٌ، فإن صحَّت هذه اللفظة في لغة العَرَبُ فُسِّرت الآيةُ بها.

أما الحَدِيث فإنه لا يصحُ، الحَدِيث فيه عبد الأعلىٰ بن عَامِّر الثعلبي، وهو ضَعِيفٌ، فنسبةُ الحَدِيث إلىٰ رَسُول الله ﷺ لا تصح، فتفسيرُ الآية ينبغي أن يعتمد إمَّا علىٰ ما ذكرَه الصَّحَابَةُ أو ما وردَ في الَّلغَة العَرَبِيَّة، فهنا العُلَمَاء اختلفوا في معنىٰ هذه الآية علىٰ قولين، القول الأول: الرزقُ هنا: الشُّكر، ومعنىٰ الآية: هل يليقُ بكم أن تجعلوا مقابلَ نعمَ الله عليكم أنَّكم تقابلون النِّعم بعدمِ الشكر، أنَّكم تُكذبون، فتجعلون شكركَم هو التكذيبُ، أي: لا تجعلون مكافئة النِّعمِ هي الشكر، بل تجعلونها التكذيبَ، القول الثاني: الرزق علىٰ أصلِه، أي: تجعلون رزقكم أي نصيبَكم، فمعنىٰ الآية: كأنَّكم تقولون: أنَّ الله قسَّم الأرزاقَ فجعلَ نصيبَنا التكذيب، ونصيبَكم أيها المُؤمِنون الإِيمَان.

وتخريج الآية علىٰ هذا المَعْنَىٰ الثاني واضحٌ، أي: أنتم جعلتم رزقكم أي نصيبَكم في حياتِكم هو التكذيبُ، وهذا إنكار عليهم، وهذا المَعْنَىٰ واضحٌ، أمَّا تفسيرُ الآية بالحديثِ فالحديثُ ما صحَّ، لو صح الحَدِيثُ وَقفنا عنده؛ لأن النَّبي ﷺ أعلم الأُمَّة بكلامِ الله ﷻ، فإذا لم يصح بقيتُ القضيةُ اجتهاداً في معنىٰ النَّص.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ف المَعْنَىٰ علىٰ هذا: وتجعلون شكرَكم لله علىٰ ما أنزل إليكم من الغيث والمطرِ والرحمةِ أنكم تُكذِّبون أي: تنسبُونه إلىٰ غيره، وقال ابنُ القَيِّمِ: أي تجعلون حظَّكم من هذا الرزقِ الذي به حياتُكم التكذيبَ به. أي: القُرْآن . قال الحسن: تجعلون حظَّكم ونصيبكم من القُرْآن أَنَّكم تُكَذِّبُون، قال: وخسرَ عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيبَ به. قلت: والآية تشملُ المعنيين.

قال: عن أبي مالك الأشعري: أن رَسُول الله ﷺ قال: (أَربعٌ في أُمَّتِي مِنْ أمرِ الجَاهِلِيَّة لا يتركُونَهُنَّ، الفخرُ في الأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاءُ بالنُّجُومِ، والنياحةُ، وقال: النائحةُ أن لم تَتُبْ قبلَ مَوتِها تُقَامُ يَومَ القِيَامَة وعلَيها سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ منْ جَرَبٍ) رواه مُسْلِم.

ش: قوله: (عن أبي مالك الأشعري) اسمه الحارث بن الحارث الشامي صَحَابِي تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفي الصَّحَابَةُ أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا جزم به الحافظ.

قوله: (أربع في أمتي من أمر الجَاهِلِيَّة لا يتركونهن) أي: من أفعال أهلها بمعنىٰ أَنَّها معاصٍ ستفعلُها هذه الأُمَّة، إمَّا مع العلمِ بتحريمها وإما مع الجهلِ بذلك، كما كان أهلُ الجَاهِلِيَّة يفعلونها، والمرادُ بالجاهلية هنا ما قبل المَبعث، سُمُّوا بذلك لفرط جهلِهم، وكلُّ ما يخالفُ ما جاءت به الأنبيَاء والمرسلون فهو جاهليةٌ منسوبةٌ إلىٰ الجاهلِ، فإنَّ ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنَّمَا أحدثه لهم جاهلٌ، وإنَّما يفعلُه جاهلٌ.

الشَّرح

كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ، أوضح المسألة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والآية تشمل المعنيين)** فلا حرج، أي: قد يذكر العُلَمَاء معنيين لآية من الآيات ويكون السياق يشملُهما ويحتملُهما، فلا حرج بذلك إن شاء الله.

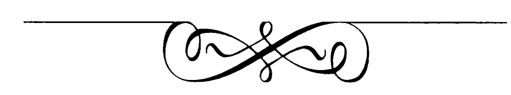
قوله ﷺ: **(أربع في أمتي من أمر الجَاهِلِيَّة لا يتركونهن)**[1] هذا الحَدِيثُ يدلُّ على أن الإنْسَان قد يكون فيه بعضُ صفاتِ الكُفْر، أو بعضُ أعمالِ الكُفْر ولا يكون كافراً؛ لأنَّ أعمال الجَاهِلِيَّة أعمالُ كافرٍ، فقد يقع من الإنْسَان عملٌ من أعمالِ الكُفَّار ولا يكفُر، وقد يفعل الكافرُ فعلاً من أفعال المُسْلِمين ولا يكون مُسْلِماً، ولهذا قال أهل السُّنَّة: أنه يجتمعُ في المُسْلِم الخطيئةُ والحسنةُ، والإيمان والنِّفاق العملِي، قد يكون مؤمناً ولكن فيه صفةٌ من صفات المُنافقين، فهذه الصفة لا تخرجُه عن إِيمَانه، وإنَّما تنقُص الإِيمَان لكن لا تُبطلُه.

فالنبي ﷺ يذكرُ من أخلاقِ الجَاهِلِيَّة هذه الأخلاقَ الثلاثَةَ: الفخرَ بالأحسابِ، والطعنَ في الأنسابِ، والنياحةَ، قال: هذه من أعمال الجَاهِلِيَّة في أمتي لا يتركونهن، وفعلاً لا نكاد نرى جيلاً يخلو من هذه المعايبِ الثلاثة، منها الاستسقاء بالنُّجُومِ، هذه الأفعال يفعلها الإنْسَان ولا تخرجه عن الإِيمَان

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النِّيَاحَةُ، برقم: (٩٣٤)، (٢/ ٦٤٤).

كما سيأتي في قصة أبي ذر ﵁ أن النَّبِي ﷺ قال له: (**إنك امرؤ فيك جاهلية**)[١] وفي بعض الروايات: (**أنه قال: على كبر سني يا رَسُول الله؟ قال: نعم**)[٢] فالإنسانُ قد يكون فيه بعضُ أفعالِ الجَاهِلِيَّة لكن لا نُسمِّيه جاهلياً، وقد يكون بعض الأَشْخَاص فيه بِدْعَة، ولا نسميه مُبتَدِعًا، وقد يكون بعض الإنْسَان فيه كُفْر ولا نُكَفِّره، وهكذا، هذه قاعدة عند السَّلَف أن وجودَ الفعل في الإنْسَان لا يعطيه حكمَه إذا كان جزئياً، أمَّا إذا غلب عليه وأصبحَ الأكثرَ فعندئذ يُسمَّىٰ بذلك الوصف.



---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه بمعناه، كتاب الإيمَان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه مما يغلبه، برقم: (١٦٦١)، (٣/ ١٢٨٢).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال شيخ الإِسْلَام: أخبر أن بعض أمر الجَاهِلِيَّة لا يتركه النَّاس كلهم، ذماً لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجَاهِلِيَّة وفعلهم فهو مذموم في دين الإِسْلَام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المُنْكَرات إلىٰ الجَاهِلِيَّة ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلىٰ الجَاهِلِيَّة خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]. فإن في ذلك ذماً للتبرج، وذماً لحال الجَاهِلِيَّة الأولىٰ، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

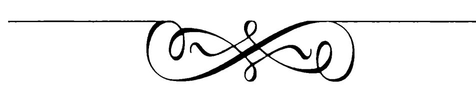
الشَّرح

الآية الكريمة تتحدث عن الجَاهِلِيَّة الأُولىٰ، وعن تبرجها، والتبرج هو: خروجُ المَرْأَة مُظهرةً لزينتِها، وهذا هو أساسُ البلاءِ علىٰ مدارِ التاريخ، ما خرجت المَرْأَة بهذه الصورة إلا وأفسدَت المُجْتَمَع، وقد جاء في الحَدِيث: (إنما أخشىٰ عليكم الدُّنْيَا والنساء)[١] وكذلك كانت بنو إسرائيل، معنىٰ الحَدِيث: كانت مشكلتُهم في النِّسَاء، المَرْأَةُ دورُها في بيتها، وهي تُقدِّمُ أعظمَ دورٍ، وهو تربيةُ الفرد، تربيةُ الطفلِ، أغلىٰ ما في الأَرْض وفي هذا الكونِ هو الإِنْسَان، الأمُّ تقوم بأغلىٰ وأفضلَ وأعظمِ دَورٍ، فنُخرجُها لتنسج، نُخرجُها لتطبخ، ولتكون سكرتيرةً، نُخرجُها لتخيطِ الملابس، وإخراجُها يؤدي إلىٰ احتكاكها بالرِّجال، والاحتكاكُ يؤدي إلىٰ الجريمة، والذي يدرُسَ واقعَ الغرب يرىٰ عجباً، ملايين الحالات من اغتصاب، ملايين الحالاتِ من

---

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، بلفظ: "فاتقوا الدُّنْيَا واتقوا النِّسَاء"، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجَنَّة الفقراء وأكثر أهل النَّار النِّسَاء وبيان الفتنة بالنساء، برقم: (٢٧٤٢)، (٤/ ٢٠٩٨).

الشُّذوذِ، ملايينُ الأطفالِ ليس لهم آباء، والفاحشةُ مَبذولةٌ، والمؤسساتُ التي تخيطُ ملابسَها وتظهر في كل فترة موضة جديدة للأزياء تُغري الرجال، وتؤدي إلىٰ الفاحِشةِ، والإنسانُ أعظمُ غريزةٍ فيه غريزةُ الجنس، ميلُه للنساء، فإذا وُجِدت الأسبابُ أدىٰ ذلك إلىٰ الجرائمِ التي تُدَّمرُ المُجْتَمَع، فالله ﷻ يربينا بهذه الآيةِ وبغيرها: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، خطابٌ جميلٌ وتحذيرٌ شديدٌ للمُسْلِمات، ولأمهاتٍ المُؤمِنين، أن لا يتبرجن تبرجَ الجَاهِلِيَّة الأولىٰ، فكان بالإمكان أن ينهَىٰ عن التَّبرُّجِ، لكن إضافتُه إلىٰ الجَاهِلِيَّة فيها بيانٌ لانحطاطِه؛ لأن الجَاهِلِيَّة كانوا في أخلاقِهم واعتقاداتِهم، وأعمالِهم في الدركات السُّفلىٰ، فهل يليقُ بمن أكرمَه الله بالإسلام وبالإيمانِ أن يعودَ إلىٰ ما كانت عليه الجَاهِلِيَّةُ الأُولىٰ؟، لكن يُوجَدُ من يُزَينُ للبشريةِ هذه الأخلاقَ الذَّميمةَ، ويدفعُها ويُوسِّع دائرتَها بقصدِ إفسادِ البشريةِ، وتدمِيرها.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (الفخرُ بالأحساب) أي: التشرفُ بالآباء، والتعاظم بمناقِبهم ومآثرِهم وفضائلِهم، وذلك جهلٌ عظيمٌ، إذ لا شرفَ إلا بالتقوىٰ، كما قال - تَعَالَى -: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [سبأ:٣٧]. وقال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

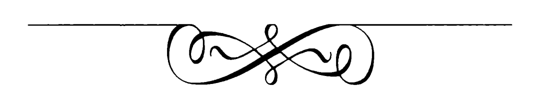
وروىٰ أبـو داود عـن أبـي هريـرة مرفوعــًا: (إن الله قـد أذهـبَ عـنكم عبِّيَّـةَ الجَاهِلِيَّة، وفخرَها بالآباء، مُؤمنٌ تقيٌ، وفاجرٌ شقيٌ، أنتم بنو آدم وآدمُ من تـرابٍ، ليَدعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام، إنَّمَا هم فحمٌ من فحمِ جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهون علىٰ الله من الجُعلَان التي تدفعُ بأنفِها النَّتنَ)، والأحسابُ: جمع حَسبٍ، وهو ما يَعـدُّه الإنْسَانُ له ولآبائه من شجاعةٍ وفصاحةٍ ونحو ذلك.

الشَّرح

أولُ الأشياء التي هي من أمر الجَاهِلِيَّة: (الفخر بالأحساب)، الحسبُ غيرُ النَّسب، الحسبُ فعلٌ قام به آباءُ الإنْسَان يُمدحون عليه ويُثنىٰ عليهم بسببه، فالإنسان يفخرُ بما كان من آبائه من عملٍ، هذا يُسمىٰ فخراً بالأحساب، هذا غيرُ الفخرِ بالأنساب، الحسبُ هي الأعمالُ التي قام بها آباؤه، والنسب هو القرابةُ، فرقٌ بينهما ، فهنا يقول: (أربع في أمتي) قال: أمتي، وهذا يعني أنه لا يكفُر بفعلِه؛ لأنَّه جعلَه في أُمته، فنسبَهم إليه ﷺ، ولم يقل: أربعٌ في النَّاس، فقالوا: هذا دَليل علىٰ أنَّه لا يكفُر من قال هذا، وإن كان من أمرِ الجَاهِلِيَّة، فالحسبُ قلنا هو الأعمالُ التي قام بها الآباء،والإنسان يفخرُ بها علىٰ غيرِه، فهذا من أمرِ الجَاهِلِيَّة؛ لأنَّهم كانوا في الحجِّ يقفون في مواقف الحجِّ في مُزدلفة

يذكُرون مآثرَ الآباءِ، ولهذا قال - تَعالَىٰ -: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٠٠]. كانوا إذا اجتمعوا كلُّ إنسَان يقوم يذكر ويمدح آباءه، ويذكر ما كان له من الأعمال والصفات التي كانت فيهم، والله يقول: هنا ذكرُ لله ليس للآباء، فهنا يُذكرُ اللهُ. أهل الجَاهِلِيَّة يذكرون آباءهم، وهذا فخرهم بالآباء، الإسْلَامُ جاء بإبطالها؛ لأنك لا تفخَر بما قام به آباؤك، إنَّمَا تفخرُ بما تفعلُه أنت، فليس لك نصيب في فعلِ آبائك، ولكن الفخُر الذي هو غمطُ النَّاس أو احتقارهم أو التكّبُّر عليهم مذمومٌ حتىٰ ولو كان من فعلك.

قوله ﷺ: **(إن الله قد أذهب عنكم عبية الجَاهِلِيَّة، وفخرها بالآباء...)**[1] هذا الحَدِيث حَسَن كما قال المحققُ، فكان قومٌ لهم آباء كانت لهم مَكَانةٌ في الجَاهِلِيَّة، فكانوا إذا جلسوا في مجالسِهم ومنتدياتهم ذكروا ما كان لآبائهم، والمُسْلِم تنقطعُ صلتُه بالكافر حتىٰ ولو كان أباه، فهنا النَّبِي ﷺ يوجههُم إلىٰ أنَّه لا ينبغي لهم أن يفخَروا بآبائهم، أو بقومٍ هم فحمٌ من فحمِ جهنَّم، فالكافرُ تنقطعُ صلةُ المُؤمِن به ولو كان ابنه أو أباه أو أخاه، فإذا بقي في القَلْب ضعفٌ افتخر بما كان لأبيه الكافرِ من صفات، لكن إذا عرفَ أنَّه نقطعت الصلة لا ينبغي له أن يفخر بذلك، فهذا زجرٌ لهم لئلا يفعلوا ذلك.



(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب، برقم: (٥١١٦)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، برقم: (٣٩٥٦)، والإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٨٧٣٦)، (١٤/ ٣٤٩)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الشهادات، باب شهادة أهل العصبية، برقم: (٢١٠٦٢)، (١٠/ ٣٩٢).

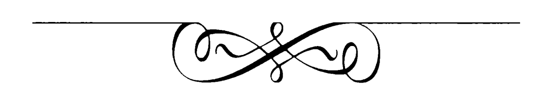
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قولـه: (والطعـن في الأنسـاب) أي الوقـوع فيهـا بالـذم والعيـب، أو يقـدح في نسب أحد من النَّاس، فيقول لـيس هـو مـن ذريـة فـلان، أو يعيـره بمـا في آبائـه مـن المطاعن.



الشَّـرْح

قوله: (والطعن في الأنسـاب) أي: الإنْسَـان قـد يكـون في بعـض آبائـه إنسَـان كان فيه ضعفٌ، أو ارتكبَ خطأً، أو كان عليه منقصـةٌ، فـلا ينبغـي أن يُعيِّـر أحـدٌ هذا الإنْسَان الحاضرَ بأبيه، هـذا مـن أخـلاقِ الجَاهِلِيَّة، فكمـا لا يجـوز لـك أن تفخرَ بما كان لأبيك لا يجوز لك أن تطعنَ في إنسَـان بسـبب نقـصٍ في أبيـه، ولا في أمه، كما سيأتي في حَدِيث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهذا لما عير أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً بأمه، قال النَّبِي ﷺ لأبي ذر: (أعيرته بأمه، أنك امرؤ فيك جاهلية) الحَدِيث متفق عليه، فدل ذلك أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجَاهِلِيَّة، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كُفْره وفسقه قاله شيخ الإسْلَام.

الشَّرح

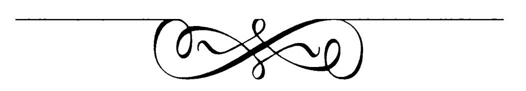
هذه قاعدةٌ، كما يقول العُلَمَاءُ: الطاعات شُعب من شُعب الإِيمَان، والمعاصي شُعبٌ من شُعبِ الكُفْر، فلو كان في الكافِر شُعب من شُعب الإِيمَان لا يكون مُؤمنًا، ولو كان في المُؤمِن شُعب من شُعب الكُفْر لا يكون كافراً، ولو كان في المُؤمِن شُعبٌ من شُعب الجَاهِلِيَّة لا يكونُ جاهلياً.

سبق أن ذكرنا أنه لا ينبغي أن يوصفُ الإنْسَان بنسبة قليلةٍ وتترك النسبةُ العُظمىٰ، فإذا كان الإنْسَان مُسْلِمًا يُؤدي جميعُ الفرائضِ وارتكب خطأً أو أخطأً في مسألة أو ارتكب بِدْعَةً، لا يقالُ مُبتدعٌ؛ لأن كلمةَ مُبتدعٌ تلْغي كلَّ صفاتِه، لكن يقال: ارتكبَ بِدْعَة، فعلَ بِدْعَة، قال ﷺ لأبي ذر: (إنك امرؤ فيك جاهلية) ما قال: أنَّك جاهلي، فلو كان الفعلُ الواحدُ ينقلُ الإنْسَانَ من صفته العامة لقال له ﷺ: إنَّك جاهلِي، ولم يقل، بل قال: (إنك امرؤ فيك) أي: فيك صفةٌ من صفات الجَاهِلِيَّة، لكن هذه الصفة لا تلغي صفة الإسْلَامِ، لكن لا يعني: كونُه مُسْلِمًا أنه لا يُذمُّ بما فعل من بعض الصفات المذمومة، يذم الإنْسَان إذا فعل الصفاتِ المذمومةَ، لكنه لا ينبغي أن يوصفَ بها بكامِلِها.

لكن إذا كان إنسَانٌ كلُ أعمالِه سُنَّةٌ، ثم ارتكب بِدْعَة فلا يقال مُبتدع وإذا فعَل أمراً من أمور الجَاهِلِيَّة لا يقال: جَاهلِي، وإذا فعل بعضَ أعمال المُنافقين لا يُقال مُنافِق؛ لأن هذا إلغاء للنِّسبة الكُبرىٰ التي يتحلىٰ بها، إلا إذا كان العملُ مُكّفِّراً، وكبيراً بحيث أن جميع ما معَه من عمل الخير لا يكافئ هذا العمل عندئذ، مثلاً: الجَهمي ابتدع بِدْعَةً مُكَفِّرةً، كُفْرهم العُلَمَاء بها، وإن لم يُكفِّروا أعيانَهم، فإذا قيل جهمي فإنه وصف مذمومٌ، لكن إذا فعل إنسَانٌ أو قال، أو اعتقد بعض اعتقادات الجهمية لا يقالُ جهمي، مثلا: الأشاعرةُ يعتقدون في الإِيمَانِ اعتقاداً قريباً من اعتقادِ جهم بن صفوان؛ لأن الطوائف التي عرفت الإِيمَانَ أربع طوائف، أو أربعة أقوال:

القول الأول: قول أهل السُّنَّة والجماعة: أن الإِيمَان قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، وهذا وافقهم فيه المُعْتَزِلَة والخوارجُ علىٰ اختلاف فيما بينهم في التفصيل، ومُرجِئةُ الفقهاء قالوا: الإِيمَان قولٌ واعتقاد، والكرامية قالوا: الإِيمَانُ قولٌ، والأشاعرة قالوا: الإِيمَان تصدِّيق فقط، مثل قول جَهم، جَهمُ يقول الإِيمَانُ معرفةٌ، إذا عرَف الله فهو مُؤمنٌ.

فقال العُلَمَاءُ: أنَّ هذه من عقائدِ الجهمية، لكن لا نقول: أنَّ الأشاعرة جهمية، إلا إذا خصَّصنا،نقول: جهميةٌ في هذه المسألة مثلاً، فارتكابُ الإِنْسَان للعمل المفردِ لا يجعلُه يوصف به، وشاهدُ هذا قولُ النَّبِي ﷺ: (إنَّك امرؤٌ فيك جاهلية)، ولم يقل: أنك جَاهلِي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (والاستسقاء بالنُّجُومِ) أي نسبة السقيا ومجيء المطر إلىٰ النُّجُوم والأنواء، وهذا هو الذي خافه النَّبي ﷺ علىٰ أمته، كما روىٰ الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: (أخاف علىٰ أمتي ثلاثـًا استسقاءً بالنُّجُومِ، وحيفَ السلطان، وتكذيبـًا بالقدر).

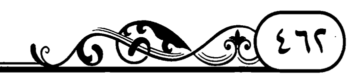
إذا تبين هذا فالاستسقاء بالنُّجُومِ نوعان، أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النَّجم فهذا كُفْر ظاهر، إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال - تَعَالَى -: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦٣]، وليس هذا معنىٰ الحَدِيث، فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النَّجم ينزل المطر فهو كافر.

الشَّرح

قوله: (خافه النَّبي ﷺ علىٰ أمته) هل المرادُ أُمَّةُ الإجابةِ، أم أُمَّةُ الدَّعوة؟ إذا أطلقَ النَّبي ﷺ هذه الإضافةَ، فإنها تُطلقُ فقط علىٰ أُمَّةِ الدَّعْوَة، إلا إذا خَصَّصَ، كقوله: (إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النَّبيين)(١)، لكن لم يقل إنكم أمتي، هل أبو جهل من أمته؟ يجوز أن نقول: من أمَّة الدَّعْوَة، لكن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (١٥٨٦٤)، (٢٥/ ١٩٨)، وابن حُبّان في صَحِيحه، كتاب أخْبَاره ﷺ عن مناقب الصَّحَابَةُ، باب فضل الأُمَّة، برقم: (٧٢١٤)، (١٦/ ١٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمَان، برقم: (٥٢٠١)، (٤/ ٣٠٧)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب أهل الكتاب، باب مسألة أهل الكتاب، برقم: (١٠١٦٤)، (٦/ ١١٣).



لَابُدَّ أن نخصص، فلا نقول مثلاً: (كلينتون)[١] من أُمَّةِ مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّ هذا لا يقال، بل نقول: من أمَّة الدَّعْوَة، أمَّا إذا أُطلقَت "الأمَّةُ الإسْلَامية" فإنَّما يُراد به أتباعَه ﷺ.

ثم أُمةُ الدَّعْوَة أصلاً كفار، فكيف يقال أنه لا زال فيهم من أُمورِ الجَاهِلِيَّة؟ الكُفر أشدُّ؛ إنَّمَا هذا للتنفِير والتحذيرِ، تحذيرُ أُمَّةِ الإجابةِ من هذا الفعلِ، التحذيرُ يأتي على صورٍ، فهذا الإخبارُ ليس للإقرارِ، إنَّمَا للتحذيرِ، فالكافرُ أصلاً واقعٌ فيما هو أشدُّ وهو الكُفْر، فلا يُحذَّر من هذه الأفعال أصلاً؛ لأنه ليس مُخاطبًا بهذا الكلام؛ لأنَّه لم يدخل في الأُمَّة التي يُخاطبُ بفروعِها، وقد سبق أن هناك مسألةً بين العُلَمَاءِ: هل الكُفَّار نُخاطبُهم بفروع الشريعةِ أم لا؟ منهم من قال: مُخاطَبون بها، ومنهم من قال: ليسوا مُخاطبين أصلاً، وهذه مسألةٌ خلافيةٌ لا يترتب عليها شيءٌ من حيثُ العمل.

قوله ﷺ: (أخاف على أمتي ثلاثًا)[٢] هذا الحَدِيث قال: أنه حَسَن، ولكن مَرَّ أنَّه مُرْسَل من رِوايةٍ أُخرى، وليس من هذه الرِّواية.

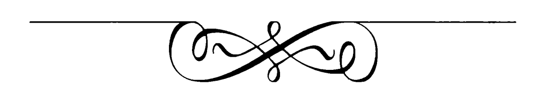
ثم يقول رحمه الله: أن الاستسقاءَ بالنُّجُومِ نوعان: نوعٌ أن تعتقد أن النَّجمَ هو المُنزِّلُ للمطر، وقال: ليس هذا معنى الحَدِيثِ؛ لأن أهلَ الجَاهِلِيَّة ما كانوا يعتقدون أنّ النُّجُومَ هي تُنزِلُ المطر استقلالاً، بدليلِ القُرْآن الكَرِيم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦٣]، فقريش تعترف أن أنزالَ المطرِ من الله، لكن تعتقدُ أن الكَوَاكِبَ

---

(١) الرئيس الأمريكي السابق.

(٢) أخرجه بمعناه الإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٢٠٨٣٣)، (٣٤/ ٤٢٣)، وأبو يعلى في مسنده، برقم: (٧٤٦٣)، (١٣/ ٣٧٨)، والطبراني في المعاجم الثلاثة، المعجم الأوسط، برقم: (١٨٥٢)، (٢/ ٢٣٨)، والبزار في مسنده، برقم: (٤٢٨٨)، (٢/ ١٣٠).

والنُّجُومَ لها دورٌ في الإنزال، فالحديث لا يحمل علىٰ أن الاستسقاء هو اعتقادُ أن النَّجمَ هو الذي يُنزل المطر، هذا ليس معنىٰ الحَدِيث؛ لأن قُرَيشًا لم تكن تعتقدُ هذا بنص الآية القُرْآن ية،فالأمر الذي تعتقدُه هو ما سيذكره المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: أن ينسب أنزال المطر إلىٰ النَّجم مع اعتقاد أن الله تَعَالَىٰ هو الفاعل لذلك المنزل له. لكن بمعنىٰ أن الله تَعَالَىٰ أجرىٰ العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النَّجم، فحكىٰ ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشَّافِعِي بجوازه، والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشِّرك الخفي، وهو الذي أراده النَّبِي ﷺ وأخبر أنه من أمر الجَاهِلِيَّة، ونفاه وأبطله، وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً في هذه الأُمَّة إلىٰ اليوم، وأيضاً فإن هذا من النَّبِي ﷺ حماية لجناب التوحيد وسد لذرائع الشِّرك، ولو بالعبارات الموهمة التي لا يقصدها الإنْسَان، كما قال لرجل قال له ما شاء الله وشئت قال: (أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده).

الشَّرح

قوله: (الثاني: أن ينسبَ أنزال المطر ...) نَصُّ الحَدِيث: (مُطرنا بنوء) الباء تأتي لعدة معانٍ: منها السببية، فهنا الباءُ للسببية، أي: مُطِرنا بسبب النَّجمِ، فهنا قال: مُطرنَا به، ولم يقل أمطرَنا هو، فنصُّ الحَدِيثِ صريحٌ، أنَّهُم لم يعتقدوا أن النَّجم ينزل المطر، وإنما يعتقدون أن الكوكَب سببٌ، فهذا الاعتقاد كُفْر، ونُسبَ للشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: أنَّ هذا ليس به بأسٌ، وهذا من أغرب ما يقال عن العُلَمَاء، أحياناً الشَّخص لا يجدُ وجهاً لإنزال كلام العالم المُخالف لظاهر النَّص. فلعله يكون النقلُ عنه فيه شيءٌ من التَّجوُّزِ؛ لأَنَّ النَّص صريحٌ، فقد جعل الحديثُ هذا من أمرِ الجَاهِلِيَّة، فلعلَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أن الكُفَّار كانوا يعتقدون أن النُّجُوم تُنزلُ المطرَ، وأما من قال أنه سببٌ أو علامةٌ فهذا لا بأس به.

قوله: **(لكن بمعنىٰ أن الله تَعَالَىٰ أجرىٰ العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النَّجم)** هذا النوعُ الثاني من أنواعِ الاستسقاءِ، أي: أن يُعتقد أن النَّجمَ سببٌ، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ أنه نَقل ابن مُفلح وهو صاحبُ الآدابِ الشَّرْعِيَّة - وله كتاب في الفقه - نقَلَ الخلافَ في المذهبِ بين التحريمِ والكراهةِ، لكنَّه هنا رجَّح التحريم، فإذا وردَ النَّص بالتَّحريم الذي يُفهمُ من خلال النَّص،- سواء كان نصاً أو كان مفهوماً - لا يجوز للإنسان أن ينقلَه إلىٰ الكراهةِ، فهو هنا للتحريمِ، وسيأتي حَدِيث: **(أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي)** فسماه كافراً، **(أما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فهو مؤمن بالنُّجُومِ كافر بي)**[1]، فمن نسب أنزالَ المطرِ إلىٰ النَّجم فإن هذا كُفْر، وقلنا أنَّ من أغرب ما ينقل عن المذاهب ما نسب إلىٰ الشَّافِعِي نفسِه رَحِمَهُ اللَّهُ، ليس فقط إلىٰ الشَّافِعِية؛ لأنه إذا قيل الشَّافِعِي يختلف عما إذا قيل الشَّافِعِية، فهذا القول نسب إلىٰ الشَّافِعِي نفسه، قال: أن نِسبةَ المطرِ إلىٰ الكَوكَب معتقداً أنَّه سببٌ أو علامةٌ ليس حراماً.

ونقول في هذا والله أعلم :

أولاً: عبرةٌ لنا من العالم الكبير مثل الإمام الشَّافِعِي، والإمام أحمد، والإمام أبي حنيفة، والإمام مالك رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقول ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لو لم يُخطِئ العالمُ لكان مثلَ النَّبِي ﷺ، وما هناك عالمٌ مثل النَّبِي ﷺ، فالذي يعتقد أن الإمامَ لا يُخطِئ فقد رفعَه إلىٰ مقامِ النُّبُوَّة.

وثانياً: أنَّ من رحمةِ الله أنَّ العالمَ الكبيرَ يُخطِئ خطأً يُدركُه صِغارُ الطلبةِ حتىٰ لا يُقدَّس ولا يُعظَّم، فهؤلاء أعلامُ الأُمَّة وأئمتها الكبارِ، الأُمَّة بما فيها من

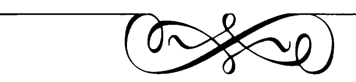
---

(١) سبق تخريجه.

عُلَمَاء وأذكياءَ وعقلاءَ ومُتخصصون ارتضوهم أن يكونوا قدوتَهم في اجتهاداتِهم الفِقهية، لم يرفعوهم إلىٰ هذه المنزلةِ إلا لمكانتِهم، فلو لم يقع منهم خطأٌ لَقُدِّسُوا، وعُظِّمُوا، لكن الذي يطَّلعُ علىٰ كلامِ العُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ لا يكاد يجدُ عالمـًا ليس له أخطاءٌ تدركُها صغارُ الطلبة، والإنسان إذا كان لا يُخطئ في كل ما يقولُه فإنه قد بلغ الكمالَ الذي ربما يؤدي إلىٰ التقدِيس. وهذا ملحظٌ لحظَه العُلَمَاءُ عندما قالوا: لا يُتبرَّكُ بالعلماءِ ولا بالصَّالحين، خشيةَ أن يُقدَّسوا، وأن يُشرَكوا مع الله في التعظيمِ، فالذي يُعظم الشَّخص حتىٰ يعتقدُ أنَّ كل ما يقولُه صَحِيح فقد رفعَه إلىٰ مقامَ الأنْبِيَاء، فقد يأتي الخطأ من العالمِ لئلا يُقدَّس أحدٌ من البشرِ، ولئلا نعتقدُ الكمالَ فيه فنأخذ كلَّ ما يأتي منه.

فيجب علىٰ طالبِ العلم أن يكون هدفُه الدَّلِيلَ لا ينظرُ إلىٰ من قال، فإن القولَ يقولُه الإمامُ الكبير، ويكون أحياناً خطأً، ويقوله الطالبُ الصغير ويكونُ صواباً، فالعبرةُ بصحةِ القول، ودليلُ صحةِ القول أن يكون له دَلِيل وشاهدٌ من الكِتَاب والسُّنَّة الصَّحِيحُة، فإذا اجتهدَ العالمُ فأخطأ فهو دائر بين أجرين، وبين أجرٍ، هو مأجورٌ علىٰ كلِّ حالٍ لكنه لا يأثم، أمَّا ما أخطأ فيه فإنَّه يُنبَّه عليه بأدبٍ واحترامٍ، لا كما يفعلُ بعضُ الجهلةِ، إذا وُجدَ علىٰ عالِم من العُلَمَاءِ مَسألةٍ أخطأ فيها شنَّع عليه، فهذا في قلبِه هوىٰ، لا يراقبُ اللهَ في الأُمَّةِ، وعلماؤُنا هم قدوتُنا، حفظَ الله بهم الدِّينَ، ماضياً وحاضراً فينبغي أن نحترمَهم، واحترامُنا للعلماءِ هو احترامُنا للدَّين، والذي لا يحترم العالمَ إنَّمَا يتنقَّصُ دينَ الله، لهذا عندما ذَمَّ المنافقون الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ووصفوهم بأنهم جبناء عند اللقاء، فأنزلَ الله تكفيرَهم؛ لأنَّهم لحقُوا في سخريتِهم بهم دِينَهم، والدَّينُ يُعظَّمُ، وحَملةُ الشرعِ عند الله عُظماءٌ، فينبغي أن يكونوا عندنا عظماءَ، لكن لا يعني هذا أن نقبلَ كل

ما يقولونه ، وكذا رَدُّنَا لبعضِ الأقوالِ ليس تحقيراً لهم، بل لأنَّ الحَقّ هو أولىٰ بأن يُقدَّم، ونجدُ في كلام العُلَمَاء مثل هذا القولِ كثيراً، من ذلك ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وهو يتكلَّم كثيراً عن الهَرَّوي لما شرح: (مدارج السالكين) ، والهرَّوي له تَوجُّهان، توجُّهٌ سلَفي وتوجُّهٌ صُوفي، فالتوجُّه السَّلَفي كان في باب الصفاتِ والأمرُ بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر، لكنه في صوفيته عليه مآخذُ في كثيرٍ من ألفاظِه وعباراته، وابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ يُثني عليه لصفاءِ عقيدتِه من الناحيةِ النظريةِ في باب الأسماءِ والصفاتِ، ويحاولُ أن يُخرِّجَ كلامَه، وإذا عجز قال: شيخُنا حُبّيبٌ إلينا، ولكنَّ الحَقّ أحبُّ إلينا منه، ثم يُبينُ خطأَه، بأدبٍ واحترامٍ، مع أنَّ الهَرَّوي رَحِمَهُ اللهُ له كلامٌ خطيرٌ جداً، بل كلامٌ فيه كُفْر، لكن لا يُكَفَّرُ، إنَّمَا نقول هذا قولُ كُفْر، ولا نُكَّفرُ صاحبَه كما سيأتي إن شاء الله في هذا الباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه التنبيه علىٰ ما هو أولىٰ بالمنع من نسبة السقيا إلىٰ الأنواء، كدعاء الأموات وسؤالهم الرزق والنصر والعافية، ونحو ذلك من المطالب، فإن هذا من الشِّرك الأكبر، سواء قالوا أنه م شفعاؤنا إلىٰ الله، كما قال - تَعَالَى - أَخْبَاراً عن المشركين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، أو اعتقدوا أنهم يخلقون ويرزقون وينصرون استقلالاً علىٰ سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القُبُوْر في رسالة صنعها في ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلىٰ الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولىٰ وأحرىٰ.

الشَّرح

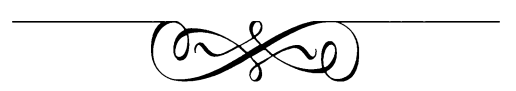
قوله: (كما قال - تَعَالَى - أَخْبَاراً عن المشركين) العبارة هي: (كما قال المشركون)، فأدخلتُ هذه الكلمة، وهو الصَّحِيحُ، إذا ورد في القُرْآن الكَرِيم عبارةٌ قالها الإنْسَانُ المخلوقُ، فاللهُ ﷻ حكَاه عنه، فتصبحُ كلامـاً لله - تَعَالَى - ، لكن لا نقول مثلاً: قال الله: اهدِنا الصراطَ المستقيمَ، بل نقول: الله يعلمُنا أن نقول، فينبغي أن تكون طريقةَ عرضِ الآيةِ بطريقة تتناسبُ مع المَعْنَىٰ ومع اللفظِ، فالمُشركون قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]. فالله تَعَالَىٰ قاله أَخْبَاراً عن المُشركين، هكذا ينبغي إيرادُ القولَ الذي حكَاه الله ﷻ عن غيره، فالمُحقّقُ عندما أدخل هذه العبارة ما غير اللفظ الثاني التي هي :"المشركون" فالصحيح :" عن المشركين".

الإنسانُ الذي عنده عقيدةٌ صافيةٌ صَحِيحةٌ ربما لا يتوقع أن إنسَانًا يعتقدُ أنَّ إنسَانًا مثلَه يَرزُقُ، ومثلَه ينقذُ من المهالِك، ومثلَه يقضي حاجتَه التي لا يستطيعُها إلا الله، لكن الإنْسَانَ الذي لم يسمعْ ولم يتربَّ على العقيدةِ الصَّحِيحةِ يقبلُ هذا الكلامَ، وفي العصر الحاضر بعضُ الطوائفِ الموجودة تعتقد هذا الاعتقادَ، سبق أن أحد كبار هيئة العُلَمَاء في بلدٍ إسلامي يقول: أنَّه يجوزُ أن يُستغاثَ بالميتِ ويَردُّ على من يُسمِّيهم الوَهابيةَ، ويقول: رُوحُ الميت تستجيبُ، وهي قادرةٌ على أن تعينَك وتحققُ مطلبَك، بل قال الآلوسي رحمه الله: "كان شيخٌ لنا صوفي يقول لنا إذا حزبَكم أمرٌ أو احتجتُم إلى قضاءِ مسألةٍ لا تدعوا الله، ادعوا الولي فلانًا، قلنا: لماذا؟ قال: لأنَّ اللهَ مَشغولٌ عنكم، أمَّا الوليُّ فإنَّه مشغولٌ بكم، قال: قال هذه الكلمةَ فوقعَت في قلبي موقعًا مثلَ السِّكينِ، لكن ما كنت أعرفُ أردُّ عليه". كان صغيراً فعندما كَبرَ ورزقَه اللهُ العلمَ ردَّ على هذا القائل.

فهذه يعتقدُها بعضُ الجهلة، والنبيُ ﷺ يُحصِّن أُمَّتَه، فالذي يقرأُ السُّنَّةَ ويتربَّى عليها يصبحُ مُحصنًا، والمُسْلِمون الذين يقبَلون الخرافاتِ والبدعَ والشركَ والكُفْر لم يُحصَّنوا ولم يقرءوا كلامَ الله ولا كلامَ رَسُوله ﷺ، والإنسانُ ليس بجسمِه إنَّمَا بعلمِه، فالإنسان إذا تربّى على الاعتقادات الباطلةِ نَشأ عليها، فيقول رحمه الله: "أن المشركين لم يكونوا يعتقدون أنَّ الجَاهِلِيَّة يرزُقون ويخلقون، ولكن يقولُه ويعتقدُه بعض النَّاس اليوم، فقد أَلَّف بعضُ عُبَّادِ القُبُوْر رسائلَ لذلك، بأنَّ الوليَ يرزُق، والوليُ يعطي، وأن الله قد جعلَ أو قد أناب الوليَّ فلانًا عنه، فلا تسأل اللهَ واسأل النائبَ، والذي يقرأ في كتبِ الصوفِيَّة يرى عجبًا، كيف يقبل عقلُ إنسَان أن مخلوقًا مثله ضَعِيفٌ يظمَأ ويجوع ويحزن ويموتُ يستطيعُ أن يشاركَ الخَالِق في أنزال الأرزاق، وفي قضاء

الحاجات، وفي إجابة الدعوات؟! فالإنسان الذي وفقه الله وعاش وتربىٰ علىٰ الخير ربما لا يتوقع أنه يُوجَدُ مثل هذا، ولكن يرىٰ العجب في أي بلد في العالم، هذه المعاني يراها عملياً واقعة، يدعون الأموات، ويستغيثون بهم في أنزال المطرِ، وفي رفع الحاجاتِ، وفي إعطاء الولدِ، وفي كلِّ شيءٍ، أي: أعطوهم حقَّ الخَالِقِ ﷻ.

ومن أعجب المواقفِ للشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله أنه يقول: أنني لم أُكَفِّر من عبدَ الصنمَ عند قبرِ الشيخِ عبد القادر، ولا من عبد الصنم عند فلان إذا لم تَبلغُهم الحُجَّة، مع أن الشيخ رحمه الله كان يُتهم بأنَّه يُكفِّرُ النَّاس، فالشاهد أنَّ العالمَ الإسْلَامي اليوم مملوءٌ بهذا الشِّرك، وعندما نقول: اللهم اخذل الشِّرك والُمشركين ندعو عليهم، فينبغي أن نقولَ: اللهم صحِّح عقائدَهم ووفِقهم إلىٰ التوحيدِ؛ لأنَّ الشِّرك صفةٌ لازمةٌ إلا في أفرادٍ في تلك المُجْتَمَعات، بل المُوحِّدون مُحَاربُون، ومُحاصَرون، ومُتهمُون بشتىٰ التُّهم إمَّا أنهم أعداءٌ لرسول الله ﷺ، وأعداءُ الأولياء، وأعداءُ الصَّالِحينَ، وإما أنهم حَشويةٌ، أو أنَّهم مجُسِّمةٌ، كل تلك الصفات يوصفُ بها المُوحِّدُ الذي يدعو إلىٰ ما قال الله وقال رَسُوله، فالإنسان إذا سمعَ هذا الكلامَ ربما ما توقع أنه يُوجَدُ مُسْلِمٌ يعتقد هذا الاعتقاد، بل يُوجَدُ ليس فقط مُسْلِم، أو آلاف، بل ملايينٌ، نسأل الله أن يُطهرَ بلاد المُسْلِمين من الشِّرك، ومن البِدْعَة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (والنياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت؛ لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه وسوء أدب مع الله، ولا كذلك ينبغي أن يفعل المملوك مع سيده فكيف يفعله مع ربه وسيده ومالكه وإلهه، الذي لا إله له سواه الذي كل قضائه عدل، وأيضا ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة.



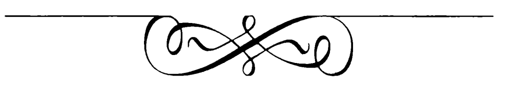
الشَّرح

قوله: (النياحة) هذه النِّيَاحَةُ خَاصّة بالنِّساء، النَّوحُ هو رفعُ الصوت، ترفع الصوتّ بأحد أمرين: إمَّا أن تتسَخَّطَ على قَدرِ الله، وإمَّا أن تَعُدُّ المآثرَ التي كان يعملُها هذا الإنْسَانُ، وتعتقد أنَّه بموته قد انقطَع رزقُها، ولم يَعُدْ من يرزُقُها ولا من يُعينُها ولا من يكفُلُها، فتعدُّ محاسنَه:كنتَ تفعلُ كذا، وكنتَ ترزقَنا، وكنتَ تكسينَا، وكنتَ تحمينا، هذا الفعلُ من أمرِ الجَاهِلِيَّة، وقد أخبرَ النَّبي ﷺ أنه لا زال في أُمَّتِه، ويُوجَدُ اليوم في كثير من بلاد العالم الإسْلَامي وفي كل مَكَان فالمَرْأَةُ ضَعِيفَةُ الإِيمَان، إذا مات أبوها أو أخوها أو زوجُها ترفعُ صوتَها بالنِّيَاحَة وتذكرُ مَحاسنَه، وتَسخطُ قدرَ اللهِ.

والله ﷻ قد خلقَ الإنْسَانَ ليموتَ لا ليَحيىَ، لهذا قال – تَعَالَىٰ –: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢]، قدَّم الموتَ، الإنْسَانُ أصلاً وُلِدَ، ليموتَ، فما وقعَ شيءٌ لستَ أنتَ عالماً به، كلُ إنسَانٍ سيموتُ، وهذا قدرُ الله، كما يقول الشاعر:

لِدُوا للموت وابْنُوا للخراب   فكُلُّكم يصيرُ إلىٰ تبابٍ

تولَـدُ لتمـوت، وتبنِـي ليُخـرَب بيتُـك، فـالبيوتُ التـي بنيـت قبـل مائـة سـنةٍ غُيرَت الآن ببناء جديدٍ، وسيأتي بعد مائةٍ سنة مبانٍ أخرىٰ، الآن يُجرُون تجاربَ علىٰ الطين، وقد ثبت في بعضِ البُلدان الأوربيةِ أنَّ الطينَ أقـوىٰ مـن الأسـمنت، وربما يأتي بعد فترة أنـه لا يُوجَـدُ أسـمنت، ولا حَديـد، بـل مـوادٌ أخـرىٰ، فهـذه المسـاكنُ نُزخرفُهـا بأحسـن شـيءٍ، وكـان الـذين قبلنـا يـرون مسـاكنهَم أحسـنَ شيء، لكن خَرِبت. يُذكرُ أنَّ أحدَ الملـوكِ القُـدماءِ بنَـىٰ قصـراً جميلاً، ثـم جـاء بالناس ينظرون فيه كلُّهم مدحَ هذا المنزل، ثم جاء عالمٌ فقـال: مـا أجملـه لـولا أنَّ فيه عيبين، فاستغرب هذا الملكُ، وقال: فيه عيبان؟، قال: نعم، لـو لـم يكـن هذان العيبان لكان هـذا البيت أحسـن بيـت، قـال: مـا همـا؟ قـال: " أنَّ صـاحبَه يمـوت، وأنَّـه يُخـرَبُ ".نعـم، فلـو بحثنـا في العـراق عـن هـذا القصـر الـذي بنـاه الخليفـة العباسـي لمـا وجَـدناه، انتهـىٰ، ولـم يبـق أثـرٌ للدولـة العباسـية ولا لخلفائها، ولا لملوكِها، ولا لقُصورها، فالموت نهايةُ كلِّ إنسَـانٍ، وهـو يعرفُهـا، فلم الجزعُ وتَسـخُّطُ القـدرِ إذا مـات قريـبٌ، هـذا جاهـل، فالإنْسَـان إذا أصيب بمُصيبةٍ يرجع إلىٰ الله ويقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون؛ لأنه اعترافٌ بأنَّك مِلـكٌ لله، واعترافٌ بالعودة كمـا عـادَ غيـرُك، فالنِّياحـةُ خُلـقٌ جَـاهِليٌ، ينبغـي أن يُربِّـي الإنْسَانُ أهلَه علىٰ أن لا يقع منهم هذا العملَ لو حدثَ فيهم حادثٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الحَدِيث دَلِيل علىٰ شهادة أن مُحَمَّداً رَسُول الله؛ لأن هذه الأخبار من أنباء الغَيْب فأخبر بها النَّبي ﷺ فكان كما أخبر.



هناك حوادث كَثِيْرَة أخبر النَّبِي ﷺ بوقوعِها، وقد وقعت وتقعُ بالتَّدرجِ في كل عصر وفي كلِّ جيل، فهذه من عَلَامَات النُّبُوَّة، التي تدل علىٰ أنه رَسُول الله ﷺ؛ لأن الإنْسَان لو لم يطلعُه الله علىٰ الغَيْبِ ما عرف، ولو كان رَسُولُنا ليس رَسُولاً صَحِيحاً ما وقع ما أخبرَ به ﷺ، فكم أخبرَ من أخْبَار كَثِيْرَة، وقعَ بعضَها وبعضُها لا زال لم يقع، وبعضُها من أشراط السَّاعَة، وبعضها يقول: أنه لا تقوم السَّاعَة حتىٰ يقع كذا، فكلمة حتىٰ يقعَ كذا ليس شرطاً يكونُ بين يدي السَّاعَة، إنَّمَا المَعْنَىٰ أنَّه لَابُدَّ من وقوعِه، فهناك حوادثٌ كَثِيْرَةٌ ذكرها النَّبِي ﷺ تحدث قبل قيامِ السَّاعَة، أو يقع كذا في أُمتِه، فهذه من عَلَامَات نُبوتِه ﷺ. لا يقال: كما جِيء بالمُتنَّبئ إلىٰ المأمون، فقيل له ما علامةُ نُبُوتِك؟ قال: أُخبرُكم بما في نفوسِكم، قال: أخبرنا، قال: في نفوسِكم أنِّي كذابٌ، قال: هذا صَحِيح والله، لكن هذا ليس علامةُ نبوتِه؛ لأنه كذاب حقاً، فأخبر بحقيقةٍ، لكنَّها ليست عن عِلْمٍ لما في القُلُوْب، وإنَّما لَعَلَّمه بحقيقته هو أنه كذابٌ، وكما يقال أن امرأةً جيءَ بها إليه، اسمُها فاطمةُ النَّبِيةُ، فقال المأمون: ألم تقرأي في الحَدِيث: (لا نبي بعدي)[1]، قالت: بلىٰ، صدقَ رَسُول الله ﷺ، ولكن لم يَقل: لا نَبِيةَ بعدي. فضحك المأمونُ حتىٰ استلقَىٰ علىٰ قَفاه، قال: حجةٌ شيطانيةٌ هذه، أصلاً ليس في النِّسَاء نبياتٌ، لا قبلَه ولا بعدَه ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها) فيه تنبيه على أن الوعيد والذم لا يلحق من تاب من الذنب، وهو كذلك بالإجماع، فعلى هذا إذا عرف شخص بفعل ذنوب توعد الشرع عليها بوعيد لم يجز إطلاق القول بلحوقه لذلك الشَّخص المعين، كما يظنه كثير من أهل البدع، فإن عقوبات الذنوب ترتفع بالتوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة، ودعاء المُؤمِنين بعضهم لبعض، وشفاعة نبيهم ﷺ فيهم، وعفو الله عنهم.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في قول النَّبي ﷺ: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها)[1] قال: (فيه تنبيه على أن الوعيدَ والذمَّ لا يلحقُ من تابَ من الذنب، وهو كذلك بالإجماع، فعلى هذا إذا عُرف شخصٌ بفعل ذُنوبٍ تَوعَّد الشرعُ عليها بوعيدٍ، لم يَجُز إطلاقُ القولَ بلحوقِه لذلك الشَّخص المعين)، مثلاً: من فعل هذا فهو كافرٌ، فلا يُكفرُ إلا إذا توفَّرت فيه شروطٌ وانتفت موانعُ، وهذه مسألةٌ من مسائلِ العصر، بمعنى إذا عمِل إنسَانٌ بِدْعَةً، أو عملاً مخالفاً أو أخطأ في اجتهادٍ ثم بلغته الحُجَّة، هل بعد ذلك يُحكَمُ عليه أم لَابُدَّ من فهمِه للحُجَّةِ؟ ذلك لأنَّ بُلوغَ الحُجَّةِ غيرُ فَهم الحُجَّة، مثلاً: لو أجبرنا إنسَاناً لا يتقنُ العَرَبيَّة، وقرأنا عليه القُرْآن ، فالحجَّةُ بلغته ووصلت إليه وسمِعها، لكن لم يفهمْها؟ فلابد من فهمِه لها، والعلماءُ في هذه المسألة على مذهَبين: منهم من يجعل بلوغ الحُجَّةِ كافياً، فهمَ أو لم يفهَم، ومنهم من قال: لَابُدَّ من فهمِه لها، والذي عليه

---

(١) سبق تخريجه من مُسْلِم وأول الحَدِيث: أربع في أمتي من أمر الجَاهِلِيَّة...

المحققون كابن العَرَبِي، وابن قدامة، وابن تَيْمِيَةَ وابن القَيِّمِ رحمهم الله أنه لَابُدَّ من فَهمِ الحُجَّةِ، أي لا يكفي بلوغها.

والشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله نُقلُ عنه قولان، فالخطاب الذي بعثه إلىٰ الشريفِ لمَّا كان أميرَ مكةَ يدلُّ علىٰ أنَّه يقولُ بوجوب فَهم الحُجَّةِ، وأميرُ مَكةَ كَتب إليه يُعاتبُه علىٰ أنَّه يُكَفِّرُ النَّاسَ، وهم جَهلةٌ في الدِّين، فقال الشيخ في رسالة بعثها إلىٰ الشريف: وإن كنَّا لا نُكَفرُ من عَبدَ الصنمَ الذي علىٰ قُبةِ عبد القادر، والصنمَ الذي علىٰ قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم، وعدم وجود من ينبههم، فكيف نكفر من لم يُشرك بالله إذا لم يُهاجر إلينا ولم يخرجُ ويُقاتل كما يزعمون؟، سبحانك هذا بهتان عظيم!، مع أن القُرْآن موجودٌ في مصرَ، والدينُ فيها موجودٌ، فبلوغُ الحُجَّةُ موجودٌ، لكن أخطئوا فهمَها، فهذا الشَّخص إذا أخطأ في فهمِه، ووقع في الكُفْر لا يُعاقَب، كما قال –تعالىٰ-: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]. فليس في وسعِه فهمُ تلك المسألة، لكن ليس هذا في المسائلِ الكِبار التي هي واضحةٌ من الدِّين بالضرورة، إنَّما هي المسائلُ التي يَدقُّ فيها الفهمُ.

فالإنسانُ لا ينبغي أن يُطلقَ عليه كُفْر إلا إذا فهِم المرادَ؛ لأن الإنْسَان قد يخطئ في فهمِ النَّص، يبلغه النَّص لكن يُخطئُ في فهمِه، ويعتقدُ أنَّ هذا معناه، فلابد من أن يفهمَ المَعْنَىٰ، وقد تكون المسألةُ لها صورتان، نقول: في الدُّنْيَا نحمِلُه مسئوليةً، لكن قد يعفو الله عنه؛ لأنَّ الله لا يعاقبُه إلا إذا تعمَّد الخطأَ، كما مرَّ من كلام ابن تَيْمِيَةَ رحمه الله في بعض كتبه يقول " هذا القولُ كُفْر عندي، ولكنكم لستم كُفَّاراً عندي إذا كان هذا مُنتهىٰ تفكيركُم؛ لأن الله لا يحاسبكم علىٰ عقلِي، ولكن يحاسبُكم علىٰ عقولِكم "، وكثيراً ما يضرب ابن تَيْمِيَةَ رحمه الله

مثالاً بالشخص الذي أخطأ في إثبات قدرةِ الله أو في نفيها، ظناً منه أن الله لا يستطيعُ أن يعاقِبَه، عندما قال لأولادِه: إذا أنا متُّ فاحرقوني واسحقوني، ثم قال: هذا جَهِلَ قدرةَ الله، فهذا لم يعاقِبه الله[1]؛ لأنَّه في غمرة الخَوف جَهِلَ قدرةَ الله – سبحانه –، فأحياناً قد يرتكبُ الإنْسَان أمراً ويعتقد أنه صوابٌ، ونأتي نرد عليه بنصٍ، ولا يكون النَّصُ عنده واضحاً، فلا تظنن أن بلوغ النَّصِ إليه يكفي في عقابِه.

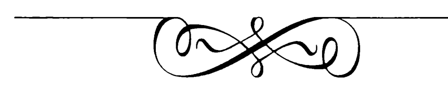
لكن هذه القاعدة ليست على كل المسائل في الشرع؛ لأن بعض المسائل أدلتها واضحة، مثلاً: لو جاء إنسَان واستباح الخَمْرَ، أو استباح فعلَ الفاحشةَ، أو تَركَ الصَّلَاة، أو لم يؤد الزكاةَ، وقال: لا أفهم هذا من دين الله، فهذا لا يُعذرُ؛ لأنَّ هذه أمورٌ ظاهرة، إلا إذا كان مُسْلِماً جديداً لم يعرف هذه الأحكام فيعلَّم، إمَّا إذا كان مُسْلِماً يعيشُ في بلاد المُسْلِمين، فهذه الأحكامُ والواجباتُ والفرائضُ والأركانُ ليس فيها خفاءٌ، لكن قد يخفى عليه بعضُ الجوانبِ في الدِّين، مثلاً: مسألةُ تسلسلِ الحوادثِ، هذه مسألةٌ دقيقةٌ جداً، وابن تَيْمِيَةَ رحمه الله له فيها قولٌ دقيقٌ، يخفى حتى على كبارِ العُلَمَاءِ كما خفيَ على ابن حجَر رحمه الله حافظِ الأُمَّة، وإذا أطلقت كلمةَ الحافظِ لا يُعرفُ إلا ابنَ حجرٍ؛ فشنَّع بها على ابن تَيْمِيَةَ، وقال: هذا مما شنَّع العُلَمَاء به على ابن تَيْمِيَةَ. لكن لو تأمَّل المسألة ورُزق فهماً ما أنكرها عليه؛ لأنَّ ابن تَيْمِيَةَ رحمه الله يقول: " لا يمكن أن نتصورَ أن الله كان عاطلاً عن فعلِه، فإن الله يفعلُ وليس لله بدايةٌ، فليس لفعلِه بدايةٌ؛ لأنَّ الله عز وجل ليس له بدايةٌ، حتى نقول: أنَّه بدأ من كذا، وأمَّا الحَدِيثُ الذي أورده ابن تميم (أنه كان الله ولم يكن معه غيره، وكان عرشه على الماء ثم

---

(١) سبق تخريجه.

خلق السماوات والأرض)[١] قال هذا حَدِيثٌ عن خلقِ الكونِ فقط، ليس عن بدايةِ فعلِ الله، أمَّا بقيةُ الفِرَقِ فيعتقدون أنَّ الله لم يكن يفعلُ ثم فعلَ "، وقال: " هذا فيه تقوية للفلاسفة علىٰ أهل الكلام " ، الشاهدُ أن هذه المسألة دقيقة فلا يُكَفَّرَ من خالفَها، وأمثال ذلك.

ذكر ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ أن بعض المسائل فيها دقةٌ، فلا يأثمُ من خالَفها، وإن كان معتقدُها عندنا كافراً، لكننا لا نُكَفِّرُ شخصاً مُعيناً خَاصّةً إذا لم يَفهم وجهَ المسألةِ، فهذه المسألةُ قضيةُ فهمِ الحُجَّة أو بلوغِها، هذه من المسائلِ الخلافيةِ، فمن قال بأنَّه لَابُدَّ من فهمِها فهو قولٌ ذهبَ إليه كثيرٌ من المحققين، ومن قال: يكفي بلوغُها فقط، فقد قالها بعض العُلَمَاءُ فلا يُحرَّجُ فيها، ولكن الصَّحِيحُ ما ذهبُ إليه شيخُ الإسْلَام ابن تَيْمِيَةَ وابن القَيِّمِ والشيخُ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُمُ اللهُ أنَّه لَابُدَّ من فَهمِ الحُجَّةِ، وضربوا علىٰ ذلك مثلاً بالإنسان الأعجمي، قالوا: سماعُه للقرآنِ بَلَغتهُ الحُجَّةُ، لكن لم يفهمها، فكذلك كل إنسَان ليست عنده قدرةٌ علىٰ فهمِ اللفظ فهو شبيهٌ بالأعجمي، لَابُدَّ من فهمِ مُرادِ الله حتىٰ تقومَ الحُجَّةُ عليه.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه: أن من تاب قبل المَوْت ما لم يغرغر فإن الله يتوب عليه، كما في حَدِيث ابن عمر مرفوعًا: (إن الله تَعَالَىٰ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حُبّان في صَحِيحه.

قوله: (تقام يَومَ القِيَامَة) أي تبعث من قبرها (وعليها سربال من قطران ودرع من جرب). قال القرطبي: السربال واحد السرابيل وهي الثياب والقمص، أي: أنه ن يلطخن بالقطران فيصير لهن كالقميص، حتىٰ يكون اشتعال النَّار والتصاقها بأجسادهن أعظم ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد. وروي عن ابن عَبَّاسٍ: أن القطران هو النحاس المذاب. وروىٰ الثعلبي في تفسيره عن عمر بن الخطاب أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدرة حتىٰ وقع خمارها، فقيل: يا أمير المُؤمِنين: المَرْأَة المَرْأَة قد وقع خمارها، قال: إنها لا حرمة لها.

الشَّرح

قوله: (أن من تاب قبل المَوْت ما لم يغرغر فإن الله يتوب عليه) هذه مسألةُ التوبةِ، متىٰ ينتهي أجلُها؟، قال - تَعَالَى -: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]. فالله ﷻ نفىٰ قبولَ التوبةِ عن الشَّخص الذي يتوبُ إذا جاءه المَوْت، والحديثُ يقول: (أنه تقبل التوبة ما لم يغرغر)[1]، فالعلماءُ منهم من جعَل الحَدِيثَ مُفسِّرا للآية،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، برقم: (٣٥٣٧)، وقال: حَدِيث حَسَن غريب، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، برقم: (٤٢٥٣)، والإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٦١٦٠)، (١٠/ ٣٠٠)، وابن حُبّان في صَحِيحه، كتاب الرقائق، باب التوبة، برقم: (٦٢٨)، (٢/ ٣٩٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، برقم: (٧٧٤٠)، (٤/ ٣٨٩)، وصححه ووافقه الذهبي عليه، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمَان، باب في معالجة كل ذنب بالتوبة، برقم:

وقال: إذا جاءه المَوْت قبل أن تصلَ إلىٰ الغرغرة أي: قبل أن يفقِد وعيَه فإنه يتابُ عليه، لكن الآية القُرْآن ية قاطعةٌ، والحديثَ حَسَن، أي: ليس في دَرَجة الاستشهاد الذي يُخصِّصَ الآيةَ القُرْآن يةَ، أو يُخَصِّص حَدِيثاً صَحِيحاً، فهذه مسألةٌ من المسائلِ التي فيها خلافٌ في المراد بها والله أعلم.

قوله: (وروىٰ الثعلبي في تفسيره) الثعلبي مُفسِّرٌ، ولكن تفسيرَه مملوءٌ بالموضوعات، مثلُه مثلُ الواحدي والزمخشري خَاصّةً في أسباب نزولِ القُرْآن الكَرِيم، وفي فضائل السور، فإنهم قد حشوا كتبهم بأحاديث موضوعة، وابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ يقول: أن الثعلبي فيه دينٌ، لكنه حاطبُ ليل، والبغوي رَحِمَهُ اللهُ اختصر كتاب الثعلبي، ونزَّهه عن الموضوعات وما كانَ مثلها، فتفسير البغوي اختصار لتفسير الثعلبي، ولكن الثعلبي كما قلنا: حاطبُ ليل، يجمعُ في تفسيره ما هبَّ ودبَّ، وهذا مما يُؤخذُ عليه، أو مما ينقِصُ من قيمةِ المُؤَلِّفِ، أمَّا البغوي رَحِمَهُ اللهُ فإنَّه علىٰ السُّنَّة، والواحدي مهتمٌ باللغة، لكنه أيضاً ملأ تفسيرَه بالموضوعات، ولكنه مُخالفٌ لمنهج السَّلَف في معتقدِه. وهذا الأثرُ في تفسير الثعلبي، وصحة الحَدِيث فيها نظرٌ: **أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضرب المَرْأَة بدرته حتىٰ سقط خمارها، وقال: ليس لها حرمة، أو كما قال**[1]. الأثرُ أو الحَدِيثُ لا تجوز نسبتُه إلىٰ صاحبه إلا بعد أن تَثبت النسبةُ، وثبوتُ النسبةِ من خلال دراسةِ السَّنَدِ؛ لأنَّ أيَّ قولٍ ينسبُ إلىٰ النَّبي ﷺ أو إلىٰ صَحَابِي أو تابِعي لها أسانيدٌ، ومن خلال السَّنَد يعرف، ولهذا ينبغي أن نحققَّ المسائلَ الواردةَ عن السَّلَف حتىٰ لا نُقَولَهم ما لم يقولُوه، فإذا كذبَ النَّاس علىٰ رَسُولِ الله ﷺ فكذبُهم علىٰ الصَّحَابَةِ من بابِ أَولىٰ.

= (٧٠٦٣)، (٥/ ٣٩٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٥٦٠٩)، (٩/ ٤٦٢).

(١) أورده الثعالبي في الكشف والبيان (٩/ ٢٩٩)، والقرطبي في تفسيره (١٨/ ٧٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: ولهما عن زيد بن خالد قـال: (صلىٰ لنا رَسُول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلما أنصرف أقبل النَّاس فقـال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كـافر بالكوكـب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب).

ش: قوله: (عن زيد بن خالد) أي الجهني المدني صَحَابِي مشهور، مات سنة ثمان وستين بالكوفة، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (صلىٰ لنا) أي صلىٰ بنا فاللام بمعنىٰ البـاء، قـال الحافظ: وفيه جواز إطلاق ذلك مَجَازاً، وإنما الصَّلَاة لله.

قوله: (بالحديبية) بالمهملة والتصغير، وتخفف ياؤها وتثقل.

قوله: (علىٰ إثر) بكسر الهمزة وسكون المثلثة علىٰ المشهورة، وهو ما يعقب الشيء.

قوله: (سماء) أي مطر، وأطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهة السَّماء.


الشَّرح

هذا أول الحَدِيث (صلىٰ لنا رَسُول الله ﷺ) سيأتي أنَّ المُؤَلِّفُ قال: أن هذا مَجَاز، هذا الحَدِيث رواه البُخَارِي و مُسْلِم، وفي رواية مُسْلِم صلىٰ بنا، ورسم (لنا) و (بنا) في المخطوطات متشابهة، خَاصّة القديمة، فالترجيح يكون صلىٰ بنا، فلا داعي لذكرِ المَجَاز، فيكون الراجحُ أنَّه صلىٰ بنا.

يقول: (فيه جواز إطلاق ذلك مَجَازاً، وإنما الصَّلَاة لله)، أي: هل هو صلَّىٰ لهم؟ بمعنىٰ أنه سجدَ لهم وركعَ لهم، فكلمة الحروف في العَرَبِيَّة علىٰ

قسمين: حروفُ مباني، وحروفُ معاني، حروفُ المباني هي الكلمةُ نفسُها التي تبنىٰ من حروف، مثلاً: الحمد لله، الألف واللام، وحروف معاني مثل اللام والباء، وعلىٰ ، وفي، التي تأتي لمعانٍ، وحروف المعاني ينوب بعضُها عن بعض، ولا يسمىٰ مَجَازاً كما قال - تَعَالَى -: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، أصلها: يشربُ منها، وليست مَجَازاً، أي: العَينُ ظرفٌ للشربِ بيده وليس الشربُ بسببها، فالحروف العَرَبِيَّة تتعاورُ أي: يحلُّ بعضُها محلَ بعضٍ، ولا يُسمَّىٰ مَجَازاً، هكذا تقول العَرَبُ، لكن هنا وجدنا (صلىٰ بنا) موجوداً فيه حرف الباء، وليس صلىٰ لنا، وإذا أراد الشَّخص أن يتأكد من صحة اللفظ يرجعُ إلىٰ الألفاظِ التي وردَت في كُتبِ السُّنَّة حتىٰ يصحِّحَ بعضها علىٰ الأصل الذي هو المُتفِق مع العَرَبِيَّة.

وحتىٰ لو قال: "صلىٰ لنا " ؛فليس فيها مَجَاز؛ لأنَّ المَجَاز من أخطر ما استحدثه المتكلِّمون لإبطال العقيدة الإسْلَامية. وبسبب هذا المَجَاز وقع الانحرافُ في المُسْلِمين في عقيدتِهم، فجعلوا كلَّ شيءٍ يتعلَّق بالخالقِ مَجَازاً، بل ابن جني المُعتزلي يقول في خصائصِه: "كلُ اللُّغَة مَجَاز، وكل ما جاء في القُرْآن مَجازٌ، إلا القليلَ النادرِ"، لهذا في قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر:٤٩]، قال: هذا مَجازٌ؛ لأن الله لا يخلُق أفعالَ العِباد، فعندما قال الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ﴾ ما هو بصحيح -علىٰ حدِّ زعمِه -، فهذا المُصْطَلَح الحادث نتجَ عنه مفاسدُ عقديةٌ خطيرةٌ جدًّا، بل نقول: هذا أسلوبٌ عَرَبِي، كما قال سيبويه في كتابه المشهور؛ لأن هذا مُصْطَلَح لم يأت إلا متأخراً، في منتصف القرن الثالث فما بعد، وقبله لم يُذكر إلا عن أبي عبيدة، عندما ذكرَ مَجَازَ القُرْآن ولم يُرِد الاصطلاح الحالي، فالقدماء يقولون: هذا من سِعة كلامِ العَرَبُ، العَرَبُ تتوسع في إطلاق المُفردات؛ لأنَّ المعاني أكثر من الألفاظِ، فكان اللفظُ يطلقُ علىٰ أكثر من معنىٰ، وأحيانـًا العكس، المَعْنَىٰ الواحدُ يكونُ

له أكثر من لفظٍ، فينبغي أن يُعتقَد أنَّ هذا أسلوبُ العَرَبُ، كما قال ابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابِ الإيمَان رداً علىٰ المَجَاز، ثم جاء ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وأبطلَه في كتاب(الصواعق المرسلة) من عشرات الوجوه، وقال: أن كلمةَ مَجَازٍ تحتاجُ إلىٰ نقل تاريخي؛ لأن المَجَازَ هو أن تكون العَرَبُ تكلموا بهذه المفردةِ اليومَ لمعنىٰ، وتكلموا أمس بهذه الكلمة علىٰ معنىٰ، فهذا يحتاج إلىٰ تاريخٍ، فكلمة المَجَاز من المسائل الحادثةُ والمجازُ يُدرَّس في البلاغة في جميع المدارس علىٰ أنه حقيقةٌ ثابتةٌ وعلمٌ صَحِيح، مع أنه أنكره عُلَمَاء السَّلَف المُحقِقون، واعتبروه من العلوم الدخيلةِ التي نتج عنها فسادٌ عريضٌ في عقيدة المُسْلِمين.

قوله: (**بالحديبية**) هذه الصَّلَاة في العام السادس في الحُدَيبِيَة علىٰ طرف مكةَ، عندما جاءوا إلىٰ العُمرة فردَّهم المشركون، فكان ﷺ دائماً يوجههُم إلىٰ صفاءِ العقيدةِ وإلىٰ سلامتها، فقد كانوا في موقفِ حربٍ وتَخوُّفٍ، لكنه لم يُنسِه ذلك بل كان في كل مَوطنٍ يحرصُ علىٰ تصفيةِ عقيدةِ الصَّحَابَةِ مما كان عليه النَّاسُ في الجَاهِلِيَّة.

كلمةُ سماءٍ أطلقَها العَرَبُ علىٰ المطر أيضاً، ولا يُسمىٰ مَجَازاً؛ لأنَّهم أطلقُوها علىٰ العلوِ، وعلىٰ الجُرمِ، بل تطلق أحياناً علىٰ الشَّخص، تقول: أنت سماءٌ، أي: أنت مرتفعٌ، هذا أسلوب العَرَب، وكلمةُ حقيقةٌ ومجازٌ يترتب عليها مفاسدُ، فنقول هذا أسلوب عَرَبِي تطلق العَرَبُ هذا علىٰ كذا، وتطلق علىٰ كذا، فتتوسع في لغتها.

قوله: (**صلىٰ لنا رَسُول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، علىٰ أثر سماء كانت من الليل..**)(١) هذا الحَدِيث رواه البُخَارِي في مواطنَ عدةٍ من الصَّحِيحُ، ورواه مُسْلِم في موطنٍ واحدٍ بأسانيد متعددةٍ، هذا الحَدِيثُ قاله النَّبِي ﷺ في

---

(١) سبق تخريجه.

الحُدَيبِيَة، والحديبيةُ هي المكان الذي نزل فيه رَسُول الله ﷺ عندما جاء في العام السادس ليعتمر في بيتِ الله الحرام، فعندما وصلَ، وقبل أن يصل إلىٰ الحرَم بركَت ناقةُ رَسُولِ الله ﷺ، فقال الصَّحَابَةُ: خلعت القصواء، خلعَت إمَّا بمعنىٰ خافت، أو بمعنىٰ امتنعت عن السير، فقال النَّبِي ﷺ: **(ما خلعَت وما ذلك بخلق لها، ولكنه حُبّسها حابس الفيل)**(١) هذا ترتيبٌ من رَبِّ العَالَمِينَ لرسولِ الله ﷺ، فسمعت قُرَيشٍ، فجاءت تمنعُه من الدخولِ، وهذه العُمرة كانت بابَ فتحٍ للمُسْلِمين والإسلام، فأخذت الرُسُل بينقُرَيشٍ ورسولِ الله ﷺ تَترىٰ تَتابع لكي يعودَ ولا يدخل إلىٰ مكةَ.

وهذه الحادثةُ فيها عشراتٌ من الدروس، ليس هذا موطنُ ذكرِها، منها أن النَّبِي ﷺ أخبر الصَّحَابَةُ بأنهم سيدخلُون البيتَ إن شاء الله آمنين مُحلِّقين ومُقصِّرين، فعندما جاء وفدُ قُرَيشٍ واصطلح الرَّسُول معهم ورجعَ بدأ الشكُّ في قلوبِهم، والشَّيطَانُ يستغلُّ المواقفَ حتىٰ قال أن عمرُ ﷺ: يا رَسُول الله، ألستَ رَسُولَ الله؟ قال: بلىٰ، قال: ألسنا علىٰ حقٍّ؟ قال: بلىٰ، قال: أليسوا مُشْرِكين؟ قال: بلىٰ، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في دينِنا. قال: يا عمرُ إنِّي رَسُولُ الله ولن يُضيعَني الله ﷻ، فذهب إلىٰ أبي بكر وقال نفس الكلام، ورد عليه أبو بكر بنفس الكلام: أنه رَسُول الله وإن الله لن يُضَيَّعَه، قال: فعجبتُ من توافقِ قولَيهما، قال عمر: فبقي في نفسي من ذلك القولُ فلا زلت أتصدَّق وأصومُ حتىٰ أُكفِّر عن ذلك القولِ؛ لأن الإنْسَان البشر إنَّمَا يعرف الأمور بظواهرِها، وهذا قد كان فتحاً عظيماً للمُسْلِمين؛ لأنه بعد ذلك أمِن النَّاسُ، وبدءوا يتفاهمون الإسْلَامَ، وقبل ذلك كانوا في حالة استنفارٍ، فبدأ النَّاسُ يعيدون النظرَ

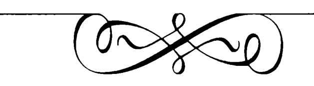
---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجِهَاد، برقم: (٢٧٣٢).

ويسمعون القُرْآن ، ويختلط المُسْلِمون بالكافرين يسمعون القُرْآن ، وقد كان فتحاً عظيماً.

فهذه في الحُدَيبِيَة كان النَّبي ﷺ في وقتِ الخَوف لا ينسىٰ تربيةَ أصحابِه وربطِهم بالله ﷻ، عندما نزل المطرُ في صبيحةِ يومِ الحُدَيبِيَة في أحد الأيام فقال النَّبي ﷺ: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم) هذا أدبُ الصَّحَابَةِ ﵃، لكن لا يقال: الله ورسوله أعلم في كلِّ قضيةٍ؛ لأن الرَّسُول ﷺ بشرٌ لا يعلمُ الغَيْبَ مُطلقاً، لا يعلمُ إلا ما عَلَّمه الله، لكن في قضايا الدِّين نعم، فهناك جانبان، جانبُ الدِّين يجوزُ أن تقولَ الله ورسولُه أعلم؛ لأنَّ الله قد عَلَّمَه كلَّ الدِّين، لكن في غير الدِّين لا تقل الله ورسولُه أعلم، لو قال إنسَان: هل أبوك ذهب إلىٰ مَكَان كذا لا تقل الله ورسولُه أعلم، بل الله وحدَه، هذا عِلْمٌ خَاصّ بالخالِق ﷻ.

فالحديبيةُ هي المكانُ الذي في طرفِ الحَرمِ، فكان النَّبي ﷺ إذا جاء وقتُ الصَّلَاة دخل الحرم وصلَّىٰ في هذا المكان ثم يخرجُ، ثم بعد ذلك وقع صلحٌ بينهما، فهذا الحَدِيث قاله النَّبي ﷺ في الحُدَيبِيَة، ويجوز أن يقال الحُدَيبِيَة بالتخفيف أو الحُدَيبِيَّة، كلاهما جائز من حيث الَّلغَة، واختلفوا في تسميتها بالحدِيبيةِ قيل أن هناك شجرةً كبيرةً حدباءَ، فنسب المكانُ إليها، هذا من أقوالِ العُلَمَاءِ في سبب التسمية، لكن هذا اسم معروف مشهور في الماضي، فهذا يسمىٰ الحُدَيبِيَة، وهو الآن يُسمَّىٰ (بالشميسي)

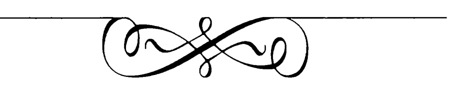


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فلما أنصرف) أي من صلاته لا من مَكَانه، كما يدل عليه قوله: (أقبل علىٰ النَّاس) أي التفت إليهم بوجهه الشريف، ففيه دَلِيل علىٰ أنه لا ينبغي للإمام إذا صلىٰ أن يجلس مستقبل القبلة، بل ينصرف إلىٰ المأمومين كما صحت بذلك الأحَادِيثُ.

الشَّرح

هذه قضيةٌ فقهيةٌ، الإمام بعد أن تنتهي الصَّلَاة هل يبقىٰ في مَكَان أمامتِه، أو يقوم من مَكَان الإمامةِ؟ جمهورُ العُلَمَاء علىٰ أنه يتجهَ إلىٰ جهةَ المأمُومين، وقد صح في ذلك الأحَادِيثُ، ومنها هذا الحَدِيث، أنصرف إليهم وتكلَّم معهم، ما قام من مَكَانه ﷺ، فالأحاديثُ صحَّت أنه ينصرفُ أي من جهة القِبلة، فيتجه إلىٰ الجالسين، وقد صحَّ الحَدِيث أنه ﷺ كان يجلس بعد الفجر حتىٰ تُشرقُ الشَّمْس في مَكَانه ﷺ، لكن متجهًا إلىٰ أصحابه ﷺ. وكان الصَّحَابَةُ يأخذون في أمورِ الجَاهِلِيَّة وكان يبتسمُ ﷺ، فالأحاديثُ الصَّحِيحُة ثبتت وجاءت بأن النَّبِي ﷺ كان يجلس في مَكَانه مُتجهًا إلىٰ الصَّحَابَةُ، وبعض عُلَمَاء المالكية كرِهوا ذلك، فهموا من النَّصوص أنَّ الإمامَ يقوم، لكن هذا في الحَقِيقَة ليس عليه دَلِيل صَحِيح، والأدلة الصَّحِيحةُ تخالفُ هذا المفهومَ.

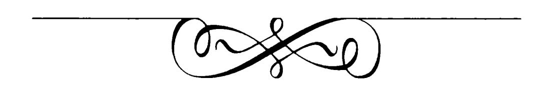


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (هل تدرون؟) لفظ استفهام ومعناه التنبيه، وفي رواية النسائي: (ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟) وهذا من الأحَادِيثُ القدسية، قال الحافظ: وهي تحمل على أن النَّبِي ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليخبرهم، وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها، ذكره المصنف.

الشَّرح

يذكر هنا الأساليب النَّبَوِيَّة في تعليم الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، من الأساليب النَّبَوِيَّة أنه إذا أراد أن يخبرَهم بقضية سألهم، كثير من السُّنَّة فيها هذا الأسلوبُ، عندما سألهم عن شجرةٍ تشبه المُؤمِن، فضربَ النَّاس بالأشجار، كذلك عندما حجَّ وخطب في حَجةِ الوداع، فسألهم أيُّ يومٍ هذا؟، وأي شهر هذا؟، فهذا أسلوب نبوي، لينتبه السامعُ، فهكذا من أساليبه ﷺ أنه يُلقي المسائلَ أحيانًا عن طريقِ السؤال، ثم الصَّحَابَةُ يُجيبون بقولِهم: اللهُ أعلمُ، أو اللهُ ورسولُه أعلم، فيخبرُهم ﷺ بما أراد أن يُعلمَّهم إيَّاه.



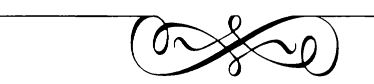
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (قالوا الله ورسوله أعلم) فيه حَسَن الأدب للمسؤول عما لا يعلم، وإنه يقول ذلك أو نحوه ولا يتكلف ما لا أي:ه.



الشَّرح

وهذا من أدبُ العالمِ، وأدبُ طالبِ العلمِ أنَّه إذا سُئل عن مسألةٍ لا يعلمُ فيها دَلِيلاً فليقل: اللهُ أعلمُ، أو لا أدري، وفي ترجمة الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه جاءه رجلٌ من العرب فسأله أربعين مسألة، فأجاب في ستِّ مسائلَ، وقال في أربع وثلاثين: قال: اللهُ أعلم، فقال: يا أبا عبد الله جئتك من بلادٍ بعيدةٍ، فماذا أقول لمن ورَائي؟ قال: ارجع إليهم فقل سألته فقال: اللهُ أعلمُ، وعندما ناظر الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ رجلاً في مسألة الصَّلَاة، فقال هذا الشَّخص: لم نسمع بهذه المسألة في العلمِ، فقال الإمام مالك: هل حفظت العلمَ كلَّه؟ قال: لا. قال: هل حفظتَ ثُلُثيه؟ قال: لا، قال هل حفظتَ نصفَه؟ قال: يمكن، قال: اجعلها من النِّصف الذي لم تحفظه، ما كل الذي حفظته يكون كل العلم، والإنسان يقول لم نسمع بهذا في العلم، فأراد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُعلِّمَه، ما هناك إنسَان وعَى العلمَ كلَّه، فينبغي للإنسانِ أن يحرصَ وليقل دائماً إن لم يعلم: اللهُ أعلمُ؛ لأنَّ الإنْسَان لا يعلمُ كلَّ شيء، فهذا أدبٌ من الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

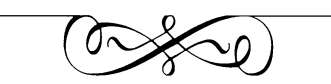
قوله: (قال: أصبح من عبادي) الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلىٰ مؤمن وكافر. فإن قيل: هذا يدل علىٰ أن المراد بالكفر هنا هو الأكبر، قيل: ليس فيه دَلِيل، إذ الأصغر يصدر من الكُفَّار.



الشَّرح

قوله: (الإضافة هنا للعموم) كلمة العموم، أي: لم يُرد فئةً واحدةً، إنَّمَا أراد فئة كبيرة من المُجْتَمَع، أو أراد المُجْتَمَع كلَّه؛ لأن النَّاس كلَّهم قسمان، قسمٌ يعزو الأحداثَ إلىٰ اللهِ وقسمٌ يعزُوها إلىٰ غير الله، ما هناك قسمٌ ثالث، فأرادَ العمومَ، وإن كان لفظُ (مِن) تأتي للتبعيض.

الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلىٰ تفسير هذا الحَدِيث علىٰ الكُفْر الأصغر، كُفر النعم، وليس الكُفْر الأكبر؛ لأن الكُفْر يطلق علىٰ الجحود، من جحد نعمة الله أو لم يعزها إلىٰ الله، أو اعتقد أن بعض المخلوقات لها علاقة بهذا الفعل، هذا يسمىٰ كُفْر نعمة، لكن إذا اعتقد أن الذي أنزل المطر هو الكَوَاكِب كُفر كُفْراً أكبر، فهنا الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلىٰ أن المراد بالكفر هنا هو كُفْر النِّعْمَة؛ لأن الذين وصفهم بالكفر لم يعزوا الإنزال إلىٰ الكَوَاكِب، وإنما جعلوها سبباً، كما قال: (مطرنا بنوء) والباء هنا باء السببية، أي بسبب كذا، فهذا كُفْر أصغر وليس كُفْراً مخرجاً من الملة، فقد يقول قائل: أن هذا قد يقع من الكُفَّار، نعم، الكافر يقع منه كُفْر النِّعْمَة، وإن كان هو كافراً كُفْراً أكبر.



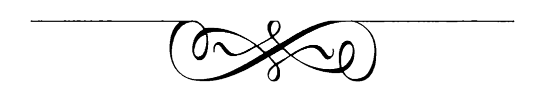
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (مؤمن بي وكافر) المراد بالكفر هنا هو الأصغر، بنسبة ذلك إلىٰ غير الله، وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تَعَالَىٰ هو الخَالِق للمطر المنزل له بدليل قوله في الحَدِيث: (فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته إلىٰ آخره) فلو كان المراد هو الأكبر، لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتىٰ بباء السببية؛ ليدل علىٰ أنه م نسبوا وجود المطر إلىٰ ما اعتقدوه سببًا، وفي رواية: (فأما من حمدني علىٰ سقياي وأثنىٰ علي فذاك من آمن بي) فلم يقل: فأما من قال أني المنزل للمطر فذالك من آمن بي؛ لأن المُؤمِنين والكفار يقولون ذلك، فدل علىٰ أن المراد إضافة ذلك إلىٰ غير الله، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله، وروىٰ النسائي والإسماعيلي نحوه، وقال في آخره: (وكفر بي أو كُفْر نعمتي).



الشَّرح

هذه الألفاظ التي ترد في الأحَادِيثُ هي بسبب أن الرُّوَاة يختلفون في رواية الأحَادِيثُ، منهم من يروي ب المَعْنَىٰ ومنهم من يروي باللفظ نفسه، فالألفاظ في الصَّحِيحُين هي أقوىٰ الألفاظ وأصحها، أمَّا ما يأتي في بقية الكتب الأخرىٰ فتعين علىٰ التفسير، لكن المعتمد هو ما صح في الكتب الموثوقة.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي رواية أبي صَالِح عن أبي هريرة عند مُسْلِم قال: رَسُول الله ﷺ: (ألم تروا إلىٰ ما قال ربكم، قال: ما أنعمت علىٰ عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين) وله من حَدِيث ابن عَبَّاسٍ: (أصبح من النَّاس شاكر، ومنهم كافر) الحَدِيث. وفي حَدِيث معاوية الليثي مرفوعًا: (يكون النَّاس مجدبين فينزل الله عليهم رزقًا من رزقه، فيصبحون مُشْرِكين يقولون مطرنا بنوء كذا) رواه أحمد.

فبين الكُفْر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلىٰ غيره تَعَالَىٰ، بأن يقال مطرنا بنوء كذا، قال ابن قتيبة: كانوا في الجَاهِلِيَّة يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء، إمَّا بصنعه علىٰ زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كُفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعًا في ذلك فكفره كُفْر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكُفْر عليه وإرادة كُفْر النِّعْمَة؛ لأنه لم يقع في شيء من طرق الحَدِيث بين الكُفْر والشرك واسطة، فيحمل الكُفْر فيه علىٰ المعنيين.

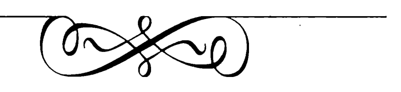
الشَّرح

المُصْطَلَحان أي: الكُفْر والشِّرك، ما الفرق بينهما؟ الشِّرك جاء يصف الحالة الواقعةُ، والكُفْر هو الحالةُ التي حدثت بعد مَجيء الإسْلَام، مثلاً: فيقُرَيشٍ قال - تَعَالَى -: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة:١]، فذكر أهل الكتاب والمشركين، وذكر الذين كُفْروا من كلتا الطائفتين.

فالمشركُ هو وصفٌ للواقع الذي كان يعيشُه النَّاس، والكُفْر هو الفعلُ الذي يحدث بعد مَجيءِ الإسْلَامُ، فمثلاً: الآن نُسمِّي النَّاس مُشْرِكين، ولا نُسمِّيهم كفاراً من هذا المنطلقِ، الكُفْر وصفٌ يأتي إذا تعمَّد الفعلَ، لكن

المُشركُ وصفٌ للحالةِ القائمةِ، لكن من حيث العِقاب في الآخِرَة الشِّرك والكُفْر سواءٌ، فلو استمر على شركِه يُسمَّى مُشْرِكًا، ويُسمى كافِراً، لكن الآن النَّاس مُشْرِكون في البلدانِ غيرِ الإسْلَامية، ويجوزُ أن نقول كافرين، لكن الوصفُ الدقيقُ أن يقال مُشْرِكون؛ لأنَّها وصفٌ للفعلِ، أمَّا الكُفْر فوصفٌ للمواجهة بأن يُدعَى شَخصٌ ثم يرفُضُ.

لهذا قال -تعالى-: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ فوصفُ من الطائفتِين وصفًا ثالثًا، وهي أهلُ الكتابِ كفارٌ إذا امتنَعوا عن الإسْلَامِ، لكن يُسمُّون أهلَ كتابٍ، والمشركون هم الذين لم يكن لهم كتابٌ، هذا التقسيم الثنائي في غير المُسْلِمين، فعندما جاء الإسْلَام فكفروا اشتركَ أهلُ الكتابِ وأهلُ الشِّرك في الكُفْر، وإن كان بقيَ الاسمُ يُطلقُ عليهم، وإن كان أهلُ الكتاب كُفَّاراً لكن لهم أحكامٌ خَاصّةٌ، فالكفرُ هو الوصفُ الذي يَنتجُ بعد مَجيءِ الإسْلَام، أو بعد أن يُدعَى الإنْسَانُ إلى الدِّينِ فيرفضُ، فهنا يقول: ليس بين الشِّرك والكُفْر واسطةٌ، أي: أن كليهما متقاربان.





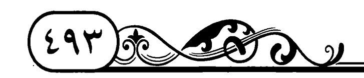
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الشَّافِعِي: من قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كُفْراً، وغيره من الكلام أحب إلى منه، قلت: قد يقال أن كلام الشَّافِعِي لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كُفْر شرك وغيره من الكلام أحسن منه، إمَّا كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز؛ لما تقدم أن معنى الحَدِيث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظًا، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر فهذا من باب الشِّرك الخفي في الألفاظ.



الشَّرح

الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أجاز أن يقال: مُطرنا بنوء كذا، والحديث يقول: أنَّ من قال هذا اللفظ يكون كافِراً أي: يُطلَق عليه وصفُ الكُفْرِ، فكيف يقول الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا؟ له مَلحظٌ دقيقٌ، يقول: القائل لهذه اللفظة يريد أحد معنين، إمَّا أن يُريد أنَّ المطرَ نزلَ في وقت النَّوء، والأنواءُ مَنَازِلُ الكَوَاكِبِ والنُّجُومِ، والمنزلَةُ ثلاثةَ عشرَ يومـًا تقريبـًا للكواكبِ التي تُسمى بروجـًا، فيها وقتٌ مُعين، فإذا نزلَ المطرُ في هذا الوقتِ يجوزُ أن تقولَ: مُطرنَا بنَوء كذا، أي في نوءِ كذا؛ فإنَّ حُروفَ المَعاني يحلُّ بعضَها محلَّ بعضٍ، لكن لو أراد بنوءِ كذا بمعنى السببية فهذا لا يجوزُ، فالشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما خالفَ الحَدِيث، لكن غير هذا اللفظ أولى منه، فالشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أراد أنَّه يجوزُ أن يعتقدَ الشَّخص بأن الكَوكَبَ علامةٌ، أو سببٌ، ففرَّق بين المعنيين، لكن إذا ورد في الشرع النهي عن لفظٍ وجبَ علينا أن نمتنع ولو أردنا غير المَعْنَى الذي نزل من أجلِه احترامـًا للألفاظِ التي جاءت في القُرْآنِ والسُّنةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

كقوله: لولا فلان لم يكن كذا.

وفيه معنىٰ قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، فإن كثيرًا من النعم قد تجر الإنْسَان إلىٰ شر كالذين قالوا: مطرنا بنوء كذا بسبب نزول النِّعْمَة، وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع. ذكره المصنف، يشير إلىٰ أن المراد به هنا نسبة النِّعْمَة إلىٰ الله وحمده عليها، كما في قوله ﷺ أخْبَاراً عن ربه تَعَالَىٰ: (فأما من حمدني علىٰ سقياي وأثنىٰ علي فذاك من آمن بي).

وقوله: (فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته) الحَدِيث.

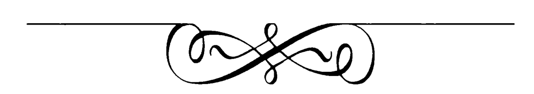
وفيه: أن من الكُفْر ما لا يخرج عن الملة، ذكره المصنف.

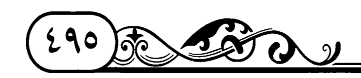


الشَّرح

قلنا أنَّ الألفاظَ التي جاءت مثلُ: الكُفْرِ والشِّركِ والفسقِ ونحوها قد تطلقُ علىٰ الإنْسَان المُسْلِم لكنها لا تخرجُه من المِلَّة، فلا يقالُ فلانٌ كافرٌ، إنَّما يقالُ: قال الكُفْرَ، أو عملَ الكُفْرَ، لكن لا يُوصف به، مثلُ حَدِيثِ أبي ذرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنك امرؤ فيك) ما قال أنَّك جاهلي؛ لأنه ليس جَاهلياًّ، الوصفُ ينبغي أن يكون فيه تناسبٌ بين الوصفِ والحقيقةِ، فإذا كان الإنْسَان مُسْلِماً ويؤدي جميعَ الفرائضَ، لكن وقع في البِدْعَةِ، أو وقعَ في المَعْصِيَة فالعلماء يقولون: يكون مُؤمناً بإيمانه فاسقاً بمعصيتِه، نقول: مؤمنٌ فاسقٌ، لا نقول: فاسقٌ مُطلقاً، إلا إذا غلب فسقُه، فيقال له فاسقٌ، إمَّا إذا ارتكب معصيةً أو بِدْعَة أو عملاً مُكفِّرًا، فلا يوصفُ بالوصفِ بكامله، إنَّما يقال: قال كُفْراً، أو فعلَ كُفْراً،

فهنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ من الكُفْر ما لا يُخرجُ من الِملَّة، أي: إطلاق الكُفْرِ على فعل الكُفْرِ لا يُخرجُ صاحبَه من الملَّة؛ لأنَّ الكُفْرَ المُخرجَ من الملَّةِ له صفاتٌ غيرِ هذه الصفات.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته) أي من نسبه إلىٰ الله واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته، من غير استحقاق من العبد علىٰ ربه، وأثنىٰ به عليه فقال: (مطرنا بفضل الله ورحمته).

وفي الرواية الأخرىٰ: (فأما من حمدني علىٰ سقياي، وأثنىٰ علي فذاك من آمن بي) وهكذا يجب علىٰ الإِنْسَان أن لا يضيف نعم الله إلىٰ غيره، ولا يحمدهم عليها بل يضيفها إلىٰ خالقها ومقدرها، الذي أنعم بها علىٰ العبد بفضله ورحمته، ولا ينافي ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك، وذكر ما أولاكم من المَعْرُوف، إذا سلم لك دينك، والسر في ذلك والله أعلم أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته، وإن كان لا صنع له في ذلك، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ هذه قاعدةٌ، أنَّ المُسْلِم ينسب ما حصل له من النِّعم إلىٰ الله، وإن كان بعض النَّاس سببًا لذلك، يعتقد أنَّ اللهَ هو المُنعمُ عَزَّ وَجَلَّ، لكن لا يعني هذا أنَّ من كان سببًا في هذه النِّعْمَة لا يُشكر، بل يُشكر ويُثنىٰ عليه، لكن المُسْلِمَ يعتقدُ في قلبِه أنَّ الفاعلَ هو الله، وأنَّ الله هو الذي سخَّره، وهو الذي قدَّره، ولو أراد الله غير ذلك لما استطاع هذا الإِنْسَانُ المُنعِم أن يُعطيَه أو يُجريَ له هذا الخيرَ، فيشكرُ النَّاس لكن يعتقد أن الفضلَ من الله، فشُكرُ النَّاسِ علىٰ ما فعلوه أمرٌ مطلوبٌ، فهذه قاعدةٌ في كلِّ حياتِنا، كلُ فضلٍ ونعمةٍ نعزُوها إلىٰ الله، ونعتقدُ في قلوبنا أنَّها من الله، وأنَّ الله قدَّرها، لكن الإِنْسَان يكون سببًا من الأسباب، واعتقادُ السببِ لا يمنعُ أن نعتقدَ أنَّ الله هو صاحبُ الفضلِ.

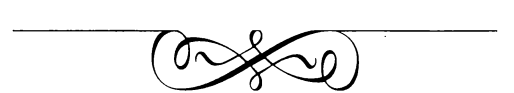
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وأما من قال مطرنا بنوء كذا) إلىٰ آخره كالصريح فيما ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلىٰ غير الله، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله، ولهذا لم يقل فأما من قال: أنزل علينا المطر أو أمطرنا نوء كذا. قال المصنف: وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع، يشير إلىٰ أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النِّعْمَة إلىٰ غير الله، كالنوء ونحوه علىٰ ما تقدم، ولما كان أنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلىٰ عباده، لما اشتمل عليه من منافعه فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره الوَاجِب عليهم أن يضيفوه إلىٰ البر الرحيم المنعم ويشكروه، فإن النفوس قد جبلت علىٰ حُبّ من أحسن إليها، والله تَعَالَىٰ هو المحسن المنعم علىٰ الإطلاق، الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده كما قال - تَعَالَى -: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

الشَّرح

إذا قال الشَّارِحُ: (المُصنف) أرادَ به الشيخَ مُحَمَّدَ بنَ عبد الوهابِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فيقول: فيه التفطُّن للكُفرِ، أي: الإِنْسَانُ حسَّاسٌ في الألفاظِ المتعلقةِ بالخالقِ أو بالمخلُوقِ، فينبغي أن يكون المُسْلِم عنده حساسيةٌ في الألفاظِ والعباراتِ، اللفظ إذا كان فيه شبهةٌ أو كان فيه معنىً يُخشَىٰ منه فلا يتكلَّم به، فليس كلُّ لفظٍ يجوز للمُسْلِمِ أن يطلقَه، بل لَابُدَّ أن يفهمَ معناه، حتىٰ لا يقعَ في المحذورِ، فهؤلاء الفئةُ من النَّاس قالوا: مُطرنا بنوءِ كذا، وهم لم يعتقدوا أنَّ النَّوء هو الذي أنزلَ المطرَ، لكن لما اعتقدوا أنَّ الكَوَاكِبَ سببٌ ـ والله لم يجعلها سبباً ـ وقعوا في الكُفْرِ الذي هو كُفْر النِّعْمَة، ثم يبدو ـ والله أعلم ـ أنَّهم عندما نزل المطرُ أول ما تبادرَ في ذهنهم الكَوَاكِبُ، لَعَلَّ هذا كذلك من جوانبِ المحذورِ،

أول ما نزل المطرَ اعتقد أناسٌ أنَّ الفضل من الله، وأنَّ الله هو الذي أكرمَهم بالمطر، وأناس وقعَ في قلوبِهم أنَّه بسببِ النَّوء الفُلاني، نسوا الله، وإن كانوا يعرِفون أنَّ اللهَ هو المُنزِلُ للمطرِ، وهذا انقطاعُ عن الخَالِق، والمُسْلِم قلبُه مربوطٌ بالخالِق ﷻ، كلُّ نِعمةٍ تحدثُ لك هي من الله، وكلُّ أذىً أو بلىً يحدثُ لك بإذنٍ من الله، فلتجعَل قلبَك مَوصولا بالله ﷻ، في النِّعْمَة تشكرُ الله، وفي البلاء تصبرُ وتسأل الله أن يرفعَ عنك البَلاءَ، فعند النِّعْمَة والبلاء قلبُك موصولٌ بالخالِق ﷻ، أمَّا هؤلاء يبدو أنَّهم كانوا لم يستحضروا في أذهانِهم عند نزول النِّعْمَة إلا الكَوَاكِبَ، وهذا لا يليقُ بهم، كان ينبغي أن يستحضِروا أنَّ هذا من الله، وهكذا المُسْلِم حساسٌ في المواقف، فيعزُو النِّعْمَةَ إلىٰ الله ﷻ؛ لأنَّ الإنْسَانَ ليس له القدرةُ علىٰ أن يُوجِدَ، ولا علىٰ أن يَخلُقَ، ولا علىٰ أن يُقدِّرَ النتائجَ، الإنْسَانُ سببٌ، ولكن الله هو المُدَّبرُ، وهو المهيئُ لهذه الأسباب.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: ولهما من حَدِيث ابن عَبَّاسٍ معناه، وفيه قالَ بعضُهم: لقدْ صَدَقَ نَوءُ كَذا وكَذا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة:٧٥].

إلىٰ قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

قوله: (ولهما) الحَدِيث لمُسْلِم فقط، ولفظه عن ابن عَبَّاسٍ قال: مطر النَّاس علىٰ عهد النَّبي ﷺ، فقال النَّبي ﷺ: (أصبح من النَّاس شاكر، ومنهم كافر قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا) قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة:٧٥]. حتىٰ بلغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

قوله: (قال بعضهم) ذكر الواقدي في مغازيه عن أبي قتادة: أن عبدالله بن أبي هو القائل في ذلك الوقت مطرنا بنوء الشعرىٰ، وفي صحة ذلك نظر.

الشَّرح

كذلك قالوا: لقد صدق نوء كذا وكذا، أي: كأنَّهم يقولون أن هذا النَّوءَ له علاقة بالمطر، فعندما يرونه يعتقدون نزولَ المطرِ لا محالة، وهذا اعتقادٌ بَاطِل.

وهذا نموذجٌ من ربطِ الآية بسببِها، أنَّ القُرْآنَ الكَرِيم نزلَ علىٰ حوادثَ، أي: علاجاً لحوادثَ وقعت، نزل مُنجَّماً علىٰ ثلاث وعشرين سنةٍ، كلُّ فترةٍ ينزلُ مجموعةَ آياتٍ، أو سورة، وأكثرُها مربوطٌ بالحوادث، فمنها ما حُفظ لنا، ومنها ما لم يُحفَظ من أسبابِ النزول.

الواقدي ذكر قصةً، ولا يوثق بكل ما يقولُ أهلُ المغَازي، وليس كل منافقٌ هو الذي قد يقول الكلامَ، قد يقوله مُسْلِمٌ عن جهلٍ، فإذا لم يصح الحَدِيث فلا ينبغي لنا أن نعتقدَ نسبتَه إلىٰ من نُسِب إليه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة:٧٥]، هذا قسم من الله عَزَّ وَجَلَّ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دَلِيل علىٰ عظمة المقسم به وتشريفه، وتقديره: أَقسَمَ بمواقع النُّجُوم، ويكون جوابه أنه لقرآن كريم، فعلىٰ هذا تكون " لا " صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم في القُرْآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

الشَّرح

قوله تَعَالَىٰ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة:٧٥]، من الأساليبِ القُرْآنية: الإثباتُ في صورةِ النفي ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة:١]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [البلد:١]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة:٧٥]، عُلَماءُ العَرَبِية لم يجدوا في كلام العَرَبِ قاعدةً تُفسِّرُ لهم هذا الأسلوبَ، فاتفقوا علىٰ تسميتِها بأنها زائدةً، فتقول: فأقسم بمواقعُ النُّجُوم؛ لأن الآية وردت للإثباتِ ليس للنفي، لكن هذه العبارة التي ذكرها الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ عبارةٌ مؤدبةٌ، سمَّاها صلةً، أي: أنَّ هناك جملةً محذوفةً، دلَّ عليها النفيُ، فيكون المَعْنَىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ ليس الأمرُ كما تظُنُّون، بل أَقسَمَ بمواقعِ النُّجُوم إنَّه لقرآنٌ كريم، فسماها باصطلاح أنَّها تسُمَّىٰ لامَ الصلةِ، أي تصلُ الكلامَ المحذوفَ بالكلام الظاهرِ، كذلك: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ أي: ليس الأمر كما تظنون؛ لأن اَللُّغَة العَرَبِية من أساليبها الحذف، ويدلُ علىٰ المحذوفِ السياقُ.

القَسَمُ بمواقع النُّجُومِ عظيمٌ، فالأجهزة الحَدِيثة وما وصَل النَّاسُ إليه من الصناعات في العصر الحاضر مكنتهم من كشف جوانبَ لم تكن من قبلِ

معروفة، وخاصة في عِلْم الفَلَكِ، وعِلْمُ الفَلَكِ في الماضي كان يقوم علىٰ الدراسة الاستنتاجيةِ وليس علىٰ الدِّراسةِ المُشَاهدة، اليوم صنعوا التلسكوباتِ الكبيرةَ التي يرون بها الكَوَاكِب والنُّجُومَ، ويتابعُونها، وتُنشأُ المراصدُ الخاصة بمراقبةِ النُّجُوم، ومتابعتِها، وحتىٰ أصبح لها أسماءٌ، ولها رسومٌ، ولها صورٌ، وهناك دراساتٌ عن طبيعةِ كلِّ نَّجمِ، وعما فيه من مكوناته، وحركتِه، وعلاقتِه بالنَّجم الآخرِ، دراسةٌ دقيقةٌ في العصِر الحاضر، العُلَمَاءُ في العصر الحاضر يقولون: أنَّ الكَوَاكِب والنُّجُوض في الفضاء لها أماكنُ سحيقةٌ جداً، حتىٰ أن كثيراً من النُّجُوم البعيدةِ في حجمِها تعادلُ الشَّمْس مائةَ مرةٍ، قالوا: هذا الشِّعرىٰ ـ وهو نجمٌ ـ مثلُ الشَّمْس مائة مرة، لكن لبعده السحيق نراه صغيراً، فرب العَالَمِينَ يقسم بمواقع النُّجُوم، المواقع جمع موقع، والموقع هو المكان الذي فيه الشيء، فربنا ﷻ يقسم بمواقع النُّجُوم، الذي يسمع عِلْم الفَلَكِ لا يصدق ما يقوله عُلَمَاء الفَلَكِ، لكن عندما يقرأ الآية رَبِّ العَالَمِينَ يقسم بمواقع النُّجُوم، ثم يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٦]. لو تعلمون مواقع هذه النُّجُوم، يقولون: بعض النُّجُوم تولدُ وتبثُّ إلينا شُعاعَها، وتنتهي ولم يصل إلينا شعاعُها، للبعد السحيقِ لهذه النُّجُوم، فالدارسون للكَواكِب والنُّجُومِ يقولون: أنَّ هذه الكَوَاكِبَ والنُّجُومَ لها في الفضاء أماكن بعيدةٌ جداًّ، وربنا عندما أَقسَمَ بهذه النُّجُومِ والمواقعِ لَعَلَّ هذا يعيننا علىٰ فهم كلام الفَلَكِيين في هذا الجانبِ، عِلْمُ الفَلَكِ يختلفُ عن عِلْم التَّنْجِيْم، عِلْم التَّنْجِيْم هو ربط حوادثِ الأَرْض بحركاتِ الكَوَاكِبِ والنُّجُوم، وأن الكَوَاكِبَ والنُّجُومَ مُؤثراتٌ في الأَرْض، حَيَاة وموتـًا، وفقراً وغنًىٰ، وسعادةً وشقاءً، هذا عِلْمٌ بَاطِل، أما دراسةُ الفَلَكِ، حركاتِ النُّجُوم، وأحجامِ النُّجُوم والكواكبِ، والفرقُ بينها، وسيرُها إلىٰ غير هذا مما يتعلق بالكواكبِ والنُّجُوم ليس هذا هو المحذور.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

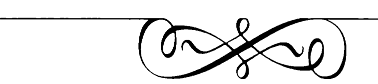
قال ابن جرير: قال بعض أهل العَرَبِيَّة: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القَسَم بعد، فقيل: أَقسَمَ، ومواقع النُّجُوم قال ابن عَبَّاسٍ: أي: نجوم القُرْآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السَّماء العليا إلى السَّماء الدُّنْيَا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد، ثم قرأ ابن عَبَّاسٍ هذه الآية، ومواقعها نزولها شيئًا بعد شيء، وقيل: النُّجُوم هي الكَوَاكِب، ومواقعها مساقطها عند غروبها، قال مجاهد: مواقع النُّجُوم يقال مطالعها ومشارقها، واختاره ابن جرير.

الشَّرح

وهذه المعاني بحسب إدراكِهم، والقرآنُ الكريمِ لا زال يكتشفُ فيه من الإعجاز في كل جيل ما يدل على أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعاب القدماء إذا لم يصلوا إلى الحَقِيقَة؛ لأن الحَقِيقَة إنَّمَا تعرف عن طريق العلم، فكلما زاد عِلْمُ الإنْسَان اكتشف جوانبَ من القُرْآن تدلُّ على أنَّه كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، فابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ينسب إليه تفسيران، وينسب إلى مجاهد وإلى عكرمة وإلى جماعة من الصَّحَابَةُ والتابعين. وينبغي أن نعلم أولاً: أنه ليس كل ما ينسب إليهم صَحِيحًا، فإذا كان لم يصح كل ما نسب إلى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالنسبة إلى الصَّحَابَةِ من بابِ الأولى، فليس كل ما نُسب إلى الصَّحَابَةِ يكون صَحِيحًا.

ثانيًا: أنَّ الصَّحَابِي قد يقول القولَ ولا يصيبُ الحَقِيقَة؛ لأنَّ الصَّحَابِي بشرٌ، لو كان الصَّحَابِي إذا قال قولاً أو فسَّر آيةً بمعنى فإن لم يكن هناك معنىً آخر ما اجتهدَ العُلَمَاءُ بعدهم في معرفة المعاني القُرْآنية؛ لأنَّ القُرْآنَ خِطابٌ للبشرية إلى قيامِ السَّاعَةِ، لكن لو جاءَ إنسَانٌ وخرجَ على قواعدِ اللّغَة، وفسَّر

القُرْآنَ بتفسيراتٍ جديدةٍ لم تُعرف عند العَرَبُ، هذا يُردُّ عليه، وهذه الآيـةُ تـدلُّ علىٰ أنَّ النُّجُـومَ المـراُد بهـا النُّجُـومُ المحسوسـةُ، الكَوَاكِـبُ والنُّجُـومُ التـي في الفضاء، أمَّا القُرْآنُ فكان كلُّه في مَكَان وحدَه في السَّماء، فنزل مُنجمًّا من مَكَانـه إلىٰ الأَرْض، فما هناك مواقعُ للقُرْآن في السَّماء كان ينزلُ فيها بمعنىٰ أنَّه تُوقفُ الآياتُ في مَكَان، ثم تنزلُ إلىٰ المكانِ الثاني، فليس المـراد بهـا نجـومُ القُـرْآنِ، وإن كان القُرْآنُ نزل مُفرقـًا، أي: كلُّ مجموعةٍ علىٰ حـدةٍ في وقـتٍ مُعينٍ، هـذا المـرادُ بـالتَّنجِيمِ في القُـرْآنِ، ولـذلك يقـولُ: القُـرْآن نـزل منجمـًا أي مُفرَّقـًا بحسبِ الأحداثِ والأزمنةِ، لم يَنزلُ كلُّه في وقتٍ واحدٍ، فمُنجَّمـًا بمعنىٰ مُفرَّقـًا والله أعلمُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فائدة: وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النُّجُوم في القَسَم وبين المقسم عليه، وهو القُرْآن من وجوه، أحدها: أن النُّجُوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القُرْآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل، فتلك هداية في الظُّلْمات الحسية، وآيات القُرْآن هداية في الظُّلْمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النُّجُوم من الزينة الظاهرة للعالم، وفي القُرْآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النُّجُوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القُرْآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنُّجُوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القُرْآنية، ومواقعها عند النزول ذكره ابن القَيِّم.



الشَّرح

هذه تسمى بإشارة النَّصِ، النَّصّ له دِلالةٌ قطعيةٌ، ودِلالةٌ ظاهرةٌ، ودلالةٌ إشاريةٌ، فابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أن القُرْآنَ الكَرِيمَ عندما جمعَ بين النُّجُوم، وبينَ القُرْآنَ، كان هناكَ تناسب، أن النُّجُومَ يُهتدى بها في الظُّلْماتِ الحسية، والقرآنُ يُهتدَى به في الظُّلْماتِ المعنويةِ، فالإنسانُ إذا كان في حياته لا يعرفُ الحلالَ والحرامَ أو لم يقرأ القُرْآنَ فإنَّه لا شكَّ أنَّه سيقعُ في الظُّلْماتِ، لكن إذا قرأ القُرْآنَ وعرفَ الأحكامَ ميَّزَ بين الحلالِ والحرامِ، وبين ما يُحِبُّه الله وما يبغضُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم كذلك بينَ ما في النُّجُومِ من رُجومِ للشَّياطينِ، وما في القُرْآنِ من رُجُومِ للشَّياطين أيضًا، وإدحاضِ شبهاتِهم وشكوكِهم، وسيأتي إشارةٌ لطيفةٌ للبُخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو يرى أن قوله - تَعَالَىٰ -: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة:٧٩]. لا يلتذّ بالقرآنِ إلا من طَهُرَ قلبُه، وهذا معنى طريفٍ جداً كما سيأتي من كلامِه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

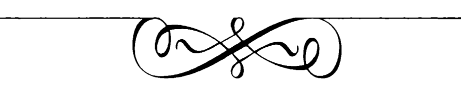
وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٦].

قال ابن كثير: أي وإن هذا القَسَم الذي أَقسَمَت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه.



الشَّرح

سبقَ ذكرُ أن القَسَم بمواقعِ النُّجُومِ، أي بأماكنِها؛ لأنَّ الموقعَ في الَّلغَة يأتي علىٰ المكانِ، والقسمُ بمواقعِ النُّجُوم قسمٌ عظيمٌ، إمَّا لعظمةِ هذه النُّجُومِ وحجمها الكبيرِ العظيمِ الذي لا نُدركُه، فلو عَلِمنا حجمهَا وعرفنَا القَسَم به لعرفنا أنَّ القَسَم عظيمٌ، وإمَّا لبعدِها فنحن نرىٰ النُّجُومَ كأنَّها معلقةٌ في السَّماء القريبةِ، لكن في الحَقِيقَة عندما نظر إليها الفَلَكِيون بالمراصدِ الكبيرة رأوا عجبًا، قالوا: مواقعها بعيدةٌ جداً، وبيننا وبين كثيرٍ منها سنواتٌ، مئاتُ السنوات حتىٰ نصل إلىٰ هذه المواقِع، فعندما يقول عُلَمَاءُ الفَلَكِ هذا الكلام يتبينُ لنا طرفٌ من معنىٰ القَسَم الذي أَقسَمَ به ﷻ، الله العظيم يقسم بمواقع النُّجُوم، ويقول: أن القَسَم عظيم، فلابد أن يكون شيءٌ في هذا القَسَم، فالنَّاس اليوم استطاعوا بهذه الوسائلِ أن يُدرِكوا طرفًا من هذا القَسَم العظيمِ، الله يُقسمُ بالنُّجُومِ ومواقِعها علىٰ صدق القُرْآن الكَريم، فهنا التلازمُ بين القُرْآنِ والنُّجُومِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

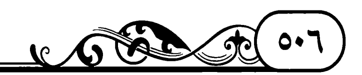
وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ [الواقعة:٧٧].

هذا هو المقسم عليه وهو القُرْآن ، أي أنه وحي الله وتنزيله، وكلامه لا كما يقول الكُفَّار أنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو قرآن كريم، أي عظيم كثير الخير؛ لأنه كلام الله. قال ابن القَيِّمِ: فوصفه بما يقتضي حَسَنًا وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السَّلَف الكريمَ بالحسن. قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمده، والله تَعَالَىٰ كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدىٰ والبيان والعلم والحكمة.

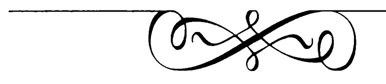


الشَّرح

وصفُ (الكريم) وردَ في القُرْآن وصفًا للقرآنِ، ووصفًا للعرشِ، ووصفًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك وصفَ الله الأجرَ الذي يُعطِيه المُؤمِنين يَومَ القِيامَة بأنَّه أجرٌ كريمٌ، فالكرمُ في كلِّ آيةٍ بحسبِ السياقِ، فالكرمُ في حقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هو العطاءُ، فإنَّ ربَّنا عَزَّ وَجَلَّ يُعطي ما لا يعطيه المَخلوقُ، فربُنا إذا عملَ عبدٌ حَسَنةً أعطاه عشرةً، وقد يضاعفُها إلىٰ سبعمائة ضعف، وإذا هم بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبت له حَسَنةٌ، وإذا همَّ بسيئةٍ فلم يعملها، كَتَبَ له حَسَنةً، وإذا عملَها كَتَبَ عليه سيئةً واحدةً، وقد يعفُو، فربُنا كريمٌ، ولهذا يَومَ القِيامَة يقول - تَعالَىٰ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار:٦].



أي: ما هو عذرُك؟ الله يعطيك هذا العطاء الكثير وأنت تأتي بسيئاتٍ أكثرَ مما أعطاك الله من الحسنات، فأنت هالكٌ، لا يهلِكُ على الله يَومَ القِيَامَة إلا هَالكٌ، فالكرمُ وصفٌ يُطلقُ على الأشياءِ بحسبها، فإذا أُطلقَ على العرشِ دلَّ على حَسَنه وعَظمتِه، وإذا أُطلِقَ على المُؤمِن دلَّ على طهارتِه، وإذا أُطلِقَ على الأجر دلَّ على عِظَمِه، وعلى حَسَنه وعدمِ وُجودِ الإهانةِ؛ لأنَّ الإنْسَانَ قد يُعطيك صدقَةً أو عطاءً ثم يُهينُك، أو يمنُّها عليك، فهذا ليس عطاءً كريماً، لكنَّ الله ﷻ يُعطيكَ العطاءَ الكريمَ يَومَ القِيَامَة، ففي اللُّغَة يطلق الكرمُ بحسبِ موقع الكَلِمة.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الواقعة:٧٨].

قال ابن كثير: أي معظم في كتاب معظم محفوظ موقر، وقال ابن القَيِّم: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي المَلَائِكَة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس:١٣-١٦]، ويدل علىٰ أنه الكتاب الذي بأيدي المَلَائِكَة قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة:٧٩]. فهذا يدل علىٰ أنه بأيديهم يمسونه.

وقوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ قال ابن عَبَّاسٍ: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾. قال: الكتاب الذي في السَّماء، وفي رواية: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: المَلَائِكَة، وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدُّنْيَا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، قال: وهي في قراءة ابن مسعود (مَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرونَ)، واختار هذا القول كثيرون منهم ابن القَيِّم ورجحه، وقال ابن زيد: زعمتقُرَيشٍ أن هذا القُرْآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تَعَالَىٰ أنه : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ كما قال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٠]. إلىٰ قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٢]. قال ابن كثير: وهذا قول جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله.

وقال البُخَارِي في صَحِيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به، قال ابن القَيِّم: وهذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله، تكلم به حقاً، وأنزله علىٰ رَسُوله وحيًا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه منه حرج بوجه من الوجوه، وقال آخرون:

لا يمسه إلا المطهرون أي من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المُصْحَف، كما في حَدِيث ابن عمر مرفوعًا عن رَسُول الله ﷺ: (أنه كان ينهىٰ أن يسافر بالقرآن إلىٰ أرض العدو، مخافة أن يناله العدو) واحتجوا علىٰ ذلك بما رواه مالك في الموطأ، عن عبدالله بن مُحَمَّد بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حزم، أن في الكتاب الذي كتبه رَسُول الله ﷺ لعمرو بن حزم: (أن لا يمس القُرْآن إلا طاهر).

الشَّرح

هذا معنىٰ: ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ ﴾ ومعنىٰ: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾، الكتابُ المكنونُ اختلف العُلَمَاءُ في معناه، منهم من قال: أنَّ المرادَ بالكتابِ المكنونِ هو اللوحُ المحفوظُ، وهذا هو الراجحُ؛ لأنَّ الله ﷻ قد أودعَ اللوحَ المحفوظَ هذا القُرْآنَ، وكلُّ شيءٍ أراده الله في هذا الكون قد كُتب في اللوحِ المحفوظِ، والملائكةُ هي التي أذنِ الله لها أن تأخذَ هذا القُرْآن، وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ينزل به إلىٰ السَّماء الدُّنْيَا بحسب الحوادث، فالقولُ الأول: أنَّه اللوحُ المحفوظ، وابن القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ: أنَّه الكتابَ الذي بأيدي المَلَائِكَة، لكن الله ﷻ يُشير إلىٰ القُرْآن أنَّه في كتابٍ مَكنونٍ، وصحفُ المَلَائِكَة فيها أعمالنا ليس فيها القُرْآن، أي: المَلَائِكَة بأيديها صُحف لكتابة أعمالِ بني آدمَ، أمَّا اللوحُ المحفوظُ فإنه يشمل جميع الحوادثِ، وفيه كلامُ الله ﷻ مُدونٌ، فقوله: ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ ﴾ هذا ردٌّ عليقُرَيشٍ عندما قالت أنَّ القُرْآنَ نزلت به الشَّياطينُ، فالله يقول: لا، هذا القُرْآن في مَكَان مُخبأٍ، مُطهرٍ، لا تصلُ إليه الشياطينُ، ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾ أمَّا الشياطين فليسوا مُطَهَّرين، فالمرادُ بالكتاب المكنون هو اللوحُ المحفوظُ.

ومنهم من قال: أن المراد بـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ ليس الكتابَ المكنونَ، وإنَّما هو القُرْآنُ ؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨﴾ [الواقعة:٧٧، ٧٨]، فمنهم من أعاد الضمير إلىٰ القُرْآنِ ، ومنهم من أعاد الضمير إلىٰ اللوح المحفوظِ أو الكتابِ المكنون، فلهذا اختلف العُلَمَاء في لمسِ المُصْحَف لمن ليس مُتَوَضِئاً ، أو كان به حدث أكبر، الأئمة الأربعة اتفقوا علىٰ أنه لا يمس القُرْآن إلا من كان متوضئاً، أي: لَابُدَّ أن يكون قد رفع الحدثين الأكبر والأصغر، وإلا فلا يمس القُرْآن ، واستشهدوا بالآية، واستشهدوا بحديث أبي بكر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حزم، وابن القَيِّمِ رحمه الله أجرىٰ دراسة في كتاب التبيان في أقسام القُرْآن ، وفي كتاب مدارج السالكين في هذه المسألة، وقال: ندرس الآيةَ، وندرسُ الحَدِيث، وندرسُ المَعْنَىٰ، هل فيها شاهد لما ذهب إليه الأئمة الأربعة رحمهم الله؟ فقال أولاً: الله ﷻ قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ وفي اللّغَة العَرَبِية فرقٌ بين مُطهَرٌ، ومُتطهرٌ، المُطهَر من فِعلِ غيرِه، والمُتطهِر الذي يرفع الحدثَ من فعلِه. فليس في الآية دَلِيل، قال: لو سلمنا أنَّ فيها دَلِيلاً، المُسْلِم لا يَنجسُ علىٰ كل أحواله، فإن الطاهرَ يطلقُ علىٰ ثلاثةِ أنواعٍ من البَشرِ، وعلىٰ نوعٍ رابعٍ عَامّ:

النوعُ الأول: يُطلق علىٰ المُؤمِن، كما قال- تَعَالَى -: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، فكان المقابلُ للمشرِكين المُؤمِنين، فالمؤمنُ طاهرٌ؛ لأنَّ المُشركَ هو النَّجسُ، ولهذا في الحَدِيث الذي ورد في الصَّحِيحُين: (المؤمن لا يّنجُس)[1] أي: هو طاهرٌ.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الغسل، باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره، برقم: (٢٨٥)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الحيض، باب الدَّلِيلُ علىٰ أن المُسْلِم لا ينجس، برقم: (٣٧١)، (١/ ٢٨٢).

النوع الثاني: رفعُ الحدثِ الأكبرِ، من رفعَ الحدثَ الأكبرَ يُسمَّىٰ مُتطهراً، كما قال - تَعَالَى -: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة:٦]، فمن رفع الحدث الأكبر فيسمىٰ كذلك طاهراً، أو متطهراً.

النوع الثالث: يُطلقُ علىٰ المُتوضِئ، وفي حَدِيث أبي موسىٰ الأشعري في المسح علىٰ الخفين، عندما جاء لينزع خفيَ رَسُولِ الله ﷺ قال: (**دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين**)[1] هذا الأنواع الثلاثة في بني آدم ما يتعلق بالإنسان.

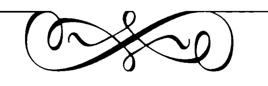
النوع الرابع: بإجماع العُلَمَاءِ أنَّ الشيء الذي ليس عليه نَجاسةٌ حسيةٌ ولا معنويةٌ يسمىٰ طاهراً، ولهذا الماء يقسمه العُلَمَاء إلىٰ ثلاثة أقسام: طاهرٌ، وطهورٌ، ونَجِس، فقالوا: الشيءُ سواءَ كان ماءً أم جماداً أم حيواناً إذا كان ليس عليه نَجاسة لا حُكمية ولا عينية محسوسة فإنه طاهرٌ، فلهذا قال العُلَمَاء: لفظ (طاهر) مشتركٌ بين المُؤمِن وبين الذي رفعَ الحدثَ الأكبَر، وبين الذي رفع الحدث الأصغر، وبين الشيء الذي ليس عليه نجاسةٌ لا معنوية ولا حسية، المُشتَركُ في قواعدِ الأصول لا يجوز أن يشمل الجميعَ، قالوا: ما يمكن أن يكون الحكمُ جاء ليشمل الجميعَ، لكن المخاطَب الجميع أمامه سواء، حتىٰ يأتيه الدَّلِيلُ الذي يدل علىٰ أنَّه أراد أحدَ الأنواع الأربعة، فكلمةُ "طاهر" ليست خَاصّة بالمُتَوَضِّئ، فالذَّهاب إلىٰ أحد الأنواعِ الأربعةِ يحتاج إلىٰ مُخَصِّصٍ. فالآية الكريمةُ لا تدل علىٰ أنه لا يمسُ القُرْآنَ إلا مُتوضئٌ، وكذلك هذه السورة سورة الواقعة نزلت في مكة، ومكةُ ليس فيها تشريع، لم يُشَّرع فيها تشريعاتٌ وأحكامٌ، نعم الصَّلَاة كان فرضُها في مكةَ، لكن الأحكام

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، برقم: (٢٠٦)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الطهارة، باب المسح علىٰ الخفين، برقم: (٢٧٤)، (١/ ٢٢٨).

الشَّرْعِيَّة كأن: لا يُمسُ المُصْحَفَ وأن يُمسَّ المُصْحَف ما جاءت إلا في المدينةِ، فحَملُ الآيةِ علىٰ حُكمٍ شرعيٍ في غير محلّه.

ثم الحَدِيث لا يصحُّ من جميع طرقِه، إمَّا مُرْسَل وإما سَنَدُه فيه ضعفٌ، فالمسألة ليس عليها دَلِيل، لكن الأئمة الأربعة ﷬ نظروا إلىٰ تعظيم القُرْآنِ ، وهذا لا بأس، أمَّا الإيجابُ والحكمُ بأنَّ الإنْسَانَ يأثَمُ لا يكون هذا إلا بدليل، وكونُ العالمِ يقول المسألة ويرىٰ فيها الرأي لا بأس، نحترمُ قولَه، لكن لا يُلزِمُ النَّاسُ بفتوىٰ العالمِ التي ليس عليها دَلِيل صَحِيح. ابنُ القَيِّمِ ﵀ يرىٰ أنَّ الآية لا تدلُّ علىٰ المَعْنَىٰ المُراد، كما أن الحَدِيثَ لا يصحُّ في هذه المسألة، أمَّا ابن تَيْميةَ ﵀ فإنه وافقَ في معنىٰ الآية أنها في اللوح المحفوظ، لكن قال الآية تشير إلىٰ أنه لا ينبغي للمُسْلِم أن يمسَّ المُصْحَف إلا طاهراً، فإنه إذا كان الله ﷻ جعل الذين عنده لا يمس أحدٌ منهم القُرْآنَ أو اللوح المحفوظ إلا المُطهَّرُ، فقال: هذا فيه إيماءٌ إلينا، وإشارة لنا أن نكون مثلَهم، لا نمسُّه إلا علىٰ طهارة، وهذا لا بأس، احترام القُرْآنِ مطلوبٌ، وقد حثَّ الشرع علىٰ تعظيم كلام الله ﷻ، لكنَّ التحريمَ والتحليلَ أمرهما صعبٌ، فينبغي أن يُفرَّق بين الاستحبابِ وبين الحُكم الشرعي، ورجَّح ابن القَيِّم ﵀ أن المراد بالآية ليس القُرْآن ، وذكرَ عشرةَ أوجهٍ ترفعُ عن الإنْسَان الحرجَ في لمسِ المُصْحَف، فقال: من كان علىٰ حدث أصغر فلا بأس بلمسِ المُصْحَفِ لكن الأفضل والأولىٰ أن يكون علىٰ وضوء، ولكن الحكمَ الشرعيَ في إيجاد الإثمِ أو الوجوب هذا لَابُدَّ فيه من دَلِيل، وكأن الشَّارِحُ ﵀ يميل إلىٰ كلامِ ابن القَيِّمِ فيها، والله أعلم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة:٨٠].

قال ابن كثير: أي هذا القُرْآن منزل من الله رَبِّ العَالَمِينَ، وليس كما يقولون أنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحَقّ الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع، وفي هذه الآية إثبات أنه كلام الله تكلم به. قال ابن القَيِّم: ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة:١٣]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]. وإثبات علو الله سبحانه علىٰ خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلىٰ إلىٰ أسفل، ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]؛ لأنا نقول أن الذي أنزلها فوق سمواته فأنزلها لنا بأمره.

الشَّرح

أحيانا الإنْسَان لا يستطيع أن يتصور الفعل الإلهي، إلا علىٰ ضوء معارفه الشَّخصية الإنْسَانية، فالله عَزَّ وَجَلَّ يقولُ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، ونحنُ نرىٰ الأنعامَ بين أيدينا، لكن القُرْآنَ حقٌّ؛ لأنَّه كلامُ الله، فإذا قال الله "أنزل" ؛ نقول به أيضـًا، لكن لا ندري من أين أنزلها الله –سبحانه–، فالأرض ما كان فيها أنعامٌ، ولا كان فيها إنسَان، ولا كان فيها أشجار، فالله أنزلها كما مرَّ، وكما قال عَزَّ وَجَلَّ، نؤمن بأن الله أنزلها، إمَّا إذا قلنا أنزلها بأمِره نقع في التأويل الذي نفرُّ منه، ولا نرضىٰ قول الذين جعلوا النزولَ نزولَ الأمرِ، نحن نؤمن بأن الله أنزَل.

وتركيبُ الأَرْض الجيلوجي علىٰ حسب الدراسة المعاصرة والعلماء الفَلَكِيين عجيبٌ، الأَرْض مُلتهبةٌ، ولا يُوجَدُ علىٰ ظهرها إلا قشرةٌ، كما يقولون: إذا كان قُطر الأَرْض اثني عشر ألف ميل السُمكُ الذي يغطي داخلَها مائة ميل فقط، وأما أسفل ذلك فإنها أكثر من أحد عشر ألف ميل، كلها نارٌ ملتهبة، الدارسون يقولون: أن الأَرْض انفصلت من الشَّمْس، نحن لا نستطيع أن نُؤكِّد هذا الكلام، وإنَّما نُؤكِّد أن الله خلقَ الأَرْض قبل السماوات، لكن قد يكون تركيبها كتركيبِ بقية الكَوَاكِب، كما قال - تَعَالَى -: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]، فيقول ﷻ: أن الله جعل آيتين الشَّمْس والقمرَ، وهذا قول ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: أن القَمَرَ كان مُشتعلاً كالشمس، فمحا الله ضوءَه، وجعله آيةً لليل، فالقمر الآن ليس مشتعلاً، القَمَر يعكس نور الشَّمْس فقط.

فالأرض ملتهبةٌ، فإذا كانت كتلةً ملتهبةً لم يكن علىٰ ظهرها لا إنسَان ولا نبات، ولا حيوانٌ ولا شيءٌ من المخلوقات، كلُّ المخلوقات مُحدثَة، أنزلها الله من أين شاء، ربما كانت في كوكبٍ آخر، أو في الفضاء وأنزلها الله الأَرْض، كلامُه حقٌ، وإن كنا لا نعرف، لكن إن تأولَّه الإنْسَانُ وقع في المحذور؛ لأنه قد لا يتبينُ له المَعْنَىٰ بحسب معلوماته البشرية، لكن السَّلَف يقولون: نحن نستقبل كلامَ الله معتقدين أنه حقٌ ولو لم نَفهم، فالنزول من فوق إلىٰ أسفلَ، والعلم البشري محدودٌ، ماذا عند الإنْسَان من عِلْم؟، لكن عنده غرورٌ، فأحياناً يظنُّ أنه يعلمُ كلَّ شيء، ومن باب الطُرف أنَّ أحدَ العُلَمَاء قال: اسألوني عن أي شيء في مخلوقات الله، فقال أحدُ التلاميذ: يا أستاذ أمعاءُ الجرادةِ في صدرها أو في بطِنها؟ فسكت، فالإنْسَانُ مسكينٌ مهما بلغ عِلْمه فهو قاصر ،

فالإنسان أحيانـًا يأخذه الغرور بأنه اطلع الإطلاع الكامل يظن أنه عرفَ كلَّ شيء، فنحن نعيدُ العلم إلىٰ الله، فإذا قال الله - ﷻ - :" أنزل "؛ نقول به، ليس لنا الحَقّ أن نُئَوِّل بحسبِ عِلْمنا، وبحسب تصوراتنا؛ لأن عِلْمنا محدود، وتصوراتُنا محدودة، وقدرتُنا العَقْلية محدودةٌ، هنا مجال التسليمُ، ولهذا أولُ صفاتِ المُؤمِنين، الإِيمَانُ بالغيب، أنَّ هذا غيبٌ لم نحضرُه، كما قال - تَعَالَى - : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١] ما شهدنا، فكيف نحاكمُ كلامَ رَبِّ العَالَمِينَ علىٰ تصوراتنا ونحن لم نشهدُ الخلقَ، حتىٰ لو شهدنا سيكون عِلْمنا في إدراكِه وإحاطته محدودٌ جداً، فنحن نعيدُ الأمرَ إلىٰ الله، بعض العُلَمَاء يقول: أنَّ الله ﷻ جعل خروجَ الأنعامِ من بطون أمهاتها إنزالاً، المَعْنَىٰ يحتملُه لكن هذا المرأد بالأنعام المُتوالَدة التي فيها توالدٌ، أم بالأنعام الأساس؟ لا ندري، لكنا نؤمن بأن الله أنزل ثمانيةً من الأنعام، بل العُلَمَاءُ اختلفوا في الجَنَّة التي كان فيها الإِنْسَانُ؟ هل هي الجَنَّة التي يكون فيها الإِنْسَان في الآخِرَة، أم أنها جَنةٌ أخرىٰ؟ كل هذا ليس عندنا فيها دَلِيل، وابن القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ له بحث جميل في مفتاح دار السعادة، تكلم كلامـًا كثيراً عنها، فالقضايا الغَيْبية يتقبَّلها الإِنْسَان بالتسليمِ، وإلا فلو أدخل عقلَه في كلِّ قضيةٍ غيبيةٍ يضلُّ؛ لأنَّ كلامَ الله حقٌّ، هو الذي خلقَ، وهو أعلم منا بخلقِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القيِّم: وذكر التنزيل مضافًا إلىٰ ربوبيته للعالمين، المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدىٰ ويدعهم هملاً ويخلقهم عبثًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، فمن أقر بأنه رَبُّ العَالَمِينَ أقر بأن القُرْآن تنزيله علىٰ رَسُوله، واستدل بكونه رَبِّ العَالَمِينَ علىٰ ثبوت رسالة رَسُوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوىٰ وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلىٰ أذهان عموم النَّاس، وتلك إنَّمَا تكون لخواص العَقْلاء.



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الاستشهادَ بالقرآنِ علىٰ الرسالةِ وعلىٰ الربوبية أبلغُ وأقوىٰ؛ لأن هذا القُرْآن اشتمل علىٰ جوانب الإعجاز التي فوق طاقة الإنْسَان، لكن الذي يدركها خواصُّ العَقْلاء، ليس كل النَّاس، لو قلت لإنسانٍ عادي ما عنده عِلْم: القُرْآن دَلِيل ما يفهم، يقول: كيف القُرْآن دَلِيلٌ؟ لكن لو قلتَ: دَلِيلُ صدقِ نبوةِ النَّبِي ﷺ أنه كثَّر الطعامَ ببركته يُصدق، وكذا إذا قلت: النَّبِي ﷺ كان يُكثِّر الماءَ، وكان يدعو فينزل المطرُ يُصدِّق، ويرىٰ فيه دَلِيلاً، لكن الله ما جعل الدَّلِيلَ إلا القُرْآنَ، أمَّا تلك فإنها لم يجعلها النَّبِي ﷺ أدلةً علىٰ صدق نبُوته أبداً، إنَّمَا كان يتحدَّىٰ النَّاسَ بالقرآن، أمَّا الأنْبِيَاءُ السابقون فكانت أدلَّتُهم حِسيةً، تنتهي بنهاية صاحِبها؛ لأن الرسالاتِ القديمةَ كانت مؤقتةً، فالمعجزة متناسبة مع توقيت الرسالة، رسالةٌ مؤقتةٌ، وأدلتُها مؤقتةٌ، لكن الإسْلَام ليس مؤقتاً بوقتٍ بل إلىٰ قيام السَّاعَة، فلابد أن يكون له دَلِيل يبقىٰ

إلىٰ قيام السَّاعَة، فلو جاء دَلِيل حسي ما استطاع الإنْسَان في العصر الحاضر أن يُدرك صحة الإسْلَام، لكن جعل الله الدَّلِيلُ عقلياً ، فهذا القُرْآن يُخاطبُ النَّاس إلىٰ قيام السَّاعَة ويتحدَّاهم، وفيه من الإعجاز اللغوي والتشريعي والأخلاقِي والعقائدي والسياسي والاقتصادي ما يُبهرُ العقولَ، تشريع للإنسان، وقد طُبق في جيلٍ كان مُنحطاً في جميع جوانبِ حياتِه، فقادَ البشريةَ في قرابةِ ربعِ قرن، وأصبحَ قائداً للبشرية بهذا القُرْآنِ ، فهذا القُرْآنُ لو كان كلامَ إنسَان ما استطاع أن ينتشل هذه الأُمَّةَ من هذا الانحطاطِ حتىٰ يكونوا قادةً، ليسوا فقط أصبحوا أناساً عاديين، بل من أُمَّةٍ في ذيلِ البشرية إلىٰ أُمَّةٍ قائدةٍ، فبالقرآن أصبحوا يقودوا البشرية في ربع قرن من الزمان، وحطَّموا أكبر دولتين في عصرهما، فهذا القُرْآنُ كلامُ الله، أسَّس مُجتمَعاً فاضلاً شريفاً نَقياً مُمتازاً عندما ساروا عليه، ما استقوا في حياتِهم من أي حضارةٍ أخرىٰ نِظاماً، ولا تَشريعاً، ولا أخلاقاً ولا سلوكاً، فبالقرآن كانت أخلاقُهم وسلوكُهم ومعاملاتُهم. الشَّخصُ الذي تُفتَح بَلده عادةً يَكرهُ الفَاتَح، لكن عندنا كان الذين تُفتَحُ بلادُهم يُحِبُّون مجيءَ المُسْلِمين لمَّا رأوا في أخلاقِهم وعاداتِهم وسلوكِهم ومعاملاتِهم شيئاً لم يألفُوه.

فهذا القُرْآن هو كلام الله رَبِّ العَالَمِينَ، وفيه دَلِيلُ الإعجاز، وليس كلامَ المخلوق، في العصر الحاضر عندما بُهرَ النَّاس بما وصلوا إليه من العلمِ البشري اكتشفوا؛ لأن الإنْسَان لا يخلُق ولا يُوجِدُ، بل يكتشفُ شيئاً أوجدَه الخَالِق، بالعقلِ الذي خلقَه الخَالِق، فكل هذه الأنظمة وما نتج عنها من صناعات، وكشوفات، واختراعات، الله جعلَها وجعل فيها نظامها، جاء الإنْسَان فاكتشف ما جعل الله ﷻ. فالقرآنُ الكريم يحمل بداخله دَلِيلَ إعجازه، عندما وصلوا إلىٰ بعض المعلومات ورأوا القُرْآن قد أشار إليها إشاراتٍ وإن كانت مقتضبةً قالوا: هذا ليس من كلام إنسَان، هذا من كلامِ

خالق الإنْسَان مثلاً: فالبحار كنُموذج، البحار فيها أمواج، أمواجُ في البحارِ العميقة فقط، ليس في كلِّ البحار، كما قال - تَعَالَى -: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور:٤٠]، أي: لَابُدَّ أن يكونَ بحراً عميقـًا، في داخلِه موجٌ، ومن فوقِه موجٌ، كان النَّاس في الظاهر لا يرون إلا الأمواجَ الظاهرةَ، ما يدركون أن هناك أمواجـًا في أعماقِ المحيطاتِ، فالقرآن أشار إليها وإن لم يشر لذاتها إنَّمَا لبيان حالةِ الكافرِ وأنَّه يعيشُ في ظلامٍ دامسٍ، لكن القُرْآن مثَّلَ بحقيقةٍ لم تكن معروفةً عند النَّاس أنذاك، لكن النَّاس اكتشفوها عن طريق وسائلِهم التي اخترعوها، ففي القرن السابع عشر عَرفوا أنَّ البحارَ العميقةَ في أعماقِها أمواجٌ، كذلك الذُّباب، مثلاً في السُّنَّة النَّبَوِيَّة: (إن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء)[1] أُجريت دراسةٌ لهذا الذُّباب، واكتشف الأطباءُ بأنفسهم هذه الحَقِيقَة، فهذه علومٌ غيبيةٌ، سبقت اختراعاتِ أو اكتشافات الإنْسَان، فالقرآن مملوءٌ بهذا الجانب.

حَدِيثه هنا عن السَّماء وعن النُّجُوم، كما قال تعال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٦]، ويأتي الإنْسَان فيرىٰ أن هذه النُّجُوم لها أبعادٌ كبيرةٌ جداً، والقرآن لم يأت لبيانها، إنَّمَا جاء لبيان حقائقَ أُخرىٰ؛ لأن قضية الإنْسَان أعظمُ عند الله من قضيةٍ الكون وأنَّ هذا نجمٌ، وأن هذا كوكبٌ، هذه كلها معلوماتٌ ما يترتب عليها سعادةٌ ولا شقاوةٌ، فالمحور للإسلام هو الإنْسَانُ، أي: جاء ليُشرِّع له، ويُعلمَّه الأخلاقَ، والآدابَ والعقائدَ، والسلوكَ، والمعاملاتِ، لكن قد يتحدث القُرْآن عن قضية كونيةٍ فيصدق فيها؛ لأنه كلام رَبِّ العَالَمِينَ الذي خلق الكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدىٰ جناحيه داء وفي الأخرىٰ شفاء، برقم: (٣٣٢٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة:٨١].

قال مجاهد: تريدون أن تمالؤوهم فيه وتركنوا إليهم. قال ابن القَيِّم: ثم وبخهم سبحانه علىٰ وضعهم الادهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنىٰ عليه الخناصر وتعقد عليه القُلُوْب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلىٰ غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه؟ ولم ينزل للمداهنة وإنما أنزل بالحق وللحق، والمداهنة إنَّمَا تكون في بَاطِل قوي لا تمكن إزالته، أو في حق ضَعِيفٌ لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلىٰ أن يترك بعض الحَقّ ويلتزم بعض الباطل، فأما الحَقّ الذي قام به كل حق فكيف يداهن فيه؟

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة:٨٢].

تقدم الكلام عليها أول الباب والله أعلم.



الشَّرح

ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في قول الله ﷻ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة:٨١]: عجباً هذا القُرْآن أنزله الله ﷻ لبيان الحَقّ، وأنزله بالحَقِّ، وكلُّ ما فيه حقٌّ، والنَّاس إليه مُحتاجون وليس لهم عنه غِنىً، فهو قَوامُ العالَم، وروحُ الوجودُ، فكيف يُداهَن فيه، يُداهَن في بَاطِل قويٍ أمام حق ضَعِيفٍ، لكن القُرْآنَ حقٌّ قويٌّ، فكيف يُداهن فيه، هذا استنكار علىٰ من أراد أن يُداهن في

القُرْآن ، أي: يُجامل النَّاسَ علىٰ حساب الحَقّ، فالإنسان إذا كان عنده حقٌّ فهو بَين أمورٍ عدةٍ، إمَّا أن يُبلِّغَ الحَقّ وهذا أعلىٰ درجات المقامات، وإمَّا أن يَسكُت عن الحَقّ وعن الباطل، فهذا مقامٌ أدنىٰ لكنه مقامٌ صاحبُه قد يكون مأجوراً لضعفِه، لكن المشكلة أن يقولَ الباطلَ، فالإنسان إن استطاع أن يقول الحَقّ فهذه دَرَجة عاليةٌ، وإن استطاع أن يقول بعضَ الحَقّ، فهذه دَرَجة أقلُّ، فإن لم يستطع فيسكت، لكن لو كان يقول بعضَ الحَقّ وبعضَ الباطلِ فما أدَّىٰ شيئـًا، هذه بتلك، أمَّا أن تكلَّم بالباطل، فهذه الطامَّةُ الكُبرىٰ، إنسَان قد يدفعه حرصُه علىٰ المال،أو حرصُه علىٰ الجاه، أو حرصُه علىٰ المكانة أن يقول الباطلَ، وهو يعلَّمُ أنَّه كذَّابٌ، لكن له مطمعٌ، ويأتيه الشَّيطَانُ، يقول: افعل هذا وتب إلىٰ الله أو تصدَّق، فبعض الأَشْخَاصِ يقول: الحمد لله، أنا عندي معاصٍ كَثِيْرَة لكن أتصدَّق، كما يقال في امرأةٍ كانت تفعل الفاحشةَ حتىٰ تُغذي الأيتامَ وتكفُلهم، فقال فيها الشاعر:

كَكافلة الأيتام من كسبِ فرجها ... لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

فالإنسان ينبغي أن يحرص علىٰ أعلىٰ المقاماتِ، أي: أن يقولَ الحَقّ كاملاً، فإن استطاع فإنَّه مطلوب منه، فإذا كان عاجزاً عن قولِ كاملِ الحَقّ فليقل بعضه، بعضُ النَّاس يقول: إمَّا أقول الحَقّ كاملاً، وإما أن أسكت، وهذا غير صَحِيح؛ لأن الإنْسَان مطالبٌ بأن يتقي الله ما استطاع، لا يُكلِّف الله نفسـًا إلا وُسعها، فأنت بحسب استطاعتِك، تقول الحَقّ كاملاً، وهذا مقامٌ عالٍ، تقول بعض الحَقّ وتسكت عن بعض الحَقّ إذا كان سكوتك عن ضعفٍ وعجزٍ وعدمِ قدرةٍ وهذا أيضـًا مقامٌ حَسَن، أو تسكت إن عجزتَ، مثلاً: إنسَان يشرب الخَمْرَ، فأنت أمامه، إمَّا أن تقول: هذا حرامٌ، وإما أن تُذكرَه بالله، تقول له: الآخِرَة قريبٌ والإنسان يموتُ، تُذكرُه فقط بالآخرة، ولا تجرؤ أن تقولَ" حَرامٌ "، ولكن لا تقل: الخَمْرُ حلالٌ، هذه الطامَّةُ الكُبرىٰ.

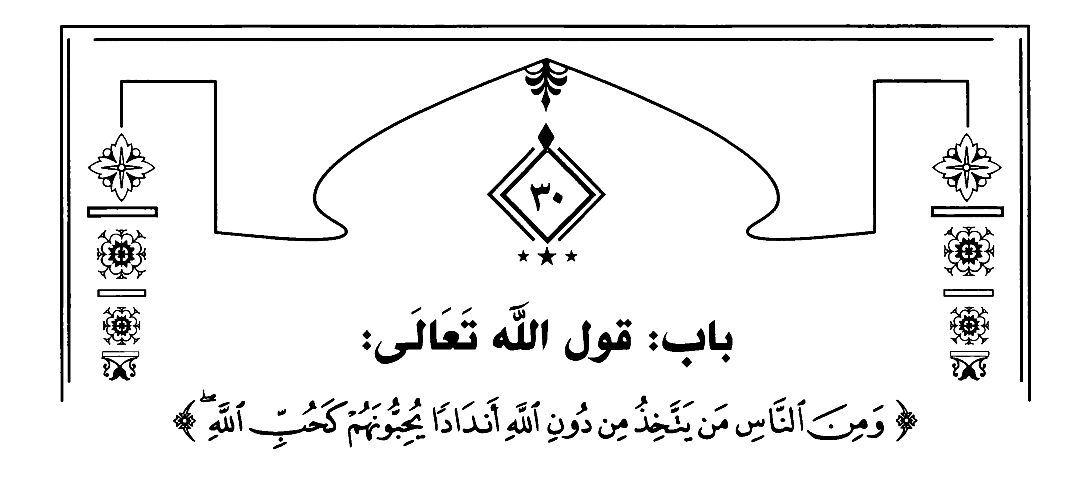
فالمداهنة هو أن تترك الحَقّ، أو أن تتنازل عن الحَقّ عن قُدرةٍ، ليس عن عجزٍ؛ لأن الإنْسَان لو ترك الحَقّ عن ضعف فإن الله لا يُؤاخذُه؛ لأنَّ الله لا يُكلِّف الإنْسَان إلا بحسب استطاعته، لكن أن يكون قادراً، وليس عليه أي ضغطٍ، وإنَّما له مصلحة دنيويةٌ يريد تحقيقَها ويقول الباطلَ فهذا ينطبق عليه حَدِيثُ: **(إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يكتب الله عليه بها سخطه إلىٰ يوم يلقاه)**[1] كلمةٌ واحدةٌ يقولُها، وهو يعلم أنَّها بَاطِل، لكن ليكسبَ من ورائها مالاً، أو جاهـًا، أو يؤذي صَالِحـًا، فينبغي علىٰ الإنْسَانِ أن يحرص علىٰ أن لا يُداهن في الحَقّ، فليقل الحَقّ، فإن عجز فليقل بعضه، فإن عجز فليسكت، كما جاء في الحَدِيث: **(من رأىٰ منكم منكرا فليغيره بيده)** هذه أعلىٰ درجاتِ الإنكار، **(فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)**[2] يسكتُ ويكفُّ يدَه، لكن القَلْب ليس راضيـًا؛ لأنَّ القَلْب ليس لأحدٍ عليه سلطانٌ إلا الله ﷻ، وأنت مُخيرٌ بين هذه المراتبِ الثلاثةِ .

هذا آخر باب الاستسقاء بالنُّجُومِ، وسينتقل المُؤَلِّفُ رحمه الله إلىٰ باب من أشرف أبواب الكتاب، وهي المَحَبَّة لمن تَصرفُ؟ وما حكمُ صرفِها لغير الله؟ وما أنواع المَحَبَّة؟ وهل يجوز أن يُحِبُّ الإنْسَانُ غير الله؟ هذه الأنواع ستأتي في الباب التالي الذي عقده وترجم له بالآية الكريمة.



(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.



باب: قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما كانت مَحَبَّةُ الله سبحانه هي أصل دين الإسْلَام، الذي يدور عليه قطب رحاها فبكمالها يكمل الإِيمَان، وبنقصانها ينقص توحيد الإنْسَان، نبه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وجوبها على الأعيان.

الشَّرح

الشَّارِحُ يبيِّن وجهَ إيرادِ المُؤَلِّفِ ـ رحمهمَا الله ـ لهذا البابِ، فإنَّ المَحَبَّةَ هي قاعدةُ الدِّين، وقاعدة الإسْلَام، ومن لم يكن في قلبِه مَحَبَّةُ لله ولا يعرف مَحَبَّةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه محرومٌ من الإِيمَان، لكن المَحَبَّةَ تحتاج إلىٰ مُقويات، فأنت تنظر في هذا الوجودِ، من أوجدَه؟ من أنعم به؟ من رتَّبه؟ من هيأَه؟ الله، من أوجدك وصورك وأحسن صورتَك؟ الله، ثم ماذا سيكون أمرُك بعد المَوْت والخروج؟ جَنَّاتُ النعيمِ، كلُّ هذا تكريمٌ من الخَالِق، وعطاءٌ لك منه، لو أخذ الإنْسَان من إنسَان مخلوقٍ مثلِه عطاءً صغيراً لأحبَّه، فهذا الوجودُ كلُّه عطاءُ الله لك، الكون كلُّه مخلوقٌ من أجلِك، حركةُ الشَّمْس، وحركةُ الكَوَاكِب، والشمسُ منذ خلقها الله مشتعلةٌ من أجلك، الهواءُ، البحارُ، الثمارُ، الله جعلَ

في الأَرْض ثمـاراً ليسـت واحـدةً، ولا عشـرةً ولا ألفـاً ولا مائـةَ ألـف، عُلَمَـاء النَّبات يقولون: يُقدَّرُ عددُ أنواع النبات في الأَرْض بثمانمائة ألف نوع، وكذالك الفواكهُ، ليست فاكهةً واحدةً، ولا عشرات، آلافٌ، فكل هذا من أجلك، تحبُّ الذي أنعم عليك بهذه النعم، أنعمَ عليك بالوجود، ورعاك وأنت ضَعِيفٌ في بطنِ أِمك، حيث لا تمتدُّ إليك يدُ أبيك، ولا يدُ أمِّك، ولا يدُ أحدٍ من البشر، والله يرعاك هناك، ثم أخرجَك بعد أن كمَّل صورتَك، وسخرَ لك خزانتين علىٰ ثَدي أمِّك ينطلقُ منهما الحليبُ؛ لأنَّك في الصغر ما تستطيع أن تأكلَ، فجعل الله الحليبَ السائلَ فيه جميع مكوناتِ الإنْسَان، ثم بعد أن تكبرَ فتح الله لك الأَرْض، وجعلَها كلَّها ثماراً، وأشجاراً، وحبوباً، سبحان الخَالِق!، ماءٌ وطينٌ فيكون قمحاً، أو أرزاً، أو برتقالاً، أو تفاحاً، كلها ماءٌ وطينٌ، البذرةُ فقط لبيان الصنفِ، أو تحديدِ النوع فقط، وإلا فمكوناتها ماءٌ وطينٌ، يخرج من الطين الذي لا يؤكل ثمرةٌ ناضجةٌ بطعم جميلٍ، وشكلٍ جميل، وأنواعٌ مختلفةٌ من أجل هذا الإنْسَان، فالإنسانُ كلما نظر إلىٰ نِعم الله عليه ازداد مَحَبَّةً له ﷻ.

ثـم أنـت تعصـي الله الـذي خلقـك ورزقـك وأوجـدك، فيسـترك، وتقـع ويسترِكَ، ويقول: يا عبدي لو كرَّرت الخطأ وتبت إلي تبتُ عليك، فلو أخطأت اليوم وتبتَ، وغدا أخطأت وتُبتَ، وبعد غدٍ أخطأت وتبتَ يقبلُ الله توبَتك، ما يطردُك من رحمته، لو كنت أخطأت علىٰ أبيك مرةً أو مرتين أو ثلاث طردَك، رَبُّ العَالَمِينَ الذي خلقَك وأوجدَك وجعل الكونَ كلَه لك تعصيه وتتعدَّىٰ حدودَه، وتُقصِّر في أمرِه، ويقول: يا عبدي تب إلي أقبل توبتَك، وامحُ عنك الخطيئة، بل أن صدقت توبتك جعلتُ هذه الأخطاء القَذرةَ حَسَناتٍ نظيفةً لك، هذا كرمُ الخَالِق، وهذه المعاملةُ، الله يعاملُك بها ألا تستحقُّ محبَّتَه ﷻ، بلىٰ والله، كم نقعُ في المَعَاصِي، والله يسترُ ويغفِرُ، ويرزقُ.

عندما قال إبْرَاهِيم ﷺ في أهل مكةَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]، فقال الله: ومَن كُفْر من يرزقُه يا إبْرَاهِيم، إذا أنا ما رَزقتُ إلا المُؤمِن فمن يرزق الكافرَ؟ الله يرزُق الكافرَ، ويرزقُ المُؤمِن، والكافرُ يحاربُه ويبارزُه بالعداء، ويُشركُ معه غيرَه أو يجحدُه، ويرزقُه ﷻ، ولو تاب وآمنَ قَبلَ توبتَه حتىٰ لو كان مُعانداً، فِرعَون أشد أنواع الكُفَّار كُفْراً، عندما تاب في آخر حياته الله قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس:٩٢]، أي: أعطاه الله مقابل توبتَه، ما قال: لا، ما أقبلَ منك مُطلقاً، وفي القصة التي جاءت في الصَّحِيحُين: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل أو أن امرأة من بني إسرائيل باختلاف الروايات، كان بغياً، أو كانت بغياً، رأت كلبا يأكلُ الثَّرىٰ من شدة العطشِ، امرأة زانية فاجرة، ترتكب أشد أنواع الفواحش وهو الزنىٰ، فعندما رحمت الكلب فسقته، قال النَّبِي ﷺ: **(فشكر الله لها فغفر لها)**(١)، فعندما رحِمت الكلبَ رحِمها ربُّنا؛ لأنَّ الرَّحمةَ خُلقٌ فاضلٌ في الإنْسَان، فعندما استيقظ في قلبِها رحمةُ المخلوقِ ربُّنا رحِمها، فقال الصَّحَابَةُ: يا رَسُول الله أئن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: **(في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ)**(٢).

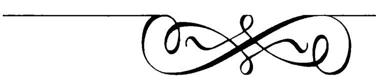
فربنا كريم ﷻ،فَمَحَبَّةُ الله أساسُ للتعاملِ مع الله، ولو أعرض المُسْلِمون عن الدِّين؛ قال -تعالىٰ-: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] وابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ يقول ليست العبرة في أن يُحِبُّونه، كيف لا يُحِبُّونه وهو الذي خلقَهم، لكن العبرة في أن يُحِبُّهم هو، وفي قصة الأَمَة كما ذكرها البغدادي في تاريخ بغداد: أن قاضياً كان عنده أَمَةٌ فافتقدها من فراشها في الليل فشكَّ فيها، وما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

كان هناك كهرباء مثل الآن فأخذ يتلمس البيتَ فوجدها ساجدة وسمِعها تقول: اللهم بِحبِّك إياي اغفر لي، قال: لا تقولي هكذا قولِي: بِحبِّي إياك؛ لأنَّك لا تعلمين أنَّ الله يُحِبُّك، قالت: يا بطَّال حُبّه إياي أيقظَ عينيَ وأنامَ عينَك، عرفتُ حُبّه لي عندما أقامني من فراشي الوثير لأناجيَه وأذكرَه وأتعبدَ له، فهذه هي علامة المَحَبَّة، فَحُبُّ الله ﷻ أساسٌ، فالذي لا يُحِبُّ الله ولا يعرفُ المَحَبَّة، لا يعرفُ الدِّينَ : **(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإِيمَان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)**[1]، لكن المُؤمِن - ولله الحمد - في قلبه الحُبُّ وإن كان قد لا يشعرُ به، لكن لو جاء الاختبار ظهر الحُبُّ، كلُّ إنسَانٍ مؤمنٌ في قلبه الحُبُّ لكن يتفاوت، فعندما يأتي التعارضُ بين ما يُحِبُّه الله وما تحبُّه أنت فإذا كنتَ تقدم مَحَبَّةَ الله فأنت تحبُّه، لو قدمت محبَّتك فمحبتُك لله ناقصةٌ أو مفقودةٌ، فالمؤلف رحمه الله أراد أن يُبينَ أنَّ المَحَبَّة من واجباتِ الدِّين، وأنَّ الذي لا يُحِبُّ الله ليس في قلبِه إِيمَان، والذي يُحِبُّ أحداً مع الله فإنَّه يشركُه مع الله في هذه المَحَبَّة.



---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا جاء في الحَدِيث: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه) الحَدِيث رواه الترمذي والحاكم.

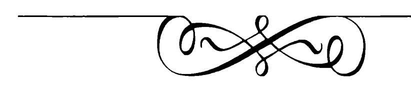


الشَّرح

قلنا أن المَحَبَّة هي أصلُ العبادةِ، فقاعدة الدِّينِ: مَحَبَّةُ الله – تَعَالَىٰ –، هذه المَحَبَّة من أشرك فيها مع الله غيره يكون مُشْرِكًا به ﷻ يستحقُّ الخلودَ في النَّار، فينبغي للإنسان أن يعرفَ المَحَبَّة التي هي خَاصّةٌ بالله، ولا يجوز صرفُها لغيره، وما هي المَحَبَّةُ العامةُ التي تجوز أن تُصرَف لغيره، وكذلك الخَوف، وأمَّا التوكل فإنَّه خَاصّ بالله ﷻ، كما قال –تَعَالَىٰ –: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]. وكما أخبرنا أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فالتوكل لا يجوزُ إلا علىٰ الله ﷻ، أمَّا المَحَبَّةُ فإنَّها تجوز، فالإنسان يُحِبُّ غير اللهِ لكن مَحَبَّةٌ ليست هي المَحَبَّةُ الخاصةُ التي تستلزم التعظيمَ والذَّلَّ، فإن هذا خَاصّ بالخالِق ﷻ، أمَّا المحباتُ الأخرىٰ الثلاثُ التي ذكرها الشَّارِحُ فإنها جائزةٌ لغيرِ الله ﷻ.

هذا الحَدِيث ضَعِيفٌ بهذا السَّنَد، ففيه عبد الله بن سليمان النوفلي، – وفي حاشية النسخة المطبوعة – قال: عبد، والصواب اسمه عبد الله، ولعل الطابع قد أخطأ، هو عبد الله بن سليمان النوفلي، وهذا مجهولٌ، والمجهولُ إذا كان في السَّنَد فإن السَّنَد ضَعِيفٌ، فالحديثُ بهذا الطريق ضَعِيفٌ، فلا يُعتَمدُ عليه،

لكنَّ المَعْنَىٰ صَحِيح؛ لأنَّ الذي غَذَّانا بنعمِه هو الله ﷻ، وينبغي أن نُحبَّه سبحانه وتعالى لما يَغذُونا من نعمه، لكن الحَدِيث لم يصح من هذا الطريق، فلهذا لا يجوز الاستدلالُ بما لا يصح، والعلماءُ رحمهم الله إذا وردتُ المسألةُ صَحِيحةً بآيةٍ قرآنيةٍ أو بحديثٍ صَحِيح تَجوَّزوا في إيرادِ ما لم يصح لأنَّه صحَّ في الأصل، وهذا مَنْهَج القدماء رحمهم الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي حَدِيث آخر: (أحبوا الله بكل قلوبكم).

وفي حَدِيث معاذ بن جبل في حَدِيث المنام: (وأسألك حُبّك، وحب من يُحِبُّك، وحب عمل يقربني إلىٰ حُبّك) رواه أحمد والترمذي وصححه.



قوله: (**وفي حَدِيث آخر: أحبوا الله بكل قلوبكم...**)(١) وهذا الحَدِيث أيضاً لا يصح؛ لأنه مُرْسَل، و المَعْنَىٰ كما قلنا صَحِيح، فأحياناً يكون المَعْنَىٰ من كلام صَحَابِي، أو من كلام تابعي، فيهم الراوي فيرفعه إلىٰ رَسُول الله ﷺ، ويكون المَعْنَىٰ صَحِيحاً، لكنه من حيث السَّنَد لا يصح.

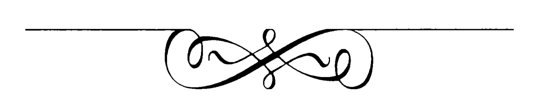
قوله ﷺ: (**وأسألك حُبّك...**)(٢) قال في الحاشية: أنه حَسَن، وقال الترمذي: حَسَن صَحِيحٌ، وقال: سألت مُحَمَّد بن إسماعيل أي البُخَارِي، فقال: حَدِيثٌ صَحِيح، لكن بالعودة إلىٰ سَنَده نجده علىٰ النحو الآتي: في سَنَده عبد الرحمن بن عايش الحضرمي، ليس له إلا هذا الحَدِيث، وقيل: له حَدِيثان، وهذا لا يكون مَشهوراً عند أهل العلم، فحالُه مجهولٌ، ويحيىٰ لم

---

(١) أورده البيهقي في دلائل النُّبُوَّة (٢/ ٥٢٥)، وابن كثير في سيرته (٢/ ٣٠٢)، وابن هشام في سيرته (٣/ ٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القُرْآن، باب ومن سورة ص، برقم: (٣٢٣٥)، وقال: "هذا حَدِيث حَسَن صَحِيح"، والإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٢٢١٠٩)، (٣٦/ ٤٢٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، برقم: (١٩٦٥)، (١/ ٧١٠)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٢٩٠) من مسند معاذ بن جبل (٢٠/ ١٤١)، والبزار في مسنده، برقم: (٤٠٨٩)، (٢/ ١١٢).

يسمع من زيد بن سلام، وجهضم قال ابن معين: ثقةٌ وحديثُه مُنكَر، فالسنَد نفسُه فيه عِللٌ، فالعلماءُ يُحسِّنون الحَدِيث إذا وردَ له أكثر من طريق أو ورَد أكثرُ من حَدِيث في نفسِ المَعْنَىٰ؛ لأن هذا الحَدِيث هو حَدِيثُ المنامِ، أو حَدِيث اختصامِ الملأ الأعلىٰ الذين ورد فيهم حَدِيث أن النَّبِي ﷺ تأخَّر عن الصَّحَابَةِ في صلاة الفجرِ حتىٰ كادت الشَّمْس أن تُشرقَ، فخرج إليهم فصلَّىٰ بهم، ثم أخبرهم أنَّه رأىٰ اللهَ في المنام، وأنَّه وضع يدَه بين كتفيه حتىٰ أحسَّ بَردَ أناملِه في صدرِه، ثم قال: (**يا مُحَمَّد فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟ فقال: في الكُفَّارات**)[1] إلىٰ آخر الحَدِيث، فهذا الحَدِيث من هذا السَّنَد لم يصح، وإن كان حَسَنه بعض العُلَمَاء، لكن الحَدِيث إذا ورد فيه عِللٌ كهذه فإنه لا ينبغي أن يُعتمد عليه، وخاصة فيما يتعلَّق بالخالِق ﷻ.



(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القُرْآن، باب ومن سورة ص، برقم: (٣٢٣٥)، وقال: "هذا حَدِيث حَسَن صَحِيح"، والإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٢٣٢١٠)، (٣٨/ ٢٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨١١٧)، (٨/ ٢٩٠)، والدارمي في سننه، كتاب الرؤيا، باب في رؤية الرب تَعَالَىٰ في النوم، برقم: (٢١٩٥)، (٢/ ١٣٦٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (٢٦٠٨)، (٤/ ٤٧٥)، والبزار في مسنده، برقم: (٤٧٢٧)، (٢/ ١٦٣).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وما أحسن ما قال القَيِّمِ في وصفها! هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإلىٰ عملها شمر السابقون، وعليها تفانىٰ المحبون، فهي قوت القُلُوْب، وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحَيَاة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده ففي بحار الظُّلُمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإِيمَان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متىٰ خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلىٰ بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلىٰ مَنَازِل لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هي داخليها.

الشَّرح

كلام ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشرح قيمةَ مَحَبَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيذكرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها هي الحَيَاة التي من فقدها فهو في عداد الأمواتِ، وأنها الشفاءُ الذي من لم يجده فهو مريضٌ ومملوءٌ بالأسقام، وهي اللذة التي من يفقدُها فلا يعرف طعماً لحياته أبداً، هي مَحَبَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ، مَحَبَّةُ الله أعظمُ الأعمالِ وأشرفُها، وهي تجعلُ الحَيَاة كلَّها أُنساً وسعادةً، تقلِبُ حَيَاة المَرَضىٰ إلىٰ حَيَاة سعيدةٍ، وتقلبُ حَيَاة الفقراءِ إلىٰ حَيَاة سعيدةٍ، وتقلبُ حَيَاة المُبتلين إلىٰ حَيَاة سعيدةٍ؛ لأَنَّه متصلٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، ويحبُّ اللهَ فهو يُحِبُّ كلَّ ما يأتي من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يستوحشُ، ولا يتألمُ، ويتضجرُ؛ لأنه يعلمُ أنَّ ما يصيبُه بقدرِ الخَالِق، بقدرِ مالكِ الملك عَزَّوَجَلَّ، بِقَدرِ الرحمنِ الرحيمِ، الذي هو أرحمُ بالإنسان من أُمِّه، أرحمُ بالإنسان من الوالدةِ

بولـدِها، فهـو يعلـم أنَّ مـا أصـابَه بقـدرِ الله، فهـو يُحِـبُّ مـا أصـابَه ويستسـلمُ لـه ويرضَىٰ به، هذا القَلْبُ إذا وصـلَ إلـىٰ هـذه الدَّرَجَةِ فإنـه يصبحُ في عـالمٍ آخر، لكن لا يصلُ إلَّا عـن طريـق المُجاهـدةِ، وعـن طريـقِ العلـم، فالإنسـانُ إذا عِلْـم وعَـرفَ الله ﷻ، ورأىٰ أنَّ كـلَّ مـا يصـيبُه بقـدرِ الله تَعَـالَىٰ، وأن الله إنَّمَـا يصـيبه ليمحصه ويرفع درجته فإنه كما قـال ابـن تَيْمِيَـةَ ؒ تنقلب في حقـه المشـقات إلىٰ سعادة، ويرتفع من حياته شيء اسمه التكاليف، قال: هذا لا يسمىٰ تكليفـاً إلا علىٰ أَشخَاص، وأمَّا أصحاب القُلُوْب الحيَّة فلا يـرون في عبـادةِ الله تكليفـاً بل يرون فيها أُنساً وسعادةً.

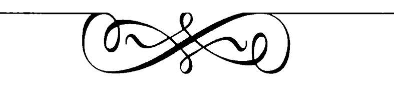
لهذا كان نبيُنا عليه - الصَّلَاة والسلام - إذا حزبَه أمرٌ قال: **(أرحنا بها يا بلال)**(١) أي: بالصلاة، يقومُ إلىٰ الصَّلَاة ليرتاحَ، وكم من مصلٍ يُصلي لينتهي منها ويرتاحَ، فشتانَ بين من يأتي إلىٰ الصَّلَاة ليرتاحَ، وبين من يُعجِّلُ بالخروج منها ليرتاحَ منها، فإنَّه يُصلي ليرتاحَ؛ لأنَّه إذا بدأ في الصَّلَاة فإنَّه يناجي الله ﷻ، ويخاطبُه بدون حجابٍ، نحن نقرأ في الفاتحة الضمائرَ كلُّها ضمائرَ خطابٍ، كقوله - تَعَالَىٰ -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الكافُ كافُ المُخاطَب، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كافُ المُخاطَب، ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ فهو يتحدَّث مع الله مواجهةً، فكيف يُحِبُّ أن ينصرفَ من صلاته، لا يُحِبُّ ذلك إلا من كان قلبُه غافلاً، لكنَّ صاحبَ القَلْبِ الحيِ يفرح بأن يكون في الصَّلَاة، يسعدُ بأن يكون في الصَّلَاة، ولهذا كان نبينا ﷺ يُصلي حتىٰ تتفطَّر قدماه، حتىٰ يعجز عن الصَّلَاة قائماً،

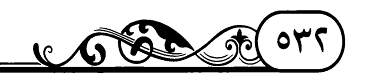
---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، برقم: (٤٩٨٥)، والإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٢٣٠٨٨)، (٣٨/ ١٧٨)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٦٢١٥)، (٦/ ٢٧٧).

فيُصلي قاعداً لِحُبِّه لقربه من الله؛ لأنَّ أقربَ ما يكون العبدُ إلىٰ الله وهو ساجدٌ، وهذا لا يتم إلا في الصَّلَاة، فشتان بين من لا يعرفُ هذه المَحَبَّة، وبين من يعرفها ويقدِّرُها.

لكن أحيانًا قد يتجاوزُ الإنْسَانُ الحدَّ الشرعي، كما قال ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هناك ثلاث طوائف عبدوا الله بصفاتٍ تَجاوزوا فيها الحدَّ، فقال في الخَوَارِجِ: عبدوا الله بالخوف رجَّحوا جانبَ الخَوف حتىٰ وقعوا في المحذورِ، وقال في المرجئة: عبدوا الله بالرَّجاء، وقال في الصوُّفِيَّة: عبدوا الله بالحبِّ، فعندما عبدوا الله بالحبِّ وحدَه تزندَقُوا؛ لأنَّهم انبسطوا مع الله كأنَّهم يتحدَّثون مع معشوقٍ، كما يتحدثُ المخلوقُ إلىٰ مخلوقٍ، هذا الحُبُّ مع الله لَابُدَّ أن يكون حُبًّا بتعظيمٍ، حُبًّا مع تقدير وتقديسٍ، حُبّ عبدٍ لخالقٍ، وليس حُبّ عبدٍ لعبدٍ، أو مخلوقٍ لمخلوقٍ، فالحبُّ ينبغي أن يكون مضبوطًا بالشرع، ولا يكون حُبًّا مُطلقًا؛ لأن الحُبُّ المُطلق من كل قيدٍ يؤدي إلىٰ الزندقة كما نقرأ في حَيَاة الذين انحرفوا في التَّصَوُّف حتىٰ وصلوا إلىٰ الزندقة، بسبب الخروج عن الحُبُّ الشرعي، فالحب هو مما حثَّت عليه الشريعةُ وهو من أعظمِ الأعمال، بل أعظمُها علىٰ الإطلاق حُبّ الله عَزَّوَجَلَّ. وكلُّ عملٍ ينطلق من الحُبُّ يكونُ عملاً مباركًا، أمَّا العملُ الذي ينطلقُ من الخَوف فإنه يكون عملاً ثقيلاً علىٰ النَّفْس، شَتَّانَ بين أن تطيع من تحبُّ فإنك تطيعه وأنت راغبٌ في طاعته، وتُحبُّ أن يُكلِّفَك، وتُحبُّ أن يطلبَ منك، لكن من تخافُ منه فإنَّك تستثقلُ الطَّاعَة، وتستثقلُ أمره، فشتَّان بين الأمرين، لكنَّ الحُبُّ الممزوج بالخوف هو الذي ينبغي أن يُرافق الإنْسَان.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدُّنْيَا والآخرة، وقد قضىٰ الله تَعَالَىٰ يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة علىٰ المحبين سابغة.



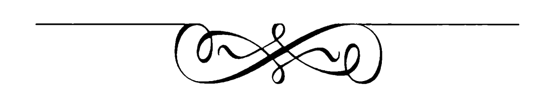
الشَّرح

هنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ المرء مع من أحبَّ، هذا إشارة إلىٰ حَدِيث وردَ عن النَّبي ﷺ أن رجلاً بعد الفجر سألَه قال: يا رَسُولُ الله متىٰ السَّاعَةَ؟ **(فقال: ماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله. فقال: أنت مع من أحببت)**[1]، فقال الصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: فما فرحنا بشيء فرحنا بذلك الحَدِيث، فإن الإنْسَان يَومَ القِيَامَة يكونُ مع من أحبَّ، فال مُسْلِم ينبغي أن يُحِبَّ اللهَ ورسولَه، وأن يُحِبَّ دينَه، وأن يُحِبَّ الصَّالِحينَ، لا يُحِبُّ الكافرين، ولا يُحِبُّ الفَاسِقين لئلا يحشر معهم؛ لأن الإنْسَان يحشر يَومَ القِيَامَة مع من يُحِبُّ، فإن أحببتَ الأنْبِيَاء وأتباعَ الأنْبِيَاء، وما جاء به الأنْبِيَاء حشرت معا لأنْبِيَاء، وإن أحببت غير الأنْبِيَاء فإنك تُحشر مع من تحبُّ، وهذا ميزان الإنْسَان يزنُ به نفسَه، ويزنُ به حُبّه، والحُبُّ ليس حُبّاً مجرداً، بل حُبّ يتبعه العمل ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب فضائل الصَّحَابَةُ، باب مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم: (٣٦٨٨)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، برقم: (٢٦٣٩)، (٤/ ٢٠٣٢).

بعض النَّاس كان يزعم أنه يُحِبُّ الله، ولكنه لا يطيعُ الله، فجاءت هذه الآية تكشف هذا الزيف، إن كنتَ تحبُّ الله فعلامةُ صدقِ محبتِك إتباعُك لما جاء به رَسُولُه ﷺ، فالحبُّ ليس معناه الحُبَّ المجردَ من العمل؛ لأنه حُبّ سلبي بل المراد الحُبُّ الإيجابي الذي يدفعُك للعمل، فكلُّ إنسَانٍ يزعمُ أنَّه يُحِبُّ الله ورسولَه ولا يعملُ فإنه يَغشُّ نفسَه، ويخادعُ نفسَه، الحُبُّ إن لم يرافقه عملٌ فإنَّه دعوىٰ وكلُّ دعوىٰ تحتاجُ إلىٰ دَلِيلٍ، والدليلُ هو الطَّاعَة في أمِرِ الله واجتنابِ نهيهِ عَزَّوَجَلَّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في مسيرهم واقفون، وأجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم، حي على الفلاح وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح، وأطال في وصفها فراجعه في "المدارج".



الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الُمحبَّ الذي يُحِبُّ الله مع العملِ القليلِ المُتقنُ، وهو نائمٌ على فراشِه يسبق الذي يسعَى ويُكثر من العملِ مع حُبٍّ قليلٍ؛ لأنه كما قال بعض التَّابِعِينَ: ما سبقككم أبو بكرٍ بكثرةِ عملٍ صيامٍ ولاصلاةٍ، وإنَّما سبقكم بشيءٍ وقرَ في القَلْب، حُبٌّ وقرَ في قلوبِهم يوازنُ الدُّنْيَا، لو طُلب منهم أن يتنازلوا عن جزءٍ من دينِهم ما تنازلُوا، ولَتحمَّلوا العذابَ والمَشقَّةَ، هذا بلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسجنُ ويُعذَّب وتوضعُ الصخرةُ علىٰ صدرِه في الرمضاء، ويقول: أحدٌ أحدٌ، لم يتنازل عن دينِه بشيء؛ لأنَّ حُبَّ الله في قلبه أعظمُ من حُبِّ الحَيَاة، فإن لم يصل الإنْسَان إلىٰ هذه الدَّرَجَة فإن حُبَّه يكون ناقصًا كما جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رَسُول الله إني أحبُّك، أنت أحبُّ إلي من كل شيء إلا من نفسِي، **(قال: لا يا عمر، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك، قال: الآن يا رَسُول الله، والله لأنت أحب إلي من نفسي، قال: الآن يا عمر)**[1] أي :الآن

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الإيمَان والنذور، باب كيف كان يمين النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم:

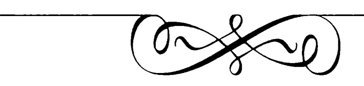
أصحبتَ في دَرَجة الإِيمَان الأُولىٰ، أمَّا الحُبُّ الناقصُ فإنه يُنقصُ من الإِيمَان بحسبِه.

وهذا النَّقلُ كلُّه من كتابِ ابن القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المشهور ب :ـ (مدارج السالكين)، الذي شرح فيه مَنَازِل السائرين لأبي إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان له شخصيتان، شخصيةٌ سلفيةٌ، وشخصيةٌ صوفيةٌ، فهو في جانبٍ علىٰ مُعتقدِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ في الأسماءِ والصفاتِ، وفي جانبٍ علىٰ مَنْهَج المتصوفة في التَّصوُّف والسلوك، وله فيه كلام جميل، وله كلام مردود، مَنَازِل السائرين ذكر فيه مائة منزلة للذين يسيرون إلىٰ الله علىٰ ضوء الآيَة الكَرِيْمَة، فقال: مَنَازِلُ السائرين بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فذكر الإِنْسَان الذي يسيرُ إلىٰ الله علىٰ ضوءِ هذه الآيةِ، وكم له من محطاتٍ، يتنقَّل فيها من محطةٍ إلىٰ محطةٍ: التوبةُ، اليقظةُ، المَحَبَّة، الشكرُ، إلىٰ آخره، فجعلها مَنَازِلَ،فجاء ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فشرحَ هذا الكتابَ، وصحَّحَ ما صحَّ فيه، وردَّ ما أخطأ فيه، وكان يقول: أن الشيخ حُبّيبٌ إلىٰ قلوبِنا، ولكن الحَقّ أحبَّ إلينا منه، أي: وإن كنا نحبُّه ولكن الحَقّ مُقدَّمٌ علىٰ أنفسنا، فلابدَّ من بيان الحَقّ فيما أخطأ فيه الشيخُ، فإنَّ الشيخَ له كلامٌ خطيرٌ جداً، قد يؤدِّي إلىٰ الكُفْر؛ لأنَّ الكتابَ فيه مُصْطَلَحاتٌ خطيرةٌ للمتَصوِّفةِ الغُلَاة، فابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردُّ هذه المُصْطَلَحات ويقول: كان غيرُها أولىٰ منها.

وينبغي أن نحرص علىٰ أن لا نستعمل المُصْطَلَحاتِ الحادثةَ في دين الله، فالله قد أغنانا بالقرآن والسنة، فكل مُصْطَلَح يتعلَّق بالدِّين، وليس له في القُرْآن والسُّنة أصلٌ أو شاهدٌ لا نقبلُه؛ لأنَّ هذا دينٌ، والله قد أكمل الدِّينَ كما قال —

= (٦٦٣٢).

تَعَالَىٰ - : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فلا نحتاج إلىٰ مُصْطَلَحاتٍ حادثةٍ في دينِ الله، إنَّمَا نستعملُ المُصْطَلَحاتِ التي في كتابِ الله وسنةِ رَسُولِ الله ﷺ، فقد أحدثَ المُتكلمون مُصْطَلَحاتٍ، وأحدث الفلاسفة مُصْطَلَحات، وأحدث الصوُّفِيَّة مُصْطَلَحات، وأحدث كل فرقة مُصْطَلَحات في دين الله، هذا المُصْطَلَح لا يخلو من شوائب، لا نرد مُصْطَلَحاً إذا كان يدل علىٰ حق، فنقبل المَعْنَىٰ، ونرد اللفظ إذا كان يدل علىٰ معنىٰ ورد في القُرْآن والسنة لفظ يدل عليه، فنقول: يغنينا المُصْطَلَحُ الشرعيُ؛ لأنه ما من لفظٍ يستخدم من غيرِ الكِتَاب والسُّنَّة إلا ويُخشىٰ أن يكون له معنىً غيرُ حَسَن، فنرد اللفظ ونقبل الحَقّ الذي أشار إليه، فلا نتكلَّمُ في الدِّين إلا بالمُصْطَلَح الشرعيِ بقدرِ الإمكان.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن المَحَبَّة قسمان: مشتركة وخاصة. **فالمشتركة ثلاثة أنواع:**

أحدها: مَحَبَّةُ طبيعية كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ونحو ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: مَحَبَّةُ رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم.

الثالث: مَحَبَّةُ أنس وألف وهي مَحَبَّةُ المشتركين في صناعة، أو عِلْم أو مرافقة أو تجارة أو سفر، لبعضهم بعضًا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضًا، فهذه الأنواع الثلاثة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركًا في مَحَبَّةُ الله. ولهذا كان رَسُول الله ﷺ يُحِبُّ الحلواء والعسل، وكان يُحِبُّ نساءه وعائشة أحبهن إليه، وكان يُحِبُّ أصحابه وأحبهم إليه الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْح

هذه المَحَبَّة المشتركةُ، فلما كانت المَحَبَّة مهمةٌ تحدَّث عنها العُلَمَاءُ وبينوا خطورتها، وأن الإنْسَان قد يقع في الشِّرك بالله عَزَّ وَجَلَّ بَيَّنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: المَحَبَّةُ قسمان: قسمٌ مشتركٌ، وقسمٌ خَاصّ، أو قسمٌ عَامّ، وقسمٌ خَاصّ، القَسَم العامُّ ثلاثةُ أنواعٍ، النوع الأول: مَحَبَّةُ عَطفٍ، أو مَحَبَّةٌ طبيعيةٌ، فالإنسانُ يُحِبُّ الطعامَ والشراب، ويحب السكنَ، هذه مَحَبَّةٌ طبيعيةٌ، كلُ إنسَانٍ يُحِبُّ هذه الأشياءَ.

والمحبة الثانية: مَحَبَّةُ إشفاقٍ ورحمةٍ، تحبُ طفلَك الصغيرَ، فترفقَ به وتأنس به، والمحبةُ الثالثة: مَحَبَّةُ أُنسٍ وأُلفةٍ، فشخصٌ يعيشُ مع أَشخَاص في عملٍ بينهم ودٌ وحبٌ، هذه كلُّها بشريةٌ، يجوزُ أن تُصرفَ لغير الله، ولهذا جاء

في أحاديثَ صَحِيحةٍ أن النَّبي ﷺ كان يُحِبُّ الحلوىٰ، ويُحبُّ العسلَ، وهذا في الصَّحِيح، وكان يُحِبُّ عائشةَ ﵂، وكان يُحِبُّ الصِّدِّيقَ ﵁، وأمَّا الحلوىٰ والعسلَ فقد أخبرت عنه عائشةُ ﵂ أنه **كان يُحِبُّ العسل والحلوىٰ**[1]، فهذا الحُبُّ لا يجرح الحُبَّ الشَّرعي، هذا حُبّ مشترك، أو حُبّ عَامّ لا يؤثر، فليس هو الحُبُّ الذي من صرفَه لغير الله يعاقَب؛ لأنَّ هذا الحُبُّ لا يستلزمُ التعظيمَ، والذلَ، والخضوعَ، فالحبُّ الخطيرُ الذي لو صرفته لغير الله هو المستلزِم للذلِّ والخضوعِ، وهذا لا يكونُ إلا لله ﷻ.

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الطلاق، باب (لم تحرم ما أحل الله لك)، برقم: (٥٢٦٨)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكُفَّارة علىٰ من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، برقم: (١٤٧٤)، (٢/ ١١٠٠).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القسم الثاني: المَحَبَّة الخاصة التي لا تصلح إلا لله، ومتىٰ أحب العبد بها غيره كان شركًا لا يغفره الله، وهي مَحَبَّةُ العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطَّاعَة وإيثاره علىٰ غيره، فهذه المَحَبَّة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً، كما حققه ابن القَيِّمِ، وهي التي سوىٰ المشركون بين الله تَعَالَىٰ وبين آلهتهم فيها، كما قال - تَعَالَى - في الآية التي ترجم لها المصنف: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:١٦٥].

قال ابن كثير: يذكر تَعَالَىٰ حال المشركين به في الدُّنْيَا، وما لهم في الآخِرَة من العذاب والنكال، حيث جعلوا لله أنداداً أي أمثالاً ونظراء يُحِبُّونهم كحبه ويعبدونهم معه وهو الله الذي لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه، وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي يساوونهم بالله في المَحَبَّة والتعظيم، ولهذا يقولون لأندادهم وهم في النَّار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

فهذا هو مساواتهم برب العَالَمِينَ، وهو العدل المذكور في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١]، إمَّا مساواتهم بالله في الخلق والرزق وتدبير الأمور، فما كان أحد من المشركين يساوون أصنامهم بالله في ذلك، وهذا القول رحجه شيخ الإسْلَام، والثاني: أن المَعْنَىٰ يُحِبُّون أندادهم كما يُحِبُّ المُؤْمِنون الله، ثم بين أن مَحَبَّةُ المُؤْمِنين لله أشد من مَحَبَّةُ أصحاب الأنداد لأندادهم. قال شيخ الإسْلَام: وهذا متناقض، وهو بَاطِل فإن المشركين لا يُحِبُّون الأنداد مثل مَحَبَّةُ المُؤْمِنين الله، ودلت الآية علىٰ أن من أحب شيئًا كحب الله فقد اتخذه نداً لله، وذلك هو الشِّرك الأكبر. قاله المصنف.

الشَّرح

هذا القَسَمُ الثاني هو الحُبُّ الخاصُّ، والمحبةُ الخاصةُ، المستلزمةُ للذُّلِّ والخضوعِ وكمالِ الطَّاعَة، تلك لا يجوز أن تُصرَف إلا لله ﷻ، والدليلُ قوله - تَعَالَىٰ - وهو يُعَيِّرُ المُشرِكين ويعاتبُهم، أو يزجُرُهم، أو يُؤنِّبهم علىٰ ما فعلوا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، فهذه الآيةُ اختلفَ العُلَمَاءُ في بيان معناها، ذهبَ ابنُ تَيْميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ معنىٰ، وذهب ابنُ القَيِّمِ إلىٰ معنىٰ آخرَ، مع أنه تلميذُه، لكنه في هذه المسألة خالفَه، فقول الله -تَعَالَى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [البقرة:١٦٥].

موطنُ الخلافِ بينهما هو معنىٰ (كَحبِّ الله)، هل المَعْنَىٰ: يُحِبُّونهم كحبِّهم لله، أو يُحِبُّونهم كحبِّ المُؤمِنين لله، أي: الضمير هنا هل هو المشركون أو المُؤمِنون؟ يرىٰ ابنُ تَيْميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن المَعْنَىٰ كحبهم لله، أي: أنهم يُحِبُّون الأصنام كما يُحِبُّون اللهَ، فَحُبُّهم قسَّموه قسمين: نصفٌ للأصنام، ونصفٌ لله ﷻ، وهذا معنىٰ قولِه -تَعَالَىٰ- عنهم وهم يقولون في النَّار للأصنامِ، ومن عبدوه من دون الله: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، أي: هناك يعترفونَ أننا كنَّا نساويكم بربِّ العَالَمِينَ، قال ابن تَيْميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَوُوهُم في الحُبِّ، لم يكونوا يزعمون أنهم يخلُقون أو يرزقون، لكن كانوا يُحِبُّونهم كحبهم لله، فهذا المَعْنَىٰ الذي رجَّحه ابن تَيْميةَ، فالضمير المحذوف يعود إلىٰ المشركين. أمَّا ابنُ القَيِّمِ فقد رجَّح المَعْنَىٰ الثاني أنَّ الْمشركين يُحِبُّون أندادَهم كمحبةِ المُؤمِنين لله، فأصبحَ حُبُّهم في أعلىٰ

الدرجاتِ؛ لأن المُؤمِنين يُحِبُّون الله في أعلىٰ الدرجات، فَحُبُّهم للأنداد كحبِّ المُؤمِنين لله ﷻ، وابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: هذا بَاطِلٌ؛ لأنه ما بلغ حُبّ المشركين لأندادِهم كحبِّ المُؤمِنين لله ﷻ، وإنما قسَّموا الحُبُّ جعلوا نصفه للأنداد، ونصفَه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكلا المعنيين يدُّلان علىٰ أن المشركين أساءوا وأنَّهم قد صرفوا حقَّ الله لغيره، فإما أنه م صرفوا نصفه لغير الله، ومن صرف نصف العبادة لغير الله فقد أشرك، وعمله كله بَاطِل، ومن صرفه كلَّه لغير الله فقد أشرك، وإن كان أشدَّ جرماً، فالمشرِكُون قد أحبُّوا مع الله غيرَه حتىٰ صرفُوا حقَّ الله ﷻ لهؤلاء الأنداد، فالحبُّ الشَّرعيُ أو الحُبُّ الخاصُّ الذي يستلزم الذلَّ والخضوعَ وكمالَ الطَّاعَة إذا صرفتَه لغير الله فقد أشركتَ، فأنت تعامل الله بالحبِ، وهو الحُبُّ الشرعيُّ، وتحبُّ غيرَ الله، لكن حُبّاً طبيعياً، حُبّاًعاماً ليس خَاصّاً بحيث لو تعارضَ حُبّ الله مع حُبّك لغير الله تقدَّم حُبّ الله، كما قال -تَعَالَى-: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤].

إذا أصبحت هذه الأشياءُ تمنعُك من طاعةِ الله، وتقدِّمها علىٰ طاعةِ الله فَحُبُّك لله حُبٌّ ناقصٌ أو معدومٌ، فهكذا المقارنة، عندما يتعارض الحُبَّان - حُبّك لله وحبُّك للمخلوق - فإن قدَّمت حُبَّ المخلوقِ علىٰ حُبِّ الله فإن حُبَّك لله ناقصٌ، حُبُّ الوالدين، وحبُّ الزوجة، وحبُّ المال، وحبُّ الولد، وحبُّ التجارة، وحبُّ المسكن، كلُّ ذلك إن قدَّمته علىٰ حُبِّ الله فَحُبُّك مغشوش، وترتكب أمراً خطيراً، فهنا المقياس، نضرب مثالاً: لو جاءك ربحٌ ربَويٌ في

مبلغ خيالي، مثل: عندك خمسون ألفـاً فجاء لك فيها مائتا ألف، هذا ربا، هنا تنظر هل تحبُّ الله فترفضُ هذا المكسبَ الحرامَ، أو تُغمض وتقول: سآخذُها وأتصدَّق بها، يأتيك الشَّيطَانُ، ويقول: تصدَّق بها، لا تتركها لغيرِك، فهنا يبدأ الصراعُ، وكذا لو جاءك مالٌ عن طريق الرشوةِ وهو حرام، يُذكَر - إن ثبتت القصةُ، وإن شاء الله ليست ثابتة - أنَّ بعضَ القضاةِ في بعض البلدان الإسْلَامية عندما جاءه شخص فأعطاه مبلغـاً قليلاً مقابلَ أن يحكُم خطأً فطلبَ مبلغـاً مضاعفـاً، فقال: هذا كثيرٌ، قال: لا تدري أنني سأتخلَّدُ في النَّار، أي: يعرفُ، نعوذ بالله من الضلال، والإنسان قد لا يحسُّ ولا يشعرُ أنه يُحِبُّ الله، لكن متىٰ يعرفُ حُبّ الله إذا تعارضَت مسألتان، إحداهما مما يُحِبُّ الله، والثانيةُ مما يكرهُه الله، فإن قدَّم ما يكرهُه الله فَحُبُّه ناقصٌ،وهناك إنسَانٌ يرفضُ أحيانـاً المالَ الكثير جداً، بعض الصَّالِحينَ في الماضي كان أبوه من أثرياء النَّاس، وكان مُبتَدِعَـاً، فعندما مات رفضَ أن يأخذ من مال أبيه قرشـاً واحداً، قال: لا آخذُ من ماله؛ لأنَّه كان مُبتَدِعَـاً، ومن حيث الجوازِ الشَّرعي يجوزُ أن يَأخذَ، ولكن هذا ورعٌ، وكم من إنسَان يرفُض أن يأخذَ الهدايا، كانت تأتيه بمبالغٌ كبيرةٌ جداً، وبإمكانه أن يأخذها من حيث الجواز الشرعي، لكن من حيث الورعُ كان يتركُها لله؛ لأن حُبّه لله كان عظيمـاً، وكان يترك هذا مَحَبَّةُ في الله لئلا يُغضبَ الله عليه، لئلا تَنقصُ مَكَانتُه عند الله، فهذا هو الحُبُّ الذي يمنعُك من المَعْصِيَة ويدفعُك للطاعة، والحُبُّ هو الذي دفعَ الإنْسَان ليموتَ ويُقتلَ في سبيلِ الله، وهو الذي جعلَ الإنْسَان يُقدِّم كلَّ مالِه لله، وهو الذي جعلَ الإنْسَان يتركَ كثيراً من المناصبِ الخاصةِ التي ترفعه في الدُّنْيَا، فإذا ضحيتَ في سبيل الله بأمر حرامٍ أو فيه شبهة فأنت تحبُّ الله، إمَّا إذا أغمضت عينيك وأخذت الحرامَ فلا، وخاصَّة هذا المقياس يأتي في أمور الدُّنْيَا في المناصبِ والأموالِ، هنا محكُّ الحُبِّ، هل تُقدِّم مَحَبَّةُ الله أم تقدِّم حُبَّ الدُّنْيَا، وهذه الآيَة الكَرِيْمَة:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، ويقول تعالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ [التوبة:٢٤].

الإنسان يعيش كما قال – تَعالَىٰ –: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الشعراء:٢٠٥]. عاشوا سنين، ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الشعراء:٢٠٦]. جاءهم المَوْت. ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء:٢٠٧] لو كان الإنْسَان كان مترفًا مائةَ عَامٍ انتهىٰ مع وقت وفاته، وذهب الترف، كما يقول الشاعر:

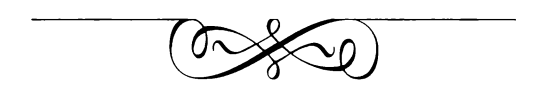
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم=فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلــوا

ناداهم صارخ من بعد ما دُفِنوا=أين الأسِــرَّة والتيــجان والحلل

قد طالـما أكلوا دهراً وما شربـوا=فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وطالما جمعوا الأموال وادخروا=ففارقوها إلىٰ الأجداث وارتحلـوا

فالإنسانُ مهما عاشَ في الترفِ والنَّعيم مصيرُه إلىٰ المَوْت، فلا ينبغي له أن يُقدِّمَ شيئًا يكون فيه ألمُه وحسرتُه وشقاؤُه، بل يُقدِّم ما فيه سعادتُه ورِفعَتُه عند الله ﷻ، فَحُـبُّ الله ﷻ ينبغـي أن يكـون هـو القاعـدة والانطلاقـة في حَيَـاة الإنْسَان، يعمل الأوامر مَحَبَّةً لله، يـتركُ المَعَاصِي مَحَبَّةً لله، يتحـرك مَحَبَّةً لله، فهذه التي تجعـل العبادةَ سـهلةً ميسـورةً مرضـيةً للإنسـان، فالحـبُّ هـو أعظـمُ الأعمالِ التي يتعاملُ الإنْسَانُ بها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

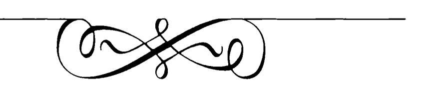


قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعلىٰ وجوب إفراد الله بالمحبة الخاصة التي هي توحيد الإلهية، بل الخلق والأمر والثواب والعقاب إِنَّمَا نشأ عن المَحَبَّة ولأجلها، فهي الحَقّ الذي خلقت به السموات والأرض، وهي الحَقّ الذي تضمنه الأمر والنهي، وهي سر التأله، وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله، وليس كما زعم المُنْكَرون. أن الإله هو الرب الخَالِق، فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية، الذي هو حقيقة لا إله إلا الله، فإن الإله الذي تألهه القُلُوْب حُبّاً وذلاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعةً، إله بمعنىٰ مألوه أي محبوب معبود.

الشَرْح

إله بمعنىٰ مألوه أي محبوب،فهذا خَاصّ بالله، فإذا قلت لا إله إلا الله أي لا محبوب الحُبُّ الكامل الذي يستلزم الذل والخضوع وكمال الطَّاعَة إلا الله؛ لأنك قد تطيع إنسَاناً ولا تذل له، وقد تذل له ولا تطيعه، لكن أن أطعته وذللت له فقد اتخذته من دون الله إلهاً؛ لأن عمل القَلْب الذي هو الذل لا سلطان لأحد عليه، فإن قدمت هذا الحال لغير الله فقد عملت شيئاً ليس في يد غيرك، فالذل من أعمال القُلُوْب، لا ينبغي لك أن تذل إلا لله، فقد تطيع إنسَاناً مقهوراً علىٰ أمرك، قد يجبرك علىٰ أن تفعل فعلاً، لكن القَلْب الذي فيه موطن الذل والخوف والتعظيم لا سلطان لأحد عليه، فأنت إن أطعته وذللت له فقد عبدته من دون الله، وسيأتي تقريره في كلام الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ.



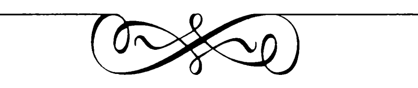
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأصله من التأله وهو التعبد الذي هو آخر مراتب الحُبِّ، فالمحبة حقيقة العبودية، ودلت أيضًا علىٰ أن المشركين يعرفون الله ويحبونه، وإنما الذي أوجب كُفْرهم مساواتهم به الأنداد في المَحَبَّة، فكيف بمن أحب الأنداد أكبر من حُبّ الله؟ فكيف بمن لم يُحِبُّ الله أصلاً ولم يُحِب إلا الند وحده؟، فالله المستعان.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هؤلاء قد أشركوا مع الله غيرَه في الحُبِّ، فكيف بمن يُحِبُّ الأندادَ أكبر من حُبّه لله؟ بل كيفَ من لا يُحِبُّ إلا الأندادَ؟ والآن في حَيَاة البشر، كم من إنسَان يُحِبُّ زوجته أعظمَ من حُبّه لله، ويسترضيها أكثر مما يسترضي اللهَ، وكم من إنسَان يُحِبُّ رئيسَه أو مسئولَه أعظمَ من حُبّ الله، ويسترضِيه أكثر مما يسترضي اللهَ، ولعله لو أمرَه بمعصيةٍ الله لأطاعَ مسارعًا مُتقربًا إليه، هذا هو الحُبُّ الشَّرعي الذي صرفَه لغير الله، فالذي يُعظِّم المخلوقَ وخاصة إذا كان هذا المخلوقُ بيدِه مالٌ أو بيدِه سلطانٌ أو جاهٌ ويتقرَّب إليه ويذلُّ له، وليس له سلطانٌ علىٰ قلبِه، لكن حُبّه في الدُّنْيَا يجعلُه يذلُّ ويخضعُ صرف الحبَّ لغير الله، كما قال بعض العُلَمَاء أن بعض النَّاس عنده حاسة سادسةٌ وهي حاسةُ الذُّلِّ، يصرفها لغير الله ويحاول أن يشبعها بتذلله لغير الله، حتىٰ قال بعضهم: أنه كالذُّباب كلما طردتَه رجع، وهو يفخرُ بصرف العبودية لغير الله جَلَّ وَعَلَا، ويتسابق إلىٰ الأسياُد، كلما ركلَه سيدٌ انتقل إلىٰ سيدٍ آخر، في قلبه حُبّ العبوديةِ لغيرِ الله، بعض النَّاس هكذا يشعر ويفتخر بذُلِّه، ويرىٰ أن خدمته لشخصٍ مُعينٍ عزٌّ له، ولا يصرفُه لله جَلَّ وَعَلَا، فينبغي للإنسان أن يحرصَ علىٰ أن لا تكون عبوديتُه إلا لله.

فالطاعة المشروعةُ جائزةٌ، كأن تطيعَ الزوجةُ زوجَها أو يطيعَ الولدُ أباه، أو يطيعُ الإنْسَانُ وليَّ أمرِه، لكنَّ التَّذللَ عملُ القَلْب لا ينبغي أن تصرفَه إلا لله، ولا يستحقُّه مخلوقٌ؛ لأنَّ الذي يستحقُّه هو الذي خلقَك وأوجدَك، والذي يرزقك والذي أحياك ويميتُك، والذي بيده المُلكُ. ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]. ليس أحدٌ بيدِه المُلكُ إلا اللهَ ﷻ، فينبغي أن تكون قلوبُنا موصولةٌ بالله، عزيزةٌ بالله ﷻ، هذا عِزُّ الإِيمَان أمَّا الذلُّ فهو الذي يتسابقُ إليه المنافِقون، وأصحابُ الحاجات، قد يذلُّ إنسَانٌ لإنسانٍ بسيطٍ جداً لحاجته إليه، لهذا يقول ابن تَيْميةَ رحمه الله في أصحابِ عُبَّادِ الصورِ الذين يقعون في حُبّ النِّسَاءِ وحبِّ الأَشْخَاص، قال هؤلاء يتذللون التذَّلُّلَ الذي لا يكون إلا لله ﷻ؛ لأن الحُبُّ قد مَلك قلوبَهم، فلم يَعُدْ في قلوبِهم مَكَان لغيره، لا لله ولا لرسولِه ﷺ، فلا ينبغي لنا أن نُدخلَ في قلوبنا إلا حبَّ الله، والحُبُّ الطبيعي شيء لا يخلو منه إنسَانٌ حتىٰ الأنْبِيَاء، وهو أمرٌ مُباحٌ، لكن الحُبُّ الذي نَذِلُّ معه خَاصٌّ بالله ﷻ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

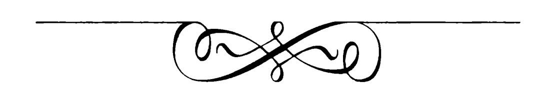
وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

نتكلم عليها لتعلقها بما قبلها تكميلاً للفائدة، وإن لم يذكرها المصنف، وفيها قولان، أحدهما: وهو الصَّحِيحُ أن المَعْنَىٰ والذين آمنوا أشد حُبّاً لله من مَحَبَّةُ المشركين بالأنداد لله، فإن مَحَبَّةُ المُؤمِنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والثاني: والذين آمنوا أشد حُبّاً لله من حُبّ أصحاب الأنداد لأندادهم التي يُحِبُّونها من دون الله. قال ابن القَيِّم: والقولان مرتبان علىٰ القولين في قوله تَعَالَىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وفي الآية دَلِيل علىٰ أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وأن الشِّرك محبط للأعمال.



الشَّرح

هذه الفائدةُ تكملةٌ للماضي، قلنا أنَّ العُلَمَاءَ اختلفوا في الضمير ، هل مرجعُه إلىٰ المشركين أو إلىٰ المُؤمِنين، وهنا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، أي أشد حُبّاً لله من حُبّهم للأندادِ، أو من حُبّ المشركين لله؛ لأنهم أحبُّوا الله وأحبُّوا الأنداد، فالمَعْنَىٰ مُرتبٌ علىٰ الخلاف السابقِ في أول الآيةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

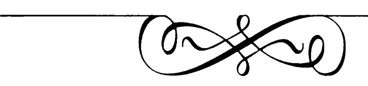
قال: وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٢٤]. الآية

هذا أمر من الله تَعَالَىٰ لنبيه مُحَمَّد ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وعشيرته وأمواله ومساكنه، أو أحد هذه الأشياء علىٰ الله ورسوله وجهاد في سبيله، وقد خوطب بهذا المُؤمِنون في آخر الأمر كما قاله شيخ الإسْلَام، فقيل لهم: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ [التوبة:٢٤] أي حصلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ [التوبة:٢٤] أي رخصها وفوات وقت نفاقها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ [التوبة:٢٤] أي لحسنها وطيبها، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة:٢٤] أي أنتظروا ماذا يحل بكم من عذاب الله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة:٨٠] أي الخارجين عن طاعة الله.

الشرح

هذا شرح للآية السابقة في المتن، قال ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه من آخر ما نزل؛ لأن الجِهَاد فرض وكان عند بعض المُسلِمين حُبّ بشر، كحب مزارعه وحب الراحة، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية ليبين فيها أن المُؤمِن ينبغي أن يُحِبُّ الله تَعَالَىٰ أكثر من حُبّه، لماله ومزارعه وزوجته وعشيرته وإلا فإنه يكون فاسقاً؛ لأن الآيَة الكَرِيْمَة دائماً إذا جاء في آخرها وصف فإنه متعلق بما تقدم، فهنا في قوله

تَعَالَىٰ بعد أن ذكر فتربصوا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة:٨٠]. أي من فعل ذلك فإنه فاسق، والفاسق يطلق أحيانـًا ويراد به الكافر، ويراد به أحيانـًا المُسْلِم العاصي، أمَّا الكافر فكما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف:١٤٥]. أي الكافرين، فالفسق بمعنىٰ المَعْصِيَة العامة، أي: تشمل الكافر وال مُسْلِم العاصي، فهنا فيه خطورة، هل من فضل بعض هذه الأشياء علىٰ حُبِّ الله يكون كافراً؟ أو يكون فاسقـًا ولا زال علىٰ دينه؟ فيه احتمال هذا وهذا.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو تنبيه على أن من فعل ذلك فهو من الفَاسِقين، فهذا تشديد ووعيد عظيم، ولا يخلص منه إلا من صح إيمَانه، فخلص لله سره وإعلانه، وعلى أن المَحَبَّة الصادقة تستلزم تقديم مراضي الله على هذه الثمانية كلها، فكيف بمن آثر بعضها على الله ورسوله وجهاد في سبيله، فإن قلت: قد قال شيخ الإسْلَام: أن كثيراً من المُسلِمين أو أكثرهم بهذه الصفة، قيل: مراده أن كثيراً من المُسلِمين قد يكون ما ذكر أحب إليه من الله ورسوله، أي في إيثار ذلك على فعل أمر الله وأمر رَسُوله الذي ينشأ عن المَحَبَّة، لا في الحُبِّ الذي يوجب قصد المحبوب بالتأله، فإن من ساوى بين الله وبين غيره في هذا الحُبِّ فهو مُشْرِك، فكيف إذا كان غير الله أحب إليه؟ كما هو الواقع من عباد القُبُوْر، فإنهم يُحِبُّون أندادهم أعظم من حُبّ الله، وذلك أن أصل الحُبِّ يحتمل الشِّركة، بخلاف الخلة، فإنها لا تقبل الشِّركة أصلا؛ ولهذا قال النَّبي ﷺ في الحسن وأسامة: (اللهم أني أحبهما، فأحبهما، وأحب من يُحِبُّهما) حَدِيث صَحِيح.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن بعضَ عُبَّادِ القُبُوْر يُحِبُّون أندادهم أكثر مما يُحِبُّون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويذكر بعضُ المؤرخين قصةً وقعت في جدة قبل قيام الدَّعْوَة في هذه البِلَاد، يقول: إن شخصًا كان له على إنسَان دَينٍ، فقال: احلف بالله، فحلف أنَّه ليس عليه دَينٌ وأنه قد سدَّده، أو أنه ليس عليه دينٌ أصلاً، فقال: احلف بقبرِ الشيخِ فلان أو بالشيخ فلان، فتوقف، وأبى أن يحلِف، فألزمه القاضي أنَ يسدِّد، فسئلَ لماذا حلفتَ بالله كاذبًا ولم تحلف بالشيخ؟ فقال: لأنَّ اللهَ كريمٌ يتجاوزُ، أمَّا الولي ما يتجاوزُ قد يعاقبني على حلفي الكاذبِ به!!، ففي قلوبهم

تعظيمٌ للمخلوقِ الميِّت أكثر من تعظيمهم للخالِق، فهكذا الإنْسَان الجاهل الذي لا يعرف الله، ولا يعرفُ الدِّين قد يصل إلىٰ مرحلةٍ أنه يُعظِّم المخلوقَ أكثرَ مما يُعظّم الخَالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، منهم من يُعظِّم المخلوقَ الميّتِ، ومنهم من يعظم المخلوق الحي، وكلاهما شركٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ، فالقَسَمُ خَاصّ بالخالِق، والتعظيمُ خَاصّ بالخالق، والذلُّ خَاصّ بالخالق، والحُبُّ الشرعي الذي فيه ذلٌ وخضوعٌ خَاصّ بالخالِق، وهذا إشارة من الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ هذا المَعْنَىٰ.

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**اللهم أني أحبهما ..**) هذا في البُخَارِي يقول في الحسن وأسامة: (**اللهم أني أحبهما، فأحبهما وأحب من يُحِبُّهما**)[1] أي: هذا الحَدِيث من الأحَادِيثُ التي ورد فيها حُبّ النَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمخلوق، فهذا الحُبُّ الطبيعي الذي هو حُبّ العطف علىٰ الأطفال الصغار، لكن هذا الحُبُّ لو تعارض مع طاعة الله ما قدم حُبّهما علىٰ حُبّ الله عَزَّ وَجَلَّ، فالمحبةُ أعظمُ أنواعِ الأعمال للقلوب بعد الإِيمَان بالله عَزَّ وَجَلَّ، فالذي لا يُحِبُّ الله عَزَّ وَجَلَّ ليس مؤمناً، والذي يكون حُبّه قليلاً فإيمانُه قليلٌ، ولا تزيد المَحَبَّة إلا بأن تعرفَ الله، إذا عرفت الله ازدادت محبتهُ في قلبِك، وإذا جهلت الله فلا تقدِّره قدرَه عَزَّ وَجَلَّ.

الله مالكُ الكونِ وخالقُ الوجودِ، الكونُ كلُّه بيده، هو الذي أوجده، ونظَّمَه، وأحكمَه، وصورَه، وجعل لكل خلق صورة، وجعل لكل خلق نظاماً،

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه إلىٰ قوله: "فأحبهما"، كتاب فضائل الصَّحَابَةُ، باب مناقب الحسن والحسين، برقم: (٣٧٤٧)، وأما قوله "وأحب من يُحِبُّهما" فلم أجده في شأن حُبّ أسامة والحسن، بل هو في حُبّ الحسن والحسين، أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن بن علي والحسين بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، برقم: (٣٧٦٩)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٢٦٥٢)، (٣/ ٤٩).

وجعل لكل خلق عملاً ثم هو ﷻ يرعاه ويحفظُه، فإذا تأملت هذا الوجود وما فيه من إحكام وإتقانٍ، ورأيت عظمةَ الخلق عرفت أن الله ﷻ عظيمٌ، ثم ما تراه في الوجود من رعاية لهذا الإنْسَان، فمنذ يخلُقه في بطنِ أمِّه يرعاه الله ويحفظه، ويكلأه، ويصوره، ويُسخِّر له الكونَ كلَّه ليقدِّم له الغذاءَ ، والشرابَ، هذا الإنْسَان إذا تأمَّل حياتَه وكيف تستمر الحَيَاة، وكيف تتم الحَيَاة، وكيف يعيش الإنْسَان، والله يرعاه بالنعمِ من كل مَكَان، هذه الشَّمْسُ منذ خلقها الله ﷻ علىٰ هذا العمل تعطي الإنْسَان الحرارةَ، وتعطيه الضياءَ بقدر محددٍّ، لو زاد ضياؤها لضرَّ بأبصار النَّاس، ولو نقصَ ضياؤها لضرَّ أبصارَ النَّاس، لو زادت حرارتها لضرت حَيَاةَ النَّاس، لو نقصت حرارتها لضرَّت حَيَاة النَّاس، الآن في الفصول عندما تبتعد قليلاً عن بعض المناطق يأتي فيها الثلجُ والبردُ، لو ابتعدت أكثر لتجمَّد النَّاسُ علىٰ ظهر الأَرْض، والذي يجعل الدم يجرىٰ في جسم الإنْسَان هي الحرارةُ، هناك حرارةٌ داخليةٌ في الجسم، وحرارةٌ خارجيةٌ، فإذا انتهت الحرارةُ الخارجيةُ ما تستطيعُ الحرارةُ الداخليةُ تفي بحاجةِ الإنْسَان، ولا ندرىٰ كيف تتكون الحرارةُ الداخليةُ في جسمِ الإنْسَان من الطعامِ، كيف يصبحُ الطعامُ طاقةً وحركةً للجسم؟، ولا نعرف كيف يصبح حرارة، ولماذا لا تزيدُ حرارة الإنْسَان ولا تنقص، الأطباء يدرسون الظاهرَ فقط، ولا يعرفون الأسبابَ.

والذي يرعىٰ هذا المخلوقُ هو الله، الإنْسَان في شرقِ الأَرْض وغربِها، وفي جنوبِها وشمالها حرارته واحدةٌ، لو زادت حرارته أربع أو خمس درجات لهلك، ولو زادت حرارةُ الدِّماغ أربع أو خمس درجات يذوبُ، وهذا ما يسمىٰ بالموتِ الدِّماغي، فالشخصُ الذي يكون في مستشفىٰ يموت دماغيًا، الدماغُ يصبح سائلاً يسيلُ، فانتهىٰ، وهو خلايا متماسكٌ، محفوظ في هذه الجمجمةِ

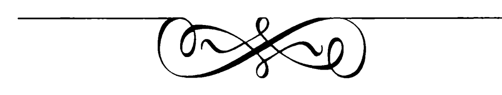
العجيبةِ، هذا الدِّماغُ لو لم يكن فيه عظمٌ قاسٍ يحفظُه قد يموت الإنْسَانُ من أول يوم، لكن الله جعل هذا العظمَ يحفظُ الدِّماغَ، فحياة الإنْسَان محاطةٌ بنعمِ الله، لا نستطيع أن نعدَّ نعمَ الله ﷻ، فالله يرعىٰ كلَّ خليةٍ في الجسم، ولو أردنا أن نَعدَّ خلايا الجسم ما نستطيع، تقدر بسبعين بليون خلية، كل خليةٍ لها نظامٌ، تتلقىٰ الغذاء عن طريقِه، أرأيتم الشَّخص إذا كان عنده سُكَّر لا تقبل هذه الخليةُ دُخولَ السُّكرِ إليها إلا إذا كان مُحلَّلاً، ما الذي أدرىٰ الخليةَ من سبعين بليون خلية؟ كيف تعيشُ، كيف تعرف النظام؟ الله يرعاها ﷻ، الإنْسَانُ يرىٰ هذا الجسم ولا يرىٰ إلا الظاهرَ، أطباءٌ يتكلمون عن كل خلية، فلها نظامٌ، وكل خلية لها غذاءٌ، وكلُّ خليةٍ لها بابٍ

، إذا جاء السُكَّرُ ليس مُحلَّلاً البابُ يُقفَل، أرأيتَ الشَّخص الذي عنده سُكَّرٌ كيف أحياناً يصاب بانهيارٍ شديدٍ جداً؛ لأن الخلايا قفلت ما دخلَت أي غذاءٍ؛ لأنه لما جاء السُكَّرُ إليها ليس مُحلَّلاً تقفل، ما يدخل إليها غذاءٌ، فصاحب السكر أحياناً يبحث عن سكرُ يأكلُه حتىٰ يدخل الطاقةَ علىٰ جسمه؛ لأن الجسم انهار، فاحتاج لإسعافٍ سريعٍ.

فهذه نعم الله ترعَىٰ الإنْسَان من كلِ مَكَان، فإذا عرفت أن الله يرعاك ويحفظك كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، عندئذ تُحُّبه من قلبِك، الله يرعاني، ويحفظُني، ويسخر الكونَ لي، لا يشغلُه عني شيءٌ، هذا تكريمٌ من الله ﷻ أنَّ الله جعلك محطَّ عنايتِه، فتحبُّه وتقدرُه وتجلُّه وتعظمُّه، والله فوق ذلك كلِّه غنيٌ عنك، لا يحتاجُ إليك ﷻ، أنت المحتاجُ، فالله يرعاك ويحفظُك، ويُغذيك علىٰ الرغم من معاصِيك، ويسترُك علىٰ معاصيك، وأنت تستمرُ في معصية الله، ينبغي أن تتوقفَ وأن تعوَد إلىٰ الله وتعظمُه، وتحبَّ الخَالِقَ من قلبِك، فإن لم يكن هناك بالقلب حُبّ تكون العباداتُ جافَّةً ليس

فيها حَيَاة، الحُبُّ هو الذي يُحوِّلُ المشقة إلىٰ رضا، إلىٰ سعادةٍ، وقد كان نبينًّا ﷺ يقول لبلال إذا جاءت الصَّلَاة: **(أرحنا بها يا بلال)**[1]؛ لأنه إذا كَبَّرَ دخلَ بين يدي الله ﷻ، هذا الوقوفُ بين يدي الله كان يترقَبُّها ﷺ، لتنقذَهُ من مشاكلِ الدُّنْيَا ومشاغِلها، هذا الحُبُّ هو الذي يحيل الحَيَاةَ إلىٰ سعادةٍ، إلىٰ حَيَاة فيها أُنسٌ.

أما إذا فقد الإِنْسَانُ حُبّه لله ﷻ وعاش إِيمَانًا ليس فيه الحُبُّ، فإنه يعيش حَيَاة قلقةً، لا يشعر بلذة الإِيمَان فقد جاء في الحَدِيث **(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإِيمَان)**[2] العبادة التي يقول النَّاس عنها أنها تكاليف لا تصبح في حقِّك تكاليفٌ، تصبح في حقك مَكسبًا، وتَرقُّبٌ لتقفَ بين يدي الله ﷻ، فالحبُّ هو الذي يحولُ الحَيَاةَ، يحول حَيَاةَ المَرضىٰ إلىٰ حَيَاةٍ سعيدةٍ، وحياةِ الفقراء إلىٰ حَيَاةٍ سعيدة، وحياةِ أصحابِ البلاءِ إلىٰ حَيَاةٍ سعيدةٍ؛ لأنَّه مُتصلٌ بخالِقه ﷻ، ويعرف خالقَه وقلبه مملوءٌ بمحبته وتعظيمِه، هذا هو موضوع هذا الباب.



---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واعلم أن هذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران:٣١]، فلما كثر المدعون لمحبة الله طولبوا بإقامة البينة، فجاءت هذه الآية ونحوها، فمن ادعىٰ مَحَبَّةُ الله وهو يُحِبُّ ما ذكر علىٰ الله ورسوله فهو كاذب، كمن يدعي مَحَبَّةُ الله وهو علىٰ غير طريق النَّبي ﷺ فإنه كاذب، إذ لو كان صادقًا لكان متبعًا له، قال مبارك بن فضالة: عن الحسن قال: كان ناس علىٰ عهد النَّبي ﷺ يقولون: يا رَسُول الله أننا نحب ربنا حُبّاً شديداً، فأحب الله أن يجعل لِحُبِّه عِلْمًا، فأنزل الله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١]. وقد وقع لكثير من المدعين نوع أنبساط في دعوىٰ المَحَبَّة، أخرجهم إلىٰ شيء من الرعونة والدعاوي التي تنافي العبودية، ويدعي أحدهم دعاوي تتجاوز حدود الأنبياء ويطلبون من الله مالا يصلح بكل وجه إلا لله.

الشَّرح

قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ [التوبة:٢٤]، لا زال حَدِيثه عن هذه الآية، فقال هذه الآية شبيهة بقول الله تَعالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، قال مبارك بن فضالة من التَّابِعِينَ: سببث نزولِ آية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] أنَّ بعضَ النَّاس ادَّعَىٰ أنَّه يُحِبُّ الله حُبًّا شديداً، فالله ﷻ أراد أن يجعلَ هناك علامةً تدلُّ علىٰ صدقِهم أو علىٰ كذبهم، فقال الله لنبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا مُحَمَّد، ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾

[آل عمران:٣١] كما تزعمون ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١] ، تكون النتيجة ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فعلامة مَحَبَّةُ الله اتباعُ طريقِ رَسُولِ الله ﷺ، الذي يُحِبُّ الله يتبعُ الرَّسُول، هذه العلامةُ التي تدلُّ علىٰ صدق محبتِك، فإن النَّاس يَدَّعُون، كما يقول الشاعر الجاهلي:

وكـل يـدعي وصـلاً لليلـىٰ ... وليلـىٰ لا تقـر لهـم بـذاك

يعني كلُّ واحدٍ يدَّعي أنه له علاقةٌ بها، لكنها هي لا تقرُّ ولا تعترفُ بهذه الصلةِ، فالمحبةُ الدَّعوىٰ شيءٌ، والحقيقة شيءٌ آخر ، ليس كل من يَدَّعِي صادقًا، فإنه يدَّعي الصادقُ والكاذبُ، لكن هناك عَلَامَاتُ تدلُّ علىٰ صدقِ الدَّعوىٰ، فالذي يُحِبُّ الله وهو صادقٌ في محبتِه يتَّبعُ الرَّسُولَ ﷺ.

والرسولُ قد ترك لنا سنَّته كما قال – تَعَالَىٰ -: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُول اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ}** ﴿سورة الأحزاب: ٢١)﴾، فالأُسْوةٌ والنُموذجُ الصَّحِيحُ لهذا الدِّين هو رَسُولُ الله ﷺ، والذي يُحِبُّ اللهَ يتبعث رَسُولَه فيطيعَه فيما أمر، ويجتنب ما نهىٰ عنه وزجرَ، ويصدِّقُه فيما أخبر، عندئذ تكون محبته صادِقةٌ، أمَّا الذي يدَّعي مَحَبَّةَ الرَّسُول ﷺ ثم تراه لا يَصلي الفجرَ مع المُسْلِمين، ولا يؤدي الفرائضَ، أو يؤديها علىٰ كسلٍ، ويرتكبُ بعض المحرماتِ أو أكثرَها يكون كاذبـًا في دعواه، فينبغي أن لا ينخدعَ بدَعوىٰ المَحَبَّة، المَحَبَّةُ الصادقةُ تستلزمُ الاتباعَ الكاملَ، لا يعني ذلك أن الإنْسَان لا يقعُ في خطيئةٍ؛ لأنَّ الخطيئة من لوازم البشر، لكنها تكون مثل الإنْسَان إذا عثر في الطريق، ليس العِثار في الطريق أن يستمر علىٰ أن يكون عاثراً، بل يعثرُ ثم يَقوم، أمَّا الذي يعثُر ثم يبقىٰ فإنه لا يكون عاقلاً، فالإنسان قد يخطئُ، لكن يسير في الطريقُ، فقد يحدث له خروج، لكن عودةٌ سريعة، فعلامة مَحَبَّةِ الله أن تستقيمَ علىٰ سنَّة رَسُول الله ﷺ، هذا هو قول الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ هذا أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ امتحانـًا لمن يزعمُ مَحَبَّةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وسبب هذا ضعف تحقيق المَحَبَّة التي هي محض العبودية، بل ضعف العَقْل الذي به يعرف العبد حقيقته، ومدعي ذلك فيه شبه من اليَهُود والنَّصَارَىٰ الذين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وشرط المَحَبَّة موافقة المحبوب، فتحب ما يُحِبُّ وتكره ما يكره وتبغض ما يبغض، وذلك كمن يدعي أن الذنوب لا تضره لكون الله يُحِبُّه فيصر عليها، أو يدعي أنه يصل إلىٰ حد من مَحَبَّةُ الله تسقط عنه التكاليف، وكقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النَّار أحداً فإنه بريء منه، فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المُؤمِنين يدخل النَّار فإنه بريء منه، ونحو ذلك من الدعاوي، مع أن كثيراً من هذا ونحوه لا يصدر إلا من كافر، والعاقل يتنبه.

الشَّرح

هناك طوائفُ الصوفِيَّة في آواخر الدولةِ التركيةِ، بلغوا قرابةَ مائةٍ وخمسين طائفةٍ، وكل طائفةٌ لها شيخ، ولها ذِكرٌ خَاصّ، ولها شِعار خَاصّ، والذي يدخل بينهم ويسمعُ كلامهم يرىٰ كُفْراً لا يجدُه عند اليَهُود والنَّصَارَىٰ، يقول بعضُ زعمائهم: إذا جاء يَومُ القِيَامَة أسندَ هو ظهرَه إلىٰ باب النَّار ومنع دخول أتباعِه فيها، ويقول: أنه لا يَدخلُ أحدٌ من أتباعه النَّار، بل لو زنَىٰ أحدُ أتباعه بامرأةٍ لما دخلَت النَّار بسببِ احتكاكِ جسمِها بجسمِ أتباعِه، هذا كلامٌ لم يقله حتىٰ اليَهُود والنَّصَارَىٰ، يقول بعضُ مشايخ الصوفِيَّة: لست أنا الذي أخرجُ أتباعي من النَّار، بل مُريدي، أي: التلميذ، أمَّا أنا فدرجتي أعلىٰ، سيدُ البشر ﷺ يَومَ القِيَامَة يشفعُ في أصحاب النَّار بنفسِه، ولكن هذا الشيخُ أعلَىٰ!، يقول: أي مُريدٍ، أي: أي تلميذٍ من تلاميذي يُبقي أحداً في النَّار فهو ليس من أتباعي

أنا بريءمنه. قال الثاني: أيُّ واحدٍ يسمحُ بدخول النَّار لأتباعِي فليس من أتباعي، أي: أصلاً لا يدخلون النَّار، الأول يقول: إذا لم يخرجهم كلهم من النَّار ليس من أتباعي، وهذا يقول: الذي يسمح بدخول أحد في النَّار ليس من أتباعي!

النار بيد المالِك ﷻ، لا يملك بشرٌ أن يمنع أحداً من دخول النَّار، ولا سيد البشر ﷺ، وكما مر أن شيخاً يقول: لا تتُحركُ ذرةٌ في الأَرْض ولا في السَّماء إلا ويعلمُها، قال الثاني: لا تتحرك ذرة في الأَرْض ولا في السَّماء إلا بإذني! نعوذ بالله، هذا الكلامُ لا يقوله إنسَان عنده إِيمَان، والله ليس عنده إِيمَان، وهذا الطائفةُ يتبعُها أُناسٌ ويزعمُون أنهم هم أهلُ الحَقّ، بل هم أهل الحَقيقِة؛ لأن الشريعةَ الظاهرةُ قد خالفوها، يقولون: هذه الشريعةُ الظاهرة ليست لنا، هذه للعوامِ، نحن لنا الحَقيقةُ التي هي أخفىٰ، أنتم ما تعرفونها، فحتىٰ إذا رأوا الشَّخص يزَني منهم، يقولون: لا تصدِّقوُا أنَّ هذا يَزني، يتخيلُ لك أنه يَزني، والذي يقرأ كلامهم لا يجد كلاماً يصدر من أناس يعرفون الله ﷻ، وهنا الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلىٰ بعضِ هذه الجوانبِ، وبعض هذه المواقفِ السيئة من هذه الطائفة التي كانت سبباً في انهيار الدولةِ التركية؛ لأنها مثلُ السوس تنخر عظام الدولةَ حتىٰ أصبحت الأُمَّة منهارةً، زوايا وتكَايا صُوفِيَّة، وسراديبُ، وظُلماتٌ، وطُرقٌ وأذكارٌ، وإلغاءٌ للجهادِ، وإلغاءٌ للتعليمِ، حتىٰ العلمُ لا يتعلمونَه؛ لأنهم يقولون: نحن نأخذُ العلمَ من اللوحِ المحفوظِ مُباشرةً، يقول بعضهم: أخذتم عِلْمكُم مَيتاً عن مَيتٍ: حدثنا فلان، هذا فلان مات، وحدثنا فلان، وفلان مات، قال رَسُولُ الله ﷺ، والرسول مات، أمَّا نحن فنأخذُ من اللوح المحفوظِ مباشرةً، فالذي يطَّلع علىٰ كلامهم يرىٰ عجباً.

هذه الطوائف تُوجدُ اليوم في جميع بلاد المُسْلِمين، ولها أتباعٌ وأنصارٌ، ومن بيده الأمورِ في كثير من بلاد المُسْلِمين يُشجِّعُها، وقد كنت في بعض البِلَاد الإسْلَامية، وفي أول يوم من رمضان خرجت هذه الجماعات الصوُّفِيَّة متجهةً إلىٰ مَسْجِد فيه قبرٌ تُحيي رمضانَ، وعددُها ستُ عشرة طائفة، كل طائفةٍ لها مجموعة، ولها عَلَمٌ، ولها ذِكرٌ، بعضها أولادٌ صغارٌ، وبعضها نساءٌ، وبعضها خليطٌ، متجهون إلىٰ هذا المَسْجِد ليقيموا فيه احتفالات رمضان، ويحضره الرئيس الأكبر في هذه البِلَاد تشجيعًا لهم؛ لأنَّه يعلم أن هؤلاء أصلاً ليسوا علىٰ الحَقّ، وهو يحاربُ الحَقّ، فينصر الباطلَ الذي في صورة الحَقّ، فهذه الأُمَّةُ الإسْلَامية مبتلاة بانحرفاتٍ في عقائدها، وانحرافاتٌ في سلوكِها، وانحرافاتٌ في أخلاقِها، وانحرافاتٌ في جوانبِ حياتِها كلِّها، لا ينقذُها إلا العلمُ الشَّرعي المبني علىٰ الكِتَاب والسُّنَّة؛ لأن أراء الرجالِ هي التي تُمزِّق النَّاس، تجعل النَّاس يختلفون، لكن إذا رجعنا إلىٰ أصل الدِّين: قال الله ﷻ، وقال رَسُوله ﷺ يكون هذا الحكمُ فيما بيننا، قد نختلف في تفسيرُ بعضَ النَّصوص، لكن إذا كان أصلٌ واحدٌ يكون الخلافُ يسيراً، لكن إذا كان كلُّ طائفةٍ لها شيخٌ يُشَرِّع لها، وتتبعُه في دينها فالأمر خطيرٌ، الآن لو جلس أحدُ الصوُّفِيَّة عند شيخٍ آخرَ يطردُوه؛ لأنَّ هذا خرج من ولائهِ لهذهِ الطائفة، فالأمة الإسْلَامية تحتاج إلىٰ مرحلة طويلةٍ، وهي اليوم يُشنُّ عليها الحروب في كلِّ مَكَان، من داخلها ومن خارجها، وهي تترقَّب أن يَخرُجَ شبابها مُتسلحين بالعلمِ الشَّرعي ينقذونَها من هذا الظلامِ، البشريةِ كلِّها تعيشُ في ظلامٍ، والبشريةُ كلُّها تنتحرُ اليوم بيدها، انحرافٌ في أخلاقها وعقائدها، وما نسمع عمَّا تصُابُ به المُجْتَمَعات من الأمراضِ الخطيرة المعاصرة ما هو إلا عقابٌ من الله ﷻ، والآن المُجْتَمَع الغربي يسير إلىٰ الهاوية ببطءٍ؛ لأنه هناك انتهت

رغبتهم في الحَيَاة الزوجيةِ الشريفة، وبدءوا ينحطون إلىٰ الحَيَاة البهيميةِ، فلم يَعد الإنجاب هدفًا لهم، ولهذا فقد صاح كثير من عِلْمائهم قبل أكثر من خمسين عَامًا: أن الحضارةَ والاجتماعَ عند النَّصَارَىٰ في خطرٍ؛ لأننا قد رَجعنا إلىٰ حَيَاة البهيمية.

فلا ينقذُ النَّاس إلا أن يعودوا إلىٰ دينِهم، إلىٰ كلام الله ﷻ، ينقذُهم المُسْلِمون، لكن بشرط أن يتمثل الدِّينُ في حَيَاة المُسْلِمين، ولا يتمثل في حياتِنا إلا إذا فهمنا هذا الدِّينِ لا بالفهمِ الضيق، فأحيانًا نفهم الدِّين فهمًا ضيقًا، وكأن الدِّين أنزل علىٰ فئة معينةٍ، هذا الدِّينُ أنزل علىٰ البشريةِ إلىٰ قيام السَّاعَة، فلا ينبغي للإنسانِ أن يكونَ نظرُه ضيِّقًا، وإدراكُه ضيقًا، سريعُ الانفعالِ، سريعُ الحكم، لا يحاور الآخرين، لا يعطيهم فرصةً للكلام، بدعوىٰ أنَّه هو الحَقّ، أنت علىٰ الحَقّ ولكنك في حاجةٍ إلىٰ أن تَسمعَ من الشَّخص المقابلِ، لتعرف من أين أتي، وليسمعَ منك بهدوءٍ، ينبغي أن نكونَ أصحابَ دعوةٍ في أدبٍ وخلقٍ، واستيعابٍ، افتحوا صدورَكم للآخرين، ناظِروهم، ناقِشوهم، أعطوهم مجالاً يسمعَون منكم، وتسمعُون منهم، هكذا كان الأنْبِيَاء، كانوا يُحاوِرون، ويجادلُون ويسمعُون، ويَردُّون، فنبيُّنا ﷺ لما أتاه أحدُ زعماءِقُرَيشٍ، وهو يطلبُ منه أن يتركُ هذا الدِّينَ، ويتهمُه أنَّك فرَّقتَ المُجْتَمَع، وأوجدت العداوةَ بين الأبناءِ وآبائهم، والأزواجِ وزوجاتِهم، فإن كنت تريد كذا أعطيناك، وإن كنت إلىٰ آخره، والرسول ﷺ يسمع، ما انفعلَ وما قالَ: قُم أنت كافرٌ، وأنت مجرمٌ، بل استمع حتىٰ انتهىٰ من كلامه الباطل، ولم يبدأ حَدِيثه، قال: فرغتَ يا أبا الوليد، -الله أكبر- أي: تسمحُ لي أن أتكلَّم؟ قال : تفضل وهذا كافرٌ، نحن إذا أردنا أن نحاورَ بعضَنا البعض والدعاةُ أنفسُهم، أو طلبةُ العلم، لا يعطي بعضُنا فرصةً لأخيه يتكلَّم، فكيف

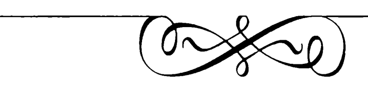
نكونَ قادةً للبشريةِ، القيادة تحتاجُ صدراً واسعاً، لا يقودُ البشر أصحابُ الصدورِ الضَيقةِ، أصحابُ الصدُورِ الواسعةِ والعقلِ الكبيرِ، والرحمةِ بالآخرين، واحترامِ الرأي المُخالفِ، محاولةُ معرفة كيف أخطأ في فهمِه حتىٰ تُعالجَ الخطأ، العلاجُ يكون بأدبٍ واحترامٍ، ما لم تحترم النَّاس لا ينقلون عنك العلمَ أبداً، لو جاء أكبرُ العُلَمَاء إلىٰ أحدِ الطلاب وصفعَه علىٰ وجهه ، وقال: اقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] لا يقرؤها، وهو ما أمره إلا بخيرٍ، لكن طريقةُ أمره بالقراءة فيها أذىً، ولكن لو جاءه بلطف، وقال: أنا فلان بن فلان، وأنا أجيدُ قراءةَ القُرْآن ، اسمح لي أقرأ أمامك سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] فقرأها معه، ثم قال له: هل لك أن تقرأها، فلا شك أنَّه يقرأها.

نحن نخُطئُ طريقَ وأسلوبَ الدَّعْوَة إلىٰ الله ﷻ، النَّاسُ يريدون خُلُقاً حَسَناً، وهذا الدِّينُ دينُ خُلقً، فالذي يأتي النَّاسَ بجَلافةٍ وخُشونةٍ وشدةٍ لا يقبَلون منه ولو كان نَبياً، هذا طبعُ النَّاس، ونحن أُمرنا باللطف، والمجادلةِ الحسنة، والحِكمةِ والتأنِّي والصبر، فإذا توفَّرَت فينا هذه الشروط نجحَت الدَّعْوَة بإذن الله، وإذا نجحتم في الدَّعْوَة إلىٰ الله كنتم في مقام الرُسُل؛ لأن هذه مهمة الرُسُل، والشخص منكم يأتي يَومَ القِيَامَة، وكل من هداه الله علىٰ يديه يأتي بحسناته في ميزانِه يَومَ القِيَامَة، أيُّ نعمةٍ وأيُّ فضل أكبرُ من هذا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت:٣٣]. لا يستعلي ويستكبرُ؛ لأنه داعٍ، أنتم منهم، فمن أحسن قولاً منهم؟ لا أحدَ، فنحن في حاجة إلىٰ أن يكون طلائعُ الدَّعْوَة إلىٰ الله ﷻ يحملون هذا الدِّين بقلوبٍ واسعةٍ، وعقولٍ واعيةٍ ورحمةٍ بالناس، وترَّفُّقٍ بهم، لَعَلَّ الله يهديهم علىٰ أيديكم، وإنما نتعلَّمُ لنعلمَ؛ لأنَّ القصدَ من التعلُّم أن ننقل العلمَ، لا أن نُخزِّنَه، وإن كان العلمُ شريفاً في ذاته حتىٰ ولو لم ننقلُه، لكن ليس هذا

المقصدُ، المقصدُ من تعلّم العلمُ هو العملِ به، والإنسانُ لا يقول: أنا كيفُ أُصلحُ البشريةَ، الأنبِيَاء ما أصلحوا البشريةَ؛ لأنَّ ذلك لا يكون دفعةً واحدةً، بل أنت تنقذُ واحداً، والواحدُ يُنقذُ واحداً، وهكذا، أرأيتم المطرَ، المطرُ قطرات، قطرةٌ، وقطرةٌ، وقطرةٌ، وإذا بها تصبح سيلاً كبيراً بإذن الله –تَعَالَىٰ –. بعض النَّاس يصاب بالإحباطِ، يقول: هذا الفسادُ الكبيرُ كيف نُصلحُه؟، عليه ألا يقولَ هذا؛ لأنَّه مطالبٌ بالعمل، وأما الدِّين دينُ الله، لو أرادَ الله أن ينصرَ الدِّين بكلمةٍ لنصره، لكن أراد اللهُ أن يَبتَليَ النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ.

الآن المُجْتَمَع العالمي يسير إلىٰ الانحدارِ والهاويةِ، والنَّاس يلتمسون الخلاصَ، لكن كما قال أحد الباحثين المعاصرين: الإسْلَام قضيةُ حقٍ بيدِ مُحامٍ فاشلٍ، أرأيتم الشَّخصَ الذي عنده قضيةٌ في المَحكمةِ، وأوكل إليها محامياً، لا يعرف أن يُحاميَ، كيف تنتهي القضيةُ؟ تفشلُ؛ لأنَّ المحاميَ فاشلٌ، لا لأنَّ القضيةَ بَاطِلةٌ، فاليوم الذي يحمل الحَقّ فيه ضعفٌ، ونحن قلنا إنَّمَا نُؤتَىٰ من نقص في أحد أشياء ثلاثةٍ، إمَّا نقصٍ في الدِّين، أو نقصٍ في العلمِ أو نقصٍ في العَقْلِ، الإنْسَان قد يكون عنده دينٌ وعلمٌ، لكن ما عنده عقلٌ، وهذا يُفسدُ أكثر مما يصلحُ؛ لأنَّه وإن كان صاحبَ صلاحٍ وتقوىٰ وعنده عِلْمٌ شَرعي، لكن ما يعرف يستخدمُ العلمَ الشَّرعي، وهذه خطيرة جداً، أي: ضعفُ عقل الدَّاعيةِ خطيرٌ جداً، يُفسدُ أكثر مما يُصلح، والقرآن يُربِّي فينا العَقْلَ، رَبُّ العَالَمِينَ يذكر قصة آدمَ، والملائكةُ في ظاهرِ الأمرِ تعترضُ علىٰ رَبِّ العَالَمِينَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]، ساق الله هذه القصةَ ليُربِّي فينا ملكةَ التَّحمل والمعارضة، لو عارضَك شخصٌ أقلَّ منك أو تراه مُخطِئاً فتحملَّه، رَبُّ العَالَمِينَ لم يهلك المَلَائِكَةَ، وفي ظاهر الكلام كأنَّه اعتراضٌ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠] أراد أن يعلِّمهم عن طريقِ التربيةِ، وعلَّم آدمَ الأسماءَ، بَيَّنَ أنَّ هذا المخلوقَ الذي يفسدُ ويسفك الدماء قد أودعتُه عِلْماً، ورفعتُه بهذا العلمِ، فعندما رأت المَلَائِكَة ما عند آدمَ من العلمِ الذي ميَّزه اللهُ به سلَّمت، فهذا هو الأسلوب الحسنُ، والمواجهةُ الطَّيبةُ، وتحمُّل المُخالفِ وسعةِ الصدرِ بإذنِ الله من أكبرِ أسبابِ النَّجاحِ.



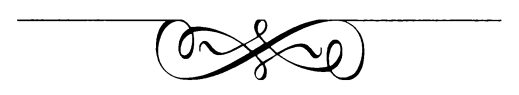
قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وما هكذا كان سادات المحبين الأنبِيَاء والمرسلون والصحابة والتابعون، فكن علىٰ حذر من ذلك، فإن كثيراً من جهال المتصوفة وقع فيه، وقد ينسب ذلك إلىٰ بعض المشايخ المشهورين، وهو إمَّا كذب عليهم وإما خطأ منهم فإن العصمة منتفية عن غير الرَّسُول ﷺ.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ ما يزعُمه المُتصوفةُ لم ينقل عن ساداتِ المُؤمِنين، لا من المُرسلين، ولا من الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيقول: كن علىٰ حذرٍ، ثم قال: ما ينسبُ إلىٰ بعض المُتصوفةِ أو بعضِ أهل العلمِ قد يكونُ كذبٌ عليهم؛ لأننا عندما نأتي إلىٰ تراجمِ العُلَمَاء السابقين نجد التاريخَ ليس موثوقًا؛ لأنه لم يخضع للميزان النَّقدي، كلامٌ ينقلُه النَّاس بعضُهم عن بعض، ونذكُره علىٰ سبيل الحكايةِ، لا علىٰ سبيل التقريرِ؛ لأنه ليس كل ما في تراجم العُلَمَاءِ حقٌّ، وليس كلُه بَاطِلاً، فيه حقٌّ وباطلٌ، فما تعلَّق بقضايا الدِّين لا نقبلُه إلا إذا ثبت عن طريق صحةِ السَّنَد؛ لأنَّ هذا دِينٌ، هذا ميزانٌ عندنا، فمثلاً عبد القادر الجيلاني مشهورٌ من زعماءِ المتَصوفِة، وقد نُسبت إليه حكاياتٌ وكراماتٌ، وأكثرها كذبٌ، فالناس عندما يرون هذه الحكايات عن هذا الرجل الصَّالِح ربما يتهمونه مع أن ما يُنسبُ إليه كذب، وهناك رسالة للشيخ الدكتور سعيد بن مسفر القحطاني، وأثبت فيها أن كل ما نسب إلىٰ الشيخ عبد القادر كذبٌ، وأنه رجلٌ كان علىٰ طريقِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ، وفيه صلاحٌ وزهدٌ واستقامةٌ في السلوكِ، وتَصَوُّفٍ لا يضرُّ، كل ما أخذ عليه أنه استشهد بأحاديثَ موضوعةٍ مكذوبةٍ علىٰ فضائلِ الأعمالِ، وهذه تقعُ في مصنفاتِ كثيرٍ من العُلَمَاء، لكن ما

نُسب إليه من الحكايات الغريبةِ أَنَّه أحيا ولدَ امرأةٍ مات، وأنه ردَّ شخصًا غائبًا، كل هذا كذبٌ، فما يُنسب إلىٰ كثير من المشايخ كذبٌ، ولو كانت النسبةُ صَحِيحة إلىٰ بعض المشايخ يكون من عملِ إنسَانٍ أخطأ فيما يقول، والمعيار هو الميزانُ الشرعيُ، ولو نُسب إلىٰ الشَّخص من الحكايات ما فيه مخالفةٌ نردُّه ما لم يشهدُ له شاهدٌ من الكِتابِ أو السُّنَّةِ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: عن أنس أن رَسُول الله ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والنَّاس أجمعين) أخرجاه.

ش قوله (لا يؤمن أحدكم) أي لا يحصل له الإيمَان الذي تبرأ به ذمته، ويستحق به دخول الجَنَّة بلا عذاب حتىٰ يكون الرَّسُول ﷺ أحب إليه من أهله وولده، ووالده، والنَّاس أجمعين، بل لا يحصل له ذلك حتىٰ يكون الرَّسُول أحب إليه من نفسه أيضـًا، كما في حَدِيث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال للنبي ﷺ: (يا رَسُول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النَّبِي ﷺ: لا، والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النَّبِي ﷺ: الآن يا عمر) رواه البُخَارِي.

فمن لم يكن كذلك فهو من أصحاب الكبائر، إذا لم يكن كافراً فإنه لا يعهد في لسان الشرع نفي اسم مسمىٰ أمر الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته، فأما إذا كان الفعل مستحباًّ في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، ولو صح هذا لنفي عن جمهور المُؤمِنين اسم الإيمَان، والصَّلاة، والزكاة، والحج، وحب الله ورسوله؛ لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النَّبِي ﷺ، بل ولا أبو بكر، ولا عمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفىٰ عن جمهور المُسلِمِين من الأولين، والآخرين وهذا لا يقوله عاقل.

الشَّرح

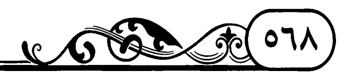
هذا استطرادٌ في شرح الحَدِيث: (**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده، ووالده والنَّاس أجمعين**)[١]، الذي يكون من أعمالِ القُلُوْب لا يكونُ صادقًا إلا إذا ظهرَ أثره علىٰ حَيَاة الإنْسَانِ، ولهذا كان عمرُ رضي الله عنه آخذاً بيدِ النَّبِي ﷺ في بعض الطرقِ فقال عمرُ للرسول ﷺ: يا رَسُول الله أنت أحبُّ إلي من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي، فقال النَّبِي ﷺ: (**لا يا عمر حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**)[٢] فعمر رضي الله عنه عندما سمعَ هذا الكلامَ تأثَّر وارتفعت عنده مَحَبَّةُ رَسُولِ الله، حتىٰ استشعرَ أنَّه يُحِبُّ الرَّسُول أعظمَ من حُبّه لنفسِه، والرسولُ قد أمر بأوامر ونهىٰ عن نواهٍ، أترىٰ الذي يسمعُ أمرَ الرَّسُول ﷺ ولا يطيعُه ويقول أنه يُحِبُّه؟ أو يسمع نهيه وهو يُحِبُّه ويعصيه، فالرسولُ ﷺ قد أمر بحضور صلاةِ الجماعة، فهل الشَّخص يسمع المؤذن يؤذن والصَّلَاة تقام في بيت الله ثم لا يحضر الصَّلَاة ويقول: أنا أُحبُّ رَسُولَ الله، هذا كاذبٌ.

النفي في العَرَبِية يأتي علىٰ صورٍ كَثِيْرَةٍ، إمَّا نَفيُ الحَقِيقَة بكامِلها، وإما نفي بعض الحَقِيقَة، وإمَّا نفيُ الكمالِ الوَاجِب أو نفيُ الكمالِ المستحب، فهنا النفي إمَّا نفيُ الكمال الوَاجِب، أي: إذا تركت هذا الذي نفاه الرَّسُول ﷺ تكونُ آثمًا، وإمَّا أن يأتيَ لنفي الكمالِ المُستحبِّ، هل جاء هنا لنفي الكمال الوَاجِب، أو لنفي الكمال المستحبِّ؟ لنفي الكمالِ الوَاجِب، أي: لا يكون

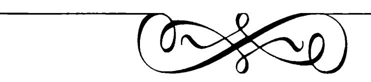
---

(١) أخرجه الشيخان في كتاب الإيمَان، البُخَارِي في باب حُبّ الرَّسُول ﷺ من الإيمَان، برقم: (١٥)، و مُسْلِم في باب وجوب مَحَبَّةُ رَسُول الله ﷺ من الأهل والولد والوالد والنَّاس أجمعين، برقم: (٤٤)، (١/ ٦٧).

(٢) سبق تخريجه.



أحدُنا مُؤمناً إلا إذا كان اللهُ ورسولُه أحبُّ إليه من كلِّ شيءٍ، فيقول: لو كان النفيُ للكمال المستحبِّ لجازَ لنا أن ننفيَ عن النَّاس الصَّلَاةَ والصومَ وغيرهما، بأن نقول: أنهم لم يصلوا، ولم يصوموا؛ لأنه ما من عمل يعملُه إنسَان إلا وهناك عملٌ أحسنُ منه، فمثلاً: صلاةُ الرَّسُول ﷺ وحضورُ قلبِه وخشوعُه أكملُ أنواعِ الصلوات، لا يستطيع أن يصليَ صلاةَ الرَّسُول ﷺ أحدٌ من النَّاس ولا أبو بكرٍ ولا عُمر، فإذا كانت الزيادةُ التي زادها النَّبي ﷺ من الكمالِ الُمستحَبِّ يجوزُ النَّفيُ لكان النَّاس كلُّهم لم يُصلُّوا، لكنَّ النفيَ هنا في هذا الحديث إنَّمَا هو للواجبِ، أي: النفي في لسانِ الشَّارِع لنفي الكمال الوَاجِب، لا نفيُ الكمالِ المُستحَبّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعلىٰ هذا فمن قال عن المنفي هو الكمال فإن أراد أنه نفي الكمال الوَاجِب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخ الإسْلَام.

وأكثر النَّاس يدعي أن الرَّسُول أحب إليه مما ذكر، فلا بد من تصديق ذلك بالعمل والمتابعة له وإلا فالمدعي كاذب، فإن القُرْآن بين أن المَحَبَّة التي في القَلْب تستلزم العمل الظاهر بحبها، كما قال - تَعَالَى -: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]. وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٤٧]. إلىٰ قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١].

فنفىٰ الإِيمَان عمن تولىٰ عن طاعة الرَّسُول، وأخبر أن المُؤمِنين إذا دعوا إلىٰ الله ورسوله سمعوا وأطاعوا، فتبين أن هذا من لوازم الإِيمَان والمحبة، لكن كل مُسْلِم لَابُدَّ أن يكون محباً بقدر ما معه من الإِسْلَام، كما أن كل مؤمن لا بد أن يكون مُسْلِمًا، وكل مُسْلِم لا بد أن يكون مؤمنًا، وإن لم يكن مؤمنًا الإِيمَان المطلق؛ لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المُؤمِنين، فإن الاستسلام لله ومحبته لا تتوقف علىٰ هذا الإِيمَان الخاص.



الشَّرح

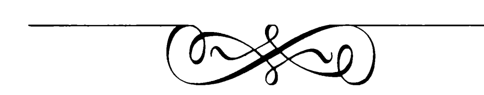
قوله: (وعلىٰ هذا فمن قال عن المنفي هو الكمال) هنا تقريرٌ أنه لم يَرِدْ في لسان الشرعِ نفيُ الكمالِ المُستحَبِّ، فكلُّ نفيٍ في لسانِ الشَّارِع إنَّمَا جاء لنفي

الكمال الوَاجِب، أي: أن من اتصف بهذا الوصف فإنه آثم، هذا هو المراد بالواجب.

قوله: (وأكثر النَّاس يدعي...)، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله جَلَّ وَعَلَا كما أنه ذكر أن من علامة الإيمَان اتباعُ الرَّسُول ﷺ وكذلك طاعتُه، فيقول عن قوم: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٤٧] هذه: دعوىٰ، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [النور:٤٧] يتولون أي: لا يطيعون، قال الله فيهم: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور:٤٧]. هم ادعوا أنَّهم آمنوا وأنَّهم أطاعوا، لكن عندما يُؤمَرون لا يطيعون، فهم كاذبون، من الذين يقابلونهم؟ المُؤمِنون، كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]، فالمؤمنون إذا دُعوا ليحكمَ الله ورسولُه بينهم قالوا: سمعنا وأطعنا، لا يَتولُّون تَوليَ الذين من قبلِهم، فدعوىٰ المَحَبَّة علامتُها الاستقامَةِ، ودَعوَىٰ الإيمَانِ علامتُها الطَّاعَة، فالذي يُدعىٰ ليحكم الله بينه وبين غيره ورسولُه ﷺ في أمورِ حياتِه ولا يستجيبُ ليس مؤمنًا، بل هذا كاذبٌ في دعواه؛ لأنَّ هذا ما أخبر به القُرْآن في أكثر من آية كما قال -تَعَالَىٰ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

النفيُ هنا نَفيُ الإيمَانِ الوَاجِبِ، فالذي لا يفعلُ هذا فقد أخلَّ بالإيمانِ الوَاجِب، والمُخلِّ بالإيمانِ الوَاجِب مُعرَّضٌ للعقابِ في الآخِرَة، فالله يُقسِم بنفسِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّهم لا يؤمنون، أي لا يُحقِّقون الإيمَانَ الكامِلَ الوَاجِبَ إلا إذا أطاعوك فيما تشاجَروا فيه، ولا يكفي الطَّاعَةُ، بل الرِّضا، يَرضُون به ويعلَمون أنه الحَقّ، ويُسلِّمون، لا يبحثون عن مخارجَ أو عن طرقٍ لترك هذا الأمرِ، هذا

هو علامة الإِيمَانِ، فكذلك مُدِّعِي المَحَبَّةِ لا تُصدَّقُ الدُّعوىٰ إلا باتباعِ الرَّسُول ﷺ، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإنْسَانُ قد يكون مُسْلِمًا، ولا يكون مؤمنًا، لكن لا يعني هذا أَنَّه ليس عندهُ إِيمَان، بل عنده إِيمَان لكن إِيمَانٌ قليلٌ، وسيأتي من كلامه أن بعض النَّاس ليس في قلبِه حُبٌّ لله ورسولِه عن جهلٍ، ومن رحمةِ الله بهم أن لا يبتليهم، وإلا إذا ابتلاهم وعرضَّهم للفتنة ربما لا يَثبِتون علىٰ الإِيمَانِ؛ لأنَّه ما عندهم عِلْمٌ شَرعي، وما يعرِفون معانيَ الإِيمَانِ والحُبِّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال شيخ الإِسْلَام: وهذا الفرق يجده الإِنْسَان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة النَّاس إذا أسلموا بعد كُفْر، أو ولدوا على الإِسْلَام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطَّاعَة لله ورسوله، وهم مُسْلِمون ومعهم إِيمَان مجمل، لكن دخول حقيقة الإِيمَان إلىٰ قلوبهم يحصل شيئًا فشيئًا أن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من النَّاس لا يصلون إلىٰ اليقين ولا إلىٰ الجِهَاد، ولو شككوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفاراً ولا منافقين، بل ليس عندهم من عِلْم القَلْب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحُبُّ لله ورسوله ما يقدمونه علىٰ الأهل والمال، وهؤلاء أن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجَنَّة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلىٰ نوع من النفاق. انتهىٰ.

الشَّرح

كلامُ ابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملةِ من أعظمِ الكلامِ وأدقِّه، فإنَّه يُصوِّر حالة كثيرٌ من النَّاس، هم مُسْلِمون، وليسوا مُنافقين ولا كُفاراً، لكنه لم يدخل في قلوبِهم من حقيقةِ الإِيمَان ما يجعلُهم يُقَدِّمُون مَحَبَّةَ الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ مَحَبَّةِ أنفسهم وشهواتِهم، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لكن دخول حقيقة الإِيمَان إلىٰ قلوبهم) أي: قلوب الذين أسلموا جدداً (يحصل شيئًا فشيئًا أن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من النَّاس لا يصلون إلىٰ اليقين، ولا إلىٰ الجِهَاد). الجهادُ ليس خَاصّاً بجهادِ السيف، بل يشمل الجِهَاد المعنوي الذي يرافق، أو قد يستقل عن جهادِ السيف، (ولو شككوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارا ولا منافقين، بل ليس عندهم من عِلْم القَلْب ومعرفته ويقينه ما يدرأ عنهم الريب،

ولا عندهم من قوة الحُبُّ لله ورسوله ما يقدمونه علىٰ الأهل والمال، وهؤلاء أن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجَنَّة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلىٰ نوع من النفاق) هذا حالُ كثيرٌ من النَّاس، الإِيمَانُ موجودٌ في قلوبهم، لكنه إِيمَانٌ ضَعِيفٌ، إِيمَانٌ لا يدفعُهم إلىٰ طاعةِ الله، ولا يحجزُهم عن معصيةِ الله، هذا الكلامُ فيه سبعةُ مواقفٌ.

أولاً: أن الإِيمَان يدخلُ في القَلْبِ ويتكاملُ بالتَدَّرُج بحسب اهتمام العبدِ، وهذه قضيةٌ لَابُدَّ أن نُدركَها.

ثانياً: أنَّ بعض المُسلِمين لا يكمل إِيمَانه، إمَّا لتفريطِه أي يكون عنده عِلْمٌ بذلك لكن يُفرِّط، وإمَّا لجهلِه.

ثالثاً: أن علامةَ ضعف اليقين عدمُ الرغبةِ في الالتزام بالدِّين، إذا رأيت إنسَانـاً رغبته ضَعِيفةٌ فيقينُه ضَعِيفٌ؛ لأنه إذا صحَّت القُلُوْبُ صحَّت الأعمالُ، ما يحركُ الإنْسَان إلىٰ العملُ إلا صحةُ الإِيمَان وقوتُه، أرأيتم السيارات إذا كانت غيَّر صَالِحةٍ ، فيها مُحركٌ وتمشي، لكن لا تستطيع أن تصعدَ بها أيَّ مُرتفع، ولا تستطيع أن تحملَ عليها ، لو حملتها لم تستطع السيرَ، ولو كلفتها الصعودَ ما صعدت؛ لأنذَ الجهاز الذي يجرُّها بالداخل ضَعِيفٌ، هكذا قلبُ الإنْسَان الضَّعِيفُ، فإذا كان الإِيمَانُ ضَعِيفاً لا يدفعُه إلىٰ الأعمالِ الشاقةِ، ولا يمنعُه من الشهواتِ.

رابعاً: أن عِلْمَ القَلْبِ أصلاً في عمل الإنْسَان، والعملُ الظاهر ثمرةُ ما في القَلْبِ، فلهذا نستطيع أن نحكمَ علىٰ الإنْسَان من خلال عمله الظاهري، فإذا رأينا فيه عَلَامَات طيبة عرفنا أن داخلَه طيبٌ، وإذا رأينا الظاهر سيئاً عرفنا أن داخلَه سيءٌ.

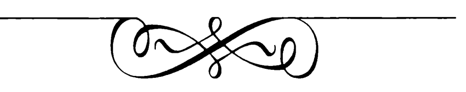
خامساً: أن ضعفَ الحُبِّ سبب في تقصير المُسْلِم، فالحب هو الذي يدفع الإنْسَان للعمل؛ لأن حركةَ الإنْسَان هي بالحبِّ، يُحِبُّ الدُّنْيَا، يُحِبُّ المال والمنزلَ والنِّساءَ، كما قال - تَعَالَى -: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤]، فالحبُّ في النَّفْس حرَّكها للحصول علىٰ مطالِبِها، فإذا كان حُبّ الله في قلبِك كاملاً ما يستطيع حُبُّ الدُّنْيَا أن يمنعِك من طاعةِ الله، وإذا ضَعف الحُبُّ في القَلْب كان حُبّ الدُّنْيَا أعظمُ، عندئذ تكون الحركةُ أضعفُ.

سادساً: أنَّ من رحمةِ الله بالعبدِ أن لا يبتليَه، فإذا ابتلاه ولم يُصبِّره ويُعِينُه ﷻ فإنَّه يَفشَل في الابْتِلَاء، ولهذا قال ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ: (**وهؤلاء أن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجَنَّة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين**)

أخيراً: أنَّ مَن ضَعُف إِيمَانُه لا يثبتُ عند الابْتِلَاء، فيكون الابْتِلَاءُ أعظمَ من الإِيمَان، عندئذ ينهزمُ الإنْسَان، فينبغي أن نُركِّز علىٰ تَقويةِ الإِيمَانُ في قُلوبنا، وأن نتذكَّر، وأن نحاول أن نفهمَ لماذا ينبغي أن يكون الإِيمَانُ في قلوبنا عظيماً؛ لأن الحُبَّ الجاهلَ يَسهُلُ عليك أن تَتركَه، لَابُدَّ أن تعرفَ أن الله هو الذي أوجدَك، وخلقَك، وصورَك، وأنعمَ عليك، وسخَّر الكونَ كلَّه من أجلك، وبعث الرُسُلَ وأنزل الكُتبَ، وجعلَ في الآخِرَة داراً يُسكنك إيَّاها إن أطعته، فيها كل ما تَشتهي، وأنه كريمٌ تعمل المَعْصِيَة فيغفرَها، وقد يعطيك إن صدقت في التوبة حَسَنةً بدلَها، وإن لم يغفرها كتبها معصيةً واحدة، وإن عملت حَسَنةً كتبها عشرةً إلىٰ سبعمائة ضعفٍ، إلىٰ أضعافٍ كَثِيْرَة، وإن همَمتَ بحسنةٍ فلم تعملها كتبها حَسَنة، وإن هممت بسيئة فلم تعملها كتبها حَسَنةً، كيف لا

تحبُّ هذا الربَّ ﷻ، وكم يعطيك الله ﷻ ثم أنت تأتي يومَ القِيامَةِ مُفلِساً، ولهذا يقول الله يَومَ القِيَامَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦]، يعطيك هذا العطاءَ كلَّه وتأتي يومَ القِيامَة مُفلساً، أنت المُخطئُ في حقِّ نفسك.

فينبغي أن تحمد الله وتُحبَّه من قلبك بأن تُقدِّم مَرْضَاة الله علىٰ مَرْضَاة نفسِك، كل إنسَان يختبر نفسه، يُحِبُّ أن يسهرَ مع أصدقائه وزملائه، فإذا أذن الُمؤذِّن فهذه العلامةُ: هنا مَحَبَّةُ الله أن تقومَ للصلاة، ومحبةُ الأصدقاء أن تجلسَ، ماذا تقدِّم؟ إنسَان يُبتلىٰ بأجهزة أو بآلات، فيرىٰ بعض البرامجَ، فَيؤذِّنُ المُؤذنُ ثم يكون أمامك منظرٌ آخر، فهل تحبُّ اللهَ، مَحَبَّةُ الله في الأساس إذا عظمَت تمنعك من كل هذا أصلاً، لكن إذا ضعُفت شيئًا قد يشاركُها مَحَبَّةُ شيءٍ آخرَ، لكن إذا غلبَ عليها فليس صادقاً في محبته لله. فالمحبةُ علامتُها أن تقدَّم مَرْضَاة الله علىٰ مَرْضَاة نفسِك، الإنْسَانُ قد لا يُدركُ الحُبَّ، لكن يعرف إذا تعارضت المَحبَّتان، مَحَبَّةُ الله ومحبةُ الدُّنْيَا، فعندئذ تعرفُ صدق محبَّتِك من عدمِها.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أحب) هو بالنصب خبر أكون.

قوله: (والناس أجمعين) هو من عطف العام على الخاص، وهو كثير.



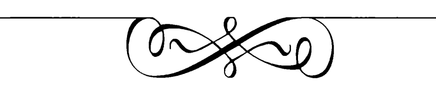
الشَّرح

قوله: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وولده، ووالده، والنَّاس أجمعين)[1] فَحُبُّ النَّبِي ﷺ علامته أن تقدم مرضاته ﷺ على مَرْضَاة نفسك؛ لأن حُبّ الرَّسُول تابع لِحُبِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، حُبّ المُؤمِنين تابع لِحُبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حُبّ الدِّين تابع لِحُبِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، وهكذا، كل ما يُحِبُّه الله تحبه،فَمَحَبَّةُ الرَّسُول أعظم أنواع المَحَبَّة بعد حُبّ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (والناس أجمعين) العطفُ في اللُّغَة يأتي على أربعةِ أنواع، إمَّا عطفُ عَامٍّ على عَامّ، أو عطفُ خَاصٍّ على خَاصّ، أو عطف خَاصٍّ على عَامّ، أو عطف عَامٍّ على خَاصّ، فكلها تأتي في أساليبِ العَرَبِ، وإذا عُطفَ الشيءُ على نفسِه دلَّ على أن هناك معنى زائداً، كما قال الشاعر في قوله: كذِبا ومِينا، الكذبُ والمينُ كلاهما سواءٌ، أي: المينُ هو الكذبُ، لكن اللفظ يختلف، فلابد أن يكون المجيء بالكلمتين المترادفتين لمعنى زائدٍ؛ لأنَّه هل العَرَبِيَّة فيها ترادفٌ؟ عُلَمَاء اللُّغَة على قسمين: منهم من قال بالترادُف، ومنهم من أنكره، والذين قالوا به ذكروا السببَ، أن القبائل أطلقت الكلماتِ على معانٍ، فكل قبيلةٌ لها كلمات، فعندما جمع الله القبائلَ بالإسلام اجتمعت الكلماتُ العَرَبِيَّة، فأصبحت الكلماتُ مختلفةُ لمعان متفقةٍ، فمثلاً الحُبُّ والغرامُ

(١) سبق تخريجه.

والعشقُ، كل هذه ألفاظ تدل علىٰ الحُبُّ نفسِه، والذين أنكروا الترادفَ قالوا: يدلُّ علىٰ الأصل لكن لَابُدَّ أن يكون فيه معنىٰ زائدٌ، مثلاً: السيفُ والمهنَّد، والبتَّار، كل هذه أسماء للسيف، لكن الاسمُ يدلُّ علىٰ ذات السيف وعلىٰ معنىٰ زائد، هذا هو الأصل في الحَقِيقَة، وكالقُعود والجلوس، القُعودُ يطلقُ علىٰ من كان نائماً ثم جلَس، والجلوسُ يدل علىٰ من كان واقفاً ثم جلَس، الصورة واحدةٌ، لكن الكلمة تدلُّ علىٰ ما قبل الصورة، فإذا قلت: قعدَ فلان، أي: أنَّه كان نائماً، إذا قلت جلس فلان، أي: أنَّه كان واقفاً، ولهذا تسمىٰ الجلسةُ في الصَّلَاة جلسةُ الاستراحةِ؛ لأنه كان واقفاً، ثم جلسَ، بخلافِ الذي كان نائماً، لكن بعضُ العُلَمَاء قالوا: كُلُّها مُتساوية، القُعود والجُلوس سواء وليس بينهما فرق، فعطفُ العام علىٰ الخاص كثيرٌ؛ لأنه هنا قال: (أحب إليه من ولده ووالده والنَّاس أجمعين) ولدِه ووالدِه من النَّاس، ثم عطفَ جميعَ النَّاس علىٰ الخاصِ، ذَكرَ الولدَ والوالِد، وكلاهما من النَّاس، ثم جاء بالنَّاس بعد ذلك، فعطفَ العامَّ علىٰ الخاصِّ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الحَدِيث من الفوائد: إذا كان هذا شأن مَحَبَّةُ الرَّسُول ﷺ فما الظن بمحبة الله.

وفيه أن الأعمال من الإِيمَان؛ لأن المَحَبَّة عمل وقد نفي الإِيمَان عمن لم يكن الرَّسُول ﷺ أحب إليه مما ذكر فدل علىٰ ذلك.

وفيه أن نفي الإِيمَان لا يدل علىٰ الخروج من الإِسْلَام.



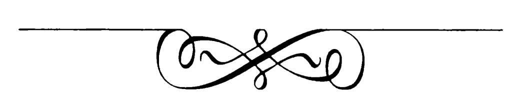
الشَّرْح

قوله: (**إذا كان هذا شأن....**) إذا كان الإِنْسَان لا يكون مُؤمناً إلا إذا كان حُبّ النَّبِي ﷺ بهذه الصورةِ فما بالك بحبِّ الله، فينبغي أن يكون حُبُّ الله أشدَّ وأعظمَ؛ حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ لأنَّ الله أرسلَه واصطفاه، لا لذاته، إنَّمَا لصفةٍ فيه وهي الرِسالة، فلو لم يكن رَسُولاً ما كانت محبتُه من الدِّين، لكنَّ رَبَّ العَالَمِينَ نحبُّه لذاته عَزَّ وَجَلَّ، ثم نحبُّه لإحسانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلينا، فإن الله قد أحسنَ لخلقِه وأنعمَ عليهم، ويسر لهم ما يحفظ حياتهم، وتعهدهم بالرُسُل في كل جيل من الأجيال البشرية، وأنزل الكتب، كل ذلك من أسباب المَحَبَّة. لكن العُلَمَاء قالوا: الله يُحِبُّ لذاته عَزَّ وَجَلَّ، والإنسان يُحَبُّ لصفاتِه لا لذاتِه.

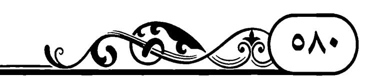
قوله: (**لأن المَحَبَّة عمل**) المَحَبَّة عمل من أعمال القَلْبِ، والأعمالُ تختلف، القَلْبُ له عملٌ، الحُبُّ عملٌ، الخضوعُ والتذَلُّل عَملٌ، الخشيةُ عملٌ، التَّوكُّل عملٌ، هذه كُلُّها أعمالُ قلبٍ زائدةٌ عن الإِيمَان، الإِيمَانُ هو الإقرار، فالذين يعتقدون أن الإِيمَان فقط التصديق، أخرجوا هذه من تعريف الإِيمَان، في الحَقِيقَة أن هذا مخالفٌ للحقيقة الدِّينية الشَّرْعِيَّة، هذه كلُّها أعمالٌ، وكلُّ

الآياتِ والنُّصوص الشَّرْعِيَّة تدلُّ علىٰ أنَّ عملَ القَلْبِ زائدٌ عن إقرارِه، فإن القَلْبَ يقرُّ للخالِق ﷻ، ثم يعملُ، فهذه أمور زائدةٌ علىٰ أصل الإِيمَان الذي هو الإقرارُ لله سبحانه وتعالى.

قوله: (**وفيه أن نفي الإِيمَان لا يدل علىٰ الخروج من الإسْلَام**) النفي في الشرع يأتي لنفي الشيء الوَاجِب، لكن الإنْسَان إذا نقص من الوَاجِب لا يخرج من الدِّين، إنَّمَا ينقص إِيمَانه، فعندما نفىٰ أن يكون مؤمنًا حتىٰ يُحِبُّ الله ورسوله، أو كما قال: (**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإِيمَان**)[1] أو نحو ذلك، فهذه لا تدل علىٰ فقد الإِيمَان بالكلية، إنَّمَا علىٰ نقصه، النقص الذي يحاسب عليه ويعاقب عليه، فالنفي إذا جاء في القُرْآن والسنة فإنه ينفي الكمال الوَاجِب، وليس الكمال المستحب، وإلا فلو نفىٰ الكمال المستحب لما ثبتت حقيقة دينية لأحد من النَّاس؛ لأنه ما من عمل يعمله إنسَان إلا وهناك عمل أحسن منه، لكن النفي إنَّمَا يكون للأمر الوَاجِب كما سبق.



(١) سبق تخريجه.



قال المؤلف رحمه الله:

وفيه وجوب محبته ﷺ علىٰ ما ذكر، ذكرهما المصنف.

قال: ولهما عنه قال: قال رَسُول الله ﷺ: (ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإِيمَان، مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلا لله، وأن يكرَهَ أن يعُودَ في الكُفْر بعدَ إذْ أنقَذَهُ اللهُ منه كما يكرَهُ أن يقذِفَ في النَّار) وفي رواية: (لا يجدُ أحدٌ حلاوةَ الإِيمَان حتىٰ إلىٰ آخره) .

قوله: (ثلاث) أي ثلاث خصال، وجاز الابتداء بثلاث؛ لأن المضاف إليه منوي، ولذلك جاء التنوين.

قوله: (من كن فيه) أي وجدن وحصلن، فهي تامة.



الشَّرح

محبةُ النَّبي ﷺ ركنٌ من أركانِ الدِّين، والذي لا يُحِبُّ الرَّسُولَ ليس مُسْلِمـًا، لكن قد يُحِبُّه مَحَبَّةً ناقصةً، فيأثَمُ في نقصها، لا يخرجُ من الدِّين، كذلك مَحَبَّةُ الله، قد يُحِبُّ الله مَحَبَّةً ناقصةً فيأثَم في نقصها لا يخرجُ من الدِّين؛ لأنَّه نقصٌ في الحَقِيقَة الدِّينية التي أمر الله بها ولا يؤدي للخروج من الدِّين، إنَّما يؤدي إلىٰ نقصِ الوَاجِب الذي يأثمُ صاحبُه في نقصِه.

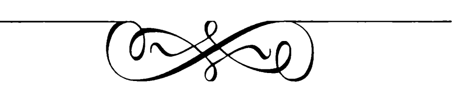
قوله ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإِيمَان...)[1] هذا الحَدِيث في الصَّحِيحُين، وهو يذكرُ أنَّ الإِيمَانَ له طعمٌ في القَلْب، الحلاوةُ لفظٌ يدلُّ علىٰ حَسَن الشيء، حَسَن المأكولِ أو المشروبِ، لكن ما يتعلَّق بعملِ القَلْبِ كذلك

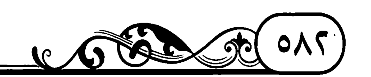
(١) سبق تخريجه.

له حلاوةٌ، يتذَوقه القَلْبُ، لكن الذي لا يعرفُه لا يعرف معنىٰ الحلاوةِ، فهنا يذكرُ أنَّه من كنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمَان، وحلاوةُ الإيمَان يدركُها القَلْبُ وليس اللسانُ بخلاف الطعامِ والشرابِ.

قوله: (**ثلاث**) المُؤَلِّفُ كثيراً ما ينقل من فتح الباري في شروحه الأحَادِيثِ إذا كانت في البُخَارِي، أي: كل هذا الكلامِ تقريبـاً منقولٌ من فتح الباري مع التلخيصِ والاختصارِ، وقوله: (**ثلاث**) هذا مبحثٌ لُغَوي، أهلُ اللَّغَة يقولون: لا يجوزُ الابتداءُ بالنكرةِ، إلا إذا كانت لها شروط، فيبتدأ بها إذا كان هناك تقديرٌ كما في ثلاثٌ؛ لأنَّ كلمةَ ثلاثٌ يدلُّ علىٰ أن هناك كلمةً محذوفةً نابَ عنها التنوين، فأصلها ثلاثُ خصالٍ، فلما حُذِفت الخصالُ نُوِّنَت النكرةُ فجاز الابتداءُ بها، (من كن فيه إلىٰ آخره) هذه الجملة كلها في مَكَان خبرِ ثَلاثٌ.

قوله: (من كن فيه) كان ويكون وكن إمَّا أن تأتيَ ناقصةٌ أو تامةٌ، هنا ليست ناقصةً، بل تامةٌ فلا تحتاجُ إلىٰ مبتدأٍ وخبر، بل تحتاج إلىٰ فاعل، مثلُ الأفعالِ العاديةِ، فمعنىٰ (من كن فيه) هو: مَن وُجِدَت فيه؛ لأنَّ كانَ إذا كانت بمعنىٰ: وُجِدَت فإنَّها تكون تامَّةً.



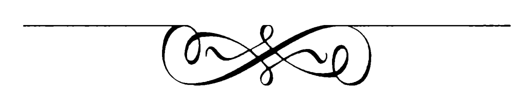


قال المؤلف رحمه الله:

قوله: (وجد بهن حلاوة الإيمَان) قال ابن أبي جمرة: إنَّمَا عبر بالحلاوة؛ لأن الله شبه الإيمَان بالشجرة في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٤]. قلت: والشجرة لها ثمرة، والثمرة لها حلاوة، فكذلك شجرة الإيمَان لَابُدَّ لها من ثمرة، ولا بد لتلك الثمرة من حلاوة، لكن قد يجدها المُؤمِن وقد لا يجدها، وإنما يجدها بما ذكر في الحَدِيث.

الشَّرح

هذا ابن أبي جمرة أحدُ شُرَّاح البُخَارِي، وكثيراً ما ينقلُ عنه ابنُ حجَر رحمه الله، فهنا يقول: أنَّ الحلاوة للإيمانِ لكون كلمةِ الإيمَان قد وردَت في القُرْآن مُشبهةً بالشجرةِ الطيبة، والشجرةُ الطيبةُ لها ثمرةٌ، والثمرةُ لها طعمٌ حُلو، وهكذا الإِيمَانُ، فإنَّه شجرةٌ وثمرتُه أعمالٌ صَالِحةٌ، يجدُ طعمَها كلُّ مُؤمنٍ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) أحب منصوب؛ لأنه خبر يكون، قال البيضاوي: المراد بالحب هنا الحُبُّ العَقْلي الذي هو إيثار ما يقتضي العَقْل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النَّفْس، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه بطبعه، ويميل إليه بمقتضى عقله، فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أن الشَّارِع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعًا له، ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً، إذ الالتذاذ العَقْلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك.



الشَّرح

البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ متوفى عَامّ ستمائة وستة، وهو على مذهبُ الماتريدِية، والماتريدية وكذلك الأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ والمعتزلةُ، كل هذه الطوائفِ لا تُثبتُ مَحَبَّةَ الله لخلقِه، ويُئَوِّلُون المَحَبَّةَ بالإرادِة، ويزعمون أنَّ إثباتَ مَحَبَّةِ الله لخلقِه يُؤدي إلى التشبيه، وهذا كلامٌ بَاطِل، القُرآن مملوءٌ بذكرِ مَحَبَّةِ الله لخلقِه، مَحَبَّةُ الله للمتقين، مَحَبَّةُ الله للمحسنين، فهذا ردٌّ لما وَردَ في الكِتَاب والسُّنَّة، ولكن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد رجعَ في آخر حياتِه إلى مَذهبِ السَّلَفِ، لكن بقي مذهبُه له أتباعٌ ينصرونَه، فجميع طوائفُ المُتكلِّمين أنكَروا أنَّ الله يُحِبُّ، وقالوا: هذه كلها ليست معاملةٌ قلبيةٌ بل معامَلة بالعقل، عندما ترى أن اللهَ يستحقُّ أن تُحبَّه ويحبُّك بعقلِك لا بقلبِك، وهذا كلام بَاطِلٌ، أساسه من الجهمية الذين أنكروا صفات الله الفعلية، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذا مما ورثَه هؤلاءِ من الجَهمية، وسيردُّ عليهم.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وكلامه على قواعد الجهمية ونحوهم، من نفي مَحَبَّةُ المُؤمِنين لـربهم لهم، والحق خلاف ذلك، بل المراد في الحَدِيث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حُبّاً قلبياً، كما في بعض الأحَادِيثُ: (أحبوا الله بكل قلوبكم)، فيميل بكليته إلى الله وحده حتى يكون وحده محبوبه ومعبوده، وإنما يُحِبُّ من سواه تبعًا لمحبته، كما يُحِبُّ الأنْبِيَاء والمرسلين والملائكة والصالحين، لما كان يُحِبُّهم ربه سبحانه، وذلك موجب لمحبة ما يُحِبُّه سبحانه، وكراهة ما يكره وإيثار مرضاته على ما سواه، والسعي فيما يرضيه ما استطاع وترك ما يكره، فهذه عَلَامَات المَحَبَّة الصادقة ولوازمها، وأما مجرد إيثار ما يقضي العَقْل رجحانه وإن كان على خلاف هوى النَّفْس، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه إلى آخر كلامه فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحُبُّ ولازمًا له لا أنه هو الحُبُّ.

الشَّرح

هناك ثلاثةُ مواقفُ في مَحَبَّةِ الله، موقفٌ للمُتكلِّمين: أنكروا أن الله يُحِبُّ، أو أنَّ اللَه يُحِبُّ، يقابله موقفُ الصوُّفِيَّةُ الذين تَبسَّطوا مع الله في الحُبِّ حتى أصبحوا يُطلِقُون مَحَبَّةَ العشقِ والغرامِ على الخَالِق عَجَلَّ، هذان الطرفانِ مُتناقضان، أمَّا أهلُ السُّنَّة فإنهم يُحِبُّون الله حُبّاً شرعياً، حُبّا مشوباً بالتعظِيم والتقديس، ليس حُبَّ الإنْسَان للإنسان، فأهل السُّنَّة والجماعة يُثبتون صفاتِ الله عَجَلَّ على ما يليقُ بجلاله، نقول: لماذا أنكرتم مَحَبَّةَ الله لخلقِه؟ قالوا: لأنَّ الإنْسَان إنَّمَا يُحِبُّ لميلِ نفسِه وتلذُّذِه بالمحبوبِ، ولما يصلُه إليه من نِعمٍ من هذا المحبوبِ، وهذا لا يكونُ إلا في حُبّ مخلوقٍ مع مخلوقٍ، فنقول: وكذلك الإرادةُ؛ لأنَّكم أعدتم جميع الصفاتِ إلى الإرادة، والإرادةُ ميلُ القَلْبِ للفعلِ،

وهذه من صفاتِ المخلوقِ، فإذا أثبتم صفةً قد وُصفَ بها المخلوقُ، ونَفَيتُم بها صفةً قد وصفنا بها المخلوقَ، ولمْ تُفرِّقوا بينهما بفرقٍ معقولٍ، فهذا تناقضٌ، المخلوقُ يُحِبُّ، والمخلوقُ يُريدُ، وقلتم نثبت لله إرادةً تليقُ بكمالِه ، فكذلك نثبتُ لله مَحَبَّةً تَليقُ بكمالِه، فلا فرقَ بينهما،

وابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب: (التدمرية) أوجد قواعدَ، ووضعَ أصلين، ووضعَ مِثالينِ، فناقشَ فيهما الطوائفَ التي أنكرت صفاتِ الله، أو أنكرت أسماءَ الله، ناقشهم من مذهبِهم، فهذا الموقفُ مُخطئٌ ليس سليمـًا، فالله عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الصَّالِحينَ، يُحِبُّ المتقين، يُحِبُّ المُؤمِنين، يُحِبُّ المتوكلين، وكذلك العبدُ المُؤمِن الصَّالِح يُحِبُّ الله عَزَّ وَجَلَّ ويعظمُه، في القُرْآن : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

فهنا قدَّم محبتَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم علىٰ محبتهم له؛ لأنَّ محبتَهم من توفيقِ الله، فلما أحبَهم الله وفقَهم لأن يُحِبُّوه عَزَّ وَجَلَّ، يقول ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ليس العبرةُ بأنهم يُحِبُّون الله، فكيفَ لا يُحِبُّون الله وهو الذي خلقَهم وأوجدَهم، ورزقَهم عَزَّ وَجَلَّ، لكن العبرةُ بأنَّ الله يُحِبُّهم، وقال: هذا أعظمُ تكريمٍ؛ لأن الله ذكرَ فيمن يتولىٰ عن دينِه بأنَّه سيأتي بقوم يُحِبُّهم، ويحبونَه، أذلةٍ علىٰ المُؤمِنين أعزةٍ علىٰ الكافرين، فأول صفاتُهم الحُبُّ؛ لأن كلَّ عملٍ ينطلق منه، فالذي لا يعرفُ حُبَّ الله لا يعرفُ اللهَ ولا يعرفُ العملَ الصَّالِحٍ، فأساسُ التعاملِ مع الله الذي خلقَك وأوجدَك أن تحبَّه؛ لأنَّ القَلْب فيه حُبّ وفيه بُغض، هذا عملٌ قلبيٌ، ما من قلب إلا يُحِبُّ، لكن حُبّ إنسَان لا يدورُ إلا حولَ طعامِه وشرابِه وشهواتِه، وإنسَانٌ قلبه معلقٌ بالعرش يُحِبُّ خالقَه ومولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشتانَ بين الحُبَّين كما قال بعض الصَّالِحينَ: حُبٌ لا يتعدَّىٰ الحَشَّ، وحب يرقىٰ إلىٰ العرش، أي: حُبٌّ غيرُ حُبٍّ، فالناس يُحِبُّون، لكن يختلف الحُبُّ من إنسَان إلىٰ إنسَانٍ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

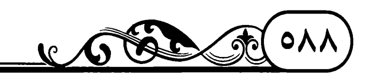
وقال شيخ الإسْلَام: أخبر النَّبِي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإِيمَان؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المَحَبَّة له، فمن أحب شيئًا واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهىٰ، قال: فحلاوة الإِيمَان المتضمنة للذة والفرح يتبع كمال مَحَبَّةُ العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المَحَبَّة، وتفريعها، ودفع ضدها، فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن مَحَبَّةُ الله ورسوله لا يكتفىٰ فيها بأصل الحُبُّ بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه لا يكفي في ذلك الحُبِّ، **بل لَابُدَّ من أمورٍ ثلاثةٍ:** تكميلُ هذه المَحَبَّة وتفريعُها ودفعُ ضدِّها، **تكميلُها** أي: الإنْسَان لا يكتفي بأن يكونَ في قلبه أصلُ الحُبُّ لله عَزَّوَجَلَّ، بل لَابُدَّ من السعي إلىٰ تكميلِ المَحَبَّة بالنظرِ في نعمِ الله عليه ورعايةِ الله له، وتوفيق الله له، منها استقامتِه، لله وفقه إلىٰ الاستقامةِ ووجهَ قلبَه إليها، وهو الذي جاء به إلىٰ مَكَان العبادةِ، كم من إنسَان يعيش في الشهوات؟ كم من إنسَان لا يعرفُ مجالسَ الذِّكر؟ فبداية هذه النِّعْمَةِ من الله، فاعرف أنَّ الله رعاك، وأن الله وفقَّك وجاء بك إلىٰ هذا المكان، وإلا فهناك أَشخَاصٌ مثلُك، قد يكون أخاك، أو أباك، أو ابنك، وقد يكون جارك، في مَكَان ليس طيبًا، فكيف لا تحبُّ الله، الذي يُوفقُك ويُنعمُ عليك بالاستقامةِ والهدايةِ، ويرعَىٰ قلبَك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتكملها، لا تجعلَها تنقص.

والثاني: تفريعُها، تفريعُها أي: إيجادُ ثمرتِها؛ لأن الحُبُّ عملُ القَلْبِ، لكن لَابُدَّ له من عملٍ ظاهريٍ، وهو :عملُ الجوارحِ، إذا أَذَّنَ تُحركُ الجسمَ؛ لأنَّ الحُبَ في القَلْبِ يقيمُك من فراشِك، لتذهبَ إلىٰ بيت الله، فلابدَّ من تفريعها، أي: إيجادُ ثمرتِها.

الثالث: دفعُ ضدِّها، كلما جاءَ الشَّيطَانُ يُوسّوِسُ لك بأن ينقص عليك هذا الحُبَّ، أو بأن يُدخل عليك ضدَّ هذا الحُبَّ فلتدفعْه، لا تستسلم، أنت في دارِ الابْتِلَاءِ، والشيطانُ يغزُوك من كل مَكَانٍ، ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ [الأعراف:١٧]، أَقسَمَ أنه سيحيطُ بك من كل مَكَان، أرأيتَ صاحبَ البيتِ إذا كان عنده جواهرٌ وعنده مالٌ غالٍ يُحصِّنَه، لا يتركُ في بعض جوانبه ثغرةً يَدخلُ منها اللص، كذلك صاحب الإِيمَان يُحصنُ قلبَه بذكرِ الله، وكثرةِ الذِّكر، والخشوعِ لله، والدُّعاءِ، والتَّضرعِ، والعلمِ الشرعي، مخالطةِّ الصَّالِحينَ، كل ذلك من حمايةِ القَلْب، الابتعادِ عن مواطنِ الشبهِ، حمايةِ البصرِ، وحمايةِ السمعِ، مما قد يُدنِّس هذا الحُبَّ، فهذا هو دفع ضدها، فالمؤمن مطالبٌ بتكميلِ الحُبِّ، وتفريعِه، ودفعِ ضدِّه.



قال المؤلف رحمه الله:

قلت: ولا يكون كذلك إلا إذا وافق ربه فيما يُحِبُّه وما يكرهه، قال: وتفريعها أن يُحِبَّ المرء لا يُحِبُّه إلا لله.



الشرح

يقول رحمه الله: أن حُبّ العبدِ لربِّه لا يكونُ حقيقا إلا إذا وافقَ رَّبه فيما يُحِبُّ؛ لأن النَّفْس البشريةَ فيها خطان مُتقابلان، حُبّ وكرهٌ، خوفٌ ورجاءٌ، شجاعةٌ وجبنٌ، حكمةٌ وتهورٌ، ذكرَ ابنُ القَيِّم رحمه الله في آخر كتاب: (الروح) هذه الصفات المتضادة، قال: هناك صفات متضادةٌ للنفس البشرية، فينبغي أن تُسخَّر هذه الصفات لله، تكون شجاعًا في الإقدام على الطَّاعَة، والامتناع عن المَعْصِيَة، تجبنُ عن المَعْصِيَة، فالجُبن والخوف لَابُدَّ أنَّ يُسخَّر لله، لَابُدَّ للإنْسَان أن يكون له موقفٌ يرجع، بعض النَّاسِ يصفُ الجبنَ بالحكمةِ، ويصف الحكمةَ بالجبنِ، لكن هذا لعدم نظرتهِ السليمة، وبعض النَّاس يُسمِّي التهورَ شجاعةً، وبعض النَّاس يسمي الشجاعةَ تَهوراً فبينهما قربٌ لكن يختلفان في الحَقِيقَة، الشجاعةُ غيرُ التهور، الشجاعة تكون أُسُسُها صَحِيحةً، وأهدافُها سليمةٌ، ووسائلها كاملةٌ، أمَّا التهور فإن الإنْسَان يكون مقصدُه خطأً أو غيرُ سليم، وتكون استعداداته ضَعِيفَةٌ، فهذا هو التهورُ، يختلفُ بين المقاصدِ والوسائلِ، فكذلك الحكمةُ والُجبنِ، الإنْسَان قد يكون حكيمًا في بعض المواطنِ فيوصفُ بالجبنِ، وقد يكون جبانًا فيوصفُ بالحكمةِ، فهذه الخطوطُ، الخطان لَابُدَّ أن نسُخرَهما لله، نكون شجعانًا في مواطن الخير، وجبناء في مواطن الشرِّ، ليس بمعنى أن نَنهزمَ، بل أن نمنعَ أنفسَنا، فإن عدم التقدمِ قد يوصفُ بالجُبن، لكنه جُبنٌ عن معصية الله، لو كان هناك فجورٌ، ثم

دفعك شخص إليه فامتنعت، فقال: أنت جبان، فقل: نعم، عن معصيةِ الله جبانٌ، لهذا يحكىٰ عن بعضهم أنه إذا استقام الإنْسَان فيهم، قالوا: والله فلان كان طيباً لكن الدِّين خرَّبه؛ لأنه كان يقدمُ علىٰ كلِّ المَعَاصِي، فعندما يدعُونه إلىٰ بعض الأشياء التي فيها تهور، وفيها إقدامٌ علىٰ المَعْصِيَة يمتنعُ، قالوا: والله هذا جبانٌ، الدِّين خرَّبه، فأصبح يراقب الله كما قال علي ﷺ يقول: "والله لولا الإسْلَامُ لكنت أدهىٰ العَرَبُ؛ لأنَّي أعرف مواطنَ الدَّهاء، والذي يمنعني الإيمَانُ" أعرف كيف اصطادُ النَّاس، كيف أوقعُ النَّاسَ، لست جاهلاً، لكن الذي يمنعني مراقبة الله، فالمنافقون إذا رأوا الصَّالِحينَ عندهم ترددٌ أو امتناع، قالوا: هؤلاء مساكين أي: دراويش؛ لأنهم لا يُقدمون إلىٰ الفَحشاءِ كإقدامِهم، ولا يُقدِمون إلىٰ المُنْكَر كإقدامِهم، فيصفونهم بأنهم جُبناء، نعم جُبناء عن معصية الله، وهذا كما قال الشَّافِعِي رحمه الله عندما قالوا: أن مَحَبَّةَ الرَّسُولِ رفضٌ، فقال:

إن كان رفضاً حُبّ آل مُحَمَّد ... فليشهد الثقلان بأني رافضي

ومحبة الرَّسُول ليس هو الرفض، ومحبة آل بيته ليست رفضاً، هذا الحُبُّ من الدِّين، لكن الرافض هو الذي يرفض الدِّين، يمتنع عن اتباع الصَّحَابَةُ، وتعظيمهم وإعطائهم مَكَانتهم، الرفضُ عقائد بَاطِلة، منها اعتقاد نقصِ القُرْآن، اعتقاد وقوع عائشة رضي الله عنها في العمل السيئِ، اعتقادُ تكفير الصَّحَابَةُ، كل هذه عقائد بَاطِلةٌ، من اعتقدها فهو كافر، ففَرقٌ بين الرفض وبين حُبّ آل بيت النَّبي ﷺ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: فإن من أحب مخلوقًا لله لا لغرض آخر كان هذا من تمام حُبّه لله، فإن مَحَبَّةُ محبوب المحبوب من تمام مَحَبَّةُ المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله وأولياءه لأجل قيامهم بمحبوبات الله لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره، قال: ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمَان كما يكره أن يقذف في النَّار.

الشَّرح

هذا شرح لهذه الأشياء الثلاثة لابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالمؤمن يُحِبُّ الله عَزَّوَجَلَّ، ويحب من يُحِبُّه الله، ويحب ما يُحِبُّه الله، فالله يُحِبُّ الفضيلةَ ويكره الرذيلةَ، فأنت تحبَّ الفضيلةَ وتكره الرذيلةَ، الله يُحِبُّ الصَّلَاة، فأنت تحب الصَّلَاة، الله يكره الكذبَ، فأنت تكره الكذبَ، فَحُبُّك وكرهك تابعان لمحبةِ الله وكرهِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم دفعُ ضدِّها أي: الإنْسَان يكره ما يُنغصُ عليه أو ينقصُ هذا الحُبَّ كما جاء في الحَدِيث السابق (وأن يكره أن يعود إلىٰ الكُفْر كما يكره أن يقذف في النَّار)[1] أي: الإنْسَانُ يستعظم أن يعودَ إلىٰ الكُفر، ويكبرث عليه أن يعود إلىٰ المَعْصِيَة، كما يعظمُ عليه أن يُقذفَ في النَّار؛ لأن الكُفْر هو نارٌ، فالعودة إلىٰ الكُفْر تمهيدٌ لدخولِ جهنَّمَ، فلا بد للإنسان أن يكون عنده تصورٌ سليمٌ، وحساسيةٌ من المُنْكَر، وحساسيةٌ من الكُفْر، وحساسيةٌ من الشِّركِ، وحساسيةٌ من المَعْصِيَة، لو زلَّت به القدمُ يندمُ ويشعرُ بعظمِ المَعْصِيَة، لكن لا ييأس من رحمة الله، فإن ربنا رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه.

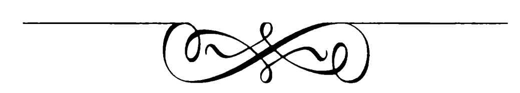
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وإنما كره الضد لما دخل قلبه من مَحَبَّةُ الله، فانكشف له بنور المَحَبَّة محاسن الإسْلَام، ورذائل الجهل والكُفْران، وهذا هو الحُبُّ الذي يكون مع من أحب كما في الصَّحِيحُين عن أنس قال: (قال رجل: يا رَسُول الله متىٰ السَّاعَة؟ قال: و ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة، ولا صيام ولا صدقة، ولكنىٰ أحب الله ورسوله، فقال رَسُول الله ﷺ: أنت مع من أحببت) وفي رواية للبخاري (فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: نعم) قال أنس: ففرحنا يومئذ فرحًا شديداً.

وقوله: (مما سواهما) فيه جمع ضمير الرب سبحانه وضمير الرَّسُول ﷺ.



يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أنه قد جمع ضمير الله مع ضمير الرَّسُول ﷺ، فقال في الحَدِيث (أحب إليه مما سواهما) سوىٰ الله والرسول ﷺ، مع أنه سيأتي في الحَدِيث أن خطيبًا وقف بين يدي رَسُول الله ﷺ، فخطب ثم قال: من يطع الله ورسوله فقد رَشَدَ، ومن يعصهما فقد غَوىٰ، فقال: (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله)[1] هنا في الحَدِيث أنه قال: (مما سواهما) فمرة جمع الضميرين، ومرَّةً خَطَّأَ الخطيبَ، فما الفرقُ بين الأمرين؟ سيذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلَاة والخطبة، برقم: (٨٧٠)، (٢/ ٥٩٤).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد أنكره على الخطيب لما قال: ومن يعصهما فقد غوى. وأحسن ما قيل فيه قولان، أحدهما: ما قاله البيضاوي وغيره أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية، وأمر بالإفراد في حَدِيث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم، قلت: وهذا جواب بليغ جداً.

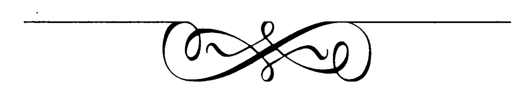
الشَّرح

نلحظ أن الشَّارِحُ أوردَ كلام البيضاوي ـ رحمهما الله ـ في الكلام السابق، وقال: هذا كلام الجهمية؛ لم يرتض كلامَه، وهنا ارتضى كلامَه في التوفيقِ بين الحَدِيثين ونقل عنه، فكيف يوردُ كلامَ رجل متأثرٍ بالجهمية ثم يستدلُّ بكلامه في مَكَانٍ آخر؟ نحن لازلنا نُذَكِّرُ بمنهج أهل السُّنَّة والجماعة، أنَّ العالم الذي يكون له كلامٌ صَحِيحٌ وكلامٌ خاطئٌ فإننا نستشهدُ بما صح من كلامه، ونردُّ ما أخطأ فيه من كلامِه، لا نردُّ الصَّحِيحَ والخطأَ، هذا مَنْهَج بَاطِل، ونحن من بداية الكتاب نلحظُ هذا المنهجَ، يستشهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكلام لرجالٍ من المُعْتَزِلَة، ورجالٍ من الماتريدية، ورجالٍ من الأشاعرة؛ لأنَّهم قد أصابوا في كلامِهم، ويردُّ عليهم في بعض المواقفِ، ولو كنا نردُّ كلام كلِّ من أخطأ في معتقدٍ أو في قولٍ في شرحِ آيةٍ أو حَدِيث لا يكاد يصفو لنا إلا أفرادٌ من المُسلِمِين؛ لأن الإنْسَان بشر، لكن هؤلاء معذورون، نلتمسُ لهم العذرَ ونبينُ خطأَهم، ونستشهدُ بما صحَّ من كلامهم، أو بما وافقَ الأصولَ من كلامهم، هذا المنهجُ الذي ينبغي أن يكونَ مَنْهَجَ الإنْسَان المنصف، هؤلاء كلهم عُلَمَاء السُّنَّة، ودُعاتُها، وأنصارُها من

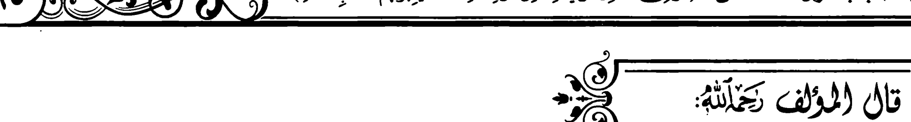
بداية المسيرةِ الإسْلَامية، هـذا البُخَـارِي رَحِمَهُ اللَّهُ في صَحِيحه يستشـهد ويـروي عـن رجال وصفوا بأنهم قَدرية، وبعضـهم وُصـفَ بـأنهم خـوارجُ، وبعضـهم وصـفوا بأنهم مُرجئة، ويذكر الأحَادِيث التـي نقلوهـا عـن رَسُـول الله ﷺ، وقـد أحصـىٰ بعـض العُلَمَـاء المعاصـرين إمـام الـدِّين القاسـمي رَحِمَهُ اللَّهُ في رسـالة جميلـة جـداً، بعنوان: (الجرحِ والتعديل)، أكثر من مائة شخص في الصَّحِيحِين فقال: هـؤلاء الأعلامُ وإن حَذرونا من المبتدعة، لكن لا يعني ألا نقبل ما صحَّ مـن رواياتهم، قـال: هـذا لـيس مـنهجُهم، نحـن نـردُّ علـيهم في مَكَـان، ونستشـهدُ بكلامهـم الصَّـحِيحِ في مَكَـان، لهـذا قـال ابـن تَيْمِيَـةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في بعـض كتبـه: لـيس كـل مـن استشهدنا بقوله نرضىٰ كلَّ قولِـه، فقـد نستشـهد في مَكَـان ونـردُّ في مَكَـان، وهـذا هو عينُ الإنصاف.

هنا المشكلة مع حَدِيثِ الخطيبِ، حَدِيث جمع الضميرين، مع حَدِيث المنعِ من جمعهما ففيه إشكالٌ، لكن ـ والله أعلم ـ يبدو أن الحَدِيث الذي فيه النَّهي عن جمعهما يتعلَّق بالطاعةِ، لا بقضية الحُبِّ وحده، فكأن النَّبِيَّ – عليه الصَّلَاة والسلام – يريد أن يُبينَ للخطيب أن طاعةَ الله وطاعةَ الرَّسُول، كلُّ طاعةٍ منهما مستقلةٌ، فأنت تطيع الله عَزَّ وَجَلَّ، وتطيع الرَّسُول ﷺ، ولا تنظرُ في أمر الرَّسُول هل أمرَ الله به أم لا، بل تطيعُه طاعةً مستقلةً ﷺ، فربما الجمع بينهما في ذكر الطَّاعَة يوحي بأننا لا نطيع الرَّسُولَ إلا إذا جاء الأمرُ من الله في نفس القضيةِ، فأمرَه بأن يُفرِّقَ بينهما ﷺ، أمَّا الحُبُّ فلو جمعت حُبَّ الله ورسوله ليس فيه ما قد يُوجَدُ فيه من محذورٍ في الطَّاعَة، فالطاعة لَابُدَّ أن نستشعرَ أن طاعة الرَّسُولِ مُستقلةٌ، كما قال - تَعَالَى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٥٩] ثم قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]، فما جاء بطاعة جديدة

لأولي الأمر، نطيعهم في طاعة الله ورسوله، ليس لهم طاعة مستقلة، ولو أمرك ولي الأمر بمعصية لا تطيعه،فتعرض ما أمرك به ولي الأمر على ما جاء في الكِتَاب والسُّنَّة، فإن وافقهما تقبله، وإن عارضهما ترده، وقد جاء في الحَدِيث: (**لا طاعة لمخلوق في معصية الخَالِق**)(١) لكن الرَّسُول ﷺ لا تعرض كلامه على القُرْآن ، بل طاعته مستقلة، فربما ـ والله أعلم ـ أن نهي الخطيب عن الجمعِ بينهما حتى لا يُتَوَهَّمُ بأننا لا نطيعُ الرَّسُول إلا إذا كان الأمرُ قد وردَ في كتاب الله سبحانه وتعالى .



(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٤٣٨١)، (١٨/ ١٧٠)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب السير، باب في أمام السرية يأمرهم بالمعصية من قال لا طاعة له، برقم: (٣٤٤٠٦)، (١٨/ ٢٤٧)، والبزار في مسنده، برقم: (١٩٨٨)، (١/ ٣١٤).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: حمل حَدِيث الخطيب علىٰ الأدب والأولىٰ، وهذا علىٰ الجواز.

وجواب ثالث: وهو أن هذا ورد علىٰ الأصل، وحديث الخطيب ناقل، فيكون أرجح.

قوله: (كما يكره أن يقذف في النَّار) أي يستوي عنده الأمران الإلقاء في النَّار والعود في الكُفْر.

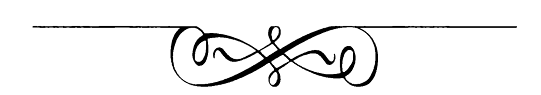


الشَّرح

قوله: (**وهذا علىٰ الجواز**) هذه صور الجمع بين الأَحَادِيثِ المتعارضةِ، فالجمع الثاني أن يكون الأصلُ هو الجوازُ، لكن من باب الأدبِ والاحترامِ ينبغي ألا نجمعَ بينهما، لكن كذلك هذا مردودٌ؛ لأنه قد جاء في الحَدِيث الجمع بينهما.

قوله: (**وجواب ثالث**) أخذ القول الثالث للترجيح، فقال: الراجحُ عدمُ الجوازِ؛ لأنَّ الجمعَ قد وردَ في الأصل، أي: جوازُ الجمعِ بين الضميرين أصلٌ، ، فما دام أنه حكم زائد عملنا به، أي: بمعنىٰ أن الحكمَ زائد.

قوله: (**كما يكره أن يقذف في النَّار**) يقول أن الإنْسَان إذا بلغ الحُبُّ في قلبِه دَرَجة عاليةٌ يكره أن يعودَ إلىٰ الكُفْر ككراهته للوقوع في النَّار؛ لأنَّه قد تمكن حُبّ الله من قلبه.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: وفي الحَدِيث من الفوائد أن الله تَعَالَىٰ يُحِبُّه المُؤمِنون، وهو تَعَالَىٰ يُحِبُّهم، كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

وفيه رد ما يظنه بعض النَّاس من أنه من ولد علىٰ الإسْلَام أفضل ممن كان كافراً فأسلم، فمن اتصف بهذه الأمور فهو أفضل ممن لم يتصف بها مطلقـاً، ولهذا كان السابقون الأولون أفضل ممن ولد علىٰ الإسْلَام.



الشَّرح

وقد سبق أن مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ إثباتُ مَحَبَّةِ الله للصَّالحين، ومحبةِ الصَّالِحينَ لله عَجَّلَ. أشرفُ عمل في أشرفِ عُضوٍ في الإنْسَانِ: الحُبُّ في القَلْب، القَلْبُ أشرف الأعضاء في الإنْسَان، ويتناسبُ معه أشرفُ الأعمال حُبّ الله عَجَّلَ، فإذا كان القَلْب فيه حُبّ الله تحرك الإنْسَان إلىٰ مرضاته، وإذا كان القَلْب ليس فيه إلا شيء آخر فإن الإنْسَان لا يتحرك إلا لما يُحِبُّ، فالقلبُ ملكُ الأعضاء، والحُبُّ سيدُ الأعمال، فإذا جعلت هذا السيدَ في قلبك تكونُ حركَتك بإذن الله حركةً موفقةً، أعظمُ الأعمالِ حُبّ الله وحبُّ من يُحِبُّه الله، وحبُّ العملِ الذي يُحِبُّه الله، ثم يقابله كرُه أعداءِ الله ، وكرهُ ما يكرههُ الله، وإلا فيستحيل أن يُحِبَّ اللهَ، ثم يُحِبُّ أعداءَ الله، لكن هل نحبُّ المُسْلِمَ العاصي، نعم؛ لأن الحُبَّ من أجل الإسْلَام، فإذا وُجدَ في إنسَان أحببناه لإسلامِه، لكن لو وقعَ منه خطأٌ أو أنحرافٌ أو معصيةٌ نكرهُ ما يأتيه، لكن لا ينبغي لنا أن نكره المُسْلِمَ مطلقـاً مهما عمل من عمل؛ لأنه ما دام عنده إسلام فقد عقد الله بيننا وبينه أخوةٌ، لا تنقطع إلا بالكفرِ.

بعض النَّاس يطبقُ الولاءَ والبراءَ مع المُسلِمِين، وهذا من أخطرِ الأعمال وأشدِّها وأعظمِها، اليوم مما يُفرِّق المُسلِمِين أن المُسْلِم يُطبِّقُ مع أخيه المُسْلِمِ ما ينبغي أن لا يطبقَ إلا مع الكافرِ، لم ينزِل في القُرْآن ولاءٌ وبراءٌ مع المُسلِمِين مهما عمِلوا، ففي سورة الحُجرات يذكر الله ﷻ اقتتال الفئتين ثم يجعلهما إخوانـًا قال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، فالمُسْلِم لو وقع منه معصيةٌ هو أخوك، لكن تكره ما أتىٰ من معصية وتنصحه، وتودُّ أن الله يهديه، ولكن بعض النَّاس نسي ما معه من الإِسْلَام إذا عصىٰ الله، ورجَّح جانب الخطيئةِ، وهذا خطأٌ يتعامل به المُسْلِم مع أخيه المُسْلِم، المُسْلِمُ أخو المُسْلِم، ويستحيل أن يُوجَدُ مجتمعٌ ليس فيه معصيةٌ، يستحيلُ علىٰ مدار التاريخ البشري، أشرفُ المُجْتَمَعات وأفضلُها علىٰ الإطلاق مجتمعُ النَّبي ﷺ، الله يرعىٰ هذا المُجْتَمَع، والرسولُ يُربِّيه، ومع ذلك وقعَت فيه المَعَاصِي، وكان فيه من ارتكب الفواحشَ ومن شرب الخَمْر ومن سرَق؛ لأنهم بشر والخطيئةُ تلازمُ البشر، فالذي يبحثُ عن مجتمعٍ ليس فيه خطيئةٌ، ولا يُحِبُّ إلا من لا يُخطِئ، فهذا يكون مُخطئـًا في تصوُّرِه، الإِسْلَام عقدٌ بين جميع المُسلِمِين، لا ينقطع إلا بانقطاع الإِسْلَام، فإذا لم يكن مُسْلِمـًا لا نحبُّه، لكن ما دام مُسْلِمـًا نحبُّه ولو كان فيه معصيةٌ، لكننا نكره معصيتَه، ونشفقُ عليه وننصحُه، هذا واجبنا، ونحرصُ علىٰ أن يترك المَعْصِيَة، ليس فقط للإعذار، الإعذار أن تنصحَ الإِنْسَان حتىٰ ولو كان أمام النَّاس، وتقول: حتىٰ أُعذرَ أمام الله، بل تحرص علىٰ أن الله يهديه؛ لأنه أخوك، فأُخوةُ الإِسْلَام تقتضي منك أن تحرصَ أن تترقبَ الأوقات المناسبة، والأساليب المناسبةَ، لَعَلَّ الله يهديه، ولا تكن سببـًا في استمراره في الغواية.

فالحبُّ أن تحبَّ الله الذي خلقك وأوجدك، وصورَك، وهيأ الكون كلَّه لك، وأنزل الكتبَ وبعث الرُسُل، ويرحمُك إذا رجعت إليه، ويغفرُ ذنبَك،

ويكرمُك في الآخِرَة بجناتِ النعيم، تحبُّه، ثم تحبَّ من يُحِبُّه الله، الله يُحِبُّ كلَّ تقي، وكلَّ صَالِح، وكل مؤمنٍ، ويحبُّ دينَه، وشرعَه، فتحبُّ كلَّ ما يُحِبُّه الله؛ لأن الحُبَّ يشمل كل شيء يتعلقُ بالمحبوب ﷻ، فهنا في قوله- **تَعَالَى** -: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] يقول ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ليست القضيةُ في أنهم يُحِبُّونه، كيف لا يُحِبُّونه وهو الذي خلقَهم، وأوجدَهم، لكنَّ القضيةَ بأنَّ الله يُحِبُّهم، قال: هذا تكريمٌ أعظم تكريم، أن رَبَّ العَالَمِينَ الغني يُحِبُّ العبدَ الفقيرَ، قال: هذا فيه حث للإنسان أن يتقرب إلىٰ الله لَعَلَّ اللهَ يُحِبُّه، فإذا أحبَّك الله أكرمَك، ورعاك، وحفظَ جوارحَك، وقربك وأغناك ﷻ، فَحُبُّ الله هو القاعدةُ الأساسيةُ في هذا الدِّين.

قوله: (**وفيه رد ما يظنه بعض النَّاس من أنه من ولد علىٰ الإسْلَام...**) هذه قاعدةٌ للمفاضلة في حَيَاة النَّاس، هل الأفضل هو الذي عاش طوال حياته علىٰ الإسْلَام أو الذي كان قبل الإسْلَام كافراً ثم أسلَم أو كان عاصياً ثم تاب؟، قال الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس هذا هو الميزان، الميزان حال الإنْسَان الآن، فإذا كان الآن يُحِبُّ الله ويعظمُ اللهَ فهو أحب ممن لا يُحِبُّ الله ولا يعظمُه؛ لأن الله قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] ربما يأتي بهم خارج الإسْلَامِ، والصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا كفاراً، لكن لما وقَر في قلوبِهم من الإِيمَان العظيمِ رفعهم في الدَّرَجَة عند الله ﷻ، العبرة بحال الإنْسَان الذي هو عليه، وليست العبرةُ بما كان قبلَ هذا الحال، فقد يكون قبل هذا الحالِ كافراً، وقد يكون عاصياً، وقد يكون فاسقاً، لكنه لما كان الآن من المُقرَّبين ممن عملَ الصَّالِحات، وأحبَّ الله وعظَّمه فإنَّه يرتفعُ عند الله ﷻ بعملِه الحالي ليس بما سبق.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه رد علىٰ الغُلَاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقـًا، والصواب أنه أن لم يتب كان نقصـًا، وإن تاب فلا؛ ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأُمَّة، وإن كانوا في أول الأمر كفاراً يعبدون الأصنام، بل المنتقل من الضلال إلىٰ الهدىٰ ومن السيئات إلىٰ الحسنات يضاعف له الثواب. قاله شيخ الإِسْلَام.



الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلىٰ بعض فئات المُسلِمين لهم تصور خَاصّ، فسماهم الغُلَاة، الغُلَاة هم الذين ينظرون إلىٰ النَّاس بمنظارٍ مثالي، أي: أن هذا الإنْسَان إذا أخطأ في يوم من الأيام أسقطوه من الميزان، فسماهم غُلاةً؛ لأنهم ينظرون إلىٰ النَّاس علىٰ أنهم لا يُخطِئون، فقال: هؤلاء غُلاةٌ، أي: غُلاةٌ في تصوراتهم، وإلا فإن الصَّحَابَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا كُفَّاراً، وقد وقع منهم ذنوبٌ وكُفر وشِركٌ، لكن بعد أن صَدقوا في الإِسْلَام، وصَدقوا في الإِيمَان كانوا بهذا الصدقِ، وبهذا الحال عند الله لهم مَكَانةٌ عظيمة لِما رسخَ في قلوبهم من تعظيمِ الله وحبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإنسان قد يُخطئ، فإن تاب وندمَ ورجع إلىٰ الله فإن الله يغفر له ذنبَه، بل لو صدق في توبته بدَّل الله سيئاتِه حَسَنات؛ لأنَّ المعاملةَ مع الله ليست كالمعاملةِ مع المخلوق، لو أخطأ عليك إنسَان ثم اعتذر إليك يبقىٰ في قلبك عليه شيءٌ؛ لأنَّك بشرٌ لا تستطيع أن تمحو ما في قلبِك، لكن رَبِّ العَالَمِينَ ليس كذلك، وكما يقول ابن تَيْمِيَةَ وابن القَيِّم ـ رحمهما الله ـ :" بعضُ النَّاسِ مُمَثِّلَةٌ، وهم يزعُمون أنهم مُنزِّهةٌ، أي: يُمثِّلون الله بخلقِه في الميزان " .الخَالِقُ غير المخلوق، لو أخطأت أو أذنبتَ ثم تبتَ وندمتَ وصدقتَ في التوبةِ محا الله

سيئاتِك، وما عاقبك عليها، بل إن صدقت جعل تلك السيئات التي هي ذنوب وخطايا حَسَناتٍ، فلا أكرمَ من الله ﷻ. لهذا يقول الله يومَ القِيَامَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦]. فلا ينبغي أن تتصورَ أن الله يُعامل خلقَه كما يعامل الخلقُ بعضَهم بعضـًا، الله رَبُّ العَالَمِينَ هو الذي خلق الإنْسَان ويعلم ضعفَه وعجزه، وأنه ليس معصومـًا من الخطأ، لكنه حثه علىٰ الاستقامةِ وعلىٰ الطهارة وعلىٰ التزكيةِ، فإن أخطأ ثم ندمِ ورجعَ قبل الله توبَتَه، هذا أبونا آدم ﵇ أخطأَ عندما نهاه اللهُ عن الشجرة فأكل منها، لكنه تاب توبةً عظيمةً رفعته عند الله ﷻ، فقبلَ اللهُ توبتَه، ومحا عنه ذنبَه، وإبليس أخطأ، لكنه ما تاب إلىٰ الله بل استكبرَ وعاندَ، فطرده الله ولعنَه الله، فالذي يُخطئُ ثم يتوبُ إلىٰ الله يقبلُه ﷻ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه دَلِيل علىٰ عداوة المشركين وبغضهم؛ لأن من أبغض شيئًا أبغض من اتصف به، فإذا كان يكره الكُفْر كما يكره أن يلقىٰ في النَّار، فكذلك يكره من اتصف به.

قوله: (وفي رواية: لا يجد أحد) هذه الرواية أخرجها البُخَارِي في صَحِيحه، ولفظه: (لا يجد أحد حلاوة الإِيمَان حتىٰ يُحِبَّ المرء لا يُحِبُّه إلا لله، وحتىٰ أن يقذف في النَّار أحب إليه من أن يرجع إلىٰ الكُفْر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما).

قال: وعن ابن عَبَّاسٍ قال: مَنْ أحبَّ في الله، وأَبْغَضَ في اللهِ، ووَالَىٰ في اللهِ، وعادَىٰ في اللهِ، فإنما تَنَالُ ولايةَ اللهِ بذلك، ولَنْ يَجِدَ عبدٌ طعمَ الإِيمَان وإنْ كَثُرَتْ صَلاتُه وصومُه حتىٰ يكونَ كذَلكَ، وقد صارتْ عَامّةُ مؤاخاةِ النَّاس علَىٰ أمرِ الدُّنْيَا، وذَلكَ لا يُجْدِي علىٰ أهلِه شَيْئًا. رواه ابن جرير.

هذا الأثر رواه ابن جرير بكماله كما قال المصنف، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولىٰ منه فقط.



الشَّرح

قوله: (وفيه دَلِيل علىٰ عداوة المشركين وبغضهم) هذا من فوائدِ الحَدِيث، إذا كنت تكره الكُفْر تكره الكُفَّار؛ لأنه لا يستقيمُ أن تكرهَ الكُفْرَ لنفسك، وتحبُّه في غيرِك، هذا من لوازم كُرهِ الكُفْرِ، كذلك من لوازم مَحبَّةِ الإِيمَان أن تُحبَّ من اتصف بالإيمان، هذه من لوازمِ الحُبُّ والكُره.

قوله: (وفي رواية: لا يجد أحد) الأحَادِيثُ تختلف أحيانًا مُتونُها، ويكون المَعْنَىٰ واحداً، فهذا لفظ آخر للحديث، والحديث السابق الذي كنا نشرحه

يقول: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمَان) وهنا يقول: (لا يجد أحد حلاوة الإيمَان)[١]، فالمَعْنَىٰ واحد، لكن الألفاظ تختلف، وهذا من فقهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، وكذلك رُواةِ الحَدِيثِ، فإنهم قد تختلفُ ألفاظهم، لكن المَعْنَىٰ لا يختلف، لهذا العُلَمَاء قالوا في جواز روايةِ الحَدِيث بالمَعْنَىٰ: إذا كان الرَّاوي عالماً باللغة وبما يحيلُ المَعْنَىٰ جاز له عند الضرورة، ولا يجوز له إن عرف اللفظ أن يروي بغيره، لكن إذا لم يضبط اللفظ وضبط المَعْنَىٰ وكان من العُلَمَاء الذين يعرفون معانيَ الألفاظ، وما يحيل المَعْنَىٰ من لفظٍ إلىٰ لفظٍ آخرَ جازَ له أن يرويَ بالمَعْنَىٰ، فهذان لفظان مُختلفان، لكن المَعْنَىٰ واحدٌ في كلا الحَدِيثين.

قوله: (قال وعن ابن عَبَّاسٍ قال: من أحب في الله...)[٢] هذا الأثر عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما موقوفٌ عليه، وفي سَنَدِه ضعفٌ، فإن في سَنَده راوياً يُسمىٰ ليث بن سليم، وهو ضَعِيفٌ وقد وُصف بأنه قد اختلط، فمن حيث السَّنَدِ الأثرُ ضَعِيفٌ، والعلماءُ قد يُوردون الآثارَ أو الأحَادِيثُ الضَّعِيفُة لا لتأسيس القضيةِ، إنَّمَا لصحةِ القضية مع أدلةٍ أُخرىٰ، فيأتون بالآثارِ التي تُقرِّر المَعْنَىٰ، وليس فيه حرجٌ علىٰ مذهبِ العُلَمَاء رحمَهم اللهُ.

قوله: (أحب في الله) أي: أحبُّ المُسلِمين؛ لأنه ما يمكن أن تحبَّ الكافرَ أو المشركَ لله، فالمرادُ أحبُّ المُسلِمين، أحبُّ الصَّالِحينَ، وهذا لازم للمُسْلِم، المُسْلِم لا يقع في قلبه كرهٌ لأخيه المُسْلِم؛ لأنه يشاركهُ في وصف الإيمَان، فيحبُّ كلَّ من اتصف بالإيمان.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الأدب، باب الحُبُّ في الله، برقم: (٦٠٤١).

(٢) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ) أي أحب المُسلِمِين والمؤمنين في الله.

قوله: (وَأَبْغَضَ فِي اللهِ) أي أبغض الكُفَّار والفاسقين في الله؛ لمخالفتهم لربهم وإن كانوا أقرب النَّاس إليه، كما قال - تَعَالَى -: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية.

الشَّرح

هذه الآية تَذكرُ قضيةَ البَراءِ من المُشركين، والعاصي لا يُسمَّىٰ مُحادًّا لله ورسولِه، المحادَّة مأخوذةٌ من الحدِّ، والحدُّ هو الفاصلُ بين شيئين أو بين شخصين، فالمُسْلِم ليس بينه وبين الرَّسُول ﷺ والمُسْلِمين حدٌّ، هو يعيش مع المُسلِمين، لكنه قصَّر في جوانبَ من الدِّين، فالمحادُّ الذي يجعل بينه وبين الرَّسُول أو بين الإسْلَام حداً أي حاجزاً، فيكون الإسْلَام خلفَ الحدِّ والحاجز، وهو في الجهةِ الثانية، فمن حادَّ اللهَ ورسولَه هو الكافرُ.

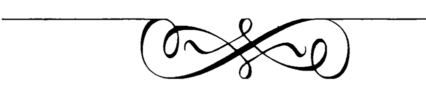
فهذا النوع لا نُواليه ولا نُحبُّه، بل نُعاديه ونكرهُه ونبغضه، ونبغض ما يعتقده من الكُفْرِ والشركِ، لكن المُسْلِمَ الفَاسِق نكره فسقَه ومعصيته، ولكننا نحبُّه لإسلامِه ودينه؛ لأنَّ الحُبَّ يتجزأ، يكون له جوانبُ، فنحبُّه من جانبٍ، ونكره ما أتىٰ به من جانبٍ، بحسب معصيته، لكننا لا نُعادِيه، الولاءُ والمعاداةُ مع الكُفَّار وحدَهم. نُوالي المُسلِمين مُطلقـًا، كلُّ مُسْلِم نواليه، له علينا حقُّ النَّصرةِ، والدفاع والحماية، والنصيحة، والإنقاذ وحمايته من الظُّلْم مهما كان، لكننا نكره ما يأتيه من المَعْصِيَة وننصحه فيها، ونحذره من عاقبتها، أمَّا الكُفَّار فلا شك أننا نكرهُهم مطلقاً بدون قيدٍ أو شرط.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (ووَالَىٰ في الله) هذا بيان للازم المَحَبَّة في الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلىٰ أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحُبُّ، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحُبُّ، وهي النَّصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطنًا وظاهرًا.

الشَّرح

هذا بيانُ عقدِ الولاءِ مع المُسلِمين، هو أن تكونَ دائمًا مع المُسلِمين، حُبّك وبغضُك وتوجُّهُك، وحياتُك، ومشورتُك، وتفكيرُك، ورأيك كلَّه مع إخوانك المُسلِمين. أمَّا الذي ينعزلُ، أو يُعظم الكُفَّارَ، ويُواليهم، ويزعم أنَّه من المُسلِمين ففي الحَقِيقَة إنَّ في إِيمَانه خللاً إن لم يكن معدومَ الإِيمَان.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وعَادَىٰ في اللهِ) هذا بيان للازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه، أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنًا وظاهراً، إشارة إلىٰ أنه لا يكفي مجرد بغض القَلْب بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه، كما قال - تَعَالَى -: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]. فهذا علامة الصدق في البغض في الله.

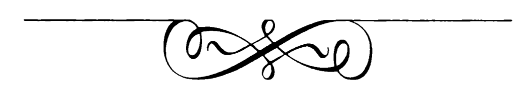
قوله: (فإنما تَنَالُ ولَايَةَ الله بذلك) يجوز فتح الواو وكسرها. أي لا يكون العبد من أولياء الله ولا تحصل له ولاية الله، إلا بما ذكر من الحُبِّ في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله.

الشَّرح

الكفارُ لا نبغضهم من بداية الأمر ونعاديهم، ونتبرأُ منهم، بل هناك مرحلةٌ تسبقُ، وهي الدَّعْوَةُ وبيانُ الإِيمَان والإسلامِ، وإلا فلو كان كلُّ من كان كافراً عاديناه كيف تُبلَّغُ الدَّعْوَةُ؟ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومُه ما قالوا هذا الكلام ابتداء- البَراءةُ - إنَّمَا قالوه بعد مراحلَ، بعد الدَّعْوَة والاستمرارِ، والإصرارِ من الكُفَّار علىٰ كُفْرِهم بعد أن عرفوا الحَقّ، فما نظن أن المعاداةَ من بداية الطريق، سواء كان مع الكافرِ أو كان مع المُبتدع أو مع العاصي، لَابُدَّ أن يسبقَ هذا العملَ الدَّعْوَةُ والبيانُ والنصيحةُ والشَّرْحُ لهذا الدِّين، فإذا أصرَّ علىٰ كُفْره، وعاند ولم يقبل الإسْلَام تبدأ عمليةُ المعاداةُ والولاءُ والبراء، أمَّا أن نبدأ مع النَّاس من البداية، كما يقال في الأمثال: أنَّ آخرَ العلاج الكيَّ، ما نأتي من البداية بالكيِّ، الإنْسَان إذا كان مريضًا ثم بحثَ عن العلاج، وطال بحثه ثم لم يجد علاجًا

ونُصح بالكي فهذا آخرُ مرحلةٍ، وإلا فالكيُّ مؤلمٌ والكيَّ مكروهٌ، والكيُّ يُنقصُ كمالَ التَّوكُّلِ المُستحب، وليس الكمالَ الوَاجِبَ، فلا نلجأُ إليه إلا آخرَ الأمر، كذلك العداوة مع الكُفَّار، نحن لا نعاديهم من البداية حتىٰ نبلِّغَهم الرسالةَ، ونعلِّمَهم الدِّين، فإن رفضوا وامتنعوا تبدأُ المرحلةُ الثانيةُ. بعضُ النَّاس يبدأ الطريقَ بالعداوة، هذا ليس منهجَ الأنْبِيَاء، الأنْبِيَاء أولَ ما جاءوا بالدِّعوة إلىٰ الله والبيانِ والشَّرْحِ، وتكرارِ النَّصيحة، كلَّ يوم كانوا ينصحون ثم عندما أصرَّ الكُفَّارُ علىٰ مواقفهم تبدأ عمليةُ المعاداةُ والبراءُ منهم.

والوِلاية والوَلايةُ من حيث اللُّغَة كلتاهما جائزة، تقول: وِلايةُ الله، ووَلايةُ الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كما روىٰ الإمام أحمد والطبراني عن النَّبِي ﷺ قال: (لا يجد العبد صريح الإِيمَان، حتىٰ يُحِبُّ لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية لله).

وفي حَدِيث آخر: (أوثق عرىٰ الإِيمَان الحُبُّ في الله والبغض في الله ﷻ) رواه الطبراني وغيره.



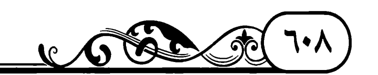
قوله ﷺ: **(لا يجد العبد صريح الإِيمَان، حتىٰ يُحِبُّ لله ..)**[١] هذا الحَدِيث ضَعِيفٌ؛ لأن فيه رشدين بن سعد وهو ضَعِيفٌ، فهذا وإن كان في المَعْنَىٰ في الحَقِيقَة صَحِيحاً فسَنَدُه ضَعِيفٌ، والمَعْنَىٰ أحياناً من حيث الجملة أو من حيث المَعْنَىٰ العام ثابتٌ بأدلة أخرىٰ، لكن هذه الأحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ، وإنَّما يستأنس بها ولا يُستشهَدُ بها.

قوله ﷺ: **(أوثق عرىٰ الإِيمَان الحُبُّ في الله..)**[٢] هذا الحَدِيث ورد من طُرقٍ عدةٍ: خمسةٌ من الصَّحَابَةِ ﵃، لكنها كلُّها طرقٌ ضَعِيفَةٌ، وبعض العُلَمَاء يُحسِّنُه بهذه الطرق، لكن الحَقِيقَة أن طُرقَه ضَعِيفَةٌ ضعفاً شديداً، فالحديث بهذا اللفظ لا يصح من طريق صَحِيح.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المُسنَد باختلاف يسير، برقم: (١٥٥٤٩)، (٢٤/ ٣١٧)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٦٥١)، (١/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (١٨٥٢٤)، (٣٠/ ٤٨٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الحديد، برقم: (٣٨٤٧)، (٢/ ٥٦٦)، والطبراني في المعاجم الثلاثة، المعجم الأوسط، برقم: (٤٤٧٩)، (٤/ ٣٧٦)، والبيهقي في شعب الإِيمَان، برقم: (٩٥١١)، (٧/ ٦٩)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الإِيمَان والرؤيا، باب (٦)، برقم: (٣١٠٥٩)، (١٥/ ٦٢١)، والطيالسي في مسنده، برقم: (٧٤٧)، (١/ ١٠١).



قال المؤلف رحمه الله:

وينبغي لمن أحب شخصًا في الله أن يأتيه في بيته فيخبره أنه يُحِبُّه في الله. كما روىٰ أحمد والضياء عن أبي ذر مرفوعًا: (إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره أنه يُحِبُّه لله) وفي حَدِيث ابن عمر عند البيهقي في الشعب: (فإنه يجد مثل الذي يجد له).

قوله: (ولن يجد عبد طعم الإِيمَان) إلىٰ آخره أي لا يجد عبد طعم الإِيمَان وإن كثرت صلاته وصومه، حتىٰ يُحِبَّ في الله ويبغض في الله، ويعادي في الله ويوالي في الله، وهذا منتزع من حَدِيث أنس السابق.



الشَّرح

قوله: (إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره ..)[(١)] هذا الحَدِيث حَسَنه بعضهم، وصحَّحه الشيخُ الألباني رحمه الله، لكن هذه اللفظة التي عند الشَّارِحُ: (فليأت في منزله) ليست في المراجع، وإنما الحَدِيث الذي في المرَاجع التي أشار إليها هي: (إذا أحب أحدكم صاحبه فليخبره أنه يُحِبُّه) أمَّا فليأته في منزله فليس في متن الحَدِيث.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (٢٣٩٢)، (٤/ ٥٩٩)، وأخرج معناه البُخَارِي في الأدب المفرد، برقم: (٥٤٣)، (١/ ١٩١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب الرجل يُحِبُّ الرجل علىٰ خير يراه، برقم: (٥١٢٣)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في إعلام الحُبُّ، برقم: (٢٣٩٢)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، باب إذا أحب الرجل أخاه هل يعلمه ذلك، برقم: (٩٩٦٣)، (٩/ ٨٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة، برقم: (٧٤٠١)، (٤/ ٢٨٦)، وابن حُبّان في صَحِيحه، كتاب البر والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، برقم: (٥٧٠)، (٢/ ٣٣٠).

قوله: (فإنه يجد مثل الذي يجد له)(١) كذلك هذه الزيادة عن ابن عمر التي عند البيهقي سَنَدها ضَعِيفٌ.

قوله: (ولن يجد عبد طعم الإيمَان) النَّاسُ تعودُوا أن تكونَ اللذاتُ والطعومُ في المأكولات والمشروبات، هل الإِيمَانُ له طعمٌ؟ نعم، يعرفهُ قليلٌ من النَّاس، الذي كان كافراً ثم أسلم يعرفُ طعمَ الإِيمَان، والذي كان فاسقاً ثم تابَ يعرفُ طعمَ الإِيمَان، والذي إِيمَانه حارٌّ ويقرأ القُرْآن ويشعر بلذةٍ يعرفُ طعمَ الإِيمَان، والذي يعبدُ اللهَ ويشعر بأُنسٍ بقربِه من الله يعرفُ طعمَ الإِيمَان، لكن الذي يعبدُ الله عبادةً بارزةً لا يعرفُ طعم الإِيمَان، كثير ممن تربىٰ بين المُسلِمين وهو من المُسلِمين لا يعرفُ طعمَ الإِيمَان، إِنَّمَا يسمع عنه، هذه درجاتٌ لا يبلغُها كلُّ إنسَان، بل يَبلغُها بالمجاهدةِ والحرص، إذا قرأ القُرْآنَ كأنه يسمعُ الله، والله يخاطبُه، إذا وقفَ بين يدي الله كأنه أمامَ الله يناجيه، وهذه دَرَجةُ الإحسان، أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، هنا تبدأ تشعرُ بطعم الإِيمَان؛ لأنَّه شعورك بأن الله معك وأن الله قريبُ منك، وأن اللَه يسمعُك، وأنه ليس بينك وبين الله حجابٌ، وكثرةُ اتصالك بالله يجعل في حياتك أُنساً بالخالِق ﷻ، كأنك تعيش مع الله بدون حواجزَ، لكن عندما تعبدُ الله بقلبٍ غافلٍ كأن تدخل في الصَّلَاة وقلبُك غافلٌ، تقرأ القُرْآن وقلبُك غافلٌ، ما تشعر بطعم الإِيمَان، ولهذا سيأتي من كلام ابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ اللهُ أنَّه من نعمةِ الله علىٰ العبد أنه لا يبتليه، ألا يعرضَه لفتنةٍ، لشبهةٍ أو شهوةٍ؛ لأن قلبَه ضَعِيفٌ، وإيمانَه ضَعِيفٌ، وعلاقتَه بالله ليست قوية.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمَان، برقم: (٩٠١٠)، (٦/ ٤٨٩).

فلذة الإِيمَان لـذةٌ لا يـدركها كـلُّ إنسَـان؛ لأننـا نـؤدي العبـادات بـبرودٍ، مـا نؤديها برغبة، وبإحساسٍ بِعِظَمِها عند الله، وأنَّ هذا العمـل عظـيمٌ، وأنَّـه أشـرفَ عمل في حياتنا، وأعظـمَ كنزٍ لنا في الـدُّنْيَا والآخِرة، إذا تعاملنـا مـع الـدِّين بهـذه الصـورةِ نشـعر بلـذة الإِيمَـان، لكـن إذا رأينـا أن هـذا العمـلَ ثانويـاً في حياتنـا، وندخلُ في الصَّـلَاة وقلوبنُـا مُعلقـةٌ بشـيءٍ آخرَ، ونقـرأُ القُرْآنَ وقلوبُنـا لا تفهـم معناه، إنَّمَا للبركةِ أو للأجرِ فقط، لا نشعرُ بطعمِ الإِيمَان، وإلا لـو شـعرنا بطعـم الإِيمَان فلو أعطونا الدُّنْيَا بكامِلها ما نترك الـدِّينَ، كمـا مـرَّ في الحَـدِيث: (**ثـلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإِيمَـان**) مـن كُـنَّ فيـه (**أن يكـون الله ورسـوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحِبُّ المرء لا يُحِبُّه إلا لله**)[1] . تَصـوَّر إنسَـانا لا تحبُّـه إلا لله، فهذا الرجلُ في قلبِك، إن ذهبت إلىٰ بيتك تذكرتَه، وإن جاءت أوقاتٌ زرتَه، وتحبُّ أن تقدم له خدمةً، تحبُّ أن ترضيَه، كلُّ هذا لإيمانِه، هـذا الإحسـاس في القَلْبِ، أحبُّ أن أرضيه وُأدخل الفرحَ في قلبه لأنني أحـبُّ اللهَ، ولأنَّ هـذا ممـن يُحِبُّه الله، فَحُبُّك معلَّقٌ بالله، فالذي قلبُـه مملـوءٌ بحـبِّ الله يشـعر بلـذة الإِيمَـان، لكن إذا كان الحُبُّ مِزاحـًا فالقلبُ فيـه مـا يزحمـه، حُـبّ الـدُّنْيَا وحـبُّ الأولاد، وحبُّ الوظيفة، وحبُّ المساكن، وحب... فما بقي لله إلا شيء بسيط في طـرفِ القَلْبِ، وإن كان هذا الذي في طرفِ القَلْب لا يخرجه من الإِيمَان، لكـن يحرمُـه لذةَ العبادةِ، وقد جاء في بعض الآثارِ أن شخصـًا قـال: (**يـا رب كـم أعصـيك ولا تعاقبني، قال: يا عبـدي قـد عاقبتـك، قـال: بمـاذا يـا رب؟ قـال: قـد حرمتـك لـذة العبـادة**)[2] أي: الآن الشَّـخص يأكـلُ ليتلـذذَ، ويشـربُ ليتلـذذَ، كـذلك العبـادةُ،

---

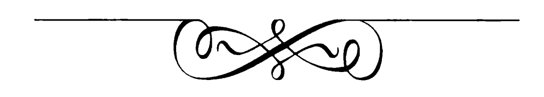
(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجـه بمعنـاه أبـو نعـيم في حليـة الأوليـاء (١٠/ ١٦٨)، وأورده المنـاوي في فـيض القـدير (٢/ ١٤١).

يعبدُ لأنَّ فيها لذةً، فإذا كنت تعبدُ و ليس فيها لذةٌ فهذا عقابٌ، لوجود ثغرات أخرىٰ في عبادتِك و حياتك.

فلذةُ العبادة لا نستطيع أن نحصل عليها إلا بالمجاهدةِ، تدخل في الصَّلَاة وتقرأ الفاتحةَ وأنت تستحضرُ معانيَ ما تقرأ، فأنت تخاطب الله مباشرةً ما تقول: إياه، بل إياك، كأنك تخاطبه أمامك، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فبعدَ أن تحمدَه وتُثني عليه كأنَّه قد رفع الحجابَ، فأصبحت تخاطبُه، كيف تخاطبُه مباشرةً وقلبُك سارحٌ، ما تشعر بلذةٍ، فالإيمانُ له لذة، وإذا فقدتها ابحث عنها، كما قال بعض العُلَمَاء أننا في حالةٍ لو يعلم عنها الملوكُ وأبناءُ الملوكِ لجالدُونا عليها بالسيوف، ما هذه الحال؟

الأنسُ بالله، يعيشُ مع الله، ولهذا الصوفِيَّة عندما يشتطُّ بعضُهم يصل إلىٰ مرحلة يسمونها الفناء، وهذه مرحلةٌ خاطئةٌ؛ لأنهم عندهم جهلٌ، يبلغ بهم الأمر إلىٰ أن الشَّخصَ لا يشعرُ بمن حولَه من النَّاس، ويسمونها الفناء، أي: نسي أنَّ حولَه بشرٌ، لكن هذا ليس هو المطلوبُ شرعًا؛ لأنَّ أفضل الأحوال هو حالُ النَّبِي ﷺ، فإنه وإن تعلَّق قلبُه بالخالِق، لكن لا ينسىٰ أن بجانبه أُناسًا، فهو يشعر لكن قلبُه معلقٌ بالخالق، ولهذا جاء في الحَدِيث: **(أرحنا بها يا بلال)**[1] في الصَّلَاة، أي: يتشوَّقُ إلىٰ الدخول إلىٰ الصَّلَاة، فالإيمان له لذةٌ لكن حصول هذه اللذةِ تحتاجُ إلىٰ مُجاهدة.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رحمه الله:

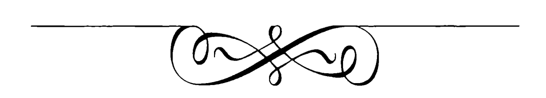
وفي حَدِيث أبي أمامة مرفوعـًا: (من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمَان) رواه أبو داود. والعجب ممن يدعي مَحَبَّةُ الله وهو علىٰ خلاف ذلك، وما أحسن ما قال ابن القيِّم:

أتحب أعداء الحُبِّيب وتدعي ... حبا له ما ذاك في إمكان



الشَّرح

هذا الحَدِيث حَسَن، له طريقان، إحداهما حَسَنة، والأخرىٰ ضَعِيفٌة، لكن حَدِيث أبي أمامة بهذا السَّنَد حَسَن، وهو يقرر المَعْنَىٰ السابق: (من أحب لله وأبغض لله، وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمَان)[1]؛ لأن الإنْسَان حركتهُ كلُّها مرتبطةٌ بالله ﷻ، حُبّه وبغضُه وعطاؤُه ومنعه، فإذا وصلَ المُسْلِم إلىٰ هذه المرحلة لا شكَّ أنَّه قد استكمل الإيمَان الوَاجِب، لكن هناك الإيمَانُ المستحبُّ؛ لأن الإنْسَان لديه مجال ودرجات للمسابقة، وما هناك إنسَان يستكملُ الإيمَان المستحبَّ؛ لأنه ما من عمل تعملُه إلا وغيرُه كذلك ينتظرُك، فالحديث ورد في كمال الإيمَان الوَاجِبِ الذي يأثَم من انتقص منه شيئـًا.



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (وقد صارت عَامّة مؤاخاة النَّاس علىٰ أمر الدُّنْيَا، وذلك لا يجدي علىٰ أهله شيئًا)، أي المؤاخاة علىٰ أمر الدُّنْيَا لا يجدي علىٰ أهله شيئًا، أي لا ينفعهم أصلاً بل يضرهم كما قال - تَعَالَى -: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف:٦٧].

فهذا حال كل خلة ومحبة كانت في الدُّنْيَا علىٰ غير طاعة الله، فإنها تعود عداوة وندامة يَومَ القِيَامَة، بخلاف المَحَبَّة والخلة علىٰ طاعة الله، فإنها من أعظم القربات، كما جاء في حَدِيث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قال: (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه).



الشَّرح

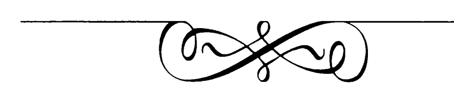
حديث السبعةِ حَدِيث صَحِيح مخرج في الصَّحِيحُين، والحديث: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)(١) أولهم (إمامٌ عادل) الإمام هو الإنْسَان الذي يحكم في النَّاس ولا يحكمُ من النَّاس، فهذا الرجل يستطيعُ أن يَظْلِم، فعندما لا يَظْلِم ويراقب الله مع وجود الدواعي له ظلُّ العرشِ؛ لأن الإنْسَان البشر له حاجاتٌ وله مصالحُ وله شهواتٌ، ما قال هنا: الإمامُ العابدُ، وما قال: الإمامُ الصائم، وما قال: الإمامُ المصليُ، فإن هذه فروض الإسْلَام مفروغٌ منها، لكن بماذا يتصف في حُكمِه وفي رعايته بالعدلِ؟ لهذا يقول ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) أخرجه البُخَارِي في مواضع من صَحِيحه، منها: كتاب الأذان، باب من جلس في المَسْجِد ينتظر الصَّلَاة وفضل المساجد، برقم: (٦٦٠)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم: (١٠٣١)، (٢/ ٧١٥).

أنَّ الإمامَ الكافرَ العادلَ أحسنُ من الإمام المُسْلِم الظالِم؛ لأنَّ الإمامَ الكافرَ كُفْرُه علىٰ نفسه، لكن عدله للنَّاس، فإن النَّاس يَنعمون في ظلِّ حُكمه كما كان في الحُبُّشة عندما أرسل النبيُّ الصَّحَابَةَ ﷺ إلىٰ الحُبُّشة في الهجرة، قال: إنَّ بها مَلِكًا لا يُظْلِم أحدٌ عنده، فبعثهم، ولم تستطع قُرَيْشٌ أن يستردُّوا أحداً من الصَّحَابَةِ المهاجرين، برغم أنهم ذهبوا بالهدايا وذهبوا بالرشاوىٰ، لكن ما استطاعوا أن يدفعوه إلىٰ الظُّلْم، فكان عادلاً علىٰ كُفْره، لكن الإمام المُسْلِم إذا كان ظالماً فإن إسلامُه لنفسه، لكن ظلمه علىٰ النَّاس، فالإمامُ بالعدلِ استحقَّ أن يُظلَّه الله يَومَ القِيَامَة، فأعلاهم إمامٌ عادلٌ، ويأتي بعده في الدَّرَجَةِ شابٌ نشأ في طاعة الله، هذا بعدَ الإمامِ العادل؛ لأنه حكَم نفسه عن معاصي الله، ذلك حكمَ المُجْتَمَع بالعدل، وهذا حَكَمَ نفسَه بالاستقامة، نشأ في طاعةِ الله، ثم رجُلان تحابَّا في الله، المُتحابان في الله يحشُرهم الله مع الأئمةِ العادِلين؛ لأن الحُبَّ كان مُنطلِقاً من الإِيمَان الذي جعلَه يُحِبُّه لا لمصلحةٍ، فحكم قلبِه ألا يُحِبَّ إلا لله.

فكل واحدٍ من هؤلاء السبعةِ له معنىٰ يخصُّه في أنَّ الله يظلُّه يَومَ القِيَامَة حينما تدنو الشَّمْس من رءوس الخلائق، الشَّمْس البعيدة الآن، بيننا وبينها آلاف وملايين الأميال، تدنو من رءوس النَّاس يَومَ القِيَامَة، فيعرقَ النَّاس، ويختلفَ النَّاس في العرق، منهم من يصلُ العَرقُ إلىٰ كعبيه، ومنهم من يصل إلىٰ ركبتيه، ومن يصل إلىٰ حِقويه، ومن يصل إلىٰ كتفيه، ومنهم من يُلجمُه العرقُ إلجاماً بحسب معاصيهم، ولكن ما هناك ما يسمىٰ بنظام الأوانِي المُستطرقة، الماء يكون واحداً، هناك نظامٌ آخر، الدُّنْيَا فيها نظامٌ، والآخرةُ فيها نظامٌ، والله يُظل الأفراد، قد يظل إنسَاناً في ظلِّه، والثاني بجانبه في حَرِّ الشَّمْس؛ لأن هناك نظاماً آخر، وحتىٰ نظامُ الدُّنْيَا يختلف من مَكَانٍ إلىٰ مَكَان، الطفلُ في بطن أُمِّه له نظام خَاصّ لا يُوجَدُ نظامٌ مثلُه في الأَرْض، فالإنسانُ في بطن أُمِّه

جنين نُفخت فيه الرُّوح، لا يختنقُ ولا يموت، لو أردنا أن نضع إنسَانًا في مثل وضعِ الجنين في مَكَان في الأَرْض يختنق، فالنظام يختلُف، والذي خلق النظام وجعله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في يومِ القيامةِ يظلُّ الله سبعةَ أصنافٍ من النَّاس، منهم المتحابَّان في الله، اجتماعُهما من أجل الله، افتراقُهما من أجل الله، وهذا من أعظم الأعمال، وبهذا ينبغي أن يسود الحُبُّ بين المُؤمِنين، إن عجز الإنْسَان عن الصَّلَاة والصيامِ من النوافل فهذا مجالٌ لا يعجزُ عنه، لكن قد يَفترُ الإنْسَانُ ويضعف لجهلِه بعظم هذا العمل الصَّالِح، فالحبُّ في الله من أعظمِ الأعمال.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الحَدِيث القدسي الذي رواه مالك وابن حُبّان في صَحِيحه: (وجبت محبتي للمتحابين في، وللمتجالسين في، وللمتزاورين في، وللمتباذلين في). وهذا الكلام قاله ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أهل زمانه، فكيف لو رأىٰ ما فيه النَّاس اليوم من المؤاخاة علىٰ الكُفْر والبدع والفسوق والعصيان، ولكن هذا مصداق قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (بدأ الإسْلَام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ) وفيه إشارة إلىٰ أن الأمر قد تغير في زمن ابن عَبَّاسٍ، بحيث صار الأمر إلىٰ هذا بالنسبة إلىٰ ما كان في زمن الخلفاء الراشدين، فضلا عن زمن رَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

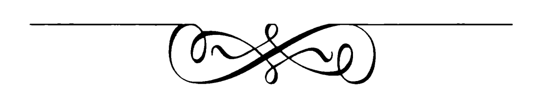
الشَّرح

يقول عَزَّ وَجَلَّ أنه وجبت محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمتحابين فيه، والمتجالسين فيه، والمتزاورين فيه، هذا الحَدِيث القدسي انتهىٰ إلىٰ نهاية السياق، ثم بدأ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلم عن الحَدِيث السابق.

قوله: (وهذا الكلام قاله ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أهل زمانه) أي: ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: صارت أكثرُ مُؤاخاةِ النَّاس اليوم من أجلِ الدُّنْيا، هذا في عصرِه، فيقولُ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف لو رأىٰ واقعَ النَّاسِ اليوم، ماالذي يجمعُ النَّاسَ؟ ما هي العلاقاتُ بين النَّاس؟ لماذا يجتمعُ كثيرٌ من النَّاس؟ أكثرُ اجتماعاتهم لمصالحِهم، لشهواتِهم، لا لأجل الدِّينِ، قليلٌ من النَّاس يكون الدِّينُ هو الذي يُحرِّكُه، علاقتُه بالآخر من أجلِ الدِّين، وافتراقُه عن الآخر من أجل الدِّين، فلو رأىٰ عصرَ النَّاس اليوم لقال كلاماً أشدَّ من هذا.

قلنا أن أثرَ ابن عبَّاسٍ في الحَقِيقَة ضَعِيفٌ، وبالتالي فإن هذه الصورة التي في الأثر في تغيرِ النَّاس في عهد الصَّحَابَةِ ﷺ إلىٰ هذا الحدِّ لا تُقبل بكاملها، لكن لا شك أن التغيرَ يحدُث، وأن الصَّحَابَة ﷺ حالُهم قبل موتِه ﷺ ليس كحالِهم بعد موته ﷺ، فعندما يكون المُربِّي الذي يأتيه الوحيُ من السَّماء بين أظهُرِهم ليس حالُهم كحالِهم بعد موته ﷺ.

قوله: (**ما فيه النَّاس**) هنا خطأ في الطباعة، الصَّحِيحُ فكيف لو رأىٰ ما فيه النَّاس اليوم كما قلنا.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد روىٰ ابن ماجه عن ابن عمر قال: (لقد رأيتنا علىٰ عهد رَسُول الله ﷺ، وما منا أحد يرىٰ أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المُسْلِم)، وأبلغ منه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. فهذا كان حالهم في ذلك الوقت الطيب، وهؤلاء هم المتحابون لجلال الله. كما في الحَدِيث القدسي يقول الله ﷻ: (أين المتحابون لجلالي اليوم أظلهم في ظلي).

الشَّرح

الصحابة رضي الله عنهم وهم تحت تربية رَسُول الله ﷺ لا شك أنهم كانت لهم أحوالٌ خَاصَّةٌ، منها هذا الحال، أنهم كانوا يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ، ويروىٰ أن أحداً قال لَعَلَّي رضي الله عنه: أين الذين يُؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ قال: ذهبوا مع الذين لا يسألون النَّاس إلحافاً. أي: كانوا يُؤثرون لكن كان الفقراءُ يتعففون، الآن حتىٰ الأغنياءُ لا يتعففون، تجد بعض النَّاس عنده ما يغنيه سنواتٌ لكنه لا يتعفَّف عن السؤال، فهؤلاء ما وقفوا عند الحد المطلوب، وهؤلاء كذلك ما بذلوا كما ينبغي، فالحالُ تَغيَّرَ من الطرفين، من الباذِلين، ومن المُحتَاجين، فالصحابةُ رضي الله عنهم كانوا يُؤثِرون، لكن كان فيهم عِفةٌ، وكان بعضُهم يكون محتاجاً لكنه يتجمَّل ويصبِر ولا يسأل، فكلا الحالين كان في عهد رَسُول الله ﷺ. قول الله تَعَالَىٰ: **(أين المتحابون لجلالي اليوم أظلهم في ظلي)**[1]. هذا الحَدِيث القدسي صَحِيح وهو في صَحِيح مُسْلِم

(١) أخرجه مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحُبُّ في الله، برقم: (٢٥٦٦)، (٤/ ١٩٨٨).

أنَّ الله يَومَ القِيَامَة يقول: (**أين المتحابون لجلالي اليوم أظلهم في ظلي**) وهذا مصداقُ الحَدِيث السابق في (**سبعة يظلهم الله في ظله، رجلان تحابا في الله**)[١] فكلا الحَدِيثين يؤديان معنىً واحداً.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذه هي المَحَبَّة النافعة. لا لمحبة الدُّنْيَا وهي التي أوجبت لهم المواساة والإيثار علىٰ النَّفْس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

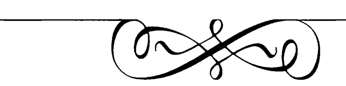
قال المصنف: وقال ابن عَبَّاسٍ: في قوله ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة:١٦٦]. قال: المودة.

هـذا الأثـر رواه عبـد بـن حميـد وابـن جريـر وابـن المنـذر وابـن أبـي حـاتم والحاكم وصححه.



الشَّـرح

أثر ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذا ضَعِيفٌ؛ لأن في سَنَده شخصـًا اسمه شناط، وهو متروك.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

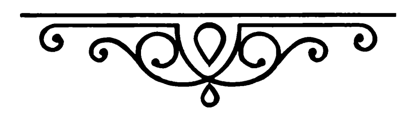
قوله: (قال المودة). أي المَحَبَّة التي كانت بينهم في الدُّنْيَا، تقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض كما قال - تَعَالَى - عن إبْرَاهِيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]. وهذه الآية وإن كانت نزلت في المشركين عباد الأوثان، الذين يُحِبُّون أندادهم وأوثانهم كحب الله فإنها عَامّة؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ ولهذا قال قتادة: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦]. قال: أسباب الندامة يَومَ القِيَامَة، والأسباب المواصلة التي يتواصلون بها ويتحابون بها، فصارت عداوة يَومَ القِيَامَة، يلعن بعضهم بعضاً. رواه عبد بن حميد وابن جرير. فهذا حال من كانت مودته لغير الله، فاحذر من ذلك.

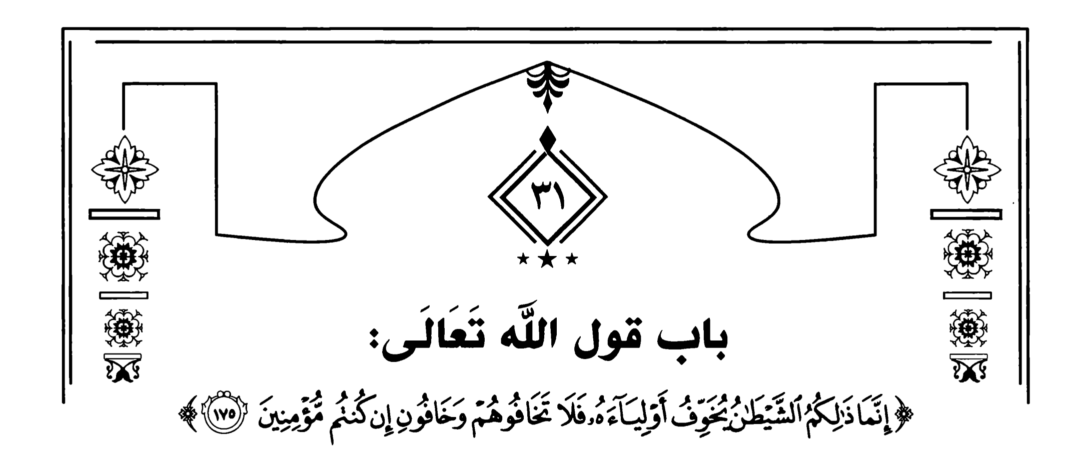
الشَّرح

العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقولون: أن الآيات التي تنزل لأسباب معينة ليست خَاصّة بتلك الأسباب، هذه قاعدة في أصولِ الفقه أن العبرةَ بعموم اللفظِ لا بخصوصِ السبب، فإن كثيراً من الآيات نزلت تُعالج حوادث قائمةً، لكن حكمُها ليس خَاصّاً بتلك الحادثةِ، وإنَّما الحادثةُ سببٌ في نزولها، وهناك كتب مؤلف تسمى أسباب النزول، فهذه الآية القُرْآنية السابقةُ وإن نزلت في عداوة الكُفَّارِ بعضهم لبعض إلأا أنَّها عَامّةٌ في كل من آخى إنسَاناً على غير الدِّين، فكل من آخى إنسَاناً على غير الدِّين يشملُه معنى الآية، فيوم القيامةِ يتبرأُ بعضُهم من بعض؛ لأنَّ المُواخَاة والمحبَّةَ ينبغي أن تكون على قواعدِ الشرع، فإذا أحب

إنسَـانـًا علىٰ غير قاعـدةٍ شـرعيةٍ، إنَّمَـا لمصـلحةٍ أو لهـوىً أو لشـهوةٍ فـإن هـذا الإنْسَان يَومَ القِيَامَة يشملُه حكمُ الآيـة، وهـذا معنىٰ قـول الشَّـارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فإنها عَامّة؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب**).

وقتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر أن الأسبابَ التي تتقطَّع بهم يَومَ القِيَامَة هي العلاقات التي كانت بينهم، فإنها يَومَ القِيَامَة تنتهي إلا علاقةُ الإِيمَان، علاقةُ الإسْلَام فإنها لا تنقطعُ، بـل يبقىٰ يَـومَ القِيَامَـة أثرُهـا، فـإن هنـاك الصَّـالِحينَ يشـفعون لبعضـهم بعضـًا، العُلَمَـاء يشـفعون، والصـالحون يشـفعون، فيستفيد المحبُّ ممن يُحِبُّ، ويستفيد الخليلُ ممن يخالِل، إذا كـان علىٰ دينِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكـن إذا كان الحُبُّ لغير الله فإنها تتقطَّع؛ لأنَّهم هم أنفسهم ليس لهم عند الله يَومَ القِيَامَة مَكَانةٌ أو تكريمٌ، فهذا مرادُه رَحِمَهُ اللَّهُ.





٣١

باب قول الله تعَالَى:

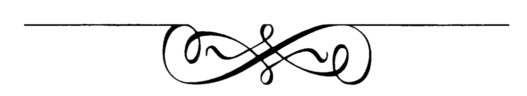
﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾



الشَّرح

هذا باب جديد، وهذه الآية من ترجمة صاحب المتن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه كثيراً ما يترجم للأبواب بالآيات، والإنسان يستنبط المَعْنَىٰ من الترجمة، ولهذا يقال عن صَحِيح البُخَارِي: أن أسرارَ الصَّحِيحِ في تراجمه، ولهذا اعتنىٰ العُلَمَاء بتراجم البُخَارِي، وذكروا ما فيه من مقاصدَ وأسرارٍ، فالترجمةُ والعنوانُ تدلُّ علىٰ مقدار عِلْم الكاتبِ والمُؤلفِ، فاختيار المُؤَلِّفِ لعنوان الباب يدلُّ علىٰ مدىٰ إدراكِه لما يكتُب.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتدأ هذا الباب بهذه الآية ليدلَّ علىٰ أمرين، الأمر الأول: أنَّ الخَوف لا ينبغي أن يكون إلا من الله عَزَّ وَجَلَّ. والأمر الثاني: أنَّ المُسْلِم لا ينبغي له أن يخافَ من أعداء الله، هذان الأمران اشتملت عليهما الآية، فإن هذا كتاب التوحيد يُبين أعمالَ التوحيدِ وما ينقُضه، فمن أعمال التوحيد الخَوف من الله، ومما يَنقضُ التوحيدَ الخَوفُ من غير الله، والآيةُ اشتملت علىٰ كلا الأمرين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الخوف من أفضل مقامات الدِّين وأجلها؛ فلذلك قال المصنف بوجوب إخلاصه لله تَعَالَىٰ.

وقد ذكره الله تَعَالَىٰ في كتابه عن سادات المقربين من المَلَائِكَة والأولياء والصالحين قال الله تَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]. وقال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٨] وقال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون:٥٧]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

وأمر بإخلاصه له فقال تَعَالَىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل:٥٢].

الشَّرح

هذه الآياتُ كلُّها تدلُّ علىٰ وجوبِ الخَوف من الله، فما يروىٰ عن رابعة العدوية - رحمها الله - من قولها: ما عبدتُك خوفـًا من نارك يتناقضُ مع هذا الكلام، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يصف المُؤمِنين بأنهم يخشونه ويخافونَه، ثم يأمرُ هو عَزَّوَجَلَّ بأن نخافَ من الله، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فمن كمالِ إِيمَانِ العبدِ أن يخافَ من الله، فالذي يزعُم أنَّه يعبدُ الله ولا يخافُ منه يكونُ قد أخطأَ الطريقَ وضلَّ الصوابَ، فإن الصوابَ أن نحبَّ الله ونخافُ منه ونرجُوه، كما

ذكر ﷻ عن الصَّالِحينَ والأتقياء، وكما كان حال نبينا عليه الصلاة والسلام، عندما قال: (والله أني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية)[1] فهو كان يخافُ من الله، وهو سيدُ الصَّالِحينَ ﷺ، فكل حالٍ يختلفُ عن حال النَّبي ﷺ فليس حالاً محموداً.

(١) أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الأدب، باب من لم يوجه النَّاس بالعتاب، برقم: (٦١٠١)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الفضائل، باب عِلْمه ﷺ بالله تَعَالَىٰ وشدة خشيته، برقم: (٢٣٥٦)، (٤/ ١٨٢٩).



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو على ثلاثة أقسام: أحدها خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخَوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله نداً يخافه هذا الخَوف فهو مُشْرِك، وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم.

ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن كما خوفوا إبْرَاهِيم الخليل عليه الصَّلَاة والسلام فقال لهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١].

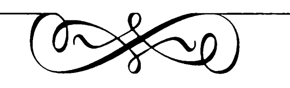


الشَّرح

يقولُ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا القَسَم الأول سماه بعنوان (خوف السر)، وهو ما يقعُ في قلبِ الإنْسَان من الخَوف من المخلوقِ، وهو أن يعتقدَ أن المخلوقَ يستطيعُ أن ينفعَه أو يضره استقلالاً، فهو يُمرضُه إذا شاء ويُعافيه إذا شاء، ويُفقره إذا شاء، ويُغنيه إذا شاء، وهذا الخَوف لا ينبغي أن يتعلَّق إلا بالله؛ لأن هذا ليس من أفعال المخلوق، فالمخلوقُ لا يستطيعُ أن يفعل ما يشاء، لا يفعلُ إلا ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ، فالذي يعتقد في المخلوقِ أنه ينفعُه ويضرُّه بمشيئته استقلالاً فقد أشرَك مع الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه ليس إلا لله، هو الذي يُعافي ويُمرض ويُعطي ويمنع بمشيئته عَزَّ وَجَلَّ، أمَّا المخلوقُ فلا يستطيعه، ويقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

سواء اعتقد ذلك كرامةً للولي أم اعتقد أن ذلك مما يستطيعه بغير كرامةٍ، فإنَّ المخلوقَ لا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بإذن من الله. الكونُ لا يُوجَدُ فيه إلا ما أرادَ الله، والذي يقرأُ القُرْآنَ يعرف أنَّ هذا الاعتقادَ الذي هو أن المخلوقَ يستطيع أن ينفعَ أو يضرَّ اعتقاد بَاطِل، فقراءة القُرْآن والتأملِ في كلام الله تبطلُ هذا الخَوف وهذا الاعتقادُ، هذا الخَوف الأول هو خوفُ لا يجوز أن يتعلق إلا بالله.

ويوجدُ في بعض البلدان الإسْلَامية كما كان في هذه البِلَاد قبل أن يأتي إليها التوحيدُ ممن يعتقد في الصَّالِحينَ والمقبُورين والأولياءِ أنَّهم ينفعون ويضرون استقلالاً، وهناك كتاب أَلَّفَه عالم من عُلَمَاء القرن الثاني عشر مهدي بن حَسَن النعمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرح هذا المَعْنَىٰ في حياته، وأنَّ بعضَ العُلَمَاء في الحرم قد أفتوا بجواز دعاءِ المخلوقِ ودعاءِ الصَّالِحينَ وتَقديس القُبُوْر وتعظيمها، وأخرجوا في ذلك فتوىٰ فردَّ عليهم رداً في غاية الجودةِ، سمَّاه (معارج الألباب في بيان الحَقّ والصواب) ، فهذا الاعتقاد يُوجَدُ في كل بلد تخفىٰ فيه أنوار التوحيد، ولهذا تراهم يقيمون المواسمَ عند هذه القُبُوْر، كل قبر له موسم يحضر عنده أتباعه، بأغنامهم وأبقارهم وأولادهم ونسائهم، ويُخَيمُون عند هذا القبر ويطلبون حاجاتِهم ويذبحون النذورَ، وهذا من أفعال الشِّرك التي لا تقع من إنسَان يعرف الله عَزَّ وَجَلَّ، فلهذا يخشونهم ويخافونهم كما يخافون الله عَزَّ وَجَلَّ بل أشدُّ، كما سيأتي من كلام الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذين يُعظِّمُون الأولياء يُقسِمون بالله علىٰ الكذبِ، ولا يُقسِمون بالوليِّ كذِبًا، فلو استحقَّ أحد يمينًا علىٰ إنسَان في حق فإنه مستعدٌ أن يحلفَ بالله كاذبًا، ولكنه إذا قال احلف بالصالح فلان أو بالوليِّ فلان لا يحلف به ، يقول: أنَّ الله كريمٌ يعفو، لكن هذا الصَّالِح لا يعفو، فإذا حلفت به فإنه سيعاقِبُني، هذا جهلٌ مُركَّبٌ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تَعَالَىٰ عن قوم هود أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٥]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر:٣٦].

وهذا القَسَم هو الواقع اليوم من عباد القُبُوْر، فإنهم يخافون الصَّالِحينَ بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد، ولهذا إذا توجهت علىٰ أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإِيمَان كاذبًا أو صادقًا، فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم علىٰ اليمين أن كان كاذبًا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أشد خوفًا عنده من الله، ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين، بل جهد إِيمَانهم اليمين بالله تَعَالَىٰ، وكذلك لو أصاب أحداً منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب، وإذا أراد أن يَظْلِم أحداً فاستعاذ بالله أو ببيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذىٰ، حتىٰ أن بعض النَّاس أخذ من التجار أموالاً عظيمة أيام موسم الحج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس، فقام عليه أهل الأموال، فالتجأ إلىٰ قبر في جدة يقال له المظلوم، فما تعرض له أحد بمكروه خوفًا من سر المظلوم، وأشباه هذا من الكُفْر، وهذا الخَوف لا يكون العبد مُسْلِمًا إلا بإخلاصه لله تَعَالَىٰ وإفراده بذلك دون من سواه.



الشَّرح

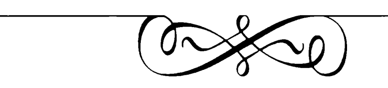
قوله: (لأن المدفون في التراب أشد خوفًا) هذا المحتالُ الذي أخذ أموال النَّاس وعرَف أنَّ فيهم تعلقًا بغير الله، ذهب إلىٰ القبر الذي يُسمُّونه "المظلومُ

" ، هذا القبرُ كان يَلجأُ إليه المظلومون، فإذا لجأ إليه احتموا من النَّاس، فهذا الشَّخصُ ذهب إلىٰ القبر والتجأ به أمام النَّاس، فالناس تركوه خوفاً من صاحب القبرِ، وهذا ـ نعوذ بالله ـ في غاية الجهلِ، وما جاءت الأديان إلا لتنقذَ الإنْسَانَ من هذا الجهل، الإنْسَان المُسْلِم لا ينحطُّ إلىٰ هذا الدَركِ. لا يخافُ إلا من الله، ولا يلجأُ إلا إلىٰ اللهِ، ولا يستعيذُ إلا بالله، فشتَّان بين إنسَانٍ قلبُه معلَّق بالخالِقِ وإنسانٍ قلبُه معلَّقٌ بالميت في التراب، والتوحيدُ تكريمٌ للإنسان بألا يعلِّق قلبَه إلا بالله، ألا يخافُ إلا من الله، عزةُ المُؤمِنِ قوةُ الإِيمَان، فالإيمانُ يغرسُ في المُؤمِنِ العزةَ، أمَّا تركُ الإِيمَانِ أو الشِّركُ بالله يجعلُ الإنْسَان ذليلاً للمخلوقِ حقيراً له ومُتعلِّقاً به، والتعلِّق بالمخلوقِ ضعفِ وإهانة، أمَّا التعلُّق بالخالقِ ﷻ فإنَّه عزٌ وكرامةٌ، وشتان بين إنسَان يتعلَّق بإنسان مدفونٍ في التراب ، وبين إنسَان يتعلَّق بالخالق، والمؤمنُ لا يتعلق إلا بالخالق، ما الذي جعل الصَّحَابَةَ ﷺ يفتحون الأَرْض، خرج من قلوبِهم خوفُ المخلوقِ، ولم يخافوا إلا من الله.

لكن لا يعني كونُ الإنْسَانِ لا يخاف إلا من الله أن يكون قليل الأدبِ مع النَّاس، بعض النَّاس يفهم أن القوة الإِيمَانية أن يكون سيئاً مع النَّاس، بل هذا إِيمَانٌ بالله، وخوفٌ من الله وعزةٌ أمام البشر مع أدب، وبعض النَّاس يظن أن قلة الأدب هي شجاعة، وهي إِيمَان وتوكل، وهذا خطأ، يختلف أن تكون إنسَاناً سيئاً مؤذياً للنَّاس أو تكون إنسَاناً خيراً محتملاً للنَّاس، ولكنك قوي بإيمانك لا تذل إلا لله، عزة في لين، ليس عزة في خشونة، كما قال - تَعَالَى -:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، مع المُؤمِنِ ذليلٌ تتواضع للمؤمن، ترق للمؤمن، ترحمُ المُؤمِن، تعفو عن المُؤمِن، ترجو وجهَ الله، فتقوم بهذا العمل من أجل الله ﷻ، ولهذا جاء في

الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤] "علىٰ" حرفُ استعلاء، كيف تكون ذليلاً ومُستعلياً؟ قال: نعم تذلُّ للمؤمن استعلاءً علىٰ شهواتك، استعلاءً علىٰ أهوائك، استعلاءً علىٰ شيطانك، استعلاءً علىٰ الأُبَّهةِ الكاذبة، لكن إذا استعليت علىٰ المُؤمِن فإنك بهذا قد أسأت إلىٰ دينِك، وأسأت إلىٰ المُؤمِن وقد عصيت الله في أخيك المُؤمِن، ففرق بين الخَوف من الله مع الأدب والاحترامِ والتقدير، وبين الخَوف من الله والإساءةِ إلىٰ الآخرين، بعض النَّاس يظنُّ أن من لوازم الخَوف من الله الإساءةُ إلىٰ النَّاس وإيذاؤهم بدعوىٰ أن هذا لا يخاف إلا من الله. وبعض الأَشْخَاصِ يقوم بأعمال فيها تهورٌ ونتائجُ سيئةٌ علىٰ دينِه ودعوته، ويظنُّ أن هذا شجاعةٌ وجرأة، لا. كل عملٍ يُؤذي الإِيمَان ويُؤذي المُسلِمين ليس شجاعةً بل هذا تهورٌ، وكل عملٍ يحفظُ حقوقَ المُؤمِنين ويبقي عزةَ الإسْلَام هو الشجاعةُ، فينبغي للإنسانِ أن يُفرِّق بين الخَوف من الله والإساءةِ إلىٰ النَّاس، وبين الخَوف من الله والإحسانِ إلىٰ النَّاس.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: أن يترك الإنْسَان ما يجب عليه من الجِهَاد والأمر بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر بغير عذر إلا لخوف من النَّاس، فهذا محرم، وهو الذي نزلت فيه الآية المترجم لها، وهو الذي جاء فيه الحَدِيث: (إن الله تَعَالَىٰ يقول للعبد يَومَ القِيَامَة: ما منعك إذ رأيت المُنْكَر أن لا تغيره؟ فيقول: يا رب خشيت النَّاس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشىٰ) رواه أحمد.

الشَّرح

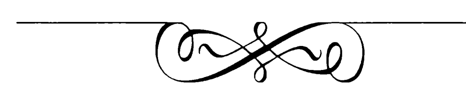
هذا اللفظ ليس في المُسنَد، لكن الذي في المُسنَد آخره: (**فإذا لقن الله العبد حجته قال: رب وثقت بك وخفت من النَّاس**)[1] أي: أني وثقت في رحمتك، أي أن ضعفي عن الأمر بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر هو وثوقي برحمتك، وخوفي من النَّاس، أو اعترفَ بالخوف وقال: وثقتُ برحمتك وخفتُ النَّاس، أي: أن وثوقي في رحمتِك أضعفني وجعلني لا أستطيع أن أُغير المُنْكَر؛ لأنني خفت من النَّاس، لكن الخَوف رافقه ثقة في رحمة الله ﷻ.

وهذا يعني أن هذا النوع من الخَوف ليس شركًا، وأما الخَوف الأولُ السابقُ فهو شركٌ، أي: الإنْسَان قد يترك أمراً من الأمور الوَاجِبة عليه خوفًا من

---

(١) برقم (١١٩١٣) هذا اللفظ الذي أورده الشيخ في المُسنَد وورد في المسند بلفظ اخر، والذي فيه: "يا رب وثقت بك، وفرقت من النَّاس"، المُسنَد، برقم: (١١٢٤٥)، (١٧/ ٣٤٥)، والحديث أخرجه كثيرون باختلاف في الألفاظ: منهم ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب قوله تَعَالَىٰ: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم)، برقم: (٤٠١٧)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب آداب القاضي، باب ما يستدل به علىٰ أن القضاء وسائر أعمال الولاة... من فروض الكفايات، برقم: (٢٠١٨٤)، (١٠/ ١٥٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده، برقم: (١٣٤٤)، (٢/ ٤٩٩)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٥١٩٩)، (٥/ ٢٤٠).

النَّـاس، وهـذا محـرمٌ ولـيس شـركـًا، لكـن الـذي يعتقـدُ أن المخلـوقَ يسـتطيع استقلالاً أن يُؤذيَـه ويلحـقَ الضـررَ بـه بـدون مشـيئةِ الله هـذا هـو الشِّـركُ؛ لأنَّـك ساويتَه مـع الله في المشـيئة والقـدرةِ والإرادةِ، الخَـوف **الثاني المحـرم**: وهـو أن تتركَ بعضَ الوَاجِبات من أجل ضعفٍ أو خوفٍ من النَّاس، وهذا لا يكـاد يسـلم منه أحدٌ، فإنه في كل عصر يُوجَدُ ما يمنع بعض المُؤمِنين، أو بعـضَ الُمصـلحين من أن يقول خوفـًا؛ لأنَّ أصـحابَ الظُّلْـم، أو الـذين يكـون بأيـديهم الأمـورُ قـد يُوجَدُ فيهم من لا يريد أن يظهر المَعْرُوف بكامِله ، إلا مـن رحـم الله، لا يُحِبُّـون كلَّ الدِّينَ، بل يُحِبُّون الـدِّين الـذي فيـه سـلامةٌ والـذي يرعـىٰ مصـالحَهم، لكـن الدِّين الذي يُزاحم مصلحَتهم لا يُحِبُّونه، لهذا تجدُ التجارَ يكرهـون كثيـراً مـن الأحكام المُتعلِّقـة بالأعمـال التجاريـة، كـذلك المُزارعين، كـذلك الُمـوظفين، كلُّ فئةٍ لا تحب مـن الـدِّينِ مـا يتعـارض مـع مصـالحها إلا مـن رحـم الله، وهـذا ليس عَامّـًا، لكن أكثر النَّاس لا يُحِبُّون أن يظهر ما يتعارضُ مع مصالحهم سـواء كانوا تجاراً أم كانوا أصـحابَ رئاسـة أم كـان مُزارعين أم كـانوا مـوظفين، فهـذا ضعفٌ في الإنْسَان، أي: يحدث في الإنْسَان ضعف في بعض جوانب الدِّين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

الثالث: خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم:١٤]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦﴾ [الطور:٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧].

وهذا الخَوف من أعلى مراتب الإيمَان، ونسبة الأول إليه كنسبة الإسْلَام إلى الإحسان، وإنما يكون محموداً إذ لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله، ولهذا قال شيخ الإسْلَام: هذا الخَوف ما حجزك عن معاصي الله، فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه.

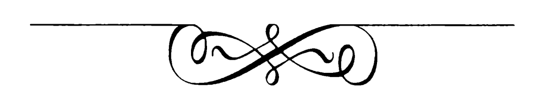
الشَّرح

هذا هو الخَوف المشروعُ، أن تخاف وعيدَ الله، فإن الله جَلَّ وَعَلَا قد توعَّد من عصاه، ووعَد من أطاعه، الوعيدُ هو تهديدٌ بالعقاب، والوعدُ هو إيعادٌ بالخير والثوابِ، فالذي يخافُ من عقاب الله يخافُ اليومَ الآخر ويخافُ وقوفَه بين يدي الله يومَ القِيامَة، هذا من الأعمالِ المشروعة التي ينبغي أن تعمُرَ القَلْبَ المُؤمِن، فيتذكر أنه سيموت، وأنه سيبعثُ، وأنه سيقف بين يدي الله، وأن الله سيتولى بنفسه سؤالَه، يا عبدي فعلت كذا، يا عبدي عصيتني في يوم كذا، يا عبدي قلتَ كذا، ولهذا قال - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم:١٤]، أي خاف وقوفَه بين يديَّ، كما قال - تَعَالَى -: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٤٦]، خاف مقامَه بين يدي الله يومَ القِيامَة، تخافُ من العقاب، تتصور العقابَ، ولابد أن تعرف السبب الذي يوصِّلُك إلى العقاب،

وهو فعلُ المَعَاصِي، وتعرفَ السببَ الذي يحول بينك وبين العقابِ، وهو تركُ المَعَاصِي، وهذا هو الخَوف المشروعُ، خوفُ وعيد اللهِ، خوفُ المقامِ الذي تقفه بين يديِ الله يَومَ القِيَامَة، فكلما أردت أن تعصيَ الله تذكر الوقوفَ بين يدي الله يَومَ القِيَامَة.

الإنسانُ في الدُّنْيَا لو كان عليه رقابةٌ من جهةٍ مُعينةٍ تتابعُه عن طريق التسجيلِ والتصوير يخافُ منها ويُصلحُ أعمالَه، فهناك جهاز تصويرٍ يلاحقُه في كل مَكَانَ، فعندما يُسأل أنك فعلت كذا أو قلت كذا، فأنكرَ يُجاء له بالجهاز ويرَىٰ التصويرَ، وإذا به يتكلم، فلا يستطيع أن يُنكر، يقال: أول ما ظهر جهاز الفيديو في لبنان قبل خمسين عَامًا تقريبًا، استخدموه في الزواجِ، وكان هذه الكاميرا علىٰ محلِّ النِّسَاء، وهناك بنتٌ صغيرةٌ تلعب، فسقط من أذنها قرطٌ يساوي آنذاك قرابةَ خمسة آلاف ريال، فلقطته امرأة والكاميرا تُصوِّر، ووضعته في شنطتها، بعد انتهاء الحفل أعلنوا أنه فُقِد كذا، وجاءوا للبحث، وسألوا النِّسَاء واحدةً واحدةً، فأنكرن جميعًا أنهن رأين القُرط، فجاءوا إلىٰ المَرْأَة التي أخذت القرط، قالت: ما رأيته، فأدخلوها في غرفة وجاءوا بالشريط وأعادوا الفيلمَ، وإذا بها ترىٰ نفسها تلقطُ القرط من أرضٍ وتضعه في شنطتها، عند ذلك وقع الأمرُ فأخرجته واعتذرت، ولله المثل الأعلىٰ، هذا في صناعةِ المخلوق، فما بالك بالخالِق. يقول ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة:٧]، نحن الآن نرىٰ في صناعة الإنْسَان من الأجهزة ما يُبهر، والذي خلقها هو الله، الإنْسَان ما عنده مجال إلا أن يكتشف، يبحث ويجد، كما لو رَمىٰ إنسَان علىٰ صحراء دنانير وأجهزة وساعات وأقلامًا مثلاً، فيأتي إنسَان يبحث فيجدُ ساعة، وآخر يبحث فيجد قلمًا، وليس هو الذي وضعها بل غيره، فربنا وضع هذه الأشياء في الأَرْض لنرىٰ طَرفًا من عظمةِ الخَالِق، وإلا فإن عِلْم الله أعظمُ وأوسع وأجل.

فالإنسان يخاف مقام الله، عندما يقول: يا عبدي أذَّن المؤذنُ وهربت من المَسْجِد، فيقول: لا يارب، فيقول: انظر نفسَك وأنت هاربٌ، ولله المثل الأعلىٰ، يرىٰ نفسَه بعينه؛ لأن العملَ لا يُرىٰ، فالذي يُرىٰ - والله أعلم - نفسُه ينكشف عملُه كما كان، ولهذا قال العُلَمَاء في قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة:٤]: تشهدُ الأَرْض علىٰ كل من عملَ عليها، العُلَمَاءُ القدماء فسروا بهذا المَعْنَىٰ، لكن لم يُدرِكوا تصور الشهادة كيف تكون، نحن في عصرنا نستطيع أن نتصورَ كيف تكون الشهادةُ، بسبب هذه الأجهزة والأفلام، أخذناها من الأَرْض وصورنا بها الإِنْسَان، أخذنا المادةَ فسجلّنا الإِنْسَانَ، فالأصوات والحركات مُسجلة، ويومَ القيامة تنكشفُ بأبلغَ وأعظمَ مما يُتصور في حق البشرِ، فالذي يخاف مقامَه بين يدي الله أن يأتي الحسابَ فيسألُه فينكر، فيخرج له الحسابَ، فيرىٰ نفسه فلا يستطيع أن ينكر، فينبغي للإنسان أن يخاف مقامَه بين يدي الله، فربنا ﷻ عظيم، ولا يقارن ﷻ بمخلوقه، والله جعل هذه الأشياءَ في الدُّنْيَا نماذجَ، وإلا فإن ما عند الله أعظم.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بقي قسم رابع، وهو الخَوف الطبيعي، كالخوف من عدو وسبع وهدم وغرق ونحو ذلك، فهذا لا يذم وهو الذي ذكره الله عن موسىٰ عليه الصَّلَاة والسلام في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ [القصص:٢١].



القسم الرابع: هو خوف طبيعي، وقد ذكر الله عن خليله إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٨٠]، وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف من فِرعَون، فالخوف الذي نفاه إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو خوفُ الشِّرك، والخوفُ الذي أثبته الله لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خوفٌ طبيعي يقع في قلبِ الإنْسَان، ففرق بين الخَوفين، الخَوف الطبيعي خوفٌ لا يُذم صاحبه ولا يُعاقب، بل هو خوف متعلق بالبنية الإنْسَانية، لا يستطيع أن ينفك منه، لهذا نقرأ في تاريخ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عندما جاء الأحزاب عليهم وأحاطوا بالمدينة بلغت القُلُوْب الحناجر من شدة الخَوف، لكنه خوف طبيعي، ليس خوفاً شركياً بحيث يعتقدون أن المشركين قادرون أن يؤذوهم أذىٰ مستقلاً، بل طبيعة الإنْسَان إذا واجه عدوه خاف، ولهذا الآن في الجيوش الغربية، إذا أرادوا أن يمتحنوا الإنْسَان يختبرون خوفه، فإن كان خوفه كثيراً لا يأخذوه، وإن كان لا خوف له أخذوه، لَابُدَّ أن يكون عنده خوف نسبي؛ لأن الذي لا يكون عنده خوف يتهور حتىٰ يفسد، والذي عنده خوف كثير سيهرب، فأعدل النفوس أن يكون فيها خوف قليل، لكن النَّفْس التي ليس فيها خوف مطلقاً تؤدي إلىٰ الهلاك، ولهذا لا يصلح لقيادة الجيوش، ولا للإدارة ولا للقيادة،وكذلك لا يصلح من كان عنده خوف كثير، فأعدل الطبيعة البشرية أن يكون فيها خوف قليل، هذا الخَوف هو بمثابة الحماية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا تبين هذا فمعنى قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنه م ذو بأس وشدة، قال الله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي فإذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على الله، فإنه كافيكم وناصركم عليهم، كما قال - تَعَالَى -: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٦- ٣٨]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]. قاله ابن كثير.

وقال ابن القَيِّم: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المُؤْمِنين من جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر، فأخبر تَعَالَىٰ أن هذا من كيده وتخويفه، ونهانا أن نخافهم. قال: و المَعْنَىٰ عند جميع المُفَسِّرين يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظمهم في صدوركم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]. فكلما قوي إِيمَان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشَّيطَانُ، وكلما ضعف إِيمَان العبد قوي خوفه منهم.



الشَّرح

رجع الشَّارِحُ يفسر الآية التي ابتدأ بها المُؤَلِّفُ، فالآية في الشِّرك الأول الذي هو شركُ الخَوف ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: إنَّما ذلكم الشَّيطَانُ يخوفِكم من أوليائِه، هذا معنى الآيةِ، الشَّيطَانُ له سُلطانٌ على القَلْبِ، يوسوس، فإذا جاء الموقف الذي ينبغي أن يكون فيه الإنْسَان قوياً بالله

وسَّوس له، وخوَّفه بالكفار بأن عندهم قوة، وعندهم سلاحٌ، أنتم عَددُكم قليل، عُدتُكم ضَعِيفَةٌ، فيأتي يخوِّف المُؤمِنين، حتىٰ يتركوا الجِهَاد، ويأتي إلىٰ العُلَمَاء والمُصلحين يُخوِّفُهم من الفُسَّاق:الفُسَّاقُ قد يؤذونكم ويُلحِقون بكم الضررَ، قد يَسجنونكم، وقد يُعذِّبونَكم، وقد يَقتلونكم، فيُحجِمَ الإنْسَانُ عن الأمر بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر خوفـًا من الفُسَّاقِ، ولهذا يقول ابن تَيْميَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر كتابِ الحسبة أنَّ أصحابِ المَعَاصِي لهم موقفان، الموقف الأول يطلبون من الصَّالِحينَ ألا يتكلموا في النَّصيحة، فإذا لم ينصحوا سالمُوهم، قال: بعد فترة من الزمن لا يكتفُون بهذا، يُريدون ألا يحضروا مجالَسهم، ولا منتدياتِهم، ولا أمَاكِن فسقِهم؛ لأن رؤيتهم تُعكِّر عليهم صفوَهم، يريدون ألا يروا إلا من كان فاسقـًا؛ لأن رؤيتهم تذكِّرُهم بالله، وتذِّكرُهم بالآخرةِ، وتذكرُهم الجَنَّةَ والنار، وهم لا يُحِبُّون أن يتذَكَّروا، بل يريدون أن يَعيشوا مُنغمِسين في الشهواتِ لا يُنغِّص عليهم شهواتِهم، فيقولُ ابنُ تَيْميَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ إن سلموا لهم المرحلة الأولىٰ انتقلوا معهم إلىٰ المرحلة الثانية، فلا تظن أن الفُسَّاقَ سيُهادنونك، الفَاسِق لا يرضىٰ بوجود الصَّالِح أصلاً؛ لأنَّه يرىٰ أن الصَّالِح يكشف فسقَه فيُعرفُ أنه فاسقٌ، لكن لو كان النَّاسُ كلُّهم فساقـًا ما يُعرَف، لهذا ترىٰ كلَّ صاحبِ معصيةٍ يُحِبُّ أن ينشرَها بين النَّاس، حتىٰ لا يبقىٰ هو مكشوفـًا، صاحبُ المُخدِّرات يُحِبُّ أن يكون النَّاسُ كلُّهم أصحابُ مُخدِّرات، الزاني يُحِبُّ أن يكون النَّاسُ كلُّهم زناةً، شاربُ الخَمْر يُحِبُّ أن يكونَ الناسُ كلُّهم شاربين للخمر، المُدخن يُحِبُّ النَّاس أن يكونوا كلُّهم مدخنين، حتىٰ لا يبقىٰ هو مكشوفـًا، فلهذا صاحب المَعْصِيَة لا يرضىٰ برؤية الخيرِ أو الصلاح، يريد أن يكونَ النَّاسُ كلُّهم مثلُه حتىٰ لا يكون مكشوفـًا بينهم.

فالصالحُ لا ينبغي له أن يتركَ الأمرَ بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر خوفَ النَّاس، بل يأمر بالمعروفِ وينهىٰ عن المُنْكَر بحسب استطاعته، فإنَّ تركَ الأمرِ بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر يؤدي إلىٰ انتشار المَعْصِيَة وتوسيع رقعَتِها، هذا ما يُسمَّىٰ في الأنظمةِ الغربيةِ: الرقابةُ الاجتماعيةُ، هناك يُدَرِّبُون النَّاس ويعلمُونهم أنَّ كلَّ فردٍ في المُجْتَمَع رقيبٌ علىٰ تطبيقِ النظامِ، فإذا رأيت أحداً يخترقُ النظام ولو كان رئيسُ الدولة ينبغي أن تُبلِّغ عنه، ولهذا لا يستطيعُ بشر في هذا المُجْتَمَع أن يخرِق النظامَ بصورةٍ صريحةٍ؛ لأنَّ الجميعَ يُراقِبون، الكاتبُ يراقبُ، والمحاسبُ يراقبُ، والعاملُ يراقبُ، والمديرُ يُراقب، كلُّهم مُراقبُون.

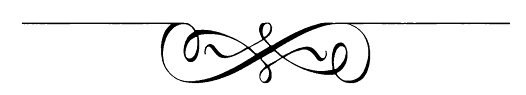
وهكذا في دين الإسْلَام، (**من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه**)[١] كل واحد منا مراقب، ليس هناك إنسَان معفىٰ من المراقبة، و مراقبتنا مراقبة إيجابية، نراقب لنصلُح، وليست مراقبة سلبية، نراقب ويبلغ فقط، هذه مرحلة أعظم وأشرف ليست إلا بدين الله، فلو تخلىٰ كل مراقب عن عمله أنتشر الفساد، كما جاء في الحَدِيث[٢] أن مثل القائم علىٰ أمر الله والواقع فيه كمثل السفينة أناس في أعلاها وأُناس في أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا أرادوا أن يسقوا من الماء طلعوا إلىٰ الدور الثاني ليأخذوا ماء من البحر، فقالوا: نحن أذينا الذين فوقنا، فلو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا حتىٰ نأخذ الماء من قريب، وأخذوا يتشاورون، والنَّاس الذين فوق يسمعون المشاورة فإن تركوهم ماذا يقع؟ تغرق السفينة، وإن أخذوا علىٰ أيديهم نجوا جميعًا، حتىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحَدِيث أخرجه البُخَارِي في صَحِيحه، كتاب الشِّركة، باب هل يقرع في القَسَمة، برقم: (٢٤٩٣).

الذين أسفل ينجون معهم. فهكذا في المُجْتَمَع المُسْلِم، كل فرد في المُجْتَمَع المُسْلِم رقيب، يراقب في تطبيق شرع الله، لكن بحسب استطاعته، ليس كل إنسَان مكلفًا أن يراقب فوق قدرته، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وكلما كان للإنسان قوة عِلْمية، أو قوة إدارية، أو قوة اجتماعية كانت المسؤولية عليه أكبر، فالأب في المنزل مسؤوليته أكبر، والزوج في بيت الزوجية مسؤوليته أكبر، ورئيس الدولة منزلته أكبر، قد جاء في الحَدِيث: (كلكم راع،وكلكم مسؤول عن رعيته)(١)، فالرقابة الاجتماعية عمل مشترك بين جميع أفراد المُجْتَمَع، وفي الإِسْلَام رقابة إيجابية، ليست رقابة سلبية، تراقب فإن رأيت أحداً أراد أن يخرق السفينة تنصحه، تذكره بالله ﷻ، وتخوفه عذاب الله، تذكره بلقاء الله، وأن في الدُّنْيَا عملاً لكن عما قريب سترحل ويكون هناك الجزاءُ، إمَّا العقابُ وإمَّا الثَّوابُ، فلا ينبغي لنا أن يصل بنا الخَوف إلىٰ أن نترك الأمر بِالمَعرُوفِ والنَّهي عن المُنْكَر.



(١) أخرجه البُخَارِي في عدة مواضع من صَحِيحه، منها: كتاب النكاح، باب: المَرْأَة راعية في بيت زوجها، برقم: (٥٢٠٠)، و مُسْلِم في صَحِيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث علىٰ الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم: (١٨٢٩)، (٣/ ١٤٥٩).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: فأمر تَعَالَىٰ بإخلاص هذا الخَوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإِيمَان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الوَاجِب، ففيه أن إخلاص الخَوف لله من الفرائض.

قال: وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨] الآية.

الشَّرح

يعني في الآية القُرْآن ية: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥] جاء الشرطُ، ويدلُّ علىٰ الجواب قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: إن كنتم صادقين في الإِيمَان فلا تخافوا أولياءَ الشَّيطَانِ وخافوني، فصدقُ الإِيمَانِ دَلِيلُه ألا تخافَ إلا من الله، فإذا رأيتَ قلبَك يخافُ من المخلوقِ فعندك نقصٌ في الإِيمَان، إنْ لم يكن الإِيمَانُ مفقوداً، فهو بحسب خوفِك من المخلوقِ، فإذا خفتَ من المخلوقِ إلىٰ دَرَجةٍ تمنعُك من طاعةِ الله كذلك، وتجعلك تخافُ من هذا المخلوقِ كخوفِك من الله، فالإيمان في قلبِك إمَّا أنه ناقص نقصاً شديداً وإمَّا أنَّه معدومٌ.

قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨]، يقول عَزَّ وَجَلَّ أنَّ الذي يعمُر مَسَاجِد الله : مَن آمنَ بالله إلىٰ آخر ما ذكر في الآية، لكن لا يعمرُها بالبناء فقط، وإن كان البناءُ جزءاً من عمارتها؛ لأنه إذا لم يُعمَّر المَسْجِد لا يُسمَّىٰ مَسْجِداً، فالذي يبني المَسْجِد عمَّرَه، لكن هذه عِمارةٌ شخصيةٌ، بقيت العِمارةُ

المعنويةُ، فالذي يعمُر المَسْجِدَ المبني بالعبادةِ فهذا هو الذي ذكرَ الله إِيمَانَه، لكن الذي يبني المَسْجِد ولا يُصلي فيه قد يكون مُنافقـًا، وليس الإنْسَان مطالبـًا بأن يَبني مَسْجِداً وهو لا يستطيع، فيكفي فيه العِمارة المعنويةُ، فعمارة المَسْجِد حِسَّـًا ومعنىً دَلِيلٌ علىٰ أنَّه من المُؤمِنين، لكن لا يكفي العمارةُ، بل لَابُدَّ أنه لا يَخشىٰ إلا الله، أي لا يخافُ إلا من الله، فالقلبُ المُؤمِن ليس فيه فراغٌ ليخاف من غير الخَالِق، الله الذي خلقَ الكونَ، وهو الذي أوجدَك وصوَّرك، ورعاك. القُلُوْبُ كلُّها بيدِ الخَالِق، الرئيسُ المرءوسُ والحركةُ والسكونُ كلُّها بيد الخَالِق، فالإنسان عندما يتذكر أن الكونَ كلَّه بيدِ الله يخافُ من الله الذي يُحيِي ويُميتُ، والذي يرزقُ، المخلوقُ بيدِه سببٌ، إذا أراد الله أنَّ هذا المخلوقَ يعملَ السببَ عَملَ.

فأنت تكلُ أمرَك إلىٰ الله، فإن وقعَ عليك أذىً من المخلوق تعلم أنَّ هذا من مصلحتِك، وأنَّ الله يرفعُ درجاتِك، وأنَّ الذي وقعَ منه الأذىٰ عليك أرادَ الله أن يكثرَ معاصيَه حتىٰ يعاقبه يَومَ القِيامَة. إنَّ الدُّنيَا دارُ ابتلاء يُبتلي الصابرُ، ويُبتلَي الظالمُ، كلُ واحدٍ من الطرفين مُبتَلىٰ، هذا مُبتلَىً ليُكثرَ المَعَاصِي ليكثرَ عليه العذابُ، وهذا مبتلىً ليرفعَه الله درجاتٍ في الجَنَّة، فلا تظنُّ أن وقوع الأذىٰ عليك إهانةٌ لك، هذا تكريمٌ، فقد وقعَ الأذىٰ علىٰ أصفياء الله، وأنبيائه ورسلِه، ما من نبيٍ إلا أوذي، والأنبياءُ صفوةُ الخلقِ، فوقوعُ الأذىٰ علىٰ إنسَان ليس فيه إهانةٌ بل فيه تكريمٌ بشرط أن يصبرَ؛ لأنَّ الفتنةَ والابتلاءَ بدون الصبرِ عقابٌ، لكنَّ الابْتِلَاءَ إذا رافقه الصبرُ فهو تكريمٌ من الله ﷻ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما نفى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمارة المساجد عن المشركين بقوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٧]. الآية إذ لا تنفعهم عمارتها مع الشِّرك، كما قال -تَعَالَى-: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]. أثبت تَعَالَىٰ في هذه الآية عمارة المساجد بالعبادة للمؤمنين بالله تَعَالَىٰ واليوم الآخر، المقيمين الصَّلَاة المؤتين الزكاة، الذين لا يخشون إلا الله ولا يخشون معه إلهًا آخر، كما قال - تَعَالَى -: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

فهذه هي العمارة النافعة، وهي الخالصة من الشِّرك فإنه نار تحرق الأعمال.



الشَّرح

الشرك من أشدِّ الأعمالِ وأعظمِها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا لا يغفرُه الله جَلَّ وَعَلَا، المشركُ لا يعمرُ البُيوتَ، قد يعمُرُ المشركُ مَسْجِدا من بابِ الخدمةِ الاجتماعية، ليصلَ إلىٰ أهدافِه، كما فعل الذين في المدينة عندما بنوا مَسْجِدَ الضرارِ، لم يبنوه لله، إنَّمَا بنوه ليتوصَّلوا من خلالِه إلىٰ هدم الإسْلَام، لكن العِمَارةِ التي أرادها اللهُ جَلَّ وَعَلَا ليست فقط العمارةُ الحسِّية، بل الحِّسيةُ والمعنويةُ، ولهذا ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، ما كان، أي: ما ينبغي لهم، أو لا يقعُ منهم هذا أصلاً، فلا يعمرُه إلا من آمن بالله واليوم الآخر، وأقامَ الصَّلَاة، ولم يخش إلا الله، هذه صفاتُ الذين يكونون في عمارةِ المساجِدِ وإقامةِ ذكرِ الله فيها.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨]

قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنْسَان يخشىٰ غيره، ويخشىٰ المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشىٰ في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

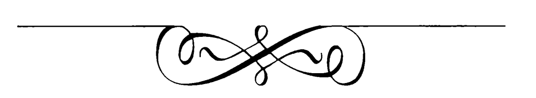
قلت: ولهذا قال ابن عَبَّاسٍ الآية لم يعبد إلا الله، فإن الخَوف كما قال ابن القَيِّمِ: عبودية القَلْب فلا يصلح إلا لله كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القَلْب.



الشَّرح

يقول ابنُ عطيةَ - وهو أحدُ المُفَسِّرِين -: أنَّه يعني هذا أنَّ الإنْسَانَ المُسْلِم لا يقع في قلبِه خشيةُ النَّاس، قلنا أن الخَوف الطبيعي يقعُ في قلبِ الإنْسَان، لكن المرادُ به الخشيةُ الشَّرْعِيَّة التي لا تنبغي إلا لله، فإذا صرفها لغير الله كانت خشيةً شركيةً أو خوفاً شركياً، أمَّا الخَوف الطبيعيُ فلا يكادُ يسلمُ منه الإنْسَان.

ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فسَّر الخَوف بالعبادةِ قال: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨]. أي: ولم يَعبُدَ إلا الله، وكذلك ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الخَوف بالعبُودية، فالخوفُ يُراد به حركةُ القَلْب وفعلُ القَلْبِ كالإنابة، والرَّهبةُ، والإجلالُ، والتعظيمُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

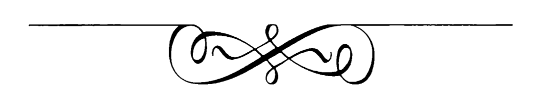
وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة:١٨].

قال ابن أبي طلحة: عن ابن عَبَّاسٍ يقول: أن أولئك المهتدون كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩].

وكل عَسَىٰ في القُرْآن فهي واجبة، وتضمنت الآية أن من عمر المساجد من المُسلِمين بالعبادة هو من المُؤمِنين.

الشَّرح

يقول العُلَمَاء: كلُّ "عَسَىٰ" في القُرْآن ، وكلُّ " لَعَلَّ " في القُرْآنِ المُتعلِّقة بفعل الله عَزَّوَجَلَّ تدلُّ علىٰ الوقوع، فإذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: عَسَىٰ أن يكون كذا، أو عَسَىٰ أن تفعل كذا، عَسَىٰ أن يقع كذا، فكل عَسَىٰ في القُرْآن تدل علىٰ أن ما بعدها واجبُ الوقوعِ، ففي قوله -تعَالَىٰ-: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة:١٨]. أي: أن أولئك من المُهتَدين، وقوله - تعَالَىٰ -: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]. أي أنَّ الله قد وعدَ بأن يبعثَه يَومَ القِيامَة مقامـًا محموداً، أمَّا ما يتعلقُ بالمخلوقِ فإن عَسَىٰ قد لا تكون واجبةً؛ لأنَّ هذا مُتعلقٌ بفعل من لا يستطيع أن يفعلَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

كما في حَدِيث (إذا رأيتم الرجل يعتاد المَسْجِد فاشهدوا له بالإيمان) قال الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨] رواه أحمد والترمذي والحاكم.

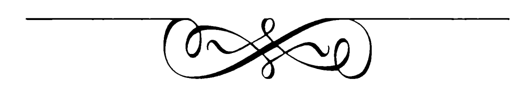
الشَّرح

هذا الحَدِيثُ في الترمذي وفي المُسنَد وفي غيرهما من المصادر، وهو ضَعِيفُ السَّنَد، وذكرَ المُعلِّقُ أن الأعظمي صحَّحَ الحَدِيثَ في صَحِيح ابن خزيمة، ولا شكَّ أنَّ هذا خطأٌ في التصحيحِ، فإن فيه ضرار بن سمعان، وهو ضَعِيفٌ، ولكن المَعْنَىٰ صَحِيحٌ، قلنا ليس من شرط ضعفِ الحَدِيثِ عدمُ صحَّةِ المَعْنَىٰ، الحَدِيثُ قد لا يصحُّ سَنَداً، ولكنه يصحُّ معنىً، وقد يصحُّ سَنَداً، ولا يصحُّ معنىً، فليس هناك ترابطٌ، لكن في الغالب أنَّه إذا صحَّ السَّنَدُ صحَّ المتنُ، هذا الأصلُ، لكن قد يُوجَدُ ما يخالفُ الأصل، ولهذا الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ قال في حَدِيثٍ في السُّنَّة لابن أبي عاصم: السَّنَدُ صَحِيحٌ، والمتنُ كأنَّه من وضع اليَهُودِ؛ لأنَّ المتن شديدٌ جداً، وهو جملةٌ توجدُ في التوراة، والسندُ صَحِيح.

والعلماءُ القُدماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ بَشَرٌ، وعندهم تلاميذٌ، وعندهم أقرباءُ، أحياناً بعضُ التلاميذُ يكتب بطاقةً، القُدماء كانوا يجمعون الأحَادِيثَ عن طريق البطاقات، ليست بطاقاتُ العصر الحاضر، لكن بطاقاتٌ علىٰ قدرِ عصرهم، يجمعونها في بطاقاتٍ كما ورد في تراجُمهم، فيأتي التلميذُ إذا كان شرِّيراً أو سيِّئاً صاحبِ مُعتقدٍ سيءٍ يخالفُ مُعتقدَ شيخِه يكتبُ حَدِيثاً بسندٍ صَحِيح، ويرميه بين بطاقاتِ الشيخ، فعندما يأتي الشيخ ليحدث وهو قد طلب العلمَ في

قرابة عشرين سنة، قد لا يستطيع أن يُميِّز بين خطِّه وخطِّ التلميذ فيحَدِّث بهذا الحَدِيثِ عن حَدِيثه، أو يلحقَه بكتابه، وقد يكون له قريبٌ يفعل ذلك، وأحيانًا يقولون: كان له ابنُ عمٍ أفسدَ عليه حَدِيثه، أو كان له كاتبٌ كان يُدخِلُ عليه ما ليس من حَدِيثه، هذا نوعٌ.

النوعُ الثاني: أن الكُتبَ كانت تنسخُ في المحلَّات، مثلُ الطباعةِ اليوم، كان هناك نُسَّاخٌ لهم محلاتٌ تجاريةٌ ينسخون الكتبَ، بعض من ينسخ الكتبَ يُدخلُ فيها ما ليس منها بإسناد صَحِيح، ولهذا ليس كلُّ كِتابٍ نجد مخطوطته يكون ما فيه صَحِيحًا، فنُحذِّرُ هذا، كثيرٌ من العُلَمَاء يقول: ينبغي أن لا تعتمدَ إلا نسخةً مُقابَلةً عليها خطوطُ المشايخ والعلماءِ؛ لأنَّ بعضَ المخطوطات قد يُدخَلُ فيها ما ليس منها، فينبغي أن نحذرَ، وهذا تحذيرٌ لمن يظنُّ أن كلَّ ما في الكُتبِ صَحِيحٌ، فالله أعلم كيف دخل هذا الحَدِيث علىٰ ابن أبي عاصم، ابن أبي عاصم مُحدِّثٌ، ومن كُتَّابِ السُّنَّةِ، وكِتَابُه أَلَّفَه للدفاعِ عن العقيدة، ويقول الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: أن السَّنَد صَحِيح ولكنَّ المتنَّ كأنه من وضع اليَهُودِ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠].

قال ابن كثير: يقول تَعَالَىٰ مخبراً عن قوم من الذين يدعون الإِيمَان بألسنتهم، ولم يثبت الإِيمَان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة في الدُّنْيَا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم فارتدوا عن الإِسْلَام.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: أي: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وقال ابن القَيِّم: النَّاس إذا أرسل إليهم الرُسُل بين أمرين، إمَّا أن يقول أحدهم آمنا، وإما أن لا يقول ذلك بل يستمر علىٰ السيئات والكُفْر، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابْتِلَاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه، فمن آمن بالرُسُل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلىٰ بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدُّنْيَا والآخرة وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإِيمَان، لكن المُؤمِن يحصل له الألم في الدُّنْيَا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدُّنْيَا والآخرة، والمعرض عن الإِيمَان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير له الألم الدائم.



الشَّرح

يقول ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا جاءت الرُسُل ينقسم النَّاسُ إلىٰ قسمين، قسمٌ يقول آمنَّا، وهذا القِسمُ لَابُدَّ أن يُبتلىٰ بأعداء الرُسُل والدِّين، يُؤلمونَهم ويُضايقونَهم، ويحاصرونهم، فيكون لهم في الدُّنْيَا الألمُ، لكن نهايتُهم في

الآخِرَة إلىٰ نعيمٍ مُقيمٍ، وأمَّا الذين امتنعوا عن الإِيمَان في الدُّنْيَا فقد يكون لهم في الدُّنْيَا لذةٌ عاجلةٌ، لكن ما ينتظرهم عند الله من الألم أشد وأبقىٰ، وبعضُ النَّاس لا يصبرُ علىٰ الأذىٰ، فإذا ابتُلي ارتدَّ عن دينِه ـ نعوذ بالله ـ، وهذا ضعفٌ في الإِيمَان ونقصٌ في العَقْل، فإن الإنْسَان حتىٰ الفَاسِق لَابُدَّ أن تصيبه الآلامُ، وتصيبه الابْتِلَاءاتُ، ما هناك إنسَانٌ يعيشُ آمنـًا، كلُّ إنسَان يعيش خائفـًا، سواء كُبَر أو صغُرَ.

الخوف ملازمٌ لجميعِ البشر؛ لأن الغَيْبَ مجهولٌ، صاحبُ النِّعْمَة يخافُ أن تزولَ النِّعْمَةُ، وصاحبُ العافيةِ يخافُ أن تزول العافيةُ، وصاحبُ المكانةِ يخاف أن تزولَ المكانةُ، كلُّ إنسَان يعيش في خوفٍ من المُسْتَقْبَل، والماضي قد انتهىٰ، كما قال بعض الصَّالِحينَ: ليس بيننا وبين الأغنياءِ إلا ساعةٌ واحدةٌ، أمَّا الماضي فقد ذهبَ من حياتنا وحياتِهم، ما عشناه من فقرٍ انتهىٰ، وما عاشوه من غنىً انتهىٰ، وأمَّا المُسْتَقْبَلُ فكلانا خائفٌ، نحن نخاف ما ندري ماذا سيأتي، وهم كذلك يخافون، كلٌّ منا يخاف، هل يستمر هذا الفقر بنا أم لا؟ فالفرقُ هذه السَّاعَةُ الواحدةُ فقط، ما هناك إنسَان يضمن المُسْتَقْبَلَ، بل كلما كبرت مَكَانة الإنْسَان وكلما كثرَ مالُ الإنْسَان عاش خائفـًا، أصحابُ الأموال يعيشون علىٰ أعصابِهم يترقبون الحوادثَ، ماذا وقع؟ ماذا صار في التجارةِ الدولية؟ ماذا صار في المكان الفلاني؟ يعيشون علىٰ أعصابهم، حتىٰ أن كثيراً منهم لا ينام إلا بحبوبٍ مُنومة، لشدةِ تعلُّقه بماله، يترقَّبُ في كلِّ لحظةٍ، حتىٰ تجدَ في كلِّ مَكَان من بيوتِهم هاتفـًا حتىٰ في الحمام، هذه نقمةٌ، وليست هذه نعمة، لكن هكذا ابتُلوا، فالذي لا يؤمنُ لا نَظنُّ أنه يعيش آمنـًا، كلُّ النَّاس في خوف، لكن شَتَّانَ بين خوفٍ تأمنُ بعدَه، وبين خوفٍ ينتهي إلىٰ عذابٍ أشدّ، فهذا فرقٌ بين خوفِ المُؤمِن وخوف الفَاسِق، خوفٌ ينتهي بك إلىٰ الأمانِ، ولكن الذي يقابله أمان ينتهي بصاحبه إلىٰ الخَوف، وهذا الذي ينبغي أن نحذرَ منه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والإنسـان لابُـدَّ أن يعـيش مـع النَّـاس، والنَّـاس لهـم إرادات وتصـورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذىٰ والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقىٰ حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذىٰ أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب علىٰ يد غيرهم، فالحزم كل الحزم بما قالت أم المُؤمِنين لمعاوية: (من أرضىٰ الله بسخط النَّاس كفاه الله مؤنة النَّاس، ومن أرضىٰ النَّاس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا) فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة علىٰ فعل المحرم، وصبر علىٰ عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدُّنْيَا والآخرة كما كانت للرسل وأتباعهم.

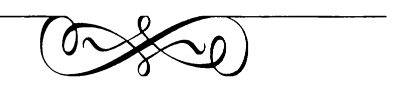


الشَّرح

هذا كلام ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يتحدثُ عن بعض الأحوالِ التي تكون للرجل الصَّالِح في المُجْتَمَع الفَاسِق، أو المُجْتَمَع الظَّالم، فإن النَّاس لهم أهواءٌ وشهواتٌ، ولهم مطالبٌ، فإذا كثرت المَعْصِيَةُ في مَكَان، وكان فيه إنسَانٌ صَالِحٌ فهو بين أمرين: إمَّا أن يسكت علىٰ معصيتهم خوفًا من أذاهم، وإمَّا أن ينكر عليهم ويلحقُه الأذىٰ منهم، بعض النَّاس قد يُرجِّح جانبَ السلامة في الدُّنْيَا، لكنه إن سلمَ من الأذىٰ في الدُّنْيَا فإنه ربما لا يسلمُ من الأذىٰ في الآخِرَة، قال: فالعاقلُ الذي لا يُؤَخِّرُ الألمَ، فإن جاءَ ألمٌ عاجلٌ فسيأتيه إن شاء الله لذةٌ آجلةٌ دائمةٌ، والدُّنيا مَكَان للألمِ، مَكَانٌ للابْتِلَاء، فالإنسان فيها قد يُبتلىٰ، لكن

مصيرُه إلىٰ الأمن والسلامةِ في الآخِرَة، والعيشةِ الراضية، فهو يواجه الفَساد وينصحُ الفَاسِقَ ولا يسكت عن المَعْصِيَةِ خوفًا من الله ﷻ، لكن إن خاف من النَّاس ومنعه الخَوفُ من أن يقول كلمةَ الحَقّ فإنَّه حينئذٍ قد استعجل السلامةَ في الدُّنْيَا ولكنَّ عذابَ الله أشدُّ؛ لأنَّ العالِمَ إذا سكت علىٰ معاصي النَّاسِ ومُنكراتِهم مَن الذي يذكِّرُهم؟ مَن الذي يوجِّهُهم ؟ أليس أصحابُ العِلم؟!.

فالعالمُ ينبغي أن يصبرَ علىٰ الأذىٰ، وأن ينصحَ في ذات الله ﷻ، وإن لحقَه أذىٰ، فإن النَّاس قد يُؤذونَه، لكن هذا الأذىٰ ينتهي، كم أُوذي قبلنا من أَشخَاص، انتقلوا إلىٰ جوار الله ﷻ، وهناك أعدَّ الله لهم من النَّعيم ما يُنسيهم ما لَحِقَهم من الأذىٰ في الدُّنْيَا، ولهذا يقول الشَّارِحُ من كلام ابن القَيِّم - رحمهما الله - فالحزمُ كلُّ الحزمِ أن لا تُرضيَ النَّاس بسخطِ الله، بل تُرضِي اللهَ ﷻ ولو سخط عليك النَّاسُ، فإن القُلُوْبَ بيد الله، من أرضىٰ النَّاس بسخطِ الله سخطَ اللهُ عليه وأسخطَ عليه النَّاسُ، لكن من أرضىٰ الله بسخطِ النَّاس، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضىٰ عنه النَّاسَ، إرضاء النَّاسِ ليس معناه أنهم يوافقوك علىٰ ما أنت فيه، لكن يشعرون في داخلِهم أنك علىٰ حقٍ وأنَّك مُصيبٌ، لكنَّ الشهواتِ والظلمَ والهوىٰ يمنعُهم من أن يقولوا كلمة الحَقّ، فهم وإن عادوك وآذوك فهم يعرفون أنهم علىٰ بَاطِلٍ، لكنَّ الإنْسَانَ ظلومٌ جهولٌ، فينبغي للإنسان أن يتحمَّل في نصيحته وتوجيهه وتعليمِه ما يلحقُه، وله في الأنْبِيَاء والرُّسُل قدوةٌ وأسوةٌ، فإنه ما من نبيٍ إلا أوذي، وهم صفوةُ الخلق عند الله ﷻ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

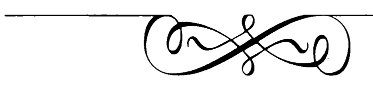
ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمَان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة النَّاس له، وهي أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرُسُل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المُؤمِنون بالإيمان، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلىٰ الإيمَان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرُسُل إلىٰ موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلىٰ ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة النَّاس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغبن كل الغبن إذا استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلىٰ ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: أني كنت معكم، والله عليم بما أنطوىٰ عليه صدره من النفاق أنتهىٰ.

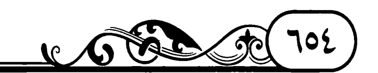


الشَّرح

هذا تعليقٌ وبيانٌ لقولِ الله -تَعَالَىٰ-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠]، هذا الكلام شرحٌ لهذه الآية، أي: أنَّ بعضَ النَّاس يَدَّعي أنه مؤمنٌ، لكنَّه إذا لحقَه أذىً جعلَ هذا الأذىٰ مثلَ العذابِ الذي في الآخِرَة، أي: كأنهما سواءٌ، فيقول: سأحمي نفسي عن الألم في الدُّنْيا؛ لأنَّ الألم الذي في الآخِرَة مثلُ ألمِ الدُّنْيا، مع أنَّ عذابَ الله أشدُّ، مهما بلغ الألمُ في الدُّنْيَا لا يساوي شيئًا من عذابِ الله في الآخِرَة، فإنَّ عذابَ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعذبُه أحدٌ من خلقِه، عذابُ الله شديد، فإنَّ عذابَ الله جهنَّمُ،

وفي الدُّنيا أشدُّ ما عند الإنْسَان فيها أن يُقتلَ، والقتلُ ألمُ ثوانٍ ثم ينتهي، وينتقل إلىٰ الآخِرَة، فلا ينبغي للإنسانِ أن يستبدل دينه وصلاحُه بالفسقِ والفجورِ أو موافقةِ النَّاس علىٰ فجورِهم ومعاصيهم فراراً من الألم الذي يلحقُه من قبلهم، فالعاقلُ هو الذي يصبرُ علىٰ ألمِ الدُّنْيَا رجاءَ أن يحصلَ علىٰ سعادةِ الدُّنْيَا والآخرةِ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلت: وإنما حمل ضَعِيف البصيرة على أن جعل فتنة النَّاس كعذاب الله، وهو الخَوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمَان بالله، وذلك من جملة الخَوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة، وفي الآية رد على المرجئة والكرامية، وفيها الخَوف على نفسك، والاستعداد للبلاء؛ إذ لَابُدَّ منه مع سؤال الله العافية.



الشَرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الآية فيها ردٌ على المُرجئةِ والكَرَّامِيةِ، والكَرَّاميةُ إحدى طوائفُ المُرجِئة؛ لأنَّ المُرجئةَ على أربع طوائف، الطائفة الأولى: الجَهمية الذين يزعمون أنَّ الإِيمَانَ هو المعرفةُ، هذه أردأ أنواعِ المُرجِئة، والطائفة الثانية: الذين يزعمون أنَّ الإِيمَان هو التصديقُ بالقلبِ، أي أمرٌ زائدٌ عن المعرفة، عرفَ ثم صدَّق، وهذا يقول به جمهور الأشاعرة والماتريدية، وهم طوائفُ يغطون العالم الإِسْلَامي إلا النذرَ القليل، والطائفةُ الثالثة: الذين قالوا: إنَّ الإِيمَانَ قولٌ وتصدِّيقٌ، وهم مُرجِئةُ الفقهاءِ، وهم الأحنافُ، والطائفة الرابعة: الذين يقولون أن الإِيمَانَ هو القولُ فقط،وهم الكرَّاميةُ، يقولون من قال لا إله إلا الله دخلَ الإِيمَان، ولا يشترطون تصديقَ القَلْبِ، وهذه أيضًا من أردأِ أنواع الإرجاءِ، فالجهميةُ والكرَّاميةُ كلاهما أردأُ أنواع الإرجاءِ، فالآية تردُّ عليهم، وتُبين أن الإِنْسَان قد يعمل العملَ ويكون فيه نقصٌ لإيمانِه؛ لأنهم يزعمون أن الإِيمَان لا يزيدُ ولا ينقصُ، بل إمَّا أن يكون معرفة فقط أو قولاً فقط، فيقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذه الآية وأمثالها ردٌ على هاتين الطائفتين؛ لأنَّ الآيةَ توعدَت من فرَّط في بعض الوَاجِبات خوفًا من ألمِ الأذى في الدُّنْيَا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: عن أبي سَعيدٍ مَرْفوعـًا: (إنَّ مِنْ ضعف اليقين أن تُرْضِيَ النَّاس بِسَخَطِ الله، وأن تَحْمَدَهم علىٰ رزقِ الله، وأن تَذُمَّهم علىٰ ما لم يُؤتِكَ الله، أن رزقَ اللهِ لا يَجُرُّه حرصُ حريصٍ، ولا يَرُدُّهُ كراهِية كارهٍ)

ش: هذا الحَدِيث رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضَعِيفٌ، وفيه أيضًا عطية العوفي أورده الذهبي في الضعفاء والمتروكين، وقال: ضعفوه، وموسىٰ بن بلال، قال الأزدي: ساقط، قلت: إسناده ضَعِيفٌ ومعناه صَحِيح، وتمامه: (وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضىٰ واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط).

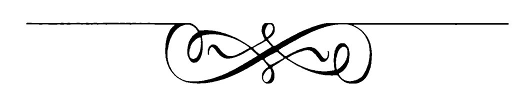
الشَّرح

هنا ثلاثُ قضايا في الحَدِيث إن صحَّ، أنَّه قال: (إنَّ مِن ضعف اليقين أن تُرضِيَ النَّاس بِسَخَطِ الله، وأن تَحْمَدَهم علىٰ رزقِ الله، وأن تَذُمَّهُم علىٰ ما لَمْ يُؤْتِكَ الله)، فإرضاء النَّاس بسخط اللهِ من ضعفِ اليقين، أي أنَّ يقينَك في الله ضَعِيفٌ، فأنت تُرضِي النَّاسَ وتسخط الله لاعتقادك أن النَّاس يملِكون أن يضروك أو ينفعَوك بدون إذن من الله، لو أيقنت أنَّ النفعَ والضُرَّ بيدِ الله ما أرضيتَ النَّاسَ بسخطِ الله، لكن لما ضُعف يقينك في الله تُرضِي المخلوقَ بسخطِ الخَالِق، في ظنك أنَّ المخلوقَ يملُك مع الله، لما ترىٰ من حركةِ النَّاس، وأنهم يستطيعون أن يؤذوا وأن يعطوا ويمنعوا، فيقع في قلبك أنَّهم يملكون بدون إذنٍ من الله فترضيَهم بإسخاط الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا ضعفُ يقينٍ، أو أن تحمدَهم علىٰ رزقِ الله، والله عَزَّوَجَلَّ هو الرزَّاق الذي يهبُ للنَّاس، والرزقُ جعل الله له أسبابًا، ومنها أن يرزقَ الله النَّاسَ بعضَهم من بعض، فإذا حدث لك رزقٌ

مـن إنسَـان يقـع في قلبِـك أنَّ هـذا الـرزقُ منه شخصيـاً، لـيس مـن الله، وهـذا في الحَقِيقَة ضعفُ يقينٍ، فإن الـرزَّاق هـو الله ولـيس هـذا الإنْسَـان الـذي أعطـاك، لكن لا يعني هـذا أن تُسيءَ إلىٰ هـذا الإنْسَـان بـل تُثني عليـه وتشكُره علىٰ مـا أعطاك، لكن في قلبك أنَّ الله الذي سخَّره؛ لأنَّ بعضَ النَّاس ربما يدفعه ظنه أن من اليقينِ أن لا تشكرَ من أحسن إليك، لا. بل تشكر من أحسن إليك، وتعتقدُ في قلبك أنَّ الذي سخَّره هو اللهُ ﷻ، " وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله "، فإن العطاء مـن الله، والمنـع مـن الله، والنَّـاس إنَّمَـا هـم أسباب، والمُسببُ هـو الله ﷻ.

فتتعامل مع النَّاس بالأدب الشرعي، من أحسنَ إليك تحمدُه وتشكُره، ومن أساء إليك تَذُمُّه، لكن كما قال - تَعَالَى -: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ [النساء:١٤٨]، فالذي يُظْلَمُ له الحَقّ أن يتكلَّم في الظالمِ، وأن يَذمُّه، لكن لا يعتقد أن الظالمَ يستطيع أن يَظلِمه بدون أن يأذن الله، لا. بل الكونُ كلُّه بيد الله، ولا يقعُ شيءٌ إلا بإرادته الكونية، وهذا ابتلاءٌ لك، هل تصبر علىٰ ما يلحقُك من النَّاس، فإن صبرت رفعك هذا الصبرُ، وكذلك ابتلاءٌ لهذا الذي ظلمَك، هل يندمُ علىٰ ما فعل ويتوب إلىٰ الله؟ أم أنه يستمر في ظلمه؟ فكلها من الله، ما أصابَ من خيرٍ أو شرٍ فكله بإذن من الله ﷻ، فتعتقد أن الكون بيد الله، وأن ما أصابك لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يردَّه عنك، وأن ما أخطأك لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يصيبَك به، لكن لا يعني هذا التفريطُ في الأسباب، بل تتخذُ الأسبابَ وتعتقدُ أن النتائجَ بيد الله ﷻ، وبهذا تطمئنُّ النَّفْسُ، ويرتاح القَلْبُ، إذا عرف ذلك فرغبته الشديدة في حصول الشيء ثم لم يحصل لا يجعله يقلقُ، ويتألَّم، فأنت تتخذ الأسباب، بعض النَّاس يتزوجُ ولا يرزقُ ولداً، هو اتخذ الأسباب، لكن ما أراد الله أن يكون هناك ولدٌ، وبعض

النَّاس يتزوج ويكون له أولاد، فهذا اتخذ الأسباب والله ﷻ يسرَّ له الذريةَ، فالعطاءُ من الله والمنعُ من الله، والنَّاسُ إنَّمَا هم أسبابٌ بين الله وبين خلقِه، أو بين بعضهم بعض، هذا الاعتقادُ عملُ القَلْبِ وهو غيرُ عملِ الجوارح، تعتقد هذا الاعتقادَ، لكنك تتحركُ لكسب الخير أو دفع الشر، فإن حدث لك خير تحمدُ الله عليه، وإن حدث لك شر تصبر علىٰ ما أُصبت به إن لم يكن معصية، فإن مواجهة المَعْصِيَةِ بالتوبة وليس بالصبرِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (إن من ضعف اليقين)، قال في المصباح: والضعف ـ بفتح الضاد في لغة تميم، وبضمها في لغة قُرَيشٍ ـ خلاف القوة والصحة، واليقين المراد به الإيمَان كله.

كما قال ابن مسعود: (اليقين الإيمَان كله، والصبر نصف الإيمَان) رواه الطبراني بسند صَحِيح، ورواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد من حَدِيثه مرفوعًا ولا يثبت رفعه، قاله الحافظ، ويدخل في ذلك تحقيق الإيمَان بالقدر السابق.

الشَّرح

ضَعفُ اليقينِ وضُعفُ اليقين كلاهما لغتان، تميمُ تفتح الضادَ، وقريشٌ تضمها، لكن أصبح المشهور بين النَّاس هو الفتح، والضُّعف فإنه قليلٌ ما تسمع هذه اللُّغَة.

هذا أثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (اليقين هو الإيمَان كله، والصبر نصف الإيمَان)[1]، اليقينُ هو القاعدةُ التي يقوم عليها الدِّين، فاليقين في الخَالِق، واليقينُ في الآخِرَة، واليقين في الجَنَّة، واليقين في النَّار، هو الذي يتبَعُه العملُ، لكن الذي ما عنده يقينٌ يضعفُ العملُ عنده، وهو الإيمَان بالآخرةِ والتصدِّيقُ

---

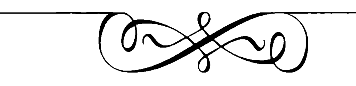
(١) قول ابن مسعود "اليقين الإيمَان كله" أخرجه كثيرون، منهم البُخَارِي في صَحِيحه معلقًا، كتاب الإيمَان، باب الإيمَان وقول النَّبِي ﷺ بني الإسْلَام علىٰ خمس، وأما قوله: "الصبر نصف الإيمَان" فممن أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير حم عسق، برقم: (٣٧٢٣)، (٢/ ٥٢٤)، وصححه ووافقه الذهبي في التلخيص، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمَان، برقم: (٤٨)، (١/ ٧٤)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٥٤٤)، (٩/ ١٠٤).

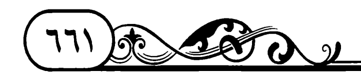
بها، ولهذا قال - تَعَالَى -: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ ﴿الماعون: ١-٢﴾، يُكذِّب بالدِّين أي بالجزاءِ، فهو يُكذبُ به بعملِه لا بقوله، فالذي يَظْلِمُ النَّاس يقينه ضَعِيفٌ؛ لأن الله قد ذكر في الآخِرَة من العذابِ ما تزولُ منه الجبالُ، فكيف يعلم ويؤمنُ بأن هناك عذاباً وأغلالاً وناراً ملتهبةً مُسعرةً، وأن الإنْسَان كلما نضجَ جلدُه بدَّلَه الله جلداً غيره ليذوق العذاب، وأن هناك السلاسلَ والأغلالَ، ثم يَظْلِمُ النَّاسَ؟، هذا كذابٌ، إِيمَانُه صوري ليس حقيقيـاً، ما عنده يقين، فقال الله: الذي يُكذِّب بالدين هو الذي يَدُعُّ اليتيمَ يَظْلِمه ويمنعُه حقه، وهكذا كل من يَظْلِم الفقيرَ أو الضَّعِيفَ، فإن ظلم اليتيم ليس خَاصّاً به، إِنَّمَا ذكره الله لأنه أضعف أفراد المُجْتَمَع، ويلحق به ظلم النِّسَاء؛ لأن المَرْأَة من أضعفِ أفراد المُجْتَمَع، والرجالُ أقوياء، فالذي يَظْلِم زوجته يقينُه ضَعِيفٌ؛ لأن هذا الظُّلْمَ علىٰ الزوجة أو علىٰ اليتيمِ أو علىٰ القريبِ أو علىٰ الجارِ كلُّ هذا ظلمٌ ناتج عن ضعف اليقين ، فينبغي للإنسان أن يراقبَ الله - ﷻ - في من يكونُ له عليه ولايةٌ، أو فيمن يكون ضَعِيفًا في المُجْتَمَع، أو في إعطاء الحَقّوقِ لأصحابها.

وسيأتي من كلام الشَّارِحُ أن بعضَ النَّاس إذا عصىٰ الله، وما نزل من السَّماء عقابٌ عاجل يظن أنه ما هناك عذابٌ؛ لأنه لا يرىٰ أثره، وهناك قصة يذكرها بعض المُؤَلِّفين في حَيَاة الحيوانات: أن أُمَّا من الفئران تحذر أطفالها الصغار تقول: لا تخرجوا من جحركم، لو خرجتم فإن هناك أطفالاً يأخذونكم ويُعذبونكم، فتخرج الفئران الصغيرة لا ترىٰ أحداً، تمشي مسافة قصيرة لا ترىٰ أحداً، فتقول بينها: إن أُمَّنا ليست صادقة، ولكن حتىٰ لا نخرج، فيخرجون مرة واثنتين وثلاثـًا وأربعـًا، وخمسـًا وعشراً، فينسون كلامَ أُمِّهم، يظنون أُمَّهم غيرَ صادقةٍ، وفي يوم من الأيام جاء الأطفال فرأوا الفئران

الصغيرةَ، فوضعوا المصيدة عند فم الجُحر، ثم أثاروا الفئران من الجهة الثانية، فذهبت الفئران الصغيرةُ تجري من الجحر، وأمامهم المصيدةُ، فدخلت كلُّها في المصيدة، فأخذوها وبدأوا يعذبونها، فقالت الفئران: لقد كانت أمُّنا صادقة، لكن إنَّمَا عرفته بعد أن وقعت المُصيبة.

فهكذا بعض النَّاس لا يصدِّق أن هناك عذابًا حتىٰ يموت، ويدخلُ القبرَ، أو حتىٰ يأتي ملك المَوْتِ ويرىٰ المَلَائِكَة، عندئذ كما قال - تَعَالَى -: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام:٣١]، هكذا الإنْسَان المُغفلُ صاحبُ العَقْل الضَّعِيفِ، عندما يقع منه خطأ ولا يأتيه العقابُ سريعًا يظن أنه ما هناك عقاب، أو أنَّ العقاب ليس له ذلك الألمُ الشديد الذي يسمعه في الآيات والأحاديث، لكن بعد أن يموت: فبصرُك اليوم حديد، ليس هناك ما يحول بين رؤيتك وبين ما تَوعَّدَك به، القضية ينبغي أن نتعاملَ معها بجدٍ وحزم، الإنْسَان إذا مات ما بقي هناك أملٌ في العودة، انكشف الغطاء، فينبغي للإنسان أن يتقي الله ﷻ في نفسه وفي حقوق الآخرين، فلا يظنُّ أن عدمَ العقاب السريعِ معناه عدمُ العقابِ، فهناك عقابٌ، وهناك ثوابٌ، لكن الله جعلهما في الآخِرَة، وجعل الدُّنْيَا دارَ عملٍ.





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

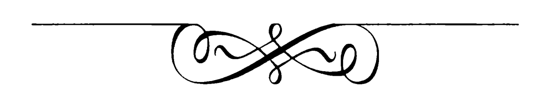
كما في حَدِيث ابن عَبَّاسٍ مرفوعًا: (فإن استطعت أن تعمل بالرضىٰ في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً) وفي رواية أخرىٰ في إسنادها ضعف: (قلت يا رَسُول الله، كيف أصنع باليقين؟ قال: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

قوله: (أن ترضي النَّاس بسخط الله) أي تؤثر رضاهم علىٰ رَضِيَ اللهُ، فتوافقهم علىٰ ترك الأمور، أو فعل المحظور استجلابًا لرضاهم، فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك؛ لأن من قوي يقينه عِلْم أن الله وحده هو النافع الضار، وأنه لا معول إلا علىٰ رضاه وليس لسواه من الأمر شيء كائنًا ما كان، فلا يهاب أحداً، ولا يخشاه لخوف ضرر يلحقه من جهته، كما قال - تَعَالَى -: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن أثر ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا موقوفٌ عليه، وهو الأرجح كما ذكره في الحاشية. ثم استكمل شرح الحَدِيث السابق،إنَّ الإنْسَانَ يكون عنده يقينٌ في أن الكونَ كلَّه بيد الله، وتحصيلُ هذا اليقين يحتاج إلىٰ فترة طويلةٍ بالممارسة والتأمُّل والتفكُّر، فإن الكون من إيجاد الله وخلقه، والله ذكر أنَّه لا يقعُ فيه شيءُ إلا بإذنه، فمن كمالِ الإِيمَان أن تستيقنه وتتعاملَ معه بإيمانٍ صادقٍ، يقول: الأمر كلُّه بيده، لا يقع شيء إلا بإذنه وقدره الكوني، إذا ما أراد الله شيئًا يقع، فتتعامل مع الله عَزَّ وَجَلَّ، وتعتقد أن أعمال النَّاس إنَّمَا هي صورٌ لإرادة

الله ﷻ، وأنَّ الله ﷻ يريدُ من خلالِ النَّاس؛ لأن الله يجعل الأحداث بأسبابٍ ماديةٍ، فإذا أراد الله أن يمنع سبباً منع، وإذا أراد أن يقع وقعَ، هذا الذي يجعل القَلْبَ مطمئناً مرتاحاً، لا يتوزعُ علىٰ آلهةٍ شتىٰ، ولا علىٰ أَشخَاصٍ كثيرين، بل يجمعُ قلبه علىٰ الله ﷻ، ويعتقد أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (وأن تحمدهم على رزق الله) أي تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق، بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحَقِيقَة، وهو الله رَبِّ العَالَمِينَ الذي قدر هذا الرزق لك وأوصله إليك بلطفه ورحمته، فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم، فإذا أراد أمراً قيض له أسباباً، ولا ينافي ذلك حَدِيث: (من لا يشكر النَّاس لا يشكر الله)؛ لأن المراد هنا إضافة النِّعْمَة إلى السبب ونسيان الخَالِق، والمراد بشكر النَّاس عدم كُفْر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت، فإن لم تجد فجازهم بالدعاء.

الشَّرح

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ الإنْسَانَ مُطالبٌ بأن يشكر من تحققَ على يديه خيرٌ له، تشكر من أحسن إليك، هذا من خُلق الإسْلَام، ومن أساء إليك فإمَّا أن تصبر، وإمَّا أن تطالب بحقَّك منه، فشُكر النَّاس لا يتعارض مع ما قلنا؛ لأن الأصلَ هو الله الذي سخَّر وقدَّر ويسَّر وأعطى، لهذا نقول دائماً بعد الصَّلَاة: اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطي لما منعتَ، فهذا اعتقادٌ جازمٌ أنَّ العطاءَ من الله، لكنَّ الإنْسَانَ سببٌ، ونحن مأمورون بأن نشكُر من كان سبباً للخير، وهناك فرقٌ بين أن تعتقد أن الخيرَ أو الرزقَ من الشَّخص، وبين أن تشكرَه على ما فعل؛ لأنه لا شكَّ أن الإنْسَان يفعلُ، وأنه قادر على أن يفعلَ، وأن يعطيَ وأن يمنع، لكن في حدودِ مشيئةِ الله، كما قال - تَعَالَى -: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير:٢٨]. ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٩].

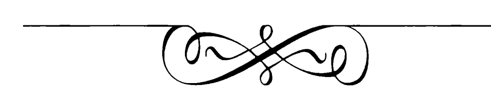
فلك مشيئةٌ في العمل، لكنها مربوطةٌ بمشيئةِ الله ﷻ، ولا ندري كيفيةَ التقاءِ المشيئتين؛ لأن العَقْلَ البشري محدودٌ، وإدراكُه محدودٌ، فإذا كان الإنسَانُ لا يُصدِّقُ إلا بكل ما يَعرف فكم في الدُّنْيَا من أسرار، وكم فيها من قضايا غيبية لا يحيطُ بها العَقْل، فالإنسان أُعطي قوةً مادية، وقوةً معنوية، وكلُّها محدودةٌ، كما أن قوةَ البصر محدودةً، دائماً نقول: أن الإنْسَان أعطاه الله قوةً بصريةً محدودةً، فلو زادت هذه القوة ربما يتأذىٰ، وأعطاه قوة سمعية محدودة، لو زادت فإنه يتأذىٰ، كيف يتأذىٰ، الآن فوق رءوسنا الصور كَثِيْرَة، تأتي بالجهاز وتفتح الجهازَ الذي هو الرائي أو التلفزيون، وإذا به فيه صورٌ، جاءت هذه الصور من الفضاء، تسمع أصواتاً في التلفزيون، وفي الراديو، وفي التليفون، فلو كان الإنْسَان أُعطي سمعاً زائداً فأصبح يسمع كلَّ الأصوات ما يستطيع أن يعيش، وعندما مرَّ نبينا ﷺ عند قبرين فكادت الدابة أن تُسقطه من ظهرها، فقال لأصحابه: هل تسمعون ما أسمع؟ الله أعطاه قوةً زائدةً في سمعه في هذا الموقف، قالوا: لا يا رَسُول الله، قال: (**إنهما ليعذبان**) وفي رواية (**ويصيحان**) (**وما يعذبان في كبير، إمَّا أحدهما فكان لا يستبرأ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**)[1] فسمع أصواتهما وهما يعذبان، وهما يصيحان، فلو كان الإنْسَان يسمع الأصوات كلها ما يستطيع أن يعيش.

كذلك العَقْل، لو أعطاك الله قدرة عقليةً زائدةً ما تستطيع أن تعيش؛ لأنك سترىٰ من عظمةِ الخَالِق، وحكمةِ الخلقِ ما يُبهر عقلَك، ربما تذهل عما خُلقت من أجله، لكن من رحمة الله أن أعطاك عقلاً محدوداً، لكنه يكفيك إذا

---

(١) سبق تخريجه.

ضبطتَه بضابطِ الشَّرع، وإن لم تضبطه بضابط الشرع فإنه يُضلك؛ لأنَّه يحكمُ علىٰ الأشياء من خلال عجزِه ونقصِه، فتظن أنَّ هذا الحكمَ صَحِيح ويترتب عليه هلاكُك، فالعقل قدرتُه محدودةٌ، كما أن القوىٰ الأخرىٰ محدودةٌ، فينبغي أن نتعامل مع عقولنا علىٰ هذا المنوال، لا نظن أن العَقْلَ يستطيع أن يُدرك كلَّ شيء، فنُقحِمه في غير ميدانِه، بل ينبغي أن لا نُحمِّله إلا ما يحتملُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

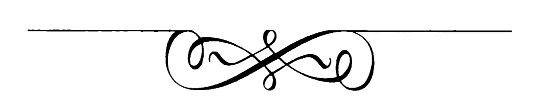
قوله: (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) أي إذا طلبتهم شيئًا فمنعوك ذممتهم على ذلك، فلو عِلْمت يقينًا أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأن المخلوق مدبر لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا، فضلاً عن غيره، وأن الله لو قدر لك رزقًا أتاك، ولو اجتهد الخلق كلهم في دفعه، وإن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم في إيصاله إليك، لقطعت العلائق عن الخلائق، وتوجهت بقلبك إلى الخَالِق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قرر ذلك بقوله: (إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره)، فلا ترض الخلق بما يسخط الله، ولا تحمدهم على رزق الله، ولا تذمهم على ما لم يؤتك الله؛ طلبًا لحصول رزق من جهتهم، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

قال شيخ الإسْلَام: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنًا لا بوعد الله ولا برزق الله، فإنه إنَّمَا يحمل الإنْسَان على ذلك إمَّا ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النَّصر والتأييد والثواب في الدُّنْيَا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، وإرضاؤهم بما يسخطه إنَّمَا يكون خوفًا منهم ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنه م يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما يقدر كان ذلك من ضعف يقينك،فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم.



الشَّرْح

هذا كلام شيخ الإسْلَام ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو يؤكد المَعْنَىٰ السابق أَنَّ الإنْسَان لا ينبغي أن يَذُمَّ النَّاس إذا لم يحصل له خيرٌ من قبلِهم، ولا يحمدُهم إذا حصل له خير من قبلِهم؛ لأَنَّ الخير من الله، وعدم حصول الخير بقدرِ الله، لكن كما قلنا هذا لا يمنع أن يشكرَ الإنْسَانُ من حصل الخيَر علىٰ يديه؛ لأَنَّ هذا مأمورٌ به شرعًا، فتحمدُ من حصل الخير علىٰ يديه؛ لأنه قد جاء الأمر في الشرعِ بأن تشكرَ النَّاسَ علىٰ ما أسدوه إليك من خير، فهذا لا يمنعُ ولا يُنقِصُ من توحيدِ الإنْسَانِ.

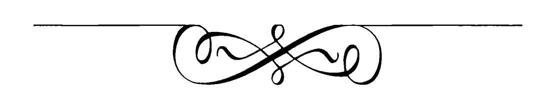


قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما قال بعض وفد بني تميم: أي مُحَمَّد أعطني فإن حمدي زين وذمي شين قال ﷺ: (ذاك الله) وفي الحَدِيث: (إن الإِيمَان يزيد وينقص، وإن الأعمال داخلة في الإِيمَان) وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه، وأضدادها من قوته.

الشَّرْح

وَفدُ بني تميم، وهو الأقرع بن حابس عندما جاء وقال: (أعطني يا مُحَمَّد فإن حمدي زين، وذمي شين، قال: ذلك الله)(١) عَزَّ وَجَلَّ الذي حَمدُه زين، وذمُّه شَينٌ، أي: من مدحَه الله يُحمَدُ عند النَّاس، ومن ذمَّه الله يَشينُ عند النَّاس، وهذا ليس لأحدٍ من البشر، وأمَّا الحَدِيث الذي ذَكر أنَّ الإِيمَان يزيدُ وينقصُ، فليس هناك حَدِيث بهذا اللفظ، لا يصحُّ حَدِيثٌ مرفوع إلىٰ رَسُول الله ﷺ أنه قال: (الإيمان يزيد وينقص) هذه قضية حادثةٌ في عصر التَّابِعِينَ، ولا يعرفُ أن أحداً من الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تكلَّم فيها أصلاً، ولم يأت فيها حَدِيثٌ صَحِيحٌ، لكن عموم النَّصوص الشَّرْعِيَّة تدُلُّ علىٰ هذا، القُرْآنُ يَدلُّ عليه، والأحاديث تدلُّ عليه بالمَعْنَىٰ لا بهذا اللفظ الذي ذكره هنا في الحَدِيث.



---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القُرْآن ، باب ومن سورة الحجرات، برقم: (٣٢٦٧)، والنسائي في الكبرىٰ، كتاب التفسير، باب سورة الحجرات، برقم: (١١٤٥١)، (١٠/ ٢٦٧)، والإمام أحمد في المُسنَد، برقم: (١٥٩٩١)، (٢٥/ ٣٦٩)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٧٨)، (١/ ٣٠٠)، والمقدسي في الأحَادِيثُ المختارة، برقم: (١٥٠٠)، (٢/ ٢٢١).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رَسُول الله ﷺ قال: (مَنْ التَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاس رَضِيَ اللهُ عنه وأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاس، ومَن التَمسَ رِضَا النَّاس بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عليه وأَسْخَطَ عليه النَّاس) رواه ابن حُبّان في صَحِيحه.

ش: هذا الحَدِيث رواه ابن حُبّان بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة، قال: كتب معاوية إلىٰ عائشة أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري علي، فكتبت عائشة إلىٰ معاوية: سلام عليك أمَّا بعد، فإني سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: (من التمس رضىٰ الله بسخط النَّاس كفاه الله مؤنة النَّاس، ومن التمس رضىٰ النَّاس بسخط الله وكله الله إلىٰ النَّاس، والسلام عليك) رواه أبو نعيم وغيره.



الشَّرح

هذا الحَدِيث موقوف علىٰ عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في بعض ألفاظه، وفي بعضها أنه مرفوعٌ، وقال المحققُ هنا -حديث صَحِيح-، وكلمة "صَحِيحٌ" فيها تَجَوُّزٌ؛ لأن الحَدِيث إن قُبل فإنه لا يرقىٰ إلىٰ أكثر من أن يكون حَسَناً؛ لأن إسنادَه فيه مُدلِّسٌ وقد عنعَن، والمُدلِّسُ هو الذي يحذفُ بعضَ الرُّوَاة، أو يذكره بصفةٍ أو اسم غير معروفٍ؛ لأنه يعتقد أنَّ هذا الرَّوايَ ضَعِيفٌ، وأنَّ ذِكرَه يُضعِّفُ الحَدِيثَ، والمُحدِّثُ يرىٰ أنَّ الحَدِيثَ صَحِيحٌ، فهو يلجأ إلىٰ هذا، وهذا يُسمىٰ تدليساً، وليس كذباً؛ لأنَّ المُحدث لا يقول: حدثنا، وإنما يقول عن، وكلمة "عن" تعني أنَّ هذا الكلامَ عن فلان، لكنه لم يذكرُ أنه سمعَه منه، فالمُدلِّس يُسقطُ راوياً من السَّنَد حتىٰ يُقبلَ الحَدِيثُ، والتدليسُ علىٰ أنواع، وهذا من بعض صوره.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (من التمس) أي طلب. قال شيخ الإسْلَام: وكتبت عائشة إلىٰ معاوية وروي أنه ا رفعته: (من أرضىٰ الله بسخط النَّاس كفاه الله مؤنة النَّاس، ومن أرضىٰ النَّاس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا) هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: (من أرضىٰ الله بسخط النَّاس رَضِيَ اللهُ عنه وأرضىٰ عنه النَّاس، ومن أرضىٰ النَّاس بسخط الله عاد حامده من النَّاس له ذاماً) هذا اللفظ المأثور عنها. وهذا من أعظم الفقه في الدِّين، والمأثور أحق وأصدق، فإن من أرضىٰ الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصَّالِح، والله يتولىٰ الصَّالِحينَ، وهو كاف عبده، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، والله يكفيه مؤنة النَّاس بلا ريب، وأما كون النَّاس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك، لكن يرضون إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة، ومن أرضىٰ النَّاس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا، كالظالم الذي يعض علىٰ يديه، وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كُفْراً ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوىٰ، لا تحصل ابتداء عند أهوائهم.

قلت: وإنما يحمل الإنْسَان علىٰ إرضاء الخلق بسخط الخَالِق هو الخَوف منهم، فلو كان خوفه خالصًا لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم علىٰ نفع ولا ضر البتة، وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم علىٰ رضاء رَبِّ العَالَمِينَ، الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وقد أخبر تَعَالَىٰ أن ذلك من صفات المنافقين في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣]. وما أحسن ما قيل:

إذا صح منك الود يا غاية المنىٰ   فكل الذي فوق التراب تراب

الشَّرح

ابن تَيْميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ استطرد في ذكر هذه المسألة، وهو يذكر أنّ ضعفَ اليقينِ يؤدي إلىٰ الخَوف من النَّاس، وإلا فإنَّه لو خاف من الله وحدَه، وعلمَ أنَّ الأمرَ كلَّه بيد الله عَزَّ وَجَلَّ لما أرضىٰ النَّاس بسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ كلَّ من وقع في خوفٍ من النَّاس أنَّ إيمَانَه أو توحيدَه معدومٌ، وإنَّما يكون ناقصًا بحسب خوفِه من النَّاس؛ لأن الخَوف أمرٌ جِبِلِّيٌ يقعُ فيه الإنْسَان بحسب قوة إيمَانه وضعفِه، لكن كلما زاد إيمَانُه نقُصَ خوفُه من النَّاس، حتىٰ يتلاشىٰ الخَوفُ من النَّاس.

والخوفُ كما قلنا علىٰ أنواع، والذي لا ينبغي أن يكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يدفعُك إلىٰ طاعته ويمنعُك من معصيته، فكل خوفٌ منعَك من طاعةِ الله وأوقَعك في معصيتِه فإنَّه خوفٌ يُضاد الخَوفَ الشَّرعي، أمَّا أنَّ الإنْسَانَ يخاف من الظالم، ويخاف من الدوابِّ والوحوش فهذا خوفٌ طبيعي، كما قال - تَعَالَى - عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]، وهذا الخَوف لم يُنقصُ من إيمَانه؛ لأنه خوفٌ طبيعي، فالخوفُ الذي يقعُ في القَلْبِ ولا يؤثرُ علىٰ الدِّين أو الطَّاعَةِ فهذا لا يكادُ يسلمُ منه أحدٌ، وقلنا أنَّ من كمالِ الإنْسَانِ أن يكون في قلبِه خوفٌ ولو نسبيٌ، وأنه في البلدان الخارجية إذا أرادوا أن يَختبروا من يُلحقونه بالجيوش العسكرية من القادةِ يُجرِّبون خوفه، فإن كان عنده خوفٌ بسيطٌ قبلوه، وإن كان عنده خوف زائدٌ لم يضعوه في القيادةِ، وإن لم يكن عنده خوفٌ ما وضعوه في القيادة؛ لأنَّ عدم الخَوف يؤدي إلىٰ التهورِ والوقوعِ في الخطأ، فمن كمالِ الإنْسَان أن يكون في قلبِه نسبةٌ من الخَوفِ، لكن يكون خوفًا طبيعيًا، لا خوفًا شِركيًا، مثلَ الخَوفِ الذي يمنعُ الإنْسَانَ من طاعةِ الله.



قال المؤلف رحمه الله:

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب، أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب، أن هذا لشيء عجاب.

وفي الحَدِيث عقوبة من خاف النَّاس وآثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون في الدِّين عياذاً بالله من ذلك، فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان، وفيه شدة الخَوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدِّين، فإن كثيراً من النَّاس يفعل المَعَاصِي ويستهين ولا يرى أثراً لعقوبتها، ولا يدري المسكين بماذا أصيب؟ فقد تكون عقوبته في قلبه، كما قال - تَعَالَى -: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة:٧٧].

اللهم أنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.



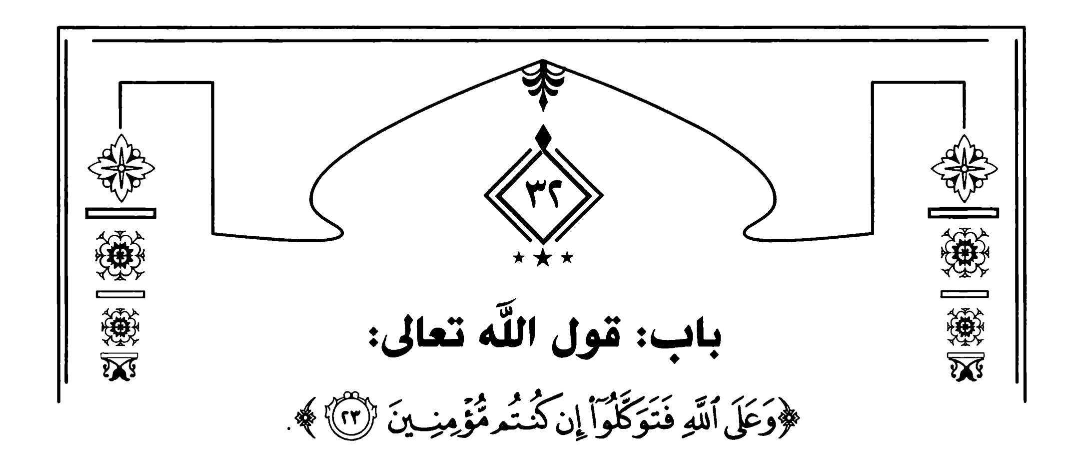
الشَّرح

ابنُ رجب رحمه الله له أيضـاً كلامٌ جميلٌ في أكثرَ من كتابٍ، وقد شرَحَ الأربعينَ النووية، في كتابه: (جامعُ العلومِ والحكم)، وله رسائلُ صغيرةٌ في شرح بعض الأحَادِيثِ، وله كتابُ: (فتح الباري في شرح صَحِيح البُخَارِي)، ولم يُكمَّل وقد طُبع ، فيقول رحمه الله: إنَّ الإنْسَان ينبغي أن يتعامل مع الإنْسَانِ على أنَّه ترابٌ؛ لأنَّ الإنْسَان مخلوقٌ من تراب، لكنه رحمه الله قال: "ربُّ الأرباب"، ولا ينبغي أن نقول ذلك؛ لأننا لا نعترف بأن هناك أرباباً أصلاً، حتى يكون الله

ربُّهـا، كلُّهـا مـن خلقـه ومـن عبيـدِه، أمَّـا في اللُّغَـة فنقـول: هـذا ربُّ الدابـة، ربُّ المنزل، رَبُّ الأسرةِ من باب بيانِ أنَّ هـذا صـاحبُها، لا أنَّهـم أربـابٌ، فـالربُّ لا يُطلقُ إلا على الله ﷻ، بل هذه كلُّها أصنامٌ أو أوثان تُعبدُ من دون الله. وكذلك إطلاقُ: إلهُ الآلهةِ على الله - ﷻ -غير جائزٍ.

هنا يقول ؒ: (إن كثيراً من النَّاس يفعل المَعَاصِي ويستهين ولا يرى أثـراً لعقوبتهـا، ولا يـدري المسـكين بمـاذا أصـيب)، أي: عـدمُ إحساسِـه بمعصـيته وبعظمِها يجعلُه يستهينُ بالمعصية، ربما أنه عُوقِـب بعقـابٍ عاجـلٍ وهـو نِفـاقٌ في قلبِه ـ نعوذ بالله ـ يوردُه مَوردَ الهلاكِ، فلا يَظنُّ الإنْسَانُ أنَّـه إذا فَعـل معصـيةً ولم يرَ العقابَ أنَّـه نـاجٍ مـن العقـابِ، قـد يكـونُ هنـاكَ عقـابٌ عاجـلٌ ولكنـه لا يدري ولا يشعرُ به؛ لأنَّ قلبَه ميتٌ ولا يحسُّ به، ولهذا عندما قال بعض النَّاس: كم يا رب أعصيك ولم تعاقبني، سمع نداءً يقول: ألم أحرِمك لذةَ مُناجَاتِي.





باب: قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

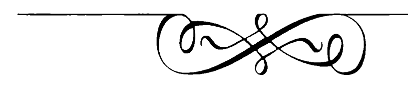
قال أبو السعادات: يُقال توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلىٰ فلان أي: ألجأته واعتمدت عليه فيه، وَكلَ فلان فلانـًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه انتهىٰ.



الشَّارِحُ - ينقل عن أبي السعادات ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرح معنىٰ التَّوَكُّل، فَالتَّوَكُّل في اللَّغَة: هو الاعتِمَادُ والثِّقَة، بأن تعتمدَ علىٰ من تثقُ فيه، فإذا اعتَمدتَّ علَىٰ إنسانٍ وأنت لا تثقُ فيه لا يكون ذلك تَوَكُّلاً، وإذا وثقتَ فيه ولم تَعتمَد عليه لا يكون تَوَكُّلاً، فَالتَّوَكُّلُ: هو الاعتِمَادُ والثِّقَةُ، وهذا لا يجوزُ صرفُه إلا لله عَزَّ وَجَلَّ ، الاعتِمَادُ اعتماد القَلْب، أي أَنَّ تعتقد أو يقع في قلبك أَنَّ قضاء حاجتك ستتم عن طريق فلان، ولا يمكن أَنَّ أحداً من البَشَر يجزم بأنه يستطيع أَنَّ يقضي حاجتك.



فليس هناك من تعتمد عليه وتجزم بأنه يقضي حاجتك إلا الله ﷻ ؛ فإن الله ﷻ يُجيبُ من دعاه، لكنَّ الله يعطيك ما هو في مصلحتِك، فأحيانًا الشَّخْص قد يَكِل إلىٰ اللهِ أمراً ليتحقق، و يعلمُ اللهُ أَنَّ مصلحتَك عدمُ تَحققِه، فإذا وَكَلت أمركَ إلىٰ الله تقول: اللهم أَنَّ كان خيراً فَيسِّره، وَأَنَّ كان شراً فاصرِفه، فقد وكلتَ أمرك إلىٰ الله، فأنت تثقُ في الله، وتعتمدُ عليه ﷻ ، هذا هو معنىٰ التَّوَكُّل في الَّلغَةِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومراد المصنف بهذه الترجمة النَّص على أَنَّ التَّوَكُّل فريضة يجب إخلاصه لله تعالىٰ؛ لأَنَّ ه من أفضل العبادات، وأعلىٰ مقامات التَّوْحِيد، بل لا يقوم به علىٰ وجه الكمال إلا خواص المُؤمِنينَ، كما تقدم في صفة السبعين ألفًا الذين يدخلون الجَنَّة بلا حساب ولا عذاب؛ ولذلك أمر الله به في غير آية من القُرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جَعَلَ ه شرطًا في الإِيمَان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإِيمَان والإسلام عند انتفائه، كما في الآية المترجم لها، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس:٨٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩]، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء:٢]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وغير ذلك من الآيات.

الشَّرْح

هذه جملةُ آيات أوردها الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبين أَنَّ التَّوَكُّلَ عبادةٌ فريضةٌ، فلا يجوز صرفها لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ الله قد جَعَلَ من شرط الإِيمَان أَن تتوكلَ عليه، كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة:٢٣] أي: إن كنتم مؤمنين فتوَكَّلُوا علىٰ الله وحده، لا ت توَكَّلُوا علىٰ غيره، والتَّوَكُّل من أعمال القَلْب، مثل الحب والرَّجَاءِ والخشية والخوف، وأعمال القَلْب لا

يجوز فيها أَنَّ تُشرك مع الله أحداً.

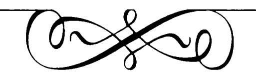
ثم ذكر آيات كثيرة تأمر بالتوكلِ، وتصف حالَ الأنبِيَاء أَنَّهُم تَوَكَّلُوا علىٰ الله ﷻ، فَالتَّوَكُّل لا يجوز أَن يُصرف لغير الله، وصرفُه لغير الله شِرْكٌ، إِمَّا أكبرُ وإِمَّا أصغرُ، إن توكَّلتَ علىٰ غير الله فيما لا يستطيعُه إلا الله فهو شِرْكٌ أكبر، وَإِن توكلتَ علىٰ غير الله فيما يستطيعُه البَشَر فهذا شِرْكٌ أصغر، القَلْبُ لا ينبغي أَن يسكنَ فيه، ولا ينبغي أَن يُعظِّم، ولا ينبغي أَنَّ يتوكَّل إلا علىٰ الله ﷻ؛ لَأنَّ أشرفَ الأعمالِ أعمالُ القُلُوبِ.

فينبغي أَن نحافظ علىٰ هذه المعاني، ونربي في أنفسنا علىٰ أَنَّ الحاجاتِ لا يقضيها إلا اللهُ ﷻ، وأمَّا المَخْلُوق فإنه ضَعِيفٌ فقيرٌ مُحتاجٌ إلىٰ من يقضي حاجَته، قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] فالحيُّ الذي يموت لا تتوكَّلْ عليه، والميَّتُ لا تتوكلْ عليه، والجماداتُ لا تتوكَّلْ عليها، هذه من الصِّفَات التي ترفعُ مكانةَ الإنْسَان، ولهذا إذا كمُل التَّوَكُّل في قلبِ إنسانٍ يدخلُ الجَنَّةَ بدون حسابٍ ولا عذابٍ، لا يُحاسب يَومَ القِيَامَةِ لشرفِ التَّوَكُّلِ والاعتمادِ علىٰ الله؛ لَأَنَّ ه وَكَل أَمرَه إلىٰ الله، وتركَ حتىٰ الأَسْبَاب المُباحةَ من أجل المحافظةِ علىٰ تعظيمِ الله، ولهذا بعض المُفسِّرين يقول في قصةِ يعقوبَ مع يوسفَ، وإبراهيمَ مع إسماعيلَ -عليهم وعلىٰ نبينا الصَّلَاة والسَّلَام -، يقول: عندما كادَ أَن يميلَ قلبُ يعقوبَ إلىٰ المَخْلُوق أراد اللهُ أَن يُصفِّيَ قلبَه له، فهيأ أسبابَ ذهابِه ليصفو قلبُ يعقوبَ، وعندما كادُ قلبُ إبراهيمَ أَن يميل إلىٰ مَحبَّة إسماعيلَ أمرَه بذبحِه؛ لينظرَ هل يقدِّم تعظيمَ الله أم تعظيمَ ابنه ، هؤلاء هم الصَّالِحونَ من عبادِه الأنبِيَاء.

فتصفيةُ القَلْبِ لتعظيم الله ﷻ ومحبتُه والتَّوَكُّل عليه من أعظم أنواع العبادات، فلهذا المُتَوَكِّلُونَ أكثرُ النَّاس راحةً نفسيةً؛ لَأنَّه قد علَّق قلبَه بواحدٍ،

ولكن إذا تشتت القَلْبُ في فُلان، وفلانٍ، وفلان، وفوجئت أَنَّ فلانـًا الغنيَ أصبحَ فقيراً، وَأَنَّ فلانـًا الذي عنده سلطةٌ أصبح بدون سلطةٍ، وَأَنَّ فلانـًا المُتعافي أصبحَ مريضـًا، فقلبُك يبقىٰ مُضطربـًا، لكن إن علَّق قلبَه بالله، ووكلَ أمر إليه، لا يَهزُّه أمرٌ، ولا يتأثرُ بحدثٍ؛ لَأنَّ ه يعلمُ أَنَّ كلذَ ما يحدثُ هو خيرٌ له؛ لَأنَّ الحوادثَ لا تحدثُ إلا بإرادة الله وإذنِه، فإذا وكل أمرَه إليه، وهو قد أمرَه أَنَّ يتوكلَ عليه فإنه سيتولاه كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، فهو كافِيه جَلَّ وَعَلَا .

فالتوكُّلُ من أعظـم أنـواعِ العبـادات، ولا يـأتي التَّوَكُّـلُ بسهولة، بـل يحتـاج إلىٰ عِلمٍ شَـرْعِي، ويحتـاج إلـىٰ أَن تعـرف المَخْلُـوَق، وأنـه فقيـرٌ مربـوبٌ، وأنَّـه مُحتاجٌ، أمَّا الله فإنه غني قادرٌ وحكيمٌ في أعمالِه وأفعالِه جَلَّ وَعَلَا ، فتكلَ أمرَكَ إلـىٰ مالِك الكونِ الذي لا يعجزُه شيء، فعندئذٍ يرتـاحُ القَلْـبُ، ولهـذا سيأتي أَنَّ هـذا كان موقفـًا لنبينا -عليه الصَّلَاة والسَّـلَام-، وموقفـًا لإبـراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هـو النمـوذج الكامـلُ الـذي قـد عـاش علـىٰ كمـال التَّوَكُّـلِ، كـم مـرَّت بـه مـن أحداث، وكم مرَّ بـه مـن زلازلَ ، وكـم مرَّ بـه مـن حـروبٍ، وتجدُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائمـًا ثابتـًا رابطَ الجأش، وَإن كـان يقلقُـه حرصُـه علىٰ إقامـةِ هـذا الـدِّين أحيانـًا لا خوفـًا علىٰ نفسه، بل يعلم أَنَّ الحَيَاة مُقدَّرةٌ وَأَنَّ المَوْت مُقدَّرٌ، فما كـان يخـافُ من شيءٍ، بل كان هو نموذجُ الكمالِ البَشَرِي.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الحَدِيث: (من سره أَنَّ يكون أقوىٰ النَّاس إيمانًا فليتوكل علىٰ الله) رواه ابن أبي الدُّنْيَا وأبو يعلىٰ والحاكم. وفي حديث آخر: (لو أنكم توكلون علىٰ الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا) رواه أحمد وابن ماجه.

قال الإمام أحمد: التَّوَكُّل عمل القَلْب. وقال أبو إسماعيل الأنصاري: التَّوَكُّل كلة الأمر إلىٰ مالكه والتعويل علىٰ وكالته.

إذا تبين ذلك فمعنىٰ الآيَة المترجم لها أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ولا يرتدوا علىٰ أدبارهم خوفًا من الجبارين، بل يمضوا قدمًا لا يهابونهم، ولا يخشونهم، متوكلين علىٰ الله في هزيمتهم، مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين.

قال ابن القَيِّم: فجعل التَّوَكُّل علىٰ الله شرطًا في الإِيمَان، فدل علىٰ انتفاء الإِيمَان عند انتفائه، وفي الآيَة الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤]، فجعل دليل صحة الإِسْلَام التَّوَكُّل، قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢].

الشَّرح

قوله ﷺ: (من سرَّه أَن يكون أقوىٰ ...)[1] هذا الحَدِيث فيه هشام بن زياد وهو متروك،أي: حديثه ضَعِيفٌ، لكنَّ المَعْنَىٰ صحيحٌ، أَنَّ من أراد أَن يكون أقوىٰ النَّاس إيمانـًا فليتوكَّل علىٰ الله؛ لأَنَّ قوةَ التَّوَكُّل هي قوةُ الإِيمَان.

قوله: **(إذا تبين ذلك فمعنىٰ الآيَة المترجم لها أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر قومه بدخول الأرض المقدسة...)** يذكر أَنَّ هذه الآيَة هي من قولِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه عندما أمر الله مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه بعد أَن خرجوا من مِصْرَ بأن يدخلوا مدينَةً في فلسطين؛ لأَنَّهم قد عاشوا الذُّلّ؛ لأَنَّ بني إِسْرَائِيل هم أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعندما حُمل يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ مِصْرَ، وطلبَ أباه يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأُمَّه وإخوتَه جاءوا من البدو إلىٰ مِصْرَ ثُمَّ عاشوا في مِصْرَ وكانوا غرباء في داخل مِصْرَ ولم يكونوا من أهلِها، فذرية يعقوب استُضعِفوا داخلَ مِصْرَ، وقهرَهم المصريون واستخدمُوهم، حتىٰ أَنَّ أحدَهم كان يأخذُ الإسرائيلي من الشَّارع ويضع علىٰ ظهرِه حزمةَ الحطبِ، حتىٰ يذهب به إلىٰ بيتِه ثُمَّ يطلقُه، مثلَ الدوابِّ.

فبنو إِسْرَائِيل عندما خرجوا من مِصْرَ وقد عاشوا حَيَاة الذُّلّ، وأمرهم مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يدخلوا الأرضَ المُقدَّسةَ وقال: إنَّ الله معكم، وَإنَّ الله قد وعدني، أَنَّ الله قد كتبها لكم، فادخلُوها، فأبَوا، قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾

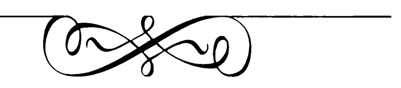
---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الزهد، برقم (٩٨٦)، (١/ ٣٦٤)، والإمام أحمد في الزهد، (١/ ٢٩٥)، وأخرجه بلفظ: "مَن أحب أَنَّ يكون أقوىٰ" الحاكم في المستدرك، كتاب الأدب، برقم: (٧٧٨٨)، (٤/ ٤٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٨)، والقضاعي في مسند الشهاب، برقم: (٣٦٧)، (١/ ٢٣٤)، والحديث ضَعِيفٌ كما قاله الشيخ، ضعفه البيهقي في الزهد، والزيلعي في نَصْب الراية (٣/ ٥٧).

[المائدة:٢٢] بل قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة:٢٤] فكتبَ الله عليهم التِّيهَ أربعين سنةً، حتىٰ يخرج منهم جيلٌ لا يعرِفون الذُّلَّ، هذا الجيلُ الذي تربَّي بعيداً عن الذُّلِّ في داخل مِصْرَ هم الذين فتحُوا المدينةَ. فمُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حاول معهم، وذكَّرهم بإيمانِهم ووعدهم بالنِّصر، ولكنهم أبَوا؛ لَأنَّ هم تربُوا علىٰ الذُّلّ.

وهكذا أيُّ مُجْتَمَع يتربَّىٰ علىٰ الذُّلِّ لا يكون أهلاً للجهادِ في سبيلِ الله؛ لَأنَّ الذُّلَّ يتعارضُ مع التضحيةِ، التضحيةُ من صفات الشجاعةِ والإيمان، والذين يتربُّون علىٰ الذُّلِّ ومسخِ الكرامةِ الإنْسَانية والاستضعافِ ليسوا أهلاً للجهادِ في سبيل الله، فاليوم لو نادىٰ منادي الجهادِ كم منَّا يذهبُ للجهادِ؟!؛ القليل لَأنَّ نا تعودنا علىٰ الراحةِ وسلامةِ الأبدان.

فموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حاول معهم، وذكَر أَنَّ التَّوكُّلَ من الإِيمَان، وَأَنَّ علامةَ الإِيمَان أَن يتَوَكَّلُوا علىٰ الله، ولكنهم لم يستجيبوا، فكتبَ اللهُ عليهمُ التِّيهَ، فتاهوا في صحراءِ سيناءَ، أنزل الله عليهم مثلَ السَّحاب، وجعلهم لا يستطيعون الخروج من هذا المكان، يبحثُون عن مخرج فلا يجدون، أربعين سَنةٍ بقوا في هذا المكان، هذه تسمىٰ أرض التِّيهِ أي الضياعُ، وبعد أربعين سنةٍ ظهر جيلٌ جديدٌ، وهذا الجيلُ الجديدُ هم الذين فتحوا المدينةَ التي أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بفتحها.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فذكر اسم الإِيمَان ههنا دون سائر أسمائهم دليل علىٰ استدعاء الإِيمَان للتوكل، وَأَنَّ قوة التَّوَكُّل وضعفه بحسب قوة الإِيمَان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوىٰ، وإذا ضعف الإِيمَان ضعف التَّوَكُّل، وإذا كان التَّوَكُّل ضَعِيفًا فهو دليل علىٰ ضعف الإِيمَان ولابد، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يجمع بين التَّوَكُّل والعبادة، وبين التَّوَكُّل والإيمان، وبين التَّوَكُّل والتقوىٰ، وبين التَّوَكُّل والإسلام، وبين التَّوَكُّل والهداية، فظهر أَنَّ التَّوَكُّل أصل لجميع مقامات الإِيمَان والإحسان ولجميع أعمال الإِسْلَام، وَأَنَّ منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا علىٰ البدن، فكذلك لا يقوم الإِيمَان ومقوماته إلا علىٰ ساق التَّوَكُّل.

الشَّرْح

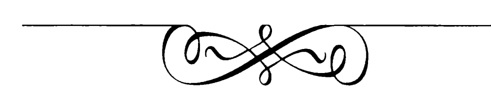
هذا من كلام ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتحدث عن التَّوَكُّل، فيقول: التَّوَكُّل مقامُه من العباداتِ مقامُ الرأسِ من الجسد، فالذي لا رأسَ له لا جسدَ له. فَالتَّوَكُّلُ أمرُه عظيمٌ، ولكن هذا التَّوَكُّل لا يأتي إلا بالمجاهدةِ، وإقناعِ نفسك بأَنَّ هذا الكونَ بيدِ الله، والله مالكُ الوجودِ، والأمورُ كلُّها بيده، ولا يقعُ شيءٌ إلا بإذنه، وربُنا يحب أَن نتوكل عليه، وقد وعدنا بأنه يكفينا، ودائمًا نقول: حسبُنا الله ونعمَ الوكيل، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فهذه المعاني تكرارُها علىٰ النَّفْسُ والتعودُ علىٰ تنفيذها يُرسِّخُ في القَلْبِ معنىٰ التَّوَكُّلِ.

بعضُ النَّاس يتوكَّلُ علىٰ اللهِ فيقدِمَ علىٰ أمرٍ، وإذا بدا في الظاهر أَنَّهُ قد خسرَ يتراجع!، لا يجوز لك هذا، لكن لا تُقدِمْ علىٰ أمرٍ إلا بعد أَن تتخذَ الأَسْبَاب، فالذي أمركَ بالتَّوَكُّلِ أمرَكَ باتخاذ الأَسْبَاب، لا تكن مثل إنسان

يقـول: أنـا مُتوكِّـلٌ علـىٰ الله فيخـرج في سـفرٍ بـدون طعـامٍ، وفي الطريـق يمـوتُ جوعـًا، لكنك تتخذ الأسْبَاب وتَكِلُ أمرَك إلىٰ الله، إذا أراد شـخصٌ أَنَّ يـأتي لـه أولادٌ يتزوج، هذا من أسباب مجيءِ الولدِ، وإذا أراد المـالَ يبحـثُ عـن المـالِ، ولكن في قلبِه أَنَّ المالَ بيـد الخـالِق إذا أراد أَن يُعطـيَ أعطَـىٰ، وإذا أراد أَن يمنـعَ منـعَ، وهـو يسـألُ الله أَنَّ ييسـرَ لـه مـا فيـه الخيـر لـه في دينِـه ودنيـاه، فقـد يكـون الشَّخْصُ فقيراً وهو ممن يُعمِّرُ المَسَاجِدَ فإذا جاء المالُ تغير، فمن رحمةِ الله بـه أَن لا يعطيـه المـالَ، وكـذلك مـن رحمـةِ الله بـه أَن لا يعطيـه الجـاهَ أحيانـًا، والإنسان قد يعطيه الله المـالُ عقابـًا لـه، فإذا أعطـاه الله المـالَ فسـدَ، وإذا فسـدَ استحقَّ النَّار، وعاقبه الله بالنَّار، فـلا تظـنَّ أَنَّ العطـاء لغيـر حكمـةٍ، والمنـعَ لغيـر حكمةٍ، بـل عطـاءُ الله لحكمـةٍ، ومنعُـه لحكمـةٍ، ولابـد أَن يكـون هـذا في ذهنِـك واضحـًا، قد يُعطي الله الكافرَ لا لَأنَّه يحبُّه، ولكن ليتضاعفَ عليـه العـذابُ يَـومَ القِيامَـةِ، قـد يُصـحِّحُ الله جسـمَ الفاسـقِ لا لمحبتِـه لـه، ولكـن ليعاقبَـه الله يَـومَ القِيامَةِ، وقد يمنعُك الله المالَ أو الصحةَ أو الجاهَ رحمةً بك؛ لَأنَّـه يعلـمُ أنَّـهُ لـو أعطاك هذه الأشياءَ ستقع فيما يُغضِبُه، وإذا وقعت فيه عذبَّك، وهو لا يحبُّ أَن يُعذِّبُك، فهو قد منعَك رحمةً بك.

فمن توكَّلَ علىٰ الله كفاه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه ﷻ، هذه المعاني متعلقةٌ بخالِق الكون، لا بإنسانٍ مخلوقٍ أو بملكٍ بشريٍ، أو رئيسٍ بشريٍ، بل بمالكِ الوجودِ، والله قريبٌ منك مُطَّلعٌ علىٰ كلِّ ما في قلبك، وَإن كان هو ﷻ علىٰ عرشِه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦]، نَرىٰ الآنَ في الصناعةِ الحَدِيثةِ، عندما يُطلقون القمر الصناعي أو سفينةً فضائيةً، وتكون الأجهزةُ في السفينةِ الفضائية يمكن لها الاتصال مع الأرض، فهم يرون الذي في السفينة كأنهم معهم، وكأنهم قريبون يتكلمون معهم،

ويحادثونهم، ويوجهونهم، وهم بشر، ولله المثل الأعلى، هذا الإنْسَان استطاع أَنَّ يلغي المسافات، والمسافات في حق الله ﷻ مُلغَاةٌ، لا تظن أَنَّ الله بعيدٌ أبداً، بل اللهُ قريبٌ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦] نعم هذه المسافات في حقنا بعيدة، ولكن ليس في حقِّ اللهِ بعدٌ وقربٌ، كلُّها قريبةٌ منه ﷻ ، ونَرى القُرآن الكَرِيم يتكلَّم عن الدُّنْيَا والآخرةُ وعن الغيبِ والشهادةِ في سياق آيات واحدةٍ؛ لَأنَّ الله ﷻ ليس عنده مثل ما عند الإنْسَان من بعدٍ أو قربٍ زمني أو مكاني، فالله - سبحانه - قريب من جميع الأشياء، فيرى ما في قلبك، ويرى حاجتك، ويسمعُ دعاءك، فتكلُ أمرَك إليه، والله سيكفيك ﷻ .



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قلتُ: وفي الآيَة دليلٌ علىٰ أَنَّ التَّوَكُّلَ علىٰ الله عبادة وعلىٰ أَنَّـهُ فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شِرْكٌ.

قال شيخ الإِسْلَام: وما جاء أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

قلت: لكن التَّوَكُّل علىٰ غير الله قسمان: أحدهما: التَّوَكُّل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون علىٰ الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النَّصر والحفظ والرزق والشفاعة، فهذا شِرْكٌ أكبر، فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الشَّرح

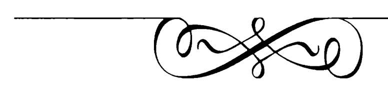
هذا القسمُ الأولُ، ومن العجيب أَن يُوجَدَ في المُسْلِمينَ من يُجيزُ أَن تكِل حاجاتِك إلىٰ المَخْلُوق، وأَن تُنزل مطالبك بالمخلوقِ، وَأَن تستغيثَ به، وَأَن تدعوه، ويقول: هذا جائزٌ وليس شِرْكًا. ولهذا كتبُ العقائد عند المتكلمين لا نجد فيها ذكراً لتوحيدِ العِبَادَة؛ لأَنَّ مفهوم الشِّرك عندهم: اعتقادُ أَنَّ مع الله خالقًا فقط، وهذا لم يكن في عهد الجَاهِلِيَّة الأولىٰ، ليس الشِّرك في أَن نعتقد أَن مع الله خالقًا، الشركُ: أَن تصرف حقَّه لغيره، فتدعوه، وتستغيثَ به، وتتوكلَ عليه، وتُعظمَه مع الله، وتعتقد أَنَّهُ ينفعك ويضرَّك، هذا هو الشِّرك الذي كان في الجَاهِلِيَّة الأُولىٰ، ولم تكن قريشُ تعتقدُ أَنَّ هناك مع الله خالقًا.

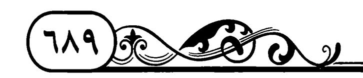
فقد يُوَجَدُ في بعض المُسْلِمينَ، بل من علماءِ المُسْلِمينَ من يجهلُ معنىٰ الشركِ، ولا يَظنُّ أَنَّ التَّوَكُّل علىٰ غيرِ الله شِرْكٌ، ولا يَظنُّ أَنَّ دعاءَ غير الله شِرْكٌ، وهذا من جهلهم بكلام الله، وإلا فالذي يقرأ القُرآن الكَرِيم والسنَّةَ النَّبويةَ بقلبٍ حاضرٍ ولم يكن قد وقعَ في قلبِهِ هوىٰ يَفهمُ منها ما أراد الله، لكن من وقع في قلبه الهوىٰ وقد قرَّر في ذهنه موقفًا، فيأتي إلىٰ القُرآن ليُخضعَ القُرآن لموقفه، ما جاء إلىٰ القُرآنِ يستشيرَه ويأخذُ منه الحكم، بل جاء إلىٰ القُرآنِ ليقودَه إلىٰ ما يريد. ولهذا يُقال: أَنَّ النَّاس في العصرِ الحاضرِ جَعَلَوا الإِسْلَام خادمًا لهم، إذا أرادوا شيئًا جاءوا إلىٰ الإِسْلَام ووجَّهوه ليخدمَ مصالحَهم، وفي الماضي كان الصَّحَابَةُ ﷺ خَدَمًا للإسلام، فرقٌ بين أَن تأتي إلىٰ الإِسْلَام لتخدمَه أو تأتي إليه ليخدمَك، كم من إنسانٍ يلجأُ إلىٰ الإِسْلَام ليحقِّقَ مصالَحه وأغراضَه، ولهذا يُقال: جَعَلَوا الإِسْلَام مثل الراديو يفتحه متىٰ يريدُ ويغلقُه متىٰ يُريد،أي أنَّك تتحكم فيه، ليس هو الذي يتحكم فيك، وشتان بين الموقفين.

يجب أَن يَحكُمنا الإِسْلَام ويوجِه أعمالَنا، ويرعَىٰ خُطانا، ويحكمُ ضمائرنا، ويحكُم أقوالَنا، هذا هو الإِسْلَام، هذا معنىٰ الدِّين ، أنت دِنْتَ أي تذلَّلتَ وأطعتَ، دخلتَ فيه طاعةً لله، أمَّا إذا جَعَلَت الدِّين يخدُمك فقد أسأت فهم الدِّين الذي أنزله الله ليحكم حَيَاة الإِنْسَان وسلوكه وأقواله وحركات قلبه، فهذا هو معنىٰ الإِسْلَام: أَنَّ تستسلم لله. أمَّا الذين يظنون أَنَّ الإِسْلَامَ دورُه أَن يخدُمَ مصالحَهم فقد أساءوا فهمَ الدِّينَ ، ولم يُسلمُوا، كما قَالَ - تَعَالَى - في الأعراب: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] نعم أنتم في الظاهر مُسْلِمُون، لكن القَلْبَ ما سكن فيه الإِيمَان كما ينبغي، فأكثرُ النَّاس علىٰ هذا الحال، ولهذا يقول ابنُ تَيْميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من رحمةِ الله بعوامِّ النَّاس أو بغالبِ النَّاس أَن لا يفتنَهم؛ لأَنَّ إيمانَهم ليس

عن يقين، إنما عن تقليدٍ، وإلا فلو عرضَ لهم شبهاتٌ أو شَهَوَات ما يثبتون)

هذا كما يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (غالبُ فتنةُ القبرِ علىٰ هؤلاء: من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي كان فيكم؟ لا يدرِي، كنت أقول كما يقولُ النَّاس)، هذا لا يجيبُ يَومَ القِيَامَةِ، لابد أَن تعرفَ الإِيمَان وتعلمُه يقينـًا، وتقبلُه عن قناعةٍ ويقينٍ، أمَّا التقليدُ فلا ينفعُ في دينِ الله. فَالتَّوَكُّلُ علىٰ اللهِ من الإِيمَان، والذين يظنون أَنَّ التَّوَكُّل أو الاستغاثةَ بغير اللهِ أو دُعاءِ غيرِ الله ليس شِرْكًـا هؤلاء في الحقيقةِ جهلةٌ بهذا الدِّينِ .





قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الثاني: التَّوَكُّل في الأَسْبَاب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جَعَلَه الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك، فهذا نوع شِرْكٌ خفي، والوكالة الجائزة هي توكل الإنْسَان في فعل مقدور عليه، ولكن ليس له أَن يتوكل عليه وَإن وكله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه، كما قرره شيخ الإِسْلَام.

قال: وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].



الشَّرْح

قوله: (الثاني: التَّوَكُّلُ في الأَسْبَاب الظاهرة العادية ...) في الفِقْه الإِسْلَامي بَاب الوَكَالَة، فيذكرُ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الوكالةَ الجائزةَ أَن تُوَكِّل إنسانًا ليقضيَ لك أعمالاً مما يستطيعُه، كأن يبيعَ ويشتريَ، أو يُبلِّغ إنسانًا رسالةً، أو يحفظَ مالكَ، أو يقوم بعمل تريدُه ولا تستطيع أَن تفعله، إمَّا لعدم وجودِك في هذا المكان أو لأي ظرفٍ آخر، هذه وكالةٌ شَرْعِيةٌ جائزةٌ، لكن لا تتوكَّل عليه، لا تعتمدُ بقلبك ، أنت تُوكِّله ليقوم مقامَك، لكن لا يقعُ في قلبك أَنَّ هذا الإِنْسَانَ قادرٌ على أَن يُحققَ ما تريدُ استقلالاً، فتُوكِّله أي: تُقيمَه مقامَك ليعمل عمَلك، ولكن اعتمادُ القَلْب لا يكون إلا على الله عَزَّ وَجَلَّ ، فرقٌ بين توكيلِه وبين التَّوَكُّل عليه، تُوَكِّلُهُ في أمرٍ معينٍ جائزٍ، والتَّوَكُّل عليه لا يجوز؛ لأَنَّ القُرآنَ لم يذكرُ هذا التَّوَكُّلَ إلا لله عَزَّ وَجَلَّ .

وأما آية الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢] فهذه صفات الذين وصفهم الله بالإيمان، منها التَّوَكُّل، فَالتَّوَكُّل من الصِّفَات التي تلازم الإِيمَان.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

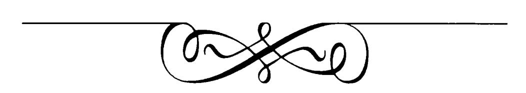
قال ابن عبَّاسٍ في الآيَة: (المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون علىٰ الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أَنَّهُ م ليسوا بمؤمنين، ثُمَّ وصف المُؤمِنينَ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] فأدوا فرائضه) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

الشَّرح

يذكر ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا صفاتِ المُنافِقين ليُبينَ الفرقَ بين المُؤمِنينَ والمنافقين، فالمنافقُون لا يذكرون الله إلا قليلاً، لا يتركون ذكرَ الله بالكلِّيةِ، ولكن يذكُرون الله قليلاً، قد يكون ذكرُهم هذا أمام النَّاس، ولكن قلوبهم ليست منشرحةً لذكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ففرقٌ بين المُنافِق والمؤمِن، المُؤمِن إذا ذُكر الله يعظِمُه ويُجلُّه، أمَّا الذين يزعُمُون الإيمَان من المُتصوفةِ فإنَّه يُذكرُ النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندهم فتنتَفِضُ قلوبُهم وتهتز أبدانُهم، ويُذكرُ الله مائةَ مرةٍ ولا يتأثرون، وكأنَّك تذكر واحداً من النَّاس، مع أَنَّ الله جَعَلَ من علامةِ الإيمَان أن يضطربَ القَلْبُ بذكرِ خالقِه تعظيماً له وتقديساً، ما جَعَلَ اضطرابَ القَلْبِ لذكر المَخْلُوقِ، فنبيُّنا مُحَمَّد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلوقٌ، وَإن كان هو أشرفُ بني آدمَ، لكن ما ينبغي للإنسان أَن يكونَ قلبُه بهذه الصورة.

ففرقٌ بين الإيمَان الصَّحِيح المبني علىٰ قواعدِ شَرْعِية، وبين الإيمَانِ المُبتدَع، والإنسانُ قد يعيشُ طوالَ حياتِه مُبتدعاً في دينِه وهو لا يعلم، بل يظن أَنَّ هذا غايةَ الكمال في الإيمَانِ، فمن صفاتِ المُؤمِنينَ أَنَّ قلوبَهم تعظم الله،

وتقدِّرُه وتُقدِّسه، وتَهتزُّ لذِكره، لكن مَحبَّة النَّبيّ ﷺ من الإيمان، بل هي من أعظم أنواع الإيمَان، ولا يكون مؤمنًا من لا يحبُّ النَّبيَّ ﷺ، لكن لا نرفعُه إلى مقام الأُلوهية، بل يبقى بشراً ممتازاً في قمة الامتياز، في قمة الكمالِ البَشَري، لكن ليس إلهًا، بل يلحقُه ما يلحقُ النَّفْسُ البَشَريَّة، يجوعُ، ويتألمُ ويحزنُ، ويتأذَّى، وقد يحدثُ له أذى في الحروبِ كما وقعَ في غزوةِ أُحدٍ كُسرت رباعيته ﷺ وجُحشَ جنبُه، وهو جاء يعلِّمنا حقَّ اللهِ، ما جاء يقول: اعبدوني من دون الله. لكنَّ المُتصوفَة يُظنُّون أَنَّ الرَّسُول ﷺ يشارك الله في حقه، والذين ينهونهم عن هذا يوصفونهم بأنهم لا يُحبُّون النَّبيّ ﷺ، وهذا جهلٌ، مَحَبَّةُ النَّبيّ ﷺ أَن تعملَ بما أمرك، وَأَن تتوقفَ عند أوامِره ﷺ، ولا ترفعُه فوق منزلته، كما قال: (**لا تطروني كما أطرت النَّصارَى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله**)(١)، فهكذا نتعامل معه ﷺ. فمن صفاتِ المُؤمِنينَ أَن تَوجَلَ قلوبُهم إذا ذُكِرَ اللهُ ﷻ.



(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبيَاء، بَاب قول الله تعالىٰ (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت)، برقم: (٣٤٤٥)، وقد سبق مراراً.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه صفة المُؤمِن الذي إذا ذُكر الله وجِل قلبُه، أي: خاف من الله، ففعل أوامره وترك زواجره، فإنّ وجلَ القَلْبِ من الله يستلزم القيامَ بفعل المأمورِ، وترك المحظورِ، كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، ولهذا قال السدي في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] هو الرجل يريد أَنَّ يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيُقال له: اتق الله، فيجل قلبه. رواه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم

الشَّرح

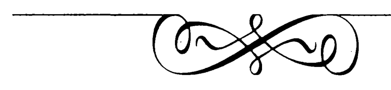
السدي رَحِمَهُ اللَّهُ أحدُ الُمفَسِّرين يُفسر المرادُ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، قال: أَنَّ الإنْسَان يهمُّ بأن يظلمَ، أو يهمُّ بأن يعملَ مَعصيةً، فيقول له أخوه: اتق الله، فقلبه يهتزُّ، وفي الحَدِيث المشهور حديثُ الثلاثة الذين دخلوا الغار، وأحدهم كانت له ابنةُ عمٍّ، وكان يُحبُّها كأحبِّ ما يحبُ النَّاس، فأرادُها عن نفسِها فامتنعت، ثُمَّ أصابَتها حاجةٌ، فطلبَت منه مالاً، فجمع لها المالَ، فعندما جلس بين رجليها وأرادَ أَنَّ يفعل الفاحشةَ، قالت: اتق الله. فوقعت الكلمةُ في قلبِه، فانتفضَ وقام وتركَ المال[1]، فهذا معنىٰ اتقِ الله، إذا قيل له: اتقِ الله قلبُه يهتزُّ ويضطربُ ويخاف الله، ليس كما قَالَ - تَعَالَى - في المُنافِقين-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب البيوع، بَاب إذا اشترىٰ شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، برقم: (٢٢١٥).

قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]،أي: لا يؤثر فيه (اتق الله) كأنك تخاطب حجراً، قال الله ﷻ: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦]. فحسبُه أي يكفِيه من العذابِ أَنَّ اللهَ قد جَعَلَ له جهنَّمَ.

فالمؤمنُ إذا كادَ أَن يقعَ في شيءٍ يخالُف أمرَ اللهِ فَذُكِّرَ يَخافُ ويرجعُ، إذا قيل له: اتق الله. لا يَستكبرُ، بل يذِلُّ لهذه الكلمةِ؛ لَأنَّ ه ذكَّرك بمالِك الملكِ ﷻ، فينبغي أَنَّ تواجهها بتذلل، لا تواجها باستكبار، ما ذكرك بمخلوق، فإذا قال لك: اتق الله، حتىٰ ولو كان مُخطِئًا فأنت تقابلُ الكلمةَ والنصيحةَ بالاحترامِ والتقدير، هذا علامة الإيمَانِ، أمَّا إذا كنت تقابِلُها بالجفاء والخشونة ولا مبالاةٍ،فإيمانُك يحتاج إلىٰ مراجعةٍ.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

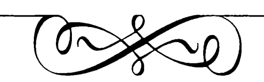
قد استدل الصَّحَابَة والتابعون ومن تبعهم بهذه الآيَة وأمثالها على زيادة الإِيمَان ونقصانه، قال عمر بن حبيب الصَّحَابِي: أَنَّ الإِيمَان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه. رواه ابن سعد.

وقال مجاهد في هذه الآيَة: الإِيمَان يزيد وينقص، وهو قول وعمل. رواه ابن أبي حاتم. وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم.



الشَّرح

الايمانُ يزيدُ وينقصُ، أمَّا زيادتُه فبنصِ القُرآنِ الكَرِيمِ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢] فكلُ شيءٍ يزيدُ فإنه ينقُصُ، وهذا مذهبُ سلف الأُمَّة؛ لَأنَّ الإِيمَانَ يشتملُ على عمل القَلْبِ، وعمل اللسانِ، وعملِ الجوارحِ، فهو يزيدُ وينقصُ، ولهذا ترى الإِنْسَانَ أحيانًا عندما يُؤَذِّنُ المُؤَذِّن للصلاةِ ويكون قلبُه فيه صفاءٌ تجده يسارعُ ويتركُ ما في يدِه، وإذا ضعفُ الإِيمَانُ قد لا يأتي إلا بعدَ أَن تقام الصَّلَاةُ، أو يأتي بعدَ أَن يُكبِّر الإمامُ، أو يأتي في الركعة الثانية، أو يأتي في الركعة الأخيرة، أو ربما يصلي في المنزلِ؛ لَأنَّ الإِيمَانَ ضَعِيفٌ، ما يُحرِّك الإِنْسَان ليقومَ إلا ما في قلبِه من خوفٍ الله وتعظيمه ومحبته، فحركةُ الجسم تابعةٌ لما في القَلْبِ من الإِيمَانِ. فالإيمانُ إذا زاد عرفَ الإِنْسَان زيادتَه، وإذا نقص عرف الإِنْسَان نقصانَه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال:٢] أي: يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم وحده لا شريك له، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أَنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له.

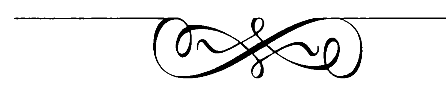
فائدة: وفي الآيَة وصف المُؤمِنينَ حقًا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي: الخَوْف، وزيادة الإِيمَان، والتَّوَكُّل علىٰ الله وحده، فإن قيل: إذا كان المُؤمِن حقاً هو الذي فعل المأمور وترك المحظور فلماذا لم يذكر إلا خمسة أشياء؟ قيل: لأَنَّ ما ذُكر مستلزم لما ترك، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذُكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تُليت عليهم آياته مع التَّوَكُّل عليه، وإقام الصَّلَاة علىٰ الوجه المأمور به باطنًا وظاهراً، والإنفاق من المال والمنافع، فكان مستلزمًا للباقي، فإن وجل القَلْب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه، وذلك يدعو صاحبه إلىٰ فعل المأمور، وترك المحظور، وكذلك زيادة الإِيمَان عند تلاوة آيات الله يقتضي زيادته علمًا وعملاً، ثُمَّ لابد من التَّوَكُّل علىٰ الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ومن طاعة الله فيما يقدر عليه، وأصل ذلك الصَّلَاة والزكاة، فمن قام بهذه الخمس كما أمر لزم أَنَّ يأتي بسائر الواجبات، بل الصَّلَاة نفسها إذا فعلها كما أمر فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ذكر ذلك شيخ الإِسْلَام.



الشَّرح

يقول الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ القُرآن الكَرِيمَ ذكَرَ هنا خمسًا من صفاتِ المُؤمِنينَ: إذا ذُكر الله وجِل قلبُه، وإذا تُليت عليه آياتُه زادَ إيمانُه، والتَّوَكُّل:

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال:٢]، ذكرَ إقامَ الصَّلَاة، وإيتاءَ الزَّكَاة، أين بقيةُ الإِسْلَام؟ الجواب: أَنَّ هذه الصِّفَاتِ إذا وُجدتِ في القَلْبِ وُجد فيه سائرُ أعمالِ الإِسْلَام، فالذي يخافُ اللهَ لا يتركُ أمرَه، أو يترك نهيَه، فالخوفُ من الله أصلاً يَقتضي من الإِنْسَان أَن يفعل ما أمرَه به، وَأَن يجتنبَ ما نهاه عنه، وإلا فلا يُسمَّىٰ خَوفاً، فإذا كَمُل الخَوْف في القَلْب فإنَّه يدفعُ الإِنْسَانَ لأعمالِ الطاعات، ويمنعُه من أعمالِ المَعَاصِي. فهكذا الجوابُ في جميع مواضعِ القُرآن والسنَّةِ، فإذا ذَكَرَ اللهُ ﷻ، أو ذكر نبيُّه ﷺ صفاتٍ معينةٍ، وتركَ بقيةَ الصِّفَات تقتضي هذه الصِّفَاتُ المذكورةُ أَن يقوم ببقيةِ ما لم يذكرُه في النَّص.



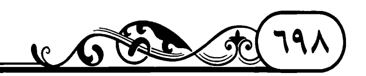
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٤] الآيَة.

قال ابن القَيِّم: أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلىٰ أحد.

وقيل: المَعْنَىٰ حسبك الله وحسبك المُؤمِنينَ. قال ابن القَيِّم: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآيَة عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوىٰ والعبادة، قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنىٰ علىٰ أهل التَّوْحِيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٣]، ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله.

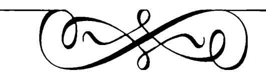
فإذا كان هذا قولهم، ومدح الرب تعالىٰ لهم بذلك فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالىٰ بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله؟ فكيف يشرك بينه وبينهم في حسب رسوله ﷺ؟ هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة:٥٩]، فتأمل كيف جَعَلَ الإيتاء لله والرسول، كما قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وجعل الحسب له، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جَعَلَه خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ ولم يقل: وإلىٰ رسوله، بل



جَعَلَ الرغبة إليه وحده، كما قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الشرح:٨]، فالرغبة والتَّوَكُّل والإنابة والحسب لله وحده، كما أَنَّ العِبَادَة والتقوىٰ والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له ﷻ انتهىٰ كلامه.

الشَّـرْح

ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُبيِّنُ المُرادَ بقولِ الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال:٦٤]، ما المُرادُ بقوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾؟ هل يعني أَنَّ اللَه حَسْبُ الرَّسُولِ ﷺ، وكذلك المُؤمِنون حسبُ رَسُول الله،أي: يكفيك الله والمؤمنون؟ قال: لا، هذا معنىً باطلٌ؛ لَأنَّ الحسبَ مثلُ التَّوَكُّل، لا يجوز أَن يكون إلا لله ﷻ . والمعنىٰ الصَّحِيح هو: يا أيها النَّبِيّ حسبُك الله وحسبُ من اتبعك من المُؤمِنينَ، يا أيها النَّبِيّ الله كافِيك، وكافي من اتبعك من المُؤمِنينَ، هذا معنىٰ الآيَة. فقول من زعم أَنَّهُ يجوزُ أَن تجعلَ الإنْسَان كافيك وتتوكل عليه قولٌ مردودٌ، فإن المَعْنَىٰ أَنَّ الله كافيك وكافي أتباعَك، كما قرره ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة؛ لأنَّ الله تعالىٰ أخبر أنَّهُ حسب رسوله وحسب أتباعه،أي: كافيهم وناصرهم، فنعم المولىٰ ونعم النَّصير، وفي ضمن ذلك أمر لهم بإفراده تعالىٰ بالحسب استكفاء بكفايته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وذلك هو التَّوكُّل.

قال: وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق:٣].

قال ابن القَيِّم: أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذىٰ لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وإمَّا أَنَّ يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يشتفىٰ به منه.

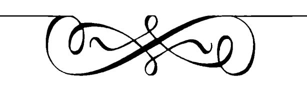
الشَّرح

قوله: (وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة...) فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعد رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ اللهَ كافِيهِ، وكافي أتباعَه؛ لأنَّ معنىٰ الآية: حسبُك الله، وحسبُ من اتبعك من المُؤمِنينَ، لا أَنَّ المُؤمِنينَ هم حسبُ رَسُول اللهِ معَ الله، كما رجَّحَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ المَعْنَىٰ: المُؤمِنون الله كافيهم ويرعاهم ويحفظهم كما يحفظُ رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق:٣] فأوردها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا في بَاب التَّوكُّلِ، لأنَّ التَّوكُّلَ هو الاعتِمَادُ والثِّقَة في الله عَزَّ وَجَلَّ، فأنت تثقُ في الله، وتعتمدُ عليه، والله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ الضمير في (هو) يعود علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، (حسبُه) أي: كَافِيه، ولكن بشرط أن

يصدُقَ في توكُّلِه، فبعضُ النَّاس قد يتوكَّل توكُّلاً صادقًا، ويكون في قومٍ سوءٍ، ويلحقُه منهم أذىٰ فهل أَنَّ الله ﷻ ليس حسبَه؟ لا، الأذىٰ يحدثُ لكل إنسانٍ صالحٍ، مثلُ الحرِّ والبردِ، هذه ظاهرةٌ من ظواهر الكون، جَعَلَها الله ﷻ عامَّة، فالذي يكفِيه الله هو أَن لا يُحقِّقَ عدوُه منه غرضَه، يريد عدوه منه أَن يتركَ الدِّينَ ، والله يُثبتُه علىٰ الدِّين ، ولكن يلحقُه الأذىٰ ، هذا الأذىٰ إحسانٌ من هذا الذي آذاه؛ لَأنَّه يقدم له حسناتٍ ويرفعُه الله به في الآخِرَة، وأَمَّا أَنَّهُ يصل إلىٰ أَن يُحقِّق مردَاه منه بأن يرتدَّ عن دينه،- وقد صدقَ التَّوَكُّلَ علىٰ الله - فهذ مستحيلٌ.

فلابد للإنسان أَن يعرفَ ما هي الكفايةُ التي قد وعده الله بها، الكفايةُ ليس معناها أَن لا يلحقُه أذىٰ، قد يُضرب، وقد يُحرم المال، وقد يُسجن، لكنَّ ذلك كلَّه إحسانٌ إليه؛ لأنَّ هذا يرفعه في درجات الجَنَّة، لكنَّه لا يستطيع أَنَّ يَردَّه عن دينه، الشَّخْص قد يصل به الأذىٰ إلىٰ دَرَجَة أَنَّهُ يُعطي الذي يؤذيه الكَلَام الظاهر، هذا مما أذِن فيه الشَّرعُ، أَمَّا أَنَّهُ يستطيعُ أَنَّ يدخلَ إلىٰ قلبه وَأَن يحولَ بينَه وبين الإِيمَان باللهِ فلا يستطيع، فالأذىٰ هو في الظاهر. ولهذا نجد في القُرآن الكَرِيم أَنَّ الأنبِيَاءَ قد أُوذُوا، وهم صفوةُ البَشَر وقدوةُ النَّاسِ، ولكنَّه ما حقَّق ما يريدُه أعداؤهم منهم، فهذا كلامُ ابن القَيِّم رحمه الله.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال بعض السَلَف: جَعَلَ الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التَّوَكُّل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جَعَلَ نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد علىٰ الله حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا وكفاه ونصره. انتهىٰ.

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال الله -وَجَلَّ عَلَا- في بعض كتبه: (بعزتي أَنَّهُ من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له بذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء ثُمَّ أكله إلىٰ نفسه، كفا بي لعبدي مالاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أَن يسألني، وأستجيب له قبل أَن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه).


الشَّرح

قوله: (قال بعض السَلَف: جَعَلَ الله لكل عمل...) لم يشر إلىٰ مَنْ قال به مِن السَلَف، وإنما هذا معناه أَنَّ الله عَجَلَّ جَعَلَ لكل عمل من أعمال العبادات أجراً، من فعل كذا فله كذا، من فعلَ كذا فله كذا، إلا التَّوَكُّلُ والصيامُ، فإنَّ الصِّيَام ورد أَنَّهُ قال: (إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به)[1]، ولكن التَّوَكُّل لم يجعل جزاءً له، وإنما جَعَلَ أمرَه إلىٰ الله، ولا شك أَنَّه سيكفيه في الدُّنْيَا،

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الصوم، بَاب هل يقول إني صائم إذا شتم، برقم: (١٩٠٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصِّيَام، بَاب فضل الصِّيَام برقم: (١١٥١)، (٢/ ٨٠٦).

وسيعطيه في الآخِرَةِ، فهذا أعظمُ تكريمُ للمُتَوكِّلِ علىٰ الله سبحانه وتعالى.

قوله: (وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب ...) هذا الأثر الذي ورد عن وهب بن منبه من الإسرائيليات، وقد جاء في الحَدِيث الصَّحِيح أَنَّهُ: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم)(١)؛ لَأنَّ الله عز وجل قد أنزل كُتُبًا وأنزلَ فيها كلامًا، ولا ندري هل هذا الذي ذكرَه أهلُ الكتابِ مما بقي ولم يُحرَّف، أو أَنَّهُ قد حُرِّفَ؟ فلا نُكذِّبُهم حتىٰ لا نُكذِّب بشيءٍ هو صدقٌ في ذاته، ولا نَصْدِّق خشيةَ أَن نَصْدِّقَ بأمر ليس مما قاله الله، أو مما أخبرت به الأنبِيَاءُ، فنحن نتوقف، ولكن إذا وافق ما عندنا قبلناه، وإذا خالف ما عندنا نرده، لكن الشيء الذي ليس عندنا ما يقبله أو يرده، فمثل هذا نتوقفُ فيه، وهذا الأثرُ من ذلك ، فمعناه صحيحٌ؛ لَأنَّه يُفسر معنىٰ (فهو حسبُه)، يقول: ما من عبدٍ يتوكَّلُ علىٰ الله إلا ويجعلُ الله له مَخرجًا، ولو كادته السماوات والأرض لجعل له من بينهن مخرجًا، وهذا المَعْنَىٰ في القُرآن الكَرِيمِ بَابلغِ من هذا الكَلَام ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: هو كافِيه، وهذا أبلغُ مما ذكرَه في هذا الأثرِ، ولكنَّه في الأثر تفصيل، وفي القُرآن إجمالٌ فإذا تولَّىٰ الله أمرَك لا يستطيعُ أحدٌ في السَّمَاوات والأرضِ أَن يؤذيك أو أَن يصدَّك عن دينك، بل يُسخِّر لك السماواتِ والأرضَ؛ لأنَّها كلَّها بيدِه سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، برقم (١٧٢٢٥)، (٢٨٤٦٠)، وأخرج نحوه أبو داود في سننه، كتاب العلم، بَاب رواية حديث أهل الكتاب، برقم: (٣٦٤٤)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصَّلَاة، بَاب لا تسمع دلالة مشرك لمن كان أعمىٰ أو غير بصير بالقبلة، برقم: (٢٢٣٧)، (٢/ ١٧)، والطبراني في المعجم الكبير، (٢٢/ ٣٤٩)، قال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٦٥٥): "ابن أبي نملة لا تعرف له حال"، وضعفه الألباني في تعليقه علىٰ أبي داود.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الآيَة دليل على فضل التَّوَكُّل، وأنه أعظم الأسْبَاب في جلب المنافع، ودفع المضار؛ لأَنَّ الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أَن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأَنَّه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعُلم أَنَّ توكله هو سَبَب كون الله حسبًا له ذكره شيخ الإِسْلَام.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التَّوَكُّل؛ لأَنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذكر التقوى، ثُمَّ ذكر التَّوَكُّل كما قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:١١]، فجعل التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله فهو حسبه، فَالتَّوَكُّل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض وَإن كان مشوبًا بنوع من التَّوَكُّل، فلا ينبغي للعبد أَن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأَسْبَاب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها، ذكر معناه ابن القَيِّم.

الشَّرح

قوله: (وفي الآيَة دليل على فضل التَّوَكُّل...) ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ هذه القضية فيها صفةٌ وحكمُ، فإذا تحقَّقَت الصفةُ تحقَّقَ الحكمُ، الصفةُ التَّوَكُّلُ، الحكمُ الحَسبُ والكِفايةُ، فإذا تحقَّقت الصفةُ في الإِنْسَان تحقَّق الوعدُ الذي وعدَ الله به صاحب هذا التَّوَكُّلِ.

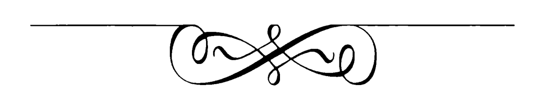
قوله: (وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التَّوَكُّل...) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هناك تَوكل-، وهناك أسباب، التَّوَكُّل: أَن تعتمد على الله، والأسباب: أَن تعمل

السَّبَب الذي يوصلك إلىٰ النتيجة، لكن لا تعتقد أَنَّ السَّبب هو الذي يؤدي إلىٰ النتيجة، بل تعتقد أَنَّ النتيجة بيد الله، وأنك تعمل عملاً أمرك الله به، لكن لا تعتمد علىٰ السَّبَب، بل تفعل السَّبب وتعتمد علىٰ الله.

فليس معنىٰ التَّوَكُّل علىٰ الله ترك الأَسْبَاب، فإن العُلَمَاء يقولون: أَنَّ ترك السَّبَب قدح في العَقْل؛ لأَنَّ العقول البَشَرِيَّة كلها مجمعة علىٰ أَنَّ النتائج مربوطة بأسبابها في الطب وفي الهندسة وفي الزراعة وفي التجارة، ليس هناك نتيجة تتحقق بدون سَبَب، لكن قد توجد الأَسْبَاب ولا توجد نتائج، فترك الأَسْبَاب طعن في العَقْل، والاعتماد علىٰ السَّبَب طعن في الدِّين ،أي: : إذا اعتمدت علىٰ السَّبَب فهذا خلل في دينك. ولابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بحث جميل في كتابه (إغاثة اللهفان) يقول: أَنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد علق النتائج بوجود أسباب، وقد نعمل الأَسْبَاب ولا تأتي النتائج، فمثلاً قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] لكنا قد نتوكل علىٰ الله، ولكن لا نَصُل إلىٰ ما نريد، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: الله عَزَّ وَجَلَّ عندما علق النتائج بالأسباب ذكر السَّبَب الكاملَ، كقوله – تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ونحن نَصُلي ولا نمتنع عن الفحشاء والمنكر؛ لأَنَّ السَّبَب ليس كاملاً، الصَّلَاة فيها خللٌ، لو أديت الصَّلَاة الشَرْعِية، وداومت علىٰ هذه الصَّلَاةِ المشروعةِ بواجباتها وبشروطها وأركانِها ومستحباتها وسننِها لأدت النتيجة، لكن لما لم تؤدِها كما أمرت، وأخللت بالسبب ما تحققت النتيجة؛ كقوله – تعالىٰ –: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق:٢].

بعض النَّاس يقول: أنا أتقي الله لكن ما جَعَلَ الله لي مخرجاً. يُقال: لم تتق الله حقَّ التَّقوىٰ، لو تحققت لك التقوىٰ التي ذكرها الله لتحققت النتيجةُ.

فالمتهمُ هو أنت، وليس هو الله، أنت لم تُحقِّق السَّبَب الذي ربط الله به النتائجَ، أنت تظن أنك فعلت السَّبَب كاملاً، ولم تفعل السَّبَب كاملاً، وله مبحث جميل على هذا النمط في (إغاثة اللهفان).



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقىٰ في النَّار، وقالها مُحَمَّد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣] الآية. رواه البُخارِي .

قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا فلا نتوكل إلا عليه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: نعم الموكول إليه المتوكل عليه، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨] فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التَّوَكُّل علىٰ الله والالتجاء إليه.

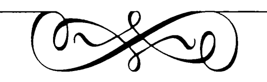
الشَّرح

هذا الحَدِيث من صحيح البُخَارِي، وهو أَنَّ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكرَ أَنَّ هذه الكلمة قالها نبيان عظيمان عندما وقع لهما حدثٌ، الأولُ قالها إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أُلقي في النَّار، قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] فكفاه الله النَّار، وجاء الأمر الإلهي: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩]، جاء الأمر من الله أَن تنقلب النَّار المحرقة إلىٰ برد وسلام، وهذا علىٰ خلاف طبيعتها، النَّار تَحرقُ، لكن الذي جعَلَها تحرقُ هو الله، فالله قلَبَ طبيعةَ النَّار علىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويقول العُلَمَاء: هناك قيدان لو لم يكونا في الآيَة لكانت علىٰ خلاف المرُاد، فالله قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ والبَردُ يُهلِك مثل الحرِّ،

لكن الله ﷻ - ما أطلقَ، بل قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، لو لم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لهلك إبراهيمُ عليه السلام من شدة بردها، ثُمَّ أَنَّ الله ﷻ قيَّد ثانيـًا، لو قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ ولم يقل شيئـًا بعد ذلك لبقيت النَّار باردةً إلىٰ يَومَ القِيامَةِ، لكن الله قال: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فهي حارَّةٌ علىٰ غير إبراهيمَ عليه السلام، والقُرآن الكَريم كتاب معجزٌ ألفاظُه في غاية الفصاحة والبلاغةِ، فإبراهيم عليه السلام قالها فكفاه الله ﷻ ، كفاه في الدُّنْيَا، وسيكفيه في الآخِرَة.

ثم قالها نبينا عليه الصَّلَاة والسَّلَام بعد غزوة أُحدٍ عندما أرسل أبو سفيان رسولاً إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وقال: قل له إنَّ أبا سفيان يتوعَّدُك في كذا وكذا. فقال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣]، كم مرَّ بالنبي ﷺ والصَّحابةُ من شدة وامتحان وابتلاء، ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة:٢١٤] أي: من شدة الهول وشدة الزلزلة، ولكن عندما يرون ثباتَ النَّبيِّ ﷺ وسكينَته وهدوءَه يطمئُّنون ويسكنون لسكونه ﷺ؛ لأنَّه يعلم أَنَّ الله ناصره، وَأَنَّ الله معه، كما في الغار عندما كان معه الصديق رضي الله عنه، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يُكثر الخروجَ والالتفات، وربما خشي من قريش عندما اقتربت منهم، فقال له ﷺ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠] هذه هي الطمأنينة الإِيمَانية.

فالـذي يعـيش مـع الله بكامـل قلبـه وكامـل تفكيـره ويقينـه في الله في أعلـىٰ درجات اليقين، هو الذي يحصـل علـىٰ الكفايـة والحسـب، ولكـن كلمـا نقـص فينا التَّوَكُّل واليقين والتقوىٰ نقصت الوعود التي وعدَنا بها الله سبحانه وتعالى .



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القَيِّم: وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير، وهو نعم المولىٰ ونعم النَّصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: (قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النَّار) في رواية عن ابن عبَّاسٍ قال: (كان آخر قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين ألقي في النَّار حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البُخَارِي، وقد ذكر الله القصة في سورة الأنبِيَاء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

قوله: (وقالها مُحَمَّد ﷺ..) إلىٰ آخره، وذلك بعدما كان من أمر أحد ما كان، بلغ النَّبِيّ ﷺ وأصحابه أَنَّ أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النَّبِيّ ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين راكبًا حتىٰ انتهىٰ إلىٰ حمراء الأسد وهي من المدينة علىٰ ثلاثة أميال، ثُمَّ ألقىٰ الله الرعب في قلب أبي سفيان فرجع إلىٰ مكة، ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون عني مُحَمَّداً رسالة أرسلكم بها إليه؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلىٰ أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، والقصة مشهور في السير والتفاسير.

الشَّرح

قوله: (قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي...) الرواية الصَّحِيحة هي المتقدمة، وليس فيها تفصيل في مثل هذه الرواية.

قوله: (وقالها مُحَمَّد ﷺ.. إلىٰ آخره، وذلك...) غزوةُ أُحد كانت علىٰ خلاف غزوةِ بدر، غزوة بَدر خرج لها الصَّحَابَة ﷺ ولم يستعدوا لقتالٍ، وقريش خرجت مُستعدَّة للقتال، فالتقوا في بدر فنصر الله المُسْلِمينَ، ثُمَّ عندما جاء المُشْرِكُونَ إلىٰ المدينة في العام الثاني واقتربوا من المدينة، وقد كان من رأي رَسُول الله ﷺ أَنَّ لا يخرج إليهم، فجاء شباب الأنصار الذين لم يشاركوا في غزوة بدر ورغبوا في أَنَّ يكون لهم فضل في القتال والجهاد في هذه المرة، فألحوا علىٰ رَسُول الله ﷺ في الخروج، ثُمَّ خرج النَّبِيّ ﷺ بأصحابه، خرجوا مستعدين للقتال، فكانت الهزيمة للمسلمين؛ لَأنَّ هم وقعوا في معصية رَسُول الله ﷺ، فإنه قد وضع خمسين رجلاً من الرُّماة من أصحابه علىٰ جبل يسمىٰ إلىٰ اليوم جبلُ الرُّماةِ،وهو أكمةٌ صغيرةٌ، وكانوا خلف النَّبِيّ ﷺ، وقال: **(الزموا هذا المكان، أو لا تتحركوا من هذا المكان، ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير)**[1] أو كما قال -عليه الصَّلَاة والسَّلَام-، فانهزم المُشْرِكُونَ في أول الأمر، فاختلف الرُّماة، فمنهم من قال: لا ننزل؛ لَأنَّ الرَّسُول أمرنا أَنَّ لا ننزل. ومنهم من قال: أمرنا أَنَّ لا ننزل ما دامت الحرب قائمة، وما دام المُشْرِكُونَ قد أنَّهُزموا وولوا فننزل مع إخواننا نأخذ الغنائم، فتركوا الجبل ونزلوا، وجاءت

---

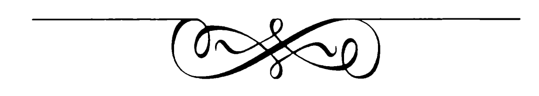
(١) أخرجه البُخَارِي بمعناه، كتاب الجهاد والسير، بَاب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصىٰ إِمَّامه، برقم: (٣٠٣٩)، ولم أجد في دواوين السُّنَّة باللفظ الذي ساقه الشيخ.

قريش من خلف النَّبِيّ ﷺ فوقعت الهزيمة، ثُمَّ انفصلت المعركة، وبعد أَنَّ خرجت قريش من هذا المكان إلىٰ وسط الطريق تلاوموا وقالوا: بعد أَن كدنا أَن نستأصلهم كيف نتركهم؟ لو رجعنا حتىٰ نستأصلهم، فالنبي ﷺ استنفر أصحابه، قال: (**لا تلقوا السلاح، ومن كان في غزوة أحد فليلحق بنا**)[1] أي: : أمرهم أَن يخرجوا حتىٰ تسمع قريش، فخرجوا فسمعت قريش بخروجهم، فألقىٰ الله الرعب في قلوبِ قريشٍ، ولكن ما أرادوا أَن تبقىٰ المسألةُ كما هي، فأرسلوا رسالة إلىٰ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُم راجعون ليستأصلوهم، فماذا قال النَّبِيّ ﷺ؟ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣]، فالله قد كفاهم شر قريش ولم يعودوا مرة أخرىٰ، وهذه الغزوة وقع فيها دروس كثيرة للصَّحابة رضي الله عنهم:

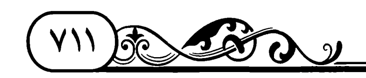
أولاً: قد أكرهوا النَّبِيّ ﷺ علىٰ الخروجِ، ولم يكن من رأيه الخروج.

ثانيـاً: قد عصىٰ الرماة أمر الرَّسُول ﷺ في وقوفهم علىٰ الجبل.

فهـذه دروس علميـة تربويـة يربـي الله الصَّحَابَة، ولكـن الله يحفـظ الـدِّين، يربيهم بأمر لا يضر الـدِّين، إنمـا يعـدهم ربنـا ﷻ للمستقبل، ولـم يثبـت بعـد موت النَّبِيّ ﷺ إلا هذه الفئة المُرباةُ، ثبتـت عنـدما ارتـدت العـرب عـن دينهـا، وبقيت علىٰ دينها، فهي كانت الفئة التي قاتلت النَّاس وردتهم إلىٰ دينِ الله ﷻ .



(١) أخرج القصة قريبـاً ممـا ذكـره الشيخ عبد الـرزاق في المصنف، بـرقم (٩٧٣٥)، (٥/ ٣٦٣)، وإمَّا هذا اللفظ فلم أقف عليه.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم و مُحَمَّد عليهما الصَّلَاة والسَّلَام في الشدائد.

ولهذا جاء في الحَدِيث: (إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه ابن مردويه، وَأَنَّ القيام بالأسباب مع التَّوَكُّل علىٰ الله لا يتنافيان، بل يجب علىٰ العبد القيام بهما كما فعل الخليلان عليهما الصَّلَاة والسَّلَام.

الشَّرْح

قوله: (ففي هاتين القصتين فضل هذه...) ولهذا المُسْلِم إذا وقع في شدة أو بلاء فليقل هذه الكلمة، وليصدق في قولها ليستحضر في قلبه عظمة الله وقدرته، وَأَنَّ الكون كله بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا وقع في مأزق فليقل: حسبي الله ونعم الوكيل، يقولها من قلبه، وسيرىٰ ثمارها؛ لَأنَّ الذي يتعامل مع الله بهذه الصورة يرىٰ الثِّمار، لكن الذي يكون عنده شيء من الشكِ، أو شيء من عدم الثقة لا يرىٰ الثِّمارَ؛ لَأنَّه لم يحسن التَّوَكُّل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (ولهذا جاء في الحَدِيث: (إذا وقعتم في الأمر العظيم...)[1] هذا الحَدِيث في الحقيقة لا يصح، لكن معناه صحيح، فإذا ثبت أَنَّ نبينا -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ في مواطن الشدة فهذا تشريعٌ لنا.

---

(١) لم أجده في دواوين السُّنَّة إلا أَنَّ جلال الدِّين السيوطي نقله في الفتح الكبير (١/ ١٥١) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢/ ١٨٨) عن ابن مردويه عن أبي هريرة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا جاء في الحَدِيث الصَّحِيح الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك: (أن النَّبِيّ ﷺ قضىٰ بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رَسُول الله ﷺ: ردوا عليَّ الرجل. فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رَسُول الله ﷺ: أَنَّ الله يلوم علىٰ العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل).

وفي الآيَة دليل علىٰ أَنَّ الإِيمَان يزيد وينقص، قال مجاهد في قوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، قال: الإِيمَان يزيد وينقص، وعلىٰ أَنَّ ما يكرهه الإِنْسَان قد يكون خيراً له، وَأَنَّ التَّوَكُّل أعظم الأَسْبَاب في حصول الخير ودفع الشر في الدُّنْيَا والآخرة.

الشَّرح

وهذا الحَدِيث الذي صححه الشَّارِحُ لا يصح، فإن في سنده مجهولاً، لكن المَعْنَىٰ صحح كما تقدم مثل ذلك.

وقوله: (إن الإِيمَان يزيد وينقص)؛ لَأنَّ الإِيمَان اسم يشمل العَمَل، فإن الإِيمَان اصطلاح شَرْعِي؛ لَأنَّ بعض الألفاظ التي استعملها العرب استعملها القُرآن الكَرِيم في معنىٰ جديد، فزاد في معناها، فالصلاة في اللُّغَة هي الدعاء، ولكن في القُرآن والسنة ليست الدعاء فقط، بل الدعاء جزء منها؛ لَأنَّ الصَّلَاة في الشَّرع: هي القيامُ والركوعُ والسجود والقراءة والدُّعاءُ، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك الإِيمَان، جاء الإِسْلَام فاستعمل الإِيمَان في معنىٰ جديد، فأضاف إليه إضافات، ففي اللُّغَة العربية الإِيمَان هو التصديق. وَإن كان ابنُ تَيْمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ينازع أهل اللُّغَة في هذا المَعْنَىٰ، ويقول: ليس معناه التصديقُ؛ لَأنَّا إذا قلنا بترادفهما فلابد أَنَّ ما يصدق علىٰ كلمة إيمان في اللُّغَة يصدق أيضًا علىٰ كلمة تصديق في اللُّغَة. وذكر فروقًا بينهما، فقال: لو قال شخص: السماء فوقنا. تقول: صدَّقتك. لكن لا تقل: آمنت لك؛ لَأنَّ الإِيمَان لا يُطلقُ علىٰ مثل هذا الحال، فذكر فروقًا بين الكلمتين، لكن أكثر أهل اللُّغَة علىٰ أَنَّ الإِيمَان هو التصديقُ. ووُجِد في أهل اللُّغَة أفرادٌ فسَّروا الإِيمَان بأنه الإقرار، وهذا الذي أقره ابنُ تَيْمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: الإِيمَان هو الإقرارُ وليس هو التصديقُ فقط.

فالشارع استخدم الإِيمَان بمعنىٰ جديد، فجعله يشمل التصديقَ وقولَ اللسان وحركةَ الجوارح، وحديث شعب الإِيمَان المشهور يُبين هذا: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة**)[1] البُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ رجح الرواية التي فيها ستون، وفي مسلم أورد اللفظ بالشك: (**بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون**) (أعلاها قول...) فهو قول (.... وأدناها إِمَّاطة ....) وهي حركة والفعل: (والحياء شبعة) وهو من أعمالِ القُلُوب، فالإيمانُ شمل الأعمالَ الثلاثةَ: أعمالَ اللسانِ، وأعمالَ الجوارح، وأعمالَ القَلْب، فهل بعد تَفسِير رَسُول الله -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- يكون هناك تَفسِيرٌ لأحدٍ من البَشَر؟، إذا ورد التفسير في القُرآن أو في السُّنَّة ما ينبغي للمسلم أَن يعدلَ عنهما، لكن الذين خالفوا زعموا أَنَّ الإِيمَان هو التصديقُ، نعم نقرُّهم أَنَّهُ التصديق في اللُّغَة، لكن الشَّارِع استخدمه في معنىٰ جديد.

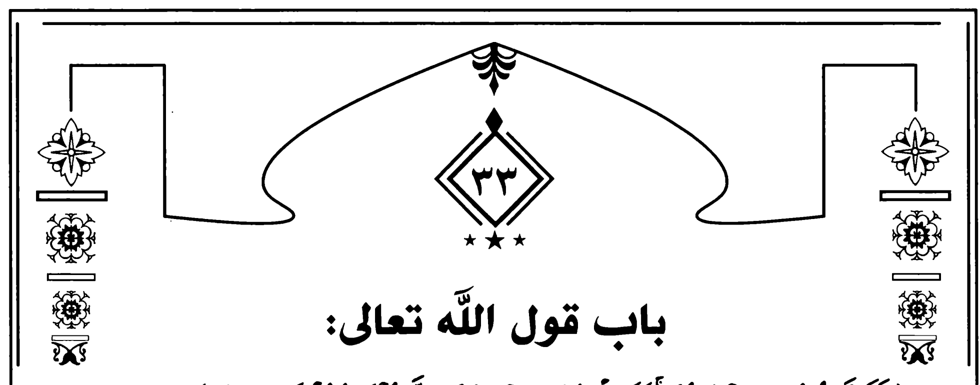
ففرق بين اللفظ في اللُّغَة، وبين معناه في الشَّرع، فعندما نتحدثُ عن المَعْنَىٰ في الشَّرع نبحث عن مراد الشَّارِع ، مثلُ الزَّكَاةِ، الزَّكَاةُ في اللُّغَة هي النَّماءِ، لكن في الشَّرعِ تُطلق الزَّكَاةُ علىٰ إخراج مالٍ مخصوصٍ في زمن

---

(١) سبق تخريجه.

مخصوصٍ، والوضوءُ في اللُّغَة: هو غسلُ اليدينِ، ولكن الوضوءُ في الشَّرعِ ليس غسلَ اليدين فقط، بل غسلُ أعضاءٍ مخصوصةٍ مع مسح أعضاءٍ مخصوصةٍ. فالشارعُ استخدمَ اللفظَ في اللُّغَة وزادَ في معناه، فما ينبغي لنا أَن نتوقفَ على المَعْنَىٰ اللُّغوي، بل نرجعُ إلىٰ اللُّغَة إَن لم يأت تَفسِير اللفظِ من القُرآن أو من السُّنَّة، أو أقوالِ الصَّحَابَة، أمَّا إذا ورد التفسيرُ في أحدها فلا نرجع إلىٰ غيرِ هذه المصادرُ في معرفةِ معنىٰ اللفظِ؛ لَأنَّ اللفظَ أصبح جديداً بحسبِ استعمالِ القُرآنِ.





باب قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]

الشَّرْح

بعد أن انتهىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ من إيراد بَاب التَّوَكُّل أوردَ بَابـًا في الأمـنِ مـن مَكـرِ اللهِ، وهـذا ليُحـذِّرَ الإنْسَـانَ الفاسِـقَ، وكـذا الصَّـالِحَ؛ فـإنَّ الصَّـالِح ربمـا يـركَنُ إلـىٰ صلاحِه وما يُقدِّمُه من حسنات، ويغفُلُ عن تصحيحِ العَمَل ويغترُّ بما قدَّمـه مـن عملٍ، عندئذٍ يرفعُ الله عنه حفظَه ورعايتَه؛ لأنَّه ركَن إلـىٰ عملـه، وظـنَّ أَنَّ عملَـه ينجيَه، وأنَّه قـد أدَّىٰ حـقَّ الله، فهـذا الفعـلُ ربمـا يكـون سَـبَبـًا في تخلِّـي الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، فلهـذا لا ينبغـي للإنسـان أَنَّ يـأمَن مكـرَ الله، فربمـا الإنْسَـانُ يعمـلُ العَمَـل الصَّالِح ثُمَّ لا يحفظُه الله ولا يثبته علـىٰ صـلاحه، فيمـوت علـىٰ غيـر الصـلاحِ، وكذلك الفاسقُ -إذا أخرَّه الله ولـم يعاقِبـه- لا يظـنُّ أَنَّ الله عنـه راضٍ، بـل ربمـا يؤخره عَزَّ وَجَلَّ ليُضاعفَ له العقابَ إِمَّا في الدُّنْيَا وإمَّا في الآخِـرَة، فـالأمنُ مـن مكـرِ الله ليسَ من صفات المُسْلِمينَ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بهذه الترجمة التنبيه على الجمع بين الرَّجَاء والخوف، ولذلك ذكر بعد هذه الآيَة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦]، هذا هو مقام الأنبِيَاء والصديقين، كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧]، فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثُمَّ ذكر الرَّجَاء والخوف، وهذه أركان الإِيمَان.

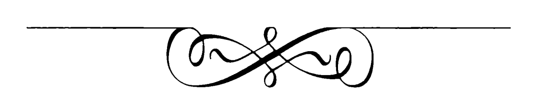
وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠]، وقال إخباراً عن شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٨٩]، فوكلا الأمر إلىٰ مالكه، وقال تعالىٰ عن المَلَائِكَة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل:٥٠].



الشَّرح

ذكر عن الأنبِيَاء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أنَّهُم جمعوا بين الخَوْفِ والرَّجَاءِ، فالإنسان لا ينبغي له أَن يأمَنَ، ولا أَن يَقنطَ، بل يعيشُ بين الخَوْف والرَّجَاءِ، يخافُ من ذنبِه، ويرجو رحمةَ ربِّه، فهذا هو الذي ينبغي أَن يكون عليه المُسْلِم، لا يغلبُ الخَوْفَ، ولا يَغلَب الرَّجَاءُ، لكن بعضُ أهل العلمِ يقول: ينبغي أَن يُغَلِّبَ

الخَوْفَ في الدُّنْيَا حتىٰ يدفعه للعمل، ولكن عند المَوْت ينبغي أَنَّ يُغَلِّبَ الرَّجَاءَ في الله ﷻ ، وقد جاء في الحَدِيث: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء)[1] فعند المَوْت ينبغي أَن يكون ظَنُّه في الله قويـًا وعظيمـًا، حتىٰ لا ييأَسَ من رحمة الله ﷻ، لكن في الدُّنْيَا يُرجِّح جانبَ الخَوْف، ولا ينبغي له أَن يأمَن ويُرجِّحُ جانب الرَّجَاءِ، فإِنَّ بعضَ النَّاس يُرجِّحُ جانبَ العفوِ والمسامحةِ والمغفرةِ علىٰ جانب العقابِ والمؤاخذةِ، فيقع في التفريطِ في الطاعاتِ، ويقع في بعضِ المَعَاصِي؛ لأَنَّه غَلَبت عنده رحمة الله ﷻ.



(١) الجملة الأولىٰ من الحَدِيث أخرجها الشيخان، صحيح البُخَارِي، كتاب التَّوْحِيد، بَاب قوله تعالىٰ: (ويحذركم الله نفسه)، برقم: (٧٤٠٥)، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَاب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ، برقم: (٢٦٧٥)، (٤/ ٢٠٦١)، وإمَّا الحَدِيث بهذا اللفظ أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٦٠١٦)، (٢٥/ ٣٩٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، برقم: (٧٦٨٤)، (٤/ ٣٧٠)، والدارمي في سننه، كتاب الرقاق، بَاب في حسن الظن بالله، برقم: (٢٧٧٣)، (٣/ ١٧٩٦)، والبيهقي في شعب الإِيمَان، برقم: (١٠٠٦)، (٢/ ٦)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقاق، بَاب حسن الظن بالله تعالىٰ، برقم: (٦٣٣)، (٢/ ٤٠١)، صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال النَّبيّ ﷺ: (فوالله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) وكلما قوي إيمان العبد ويقينه قوي خوفه ورجاؤه مطلقًا.



الشَّرح

قولُ النَّبيّ ﷺ: (فوالله إني لأعلمُكم بالله، وأشدهم له خشية) هذا الحَدِيثُ وردَ في مُناسبَتين:

المناسبةُ الأُولىٰ: أَنَّ رجلاً استفتَىٰ النَّبِيّ ﷺ في أَنَّهُ يُصبح في رمضان جنبًا، فقال النَّبِيّ ﷺ: (إنِّي أصبح في رمضان جنبًا)[١]، فقال: يا رَسُول الله، إنَّا لسنا كهيئتك. فغضب النَّبِيّ ﷺ، وقال: (والله إني لأعلمُكم بالله، وأشدُّكم له خشيةً)[٢]، وهو في الصَّحِيح.

والمناسبةُ الثانية: أَنَّ الثلاثة نفرٌ الذين جاءوا إلىٰ بُيوتِ النَّبِيّ ﷺ فسألوا عن أعمالِه، فكأنَّهم تَقالُّوها، أي: رَأَوهَا قليلةً، فقالوا: "وأين نحن من النَّبِيّ ﷺ قد غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخرَّ"، فاتفقوا علىٰ أَنَّ بعضَهم يصوم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باختلاف يسير في اللفظ، كتاب الصِّيَام، بَاب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، برقم: (١١١٠)، (٢/ ٧٨١)، وكذا الإمام مالك في الموطأ، كتاب الصِّيَام، بَاب ما جاء في صيام الذي يصبح جنبًا، برقم: (٧٩٣)، (١/ ٣٩٠)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٤٣٨٥)، (٤٠/ ٤٤٨)، وأخرجه أيضًا أبو داود في سننه، والنسائي في السنن الكبرىٰ، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، وأبو يعلىٰ في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وابن خزيمة في صحيحه، والطحاوي في شرح معاني الآثار، كلهم في بَاب الصِّيَام.

(٢) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، بدون ذكره المناسبة السابقة، كتاب الإِيمَان، بَاب قول النَّبِيّ ﷺ "أنا أعلمكم بالله وَأَنَّ المعرفة فعل القَلْب"، برقم: (٢٠)، ومسلم في صحيحه كما سبق.

ولا يُفطرُ، وبعضَهم لا يأكلُ اللَّحمَ ولا يأتي النِّساءَ، وبعضَهم لا ينامُ اللَّيل، فعندما جاء النَّبيُّ ﷺ أخبروه بما قالوا، فاستدعاهم، فقال: (**إني لأعلمكم بالله وأشدُّكم له خشيةً، ولكنني أصومُ وأفطرُ، وأتزوجُ النساءَ، وأصلي وأنامَ، فمن رغبَ عن سُنتي فليس مني**)[1]. فالحديث وردت له مناسبتان: مناسبةٌ أَنَّ بعض الصَّحابَة تقالُّوا عملَه ﷺ، فأرادوا أَن يعملوا عملاً كثيراً؛ لَأنَّهم قالوا: إنَّ الله قد غفرَ له ذنبه، أمَّا نحن لم يغفرْ الله لنا ذنوبنا، فلنكثر من العَمَل. والنبيُّ ﷺ كان يُوجِّه أصحابَه للاعتدال والتوسُّطِ في العِبَادَة، فكانوا يطلبون منه أشياء كثيرةً وينهاهم عنَ الصِّيَامِ، ويقول: (**صُم من كلِّ شهر ثلاثةِ أيام**)[2] فقال: أطيقُ أكثرَ من ذلك. حتىٰ وصلَ إلىٰ صيام يوم ويوم، وهكذاً كان يُّوجِّهُهم إلىٰ عدم الإكثار من العباداتِ التي قد تُثقِلُ علىٰ الإنْسَان، وربما لا يستطيعُ القيام بها، ولهذا قد يضعُفُ، وقد جاء في حديث ـ وَإن كانت درجتُه ليست في مستوىٰ الصِّحة ـ: (**إن هذا الدِّين متين فأوغل فيه برفق ولا تُبغِّض إلىٰ نفسك عبادةَ الله، فإنَّ المُنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقىٰ**)[3] أي: : إنسان عنده دابةٌ وأراد أَن يصلَ إلىٰ المكان البعيدِ في وقتٍ قليلٍ فأخذ يُرهقُ الدَّابَّة للمشي، فمشت الدَّابَّة بجهد فوق جُهدها، وفي منتصفِ الطريقِ سقطت الدَّابَّة وماتت، وبقي في

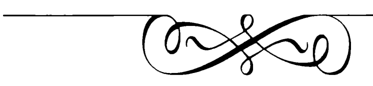
---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب النكاح، بَاب الترغيب في النكاح، برقم (٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه، باختلاف في اللفظ، كتاب النكاح، بَاب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، برقم: (١٤٠١)، (٢/ ١٠٢١).

(٢) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبيَاء، بَاب قول الله تعالىٰ: (وآتينا داود زبوراً)، برقم: (٣٤١٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصِّيَام، بَاب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً، برقم: (١١٥٩)، (٢/ ٨١٢).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الصَّلَاة، بَاب القصد في العِبَادَة، برقم: (٤٧٣٩)، (٣/ ٢٧)، وأخرج الإمام أحمد الجملة الأولىٰ منه، برقم: (١٣٠٥٢)، (٢٠/ ٣٤٦).

الصحراء، ما وصل إلىٰ ما يريد، ولا بقيت له دابةٌ، فهذا هو المُنْبَتُّ الذي يُثقِلُ علىٰ نفسه بالعبادات، فيصل إلىٰ مرحلةٍ يضعُف فيها، وربما يخسرُ نفَسه، والنفسُ تحتاج إلىٰ راحةٍ ساعةٍ وساعةٍ، النَّفْسُ تحتاج إلىٰ أوقاتٍ تتزودُ فيها بالتقوَىٰ، وترتاحُ، مثلُ سيرِ الدَّوابِ، أو سيرِ القَاطرات أو السيَّارات تحتاجُ إلىٰ التَّوقُّفِ،أمَّا الذي لا يتوقَّفُ فربما ينتجُ عنه مَللٌ، أو ضعفٌ في السيرِ فينقطِعَ، فيحتاج الشَّخْص في أعماله إلىٰ أن يسيرَ برفقٍ وبلينٍ، فهذا هو سيُر الأنبيَاءِ -عليهم الصَّلَاةَ والسَّلَامُ-.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦٠].

قالت عائشة: يا رَسُول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أَن يُعاقب؟ قال: (لا يا بنت الصديق، هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أَن لا يقبل منه) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.



الشَّرح

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، والخشيةُ ليست مثلُ الخَوْفِ، الخشيةُ أدقُّ، ولهذا قال النَّبِيّ ﷺ: (إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية)، فالخشيةُ قالوا: انقباضٌ، أي: خوفٌ مع حياءٍ، ولكن الخَوْف يكون خوفًا مجرداً، فالخشيةُ أعلىٰ وأدقُّ، ولهذا النَّبِيّ ﷺ ذكر أَنَّهُ أشدُّ من الصَّحابَةِ خَشيةً، فهنا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ما ذكر الخَوْفَ؛ لَأنَّ الخشيةَ أدقُّ.

قوله: (قالت عائشة: يا رَسُول الله هو...)[1] هذا الحَدِيث ما صحَّ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فإن في السندِ انقطاعـًا، أي أَنَّ الذي رواه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لم يسمع منها، وإنما سمعه من غيرها، ولكنه أسقطَ الرجل الذي بينه وبين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وعادة ما يُلجَأ إلىٰ هذا الأسلوبِ إذا كان الرَّاوي ضَعِيفًا، فيُسقَطُ حتىٰ لا يُؤثرُ علىٰ دَرَجَة الحَدِيثِ، لكنَّ العُلَمَاء رَحِمَهُمُ اللهُ كشفُوا هذا النَّوْعُ من أنواع التَّدلِيسِ.

---

(١) أخرجه التِّرمِذِي في سننه بلفظ الجمع، كتاب تَفسِير القُرآن، بَاب ومن سورة المُؤمِنون، برقم: (٣١٧٥). وابن ماجه في سننه، بلفظ المفرد، كتاب الزهد، بَاب التوقي في العَمَل، برقم: (٤١٩٨)، والإمام أحمد في المسند، برقم: (٢٥٧٠٥)، (٤٢/ ٤٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في الخَوْف من الله تعالىٰ، برقم: (٧٦٢)، (١/ ٤٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه علىٰ التِّرمِذِي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القَيِّم: الخَوْف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليق وله ألزم، فإن العبد إِمَّا أَن يكون مستقيمًا، أو مائلاً عن الاسْتِقَامَة، فإن كان مائلاً عن الاسْتِقَامَة فخوفه من العقوبة علىٰ ميله، ولا يصح الإِيمَان إلا بهذا الخَوْف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها. والثاني: تصديق الوعيد، وَأَنَّ الله رتب علىٰ المعصية عقوبتها. الثالث: أَنَّهُ لا يعلم أَنَّهُ يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخَوْف، وسبب قوتها وضعفها بكون قوة الخَوْف وضعفه، هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد، وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخِرَة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوقوف بإتيانه بالتوبة النَّصوح هاج من قلبه من الخَوْف ما لا يملكه، ولا يفارق حتىٰ ينجو، وأَمَّا إن كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون من جريان الأنفاس لعلمه بأَنَّ الله مقلب القُلُوب.

الشَّرْح

ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ له توجيهاتٌ تربويةٌ جميلةٌ، يقول: ليس هناك عملٌ للإنسان أحسنُ من الخَوْفِ، والنَّاسُ نوعان: نوعٌ مستقيمٌ، ونوعٌ مائلٌ عن الاسْتِقَامَة.

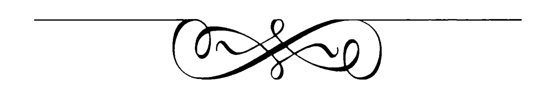
فالمائلُ عن الاسْتِقَامَة يخافُ الله بوجودِ ثلاثةِ أمورٍ، فلا بُدَّ من وجود خوفِه من الله من هذه الأمور الثلاثة:

أولاً: أَن يعرفَ عِظمَ الذَّنبِ الذي يقومُ به، فإنَّه يعصىٰ اللَه الخالِق ﷻ .

والأمر الثاني: أَن يُصدِّقَ بأَنَّ هذا الذَّنبِ عليه عقابٌ.

الأمر الثالث: خوفُه أَنَّ الله لا قد يقبلُ توبَته، ولهذا ينبغي أَن يستشعرَ كلَّ هذا الُمذنِبُ، ولكن إن غابت عن ذهنه هذه الأمور الثلاثةُ فإنَّه لا يخافُ من الله. وعندئذٍ ينطبقُ في حقِّه ما جاء في الحَدِيث: (إن المُنافِق إذا أذنب ذنباً كأنما ذباب وقع علىٰ أنفه فطار) هذا لا يُقِّدر اللهَ ولا يُعظِّمُه، (لكن المُؤمِن إذا وقع في ذنب كأنه في أصل جبل يخشىٰ أَنَّ يقع عليه)(١)، إذا كان الإنْسَانُ في قعر جبلٍ، والجبلُ قد مال، أو تحت عمارةٍ كبيرةٍ ورأىٰ العمارةَ قد مالت، كيف يعيشُ وهو يشاهدُ العمارةَ قد تسقطُ عليه؟ فإنَّه يعيش في خوفٍ شديدٍ جداً، قال: هكذا حالُ المُؤمِن إذا وقعَ في ذَنبٍ يخشىٰ أَنَّ اللهَ لا يقبلُ توبتَه.

" أَمَّا إن كان مستقيماً فيخشىٰ بعدد جريان النَّفَسِ "، يقول: ما بين تَنفُّسٍ وآخرَ قد يُغير الله حالَه من حالٍ إلىٰ حال، ربما يتنفَّس الأُولىٰ وهو علىٰ الاسْتِقَامَة، ثُمَّ يحدث له انحرافٌ، فلا يُخرجَ النَّفَسَ ثانيةً إلا وقد انحرف، فينبغي أَن يخافَ، فإنَّه ما دام حياً فوقوعُ الانحراف منه مُمكنٌ،أي: الإنْسَانُ لا زال حياً فانحرافه لا زال مُمكناً، فيخاف؛ لأَنَّه لا يدري بماذا يُختمُ له من العَمَل، فيعيش دائماً علىٰ خوفٍ ووجَلٍ، هذا المستقيمُ، وأَمَّا صاحبُ المعصيةِ فيعيشُ غافِلاً لاهِياً عن ذُنوبِه .



(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن القَيِّم: وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ، فإن شاء أَن يقيمه أقامه وَأَن شاء أَنَّ يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ. وكانت أكثر يمينه: (لا ومقلب القُلُوب)، ويكفي في هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، فأي قرار لمن هذه حاله، ومن أحق بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال، وَإن توارىٰ عنه بغلبة حال أخرىٰ عليه فالخوف حشو قلبه، لكن توارىٰ عنه بغلبة غيره، فوجود الشيء غير العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخَوْف ثمرة العلم بقدرة الله ﷻ، وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرف له كيف يشاء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران:٦]. انتهىٰ.

الشَّرح

قوله: (قال ابن القَيِّم: وما من قلب إلا...)(١) هذا الحَدِيثُ صحيحٌ كما قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه قد وردَ في بعض الكتبِ غيرِ الصَّحِيحين من المُسند

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، بلفظ: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كما يشاء"، كتاب القدر، بَاب تصريف الله القُلُوب كيف شاء، برقم: (٢٦٥٤)، (٤/ ٢٠٤٥)، وأخرجه بلفظ الشَّارِحُ الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٧٦٣٠)، (٢٩/ ١٧٨)، وقريب منه للترمذي في سننه، كتاب الدعوات، بَاب (٩٠)، برقم: (٣٥٢٢)، والنسائي في الكبرىٰ، كتاب فضائل القُرآن، بَاب ذكر أسماء الله تعالىٰ، برقم: (٧٦٩١)، (٧/ ١٥٦)، وابن ماجه في سننه، المقدمة، بَاب فيما أنكرت الجهمية، برقم: (١٩٩)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٢٣٨١)، (٣/ ٣٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب، برقم: (١٩٧٨)، (١/ ٧١٤)، وصححه ووفقه الذهبي.

والمُستدرَكِ وغيرهما، ومعناه أَنَّ الإنْسَان ينبغي له أَنَ يخافَ علىٰ نفسه، فلا ينبغي له أَن يركَن إلىٰ جُهدِه أو إلىٰ عملِه، ويظنُّ أَنَّهُ في مأمن من تقلُّبِ الحَيَاة، فإِنَّ الإنْسَانَ قد يُقصِّرُ في حقٍ من حقوق الله، وقد يتجاوزُ بعضَ أوامرَ الله، وقد يتساهل ببعض حقوقِ الله ينتجُ عنها أَنَّ الله يخذُلُه، وَأَنَّ الله يحرمُه من الإِيمَان، فقال: ينبغي للإنسان أَن يبقىٰ دائمـًا علىٰ وَجَلٍ خائفـًا من النهاية، لا يدري ماذا تكونُ نهايتُه، هذا الخَوْفُ يجعلُه دائمـًا يترقَّبُ الخيرَ ولكنَّه يخشىٰ من ضدِّه،أَمَّا إذا أَمِن وركنَ إلىٰ أعمالِه وإلىٰ نفسه فربما هذا الركونُ يُؤدِّي به إلىٰ موتِ قلبِه وهو لا يعلمُ.

قوله: (وكانت أكثر يمينه: لا ومقلب القُلُوب...)[1] هذا النَّص بكامله نقله عن ابن القَّيِّم رَحِمَهُ اللهُ، وهو يقول: أَنَّ الإنْسَان قد يُوَجَدُ في قلبِه الشيءُ وهو لا يشعرُ به، ويضرب ابنُ تَيْميَة رَحِمَهُ اللهُ لهذا مثالاً بالنِّيَّةِ، يقول: بعض المذاهب فهموا أَنَّ النِّيَّةَ ليست حاصلةً بمجردِ الإقدامِ علىٰ بعضِ العبادات، فتراه يحاولُ أَنَّ يُحصِّلَها، وبخاصةٍ الشَّافعية؛ لأَنَّ الشافعيةَ فهمت من كلام الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ فهمـًا خاطئـًا، فإنهم عند الوقوفِ للصلاةِ وإرادة التكبير يبدأ يقول: اللهم إني نويت أَنَّ أصلي صلاة الظهرِ أربعَ ركعات حاضراً. ويبدأ ينتظر متىٰ تحصلُ النِّيَّة في قلبِه علىٰ أَنَّ هذه أربعُ ركعَات، وأنها صلاةُ الظهر، فيقف قبل الدخول في الصَّلَاة ويريد أَنَّ يتطَابقَ ما في قلبِه مع حركةِ يديه، وربما بعضُهم يستمرُّ من بداية الركعة، ولا تأتِي النِّيَّةُ عندَه إلا عند النهايةِ، فيقول رَحِمَهُ اللهُ: هذا من الجَهل، النِّيَّةُ حاصلةٌ، فأنت خرجتَ من بيتك للصلاة، وتوضأتَ للصلاة، وجئتَ في هذا الوقت بالذات للصلاة، ففي قلبِك النِّيَّةُ حاصلةٌ، وتحصيل الحاصلِ مُتعذِّرٌ.

---

(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب التَّوْحِيد، بَاب مقلب القُلُوب، برقم: (٧٣٩١).

فالشيء قد يكون في قلبِ الإنْسَان وهو لا يشعرُ به، فمثلاً: في قلبِ الإنْسَان الخَوْف من الله، ولكن أحياناً قد يُغمر بعملٍ آخر، أو بانشغالٍ بموضوعٍ آخر، لكن يعني هذا أَنَّ الخَوْفَ قد ذهبَ، وتعرفُ خوفَك من الله إذا عرضَ لك أمرٌ حرامٌ فيه عقابٌ، عندئذٍ ترىٰ هل هناك شيء يمنعُك؟ إذاً هناك خوفٌ، إذا لم يكن هناك شيءٌ يمنعُك إذاً ليس في قلبك خوفٌ، لكنَّ عدمَ وجودِ الاختبارِ لا يعني عدمُ وجودِ الخَوْفِ، فقد توجدُ في قلب الإنْسَان بعضُ الأعمال القَلْبية ويظن أَنَّهُا غيرُ موجودةٍ، مثلاً حبُّ الله ﷻ، أو حبُّ رسولِه ﷺ، الإنْسَان يقول: الآن ما هناك حبٌّ؛ لَأنِّي لا أشعر به. لكن لو جاء أحد وانتهك حرماتُ الله، هناك يظهرُ في قلبِك حبك لله وحبُك لرسوله ﷺ، أي: تبدأ علامات التعظيم في القَلْبِ، أمَّا إذا رأيتَ المُنكرات والفسادَ، وأنه تنتهك حرماتُ الله ولم تتحرك، فقلبُك ليس فيه تعظيمٌ لله، ولا حبٌ لله ﷻ. فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ قد يُوَجَدُ في القَلْب الحبُّ والخوفُ والتعظيمُ، لكنه لا يظهر لِإنشِغال القَلْبِ بغيره، فلا يعني أَنَّهُ لا يُوَجَدُ، بل يُوَجَدُ لكن يظهر ذلك عندما يُحتاجُ إليه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فهذا الخَوْف الثاني هو من خوف المكر، إذا علمت هذا فمعنىٰ الآية المترجم لها: أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لما ذكر حال أهل القرىٰ المكذبين للرسل بيَّن أَنَّ الذي حملهم علىٰ ذلك هو الأمن من عذاب الله، وعدم الخَوْف منه، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف:٩٧، ٩٨].

الشَّرح

إن الأرض نَصْفُها ليلٌ ونصفٌ نهارٌ، فإذا قامت السَّاعَة تقوم في الَّليل والنهار، تقوم علىٰ أناس بالليلِ، وعلىٰ أناس بالنَّهار، فيقول عَزَّ وَجَلَّ : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف:٩٧] إذا جاء أمر الله وعمَّ الأرضَ فسيكون قومٌ في بياتِهم نائمين، ويكون قومٌ في ضحاهم يلعبون أو يلهُون، فسيأتي في وقت واحدٍ علىٰ هؤلاء في النَّهار، وعلىٰ هؤلاء في الَّليل، إذا أراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالبأسِ نهايةَ العالمِ، أمَّا إذا أراد التهديدَ فيعني أنَّك أيها الإنْسَان لا تدري متىٰ يأتي عقابُ الله، قد يأتيك وأنت نائمٌ، وقد يأتيك وأنت تلعب. فينبغي لك أَن تعيشَ مُترقِّبـاً خائفـاً، هذا الترقُّبُ هو الذي يمنعُك من محارمِ الله، فهذا تهديدٌ للقوم الذين يأمنون من مكرِ الله، ويعيشون علىٰ معاصيهم وعلىٰ فسادِهم، فلا يتوقَّعون أَن يأتيهَم العقابُ، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ : هل أمنوا أَن يأتيَهم البأسُ وهم نائمون؟ أو أمنوا أَن يأتيَهم وهم في فرحِهم يلعبون؟علىٰ أي الأمرين جاءَ فإنَّ في ذلك عذابـاً شديداً، أعاذنا الله من عذابه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

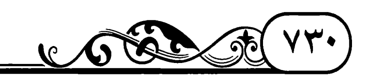
ثم بيَّن أَنَّ ذلك بسبب الجهل والغرة بالله، فأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء، بأن يكون استدراجًا، فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، أي: الهالكون، فدل على وجوب الخَوْف من مكر الله.

قال الحسن: من وُسع عليه فلم ير أَنَّهُ يمكر به فلا رأي له، ومن قُتر عليه فلم ير أَنَّهُ ينظر له فلا رأي له. وقال قتادة: بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إِنَّهُ لا يغتر به إلا القوم الفاسقون. رواهما ابن أبي حاتم.



الشَّرح

يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ النَّاسَ قسمان: قسمٌ وسَّع الله عليهم في الدُّنْيَا، وقسمٌ قتَّر الله عليهم في الدُّنْيَا، فكيف ير الذين وُسِّع عليهم؟ وكيف يَنظرُ الذين قُتِّر عليهم؟ قال: من وُسِّع عليه في دنياه فلم ير أَنَّهُ يُمكرُ به - ومعنى المكرُ به كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣]، قد يُملي الله للعاصي، يُعطِي الله الإنْسَانَ من الدُّنْيَا وهو مقيمٌ على معصيةِ الله، هذا العطاءُ يجعلُه يركنُ إلى الدُّنْيَا ويطمئنُ إليها - وقال: إذا ظنَّ من وُسِّعَ عليه في الدُّنْيَا أَنَّهُ لا يُمكرُ به فإنَّه إنسانٌ جاهلٌ، أمَّا من قُتِّر عليه فليعلم أَنَّ هذا من تدبيرِ الله له؛ لأَنَّه ربما لو وَسَّعَ الله عليه في دنياه لَا نحَرف وضلَّ، لكن الله نظرَ إلى مصلحتِه فمنعه من الدُّنْيَا كما يُمنعُ المريضُ من شهوته التي تضرُ بصحتِه، فهذا له نظرٌ، وهذا له نظرٌ آخر.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الحَدِيث: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدُّنْيَا علىٰ معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج) رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر الله إقامة العبد علىٰ الذنب يتمنىٰ علىٰ الله المغفرة. رواه ابن أبي حاتم.

قال: وقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

نبه المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآيَة علىٰ الجمع بين الرَّجَاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العَمَل الصَّالِح، كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨]، فذكر سبحانه أَنَّهُم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد في الأعمال الصَّالِحة، فأما الرَّجَاء مع الإصرار علىٰ المَعَاصِي فذاك من غرور الشَّيطَان.

الشَّرْح

الحديثُ: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدُّنْيَا)[١] طرقُه ضَعِيفةٌ، لكن بعض العُلَمَاء يحسِّنه لكثرة طرقِه.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ ولم يَجزِموا بقبولِ الطاعاتِ كما قَالَ - تَعَالَى - :

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: (١٧٣١١)، (٢٨/ ٤٥٧)، وابن أبي حاتم في تفسِيره، برقم: (٧٣١٩)، (٥/ ٢٣٠)، والطبري في تفسِيره، برقم: (١٣٢٤٠)، (١١/ ٣٦١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:٢١٨]، قدَّمُوا العَمَل الصَّالِح ثُمَّ هم يرجون رحمَةَ الله، لكن الذي لا يقدِّمُ عملاً صالحـاً كيف يرجو رحمةَ الله؟ رحمةُ الله ﷻ لها أسبابٌ، ولهذا من أدلةِ عدمِ صحةِ أحاديثِ ليلةِ النَّصف من شعبان أنَّها لم تربط المغفرةَ بعملٍ، بل يقول: إنَّ الله يطَّلِع إلىٰ أهل الأرضِ ليلةَ النَّصفِ من شعبانَ فيغفِرَ لكلِّ النَّاس ما عدا مُشركٍ أو مُشاحنٍ، ليس في الدِّين وجود زمنٍ يكون سَبَبًا لمغفرةِالذُّنُوب، ولكن العَمَل هو السَّبَب، مثلاً في رمضان: (**من قام رمضان إيمانـًا واحتسابـًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**)[1]، (**من قام ليلة القدر غُفر له**)[2]، (**ينزل الله عشية عرفات إلىٰ السماء الدُّنْيَا فيقول: ماذا يريد عبادي هؤلاء، انظروا إلىٰ عبادي قد أتوني شعثـًا غبراً، أشهدُكم إني قد غفرتُ لهم**)[3] أتوني،أي: هم عملوا في زمن مباركٍ.

أما ما جاء في النَّصف من شعبان من أَنَّ الله يغفر بدون سَبَب فهذا لا يُوَجَدُ في الدَّين ، ولا في نَصٍّ من النَّصوْص الصَّحِيحة أَنَّ هناك مغفرةً بدون عمل من الإِنْسَانِ، فدلَّ علىٰ أَنَّ هذه الأَحَادِيث بالإضافة إلىٰ ضعفِ أسانيدها لا يصحُّ معناها؛ لأَنَّه لم يفعل شيئـًا حتىٰ يُغفر له؟ الله كريمٌ يغفرُالذُّنُوبَ، ولكنه جَعَلَ أسبابـًا، كما تدلُّ عليه قصةُ مريمَ عليها السَّلَامُ عندما جاءها المخاضُ، الله قادرٌ

---

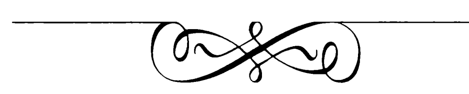
(١) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الإيمَان، بَاب تطوع قيام رمضان من الإيمَان، برقم: (٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصِّيَام، بَاب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، برقم: (٧٥٩)، (١/ ٥٢٣).

(٢) أخرجه البُخَارِي في صحيحه، كتاب الإيمَان، بَاب قيام ليلة القدر من الإيمَان، برقم: (٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصِّيَام، بَاب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، برقم: (٧٦٠)، (١/ ٥٢٣).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمَان، بَاب في المناسك، الوقوف يوم عرفة بعرفات وما جاء في فضله، برقم: (٤٠٦٨)، (٣/ ٤٦٠)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، بَاب تباهي الله أهل السماء بأهل عرفات، برقم: (٢٨٤٠)، (٤/ ٢٦٣).

علىٰ أَنَّ يُنزِّلَ عليها الرُّطبَ بدون حركةٍ، لكنَّه قال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، أي: قدِّمي عملاً، الجِذعُ لا يتحرَّكُ، لكن امدُدِي يدَيكِ، فينزل الله ، فلابُدَّ أَنَّ نعملَ سَبَبًا، كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، أي اعبدني واستعن، ليس أَن تستعينَ فقط بدون عبادةٍ بدونِ عملٍ، فليس في الشَّرع عملٌ أو مغفرةٌ بدون عملٍ، إمَّا عملُ قلبٍ وإِمَّا استغفار لسانٍ، وإِمَّا توبة، لكن في شعبان يغفرُ الله مقابلٌ لا شيءَ من العبد !، فمع ضعف الحَدِيثِ يقابلُه ضعفٌ في المتنِ وفي المَعْنَىٰ.

فهؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ قدَّموا عملاً صالحًا ورجُوا رحمةَ الله، فليس هناك في الشَّرعِ رحمةٌ أو مغفرةٌ دون عملٍ، فكلُّ الآياتِ القُرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ الصَّحِيحة لا يُوَجَدُ فيها نَصٌّ بأَنَّ الزمنَ أو المكانَ أو النَّسَب بِسببِه يُغفرُ للإنسان، بل كلُّها تدلُّ علىٰ أَنَّهُ لا يُغفرُ له إلا بعملِه، فهذا مرادُ الشَّارحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الإنْسَان يُقَدِّمُ ثُمَّ يرجُو، أمَّا إذا لم يعملْ ورجَا فإنَّه يكون خائبًا أو مُخطِئًا في ذلك.



قال المؤلف رحمه الله:

إذا تبين ذلك فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ حكاية قول إبراهيم عليه السلام لما بشرته المَلَائِكَة بولده إسحاق عليه السلام، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر:٥٤] استبعاداً لوقوع هذا في العادة مع كبر السن منه ومن زوجته، ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٥٥] أي: الذي لا ريب فيه ولا مثنوية، بل هو أمر الذي ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢]، وَإن بعد مثله في العادة التي أجراها فإن ذلك عليه يسير إذا أراده ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ أي: لا تيأس من رحمة الله، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦]، فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وَإنَ كانت قد كبرت وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قال السدي: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ قال: من ييأس من رحمة ربه. رواه ابن أبي حاتم ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف:٨٧].

الشَّرح

قوله: (مثنوية) أي: لا رَجعَةَ، أي: وعدٌ ليس فيه رجوعٌ، بل وعدٌ صادقٌ.

قوله: (إذا تبين ذلك فقوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ حكاية ...) هذا محاورةٌ بين إبراهيمَ عليه السلام وبين المَلَائِكَة، فالملائِكةِ بشرَّت إبراهيمَ عليه السلام

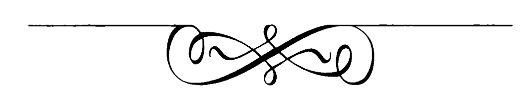
بالولدِ، وقد كَبُرت سنُّه هو وزوجتُه ، فقال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: أصبحت أنا في سن كبيرة لا يولد لمثله، فردوا عليه فقالوا: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، ثُمَّ وعظوه بأن لا يقنط من رحمة الله. يُستفاد من هذا الموقف أَنَّ الإنْسَان العظيم قد يغفل عن بعض جوانب الحقيقة، فإبراهيم -عليه الصَّلَاة والسَّلَام - دلَّ كلامُه علىٰ أَنَّهُ ما استحضر في هذا الموقفِ قدرةَ الله، وإلا فإنَّ إبراهيمَ عليه السلام نبيٌّ، وعندما ذكَّرته المَلَائِكَة ونصحته تَذَكَّر، فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ أنا لا أقنط، لكني أقول: قد كبُرت سِنِّي. فقالوا: الله يقدرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، وإبراهيمُ عليه السلام يعلم أنَّهُ يقدرُ علىٰ كلِّ شيءٍ.

فالإنسانُ الجليل الكبيرُ قد يغفُل عن بعض القضايا، ولا يمنع أَنَّهُ يُنصحُ، فالملائكةُ تنصحُ إبراهيمَ عليه السلام مع أَنَّهُ نبيٌّ من أنبياء الله ، بل هو خليلُ الرحمن، قد اجتباه الله علىٰ كلِّ الأنبِيَاءِ، واصطفاه ورفعَه، حتىٰ سُمِّي بأنه خليلُ الرحمنِ لكرمِه وجهادِه في سبيلِ الله، وتحمُّلِه العنتَ أمَام ذلك الطاغيةِ النمرود الذي رماه في النَّار، فوقف المواقفَ العظيمةَ، فمواقفُه كلُّها رفعته عند الله سبحانه وتعالى، لكنه بشرٌ، وقلنا: أَنَّ كمالَ البَشَرِيَّة لايعني عدمَ الخطأ، بل كمالُ البَشَرِيَّة أَن تكون الأخطاءُ قليلةً؛ لَأنَّ الإنْسَانَ إذا ما أخطأ فهذا إلهٌ، ليس هناك إنسانٌ لا يخطئ، لكنَّ الفرقَ بين الأنبِيَاء وبين غيرهم أَنَّ الأنبِيَاءَ أخطاؤهم قليلة أمام ثوابهم الكثير.

وهكذا كما قيل في المثل: كفىٰ بالمرء نبلاً أَن تُعَدَّ معايبُه، لكن الإنْسَانَ الفاسدَ يُقال فيه: إنَّ فلاناً كلُّ شيءٍ فيه إلا كذا وكذا. لا يُقال: كلُّ شيءٍ فيه طيبٌ إلا كذا وكذا. فحياتُه كلها خطأٌ إلا ما يُعدُّ علىٰ الأصابعِ بخلاف الإنْسَانِ

الفاضلِ، يُقال: هذا الإنْسَانُ إنسانٌ فاضلٌ لكن عنده كذا وكذا، فما هناك إنسانٌ ليس عنده أخطاء، والله ﷻ يعرضُ علينا في القُرآن الكَرِيم مواقفَ الأنبِيَاءِ وما عاتبهم فيه وما أخطئوا فيه؛ ليُبينَ أَنَّ طبيعةَ البَشَرِيَّة تُلازمُ الإنْسَانَ ولو كان نبيًا، لكن الله ﷻ يُكمِّله ويَصطفيه.

فإبراهيمُ عليه السلام استغرب أَن يأتيه الولدُ علىٰ كِبر سنِّه، فالملائكةُ تذكِّره أَنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، سواء كان كبيراً أم صغيراً، فإنَّ الله قد يخلُق الولدَ من غير أبٍ ولا أمٍ، وقد يخلقُ الولدَ من غير أب كما حدث لعيسىٰ عليه السلام، فهذا الموقفُ نأخذُ منه دَرساً أَنَّ الإنْسَانَ الكبيرَ قد يُخطئُ، وتنبيهُه ليس فيه نقصٌ عليه.





قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي حـديث مرفـوع: (العـاجز الراجـي لرحمـة الله أقـرب منهـا مـن العابـد القانط) رواه الحكيم التِّرمِذي والحاكم في تاريخه.

قال: عن ابن عبَّاسٍ أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئل عن الكَبَائِر قال: (الشِّرك بـالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله).

ش: هذا الحَدِيث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريـق شبيب بـن بشـر عـن عكرمة عن ابن عبَّاسٍ: (أن رَسُول الله ﷺ كان متكئًا فدخل عليـه رجـل، فقـال: ما الكَبَائِر؟ فقـال: الشِّـرك بـالله) وذكـر الحَدِيث، ورجالـه ثقـات إلا شـبيب بـن بشر، فقال ابن معين: ثقة. ولينه ابن أبي حاتم، ومثل هذا يكون حسنـًا. وقـال ابـن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أَنَّ يكون موقوفـًا.



الشَّرْح

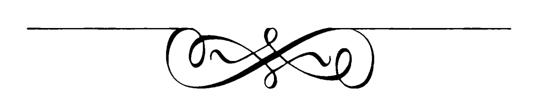
قوله: (وفي حديث مرفـوع: (العـاجز الراجـي...)[1] الحكـيمُ التِّرمِـذي غـير التِّرمِذي المشهور صاحب السنن، الحكيم التِّرمِذي له كتابٌ في الشـمائلِ، ولـه كلامٌ شنَّعَ العُلَمَاءُ عليه من أجله؛ لَأنَّه تكلَّم عـن خـاتمِ الأوليـاء بكـلامٍ مـردودٍ، فهذا الحَدِيث في كتابه، وهو حديث ضَعِيفٌ بـل موضـوع، ولا يصـحُ إلـىٰ نبينـا عليه - الصَّلَاة والسَّلَام -، لكن لا شكَّ أَنَّ الإنْسَانَ الخائفَ من معصيته أقـربُ إلىٰ الله من الذي قد اطمأنَّ إلىٰ مغفرةِ الله وإلىٰ ثوابـهِ مـع الطَّاعَـة، لكـنَّ الفـاجرَ الذي يخافُ الله ويرجو رحمتَه سيبقىٰ فـاجراً، بـل يرتـدع مـن فجـوره، فكيـف يكـون فـاجراً وراجيـاً رحمـة الله؟!! الـذي يفكـر في الله ويستحضـره في ذهنـه

(١) لم أجده في دواوين السُّنَّة.

ويذكره ما يبقىٰ علىٰ معصيته، فهذا تناقضٌ، فالفاجرُ لا يرجو، ما هناك فاجرٌ يرجو، بل هناك إنسانٌ عاصٍ يقعُ ويغفلُ ثُمَّ يستيقظ، ويعود إلىٰ الله سبحانه وتعالى.

قوله: (قال: عن ابن عبَّاسٍ أَنَّ رسول...)[1] هذا الحَدِيثُ يقول عنه ابنُ كثير رحمه الله: الأشبه أَنَّهُ موقوفٌ علىٰ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، ولا يصحُّ رفعه إلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: (ش: هذا الحَدِيث...) شبيب بن بشر هذا الذي قال فيه ابن معين: ثقةٌ. قال البُخَارِي: مُنكَرُ الحَدِيثِ. وقال ابن أبي حاتم: لَيِّنُ الحَدِيثِ، حديثُه حديثُ الشيوخ. وكلمةُ الشُّيوخِ في الماضي كانت تُطلق علىٰ الشَّخْصِ الذي لا يَتَوَثَّقُ مما يَروي. وقال ابن حبان: يُخطِئُ كثيراً. وهذا تضعيفٌ للرَّاوي. فمحَصِّلُ كلامِ العُلَمَاءِ فيه لا يدُلُّ علىٰ تحسينِ روايتِه، والله أعلم.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تَفسِيره، برقم: (٥٢٤٤)، (٤/ ١٢٥)، وأكثر المحدثين وقفوه علىٰ ابن مسعود- وسيأتي.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (الشِّرك بالله هو أكبر الكَبَائِر) إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وإلههم ومالكهم وخالقهم الذي لا إله إلا هو، وعدل غيره به كما قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام:١]، فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، ولهذا لا يُغفر أَنَّ لم يتب منه، بخلاف غيره منالذُّنُوب، ففي مشيئة الله أَنَّ شاء غفرها وَأَنَّ شاء عذب بها.

الشَّرح

قوله: (قوله: الشِّرك بالله هو أكبر ...) الشِّركُ أعظم الكَبَائِر، ولهـذا فإنـه الذنبَ الوَحْيدَ الذي لا يغفرُه الله؛ لَأنَّه يتعلَّق بحقِّـه ﷻ، فأنـت صـرفت حـقَّ الخـالِق إلـىٰ المَخْلُـوق، أمَّـا المَعَاصِـي الأخـرىٰ فـإن سَـبَبها يكـون ضـعفًا في الإنْسَـان، فالضـعفُ البَشَـري قـد يغفـرُه الله ﷻ، لكـن أَن تعـدِلَ بـالله غيـرِه، فترجـوه مـع الله، وتخافَـه مـع الله، وتتوكَّـل عليـه مـع الله، وتسـتعينُ بـه مـع الله، وتدعوه مع الله، وتخضعَ وتذلَّ له مع الله، فلا يغفرُه؛ لَأنَّك قد رفعتَ المَخْلُـوق إلىٰ مكـان الخـالِق، وهـذا أكـبر الـذُّنُوب، لكـن الإنْسَـان قـد يقـع في خطيئـةٍ عـن ضعفٍ وجهلٍ وعن نقصٍ إيمانٍ، فهذا إلىٰ مغفرةِ الله ورحمتِه، فإن كان عنده في الآخِرَة من الحسناتِ ما يُغطِّي هـذا الـنقصَ غفـره الله ﷻ، وإن كانـت سيئاتُه أكثر فإن هناك الميزانُ، قد يُعذَّب بقدر سيئاتِه، وقد يعفو الله عنه، فإن الله غفـورٌ رحيم كريمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنَّ الشِّركَ لا يغفره الله بأن تحبَّ مـع الله غيـره، وأَن تُعظِّـم مع اللهِ غيرِه، أَن تجعـلَ طاعـةَ الله كطاعـةِ المَخْلُـوقِ، أَن تتوكـلَ علـىٰ المَخْلُـوق توكُّلُك علىٰ الله، أَن تدعو مع الله غيرَه، سواء كان نبيـًا من الأنبِيَـاء أو ملكـًا مـن المَلَائِكَة، أو كان حيًّا أو ميِّتـًا، فصرفُ حقِ الله لغيره أو إشـراكُ غيـرِ الله مـع الله في حقِّه شِرْكٌ لا يغفرُه اللهُ ﷻ.

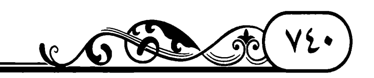
قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله: (واليأس من روح الله) أي: قطع الرَّجَاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده، قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]، وذلك إساءة ظن بكرم الله ورحمته وجوده ومغفرته.

الشَّرْح

هذا قولُ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حكاه القُرآنُ عنه، عندما قال: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]، وقصةُ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مذكورةٌ في القُرآن الكَرِيم، وما حدث ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكيف أَنَّ أباه بقيَ مُتعلِّقـًا به، وَأَنَّ أباه كان عنده إحساسٌ أَنَّ يوسفَ حيٌّ، أَمَّا إخوته فظنوا أَنَّهُ قد هلك؛ لأَنَّهم وضعوه في الجُبِّ، والجُبُّ بئرٌ لا يبقىٰ الإِنْسَانُ فيها إلا فترةً قصيرةً، وأَمَّا أبوه فكان عنده علمٌ من الله أَنَّ يوسفَ حيٌّ، فقال لبنيه: يا بني لا تيأسوا من روح الله، اذهبوا وابحثوا عنه، وكانوا يواجِهونه بشيء من الاستخفافِ أَنَّك قد كَبُرت سنُّك : ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف:٩٥]،أي: كأنهم يقولون: أنت لا زلت مُتعلِّقـًا بأمر قد انتهىٰ، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ فذكر يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اليأسَ من رحمةِ الله من أخلاقِ الكافرين.

واليأسُ: أَن تقطَع أَملَكَ في الخالِق؛ لأَنَّه قد يضعُفُ أملُك في الله وقد يقوىٰ، وهو ليس بيأسٍ، لكن اليأس: أَن تقطعَ رجاءك في الله، وهذا لا يقع فيه إلا إنسانٌ كافرٌ، أَمَّا المُسْلِم فقد يضعُفُ في قلبه الرَّجَاءُ حتىٰ يكون ضَعِيفـًا جداً، لكنه لا ينقطعُ، فانقطاعُ الرَّجَاء والأملِ في الله خلقٌ من أخلاق الكافرين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (والأمن من مكر الله) أي: من استدراجه للعبد أو سلبه ما أعطاه من الإِيمَان ـ نعوذ بالله من غضبه ـ وذلك جهل بالله وبقدرته وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أَنَّ هذا الحَدِيث لم يرد فيه حصر الكَبَائِر فيما ذُكر، بل الكَبَائِر كثيرة لكن ذكر ما هو أكبرها أو من أكبرها، ولهذا قال ابن عبَّاسٍ: (هي إلىٰ السبعين أقرب منها إلىٰ السبع)، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وفي رواية: (هي إلىٰ سبعمائة أقرب منها إلىٰ سبع غير أَنَّهُ لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع الإصرار).

الشَّرح

هل في الذُّنُوبِ كبائرٌ وصغائرٌ؟ سلفُ الأُمَّةِ يقولون: بأَنَّ المَعَاصِي فيها كبائرٌ وصغائرٌ، والقُرآن يدلُّ علىٰ ذلك، والسنةُ تدلُّ علىٰ ذلك، أَمَّا جُمهورُ المُتكلِّمين فإِنَّهم يقولون: ليس في الذُّنُوب صغائرٌ وكبائرٌ؛ لَأَنَّ الذي تعصيه هو الله، فكلُّ معصيةٍ تعصي فيها الخالقَ فإِنَّها كبيرةٌ؛ لَأَنَّها معصيةٌ، فيقولون: لا تنظرُ إلىٰ المعصيةِ، وانظر إلىٰ من تعصىٰ، ولكن شَتَّانَ بين الأعمال، والقُرآن قد ذكر الكَبَائِر، والسُّنةُ قد ذكرت الكَبَائِر، فلو لم يكن هناك تقسيم لها لما ذُكرت في القُرآن والسُّنَّة، كما قَالَ - تَعَالَى - : ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء:٣١]، فذكر أَنَّ هناك كبائرَ، وذكر أَنَّ هناك سيئاتٍ، فالسيئاتُ هي الصغائرُ، والأحاديثُ كثيرةٌ في ذكرِ الكَبَائِر، لكن قد يختلِفُ عدها من حديثٍ إلىٰ حديثٍ، إِمَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يذكر أحاديثَ بحسب حالِ السائلِ، وإِمَّا أَنَّ يكون الراوي لم يحفظ إلا هذه الكَبَائِر، وإلا فإن الكَبَائِر كثيرة.

هل هناك ضابط في الكبيرة والصغيرة؟، بعض العُلَمَاءِ قال: أَنَّ الكَبَائِرَ محصورةٌ فيما جاءَ في الأَحَادِيث، فكلُّ كبيرةٌ وردَ فيها حديثٌ صحيحٌ فهي الكبيرةُ، وما عداها ليس كبيرةٌ، ومنهم من قال: الضابط الصَّحِيح أَنَّ كلَّ عملٍ تَوعَّدَ الله عليه بنارٍ أو بلعنةٍ، أو بعقابٍ فإنَّه كبيرةٌ، وكلُّ عملٍ لم يذكر اللهُ له تَوعُّداً بنارٍ أو عقابٍ يكونُ صغيرةً، وتبعاً لاختلافِهم في الضَّابط العُلَمَاءُ مختلفون في عددِ الكَبَائِرِ، هل لها عدد محصورٌ، أم لا؟؛ لَأَنَّ هذا الضابطَ هو الذي يحكمُ ويفرِّقُ بين الكَبَائِرِ والصغَّائرِ.

ثم تكلَّموا في مبحثٍ آخرَ، هل الكَبَائِرُ تحتاج إلىٰ توبةٍ في الدُّنْيَا حتىٰ يدخُلَ صاحبُها الجَنَّةَ، أو أَنَّهُ إن مات بدون توبةٍ إنَّ الله قد يغفرُها له؟ منهم من قال: من مات علىٰ كبيرةٍ فإنَّه مُعرضٌ للعقابِ. ومنهم من قال: لابدَّ أَنَّ يُعاقبَ. ومنهم من قال: لا، إنَّ الكبيرةَ وَإن كانت كبيرةً، وقد توعَّدَ الله عليها بالعقابِ فإنَّ اللهَ قد يغفرها إلىٰ جانبِ الحسناتِ الأُخرىٰ.

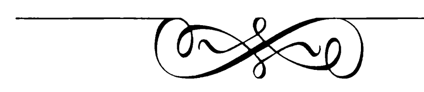
الصغائرُ لا تحتاج إلىٰ توبةٍ؛ لَأَنَّها تُكفَّرُ بالصلوات الخمسِ والعمرةِ والحجِّ والاستغفارِ والذِّكرِ، هذه كلُّها تُكفرُ المَعَاصِي الصغيرةَ، واجتنابُك للكبائرِ سَبَب في تكفيرِ الصغائرِ، فلا يحتاجُ إلىٰ إحداثِ توبةٍ منها، إذا لم يُصر عليها؛ لَأَنَّ بعض العُلَمَاءِ يقول: إنَّ الإصرارَ علىٰ الصغيرة يُحيلُها إلىٰ كبيرةٍ. لكن لا شك أَنَّ الذي يتوبُ من كل ذنبٍ أكملُ، فينبغي أَن يتوبَ إلىٰ الله دائماً، يتوبُ إلىٰ الله من كلِّ عملٍ كبيرةٍ أو صغيرةٍ، مثلاً: النظرةُ صغيرةٌ من الصغائرِ؛ لَأَنَّه ليس مُتوعَّداً بالعقابِ، لكن لو لم يتب منها قد تُؤثرُ في إيمانِه، قد تُضعفُ الإِيمَانَ؛ لَأَنَّ كثرةَ المَعَاصِي تُؤثِّرُ علىٰ صفاءِ الإِيمَانِ،

ولهذا يُروىٰ في أثر أَنَّهُ لا كبيرةَ مع الاستغفارِ، ولا صغيرةَ مع الإصرارِ، فالذي يُصرُّ علىٰ المعصيةِ الصغيرةِ ويداوم عليها تنقلبُ في حقِّه إلىٰ كبيرةٍ؛

لَأَنَّه قد أصرَّ عليها مع علمِه بأَنَّها معصيةٌ. فالمعاصي كلُّها لابدَّ لها من استغفارٍ وتوبةٍ إلىٰ الله ﷻ.

والمعاصي علىٰ ثلاث درجات:

- شركٌ لا يغفره الله.
- كبائرُ تحتاج إلىٰ توبة.
- صغائرُ تُغفرُ إذا اجتنبَ الإنْسَان الكَبَائِرَ، وكذلك الأعمالُ الصَّالِحات كالصلوات الخمس فإن الله يكفِّر بها صغائرَ الذُّنُوبِ.



قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: (وعن ابن مسعود قال: أَكْبَرُ الكَبَائِر الإشْرَاكُ بالله، والأمنُ مِنْ مَكْرِ الله، وَالْقَنُوطُ منْ رَحمةِ الله، وَاليَأْسُ مِن رَوحِ الله) رواه عبد الرزاق.

ش: هذا الأثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود.

قال ابن كثير: وهو صحيح إليه بلا شك، ورواه الطبراني أيضًا.

قوله: (أَكْبَرُ الكَبَائِر الإشْراكُ بالله) أي: في ربوبيته أو عبادته، وهذا بالإجماع.

الشَّرح

قوله: (قال: وعن ابن مسعود...) هذا ليس حديثًا مرفوعًا، بل أثر موقوفٌ علىٰ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد رَوىٰ أحاديثَ الكَبَائِر، وهذا موقوفٌ عليه، فكأنَّه يقول: أَنَّ هناك كبائرَ أخرىٰ جاءت في القُرآن، وهي: الأمنُ من مكرِ الله، والقنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوحِ الله.

قوله: (قوله: أكبر الكَبَائِر الإشراك...)[1] أي: : ليس هناك ذنبٌ أكبرُ من الشركِ، وقلنا: الشِّركُ: إمَّا أَن تصرفَ حقَّ الخالق إلىٰ المَخْلُوق، وإمَّا أَن تُشركَ المَخْلُوقَ مع الخالِق، وهو أنواعٌ كثيرةٌ، قد تشركُ المَخْلُوقَ مع الخالِق في توحيدِ الرُّبُوبِيَّة، فتعتقد أنَّهُ يشاركُ الله في تصريفِ الأمورِ، في الإحياءِ

---

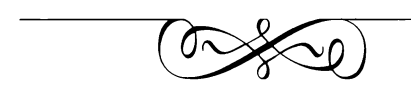
(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٨٧٨٣)، (٩/ ١٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، بَاب في الرَّجَاء من الله تعالىٰ، برقم: (١٠٥٠)، (٢/ ٢٠)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع، بَاب الكَبَائِر، برقم: (١٩٧٠١)، (١٠/ ٤٥٩)، وصححه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٤).

والإماتـة والشـفاءِ والإمـراضِ والعطـاءِ والمنـعِ، فهـذا شِـرْكٌ، ولـيس معنـىٰ أَنَّ قريشـاً كانت تعرفُ توحيدَ الرُّبُوبِيَّـة أَنَّهُـا لـم تُشـركُ فيـه، بلـىٰ قـد أشـركتَ فيـه، فإنهم كانوا يعتقدون أَنَّ بعضَ الأصنامِ تَضرُّ وتنفعُ، وإلا فلماذا يعبُدُونها؟ لكـن لم يجهلوا الخالَقَ، وعندما يقول العُلَمَاءُ: أَنَّ توحيدَ الرُّبُوبِيَّة موجـودٌ في الفطـرةِ ليس معناه أَنَّهُ لا يقعُ فيه شِرْكٌ، إنما مرادهم أَنَّ القُلُوب فيهـا معرفـةٌ بـأَنَّ هنـاك خالقـاً لها، وأنها فقيرةٌ إلىٰ هذا الخالِق، وأنها محتاجةٌ إلىٰ هذا الخـالِق، وإن لـم تعرف اسمَه، هذا في كلِّ قلبٍ، لا يُوَجَدُ قلبٌ ليس فيه هذا المَعْنَىٰ، حتىٰ قلـوبُ الملاحـدةِ، لكـن العنـادَ والاسـتكبارَ والإصـرارَ تجعـلُ الإنْسَـانَ ينكـرُه، وهـذه حقيقةٌ ذكرها القُرآن الكَرِيم، وذكرتهـا السُّـنَّة الشريفة، بـل البـاحثون في العصـر الحَدِيث الذين عملوا استبيانـاً من أستراليا في الشرق إلىٰ أمريكيا في الغـرب لـم يجدوا مُجْتَمَعـاً ليس عنده إحساسٌ بالخالِق أبداً، لكن التربيةَ التي يتربَّـىٰ عليهـا الإنْسَان تكـون سَبَبـاً لإضـلالِه، وأَمَّـا الشـيوعيون فـأفرادٌ يحكمـون المُجْتَمَـع، ليس المُجْتَمَع كلُّه يُنكِرُ الخـالقَ أبـداً، لكـن يُوَجَـدُ أفـرادٌ، بـل هـم في داخلهـم صراعٌ داخلي، نحن نستيقن أَنَّهُ ما من قلبٍ إلا وفيه معرفـةٌ بالخـالِق وإحسـاسٌ به، فتوحيـدُ الرُّبُوبِيَّـة موجـودٌ، لكـن قـد يُوَجَـدُ فيـه الشِّـرك مـع وجـودِه ومعرفـة النَّاس به.

فمـن اعتقـد أَنَّ هنـاك مـن يشـاركُ اللهَ في الـرزق والعطـاءِ والمنـعِ والإحيـاءِ والإماتةِ والنفعِ والضرِ، هذا شِرْكٌ في توحيدِ الرُّبُوبِيَّة.

وأَمَّا المُشركُ في توحيدِ العِبَادَةِ فمثلُ من خَضعَ أو ذَلَّ أو خافَ أو أحبَّ أو توكَّـلَ مـع الله علـىٰ أحـدٍ، فهـذا قـد أشـركَ في توحيـدِ العِبَـادَة، أَمَّـا في الأسـماءِ والصـفاتِ فكمـن اعتقـد أَنَّ أسـماء الله ﷻ كأسـماء خلقِـه، وَأَنَّ صـفاتِ الله كصفاتِ خلقِه، وَأَنَّ أفعالَ الله كأفعالِ خلقه، فهذا شِرْكٌ في هذا التَّوحِيد.

فما من جانبٍ من جوانبِ التَّوْحِيد إلا وقد يدخلُه الشركُ، فمن وقع في هذا الشِّرك فإن الله لا يغفره. أمَّا في توحيدِ الأسماءِ والصفات فقد يقع الإنْسَانُ في الشِّرك فيه عن جهل أو عن اجتهادٍ خاطئ، ربما يكون هذا أخفَّ من الشِّركين الأولين.



قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (والقنوط من رحمة الله) قال أبو السعادات: هو أشد اليأس من الشيء.

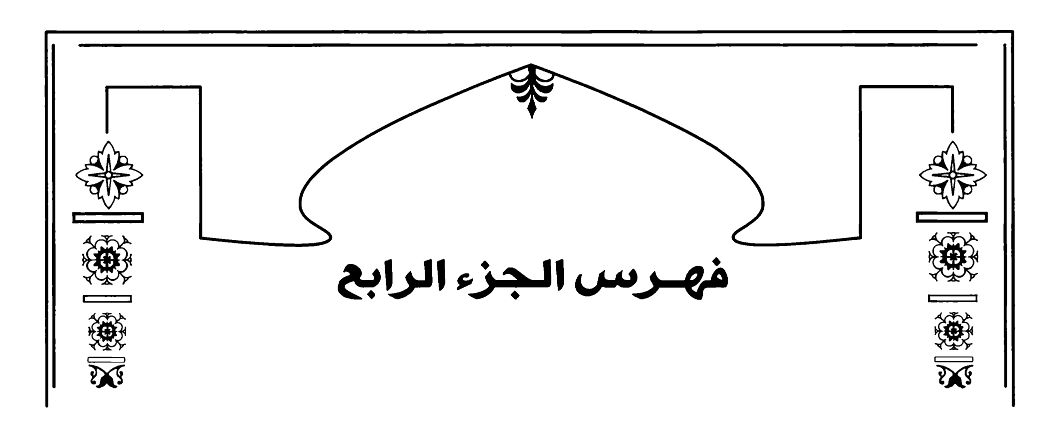
قلت: فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس، كالفرق بين الاستغاثة والدعاء. فيكون القنوط من اليأس، وظاهر القُرآن أَنَّ اليأس أشد؛ لأَنَّه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال، وفيه التنبيه على الجمع بين الرَّجَاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، وكان السَلَف يستحبون أَنَّ يقوى في الصحة الخَوْف، وفي المرض الرَّجَاء، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: وينبغي للقلب أَنَّ يكون الغالب عليه الخَوْف، فإذا كان الغالب عليه الرَّجَاء فسد.

فنسأل الله تعالى أَن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة إِنَّهُ على كل شيء قدير.

الشَّرْح

قوله: (قوله: والقنوط من رحمة...) الفرقُ بين اليأسِ والقُنوطِ ـ والله أعلم ـ أَنَّ القنوطَ أشدَّ من اليأسِ، كما لو سألت إنسانًا عطاءً ولم يعطِك شيئًا حتى يَئِست منه، لكنك مع ذلك واقفٌ عنده لعلَّه يعطيك، فهذا يأسٌ، لكن إذا انصرفت منه وقطعت رجاءك منه نهائيًا وقطعت صلتك به، فهذا القنوطُ ـ ولله المثل الأعلى ـ، فالقنوطُ أشدُّ؛ لَأَنَّه قطعُ الرَّجَاءِ في عطاءِ الخالِق، ثُمَّ الانصرافُ عنه، فالقنوطُ ـ نعوذُ بالله ـ أشدُّ أنواع اليأسِ، فإنه ييأس من رحمة الله ثُمَّ ينصرف عنه وَجَلَّ.

قوله: (فيكون القنوط من اليأس...) يقول: أَنَّ المُسْلِم لابدَّ أَنَّ يكون بين الأمرين، يخافُ ويرجُو، لكن في حال الصِّحة ينبغي أَن يخافَ؛ لَأنَّ الخَوْف يدفعُه للعمل، ويمنعه من الُمحرَّمات، لكن عند المَوْت ينبغي أَن يُغلِّب جانبَ الرَّجَاء؛ لَأنَّه ليست لديه قدرةٌ على أَنَّ يعملَ الخطيئةَ، فما بقي إلا أَنَّ يَرجُو رحمةَ الله عند عجزِه وضعفِه.



فهـرس الجزء الرابع

الـمحتويات **الصفحة**

تم بحمد الله الجزء الرابع

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الخامس والأخير.